

جمهرة رسائل العرب

في

عصور العربية الزاهرة

الجزء الثالث

الشطر الأول من رسائل

العصر العباسي الأول

وهو يحوي رسائل العباسيين من أول خلافة السفاح إلى آخر خلافة المأمون

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقا

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلَّت قدرته ، وعمَّت آلاؤه ، والمصلَّى والمسلَّم عليه سيدنا ومولانا محمد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه البررة الطاهرين .

وبعد : فقد كنت مُزْمِعا أنْ أصدِر الجزء الثالث من « جمهرة رسائل العرب » حاويا رسائلَ العصر العباسى الأول جميعها ، بَيْدَ أنى ـ بعد مباشرة الطبع ـ رأيتها من الكثرة والوفرة بحيث يضيق عنها جزء واحد ، فلم تكن لى مندوحة من أن أقسمها فى جزأين ، يحوى أولهما الشَّطر الأول منها ، وثانيهما الشطر الثانى ، وعلى الرغم من ذلك اضطُرِرت أن أقتطع من سلسلتها الطويلة أربع حَلَقات :

(١) رسالتى الأدب الكبير والأدب الصغير ، لابن المقفع .

(٢) طائفة من رسائل الجاحظ .

(٣) طائفة من الرسائل الشعرية ، لبعض الأدباء .

(٤) رسائل قليلة وردت فى كتابِ « اختيار المنظوم والمنثور » غيرَ معزوَّة إلى ذويها .

وإنما حدا بى إلى انتقاص تلك الحلقات ما رأيته من أن ضمها إلى كتابى يُفْضِى إلى إصدار جزء ثالث فى رسائل هذا العصر ، لا يقل فى ضخامته عن أخويه ، وفى ذلك ما فيه من انفهاق أمر الطبع على « الناشر » وإثقال كاهله بفادح النفقات ، على أن الاطلاع عليها ميسور لمن شاء .

فالحلقتان الأوليان مطبوعتان منشورتان ، طبع المرحوم أحمد زكى باشا « الأدب الصغير » سنة ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م ، و « الأدب الكبير » سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م بمصر ، وأوردهما الأستاذ محمد كُرد على بك فى كتابه « رسائل البلغاء » وقد طبع طبعة أولى سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م ، وثانية سنة ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م بمصر ، غير أنه ورد فيه الأدب الكبير معنونا بعنوان « الدرة اليتيمة » وهو خطأ ، لأن الدرة اليتيمة لا تزال مجهولة مفقودة .

وطبع المرحوم الحاج محمد الساسى التونسى « مجموعة رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، وعدتها إحدى عشرة رسالة ، وقد طُرِّز هامش كتاب « الكامل » للمبرد طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ بكتاب « الفصول المختارة من كتب الجاحظ » اختيار الإمام عبيد الله بن حسان ، ويحوى ثمانى عشرة رسالة - منها تسع من المجموعة الآنفة الذكر - وطبع الأستاذ يُوشَع فِنْكَل « ثلاث رسائل للجاحظ » بمصر سنة ١٣٤٤ هـ - وقد ورد نحو نصف الرسالة الأولى منها فى كتاب الفصول المختارة .

وقد أوردت من الحلقة الثالثة ما اتسع له المقام ، وتقرأ سائرها فى كتب الأدب ، وبخاصَّةٍ كتابُ « الأغانى » فقد ورد فيه طائفة منها فى خلال تراجم كاتبيها .

وأما الحلقة الرابعة ، فقد أغفلتها لِمَا قدَّمتُ ، ولأنه لا يُدْرَى : أأموية هى أم عباسية ؟ لعدم نسبتها إلى أصحابها ، وإن كنت أرجح كل الترجيح أنها عباسية ، ودونك كتابَ « اختيار المنظوم والمنثور » فاقرأها فيه .

وقد نوّهت فى مقدمة الجزء الثانى بهذا الكتاب ، وأعود هنا فأقول : إن ذلك الكتاب - على نفاسته وانفراده بما لم يحوه سواه من الرسائل - لقد عبِثت به يد التحريف ، فشوَّهته كلَّ مشوّه ، حتى بدا كالغادة الحسناء فى خَلَق الرِّداء ، وقد أرهقنى تحقيق ما نقلت منه ، وأمضَّنى ردّه إلى نِصابه ، وعانيتُ فى ذلك السبيل من العناء وكدّ الذهن واعتصاره ما يَبْعَل به الجَلْد الصبور ، ونال منى الجهد كلَّ منال ، حتى

لقد خفت أن يعود على صحتي بالأثر السيئ ، إذ طالما تحبّستُ على تحقيقه ساعاتٍ متعالية ، مُكِبًّا على حلِّ معمَّياته ، وفكِّ طلاسمه ، حتى أكاد أسقط إعياءً وفتورا ، وكنت إذا ما حَزَبني الأمر واشتدت بي الحَيْرةُ ، وضاق بي المَخْرجُ ، أنهض فأصلِّي لله عز وجل ركعتين ، مستلهِماً إياه الصوابَ ، مبتهِلا إليه أن يَهديني سواء السبيل ، ثم أُجيل الفكر ثانيةً ، فلا أعتَمِّ أن ينفتح لي باب المُغْلَق ، وينجاب ظلام المُبْهَم ، وتَضِحَ لي الحقيقة سافرةً ناصعةً ، وتلك نعمة جُلَّى من المولى القدير عليّ ، أعُدّها آيةً على رضاه عني ، فله — تبارك وتعالى — أجلُّ الحمدِ وأسناه ، وأجزلُ الشكر وأوفاه .

ولست أدَّعي أني فيما حققتُ من الرسائل قد بلغت ذروة الكمال — فالكمال لله وحده — ولكني أستطيع أن أجهرَ بأني قد وُفّقت في صنيعي هذا — ولله الحمد والمنّة — إلى حدّ أغبِط عليه نفسي ، وأن ضميري جِدُّ مستريح إلى ما بذلته من جهد في تعبيد طُرُقها ، وتصفية رَنَقِها ، فإن يحمَد القراء صنيعي فذاك ما أصبو إليه ، وإن تكن الأخرى فقد أعذرتُ أمام نفسي ، وأدّيت واجبي غيرَ وانٍ ولا مُلول .

أمدَّنا الله وإياكم برُوح منه ، وكَلَأَنا وكلأكم بعين رعايته وتوفيقه ، إنه العليُّ المنّان ، ذُو الطَّولِ والإنعام ؟

وحرر بالقاهرة في { المحرم سنة ١٣٥٧ / مارس سنة ١٩٣٨ }

أحمد زكي صفوت

فهرس
مآخذ الرسائل فى العصر العباسى الأول

الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : الجزء التاسع ـ الحادى عشر ـ
: السابع عشر ـ التاسع عشر ـ العشرون

تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : الجزء التاسع ـ العاشر ـ الحادى عشر ـ الثانى عشر

تاريخ الكامل : لعز الدين بن الأثير : الجزء الخامس ـ السادس

صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول ـ الثانى ـ السادس ـ
: السابع ـ التاسع ـ الرابع عشر

تاريخ بغداد : للخطيب البغدادى : الجزء الثانى عشر

عيون الأخبار : لابن قتيبة : المجلد الأول ـ الثالث

نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : الجزء السابع

الكامل : للمبرد : الجزء الأول ـ الثانى

العقد الفريد : لابن عبد ربه : الأول ـ الثانى ـ الثالث

زهر الآداب : لأبى إسحق الحصرى : الجزء الأول ـ الثانى ـ الثالث

البيان والتبيين : للجاحظ : الثانى ـ الثالث

شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الثانى ـ الثالث

اختيار المنظوم والمنثور : لابن طيفور : الجزء الثانى عشر ـ الثالث عشر

كتاب بغداد : لابن طيفور : الجزء السادس

معجم الأدباء : لياقوت الحموى : الجزء الأول ـ الثالث ـ الرابع ـ الخامس السادس

معجم البلدان : لياقوت الحموى : الجزء الثانى ـ الخامس

وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول ـ الثانى

الأمالى : لأبى على القالى : « الأول ـ الثانى

الإمامة والسياسة لابن قتيبة : « الثانى

مروج الذهب : للمسعودى : « «

أمالى السيد المرتضى : « الأول

كتاب الأوراق : لأبى بكر الصولى : « الأول ـ الثانى

أدب الكتاب : « « :

فتوح البلدان : للبلاذرى :

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر : لضياء الدين بن الأثير

كتاب الوزراء والكتاب : لابن عبدوس الجهشيارى

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصرى

الفهرست : لابن النديم

غرر الخصائص الواضحة ، وعرر النقائص الفاضحة : للوطواط

الفخرى : لابن طباطبا

خاص الخاص : للثعالبى

رسالة للجاحظ فى بنى أمية [رسالة خطية محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٥ أدب] .

مقدمة ابن خلدون :

مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى البغدادى :

الأدب الكبير : لابن المقفع :

كتاب الصناعتين : لأبى هلال العسكرى :

كتاب البخلاء : للجاحظ :

المواهب الفتحية : للشيخ حمزة فتح الله : الجزء الثانى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك :

الباب الرابع

الرسائل في العصر العباسي الأول

١ — كتاب أبي العباس السفاح إلى الحسن بن قحطبة

دخل أبو مُسْلِم الخراساني[١] زعيم الدَّعْوة العباسية مدينة مَرْو قاعدة خُراسان سنة ١٣٠ ، ثم وجَّه قَحْطَبة بن شَبِيب الطائيّ أحد دُعاة بني العباس في جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصرُ عليهم[٢] ، حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عُمَر بن هُبَيْرَة والياً عليه من قبل مروان بن محمد الأموى ، بَيْدَ أن قحطبة

---

(١) قدمنا فى الجزء الثانى ص ٤٧٦ كلمة فى أبى مسلم فارجع إليها .

(٢) لما دخل أبو مسلم مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار أمير خراسان، وقدم فى هذه السنة قحطبة بن شبيب على أبى مسلم خراسان منصرفا من عند إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ومعه لواؤه الذى عقد له إبراهيم ، فوجهه أبو مسلم حين قدم عليه على مقدمته ، وضم إليه الجيوش ، وجعل له العزل والاستعمال ، وكتب إلى الجنود بالسمع والطاعة له ، وتعبأ قحطبة لقتال تميم ابن نصر بن سيار ، ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل تميم فى المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة و تبيح عسكره ، ثم سار قحطبة إلى نباتة بن حنظلة عامل جرجان من قبل ابن هبيرة أمير العراق ، فقتل نباتة ومزق جيشه ، وبعث برأسه ورأس ابنه حية إلى أبى مسلم — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٠٤ ، ١٠٦ .

غرِق فى الفُرات ، وهو يخوضه إلى ابن هبيرة ، فولَّى أصحابه عليهم ابنه الحسنَ ابن قحطبة ، وحملوا على ابن هبيرة وهزموا عسكره ، فلَحِقَ بمدينة وَاسِط[١] ، وتحصَّن بها .

فلما تمت البيعة لأبى العباس السَّفّاح سنة ١٣٢ ﻫ ، وجَّه أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لقتال ابن هبيرة ، وكتب إلى الحسن بن قحطبة :

« إن العسكر عسكرك ، والقوّاد قوادك ، ولكن أحببتُ أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطِعْ ، وَأحْسِنِ مُوَازَرَتَه ومُكَانَفَتَه[٢] » .

فكان الحسنُ المدبِّرَ لذلك العسكر بأمر المنصور .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٤)

٢ — كتاب المنصور إلى ابن هبيرة

وروى أن يزيد بن عمر بن هُبَيرة أرسل إلى المنصور وهو محصور بواسط والمنصور بإزائه : إنى خارج يوم كذا وكذا وداعيك إلى المبارزة فقد بلغنى تجبينُك إياى ، فكتب إليه :

« يابن هبيرة ، إنك امرؤ متعدَّى طَوْرَك ، جارٍ فى عِنان غَيِّك يَعِدُكَ اللهُ ما هو مصدِّقُه ، ويمنِّيك الشيطانُ ما هو مكذِّبُه ، ويقرِّب ما الله مباعِدُه ، فرُوَيْدًا يُتِمّ الكتابُ أجَلَه ، وقد ضربتُ مَثَلى ومثلَك : بلغنى أن أسدا لقِيَ خِنزيراً ، فقال له الخنزير : قاتِلْنى ، فقال الأسد : إنما أنت خنزير ، ولستَ لى بكفء ولا نظير ، ومتى فعلتُ الذى دعوتَنى إليه فقتلتك قيل لى : قتلتَ خنزيراً ، فلم أعتقِدْ[٣] بذلك فخراً ولا ذكرا ، وإن نالنى منك شىء كان سُبَّةً علىّ ؛ فقال : إن أنت لم تفعل رَجَعت

---

(١) مدينة بالعراق اختطها الحجاج سنة ٨٣ بين البصرة والكوفة .

(٢) كانفه : وازره وعاونه . (٣) من اعتقد ضيعة ومالا : أى اقتناهما .

إلى السباع فأعلمتها أنك نكلت[١] عنى ، وَجَبُنتَ عن قتالى ، فقال الأسد : احتمالُ عارٍ كذلك أيسَرُ علىَّ من لَطخ شاربى بدمك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٠٣ والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٣ — كتاب أبى جعفر المنصور لابن هبيرة بالأمان

وحصر أبو جعفر المنصور ابن هُبيرة شهوراً ، ثم جرت السُّفَرَاء بينهما بالصلح حتى جعل له أبو جعفر أمانا ، وكتب له به كتابا مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رَضِيه ، وأنفذه إلى أبى جعفر ، فأنفذه أبو جعفر إلى أبى العباس ، فأمر بإمضائه[٢] ، وهُوَ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر وَلِىِّ أمر المسلمين ، لِيزيد بن هُبَيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فى مدينة واسِط وأرضِها من المسلمين والمعاهَدين ، ومن معهم من وزرائهم .

إنى أمَّنتكم بأمانِ الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد، وَيَعْلَم ماتُخْفِى الصدورُ ، وإليه الأمرُ كلُّه ، أَمَاناً صادقا لايَشُوبه غِشٌّ ، ولا يخالِطُه باطِلٌ ، على أنفسِكم وذَرَارِيِّكم وأموالكم ، وأعطيتُ يزيدَ بن عمر بن هبيرة ، ومَن أمَّنتُه فى أعلى كتابى هذا ، الوفاءَ بما جعلتُ لهم من عهدِ الله وميثاقِهِ الذى وَاثَقَ به الأمم الماضيةَ مِنْ خَلْقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهدا خالصا ، وذمَّةِ الله وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائِهِ الصالحين ، وأسلافه الطيِّبين ، التى لايَسَعُ العبادَ نَقْضُهَا، ولا تعطيلُ شىء منها ، ولا الاحتقارُ لها ، وبها قامت السمٰواتُ والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ منها ، تعظيما لها ، وبها حُقِنَت الدِّماء ، وذمَّةِ رُوحِ الله وَكَلِمَتِهِ عيسى بن مريم ، وذمةِ إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسْبَاطِ ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ولمن معك من المسلمين ، وأهل الذمة ، بعد استئمارى فيما

---

(١) أى جبنت . (٢) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤ .

جعلتُ لك منه عبدَ اللهِ بنَ محمد[١] أمير المؤمنين ، أعزَّ اللهُ نصره ، وأَمَرَ بإنفاذ لكم ، فاطمئنَّ إلى ماجعلتُ لك من الأمان والعُهودِ والمواثيق ، وثِقْ باللهِ وبأمير المؤمنين فيما سَلَّم منه وَرَضِيَ به ، وجعلتُه لك ، ولمن معك على نفسى ، ولك علىَّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذِّمَم أشدَّ مَا أخَذَ اللهُ وَحَرَّمهُ وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه جعله كتابا مُبينا لا يأتيه الباطِلُ من بين يديه ولا من خَلْفه ، ونُوراً وَحُجَّةً على العباد ، حتى ألْقَى اللهَ وأنا عليه ، وأنا أُشْهِدُ اللهَ وملائكته وَرُسُلَه ، وَمَنْ قُرِئَ عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهَدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، وإقرارى بها على نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ماسألتَ ، لايغادَر منها شىء ، ولا يُنْكَث عليك فيها ، وأدخلتُ فى أمانك هذا جميعَ مَنْ قِبَلِى من شِيعة أمير المؤمنين من أهل خُراسان ، ومَنْ لأمير المؤمنين عليه طاعةٌ من أهل الشام والحرب وأهل الذِّمة ، وجعلتُ لك أنْ لاترَى منى انقباضا ولا مُجانَبة ولا ازْوِرَارا[٢] ولا شيئاً تَكرَهُه فى دخُولك علىَّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينالُ أحداً معك أمرٌ يكرَهه ، وأَذِنتُ لك ولهم فى المَسِير والمُقَام ، وجعلتُ لهم أمانا صحيحا ، وعهدا وثيقا ، وأن عبد الله بن محمد[٣] إنْ نَقَض ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكَثَ أو غدَر بكم ، أو خالف إلى أمرٍ تكرَهه ، أو تابَعَ على خِلافه أحدا من المخلوقين فى سرٍّ أو عَلانية ، أو أضمر لك فى نفسه غيرَ ما أظهرَ لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعةِ والمكْرِ بك ، وإدخالَ المكروه عليك ، أو نَوى غير ماجَعَلَ لك من الوفاء لك به ، فلا قَبِلَ الله منه صَرْفا ولا عَدْلا[٤] ، وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حِجَّةً[٥] يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة واسِط

---

(١) يعنى أبا العباس السفاح . (٢) أى انحرافا . (٣) يعنى نفسه .

(٤) الصرف : التوبة ، والعدل : الفدية ، — انظره بتوسع فى الجزء الأول ص ٢٧ .

(٥) قال صاحب القاموس : والحجه (بالكسر) المرة الواحدة ، شاذ ، لأن القياس الفتح .

إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلا ، وكلّ مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حِجَّة[1] بشراء أو هِبة أحرارٌ لوجه الله ، وكل امرأةٍ له طالق ثلاثا ، وكل مايملكه من ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مَتَاعٍ أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفُرُ بالله وبكتابه المنزّل على نبيه ، واللهُ عليه فيما وَكَّدَ وجَعَلَ على نفسه فى هذه الأَيْمان رَاعٍ وكفيلٌ ، وكفى بالله شهيدا » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١٠٥)

٤ - كتب بين أبى مسلم و أبى العباس و أبى جعفر

وكان رَأْىُ أبى جعفر الوفاء لابن هُبَيرة بما أعطاه ، وكان أبو العباس لا يَقْطَع أمرا دون أبى مسلم ، وكان أبو الجَهْم بن عطية عَيْناً لأبى مسلم على أبى العباس ، فكتب إليه بأخباره كلها ، فكتب أبو مسلم إلى أبى العباس :

« إنه قلَّ طريقٌ سَهْلٌ يُلقَى فيه حجارة إلاَّ ضَرَّ ذلك بأهله[2] ، لاَ واللهِ لا يَصْلُح طريقٌ فيه ابن هبيرة » .

فكتب أبو العباس إلى أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، وألحَّ عليه فى ذلك ، وأبو جعفر يراجعه حتى كتب إليه أبو العباس : « وَاللهِ لتَقْتُلَنَّهُ أو لأبعثَنَّ إليك من يخرجه من عندك ثم يتولى قتله » فقتله أبو جعفر ، وكان ذلك سنة ١٣٢ هـ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٤ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٧)

وجاء فى ترجمة ابن هبيرة فى وَفَيات الأعيان : فيقال إنه كان يكاتب عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح ، وجاءه كتاب أبى مسلم الخراسانى يحثه على قتل ابن هبيرة ، فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله ، فقال : لا أفعلُ وله فى عُنُقى بَيْعة وأيمان ، فلا أُضَيِّعهما بقول

---

(١) الحجة : السنة .

(٢) وفى الطبرى « إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ... » .

أبى مسلم . فكتب إليه السفاح : « إنى لا أقتله بقول أبى مسلم ، بل بنكثه وغدره ودسيسته إلى آل أبى طالب ، وقد أبيح لنا دمه « فلم يجبه المنصور ، وقال : هذا فساد المُلك ، فكتب إليه السفاح : « لستَ منى ولستُ منك إن لم تقتله » .

(وفيات الأعيان ٢: ٢٨٠)

٥ — كتاب صالح بن على إلى أبى العباس السفاح

وكان عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس — عم السفاح — قد سار فى جمع عظيم لِلِقاء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فالتقيا بالزّابِ[1] من أرض المَوْصِل ، فهُزِم مروان وفرّ هاربا حتى أتى الشأم ، وكتب أبو العباس إلى عبد الله بن على يأمره باتّباعه ، فلَحِق مروانُ بمصر ، فأتْبَعه عبد الله أخاه صالح بن على ومعه عامر بن إسمعيل الحارثىّ ، فأدركوه ببُوصِير[2] وقتلوه وقتلوا كل من كان معه من أهله وبطانته .

وبعث صالح بن على برأسه إلى أمير المؤمنين أبى العباس وكتب إليه :

« إنا اتّبعْنا عدوَّ الله الجَعْدىّ[3] ، حتى ألجأناه إلى أرض عدوِّ الله شبيهِ فِرْعَوْن، فقتلته بأرضه » . (تاريخ الطبرى ٩: ١٣٦)

٦ — كتاب أبى العباس إلى عامر بن إسمعيل

ودخل عامر بن إسمعيل بعد أن قتل مروان ببوصير ، واحتوى على عسكره ، إلى الكنيسة التى كان فيها بناته ونساؤه ، فقعد على فراشه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مَرْوان الكبرى — وتعرف بأمّ مروان — ياعامر، إن دهراً أنزلَ مروان عن فُرُشه حتى أقعدك عليها تأكلُ من طعامه ، ليلةَ قَتْلِهِ ، محتويا على أمره حاكما فى مُلكه

---

(١) الزاب الأسفل والزاب الأعلى : نهيران يصبان فى نهر دجلة من شاطئه الأيسر .

(٢) هى بوصير الأشمونين : قرية بصعيد مصر .

(٣) كان مروان بن محمد يلقب بالجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم مولى بنى الحكم .

وحرَمه وأهلِه ، لَقَادِرٌ أن يغيّر ذلك ، فأنهى [١] هذا الكلام إلى أبى العباس السفّاح ، فاستهْجن ما فعله عامر ابن إسماعيل ، وكتب إليه :

« أمَا كان لك فى أدَب الله ما يزجُرُك أن تقعُدَ فى مثل تلك الساعة على مِهاد مَرْوان وتأكل من طعامه ! أمَا والله لولا أن أمير المؤمنين أنزلَ ما فعلته على غير اعتقادٍ منك ، ولا نَهَمٍ على طعام ، لَمسَّك من غضبه ، وأليم أدَبه ، ما يكون لك زاجرا ، ولِغَيْرك واعظا ، فإذا أتاك كتاب أمير المؤمنين ، فتقرَّبْ إلى اللهِ بِصَدَقةٍ تُطفِئُ بها غَضَبه ، وصلاةٍ تُظهِر فيها الخشوعَ والاستكانة [٢] له ، وصُمْ ثلاثة أيام ، وتُبْ إلى الله من جميع ما يُسْخِطه ويُغْضِبه ، ومرْ جميع أصحابك أن يصوموا مثل صيامك [٣] » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٢٠٥)

٧ — كتاب سليمان بن على إلى أبى العباس

قال صاحب العقد الفريد :

وكان أشد الناس على بنى أُمَيّة عبد الله بن على ، وأحنّهم عليهم سليمان بن على ، وهو الذى كان يسميه أبو مسلم « كَنَفَ الأمان » وكان يُجير كل من استجار به ، وكتب إلى أبى العباس :

« يا أمير المؤمنين ، إنا لم نحارِبْ بنى أمية على أرحامهم ، وإنما حارَبْناهم على

---

(١) أنهى الشىء : أبلغه . (٢) الاستكانة : الخضوع .

(٣) وبمناسبة هذا الخبر أقول : روى المبرد فى الكامل — ج ٢ : ص ٢٤٠ — قال : « دخل شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن على ، وقد أجلس ثمانين رجلا من بنى أمية على سمط الطعام فمثل بين يديه فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بنى العباس الأبيات ...

(يغريه ببنى أمية ويذكره بما كان منهم من قتل الحسين وزيد بن على وحمزة بن عبد المطلب وإبراهيم الإمام) فأمر بهم عبد الله فشدخوا بالعمد ، وبسطت عليهم البسط وجلس عليها ودعا بالطعام ، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً » اه وروى ابن طباطبا هذا الحادث فى الفخرى ص ١٣٤ ، غير أنه ذكر أن ذلك كان فى مجلس أبى العباس السفاح ، وأن السفاح هذا الذى فعل بهم ماذكر ، فتأمل.

عُقُوقهم ، وقد دَفَّتْ إليَّ منهم دَافَّةٌ (١) لم يَشْهَروا سلاحاً ، ولم يُكْثِرُوا جَمْعا ، فأُحِبُّ أن تكتب لهم منشور أمان » .

فكتب لهم منشور أمان وأنفذه إليهم ، فمات سليمان بن على وعنده بِضْعٌ وثمانون حُرْمَةً لبنى أمية » . (العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

٨ — كتاب يوسف بن القاسم عن عبد الله ابن على إلى أبى العباس

وكتب يوسف(٢) بن القاسم بن صُبَيْح عن عبد الله بن على إلى أبى العباس السفاح يعزيه عن ابن له تُوُفِّيَ .

« أما بعدُ ، فإن أحقَّ الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جل وعزّ ، مَن كان إماما لِخلق الله ، وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتعَزّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجِع فى وعد الله جل وعز من الصابرين إلى علمك » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

٩ — كتاب يوسف بن القاسم إلى عبد الله بن على

وقال يوسف بن القاسم : كنت مع عبد الله بن على ، وكان يَبَرُّنى كثيرًا ، ويوجِّه بِرَّه مبتدِئاً فى رأس كل شهر ، فغَفَل عنى شهرين فكتبت إليه :

ما لِبِرِّ الأميــر قَصَّرَ عنى ... بعد أَنْ لم أكن أرَى تقصيرا ؟
إن يكن ناسياً فعندىَ إذْ كا ... نَ له دائما عَتِيدا كثيرا(٣)

---

(١) الدافة: الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد، يقال: دفت علينا من بنى فلان دافة: أى أتوا .

(٢) هو والد أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون ، وكان يوسف مع خاله بشر بن سليمان على ديوان الكوفة أيام بنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على فى أول الدولة العباسية بعد أن كان أبوه القاسم يكتب له — انظر خبره فى كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٦ .

(٣) العتيد : الحاضر المهيأ .

أو يَـكُنْ عن إضاقة فلَه العُـذْ رُ متى شاء أن يُرَى معذورا[١]

لِأُرَى خادما بإنفاقِ وَفْرِي وأُرَى ماله له موفورا

إنَّ بِرَّ الأمير عندى (وإن كا ن يراه لديه نَزْرًا يسيرا)

لَـكثيرٌ عندى ، ولم يكُ عَهْدِي أنْ أَرَى الرزقَ عنده محظورا

١٠ — رد عبد الله بن على عليه

فوقع فى رقعتى :

« لم يكن تأخير برِّنا عنك لِبُخل وضَنٍّ ، ولا إهمال وتناسٍ ، لـكنها غفلةٌ مِنْ مُوجِبٍ لحقك عارفٍ ، شَغَله عنك ما يقسِّم قلبه ، مُتَّـكِلا على معرفتك به ، وبَسْطِ عذرك له. على أنى ظننت أنَّ ما كنت عليه أوَّلا قد زال فيما بيننا وبينك ، إذ كنا قد أحللناك على مَحَلِّ الشريك ، وخلَطْناك بأنفُسِنا خَلْطَ النسيب ، لِتُنفق من نفقتنا ، وتَقْرُن أمرك بأمرنا ، وقد أمرت لك بألفَىْ درهم ، رزقك لشهرين ، فاقبِضْهما ، ولا تنتظرنَّ لى أمراً بعدهما فى مثلهما عند وجوبهما ، وأمرتُ لك بألفى درهم تُصْلِح بها حالك ، وقد أطلقتُ بعد هذا يدك فى المال ، لتأخذ منه كفايتك ، وفضلاً يكون عُدَّةً لك لِمـا لا يُؤْمَن من عَثَرات الدهور ، وحوادث الأمور ، فإنك لم تَصْحَبنا إلا بقلب وامِق ، ووُدٍّ صادق ، وإنا لَنحبّ أن يبين عليك لنا أثر محمود تغتبط به وتُغْبَط عليه ، فَاْعمَلْ على ذلك إن شـاء اللّٰه » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٤٧)

---

(١) أضاق : ذهب ماله .

١١ - كتب بين أبى مسلم وأبى العباس وأبى جعفر

ولم يَزَل أبو مُسْلم مقيما بخراسان ، حتى كتب إلى أبى العباس يستأذنه فى القدوم عليه للحج (سنة ١٣٦هـ) - وإنما أراد أن يصلِّىَ بالناس - فأذِن له ، وكتب إليه أنِ : « اقدَمْ فى خمسمائة مِنَ الجُنْدِ » . فكتب إليه أبو مسلم : « إنِّى قد وَتَرْتُ الناسَ ، ولستُ آمَنُ على نفسى » . فكتب إليه أبُو العباس أنْ : « أَقْبِلْ فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريقُ مكةَ لايحتمل العسكر » .

وكتَبَ أبو العباس إلى أبى جعفر - وهو على الجزيرة وأرمينِية وَأَذْرَبيجان - : « إن أبا مسلم كتَبَ إلىَّ يستأذن فى الحج ، وقد أَذِنْتُ له ، وقد ظننتُ أنه إذا قَدِمَ يُرِيد أن يسألنى أن أُولِّيَه إقامةَ الحج للناس ، فاكتُبْ إلىَّ تستأذننى فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدَّمك » . فكتب أبُو جعفر إلى أبى العباس يستأذنه فى الحج ، فأذِن له فوافَى الأَنْبَارَ .

وشَخَصَ أبومسلم فى ثمانية آلاف فرَّقهم فيما بين نَيْسَابُور والرَّى ، وقَدِم بالأموال والخزائن فخلَّفها بالرَّىِّ ، وشَخَص منها فى ألف ، وأقبل إلى أبى العباس فأَعْظَمَه وأكرمه ، ثم استأذن أبا العباس فى الحج فأَذِن له ، وقال : لولا أن أبا جعفر حاجٌّ لوليتُكَ الموسِمَ .

وقد قال أبو مسلم : أمَا وجد أبو جعفر عاما يَحُجُّ فيه غير هذا ! واضطغنها عليه .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ ، ١٥٩)

١٢ — كتاب لعمارة بن حمزة عن أبى العباس فى وفاة داود بن على

ومن أبى العباس فى وفاة داود[١] بن علىّ عمِّه ، لعُمارة[٢] بن حمزة :

« فإن داود بن علىّ كان فى قرابته بأمير المؤمنين بحيثُ قد علمتَ ، مع طاعته وسُنَّته[٣] وبِرِّه بأهل بيته ، فقبَضه الله فى طاعة أمير المؤمنين ومناصحته ، فلم يَكرَه أميرُ المؤمنين — مع عِزَّة داود كانت عليه ، ومنزلته فى أهل بيته — الذى أظهر له من قضاءِ الله عز وجل فيه ، رضاً بقضاء الله عليه ، ورغبةً فى ثوابه ، فرَحِمَهُ الله وغفرَ له ، فقد كان مكانُه مكانَ أُنْس ، فليكن الذى ظهر لأمير المؤمنين من محبة الله فى أقضيته عليه ، أحبَّ إلى أمير المؤمنين أن يُعظِّم له الأجرَ ، ويُحْسِن عليه الخلافةَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

---

(١) ولاه السفاح الكوفة وسوادها ، ثم عزله عنها وولاه المدينة ومكة واليمن واليمامة . ومات بالمدينة فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ .

(٢) هو عمارة بن حمزة مولى السفاح ، ثم مولى أبى جعفر المنصور وكاتبه ، وكان فصيحاً بليغاً ، وكان أعور ذميما تائها معجبا ، وكان المنصور والمهدى بعده يقدمانه ويحتملان أخلاقه ، لفضله وبلاغته وكفايته ووجوب حقه ، وولى لهما أعمالا كبارا ، (ومن ذلك أن ولاه المنصور سنة ١٥٦ كور دجلة والأهواز وفارس ، وكان سنة ١٥٨ على ديوان خراج البصرة وأرضها) وله رسائل من جملتها رسالة الخميس التى كانت تقرأ لبنى العباس (وسيأتى الكلام عنها فى شرح رسالة الخميس لأحمد ابن يوسف) — انظر أخباره فى الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ٦ : ٣ (طبع مطبعة هندية) وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٩٣ وتاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٨ ، ٣٢٦ .

(٣) السنة : الطريقة المحمودة المستقيمة ، وفى الأصل « وسنه » .

١٣ — كتاب أبي مسلم إلى أبي جعفر

وروى أن أبا جعفر حرَّض أبا العباس على قتل أبى مسلم حين قَدِم عليه، وما زال به حتى وافقه على قتله ، ثم عَدَل عن إنفاذه[١] .

قال ابن قُتَيْبَة فى الإمامة والسياسة :

وذكروا أن أبا مسلم لما رجع من عند أبى العباس ، وقد قيل له بالعراق : إن القوم أرادوك[٢] لولا ما توقَّعوا ممن معك من أهل خراسان ، فلما كان فى بعض الطريق كتب إلى أبى جعفر :

« أما بعد : فإنى كنت قد اتخذتُ أخاك[٣] إماما ودليلا على ما افترض الله عَلَى خَلْقه ، وكان فى مَحَلِّه من العلم وقَرابتِه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيثُ كان ، فَتَمَعَنِي بالفِتْنة ، واستجهلَنى بالقرآن ، فحرَّفَه عن مواضعه طَمَعا فى قليل قد نعاه الله إلى خَلْقه ، فمثَّلَ الضَّلَالة فى صورة الهدى ، فكَان كالذى ضلَّ بغروره ، حتى وَتَرْتُ أهلَ الدين والدنيا فى دينهم ، واستحلَلْتُ بما كانَ من ذلك من اللهِ النِّقْمة ، ورَكِبْتُ

(١) قال أبو جعفر لأبى العباس : يا أمير المؤمنين ، أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة ، فقال يا أخى قد عرفت بلاءه وما كان منه ، فقال أبو جعفر : يا أمير المؤمنين ، إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ مابلغ فى هذه الدولة، فقال له أبو العباس : فكيف نقتله؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك ، دخلت فتغفلته فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ، فقال أبو العباس : فكيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ قال : يئول ذلك كله إلى ما تريد ، ولو علموا أنه قد قتل تفرقوا وذلوا ، قال : عزمت عليك إلا كففت عن هذا ، قال : أخاف والله إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غدا ، قال : فدونكه فأنت أعلم ، فخرج أبو جعفر من عنده عازما على ذلك ، فلما دخل أبو مسلم على أبى العباس بعث أبو العباس خصياله فقال : اذهب فانظر مايصنع أبو جعفر ، فأتاه فوجده محتبيا بسيفه ، فقال للخصى : أجالس أمير المؤمنين ؟ فقال له : قد تهيأ للجلوس ، ورجع الخصى إلى أبى العباس فأخبره بما رأى منه فرده إلى أبى جعفر وقال له : قل له عزمت عليك أن لا تنفذ الأمر الذى عزمت عليه ، فكف أبو جعفر — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٣ والإمامة والسياسة ٢ : ١٠٩ .

(٢) أى أرادوا قتلك . (٣) يعنى أخاه إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وقد قدمنا لك خبره فى الجزء الثانى ص ٤٧٥ .

المعصيةَ فى طاعتكم وتوطِئةِ سلطانكم ، حتى عَرَفكم من كانَ يجهلكم ، وأوطأتُ غيركم العَشْوَاءَ[1] بالظلم والعُدْوَان ، حتّى بلغتُ فى مشيئةِ الله ما أحبَّ .

ثم إن الله بمَنِّه وكَرَمه أتاح لى الحسنةَ ، وتدارَكَنى بالرحمة ، واستنقذَنى بالتوبة[2] ، فإن يغفِرْ فقديما عُرِف بذلك ، وإن يعاقِب فبما قدَّمَتْ يداى ، وما الله بظلّامٍ للعبيد » . (الإمامة والسياسة ٢ : ١١٠)

١٤ — رد أبى جعفر على ابى مسلم

فكتب إليه أبو جعفر :

« أرُوم ما رُمْتَ ، وازول حيث زُلْتَ ، ليس لى دونك مَرْمى ولا عنك مَقصَر ، الرأىُ ما رأيتَ ، إن كنت أنكرتَ من سيرته شيئاً ، فأنت الموفَّق للصواب ، والعالِمُ بالرَّشاد ، أنا من لا يعرِف غير يديك ، ولم يتقلَّب إلا فى فضلك ، فأنا غير كافِر بنعمتك ، ولا مُنكِر لإحسانك ، لا تَحمِلْ عَلَىَّ إصْرَ[3] غيرى ، ولا تُلْحِق ما جناه سِواى بى ، إنْ أمَرْتنى أن أشْخَصَ إليك وَأَلحَقَ بخراسان ، فعلتُ ، الأمرُ أمرك ، والسلطانُ سلطانك ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ٢ : ١١٠)

١٥ — كتاب من الخليفة إلى ولى العهد[4] لعبد الله بن على

« فإنّ نعم الله على أمير المؤمنين باطنة وظاهرةً متكافئةٌ منزلتاهما ، وإن تفاضَلَتا فى أحوالهما ، وقد شَرِكْتَ فى كل ذلك أميرَ المؤمنين ، وخُصِصْتَ بما تعتَدُّ به منه ، ووَجَب عليك الشكرُ لله به ، كوجوبه على أمير المؤمنين ، لجزالة قَسْمك من نعمة الله

---

(١) العشواء : الظلمة . (٢) تهديد بأنه سيكف عن نصرتهم ويرجع عن معونتهم .

(٣) الإصر : الذنب .

(٤) يعنى أبا جعفر المنصور ، وكان أبو العباس السفاح قد ولاه سنة ١٣٢ على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، فظل أميرا على الجزيرة حتى مات السفاح سنة ١٣٦ — انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ .

عنده ، وسرورك به كسروره ، وسُكونك إليه كسكونه ، وأحَبَّ أميرُ المؤمنين لذلك أن يُتابعَ إليك كتبَه بما يعرِّفه الله من نعمه وآلائه ، وإدامتِه له السلامةَ فى بدنه وولده وأهل بيته وشيعته وأنصاره وسائر المسلمين قِبَلَه ، وفى أطرافه وأقاصيه[١] ، فكتب إليك أمير المؤمنين وهو فى سلامة بدنه وسُبُوغ[٢] نعم الله عليه فى نفسه وكُلّ من قِبَله ، وولايةِ الله إياه بأحسن ما رجَا منه ، وأمَّل من فضله ، واتّسَقت رعيته إليه وما يتناهى إليه ثغوره وأطرافه ، من سلامة أهلها ، واجتماع كلمتهم ، وحسن طاعتهم ، وصلاح ذات البَيْن ، على أفضل مالم يَزَلِ اللهُ يُوليه ويُبْليه[٣] ، ويمتَنُّ به عليه فى ذلك كله ، وأميرُ المؤمنين يحمَدُ الله على قديم نعمه عنده وحديثها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ويسأله إعانته على التأدية لشكره بها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٣)

١٦ — كتاب صالح بن على فى السلامة

وكتب صالح[٤] فى السلامة :

« أصلحَ اللهُ أمير المؤمنين وحفِظَه وأمتعَ به ، وأحسَن جزاءه ، وتولّى له أمرَ آخرته ودنياه ، فإن الله بحمده ونعمته لم يَزَل يُبْلِى أميرَ المؤمنين ويعرِّفه فى كل ما يقضى إليه ، ويعزِمُ له عليه فى أموره : مِنْ حُسْنِ الصُّنع والوِلاية والحِفظ والكِفاية والحِيطة وإسْبَاغ النعمة ، أفضلَ أملِه وأملِنا له ، وأعظمَ رجائِه ورجائنا فى حسن المدافعة عنه ، إلى أن وَصَلَ ذلك من نعمه عنده بما توحَّد به فى وَجْهه وسَفَره : من السلامة ، وسُبُوغ النعمة ، وعمومِ العافية فى نفسه وخاصَّته وعامته ، وأَقْدَمَهُ منزلَهُ وَمَحَلَّه مُعَافًى مُسَلَّما

---

(١) فى الأصل « وأوقافه » وهو تحريف . (٢) أى تمامها .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان . أبلاه الله : أنعم عليه .

(٤) يعنى صالح بن على بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاه السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ، ثم ولاه مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح فى ذى الحجة سنة ١٣٦ فأقره المنصور على عمل مصر ، ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو عامل حمص بقنسرين — انظر النجوم الزاهرة الجزء الأول .

محفوظا من الله ، إحساناً منه إليه ، وإفضالا وإنعاما عليه ، واختصاصاً له ، والله يمتّع أميرَ المؤمنين ، ويتمِّم له أحسن بلائِه عنده وعندنا فيه بمَنّه ولطفِه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٢)

١٧ — كتاب عبد الله بن صالح فى السلامة

وكتب عبد الله بن صالح فى السلامة :

« فإنى من إعظامِ حقِّ أمير المؤمنين ، وشكرِى بلاءه ، والاعتدادِ بما يجدِّد الله له من النعم عليه ، وعظيم الأمل فيه ، والرجاء له ، والاستشرافِ[1] إلى علم حاله فى خواصِّه وعوامِّه ، عَلَى أفضل ما عليه أحدٌ من أهل بيته وذوى قرابته ، لم يزل الله عز وجل يعرِّفنى من صِلته وعائدته ، ويُحْدث عندى من كريم فعاله ، الذى أصبحتُ — يعلمَ الله — محتملا له بأخلصِ الشكر وأحسنِ الذكر ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بالكتاب إلىّ من سلامته بما يبسُطُ به أملى ، وتَعْظُم به النعمةُ من الله لدىّ ، ويجب به الشكرُ علىّ ، فعَلَ والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٢)

١٨ — بين أبى مسلم وأبى جعفر

وحج أبو جعفر سنة ١٣٦ هـ وحج معه أبو مسلم ، فلما انقضى المَوسِمُ أقبلا ، وأتى أبا جعفر وهو فى الطريق كتاب من عيسى بن موسى[2] بموت أبى العباس ، وكان أبو جعفر قد تقدم أبا مسلم بمَرْحَلَة[3] ، فكتب إلى أبى مسلم : « إنه قد حَدَثَ أمر فالعَجَلَ العَجَلَ » وأقبَلَ حتى لِحقَ أبا جعفر وأقبلا إلى الكوفة .

وقيل إن أبا مسلم كان هو الذى تقدم أبا جعفر فعرَفَ الخبر قبله ، فكتب إلى أبى جعفر :

---

(١) أى والتطلع .

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو ابن أخى المنصور والسفاح . وكان السفاح قد جعل له الخلافة من بعد أبى جعفر .

(٣) المرحلة : المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم .

« بسم الله الرحمن الرحيم : عافاك الله وأمْتَعَ بك ، إنه أتانى أمر أَفْظَعَنى » وَبَلَغ منى مَبْلَغا لم يبلُغْه شىء قطُّ ، لَقِيَنى محمد بن الُحصَين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبى العباس أمير المؤمنين رَحِمَه الله ، فنسأل الله أن يُعْظِم أجرك ، ويُحْسِن الخلافة عليك ، ويبارك لك فيما أنت فيه ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصْفَى نصيحةً لك وحِرْصا على مايسرك منى » .

وأنفذ الكتاب إليه ، ثم مكث أبو مسلم يومَه ومن الغد ، ثم بعث إلى أبى جعفر بالبيعة — وإنما أراد ترهيب أبى جعفر بتأخيرها — .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٤ ، ١٥٥)

١٩ — كتاب أبى جعفر إلى عبد الله بن على

وَوَلِىَ أبو جَعفر الخلافة ، وكان عمُّه عبد الله بن علىّ بالشأم ، وكان السَّفَّاحُ قد وجَّهه لقتال مَرْوَان بن محمد الأموى ، فطمِع عبد الله فى الخلافة ، وخطب الناس فقال : إن السفاح نَدَب بنى العباس لقتال مروان فلم يَنْتَدِب[1] غيرى ، وقد قال لى : إنه ظَهَرْتَ عليه ، وكانت الغَلَبة لك ، فأنت ولىُّ العهد بعدى ، وشهِدَ له جماعة بذلك فبايَعه الناس[2] .

فلما بلغ المنصور ذلك من فعل عبد الله كتب إليه :

« سأجعل نفسى منك حيثُ جَعَلْتَهَا   وللدهر أيامٌ لهن عواقِبُ »

(مروج الذهب ٢ : ٢٣٤)

٢٠ — كتاب الأمان لعبد الله بن على (كتبه ابن المقفع)

ثم بعث المنصور أبا مسلم لقتاله فهزمه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخويه سليمان وعيسى ابنى على ، فَشَفَعا فيه إلى المنصور وطلبا له الأمان ، فقبِل شفاعتهما

---

(١) يقال : ندبه للأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب .

(٢) انظر الخبر فى الفخرى ص ١٥٠ وفى غيره .

واتفقوا أن يكتبوا له أمانا منه ، وكان عبد الله[1] بن المقفع كاتباً لعيسى بن على ، فكتب ابن المقفع الأمان وشدّد فيه، حتى قال فى جملة فصوله: « ومتى غَدَر أمير المؤمنين بعمِّه عبد الله بن على فنساؤه طَوالِقُ ودَوابُّه حُبُس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بيعته » .

فلما جاء عبد الله إلى المنصور حبسه ومات فى حبسه ، فقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل فى أساسه ملحا ، ثم أجرى الماء فيه فسقط البيت عليه فمات[2] ، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ .

(وفيات الأعيان ١ : ١٥٠ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤)

* * *

وجاء فى كتاب الوزراء والكتاب :

وكان ابن المقفَّع يكتب لعيسى بن على ، فأمره عيسى بعمل نسخة للأمان لعبد الله ، فعَمِلها ووكّدَها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها ، وتردّدَت بين أبى جعفر وبينهم فى النسخة كتب ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط . ولم يتهيأ لأبى جعفر إيقاع حيلة فيها ، لفَرْط احتياط ابن المقفع ، وكان الذى شَقّ على أبى جعفر أَنْ قال فى النسخة :

يوقع بخطه فى أسفل الأمان :

وإن أنا نِلتُ عبدَ الله بن علىّ أو أحداً ممن أَقْدَمه معه بصغيرٍ من المكروه

---

(١) هو أحد فحول الكتاب المعروفين ، فارسى الأصل ، نشأ بالبصرة فى أواخر الدولة الأموية ، وكان يكتب لداود بن عمر بن هبيرة، ولما قامت الدولة العباسية اتصل بعيسى بن على عم السفاح والمنصور أيام ولايته على كرمان ، وكتب له واختص به ، وأسلم على يديه ـ وكان قبل مجوسيا ـ وهو أحد النقلة من اللسان الفارسى إلى العربى ، وكان مضطلعا باللغتين فصيحا بهما ، وكان يتهم بالزندقة ، وقتل سنة ١٤٢ هـ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤٩ (فى خلال ترجمة الحسين بن منصور الحلاج) وفى الفهرست لابن النديم ص ١٧٢ وفى تاريخ الحكماء لابن القفطى ص ٢٢٠ طبع أوربة وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩ وكتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١١٠ وأمالى السيد المرتضى ١ : ٩٤ والفصول المختارة من كتب الجاحظ (على هامش الكامل للمبرد) ١ : ٣٢ وطبقات الأطباء ١ : ٣٠٨ .

(٢) انظر تاريخ الطبرى ٢٦٥ والفخرى أيضا.

أو كبير ، أو أوصلتُ إلى أحد منهم ضررا : سِرًّا وعَلانيةً ، على الوجوه وَالأسباب كلِّها ، تصريحاً أو كنايةً ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفيٌّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لِغير رشْدَةٍ[1] ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خَلْعِي وَحَرْبى والبراءةُ منى ، ولا بَيْعَةَ لى فى رقاب المسلمين ولا عَهْد ولا ذمّة ، وقد وجب عليهم الخروجُ من طاعتى ، وإغاثةُ مَنْ ناوَأنى من جميع الخلق ، ولا موالاةَ بينى وبين أحد من المسلمين .

وهو متبرِّئ من الحول والقوة ، ومُدَّعٍ إن كان أنه كافِر بجميع الأديان ، ولقِيَ ربَّه على غير دين ولا شريعة ، محرَّمُ المأكَلِ والمشرَب وَالمَناكِحِ ، وَالمرْكَب وَالرِّق ، وَالمِلْك ، وَالمَلبَس ، على الوجوه والأسباب كلها .

وكتبتُ بخطى ، ولا نِيَّةَ لى سواه ، ولا يقبَلُ الله منى إلا إياه ، والوفاء به » .

(كتاب الوزراء والكتاب ص ١١٠)

٢١ — كتاب أبى جعفر إلى أبى مسلم

ولما ظفِر أبو مسلم بعسكر عبد الله بن على ، بعث أبو جعفر مولاه أبا الخصِيب إلى أبى مسلم ، ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فهمّ أبو مسلم بقتله ، فَكُلِّمَ فيه ، وقيل له إنما هو رسول نخلِّ سبيله ، فلما رجع إلى أبى جعفر أخبره بما كان ، نخاف أن يَمضِيَ أبو مسلم إلى خراسان ، فكتب إليه كتابا مع يَقْطين بن موسى أن :

« قد وليّتك مصر والشأم ، فهى خير لك من خُراسان ، فوجِّهْ إلى مصر من أحببت ، وأقِم بالشأم فتكونَ بقُرْب أمير المؤمنين ، فإن أحبّ لقاءك أتيته من قريب » .

---

(١) يقال : هذا ولد رشدة : إذا كان لنكاح صحيح ، كما يقال فى ضده : ولد زنية ، بالكسر فيهما والفتح .

فلما أتاه الكتاب غضِبَ وقال : هو يوليني الشأم ومصر ، وخراسانُ لى ! واعتزم أن يمضى إلى خراسان ، فكتب يقطين إلى أبى جعفر بذلك .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢٢ — كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر

وروى أن المنصور بعث يقطين وأمره أن يُحْصِىَ ما فى العسكر ، فقال أبو مسلم : يا يقطين ، أمين على الدماء خائن فى الأموال ! وشَتَم أبا جعفر ، فأبلغه يقطينُ ذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مُجْمِعاً على الخلاف ، وخرج من وجهه يريد خراسان ، وخرج أبو جعفر من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبى مسلم فى المصير إليه ، فكتب أبو مسلم وقد نزل الزَّابَ وهو على الرَّواح إلى طريق حُلْوان :

« إنه لم يَبْقَ لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدوٌّ إلا أمكنَهُ اللهُ منه ، وقد كنا نَرْوِى عن ملوك آل ساسان : إن أخوفَ ما يكون الوزراء ، إذا سَكَنَتِ الدَّهْماء[1] ، فنحن نافِرُون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيتَ ، جَرِيُّون بالسمع والطاعة ، غيرَ أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، فإن أبيتَ إلا أن تُعْطِىَ نفسك إرادتَها نَقَضْتُ ما أبرمتُ من عهدك ضِنًّا بِنَفْسِى » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢٣ — رد أبى جعفر على أبى مسلم

فلما وصل الكتاب إلى أبى جعفر كتب إليه :

« قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفةَ أولئك الوزراء الغَشَشَةِ ملوكَهم ، الذين يتمنَّوْن اضطراب حَبْل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإنما راحتُهم فى انتشار نِظامِ

---

(١) الدهماء : جماعة الناس .

الجماعة ، فلِمَ سوَّيتَ نفسَك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعِك[1] بما حَمَلْتَ من أعباء هذا الأمر ، على ما أنت عليه ، وَليس مع الشَّريطة التى أوجبتَ منك سماعٌ ولا طاعة ، وحَمَّلَ إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالةً لِتَسْكُنَ إليها إن أصغيتَ إليها ، وأسأل الله أن يَحُول بين الشيطان ونَزَغَاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يُفسِدُ به نيَّتك أوكَدَ عنده وأقربَ من طِبِّه[2] ، من الباب الذى فتحَه عليك » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦١)

٢٤ — كتاب أبى مسلم إلى أبى جعفر

وروى الطبرى أن أبا مسلم كتب إلى أبى جعفر[3] :

« أما بعد ، فإنى اتخذت رَجُلا[4] إماما ودليلا على ما افترض الله على خَلْقه ، وكان فى مَحَلَّةِ العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً ، فاسْتَجهلَنى بالقرآن فحرَّفه عن مواضعه طَمَعا فى قليل قد نَعاه[5] الله إلى خَلْقِهِ ، فكان كالذى دُلِّيَ[6] بغُرور ، وأمرَنى أن أجرِّد السيف ، وأرْفَعَ الرَّحمة ولا أقبل المعذِرة ، ولا أُقِيل العَثْرة ، ففعلتُ ، توطيداً لسلطانكم ، حتى عرَفكم من كان جَهِلكم ، ثم استنقذَنى الله بالتوبة ، فإن يعفُ عنى ، فقِدْما عُرِف به[7] ونُسِبَ إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدَّمَت يداى ، وما الله بِظَلَّامٍ للعبيد » .

---

(١) اضطلع بالأمر : قوى على حمله . (٢) الطب : السحر .

(٣) قدمنا فى ص ٢٠ أن ابن قتيبة روى أن هذا الكتاب كتبه أبو مسلم إلى أبى جعفر فى خلافة أبى العباس ، وقد أورده بصورة تخالف رواية الطبرى بعض المخالفة كما يتضح بمراجعة الروايتين ، ثم أورد رد أبى جعفر عليه . (٤) يعنى أخاه إبراهيم الإمام كما تقدم .

(٥) فى الأصل « تعافاه » وهو تحريف .

(٦) أى أطمع ، انظر تفسيره فى الجزء الأول ص ٩٤ .

(٧) الضمير فيه يعود على العفو المفهوم من فعله السابق ، على حد قوله تعالى : « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »

وقدما : قديما .

وخرج أبو مسلم يريد خراسانَ مُراغِماً[١] مُشاقًّا وأخَذ طريقَ حُلوان ، وقال أبو جعفر لعيسى بن على وعيسى بن موسى ، ومن حَضَرَه من بنى هاشم : اكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه : « يعظِّمون أمره ويشكرون ما كان منه ، ويسألونه أن يَتِمّ[٢] على ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذِّرونه عاقبة الغَدر ، ويأمرونه بالرجوع إلى أمير المؤمنين، وأن يلتمس رضاه » . وبعث إليه بالكتاب مع رسول له ، وتقدَّمَ إلى الرسول أن يُلاينه وَيَعِدَه ويُمَنِّيه ، فإن أبى أن يرجع تَهدَّده وتَوَعَّده[٣] ، فأنفَذَ الرسول ما أُمِرَ به .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٢)

٢٥ — كتاب أبى جعفر إلى أبى داود

وكان أبو جعفر قد كتب إلى أبى داود — وهو خليفة أبى مسلم بخراسان — حين اتَّهم أبا مسلم : « إن لك إمْرَةَ خراسان ما بقيت » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

---

(١) راغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . وشاقهم : خالفهم .

(٢) يقال : تم على الأمر وتمم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

(٣) بعث إليه أبا حميد المروروذى وقال له « كلم أبا مسلم بألين ماتكلم به أحدا ، ومنه ، وأعلمه أنى رافعه وصانع به ما لم يصنعه به أحد إن هو صلح وراجع ما أحب ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لست للعباس ، وأنا برىء من محمد — إن مضيت مشاقا ولم تأتنى — إن وكلت أمرك إلى أحد سواى، وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى، ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ، ولا تقولن له هذا الكلام حتى تأيس من رجوعه ولا تطمع منه فى خير » فسار إليه أبو حميد ، حتى قدم عليه بحلوان ، ودفع إليه الكتاب ، وجعل يتلطف معه فى القول ،فكان جوابه: ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه » قال : قد عزمت على خلافه ؟ قال : نعم ، قال : لاتفعل ، قال : ما أريد أن ألقاه . فلما آيسه من الرجوع قال له ما أمره به أبو جعفر ، فوجم طويلا ، وكسره ذلك القول ورعبه ، ووافاه كتاب أبى داود (الآتى) على تلك الحال فزداه رعبا وهما ، وتضعضع رأيه ، وكتب إلى أبى جعفر يخبره أنه منصرف إليه .

٢٦ — كتاب أبي داود إلى أبي مسلم

فكتب أبو داود إلى أبي مسلم :

« إنا لم نخرُج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تُخالِفَنَّ إمامك ، ولا ترجِعنّ إلا بإذنه » .

فرجع إلى أبي جعفر ، فأَمهله ثم قتله[1] . (وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ) .

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٦٣)

٢٧ — رسالة عبد الله بن المقفع فى الصحابة « كتبها للمنصور »

« أما بعد — أصلح الله أميرَ المؤمنين ، وأتمّ عليه النعمةَ ، وألبسه المُعافاةَ والرحمةَ — فإن أمير المؤمنين — حفظه الله — يَجْمع مع علمه المسألةَ والاستماع ، كما كان

(١) سار أبو مسلم إلى أبى جعفر فلما دنا من المدائن أمر أمير المؤمنين الناس فتلقوه ، فلما دخل على أبى جعفر أدناه وأكرمه ، ثم قال له انصرف ياعبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ثم اغد علىّ ، فلما أصبح أرسل إليه فأتاه ، وكان المنصور قد أحضر أربعة ممن يثق بهم من الحرس ، وقال لهم : كونوا خلف الرواق فإذا صفقت فاخرجوا فاقتلوه ، فلما دخل عليه أبو مسلم قال له : أخبرنى عن سيفين وجدتهما فى عسكر عبد الله بن على ، فقال أبو مسلم : هذا أحدهما . وكان فى يده سيف، فأخذه أبو جعفر ووضعه تحت فراشه ، ثم أقبل عليه يعاتبه ويقرعه ، ويقول له : فعلت وفعلت ، وهو يعتذر إليه مما اتهمه به ، حتى قال له : فراغمتك وخروجك إلى خراسان ؟ قال . خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى ، ثم قال له : يا أمير المؤمنين ليس يقال هذا لى بعد بلائى وما كان منى، فقال : يابن الخبيثة ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء لفعلت مافعلت ، إنما عملت ماعملت فى دولتنا وبريحنا، ولو كان ذلك إليك ماقطعت فتيلا ، ثم ضرب بيديه فخرج أولئك النفر فخبطوه بالسيوف ، فصاح: ياأمير المؤمنين استبقنى لعدوك ، فقال المنصور : لاأبقانى الله إذن ، وأى عدو لى أعدى منك ! ثم أمر به فلف فى بساط .

ودخل عيسى بن موسى بعد قتله — وكان قد كفل بأمانه حين أمنه المنصور — فقال : ياأمير المؤمنين، أين أبو مسلم . قال : قد كان هاهنا آنفا ، فقال عيسى : ياأمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأى الإمام إبراهيم كان فيه ، فقال : يا أنوك (أى يا أحمق) والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه، هاهو ذاك فى البساط ، فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ فقال له المنصور : خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ! — انظر تاريخ الطبرى (٩ : ١٦٧ والفخرى ص ١٥٣) .

وُلاة الشرّ يجمعون مع جهلهم العُجْبَ والاُستغناء ، ويستوثِق لنفسه بالحجّة ، ويتخذها على رعيته فيما يَلْطف له من الفحص عن أمورهم ، كما كان أولئك يكتفون بالدَّعَة ، ويرضَوْن بدُحُوضِ[1] الحجة ، وانقطاعِ العُذْر فى الامتناع أن يجترئ عليهم أحدٌ برأْيٍ أو خبرٍ ، مع تسليط الذِّئاب[2] ، وقد عَصَمَ الله أمير المؤمنين — حين أهلك عدوَّه ، وشَفَى غَليلَه ، ومكَّنَ له فى الأرض ، وآتاه مُلكها وخزائنَها — من أن يَشْغَلَ نفسه بالتمتُّع والتفيُّش[3] ، والتأثُّل والأخلاء[4] ، وأن يَرْضَى ممن آوى[5] بالمَتَاع به ، وقضاءِ حاجةِ النفس منه ، وأكرم اللهُ أمير المؤمنين باستهانةِ ذلك واستصغارِه إياه ، وذلك من أبْيَنِ علاماتِ السعادة ، وأنجحِ الأعوان على الخير ، وقد قصَّ الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب : أنه لمَّا تمّت نعمةُ الله عليه ، وآتاه المُلْكَ ، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ، وجَمع له شَمْله ، وأقرَّ عينَه بأبويه وإخْوته ، أثنَى على الله عزَّ وجل بنعمته ، ثم سَلاَ عما كان فيه ، وعرَفَ أن الموت وما بعده هو أَوْلَى ، فقال : « تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ » .

وفى الذى قد عرَفْنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجِّع ذا الرأى على تناوله بالخبَر فيما ظَنَّ أنه لم يُبْلِغه إياه غيرُه ، وبالتذكير بما قد انتهى إليه ، ولا يَزيدُ صاحبُ الرأى على أن يكون مُخبِرا أو مُذكِّرا ، وكلٌّ عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله ، مع أن مما يَزيد ذوى الألباب نشاطاً إلى إعمال الرأى فيما يُصْلِح الله به الأمةَ فى يومها ، أو غابرِ دهرها ، الذى أَصبحوا قد طمِعوا فيه ، ولعل ذلك أن يكون على يَدَىْ أمير

---

(١) دحضت الحجة كمنع دحوضا : بطلت .

(٢) فى الأصل « الديان » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل « التفتيش » وهو تحريف ، والتفيش : ادعاء الشيء والفخر به باطلا ، ويقال : فاش الرجل فيشا : أى افتخر وتكبر ولا شيء عنده ، وفلان فياش : إذا كان نفاخا بالباطل وليس عنده طائل ، وتأثل المال : جمعه .

(٤) فى الأصل والإخلاد وهو صحيح على تقدير : والإخلاد إلى الدعة والرفاهية : أى الميل إليها ، وأرى أنه « الأخلاء » ويقوى ذلك ساعده .

(٥) أى ممن آواه .

المؤمنين ، فإن مع الطمع الجدَّ ، ومع اليأس القعود ، وقلما ضعف الرجاء إلاَّ ذهب الرخاء ، وطلبُ المؤيس عجزٌ ، وطلبُ الطامع حزمٌ ، ولم ندرك الناس نحن وآباؤنا إلاَّ وهم يرون فيها خِلالاً تقطع الرأيَ ، وتمسك بالأفواه : مِنْ حالِ والٍ لم يُهِمَّه الإصلاحُ ، أو أهمَّه ذلك ، ولم يثِقْ فيه بفضل رأيٍ ، أو كان ذا رأيٍ ليس مع رأيه صَوْلٌ بصرامة أو حزم ، أو كان ذلك استئثاراً منه على الناس بِنَشَب[1] ، أو قلةَ تقدُّمٍ لِمَا يجمع أو يقسم ، أو حال أعوان تُبتَلَى بهم الولاةُ ليسوا على الخير بأعوان ، وليس لهم إلى اقتلاعهم سبيلٌ ، لِمكانهم من الأمر ، ومخافةِ الدُّوَل[2] والفساد إن هو هاجهم أو انتقصَ ما فى أيديهم ، أو حال رعيَّةٍ متَّزِرة[3] ، ليس لها من أمرها النَّصَفُ فى نفسها ، فإن أُخذت بالشدة حَمِيَتْ ، وإن أُخذت باللين طَغَتْ ، وكل هذه الخلائق قد طهَّر الله منها أمير المؤمنين ، فآتاه الله ما آتاه فى نيّته ومقدرته وعزمه ، ثم لم يزل يرى ذلك منه الناسُ ، حتى عرَفه منه جُهَّالهم ، فضلاً عن علمائهم ، وصنع الله لأمير المؤمنين ألطفَ الصُّنع فى اقتلاع مَن كان يشرَكه فى أمره على غير طريقته ورأيه ، حتى أراحه الله وآمَنَه منهم ، بما جعلوا من الحجَّة والسبيل على أنفسهم[4] ، وما قوَّى الله عليه أمير المؤمنين فى رأيه واتباعِ مَرْضاته ، وأذلَّ الله لأمير المؤمنين رعيَّته ، بما جَمعَ له من اللين والعفو ، فإن لان لأحد منهم ففى الإثخان[5] له شهيد على أن ذلك ليس بضعف ولا مُصانعةٍ ، وإن اشتدَّ على أحد منهم ففى العفو شهيدٌ على أن ذلك ليس بعُنفٍ ولا خُرْقٍ ، مَعَ أمورٍ سوى ذلك نكفُّ عن ذكرها كراهةَ أن نكون كأنَّا نُصِبْنا للمدح ، فما أخلقَ هذه الأشياء أن تكون عَتاداً[6] لكل جسيم من الخير فى الدنيا والآخرة ، واليومِ والغدِ ، والخاصة والعامَّةِ ، وما أرجانا لأَنْ يكون أمير المؤمنين

---

(١) النشب : المال الأصيل . (٢) جمع دولة : وهى انقلاب الزمان .

(٣) اتزر : ركب الوزر بالكسر أى الذنب والإثم ، والنصف : الإنصاف .

(٤) يعرض بأبى مسلم الخراسانى .

(٥) أثخنه : غلبه وأوهنه ، وفى الأصل « فى الإلحان » وأراه محرفا . (٦) العتاد : العدة .

- بما أصلح الله الأمةَ من بعده - أشدَّ اهتماما من بعض الولاة بما لا يُصْلح رعيته في سلطانه، وما أشدَّ ما قد استبان لنا أن أمير المؤمنين أطولُ بأمر الأمة عنايةً، ولها نظراً وتقديراً، مِنَ الرجل منا بخاصَّة أهله، ففي دون هذا ما يثبِّت الأملَ، وينشِّط للعمل، ولا قوةَ إلا بالله، ولله الحمد، وعلى الله التمام.

فمن الأمور التي يُذَكَّرُ بها أمير المؤمنين - أمتَعَ اللهُ به - أمرُ هذا الجند من أهل خُراسان، فإنهم جندلم يُدْرَكْ مثلهم في الإسلام، وفيهم مَنَعة بها يَتِمُّ فضلُهم إن شاء الله أمَّا هم فأهلُ بَصَرٍ بالطاعة، وفضلٍ عند الناس، وعَفافِ نفوسٍ وفروجٍ، وكفٌّ عن الفساد، وذُلٌّ للوُلاة، فهذه حالٌ لا نَعْلَمها توجَد عند أَحدٍ غيرهم. وأمَّا ما يحتاجون فيه إلى المَنفعة منْ ذلك، فتقويمُ أَيديهم ورأيهم وكلامهم، فإن في ذلك اليوم أخلاطاً[1]: منْ رأسٍ مفرِطٍ غالٍ، وتابعٍ متحيِّرٍ شاكٍّ، ومن كان إنما يَصولُ عَلَى الناس بقومٍ لا يعرف منهم الموافقَةَ في الرأي والقول والسِّيرة، فهو كراكب الأسد الذي يَوْجَلُ[2] من رآه، والراكبُ أَشدُّ وَجَلاً؛ فلو أَن أَمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفا بليغًا وَجيزا، مُحيطاً بكل شيء يجب أَن يعملوا[3] به أَو يكفُّوا عنه، بالغا في الحُجَّة، قاصراً عن الغُلُوِّ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دَهماءَهم[4]، ويتعهَّدوا به منهم مَن دُونَهُمْ من عُرْض الناس، لكان ذلك إن شاء الله لِرَأْيهم صلاحاً، وعلى من سواهم حُجَّةً، وعند الله عُذْرا، فإن كثيراً من المتكلمين من قُوَّاد أمير المؤمنين اليوم إنما عامَّة كلامهم فيما يُؤْمَر الأمرُ، ويُزْعَم الزَّعْمُ أَن أمير المؤمنين لو أمَرَ الجبال أن تسير سارت، ولو أمر أن تُسْتَدْبَرَ القِبْلَةُ بالصلاة فُعِلَ ذلك، وهذا كلام قلَّما يرتضيه مَن كَان مُخالِفاً، وقلَّما يَرِدُ في سَمْع السامع إلا أحدَثَ في قلبه رِيبةً

---

(١) في الأصل «اختلاطا» وهو تحريف. (٢) أي يخاف.

(٣) في الأصل «أن يقول» وهو تحريف.

(٤) الدهماء: جماعة الناس، وعرض الناس بالضم ويفتح: معظمهم.

وشَكًّا ، والذى يقول أهلُ القصد من المسلمين هو أقوَى للأمر ، وأعزُّ للسلطان ، وأقمع للمخالِف ، وأرْضى للموافِق ، وأثبتُ للعذر عند الله عز وجل .

فإنا قد سمِعْنا فريقاً من الناس يقولون : لا طاعةَ للمخلوق فى معصية الخالق ، بَنَوْا قولهَم هذا بِناء مُعْوَجًّا فقالوا : إنْ أمَرَنا الإمامُ بمعصية الله فهو أهلٌ أن يُعْصَى ، وإن أمَرَنا الإمام بطاعة الله فهو أهل أن يُطاع ، فإذا كان الإمام يُعْصَى فى المعصية ، وكان غيرُ الإمام يطاع فى الطاعة ، فالإمام ومَن سِواه على حقِّ الطاعة سَواء ، وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذَريعةً إلى خلع الطاعة ، والذى فيه أُمْنِيَّتُه لِكَىْ يكونَ الناسُ نظائرَ ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا يكون على عدوِّهم منهم ثِقْل .

سمِعْنا آخَرين يقولون : بل نُطيع الأئمةَ فى كل أمورنا ، ولا نفتِّش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحدٌ منا عليهم حَسِيباً ، هم وُلاةُ الأمر وأهلُ العِلم ، ونحن الأتْباعُ وعلينا الطاعةُ والتسليم ، وليس هذا القول بأقلَّ ضرراً فى توْهين(١) السلطان ، وتهجِين الطاعةِ ، من القول الذى قَبْله ، لأنه ينتهى إلى الفظيع المتفاحِشِ من الأمر فى استحلال معصية الله جِهاراً صُراحا(٢) .

وقال أهل الفضل والصواب : قد أصاب الذين قالوا : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولم يُصيبوا فى تعطيلهم طاعةَ الأئمة ، وتسخيفهم إياها ، أصاب الذين أقرُّوا بطاعة الأئمة لِما حَقَّقوا منها ، ولم يُصِيبوا ما أبهموا من ذلك فى الأمور كلِّها .

فأمّا إقرارُنا بأنه لا يطاع الإمام فى معصية الله ، فإنما ذلك من عزائم الفرائض والحدودِ التى لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا ، ولو أن الإمام نَهَى عن الصلاة والصيام والحج ، أو مَنَع الحدودَ وأباح ما حرَّمَ الله ، لم يكن له فى ذلك أمر .

فأمَّا إثباتُنا للإمام الطاعةَ فيما لا يطاع فيه غيره ، فإن ذلك فى الرأى والتدبير والأمر

---

(١) التوهين : الإضعاف ، والتهجين : التقبيح .

(٢) يقال : شتمه مصارحة وصراحا بالضم والكسر : أى مواجهة .

الذى جعل الله أزمّتَه وعُراه بأيدى الأئمة ، ليس لأحد فيه أمرٌ ولا طاعة ، من الغَزْو والقفُولِ[(١)] ، والجَمْعِ والقَسْمِ ، والاستعمالِ والعَزلِ ، والحُكْمِ بالرأى فيما لم يكن فيه أثر ، وإمضاءِ الحدودِ والأحكام على الكتاب والسُّنة ، ومحاربةِ العدو ومخادعته ، والأخذِ للمسلمين والإعطاءِ عليهم ، وهذه الأمور وأشباهها من طاعة الله عز وجل الواجبة ، وليس لأحد من الناس فيها حق إلا الإمام ، ومن عَصَى الإمامَ فيها أو خَذَله فقد أوتَغَ[(٢)] نفسَه ، وليس يفترق هذان الأمران إلا ببُرهانٍ من الله عز وجل عظيم ، وذلك أن الله جعل قِوام الناسِ وصَلاحَ معاشهم ومَعَادِهم فى خَلَّتين : الدِّينِ والعقل ، ولم تكن عقولهم — وإن كانت نعمة الله عز وجل عظُمَتْ عليهم فيها — بالِغة معرفةَ الهدى ، ولا مُبْلِغةً أهلَها رِضوانَ الله ، إلا بما أكمل لهم من النعمة ، بالدِّين الذى شَرَع لهم ، وشرحَ به صدرَ مَن أراد هُداه منهم ، ثم لو أنَّ الدِّين جاء من الله لم يغادِرْ حَرْفًا من الأحكام والرأيِ والأمرِ وجميع ما هو وارد على الناس ، وجارٍ فيهم مُذْ بَعَثَ الله رسوله صلى الله عليه وسلم إلى يومٍ يلقَوْنه إلا جاء فيه بعزيمة ، لكانوا قد كُلِّفوا غيرَ وُسْعِهم ، فضُيِّق عليهم فى دينهم ، وأتاهم مالم تَتَّسع[(٣)] أسماعُهم لاستماعه ، ولا قلوبُهم لفهمه ، ولَحَارَتْ عقولُهم وألبابُهم التى امتَنَّ الله بها عليهم ، ولكانت لَغْوًا لا يحتاجون إليها فى شىء ، وَلا يُعْمِلونها إلا فى أمرٍ قد أتاهم به تنزيلٌ ، ولكن الله مَنَّ عليهم بدِينِهم الذى لم يكن يسَعه رأيُهم ، كما قال عبادُ الله المتَّقون : « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ » .

ثم جعل ما سِوَى ذلك من الأمر والتدبير إلى الرأى ، وجَعَلَ الرأىَ إلى وُلاة الأمر ، ليس للناس فى ذلك الأمر شىء إلا الإشارةُ عند المَشورة ، والإجابةُ عند الدَّعوة ، والنصيحةُ بظهْرِ الغَيْب ، ولا يستحقّ الوالى هذه الطاعةَ إلا بإقامة العزائم والسُّنَن مما هو فى مَعْنَى ذلك ، ثم ليس من وجوه القول وَجهٌ يُلتَمَسُ فيه إثباتُ فضلِ

(١) القفول : الرجوع . (٢) أوتغ نفسه : أهلكها .

(٣) فى الأصل « تسم » وهو تحريف .

أهل بيت أمير المؤمنين على أهل كل بيتٍ ، وغير ذلك مما يحتاج الناس إلى ذكره ، إلاّ وهو موجود فيه من الكلام الفاضل المعروف ما هو أبلغُ مّمَّا يَغْلو فيه الغالُون ، فإن الحُجَّة ثابتة ، والأمر واضح بحمد الله ونعمته .

ومِمَّا يُنظَر فيه لِصَلاح أهل الجند ألاّ يُوَلَّى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مَفْسَدةٌ للمُقاتِلة ، ولم يَزَلِ الناس يتحامَوْن ذلك منهم ، ويُنَحُّونه عنهم ، لأنهم أهلُ دالَّة[1] ودَعْوَى بَلاء ، وإذا كان[2] جَلاَّبا للدراهم والدنانير اجترأ عليهما ، وإذا وقع فى الخيانة صار كلُّ أمْرِه[3] مدخولا : نصيحتُه وطاعتُه ، فإن جُعل بينه وبين رفعه أمرٌ حفّته[4] الحمِيَّة ، مع أن ولايةَ الخراج داعيةٌ إلى ذِلَّة وعقوبةٍ وهوانٍ ، وإنما منزلة المقاتِل منزلةُ الكرامةِ واللُّطفِ .

ومما يُنْظَرُ فيه من أمرهم أن منهم من المجهولين مَن هو أفضلُ من بعض قادَتِهم ، فلو التُمِسوا وصُنِعوا[5] كانوا عُدَّةً وقوةً ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادَةِ ، ومَنْ دونَهم من العامة .

ومن ذلك تعهدُ أدَبِهم فى تعلُّمِ الكتاب ، والتفقُّه فى السُّنَّة ، والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القَصْد والتواضُع واجتنابِ زِيِّ المُتْرَفين وشَكْلِهم ، مِثلَ الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمرِ نَفْسِه ، ولا يزال يَطَّلِعُ من أمير المؤمنين،ويَخرج منه القولُ بما يُعَرِّف مَقْتَه لِلإتْراف والإسراف وأهلِهما، ومَحبَّتَه القصدَ والتواضعَ ومَن أخَذَ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظورٌ عمن يَكْنِزُه بُخلا ، أو[6] يُنفِقه سَرَفا فى العِطْرِ واللِّباس والمُغالاةِ بالنساء والمراتب ، فإن أمير المؤمنين يُؤْثِر بالمعروف مَن وِجْهتُه المعروفُ والمؤاساةُ .

---

(١) فى الأصل « أهل ذاك » وهو تحريف. (٢) الضمير فيه يعود على « أحدا » المتقدم .
(٣) فى الأصل « كل أمر » وهو تحريف (ونصيحته وطاعته بدل من كل أمره) .
(٤) فى الأصل « أمرضته » . (٥) أى أحسن إليهم .
(٦) فى الأصل « أن » وهو تحريف .

ومن ذلك أمرُ أرزاقهم أن يوقِّتَ لهم أميرُ المؤمنين فيها وقتاً يعرفونه ، فى كل ثلاثة أشهر ، أو أربعة ، أو ما بَدَا له ، وأن يَعْلَمَ عامَّتهم العذرَ الذى فى ذلك من إقامة ديوانهم ، وجَمْلِ[1] أسمائهم ، ويعلموا الوقتَ الذى يأخذون فيه ، فينقطِعَ الاستبطاء والشكوى ، فإن الكلمة الواحدة تخرُجُ من أحدهم فى ذلك ، أَهْلٌ أن تُستَعْظَمَ ، وإنَّ بابَ ذلك جَدِيرٌ أن يُحْسَمَ ، مع أن أمير المؤمنين قد عَلِم كثرةَ أرزاقهم ، وكثرةَ المال الذى يُخرج لهم ، وأن هذا الخراج إن لم يكن رائجا لِغَلاء السِّعر ، فإنه لابُدَّ من الكَسَاد والكَسْر ، وأن لكل شىء دِرَّةً وَغزارةَ ، وإنما دُرُورُ خراج العراق بارتفاع الأسعار ، وإنما يحتاج الجند اليومَ إلى مايحتاجون إليه من كثرة الرزق ، لغَلاء السعر ، فمن حُسْنِ التقدير إن شاء الله أن لايدخُلَ على الأرض ضررٌ ، ولا بيتِ المال نُقصانٌ من قِبَل الرحمٰن ، إلا دخلَ ذلك عليهم فى أَرزاقهم مع أنه ليس عليهم فى ذلك نقصانٌ ، لأنهم يشترُون بالقليل مِثلَ ما كانوا يشترون بالكثير ، فأقولُ : لو أن أمير المؤمنين خَلَّى[2] شيئاً من الرزق ، فجعل بعضه طعاما ، وجعل بعضَه عَلَفا ، وأَعْطوه بأعيانه ، فَإنْ قُوِّمت لهم قيمة ، فخرج ماخرج على حِسابهِ[3] قيمة الطعام والعَلَف ، لم يكن فى أزاقهم لذلك نقصانٌ عاجِلٌ يستنكرونه ، وكان ذلك قوةً لهم فى نزالهم عندالحمل على العدو[4] ، وإنصافَ بيت المال من أنفسهم فيما يستبطئون مع أنه إن زاد السعر أخذوا بحصَّتهم من فَضْل ذلك .

ومن جِمَاع الأمر وقِوامه بإذن الله أَنْ لا يَخْفَى على أمير المؤمنين شىءٌ من أخبارهم وحالاتهم وباطِنِ أمرهم بخُراسانَ والعَسْكَرِ والأطرافِ ، وَأَنْ يحتقِر فى ذلك النَّفقةَ ،

---

(١) الجمل : الجمع .

(٢) فى الأصل « ماخلا » والمعنى عليه غير مستقيم، وأرى أن صوابه « خلى » بمعنى انتقص واقتطع

(٣) الحسابة : الحساب ، مصدر حسبه كنصر : أى عده .

(٤) فى الأصل « وكان ذلك .... نزالهم لحمل العدو » .

ولا يستعينَ فيه إلا بالثِّقاتِ النصَّاحِ ، فإنَّ تَرْكَ ذلك وأشباهَهُ أحزمُ بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة ، فتصير مغبّته للجَهالة والكذب .

ومما يُذكَرُ به أميرُ المؤمنين - أمتع الله به - أمرُ هذين المِصْرَين[1] ، فإنهم - بعد أهل خُراسان - أقربُ الناس إلى أن يكونوا شِيعَتَه ومُعِينيه ، مع اختلاطهم بأهل خراسان - وإنهم منهم وهامَتهم[2] - ، وإنما ينظر أمير[3] المؤمنين منهم إلى صدق رابطتهم ، وما أراد مَعَزَّتَه[4] من أمورهم استعمان أهلَ خراسانَ فى ذلك لهم ، مع الذى فى ذلك من جمال الأمر ، واختلاط الناسِ بالناس ، العربِ بالعَجَم ، وأهلِ خُراسان بالمِصْرَين .

إن فى أهل العراق يا أمير المؤمنين من الفِقه والعَفاف والألباب والألْسِنة ، شيئاً لا يكاد يُشَكُّ أنه ليس فى جميع مَن سواهم من أهل القِبلة مِثلُهُ ولا مثلُ نِصفه ، فلو أراد أمير المؤمنين أن يكتفِيَ بهم فى جميع ما يُلْتَمَسُ له أهل هذه الطَّبَقةِ من الناس ، رَجَوْنا أن يكون ذلك فيهم موجوداً ، وقد أزرَى بأهل العراق فى تلك الطَّبَقة أن وُلاةَ العراق فيما مضى كانوا أشرارَ الولاة ، وأن أعوانهم من أهل أمصارهم كذلك فحُمِل جميعُ أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفُسُول[5] ، وتَمَلَّق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنَعَوْه[6] عليهم ، ثم كانت هذه الدولةُ فلم يتعلَّق مَن دونكم من الوزراء والعمال إلَّا بالأقرب فالأقرب مما دنا منهم ، أو وجدوه بسبيل شىء من الأمر ، فوَقَعَ رجالٌ مَوَاقِعَ شائنةً لجميع أهل العراق ، حيثُما وَقَعوا من صحابة خليفة ، أو ولايةِ

(١) يعنى البصرة والكوفة . (٢) هامة كل شىء : رأسه .

(٣) فى الأصل « وإنما ينظر أمير المؤمنين منهم .... صدق ولرابطتهم أو ما أراد من أمورهم معرفته استثقال أهل خراسان ذلك لهم من أمرهم » والعبارة مضطربة محرفة ، وقد أصلحتها كما ترى .

(٤) أى تقويته من عز كضرب: إذا قوى بعد ذلة، وأرى أن هذه الكلمة أنسب من كلة «معرفته» الواردة فى الأصل ، وبها ينسجم المعنى ، وربما كان الأصل « تقويته » .

(٥) الفسول جمع فسل بالفتح؛ وهو الرذل الذى لامروءة له .

(٦) نعى عليه ذنوبه ينعاها : أى أظهرها وشهرها .

عمل ، أو موضع أمانة ، أو مَوْطِنِ جهاد ، وكان مِنْ رأى أهل الفضل أن يَقصِدوا حيث يُلتَمسون ، فأبطأ ذلك بهم أن يُعْرَفوا ويُنْتَفَع بهم ، وإن كان صاحب السلطان ممن لم يعرِف الناس قبل أن يَليَهم ، ثم لم يزل يسألُ عنهم مَنْ يعرِفهم ، ولم يستثبِت فى استقصائهم ، زالت الأمورُ عن مراكزها ، وَنزَلت الرجالُ عن منازِلها ، لأن الناس لَا يَلقَوْنه إلا متصنّعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أَشدُّ تصنعا ، وأحلَى ألسِنَةً ، وأرفقُ تلطُّفًا للوزراء ، وتمحُّلًا لأن يُثنى عليهم من وراء وراء ، فإذا آثَرَ او لى ان يستخلص رجلا واحدا ممن ليس لذلك أهلا ، دعا إلى نفسه جميعَ ذلك الشَّرْج(١) ، وطمِعوا فيه ، واجترءوا عليه ، وتواردُوه ، وزحَموا على ما عنده ، وإذا رأى ذلك أهلُ الفضل كفُّوا عنه وباعَدوا منه ، وكرِهوا أن يُرَوْا فى غير موضعهم ، أو يزاحِموا غيرَ نُظَرائهم .

ومما ينظرُ أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المِصْرين ، وغيرهما من الأمصار والنواحى ، اختلافُ هذه الأحكام المتناقِضة ، التى قد بلغ اختلافُها أمراً عظيماً فى الدِّماء والفُرُوج والأموال ، فيُستَحَلُّ الدمُ والفَرْجُ بالحيرة ، وهما يُحَرَّمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جَوْف الكوفة ، فيُستَحَلّ فى ناحية منها ما يُحَرَّم فى ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانِه نافذٌ على المسلمين فى دمائهم وحرَمهم ، يَقضِى به قُضَاةٌ جائزٌ أمْرُهم وحكمُهم ، مع أنه ليس ممَّن ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريقٌ إلاّ قد لجَّ بهم العَجَبُ بما فى أيديهم ، والاستخفافُ بمن سواهم ، فأقحمَهم ذلك فى الأمور التى يتبيَّغ(٢) بها مَن سَمِعها من ذوى الألباب ، أمَّا مَنْ يدَّعِى لزومَ السُّنَّة منهم فيجعلُ ما ليس له سُنَّةٌ سُنَّة حتى يبلغَ ذلك به إلى أن يسفِكَ الدمَ بغير بيِّنة ولا حُجَّة على الامرِ الذى يَزعم أنه سُنة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُرِيق فيه دَمٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، او أئمةِ الهُدى من بعده ، وإذا قيل له : أَىُّ

(١) الشرج : النوع والمثل . (٢) تبيغ به الدم : هاج به .

دم سُفِكَ على هذه السُّنَّة التى تزعُمون؟ قالوا : فَعَلَ ذلك عبد الملك بن مَرْوان، أو أميرٌ من بعض أولئك الأمراء ، وإنما يأخذ بالرأى ، فيبلغ به الاعتزامُ على رأيه ، أن يقولَ فى الأمْرِ الجسيم من أمْرِ المسلمين قولًا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحِشُ لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكمَ عليه ، وهو مُقِرٌّ أنه رأْىٌ منه ، لايحتجُّ بكتاب ولا سُنة .

فلو رَأَى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأَقْضِيَة والسُّنن المختلفة فتُرفعَ إليه فى كتاب؛ ويُرفَع معها ما يحتجُّ به كل قوم من سُنَّة ، أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيَه الذى يُلْهِمه الله ، وَيَعْزِم له عليه ، وينْهَى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابا جامعا عَزْما، لَرَجَوْنا أن يجعل الله هذه الأَحكامَ المختلِطَة الصوابِ بالخطأ، حُكماً واحداً صوَابا ، ورجونا أن يكون اجتماعُ السِّيَر قُرْبةً لإجماع الأَمْرِ برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمامٍ آخَرَ آخِرَ الدهرِ إن شاء الله .

فأمَّا اختلاف الأحكام . فإمّا شىء مأثور عن السَّلَف غير مُجْمَعٍ عليه ، يدبِّره قوم على وجه ، ويدبِّره آخَرون على وجه آخر ، فيُنْظَر فيه إلى أحقِّ الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمْرَين بالعَدْل . وإما رَأْىٌ أجراه أهلُه على القياس ، فاختلف وانتشر بغَلَطٍ فى أصلِ المقايسة ، وابتداءِ أمرٍ على غير مِثاله . وإما لطُول ملازمته القياسَ ، فإن من أراد أن يلزَمَ القياسَ ، ولا يفارقَه أبداً فى أمر الدين والحُكْم ، وقَع فى الوَرَطاتِ ومضى على الشُّبُهات ، وغَمَّض على القبيح الذى يَعرِفه ويُبْصِره ، فأَبَى أن يتركه كراهةَ تَرْكِ القياس ، وإنما القياسُ دليلٌ يُسْتَدلُّ به على المحاسن ، فإذا كان مايقود إليه حَسَناً معروفا أُخِذَ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر تُرِكَ ، لأن المبتغِيَ ليس عَيْنَ[١] القياس يَبْغِى ، ولكنْ محاسِنَ الأمور ومعروفَها وما أَلْحَقَ الحقَّ بأهله ،

(١) فى الأصل « ليس غير القياس » ، وهو تحريف لأنه ضد المعنى المقصود .

ولو أن شيئاً مستقيما على الناس ، ومنقاداً حيثُ قيدَ، لكان الصدقُ هو ذلك ، ولا يُعتَبر بالمقاييس، فإنه لو أراد أن يقوده الصدقُ لم يَنقَدْ له ، وذلك أن رجلا لو قال : أتأمرنى أنْ أَصْدُقَ فلا أكذبَ كِذْبَةً أبدا ، لكان جوابه أن يقول : نعم ، ثم لو التَمسَ منه قَوْدَ[1] ذلك فقال : أأَصْدُقُ فى كذا وكذا ، حتى يَبْلُغَ به أن يقول: أأصدُقُ فى رجل هاربٍ ، استدلّنى عليه طالبٌ لِيظلمَهُ فيقتلَه ، لَكَسَرَ عليه قِيادَه، وكانَ الرأى له أن يترُكَ ذلك ، وينصرفَ إلى المُجْتَمَع عليه المعروفِ المستحسَنِ .

ومما يُذكَّر به أمير المؤمنين أهلُ الشام ، فإنهم أشدُّ الناسِ مُؤْنَةً ، وأخوفُهم عداوةً وبائقةً ، وَليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة ، ولا يَطْمَعُ منهم فى الاستجماع على المودَّةِ ، فمِن الرأىِ فى أمرهم أن يختصَّ أميرُ المؤمنين منهم خاصّةً ، ممن يرجو عنده صلاحا ، أو يعرف منه نصيحةً أو وفاء ، فإن أولئك لا يَلْبَثُون أن ينفصِلوا عن أصحابهم فى الرأى والهَوى ، ويدخلوا فيما حُمِلوا عليه مِنْ أمرهم ، فقد رأَيْنا أَشباهَ أولئك من أهل العراق الذين استدخَلَهم أهلُ الشام ، ولكن أُخِذَ فى أمر أهل الشام على القِصاصِ[2] . حُرِموا كما كانوا يحْرِمون الناسَ ، وجُعِل فَيْئُهُم إلى غيرهم كما كان فىء غيرهم إليهم ، ونُحُّوا عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا يُنَحُّون عن ذلك مَن لا يجهلون فضلَه فى السابقة والموضع ، ومُنِعَتْ منهم المرافقُ كما كانوا يمنعون الناسَ أن ينالوا معهم أَكْلَةً من الطعام الذى يصنعه أمراؤهم للعامَّة ، فإذا رَغِبَ أميرُ المؤمنين بنفسه عن هذه السِّيرة وما أشبهها، فلِمَ يمارِضُ[3] ماعابَ ، ولِمَ يُمثِّل ماسَخِطَ ؟ كان العدلُ أن يقتَصِرَ بهم على فَيئِهم ، فيجعلَ ما خرج من كُوَر الشام فَضْلًا عن النفقات،

---

(١) الفود : ، والمعنى أن يتابع الصدق فى كل ما يقول .

(٢) فى الأصل « وليس أحد فى أمر أهل السلم على القصاص » وقد أصلحته كما ترى .

(٣) أى لم يأتى بمثله .

وما خرج من مصر فضلا عن حقوق أهل المدينة ومكة ، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مُقَاتِلتهم ديوانهم ، أو يَزِيدَ ، أو يَنْقُص ، غيرَ أنه يأخذ أهل القوة والغَناء[1] وخِفَّةِ المُؤْنة والخفّة فى الطاعة ، ولا يفضِّل أحداً منهم على أحد، إلا على خاصّةٍ معلومة، ويكون الديوان كالفَرَض المستأنَف ، ويأمر لكل جند من أجناد أهل الشام بعِدَّة من العِيال يَفْتَرِعون عليها ، ويُسَوِّى بينهم فيما لم يكونوا أُسوةً فيه فيمن مات من عيالاتهم ، ولا يُضِيعُ أحداً[2] من المسلمين .

وأمّا مايتخوف المتخوِّفون من نَزَواتهم ، فلَعَمرى لَئن أُخِذوا بالحق - ولم يؤخذوا به - إنهم لَخُلَقاء أن يكون لهم نَزَواتٌ ونَزَقات[3] ، ولكنّا على مِثل اليقين - بحمد الله - من أنهم لم يشركوا بذلك إلا أنفسهم ، وأن الدائرةَ لأمير المؤمنين عليهم آخِرَ الدهر إن شاء الله ، فإنه لم يخرُج الملكُ من قوم إلَّا بقِيَتْ فيهم بقيةٌ يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثّب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

ومما يُذكَّر بهِ أمير المؤمنين أمرُ أصحابه ، فإن من أَوْلَى أمرِ الوالى منه بالتثبُّت والتحيُّر ، أمْرَ أصحابه الذين هم بَهاء فِنائه[4] ، وزينةُ مجلسه ، وَأَلْسِنَةُ رَعيته ، والأعوانُ على رأيه ، ومواضعُ كرامته ، والخاصّةُ من عامّته ، فإن أمر هذه الصَّحابة قد عَمِلَ فيه مَن كان وَلِيه من الوزراء[5] والكُتَّاب قبل خلافة أمير المؤمنين عَمَلاً قبيحاً مُفْرِطَ القُبح ، مُفْسِداً للحَسَب والأدب والسياسة ، داعياً للأشرار ، طارِداً للأخيار ، فصارت صحبة الخَليط[6] أمراً سخيفاً ، فطمِعَ فيه الأوغاد ، وتزهّد فيه من كان يرغَب فيما دونَهُ ، حتى إذا لقِينا[7] أبا العباس - رحمة الله عليه - وكنتُ فى ناس من صُلَحاء أهل البصرة

---

(١) الغناء : الكفاية . (٢) فى الأصل « ولا يصنع بأحد » وأراه محرفا .

(٣) نزوات جمع نزوة كوردة ، فعلة من النزو بالسكون وهو الوثوب ، ونزقات جمع نزقة كنزوة أيضاً ، فعلة من النزق بالسكون ، نزق الفرس كسمع ونصر وضرب نزقا ونزوقا : نزا أو تقدم خفة ووثب ، أو من النزق بالتحريك ، نزق كفرح : طاش وخف عند الغضب .

(٤) فناء الدار : ما اتسع من أمامها . (٥) فى الأصل « الوزارة » وهو تحريف .

(٦) الخليط : الشريك والمخالط . (٧) فى الأصل « التقينا » وهو تحريف .

ووجوههم ، فكنت فى عِصابة منهم أبَوْا أن يأتوه ، فنهم من تغيَّب فلم يَقْدَم ، ومنهم من هرب بعد قُدومه ، اختياراً للمعصية على سوء الموضع ؛ لايعتذرون فى ذلك إلا بضياع المكْتَب[١] والدعوة والمَدخَل ، يقولون : هذه منزِلةٌ كان من هو أشرفُ من أبنائنا يرغبون فيما هو دونها عند من هو أصغر أمراء وُلاتنا اليومَ ، ولكنها قد كانت مَكرُمةً وحسباً ، إذ الناس يُنظَرُونَ ويُسْأَل عنهم ، فأما اليوم ونحن نرى فلانا وفلانا يُنفَرُ[٢] بأسمائهم — على غير قديم سَلَفَ ، ولا بلاء حَدَثَ ، فمن يرغب فيما ها هنا يا أمير المؤمنين — أكْرمكَ اللهُ — ؟ أمَا يصير العدل كله إلى تقْوَى الله عزَّ وجل ، وإنزالِ الأمورِ مَنازِلَها ، فإن الأول قال :

لَا يَصْلُحُ الناسُ فَوْضَى لاسَرَاةَ لهم ولا سَرَاةَ إذا جُهَّالُهُمْ سادوا

وقال :

هُمُ سَوَّدوا نصراً ، وكلُّ قبيلةٍ يُبَيِّن عن أحلامها من يَسُودُها

وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيبُ ، دخلَتْ فيه مظالِمُ ، أمّا العَجَبُ فقد سَمِعْنا من الناس من يقول : ما رأينا أعْجُوبةً قطُّ أعجبَ من هذه الصحابة ، ممن لاينتهى إلى أدب ذى نَباهةٍ ، ولا حَسَبٍ معروف ، ثم هو مسخوطُ الرأى ، مشهورٌ بالفجور فى أهل مصره[٣] ، قد غَبَرَ عامَّةَ دهرِه صانعاً يعمل بيده ، ولا يمتدُّ مع ذلك ببلاء ولا غَناء ، إلا أنه مكَّنه من الأمر صاغٍ[٤] ، فاحتوى حيثُ أحبَّ ، فصار يُؤْذَن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبلَ قرابة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويُجْرَى عليه من الرِّزق الضِّعفُ مما يجرى على كثيرٍ من بنى هاشم ،

---

(١) يريد به منزلة الكتابة ومكانة الكاتب .
(٢) أى يذهب بها ، والمعنى ترفع منازلهم وتعلى مكانتهم .
(٣) فى الأصل « فى أهل مصر » وهو تحريف .
(٤) صغا إليه كسعى وقعد وفرح : مال ، أى شخص يميل إليه ويقربه .

وغيرهم من سَرَوات[١] قريش ، وَيُخْرِجُ له من المعُونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رِعايةُ رَحِمٍ ، ولا فِقهٌ فى دين ، ولا بَلاءٌ فى مجاهدة عدوٍّ معروفةٍ ماضيةٍ متتابِعةٍ قديمةٍ ، ولا غَنَاءٌ حديثٌ ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشياء ، ولا عُدَّة يستمِدُّ بها ، وليس بفارسٍ ولا خطيب ولا عَلَّامةٍ ، إلا أنه خَدَم كاتبا أو حاجبا ، فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخَل حيث شاء .

وأما المظلِمَةَ التى دَخَلَتْ فى ذلك فعظيمةٌ ، قد خصَّتْ قريشا وعمَّتْ كثيراً من الناس ، وَأَدْخَلَتْ على الأحساب والمُروءات مِحْنة شديدة وضَياعا كثيراً ، فإن فى إِذْنِ الخليفةِ والمَدْخَلِ عليه والمَجْلِسِ عنده ، وَمَا يُجْرَى على صَحَابته من الرزق والمعُونة ، وتفضيلِ بعضِهم على بعض فى ذلك ، حُكْما عظيما على[٢] الناس فى أنسابهم وأخطارهم وَبلاءِ أهل البلاء منهم ، وليس ذلك كخواصِّ المعروف ولطيف المنازل ، أو الأعمال التى يختص بها المَوْلَى مَن أحبَّ ، ولكنه باب من القضاء جسيم عامٌّ يُقْضَى فيه للماضين من أهل السَّوابق والمآثِرِ من أهل الباقين ، وأهل البلاء والغَناء بالعدل أو بما يُحَال فيه عليهم ، فإن أحقَّ المظالم بتعجيل الرفع والتغييرِ ، ما كان ضررُه عائبا ، وكان للسلطان شائِناً ، ثم لم يكن فى رفعه مُؤْنةٌ ، ولا شَغَبٌ ، ولا توغيرٌ لصدور[٣] عامَّةٍ ، ولا للقوة والإضرارِ[٤] سبب .

ولِصَحابة أمير المؤمنين — أكرمه الله — مَزِيَّةٌ وفضل ، وهى مَكْرمة سنِيَّةٌ حَرِيَّةٌ أن تكون شرَفا لأهلها ، وحَسَباً لأعقابهم ، حقيقةٌ أن تَصان وتُحْظَر ، ولا يكون فيها إلا رجل بَدَر[٥] بِخَصْلةٍ من الخِصال ، أو[٦] رجلٌ له عند أمير المؤمنين خاصَّةٌ بقرابة أو بَلاء ، أو رجل يكون شرفُه ورأيه وعملُه أهلًا لمجلس أمير المؤمنين وحديثه

---

(١) سروات جمع سراة بالفتح ، وسراة : اسم جمع سرِىّ كغنى ، وصف من السرو بالفتح : وهو المروءة فى شرف .

(٢) فى الأصل « على أن الناس » وكلمة « أن » لا لزوم لها فى الجملة ، والظاهر أنها وقعت سهوا .

(٣) فى الأصل « بصدور » وهو تحريف . (٤) وفيه « ولا إضرار » وهو تحريف .

(٥) بدر إليه : عجل وسبق . (٦) فى الأصل « ومن رجل » وهو تحريف .

ومَشورته ، أو صاحبُ نَجْدَة يُعرف بها ويُعتدُّ لها ، يجمع نجدته حَسَباً وعفافا ، فيُرْفَع من الجند إلى الصَّحابة أو رجل فقيهٌ مُصْلِح يوضَع بين أظهرِ الناس لينتفِعوا بصلاحه وفِقْهِه ، أو رجل شريف لا يُفسِد نفسَه أو غيرها ، فأمَّا مَن يتوسَّل بالشَّفاعات فإنه يَكْتَفِي أو يُكتفَى له بالمعروف والبر فيما لا يهجِّنُ رأيا ، ولا يُزيلُ أمرًا عن مَرْتبته ، ثم تكون تلك الصحابة المُخْلِصة على مَنازِلها ، ومَداخِلِها ، لا يكون للكاتب فيها أمرٌ فى رَفْع رِزق ولا وَضْعِه ، ولا للحاجب فى تقديم إذن ولا تأخيره .

ومما يذكر به أمير المؤمنين ، أمرُ فِتيانِ أهل بيته وبنى أبيه وبنى علىّ وبنى العباس ، فإن فيهم رجالاً لو مُتِّعوا بجسام الأمور والأعمال سَدُّوا وجوهاً ، وكانوا عُدَّةً لأخرى .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، أمرُ الأرض والخراج ، فإن أجسَمَ ذلك وأعظمَه خَطَرًا ، وأشدَّه مُؤْنةً وأقربه من الضَّياع ، ما بين سَهله وجَبَله ، ليس لها تفسير على الرساتيق[1] والقرى ، فليس للعُمَّال أمر ينتهون إليه ، ولا يحاسَبُون عليه ، ويَحُول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنَّقون لها فى العمارة ، ويرجُون لها فضلَ ماتعمَلُ أيديهم ، فسِيرة العمال فيهم إحدى ثِنْتَين : إما رجلٌ أخذ بالخُرْق[2] والعُنْف من حيث وجد ، وتتَبَّع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد ، وإما رجل صاحبُ مساحةٍ ، يَستخرِج ممن زرع ، ويترك من لم يزرع ، فيَعْمُرُ مَن عَمَرَ[3] ، ويَسْلَمُ من أخرب ، مع أن أصول الوظائف[4] على الكُوَر لم يكن لها ثَبْتٌ[5] ، ولا عِلْم ، وليس من كُورة إلا وقد غُيِّرت وظيفتها مِراراً ، نخفِيَت وظائفُ بعضها ، وبقِيَتْ وظائفُ بعض ، فلو أن أمير المؤمنين أعمَلَ رأيَه فى التوظيف على الرّساتيق والقُرَى والأرَضِين

(١) الرساتيق : جمع رستاق بالضم ، ويستعمل فى الناحية التى هى طرف الإقليم ، معرب .
(٢) الخرق بالضم وبالتحريك: ضد الرفق، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فىالأمور. والحمق.
(٣) يعمر هنا معناه : يدفع ، أى يعمر خزانة الدولة من عمر الأرض .
(٤) أى المقدرات . (٥) شىء ثبت: ثابت، أى ليس لها قانون ثابت يجرى فيها على مقتضاه .

وظائفَ معلومةً ، وتدوينِ الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول ، حتى لايؤخَذ رجل إلا بوظيفةٍ قد عرَفَها وضَمِنها، ولا يجتهد فى عمارة إلا كان له فضلُها ونفعُها ، لرَجَوْنا أن يكون فى ذلك صلاحٌ للرعية ، وعِمارةٌ للأرض ، وحسْمٌ لأبواب الخيانةِ وغَشْمِ[1] العمال ، وهذا رأىٌ مُؤْنتهُ شديدة ، ورجالُه قليل ، ونَفْعُهُ متأخِّر ، وليس بعد هذا فى أمر الخراج إلا رأىٌ قد رأينا أمير المؤمنين أخَذَ به ، ولم نَرَه من أحد قبله ، مِنْ تخيُّر العمال وتفقُّدهم والاستعتاب[2] لهم ، والاستبدالِ بهمْ .

ومما يذكَّر به أمير المؤمنين ، جزيرة العرب من الحِجاز واليمن واليمامة وما سوى ذلك ، أن يكون مِنْ رأىِ أمير المؤمنين - إذا سَخَتْ نفسُه عن أموالها من الصَّدَقات وغيرها - أن يختار لوِلايتها الخِيارَ من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تَمام السِّيرة العادلة ، والكلمة الحَسَنة التى قد رَزَق الله أمير المؤمنين وأكرَمَه بها ، من الرأى الذى هو بإذْنِ الله حِمًى وَنِظامٌ لهذه الأمور كلِّها فى الأمصار والأجناد والثّغور والكُوَر .
إنّ بالناس من الاستجراح[3] والفساد ما قد عَلِم أميرُ المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطَرائقهم ماهو أشدُّ من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها ، وأهلُ كل مِصْرٍ وجُند وثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسُّنَّة والسِّيَر والنصيحة مؤدِّبون مُقوِّمون يُذكِّرون ، ويبصِّرونَ[4] الخطأَ ، ويَعِظون من الجهل ، ويَمنعون عن البِدَع ، ويحذِّرون الفِتَنَ، ويتفقدُون أمورَ عامَّةِ منْ هو بين أظهُرِهم ، حتى لا يَخْفَى عليهم منها مُهِمٌّ ، ثم يستصلِحُون ذلك ويعالجون ما استنكروا منه بالرأى والرِّفق والنُّصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يَرْجُونَ قُوَّتَه عليهم[5] ، مأمونين على سير ذلك وتَحْصِينِه ، بُصَراء بالرأى حين يبدو ، وأطِبّاء باستئصاله قبل أن يتمكّن ، وفى كل

---

(١) الغشم : الظلم . (٢) استعتبه . استرضاه .
(٣) الاستجراح : الفساد والعيب ، وفى الأصل « الاستخراج » وهو تصحيف .
(٤) بصره الأمر : فهمه إياه . (٥) كذا فى الأصل ، والأظهر أن يكون «قوتهم عليه» .

قَوْمٍ خواصٌ رجالٍ عندهم على هذا مَعُونةٌ ، إذا صُنِعوا لذلك ، وتُلُطِّفَ لهم ، وَأُعِينوا على رأيهم ، وقُوُّوا على معاشهم ببعض ما يُفَرِّغهم لذلك ويَبْسُطهم له ، وخطَرُ[١] هذا جسيم فى أمرين : أحدهما رجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهلِ الفُرقةِ إلى الأُلْفة . والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرِّك فى أمر من أمور العامَّة إلا وعين ناصِحَةٌ ترمُقه ، ولا يَهْمِسُ هامِسٌ إلا وأُذُنٌ شفيقةٌ تُصِيخ[٢] نحوَه ، وإذا كان ذلك لم يقدر أهلُ الفساد على تربيض[٣] الأمور وتلقيحها ، وإذا لم تُلَقَّح كان نِتاجها بإذن الله مأمونا .

وقد علِمْنا علماً لايخالطه شكٌّ أن عامّةً قط لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، ولم يأتها الصّلاحُ إلا من قبل خاصّتها ، وأن خاصّةً قطّ لم تصلُح من قِبَل أنفسها ، وأنها لم يأتِها الصلاح إلاّ من قبل إمامها ، وذلك لأن عدد النـــاس فى ضَعَفَتهم[٤] وجُهّالهم الذين لا يستغنُون برأى أنفسهم ، ولا يحمِلون العِلْمَ ، ولا يتقدمون فى الأمور ، فإذا جعل الله فيهم خواصَّ من أهل الدين والعقول ، ينظُرُونَ إليهم ويسمعون منهُمْ ، واهتمّت خواصُّهم بأمور عوامِّهم ، وأقبلوا عليها بجدٍّ ونُصْح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسَبَبا لأهل الصلاح من خواصِّهم ، وزيادةً فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغا إلى الخيرِ كلِّه ، وحاجةُ الخاصّة إلى الإمام الذى يُصْلِحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصّهم وأعظم من ذلك ، فبالإمام يجمع الله أمرهم ، ويَكْبِتُ[٥] أهلَ الطعن عليهم ، ويجمع رأيهم وكلمتهم ، ويبيِّن لهم عند العامة منزلتهم ، ويجعل لهم الحُجَّــة والأَيْدَ[٦] والمقال على من نَكَبَ[٧] عن سبيل حقهم .

فلما رأينا هذه الأمور ينتظِم بعضها ببعض ، وعَرَفْنا من أمر أمير المؤمنين ما بمثله جَمَعَ اللهُ خواصَّ المسلمين على الرغبة فى حسن المعاونة والمؤازرة والسعى فى صلاح عامّتهم :

---

(١) الخطر : القدر . (٢) أصاخ له : استمع .
(٣) من تربيض السقاء : وهو أن يجعل مافيه يغمر قعره .
(٤) ضعفة : جمع ضعيف كضعاف. (٥) كبته : أخزاه وأذله ورده بغيظه .
(٦) الأيد : القوة . (٧) أى مال وعدل.

طَمِعْنا لهم فى ذلك يا أمير المؤمنين ، وطمِعْنا فيه لعامَّتهم ، ورَجونا ألاَّ يعمل بهذا الأمر أحدٌ إلا رَزَقه الله المتابعة فيه ، والقوةَ عليه ، فإن الأمر إذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالاً ، وهَيَّأ للساعى نجاحاً ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله وهو ربُّ الخَلْق ، ووليُّ الأمر يقضى فى أمورهم ، يدبِّر أَمره بقدرة عزيزة ، وعِلْمٍ سابق ، فنسأله أَن يعزِم لأمير المؤمنين على المَرَاشِد ، ويحصِّنه بالحفظ والثبات والسلام ، ولله الحمد والشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٨٢)

٢٨ — الرسالة اليتيمة لابن المقفع

وقال ابن طيفور فى اختيار المنظوم والمنثور أَيضاً :

ومن الرسائل المفردات اللَّواتى لانظيرَ لها ولا أَشباهَ ، وهى أَركان البلاغة ، ومنها استقَى البُلغاء ، لأنها نهاية فى المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، والرسالة التى لابن المقفع اليتيمة ، فإن الناس جميعاً مُجْمِعُون أنه لم يعبر أَحد عن مِثلها ، ولاتقدَّمها من الكلام شىء قبلها ، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها فى أَيدى الرُّواة لها ، فمن فصولها قوله فى صدرها :

« وقد أَصبح الناس – إلا قليلا ممن عَصَمَ الله – مدخولين منقوصين ، فقائِلُهم باغٍ ، وسامِعُهم عيَّابٌ ؛ سائِلُهم متعَنِّت ، ومُجيبُهم متكلِّف ، وواعِظُهم غيرُ مُحقِّقٍ لقوله بالفعل ، وموعوظُهم غير سليم من الهُزْء والاستخفاف ، ومستشيرهم غيرُ موطِّنٍ نفسه على إنفاذ مايشار به عليه ، ومُصْطَبِرٍ للحق مما يَسمَع ، ومستشارُهم غيرُ مأمونٍ على الغِشِّ والحَسَدِ ، وأن يكون مِهْتا كا للسِّتْر ، مُشِيعاً للفاحشة ، مُؤْثِرا للهوى ، والأَمِينُ منهم غيرُ متحفِّظ من ائتمان الخَوَنة ، والصَّدُوقُ غير محترِسٍ من حديث الكَذَبة ، وذو الدين غيرُ متورِّع عن تفريط الفَجَرة ، يتقارضون الثناء ، ويترقبون الدُّوَل ، ويَعيبون بالهَمْز ، يكاد أَحزمُهم رأياً يَلْفِتُهُ عن رأيه أَدْنى الرضا وأدنى

وأدنى السُّخْط ، وكاد أَمْتَنُهم عُوداً أَن تَسْحره الكلمةُ ، وتُسْكِره[1] اللَّحْظة ، وقد ابتُليتُ أَن أَكون قائلا ، وابتليتم أَن تكونوا سامعين ، ولا خيرَ فى القول إلا ما انْتُفِعَ به ، ولا يُنتفَع إلا بالصدق ، ولا صِدْقَ إلا مع الرأى ، ولا رأىَ إلا فى موضعه وعند الحاجة إليه ، فإن خير القائلين من لم يكن الباطلُ غايتَه ، ثم لزِمَ القَصْدَ والصوابَ ، وخير السامعين من لم يكن ذلك منه سُمعةً ولا رياءً ، ولم يتخذ ما يسمع عَوْناً على دفع الهدى ، ولا بُلْغَةً إلى حاجةِ دنيا ، فإن اجتمع للقائل والسامع : أن يُرْزَق القائلُ من الناس مِقةً وقبولا على ما يقوله ، ويُرْزَق السامعُ اتّعاظا بما يسمع فى أمر دنياه ، وقد صَلُحَتْ نيّاتهما فى غير ذلك ، فعسى ذلك أن يكون من الخير الذى يُبلِّغُه اللهُ عبادَه ، ويعجِّل لهم من حَسَنة الدنيا مالايحرمهم[2] من حَسَنة الآخرة ، كما أن المُرِيدَ بكلامه أنْ يُعجِبَ النّاسَ ، قد يجتمع عليه : حرمانُ ما طلب مع سوء النية ، وَحَمْلُ الْوِزْر ، وقد وافقتم منى مسارَعَةً فيما سألتمونى من غير معاودة فى أشباهه ، ولكن آستطالَ الناسُ فى جسيم أمورهم وإنفــاذِ الطوالع[3] ، ولم يَبْرَحْ يُطَلِّع منى فى ذلك احتسابُ الخير فيما بلغتْه القوةُ منى فى ذلك ، طمعا فى أن ينفع الله بذلك من يشاء ، فإنه ما يشاء يقع .

أمّا سؤالكم عن الزمان ، فإن الزمانَ الناسُ ، والناسُ رجلان : وَالٍ ومُوَلّى عليه ، والأزمنة أربعة على آختلاف حالات الناس .

فخِيارُ الأزمنة : ما آجتمع فيه صلاح الراعى والرعية ، فكان الإمام مؤدِّيا إلى الرعية حقَّهم فى الردِّ عنهم ، والغيظِ على عدوهم ، والجهادِ من وراء بَيْضتهم ، والاختيار لحكّامهم ، وتوليةِ صُلَحائهم ، والتوسعة عليهم فى معايشهم ، وإفاضةِ الأَمْنِ

---

(١) فى الأصل « وتنكره » وأراه محرفا .

(٢) فى كتب اللغة أن حرم يتعدى إلى اثنين فيقال : حرمه الشىء .

(٣) الطوالع : جمع طالع ، وهو السهم الذى يجاوز الهدف ويقع وراءه ، والمعنى: تجاوزتهم الحدود وتعدّيهــا .

فيهم والمتابعة فى الحق[١] لهم ، والعدلِ فى القسمة بينهم ، والتقويم لِأَوَدِهم ، والأخذِ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم ، وكانت الرعية مؤدِّية إلى الإمام حقَّه فى المودة والمناصحة والمخالطة ، وتركِ المنازعة فى أمره ، والصبر عند مكروه طاعته ، والمعونة له على أنفسهم ، والشّدةِ على من أخلَّ بحقه وخالف أمره ، غير مُؤْثِرين فى ذلك آباءهم ولا أبناءهم ، ولا لابِسين[٢] عليه أحدا ، فاذا اجتمع ذلك فى الإمام وَالرعية ، تَمَّ صلاح الزمان ، وبنعمة الله تتمّ الصالحاتُ .

ثم إن الزمان الذى يليه : أن يَصْلُح الإمام نفسُه ويَفسُد الناس ، ولا قوةَ بالإمام مع خِذْلان الرّعية ومخالفتهم وزُهْدهم فى صلاح أنفسهم ، على أن يَبْلُغ اذتَ نفسه فى صلاحهم ، وذلك أعظمُ ما تكون نعمةُ الله على الوالى ، وحُجَّة الله على الرعية بواليهم ، فبالحَرَى أن يؤخذوا بأعمالهم ، وما أخلقَهم أن تُصيبهم فتنة أو عذابٌ أليم!

والزمان الثالث صلاحُ الناس وفساد الوالى ، وهذا دون الذى قبله ، فإن لوُلاة الناس يداً فى الخير والشر ، ومكانا ليس لأحد ، وقد عرَفنا فيما يُعتبَر به أنَّ ألفَ رجل كلُّهم مُفسِدٌ وأميرهم مصلِحٌ ، أقلُّ فسادا من ألفِ رجل كلّهم مُصْلِحٌ وأميرهم مفْسِد ، والوالى إلى أن يصلح الله به الرعيةَ أقربُ من الرعية إلى أن يُصْلِحَ الله بهم الوالىَ ، وذلك لأنهم لا يستطيعون معاتبته وتقويمه ، مع استطالته بالسلطان ، والحَمِيَّة التى تعلوه .

وشر الزمان : ما اجتمع فيه فسادُ الوالى والرعية ، وتلك كارِثَةٌ[٣] لم يتقادَمْ عهدُ كَوْنِها ، ولم تَعْفُ عنكم آثارُها ، وكلُّ هذه الطِّبَاق من الشدة والرخاء فيما يبتلى اللهُ عز وجل به عبادَه ، بِجَزَاء مُعَدٍّ ، وكلمةٍ سابقة ، قال الله عز وجل: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » فَقَوْلى فى هذا الزمان : إنه إلاَّ يكن خير

(١) فى الأصل « فى الخلق » وهو تحريف .

(٢) يقال : لبست القوم : أى تمليت بهم دهرا ، قال الجعدى :

لبست أناسا فأفنيتهم وأفنيت بعدَ أناس أناسا

(٣) فى الأصل « كارهة » وهو تحريف ، وقد أصلحت فى هامشه « كازمة » أى كاسرة بجناحه من كرمه يتقدم فه كضرب : أى كسره واستخرج ما فيه لياً كله .

الأزمان ، فليس على واليكم ذنب ، وإلاّ يكن شَرَّ الأزمان ، فليس لكم حَمْدُ ذلك ، غيرَ أنا بحمد الله قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصلاح بصلاح إمامنا ، ولانخاف عليه الفساد بفسادنا ، وقد رأينا حَظَّه من الله عز وجل فى التثبُّت والعِصْمة ، فلم يَبْرَحِ اللهُ يَزيده خيرا ، ويَزيد به رعيته مُذْ ولاَّه ، فعندنا من هذا وثائقُ من عِبَر وبيِّنات . ونحتسب من الله عز وجل أن لايزال إمامُنَا يسارع فى مرضاة ربه ، بالاستصلاح لرعيته ، والصبر على ما يستنكر منهم ، وقلةِ المؤاخذة لهم بذنوبهم ، حتى يقلب الله له بصلاحه قلوبَهم ويَفتح له أسماعَهم وأبصارهم ، فيجمع ألفتهم ، ويقوِّم أَوَدَهم ، ويُلزمهم مَرَاشِدَ أمورهم ، وتتم نعمة الله على أمير المؤمنين ، بأن يُصْلِح له وعلى يديه ، فيكونوا رَعيَّةَ خيرِ راعٍ ، ويكون راعِيَ خير رعية ، إن شاء الله وبه الثقة .

والذى أصبحْنا نحْمَد من أمير المؤمنين كثير ، أنا ذاكرٌ ما تيسَّر منه ، وإلى هذا سِيقَ الحديثُ ، وهو [قيامُه على] رعاية العهد وجَحْدِ الجَحَدةِ ، وفيه استُبطِئَ المستبطِئُونَ ، ولِيمَ المُلِيمُون(١) ، فإن المستبطَئين فى التقصير لأكثر من المستبطِئين فى الإنكار ، فإنا قلَّما نَلْقَى من أهل العقل والمعاينة منكرًا لنعمة الله بأمير المؤمنين على المسلمين إذا ذُكِّر ذلك ووُقِفَ عليه ، وقلَّما نَلْقَى إلا مقصِّرا من ناطق أو صامت ، ولم تُصبحوا معاتَبين على ما جَهِلتم من حق أمير المؤمنين وفضله فى سير الأمور حين أقبلَت ، فإن الأمر فى مستقبله مما يَشْتبِهِ على ذوى العقول ، وتشتد فيه حَيْرتهم ، لِمَا يشتبهُ عندهم ببعض ما يتذكرون مما مضى : من أمورٍ لم يكن لها تمامٌ ، وأخرى تمَّتْ فلم تُحْمَد ، ولئن كانَ عِلْمٌ وصل إلى خاصَّة قومٍ ، ما عَلَى من قَصُر ذلك عنه لومٌ(٢) ، وإن كان ممن وَصَلَ ذلك إليه ، فأَخذَه بحقه ، فَضْله بذلك ، فإذا آلتِ الأمور إلى مراتبها ، وحُصِّل محصولها ، وصَرَّحَتْ عَنْ مَحْضِها ، لم يكن فى جَهالتها

---

(١) ألام فهو مليم : أتى مايلام عليه . (٢) فى الأصل « لو مرق » وهو تحريف .

عذر ، ولا فى تضييع حق ذى الحجة حجةٌ ، ومَنْ أشدُّ جهلا ، وأفظَع عُذرا ، ممن لم يعرف النعمة ، ولم يقبل العافية ؟ نعوذ بالله أن نكون من الذين لا يعقلون .

فتفهَّموا ما أنا ذاكر لكم ، وتدبَّرُوه بالحق والعدل ، فإن المرء ناظر بإحدى عيون ثلاث ، وهما الغاشَّتان والصادقة ـ وهى التى لا تكاد توجد ـ : عين مودةٍ تُريه القبيحَ حَسَنا ، وعين شَنآنٍ[1] تريه الحسن قبيحا ، وعين عدل تريه حسنها حسناً ، وقبيحها قبيحا .

فتفكَّروا فيما جمع الله لأمير المؤمنين فى مَعْدِنه وفى سيرته ، وفيما ظَاهَرَ عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك فيما عسى القائل أن يبتغى فيه المَغْمَزَ والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم فى الأمر لنصيباً ، وإنه لَمُسْتَراحاً بينهم ، يستوفيهم أمنيَّته ، ويُصدِّق عليهم ظنَّه ، ويُوحِى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفاً ، وحزبه مغلوبا ، وجعله وإياهم نصيباً لجهنم من أجزائه المقسومة لأبوابها وحَطَبها ووَقودها وحَصَبها[2] ليعدِلَ لها .

فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين فى مَعْدِنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلةً ، وأكرمها نِسبةً ، وأولاها بالفضل ، حقُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، وإمام الهدى ، ووارث الكتاب والنبوة ، والمهيْمِن[3] عليهما ، وخاتَم النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله بشيراً ونذيراً ، ودَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ وسِراجاً مُنيراً ، ثم هو باعثه يوم القيامة مَقاماً محموداً، شرع الله به دينه ، وأتمّ به نورَه على عهده ، ومحق رءوس الضلالة ، وجبابرة الكفر ، وخوَّله الشفاعة ، وجعله فى الرَّفيق الأعلى ، صلى الله عليه وسلم » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٠)

---

(١) الشنآن : البغض والكراهية .
(٢) الحصب : الحطب : وما يرى به فى النار .
(٣) المهيمن : الأمين أو المؤتمن أو الشاهد .

٢٩ — تحميد لابن المقفع

« الحمد لله ذى العَظَمة القاهرة ، والآلاءِ[١] الظاهرة ، الذى لا يُعْجزه شىء ولا يَمتنع منه ، ولا يُدْفع قضاؤه ولا أَمْرُه « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَـكُونُ » والحمد لله الذى خَلَقَ الخلق بعلمه ، وَدَبَّرَ الأمور بحُـكْمه ، وأَنْفَذَ فيما اختار واصطفى منها عَزْمَه ، بقدرةٍ منه عليها ، ومَلَـكَةٍ[٢] منه لها ، لا مُعَقِّبَ لِحُـكْمِهِ ، ولا شريك له فى شىء من الأمور ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، ما كان للناس الخِيَرَةُ فى شىء من أمورهم ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذى جعل صَفْوةَ ما اختار من الأمور دينَه الذى ارتضى لنفسه ، ولمن أراد كرامتَه من عباده ، فقام به ملائـكتُه المقرَّبون ، يُعظِّمون جلاله ، ويقدِّسون أسماءه ، ويذكُرون آلاءه ، لا يَسْتَحْسِرون[٣] عن عبادته ولا يستكبرون . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ، وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه فى أرضه ، يُطيعون أمره ، وَيَذُبُّونَ عن محارمه ، ويصدِّقون بوعده ، ويُوفون بعهده ويأخذون بحقه ، ويجاهدون عدوَّه ، وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم ، وإفلاجه[٤] حُجَّتَهم ، وإعزازِهِ دينَهم ، وإظهارِه حقَّهم ، وتمـكينه لهم ، وكانَ لِعَدُوِّهِ وعدوِّهم عندما أوعدهم من خزيه ، وإحلالِه بأسهم ، وانتقامِه منهم ، وغَضَبه عليهم ، مَضَى على ذلك أمرُه ، ونَفَذَ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو مُمْضِيه ومُنْفِذه على ذلك فيما بقى ، لِيُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْـكَافِرُونَ ، ولِيُحِقّ الحق ويُبْطل الباطل ولو كره المجرمون .

والحمد لله الذى لا يَقْضِى فى الأمور ولا يدبِّرها غيرُه ، ابتدأها بعلمه ، وأمضاها بقدرته ، وهو وَلِيُّها ومنتهاها ، وولىّ الخِيَرَةِ فيها ، والإمضاء لما أحب أن يُمْضِىَ منها ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

---

(١) الآلاء : النعم . (٢) الملـكة : الملك .
(٣) أى لا يعيون ولا يملون . (٤) أى نصره .

والحمدُ لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذى المنّ والطَّوْلِ ، والقدرة وَالحوْلِ ، الذى لا مُمْسِكَ لِمَا فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافِعَ لما أنزل بأعدائه من نِقمته ، ولا رادَّ لأمره فى ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والحمد لله ، المُثِيب بحمده ومنه ابتداؤه ، والمنعِم بشكره وعليه جزاؤه ، والمُثْنى بالإيمان وهو عطاؤه » .

(اختيار المنظوم والمنثور : ١٣ : ٢٨٢)

٣٠ — كتاب ابن المقفع إلى بعض إخوانه

وكتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فتعلَّم العلمَ ممن هو أعلمُ به منك ، وعلِّمه مَن أنت أعلَمُ به منه ، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلك علِمْتَ ما جهِلْتَ ، وحفِظتَ ما علِمتَ » .

(أمالى السيد المرتضى ١ : ٩٥) .

٣١ — وله فى وصف أحد إخوانه

ومن قوله يصف أخا له[١] :

« إنى مُخبِرك عن صاحب لى كان أعظم الناس فى عينى ، وكان رأسَ ما عظَّمه فى عينى صِغَرُ الدنيا فى عينه ، كان خارجاً من سلطان بَطنه ، فلا يتشهَّى ما لا يجد ، ولا يُكْثِر إذا وَجَد ، وكان خارجا من سلطان فَرْجه ، فلا يدعو إليه[٢] رِيبةً ، ولا

---

(١) وردت هذه القطعة فى آخر الأدب الكبير لابن المقفع ، وإنما ذكرتها هنا لوقوع الاختلاف فى نسبتها إليه ، فهى فى الأدب الكبير وزهر الآداب تعزى إليه ، ونسبه الشريف الرضى فى « نهج البلاغة ج ٢ : ص ١٤٧ » إلى الإمام على كرم الله وجهه ، ونسبها ابن قتيبة فى « عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٥٥ » إلى الحسن بن على رضى الله عنه ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) وفى زهر الآداب « فلا تدعوه إليه مؤنة » وأرى أن صوابه « فلا يدعو إليه مؤنة » كما فى رسائل البلغاء .

يستخفّ له رأياً ولا بدنا ، وكان لا يأشَرُ(١) عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يُمارِي(٢) فيما علم ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثِقةٍ بمنفعة ، وكان أكثرَ دهره صامتا ، فإذا نطقَ بَذَّ القائلين ، وكان يُرَى ضَعيفا مستضعَفا ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل فى دَعْوَى ، ولا يشارِك فى مِراء ، ولا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حتى يرى قاضيا فَهِماً وشهودا عُدُولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العُذْرُ فى مثله حتى يعلم ما اعتذارُه ، وكان لا يشكو وَجَعَهُ إلا إلى من يرجو عنده البُرْء ، ولا يستشير صاحبا إلا من يرجون عنده النصيحةَ ، وكان لا يتبرّم(٣) ولا يتسخط ، ولا يتشكى ولا يتشهَّى ، وَكان لا ينتقِمُ عَلَى الولىّ ، ولا يغفُل عن العدوّ(٤) وَلا يخصّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وَقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتَها — ولن تطيقَ — ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع » . (الأدب الكبير ص ١٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ٢٢٤)

٣٢ — كتاب ابن المقفع إلى صديق له يهنئه بمولودة

وكتب ابن المقفع إلى صديق له ، ولدت له جارية :

« بارك الله لكم فى الأُبْنَة المستفادَة ، وجعلها لكم زَيْنا ، وأجرى لكم بها خيرا ، فلا تَكرَهْها ، فإنهن الأُمَّهات والأَخوات والعمّات والخالات ، ومنهن الباقياتُ الصالحات ، وَرُبَّ غُلَامٍ ساء أهله بعدَ مَسرّتهم ، وَرُبَّ جاريةٍ فرّحت أهلها بعد مساءتهم » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

---

(١) هذه الجملة وما بعدها واردتان فى زهر الآداب الكبير ، وأشر كبطر وزنا ومعنى ، وفى زهر الآداب « لا يتأثر » وهو تحريف .

(٢) لا يمارى : لا يجادل ، وفى الأدب الكبير « ولا ينازع » .

(٣) يتبرم : يضجر . (٤) وفى زهر الآداب « ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الولى » .

٣٣ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب تعزية عن ولد :

« أعظم اللهُ على المصيبة أجْرَكَ ، وأحسَنَ على جليل الرُّزْءِ ثوابك ، وَعَجَّل لك الخَلَفَ فيه ، وذَخَرَ لك الثوابَ عليه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٤ — كتابه يعزى عن ولد

وكتب يعزى عن ولد أيضاً :

« إنما يستوجب على الله وَعْدَه ، مَن صَبَرَ لِلّٰه بحقه ، فلا تَجمعَنَّ إلى ما فُجِعْتَ به من ولدك ، الفجيعة بالأجر عليه والعِوَض منه ، فإنها أعظم المصيبتين عليك ، وأنكى المَرْزِئَتين[1] لك ، أخلف الله عليك بخير ، وذَخَر لك جزيلَ الثواب » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٥ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن ابنة :

« لا ينقُصِ الله عَدَدَك ، ولا يَنْزِعْ عنك نعمَته التى ألبَسك ، وأحسَنَ العِوَض لك ، وجعل الخَلَف لك خيراً مما رَزَأك به ، وما أعطاك خيراً مما قَبَضَ منك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٦ — كتابه يعزى عن بنت

وكتب يعزى عن بنت أيضاً :

« جَدَّد الله لك من هِبَته ما يكون خَلَفا لَكَ بما رُزِئْتَه ، وعِوَضاً من المصيبة به ،

---

(١) المرزئة والرزيئة والرزء : المصيبة .

ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رَزَأَك به منها ، فما أقلَّ كثيرَ الدنيا ، فى قليل الآخرة ، مع فَناءِ هذه ، ودوامِ تلك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٧ — كتاب تعزية له

وله تعزية أيضاً :

« أعظم الله أجرك فى كل مصيبة ، وأوْزَعَك[1] الشكر على كل نعمة ، أعْرِف لله حَقَّه ، واُعتصِمْ بما أمر به من الصَّبر ، تَظفَرْ بما وعد من عظيم الأجر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٨)

٣٨ — كتاب آخر

وله أيضا :

« أما بعد ، فإن أمْرَ الآخرة والدنيا بيد الله ، هُو يدَبِّرهما ويقضى فيهما ما يشاء ، لارادَّ لقضائه ، ولامُعَقِّبَ لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلاَ يطمعَ أحد من خلقه فى خُلْدِ الدنيا ، ووقَّت لكل شىء ميقاتَ أَجَل ، لا يَسْتَأْخِرُونَ عنه سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ ، فليس أحد من خَلْقه إلا وهو مستَيقِنٌ بالموت ، لايرجو أن يخلِّصه من ذلك أحد ، نسأل الله خيرَ المُنْقَلَب .

وبلغنى وفاةُ « فلان » فكانت وفاته من المصائب العِظام ، التى يُحْتَسَب ثوابُها من ربنا ، الذى إليه مُنقَلَبُنا وَمَعَادُنا ، وعليه ثوابُنا .

فعليك بتقوى الله والصبر ، وحُسْنِ الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمةً وجعلهم من المُهتَدِين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

---

(١) أى ألهمك .

٣٩ – كتابه إلى صديق له يستقضيه حاجة

وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة :

« أما بعد ، فإن مَن قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجَبَ بذلك الشكرَ عليهم ، فلِنَفْسِه عَمِل لا لهم ، والمعروفُ إذا وضع عند من لا يشكره فهو زَرْعٌ لا بدَّ لزارعه من حَصاده ، أو لِعَقِبه من بعده .

وكتبتُ إليك ، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجةٌ ، أوَّلُ ما فيها معروفٌ ، تستوجِبُ به الشكرَ علينا ، وتَدَّخِر به الأيادىَ قِبَلَنا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٢)

٤٠ – كتاب آخر

وكتب فى استقضاء حاجة أيضاً :

« إن الناس لم يَعْدَموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواصِّ من الإخوان ، وأن يتواصلوا بالحقوق ، ويَرْغبوا إلى أهل المقامات ، ويتوسَّلوا إلى الأكفاء ، وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير ، وممن أعان عليه ، وبَذَل لأهل ثقته المُصافِينَ ، وإنَّ بَذْلَ النفوس فيه ، وإعطاء الرَّغيب ، ليس منك ببِكْر ولا طَرِيف ، بل هو تَليدٌ ، أتْلَدَه أوَّلُكم لآخركم ، وأورثه أكابرُكم أصاغِرَكم .

ومن حاجتى « كذا » ، وأنت أحقُّ من طلبْتُ إليه واستعنتُه على حوادث الدهر ، وأنزلتُ به أمرى ، لِقُرْب نسبك ، وكريم حَسَبك ، ونباهتِك ، وعلوِّ منزلتك وجسيم طبائعك ، وعوامّ أياديك إلى عشيرتك وغيرها ، فليكن من رأيك ما حَمَّلتُك من حاجتى ، على قدر قَسْمِ الله لك من فضله ، وما عوَّدك من مِنَنه ، ووَسِعَ غيرى من نعمائك وإحسانك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٢)

٤١ — كتاب له فى السلامة

وله فى السلامة :

« أما بعد ، فقد أتانى كتابك فيما أخبرتَنَا عنه ، من صلاحك وصلاح ما قِبَلك ، وَفى الذى ذكرت من ذلك نعمةٌ مُجَلَّلة عظيمة ، نحمَدُ عليها وَلِيَّها المُنْعِمَ المُفضِلَ المحمودَ ، ونسأله أن يُلهِمنا وَإياكَ من شكره وذكره ما به مَزِيدُها ، وتأديةُ حقِّهَا .

وَسألتَ أن أكتب إليك بخبرنا ، وَنحن من عافية الله وَكِفَايته وَدفاعِه على حال لو أطنبتُ فى ذِكرها ، لم يكن فى ذلك إحصاء للنعمة ، وَلا اعترافٌ لِكُنْهِ الحق ، فنرغبُ إلى الذى تزداد نِعمُه علينا فى كل يوم وَليلة تظاهُرًا ، ألاَّ يجعلَ شكرنا منقوصا وَلا مدخولا ، وَأن يرزقنا مع كل نعمة كِفاءَها من المعرفة بفضله فيها ، وَالعملَ فى أداء حقها ، إنه وَلىٌّ قديرٌ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨ و ٣٧٦)

٤٢ — كتاب آخر إلى ابن الثقفى

وله فى السلامة إلى ابن الثَّقَفى :

« أما بعد ، فإن مما نمَّى الله به مَناقِبَك الكريمة المحمودَةَ الفائتةَ عن القول والوصف ، أنك موضعُ المُؤنات(١) عن إخوانك ، حَمَّالٌ عنهم أثقال الأمور ، وَمما وَضعت عنه المؤنةَ ارتفاعُك عن الأمور التى يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس إذا أباحوه وبَهْرَجوه(٢) ، وضيّعوا القولَ ونَسُوا القَصْدَ فيه ، وأخذوا به فى كل فن ، وأَصْفَوا(٣) بصَفْوَته غيرَ أهلها فيما لاينبغى لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل .

كان من خبرى بعدك أنى قَدِمْتُ بلد كذا ، فتهيأ لى بعض ما شَخَصْتُ له ،

---

(١) المؤنة كغرفة وركوبة وسورة : الثقل .

(٢) البهرجة : أن يعدل بالشىء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .

(٣) أصفاه بكذا : آثره .

والمحمودُ على ذلك اللهُ عز وجل ، وأنا على أن يأتيني خَبَرُك محتاجٌ ، فأمّا جُمْلة خَبَرى في فراقك فَقَلْبى مكةُ : كلٌّ ما سواكَ حَرَامٌ فيها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٣ — كتاب آخر

وله جواب في السلامة :

« أما بعدُ ، فقد أتاني كتاب الأمير ، رَجْعَةَ كتابي إليه ، فكان فيه تصديقُ الظن ، وتثبيت الرأى ، وَدَرْكُ البُغْية ، والله محمودٌ ، فأمْتَعَ اللهُ بالأمير ، وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخير مستعمِرًا له فيه ، مستعملا بطاعته التي بها يفوز الفائزون ، والذى رَزَق اللهُ من الأمير فهو عندى عظيم نفيس ، وكلُّ الذى قِبَلى عن مكافأته فقَصِّر ، إلا أنه ليس فى النية تقصيرٌ ، ولا بلوغَ لشىء من الأمور إلاَّ بتوفيق الله عز وجل ومَعُونته ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٤ — كتاب فى السلامة

وفى السلامة أيضاً[١] :

« كتبتُ إليك ، وأميرُ المؤمنين ، وما يأتيه من لِينِ الطاعة واتِّساق الكلمة ، عَمَّت فى الدانى والقاصى من بُلْدانه ، وحَواشِى سُلْطانه ، على ما يُحْمَدُ الله عليه ، فإن نعمة الله على أمير المؤمنين تَجْرِى على أذْلالها[٢] ، وتنقادُ فى أسهَلِ سبيلها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٧)

---

(١) هكذا ذكر ابن طيفور ، ولم ينص على أنه لابن المقفع .

(٢) يقال : أمور الله جارية أذلالها وعلى أذلالها : أى مجاريها جمع ذل بالكسر .

٤٥ — كتاب لابن الثقفى فى السلامة

وكتب ابن الثَّقَفى فى السلامة :

« أما بعد ، أصلَحَنا الله وإياك صلاحاً دائماً يجمع لنا ولك به الفضيلةَ فى العاجلة ، والكرامةَ فى الآجلة ، فإنى لا أعلم أمراً أعظمَ عند أهل منفعةٍ من أمرٍ تُرِك ذِكْرُه لفضله ، ولا أعلمُ أمراً أحقَّ أن يستغنيَ أهلُه بفضله عندهم ، عن ذكره فيما بينهم ، من أمر وَشَّجَ[١] اللهُ بيننا وبينك فى الدنيا ، حتى نكون به إخوانا فى الآخرة ، حين تصير الخُلَّةُ[٢] عداوةً بين أهلها ، إلا عداوة المتقين .

كتبتُ والأمير فى دِخْلة أمره وجميع حاله ومَن قِبَلَه من الجند والرعية على « كذا » ، ونحن فيما يحبُّ امرؤ أن يكون عليه أحد من إخوانه ، فإنى لا أرجو إلاَّ أن أكون مقصِّرًا عن أفضل غاية ذلك ، فى تعظيم حقك ، ورِعاية وُدِّك وعهدك وحفظك ، إن شاء الله .

وأمَّا ما قِبَلَ فلان فليست بك إلينا فيه ولا إلى غيرنا حاجة ، أنت منه بمكانِ أخصِّ الخاصَّة فى المودة والثِقة ، وأرْضَى الرِّضا فى الدين والمُروءة ، ونسأل الله أن يَزين كلَّ محسن بك ظنا ، وطالبٍ لك فضلاً ، بتصديق أحسن ما نظَر وتعرَّف » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٦)

٤٦ — كتاب ابن المقفع إلى يحي بن زياد الحارثى

ولعبد الله بن المقفع إلى يحيى[٣] بن زِياد الحارثى ابتداء فى المؤاخاة :

« أما بعد ، فإن أهلَ الفضلِ فى اللُّب ، والوفاءِ فى الودِّ ، والكرمِ فى الخُلُق ،

(١) أى ألف ووصل . (٢) الخلة : الصداقة .

(٣) من ولد الحارث بن كعب ، شاعر مترسل بليغ — انظر الفهرست ص ١٧١ ، وله أخبار متفرقة فى الأغانى .

لهم من الثناء الحسَن فى الناس لسانُ صِدْق يُشِيد بفضلهم ، ويُخْبِر عن صحة ودّهم ، وثِقةِ مؤاخاتهم ، فيتخيَّر إليهم رغبةَ الإخوان ، ويصطفى لهم سلامةَ صدورهم ، وَيَجْتَبِى لهم ثمرةَ قلوبهم ، فلامُثْنَى أفضلُ تقريظا ، ولا مُخبِرَ أصدقُ أُحدوثةً منه ، وقد لزمتَ[١] من الوفاء والكرم فيما بينك وبين الناس طَريقةً محمودةً ، نُسِبْتَ إلى مزيتها فى الفضل، وَجمُل بها ثناؤكَ فى الذِّكر ، وشَهِدَ لك بها لسانُ الصِّدق، فعُرِفْتَ بِمَنَاقِبها ، ووُسِمْتَ بمحاسنها ، فأسرَعَ إليك الإخوان برغبتهم مُستبِقِين ، يَبتدرون[٢] وُدَّكَ ، وَيَصِلُون حَبْلَكَ ، ابتدارَ أهلِ التنافُسِ فى حَظٍّ رغيبٍ ،وَنَصَبْتَ لهم غايةً يجرى إليها الطالبون ، ويفوزُ بها السابقون ، فمن أثبتَ اللهُ عندك بموضع الحِرْزِ والثقة ، وَملأَ بك يَدَه من أخِى وفاء وَوُصْلة ، واستنام منك إلى شِعْبٍ[٣] مأمون ، وَعَهْدٍ محفوظ ، وصار مغمورًا بِفَضْلِكَ عليه فى الودِّ يتعاطَى من مكافأتك ما لا يستطيع ، وَيطلُبُ مِنْ أَثرِكَ فى ذلك غايةً بلوغُها شديدٌ ، فلو كنتَ لاتُؤاخِى من الإخوان إلاَّ من كافأ بودِّكَ ، وَبلغ من الغايات حَدَّكَ ، ما آخيتَ أحدا ، وَلَصِرْتَ مِنَ الإخوان صِفْرا ، وَلكن إخوانك يُقِرُّون لك بالفضل ، وَتَقبَلُ أنت ميسورهم من الودِّ ، ولا تجشِّمهم كُلَفَ مكافأتك، وَلا بلوغَ فضلك فيما بينك وبينهم ، فإنما مَثَلُكَ فى ذلك وَمثلهم كما قال الأول :

وَمَن ينازِعْ سعيدَ الخيرِ فى حَسَبٍ ‏ ‏ ‏ ‏ يَنزِعْ طَلِيحاً وَيُقْصِرْ قَيْدَه الصَّعَدُ[٤]

وَلم أُرِدْ بهذا الثناءِ عليك تزكيتَك ، ليكون ذلك قُربةً عندك ، وَآخِيَّةً[٥] لى لديك ، ولكن تحرَّيتُ فيما وصفتُ من ذلك الحقَّ وَالصدقَ ، وَتنكَّبْتُ[٦] الإثم

---

(١) وجاء فى العقد الفريد (٢ : ١٩٦) : « فصل لمحمد بن الجهم : إنك لزمت من الوفاء طريقة محمودة ، عرفت بمناقبها ، وشهرت بمحاسنها ، فتنافس الإخوان فيك يبتدرون ودك، ويتمسكون بحبلك، فمن أثبت الله له عندك ودا ، فقد وضع خلته موضع حرزها » — والخلة بالضم : الصداقة — وفى الأصل « حلته » وهو تصحيف .

(٢) أى يتسابقون إليه . (٣) استنام إليه : سكن واطمأن ، والشعب : الطريق فى الجبل .

(٤) طلح البعير كمنع : إذا أعيا وكل وسقط من السفر ، فهو طليح ، والصعد : المشقة .

(٥) الآخية بالتشديد والتخفيف : مثل عروة تشد إليها الدابة ، ومعناها هنا وصلة وقربة .

(٦) تنكب : عدل وتجافى .

وَالباطلَ ، فإن القليلَ من الصدق البرىء من الـكذب ، أفضلُ من كثير الصدق المَشُوبِ بالباطل ، ولقد وَصفتُ من مَنَاقبك ، وَمحاسِنِ أمورك ، وَإنى لأَخاف الفتنة عليك حين تسمع بتزكيةِ نفسِك ، وذِكرى ما ذكرتُ من فضلك ، لأن المدح مَفسَدةٌ للقلب ، مَبْعَثةٌ للعُجْب ، ثم رجوتُ لك المَنعة وَالعِصْمة ، لأنى لم أذكر إلا حقًّا ، وَالحقُّ ينفِى عن اللبيب العُجْبَ ، وَخُيَلاءَ الـكِبر ، وَيَحمِلُه على الاقتصاد وَالتواضع ، وَقد رأيتُ ـ إذ كنتَ فى الفضل وَالوفاء على ما وصفتُ منك ـ أن آخُذ بنصيبى من وُدِّك ، وَأَصِلَ وثيقةَ حَبْلِى بحبلك ، فيَجْرِىَ بيننا من الإخاءِ أواصِرُ[1] الأسباب التى بها يستحكِمُ الودُّ ، ويدوم العهدُ ، وعلمتُ أن تركى دلك غَبنٌ ، وإضاعتى إياه جَهلٌ ، لأن التارك للحَظِّ داخِلٌ فى الغَبْنِ ، وَالعائِد عن الرشد مُوجِفٌ[2] إلى الغىِّ ، فارغبْ من وُدِّى فيما رغِبت فيه من وُدِّك ، فإنى لم أَدَعْ شيئاً أستَتْلِى به منك الرغبة ، وَأَجْتَرُّ به منك المودةَ ، إلا وقد اقْتَدْتُ إليك ذريعتَه ، وأعملْتُ نحوَك مَطِيَّتَه ، لِترَى حِرْصى على مودتك ، وَرغبتى فى مؤاخاتك ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠١)

٤٧ — رد يحي بن زياد على ابن المقفع

فـكتب إليه يحيى بن زياد :

« أما بعد ، فإنا لمَّا رأينا موضعَ الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسِه من الوَحْشة ، وَتقريبهِ لذى البُعْدة[3] ، ومُشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة ، لم نَرْض بمعرفة عَيْنِهِ دون معرفة نِسْبته ، فنسبنْا الإخاء فوجدناه فى نِسبته لا يَستحقُّ آسمَ الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلْنا عنه إلى الوفاء فنَسبْناه ، انتسَبَ لنا إلى الصبر ، فوجدناه مُحتوِيًا

(١) أواصر جمع آصرة : وهى حبل صغير يشد به أسفل الخباء . (٢) أى مسرع .

(٣) ذو البعدة : الذى يبعد فى المعاداة ، ويقال أيضا إنه لذو بعد وبعدة بالضم فيهما : أى لذ ورأى وحزم ، يقال ذلك للرجل إذا كان نافذ الرأى ذا غور وذا بعد رأى .

على الكرم ، والنَّجدة ، والصدق ، والحياء ، والنجابة ، والزَّكانة[١] ، وسائر ما لا يأتى عليه العددُ من المحامِدِ ، ثم انحدَرْنا فيما أصْعَدنا فيه من هذا النَّسَب ، فَعُدْنا إلى الإخاء فوجدناه لا يقُوم به إلا مَنْ هذه الخِصالُ كلُّها أخلاقُه ، ولَمَّا استوجب الإخاء مَسالِكَ المَحْمَدة كلها ، رأَيْنا أن نتخيَّر له المواضع فى صواب التوزير ، وإحكام التقدير ، وعلِمْنا أن الاحتباس به ، أحسنُ من الندم بعد بَذْلِه ، واستوجَبَ — إذ كان جِماعَ المحامدِ — أن نتخيَّرَ له مَحامِلَه التى كان يُحْمَلُ عليها ، فكان الناس فيما احتبَسْنا به عنهم من الإخاء ، على صِنفين : فصنفٌ عَذَرُونا بالتحبُّس للتخير ، إذ كان التخيُّر من شأنهم ، وصنف هم ذوو سُرْعة إلى الإخاء وسُرعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمةَ[٢] ، واستعجلوا بالمودَّة ، وتركوا باب التَّروِيَةِ ، واستحْلَوا عاجِلَ المحبة ، ولَهَوْا عن آجلِ الثقة ، فكانوا بذلك أهلَ لائمةٍ ، ولم يجد المُعْذِرون[٣] إلا الصبرَ على تلك ، والاستعمالَ للرأى ، والاستعدادَ بالعُذْر عند المُحاجَّة .

وقد فهمتُ كتابَك إلىَّ بالمودة ، واستحثاثَك إياى فى الأخوة ، وما دنَوتَ به من حُرْمة المحبة ، فنازعَتْ[٤] إليك نفسى بمِثل الذى نازعَتْ به إلىَّ نفسُك ، فواثبَتْنى عادةُ الاستعمال للتروية فى الخبرة ، والتخيُّر للمَغَبَّة ، فَجُلْتُ عن كتابك جَوْلةً غيرَ نافِرَة ، ثم راجعتُ مقاربتَكَ ، فقلتُ : أَلْقَى إلىَّ أسبابَ المودة قبل كَشْف الغطاء بالخبرة فخشِيتُ أن تَعْذِر نفسك بالتقدم ، وتُحْدِث الزهادة للتعسُّف بالجَهالة عند الخبرة ، فَجُلْتُ عن هذا جَوْلةً كالجولة الأولى ، ثم عاودت إسعافَك ، وطاعةَ التشوق ، ومعصية التخيُّر ثم قلتُ ماحالُ مَنْ جَعَلَ الظنَّ دون اليقين ، والتقدمَ قبلَ الْوَثيقة ؟ فلما كان الرأى لى خَصْما ، تنكَّبْتُ الوقوعَ فى خِلافه ، فلم أَجِدْ إلا الإدبارَ عن إقبالك سبيلا ، ولا مع

---

(١) الزكانة : الفطنة والحدس الصادق . (٢) اللائمة : اللوم .
(٣) المعذر : من كان له عذر . (٤) أى اشتاقت .

ذلك فى طاعة الشوق حُجَّةً ، فتبيَّنْتُ[١] السبيلَ بين ذلك إلى إعطائك طَرَف حبلِ الإخاء ، فى غير الخروج من سبيل التخيُّر ، وكَرِهْتُ أن تستعبدَنى بالإخاء ، قبل أن أعرفَك بحُسْن المَلَكَةِ ، وأن تستظهرَ بى[٢] على الأعداء ، قبل أن أعرفك بعَدْلِ السِّيرة، وأن تستضىءَ بى فى ظُلَمِ الجهل، قبل أن أعرفك بِعَقْدِ اللُّبِّ ، وأن تستمكنَ بى فى المَطَالب ، قبل أن أعرفك بِقَصد الهِمَّة ، فقدَّمْتُ إليك الترحيبَ والعِـدَةَ ، وأحسنتُ عنك المفاوضَةَ والثقة ، وتنظَّرت أن تُثْمِرَ لى فأذوقَ جَناكَ[٣] ، فأعرفك بالمَذَاقة فى الطَّعم ، إما لافظا ، وإما مُستبلِعاً[٤] ، فإن كان اللَّفْظُ لم أكن من الرأى فى قلبه ، وإن كان الاستبلاعُ ذوَّقتك ما تشوقتَ إليه مما ادَّعيتَ منى به الخِبرةَ ، وأوَّلُ ما أنا معتبِرٌ به منك المواظبةُ على استنجاح ما سألتَ أو السآمةُ له ، فإن كانت المواظبة فأحَدُ الشهود المعدَّلين[٥] ، وإن كانت السآمة ، فأنت عن حَمْلِ ما تُعطى أضعفُ منك عن حمل ما تطلب ، طالِعْنى بكتبك ، فإنك قد حَلَلْتَ قِبَلى عَقْدا من التحفظ ، وعَقَدت عَقْدا من التقرب ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٢)

٤٨ — كتاب أبى نصر الرقاشى إلى يحى بن زياد

وكتب أبو نصر[٦] الرَّقاشى إلى يحيى بن زياد فى الإخاء :

« أما بعدُ ، أصلحك الله ، وأمتعَ بك ، فى سَتْرٍ منه وكرامة دائمة ، فإن خيرَ ما استفاد المرء لنفسه ، واستعان به على مُروءته ، واعتقد[٧] لدنياه وآخرته ، وإن كان الله قد أكملَ عقلَه ، وأحسنَ إليه فى جميع أموره ، الأدبُ الصالحُ الذى به يُكشَفُ

---

(١) فى الأصل « فتغنيت » وهو تحريف . (٢) أى تستعين .
(٣) الجنى : مايجنى . (٤) فى الأصل « مستبلغا » وهو تصحيف .
(٥) أى المزكين ، من عدله إذا زكاه .
(٦) هو يونس بن أبى ذروة ، كتب لعيسى بن موسى — انظر الفهرست ص ١٨١ —
(٧) أى امتلك . اعتقد مالا : اقتناه .

غِطاء الجهل ، وتنجلي غِشاوة العَمَى ، ويستنبط به مَذْخور العلم ، ويستدل به على سبيل الرشاد ، وإنى وجدت الطريق إلى سبيل الخير الأدبَ ، لأن ما سَلَف من عهد الله فى الماضين ، وبقِىَ فى الغابرين ، تأديبٌ لهم ، وحُجّة عليهم ، ولم أرَ من درجات الخير درجةً ، ولا فى أعلى الشرف مَحَلّةً ، إلا والأدب الصالح مفتاحُ بابها ، والسُّلَّم إلى إحراز نُبلها ، قَبِلَ ذلك مَن قَبِلَه فكان أسعَدَ به ، وَضيّعه مَن ضَيَّعه فكان أشقى به .

وَقد ابتليتنى فى ذلك أحسن البلاء ، ووليتَنى فيه بأحمدِ الولاية ، فحملتَ منى المؤونة وقَبِلْتَنى بالأدب على الصغيرة ، ورضيتنى مُحْرِما[1] عَتيقاً ، لاتدَّخِرنى نُصْحاً ، ولا تألونى رشداً ، فعلمتنى مالم أعلَمْ ، وبصَّرتنى ما كنتُ أجهَل ، حتى ومَتَنى بعد الإغفال، ونوَّهتْ بى بعد خُمُول ذِكرى ، وَشَهَرتْنى بعد الأُفُول بسطةٌ من طَوْلك ، وَيدٌ من فضلك ، كأنك تشكر لذلك نعمةً ، أو تجزِى[2] مِنَّةً ، فكنتُ فى نعمتك إلى يومى هذا ، قد أعطيتنى منك النَّصَفَ ، مودةَ كريمٍ بنا وَحفظاً وإنعاماً ؛ وَليس المُنْعِم كمتحمِّل النعم ، إفضالاً بعد إفضال ، وَرِبابَة[3] بحسن بلائك ، وتنبيها على كريم فعالك ، فِعلَ ذى الشرف بذى الشرف ، وَالوالدِ ذى النعمة ، فأصفَيْتَنى دونَ[4] لُطْفِ بَنِى الأَخِ ، وَلَطُفْتَ لِى دُونَ منزلةِ العموم ، أخاً بَرًّا ، لا بل أباً كريماً ، فَخَلَفتَ لى من سواكَ ولستَ بمخلوف ، وكفيتنى الهَمَّ بإذن الله ، وسَدَدْتَ عنى ثُلْمَةَ البعيد ، ثم لم يأتِ علىّ يومٌ منذُ أنزلنى الله منك بحيثُ أنزلنى ، وأصفانى منك بما أصفانى به ، إلاّ وأنا لك فيه أحمَدُ من الماضِى قبلَه ، وكذلك أنت لى فى غدك إن شاء الله .

ثم رأيتك لا تزداد على الخِبْرة إلا طِيبا ، ولا على بُعد الغاية إلا قُربا ، ولا على طول الأيام إلا حُسْنا ، لم أتحلّل من عَقدك عُقدة ، ولم أزدَدْ من فضلك إلا وَفْرا ، ولم

---

(١) من أحرم : إذا دخل فى الحرم ، دخل فى حرمة لاتهتك .

(٢) فى الأصل « تجرى » وهو تحريف .

(٣) رب النعمة والصنيعة كنصر . ربابة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) دون : نقيض فوق ، وتأتى بمعنى فوق ، وهو المراد هنا ، والمعنى : وآثرتنى بلطف فوقه لطف بنى الأخ .

يُقصِّر بى(١) عن أداء حقك والمحافظةِ عليه وَعلى ما يجب من المعرفة بفضلك ، تضييعُ الأمانة ، ولا نسيانُ النعمة ، ولا نُقصانُ الشكر .

وقد علمتُ أن لك فى الشكر رأياً ، وفى استخراجك الشكر منى دليل على أنى من أهله إن شاء الله، فإنى وجدت الشكر شقيق الحسَب، والوفاء وجدته يَجْزِى(٢) من النعم ما قبله ، ويستدعى تمامَها بعده ، فأىُّ امرئٍ أخبَثُ صنيعاً إلى نفســـه فيما يسوءها(٣) منّى إذا كان شكرك عندى منقوصاً ، وَبلاؤُك لدىَّ مكفوراً ، وَفضلُك علىَّ مجهولا ، ولكنه لم يساعدنى دهرٌ مُعِين ، فأَجْزِى بالبُؤْسَى ، وَأُصْفِى بالنُّعْمَى ، وَإن أَبْلُغْ ذلك بعون الله ، فهو أَملى وَما فيه النعمة ، وَإنْ تُقَصِّرْ بى دونَ ذلك مقصِّراتُ التقدير ، فنحن وَأنت راضون(٤) بما أتانا به تقديرُ المُسَوِّى بعَدله بين خلقه ، وَالسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٦)

٤٩ — جواب يحى بن زياد

« أما بعدُ ، دَفَعَ اللهُ عنا وعنك ما نكرهه بالنعم السَّوابغ ، ووقانا وإياك الأمورَ المشتبهة بالكرامات الظاهرة ، والأيادى المترادفة ، حتى يزول القضاء بنـــا وبك إلى ما نُحِبُّ ونَرْضى ، فإنك كتبتَ إلىَّ تذكُر منزلةَ الأدب من المتأدِّب ، ورأيتك ترغَب إلى الإكثار والترديد ، وقد يفزَع إلى ذلك بعضُ المجتهدين ، فإن اُسم الاجتهاد إنما يقع على من بَلَغ جُهْدَه ، ولكنى قد رأيت لك إخوانا ممن لم تعلَقْ بهم معرفتك يُعجِبهم من أنفسهم وإخوانهم أن يجدوا لكثير الكلامِ جوامعَ(١) يحيدون(٢) بمعرفتها عن سَقْطة الهَذَر، ويأمَنون بها مع ذلك الخطأ، ولم تعدِلْ عن حسن النية فى الإرادة لذلك،

---

(١) فى الأصل « ولم يقصدنى » وهو تحريف .

(٢) فى الأصل « يجرى » وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل « فن سواها » .

(٤) فى الأصل « راجونا » وهو تحريف .

(٥) الجوامع : جمع جامعة ، وهى القيد .

(٦) فى الأصل « يحدون » وهو تحريف .

كما[1] عرفتُ من إعلامِ كتابك ، إلا أن المُريد بنيته غيرُ معذور ، دون أن يبلغ فيه بفعله[2] ، وقد يُنحَّى عنى اسمَ العنف بك ، وَيُلزِمنى اسمَ التأديب لك ، أن التأديب بينى وبينك غير مُنكَر عندى وعندك ، وَإنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى قَعُود[3] العُنفِ كان كافيا لك من جميع صفات تعظيم الأدب أن تقول : لولا الأدبُ سَقَطَ اسمُ المتأدبين ، وإذا سقط غَلَبَ اسمُ الجاهلين ، وإذا غلب اسم الجاهلين عُصِىَ الخالق ، وَفسَدَتِ الدنيا ومن فيها .

وفهمت قُولك ، وماذَلَلْتَ به على نفسك من معرفة الشكر ، فليس شىء مما سبَقَت به يدى إلى إخوانى ، مِنْ مشاركتهم إياى فى مِثل مابه نفسى ، بِسَارٍّ لى أن يقع منى موقعَ إذلال لهم ، أو عذاب عليهم ، فإنه من يتخذ أيادى الإخوان عذابا على نفسه ووِقْرا[4] على قوّته ، فقد تعرّض لمعاودة بعض الأدب ، للاستزادة من الأوقارِ المُغتَمِّ بها ، المَلُول[5] مِنْ حَمْلِها ، وبئست اليدُ يدٌ جَرِيرَتُهَا[6] استثقالُ الكتبِ ، وضيقُ الذِّراعِ من فوائد الأحبّة .

فأمّا ما عَظَّمْتَ من الشكر ، فإن الشكر مكافأة ، وإذا كان الشكر كَفِيءَ[7] المِنَّة ، فإن الكَفِيءَ لا يكون دون كفيئه ، وإذا بلغتَ بالشكر منزلةَ المكافأةِ ، فقد علوتَ به أعلى المنازل ، وكان يجمع لك ذلك أن تقول : الشكرُ مكافأة ، والمكافأة كفيئةٌ ، والكفِيءُ مثل كفيئِه .

فأمّا ما ظننتَ أنى أستدلُّ به على أنك من أهل الشكر ، بالكلمات التى وصفتَ ، ولئن تقدمتُ باليد على جَبالةٍ - فى أول يوم - منِّى بموضعِ الشكرِ ، ما أنا[8] بمُبْصِرٍ موضعَ الأمرِ ببادرةٍ من الكلام هى[9] مع ذلك غيرُ حدودٍ جامعةٍ ، ولو جَمَعَتْ .

---

(١) فى الأصل « قما » وهو تحريف . (٢) فى الأصل « بعقله » وهو تحريف.
(٣) أى على محمل العنف ومركبه ، والقعود من الإبل : مايقتعده الراعى فى كل حاجة .
(٤) الوقر : الحمل . (٥) فى الأصل « الأموال » وهو تحريف.
(٦) أى ذنبها . (٧) أى مكافىء.
(٨) فى الأصل « وأنا » وهو تحريف . (٩) فى الأصل « ببادرة من الكلام مع ذلك » .

فأمَّا ما ذكرتَ من إبطاء الدهر عنك بالتقوية على مساعدتى ، فكأنك عنَيْتَ بهذه الكلمة [أنَّ صداقتك لى من ذاتِ[١]] الأيدى ، فإن كنتَ عنيتَ ، فما أشنعَ ما ألزمْتَنى ونفسَك من قبيح الخُلُق ، وقد يرُدُّ عنى فَوْرَةَ الغضب أنك لم تقل ذلك قاصداً ، واستدللتُ على أنك لم تقصِد له ، بأنك بنفسك بدأتَ بالإفحاش ، وسأصَغِّرُ لك ما صغر الله من ذات الأيدى التى تَقَطَّعُ إليها أعناقُ السُّخَفاء ، وأُعظِّم لك منزلةَ المودة بتدبير العقل ، بما عظَّم اللهُ منها ؛ ألا تَرَى رحمك الله أن العقلَ يكْسِبُ المالَ ، وأن المالَ معجوزٌ به عن مكسَبة العقل ، حَسْبِى وَحَسْبُك ممن لم تكن له أخا أن تجعله أخا ، وَحَسْبُنَا ممن كان بعيداً أن نجعله قريبا ، وَحَسْبُنا من المخالفين أن يكونوا موافقين . فأمَّا ما تملِكُ الأيدى ، فإنى لا أدرى : أمَا خَدَعْتَ العدوَّ عنه أكثرُ ، أم ما تناولتَه بغير المؤامرة[٢] من مال الصديق ؟ فإن بلغْتَ حَدَّ المؤامرة ، فذلك وَصْمٌ[٣] فى صداقة المأخوذ منه ، أو عَجْزٌ من الآخذ من صديقه ؛ قد مضى لك إخوان لم تَلْحَقهم ، وآخرون كثيرٌ أنت بين أظهُرِهم لم تعرِفهم ، كان الرجل منهم يكرَه أن يَعِدَ إخوانَه الوفاءَ ، فيضرَّ اختلاطُ المواعيد بصادق النية المكسوب عليها ، مع مافى المواعيد من التغرير بالعجز عنها ، وما فى الزمان من الخيانة لأهله ، وما فى الاختلاط[٤] من الضعف .

أمَا إنى قد كنتُ أرَى مكانَ الموافَقَةِ فى الجواب ، فأتعجَّل حاضِرَ سرورك بذلك ، وتجرى بيننا وبينك الخديعةُ والرياء ، فنركب (سبيل) السِّفلة الذين أغلبُ الأشياء عليهم المَلَقُ ، ولكن حرَّكتنى المودةُ بالتأديب لبعض تلك المحرِّكات فيما مضى حين عاودتنى المكاتَبة بالمناسَمَةِ[٥] ، وإنى قد علمت أنّ كل ذى عقل ذو حاجة ، وأن

(١) ما بين القوسين بياض بالأصل » وقد زدته لتستقيم العبارة .
(٢) المؤامرة : المشاورة .
(٣) عيب وعار .
(٤) فى الأصل « وما .... لاختلاط » .
(٥) ناسمته : شاممته ، وجدت ريحه ووجد ريحى ، والمعنى بتنسم أخبارك .

الأعقلَ فالأعقلَ الأحْوَجُ فالأحوجُ، والاستفادة فيما مضى غيرُ مُضِرَّة بما يستفيد فيما يَستقبلُ، وأن بعض ذلك اتّـكالٌ على بعض، غيرُ مضرٍّ به، ولا ناقضٍ له، ولا مُسيء الثناء عليه، فافهَمْ ». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٧)

٥٠ — كتاب حماد عجرد إلى يحي بن زياد

وروى صاحب الأغانى قال:

كان حَمَّادُ عَجْرَد[١] صديقا ليحيي بن زياد، فأظهر تورُّعا وقراءة ونُزُوعا عما كان عليه، وَهَجَرَ حماداً وأشباهه، فـكان إذا ذُكِرَ عنده ثَلَبه[٢]، وذكر تهتكه ومُجُونَه، فبلغ ذلك حَمَّادا، فـكتب إليه[٣]:

هـل تَذْكُرَنْ دَلَجِي إليـك على المُضَمَّرة القِلاصِ[٤]
أيامَ تُعطيـني وتأ خُذُ من أباريقِ الرَّصاصِ
إن كان نُسْكُكَ لايتمُّ بغير شَتْمِي وانتقاصِي

---

(١) هو حماد بن يحيي بن عمرو، وعجرد لقب له، وهو من مخضرمى الدولتين، وكان خليعا ماجنا متهما فى دينه، وكان بالـكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد الزبرقان، يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار. وكانوا كأنهم نفس واحدة، يرمون بالزندقة جميعا، وأشهرهم بها حماد عجرد، وقتله محمد بن سليمان بن على عامل البصرة بظاهر الـكوفة على الزندقة سنة ١٥٥ — انظر ترجمته فى الأغانى ١٣ : ٧٠ ووفيات الأعيان ١ : ١٦٥، وكذلك كان يحيي بن زياد متهما بالزندقة، قال على بن الجعد: « قدم علينا (ببغداد) فى أيام المهدى هؤلاء القوم: حماد عجرد ومطيع ابن إياس ويحى بن زياد، فنزلوا بالقرب منا، فكانوا لايطاقون خبثا ومجانة ».

(٢) ثلبه كضربه: عابه.

(٣) وفى رواية ابن خلـكان فى وفيات الأعيان « ويحـكى أنه كانت بين حماد عجرد وبين أحد الأئمة الـكبار — ومايليق التصريح بذكر اسمه — مودة، ثم تقاطعا فبلغه عنه أنه يتنقصه، فكتب إليه حماد... » وجاء فى رواية أخرى لصاحب الأغانى قال: « كان أبو حنيفة الفقيه صديقا لحماد عجرد، فنسك أبو حنيفة وطلب الفقه فبلغ مابلغ، ورفض حمادا وبسط لسانه فيه، فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره، وأبو حنيفة يذكره، فكتب إليه حماد بهذه الأبيات » والصحيح أن ذلك الـكتاب إلى يحيي بن زياد كما فى الرواية الأولى، أما الرواية الأخرى فإنا نجزم أنها كذب على أبى حنيفة قطعا.

(٤) الدلج: السير من أول الليل، والقلاص جمع قلوص كصبور: وهى الناقة الفتية.

أو كنت لستَ بغيرِ ذا لِكَ تنالُ منزلةَ الخلاصِ
فعليك ، فاشتُمْ آمِناً كلَّ الأمانِ من القِصاصِ
واقعد وقُمْ بي مابَدَا لك فى الأَدانى والأَقاصِى
فلَطالَمَا زكَّيْتَنِى وأنا المُقِيم على المعاصى
أيامَ أنت (إذا ذَكَرْ تَ) مُناضِلٌ عنى مُناصِى[1]
وأنا وأنت على ارتكا بِ المُوبقاتِ مِن الحِراصِ
وبنا مَواطِنُ مابِنَا فِي البرِّ آهِـلةُ العِراصِ[2]

فاتصل هذا الشعر بيحيى بن زياد ، فنَسَب حمادا إلى الزّندقة ، ورماه بالخروج عن الإسلام . فقال حماد فيه :

لامُؤْمِنٌ يُعْرَف إيمانُه وليس يحيى بالفَتَى الكافِرِ
منافِقٌ ظاهِرُه ناسكٌ مُخالِفُ الباطنِ للظاهِرِ

(الأغانى ١٣ : ٧٦ وفيات الأعيان ١ : ١٦٦)

٥١ — جواب سلامة لمحمد[3] بن زياد الحارثى إلى المنصور

أما بعدُ ، أصلح الله أمير المؤمنين صلاحًا دائمًا يستقبلُ به أنفَسَ العمر فى أدْوَم السعادة ، ويستقبل بنا فيه أحسنَ المتاع ، مساعِدًا له القضاء على كل مايَرَى فى نفسه وأهل بيته ورعيته ، معدولاً عنه كلُّ محذورعليه ، حتى يبلِّغَه فى نفسه غاية الأمل ، وفى أهل بيته أحسنَ العِمارة ، وفى أمّته أكمَلَ الصلاح ، وفى أهل العداوة لدينه أبلَغ النقم .

---

(١) ناصيته : نصوته ونصانى . أى أخذت بناصيته وأخذ بناصيتى ، والمعنى : مناضل مدافع .
(٢) العراص : جمع عرصة كوردة: وهى البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء ، وفى الأصل «مابنا: فى .... » وهو تصحيف .
(٣) هو أخو يحيى بن زياد الحارثى ، شاعر مترسل بليغ — انظر الفهرست ص ١٧١ .

أتانى كتاب أمير المؤمنين بما أحَبَّ أن يسُرَّنى به من سلامته ، فى نعمته وولده وخاصَّته ، فأدام اللهُ لأمير المؤمنين العافيةَ ، ووثَّق له عَقْدَ الكرامة ، وأسبَغَ عليه فضائلَ النعمة ، وفواضلَ الأيادى ، فإنه أصبح محتجراً[١] بصلاح أمير المؤمنين فى نفسه وولده وجميع أمته ، مقروناً بما كَرِهوا له أو عليه ، ما كَرِهوا لأنفسهم أو عليها ، محقوقين ألاَّ يَرَوا للنعمة تماماً ، ولا للعافية دوامًا ، إلاَّ بتمامها على أمير المؤمنين وبقائها له ، فإن الوالىَ إذا نزل من أمته ، فى إحياء العدل لها ، ودفع المكروه عنها ، وإثباتِ شرائع الحق فيها ، وإسباغ الأيادى بالفضل عليها ، بمِثْلِ مَنْزِلِ أمير المؤمنين الذى أنزله الله به من رعيته ، فى دينهم وحريمهم ومعاشهم ، لم يَرَوه بالنعمة عليه فى نفسه وولده وخاصته مخصوصاً دون أنفسهم ، لأن بقاءه وصلاحه مقرون موصول ببقائهم وصلاحهم ، فلا زال أمير المؤمنين مصنوعاً له ، مدفوعا عنه ، مجنَّبًا مَحْذورَ الليل والنهار ، مُوَقَّى ما تشتمل عليه الأ[يام من الأحداث[٢]] ، ممنوعا يمنعه الله برحمته فى نفسه وولده ، محروساً بكِلاءة[٣] الله وحفظه فى جميع ماأنعم به عليه ، نسأل الله لأمير المؤمنين تمامَ النعم ، ودوامَ الكرامات ، والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٠)

٥٢ — كتاب له فى الشكر

« لولا مايجب علينا من قضاء حق الأمير بما تَبْلُغُه الطاقة فى تقريظ الألسن ، ونصائح القلوب ، والتمسُّكِ بحبل الشكر له ، والوفاء فى المَحْضَر والمَغيب ، كان أَوْلَى الأمور بنا فى التخيُّر لأنفسنا والنظر لها ، الإمساك من ذلك عما لايَزِيدنا ذِكرُه إلا بعداً من غايته ، وعجزاً عن بلوغه ، ولكنا لما صرنا نعتمد فى القول على الاجتهاد فى معرفة الحق على

---

(١) احتجر به : التجأ واستعاذ ، والمعنى مقترنا به ومرتبطا .

(٢) فى الأصل « موق يشتمل عليه إلا ..... ممنوعا » .

(٣) كلأه كمنعه ، كلاءة : حرسه .

صدق النية ، والمكافأة على باطن الشكر ، وَسِعَنا أن نُظْهِر ماقَدَرْنا عليه من الأسرار ، لتعرِف أنْ قد اجتَهَدْنا فى قضاء حقه ، ليعذِرَنا فيما قصّرنا عنه القول بالاجتهاد ، ويحمل أمْرَنا فى الوفاء والشكر على مايثق به منا فى تَحِيض المودة ، وصحة الضمير » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤) .

٥٣ – كتاب آخر

« مازال ظاهِرُ معروفِ الأمير يشهدُ على باطن سريرته ، وما بَرِحَت سريرة باطنه من جميل رأيه ونيّته متصلةً بمعروفٍ ظاهر ، وما أنفكَّ قديمٌ من صلته يلحَقُ بحديث ، حتى مانجِدُ مستزاداً ، ولا لِأمَلنا على ماأصبحنا فيه من بِرِّه متنفَّسا ، ولا من التقصيرِ وإن جَهَدْنا فى تأدية الحق وشكر النعم مَخرَجا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

٥٤ – كتاب آخر

« قد يجب على من يتقلَّب فى ظلِّ كرامتِك ، ويأوِى إلى كَنَف نعمتك ، أن يقول بما هو أولَى ، ويُخبر عما هو به مرتَهَن ، مِن شُكر بلائك ، وحقِّ نعمتك ، ونحن الذين سبقت نعمتُك عليهم ، وعظُمَت مِنَّتُك لديهم ، فيما أبْلَيْتَ وأولَيْتَ من جميل رأيك ، وحُسْن أثرك ، بعطفك وتحنّنك ، واستخلاصك إياه مِقَةً وأُنْسا ، دون أصحابك من نظرائه فى أيادٍ من أياديك عظُمَتْ فلا تُجْحَد ، ونِعَمٍ من نعمك شُهِرَتْ فلا تنكرُ ولا يُحْصَى عددها ، وإن اجتهدْنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها وإن دَأَبْنا فى بلوغ تأديتها ، فقد اعتقدتَها مِنَّةً علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بَقِينا ، وَبَقِىَ الخلَفُ منا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

٥٥ — كتابه إلى صالح بن على

وكتب إلى صالح بن على :

« فإن أحقَّ الناس أن يحِلّ موضعُ رضاه وسُخطه مَن كان سُخطه حطّةً ، ورضاه شرفا ، وقد جعل الله الأميرَ كذلك ، فرضاه عمن رضى عنه زَيْنٌ ، وسُخْطه عليه حُجّة ، وإقبالُه إلى من أقبل إليه فائدة ، وإدبارُه عمن أدبَرَ عنه تأديب ، وليس فى شىء مما يميل إليه الأمير من دواعى السخط والرضا تحامُلٌ يحجزُه عن إنصاف ، ولا هوى يُزيله عن رأى ، ولا بادرة تعْجِله عن تثبُّت ،ولا غلَق[1] يُقْعِده عن حِلْم ، ولا سطوةٌ بيدٍ ولا لسان تحُولُ بينهُ وبين عفو ، بل يحْلُم ولا يجهَل ، ويَعْذِر ولا يعاقب ، ويصفح الصفحَ الجميل ، ويدفع السيئةَ بالتى هى أحسنُ ، واللهُ محمودٌ .

وقد نالنى من جَفوة الأمير بعد ما كنت أعرف من برِّه وإلطافِه[2] ، أمرٌ أحلّنى مع المُذْنب فى نفسى مع البراءة من الذنب ، وألزَمنى الإساءة مع التقصير ، وزاده عندى عِظَما أنى شَدّما[3] حاولتُ المَخرجَ منه بالاُعتذار ، ولم أجد إلى الأمير ذنباً أعتذِر منه إليه ، ولا فيما ألزَمَنى من معتَبَتِه حُجّةً أحاوِلُ دفعَها والتخلص منها ، فأصبحتُ أعالج من ذلك ماقد خَفى عنى دواؤه ، وأحاول صلاحَ مالم أجْنِ فسادَه ، فإن رأى الأميرُ أن يَصِلَ قديم معروفه بحديثه ، فإنى لم أجد إلى الأمير فى مطالبته بذلك أنجحَ من التوجُّه إليه بنفسه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥) .

---

(١) الغلق : ضيق الصدر وقلة الصبر .

(٢) ألطفه بكذا : بره .

(٣) فى الأصل « وزاده عندى عظما وشد مما حاولت .... » والمعنى عليه غير مستقيم .

٥٦ — كتاب عبد الله بن الحسن إلى صديق له

وكتب عبد آلله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى صديق له :

« أُوصيك بتقوى آلله تعالى ، فإن اُلله جعل لمن اتقاه المَخْرَج من حيثُ يَكْرَه ، والرزقَ منْ حيث لايحتسِبُ » .

(زهرة الآداب ١ : ٩٣)

٥٧ — أبو جعفر المنصور وعبد الله بن الحسن

وروى صاحب العقد الفريد قال :

لما قام أبو جعفر بالأمر بعث بعطاء أهل المدينة، وكتب إلى عامله أن :

« أَعْطِ الناس فى أيديهم ، ولا تبعَثْ إلى أحد بعطائه ، وتفقَّدْ بنى هاشم ، ومَنْ تخلَّف منهم ممن حضر ، وتحفَّظْ بمحمد وإبراهيم ابنى عبد اُلله ابن الحسن » .

ففعل وكتب : « إنه لم يتخلف أحد عن العطاء إلا محمد وإبراهيم آبنا عبد آلله ابن الحسن ، فإنهما لم يحضرا[1] » .

فكتب أبو جعفر إلى عبد آلله بن الحسن ـ وذلك مبدأ سنة تسع وثلاثين ومائة ـ يسأله عنهما ، ويأمره بإظهارهما ، ويُخبره أنه غيرُ غادِرِه .

---

(١) كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون ـ قد اجتمعوا أخريات العصر الأموى بمكة، وتذاكروا حالهم وماهم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بنى مروان من الاضطراب ، واتفقوا على أن يدعوا الناس إليهم سرا ، ثم قالوا : لابد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن ـ وكان يلقب بالنفس الزكية ـ وكان من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ـ وكان المنصور ممن بايعه ـ وشاء القدر أن يظفر العباسيون بالخلافة ، فوليها السفاح ، ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله أو يخلعه ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال : لاعلم لى بهما ـ وكانا قد تغيبا خوفا منه ـ فلما طول عليه القول ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمى لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدى لتقتلهما ؟ فقبض عليه وعلى أهله من بنى الحسن ، وحبسهم فى سجن الكوفة حتى ماتوا فيه ـ انظر الفخرى ص ١٤٦ وتاريخ الطبرى ٩ : ١٨٠ .

فكتب إليه عبد آلله : « أنه لا يدرى أين هما ، ولا أين توجها ، وأن غَيْبَتهما غير معروفة » .

فلم يلبث أبو جعفر - وكان قد أذكى[1] العيونَ ، ووضع الأرصاد - حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولا لعبد آلله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بُخراسان يستدعيهم إليه ، فأمر أبو جعفر برسولهم فأُتى به وبكتبهِ ، فردَّها إلى عبد آلله بن الحسن بطوابعها لم يفتح منها كتابا ، وردَّ إليه رسوله وكتب إليه :

« إنى أُتيتُ برسولك والكتب آلذى معه ، فردَدْتُهَا إليك بطوابعها ، كراهِيَةَ أن أطَّلِعَ منها على ما يُغيِّر لك قلبي ، فلا تدْعُ إلى التقاطع بعد التواصل ، ولا إلى الفُرقة بعد الاجتماع ، وأظهِرْ لى ابنيك ، فإنهما سيصيران بحيث تُحِبُّ من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف » .

فكتب إليه عبد آلله بن الحسن : يعتذر إليه ، ويتنصَّل فى كتابه ، وَيُعْلِمَه أن ذلك من عدو أراد تشتيت ما بينهم بعد التئامه ، ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن آلرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة ، وأنه نازل على فلان المُهَلَّبيّ ، فإن أراده أمير المؤمنين فليضع عليه رَصَده ، فوضع عليه أبو جعفر رصده ، فأُتى به إليه ومعه الكتب ، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته ، فقدمت عليه الجوابات بما كَرِه ، واستبان له الأمر .

فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول :

« أريد حيـــاته ويُريد قتلى عَذيرَكَ مِنْ خَليلك مِنْ مُرَادِ[2]

أما بعد فقد قرأت كتبك وكتبَ ابنَيْك ، وأنفذتُها إلى خراسان ، وجاءنى

---

(١) أذكى عليه العيون : إذا أرسل عليه الطلائع .

(٢) قاله على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو ينظر إلى عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله، ويقال: عذيرك من فلان بالنصب : أى هات من يعذرك ، فعيل بمعنى فاعل .

جواباتها بتصديقها ، وقد استقرَّ عندى أنك مُغيِّب لأُبنيك تعرف مكانهما ، فأظهِرهما لى ، فإن لك علىَّ أن أُعْظِم صِلَتَهما وجوائزهما ، وأضَعَهما بحيثُ وضعتْهما قرابتهما ، فتدارَكِ الأمور قبل تفاقُمِها » .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن :

وكيف أُريد ذاك وأنت منى ... وَزَنْدُكَ حين تَقْدَح من زِنادِى

وكيف أُريد ذاك وأنت منى ... بمنزلة النِّياط من الفؤاد ؟[١]

وكتب إليه : أنه لا يدرى أين توجها من بلاد الله ، ولا يدرى أين صارا ، وأنه لا يعرف الكتب ، ولا يشكُّ أنها مفتَعَلة[٢] .

(العقد الفريد ٣ : ٢٩)

٥٨ — كتاب أبى جعفر إلى النفس الزكية

ولما بلغ أبا جعفر المنصور خروجُ النَّفْس الزَّكِيَّة بالمدينة[٣] — وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب — كتب إليه :

---

(١) النياط : عرق متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه .

(٢) فدس المنصور إليه سالم بن قتيبة الباهلى ، وبعث معه بمال وأمره بأمره ، فقدم سالم المدينة فجلس إلى عبد الله بن الحسن ، وأظهر له المحبة والميل إلى ناحيته ، فلما أنس به قال له : إن نفرا من أهل خراسان — وسمى له رجالا يعرفهم ممن كان يكاتب — قد بعثوا إليك معى مالا ، وكتبوا إليك كتابا ، فقبل الكتاب والمال . فلما ازداد به أنسا واستئمانا ، قال له : إنى قد بعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد، وإلى ولى عهده إبراهيم ، وأمرت ألا أوصل ذلك إلا فى أيديهما ، فإن أوصلتنى إليهما أوصلت إليهما الكتابين والمال ، ورحلت إلى القوم بما يثلج صدورهم ، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة ، وإن مرهما مظلم ، وإن لم تكن تعرف مكانهما لم يخاطروا بدينهم وأموالهم ومهجهم ، فأوصله إليهما ، فدفع لهما الكتابين والمال ، وما زال سالم يحتال له ويغريه بأن يخلع أبا جعفر ويبايع ابنه محمدا حتى أجابه فخلع أبا جعفر وبايع محمدا وبايعه سالم من بعده ، وأخذ كتبه وكتب إبراهيم ومحمد فخرج فقدم على أبى جعفر فأخبره بحقيقة الأمر .

(٣) لم يزل النفس الزكية متغربا منذ أفضت الدولة إلى بنى العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لأبيه ولقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها عاملا وقاضياً ، فوجه المنصور لقتاله جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لجيش المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثم خرج أخوه إبراهيم =

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله » أما بعد : فـ « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . ولك[1] علىَّ عهدُ الله وميثاقُه وذمته وذمَّةُ رسوله صلى الله عليه وسلم إن تُبتَ ورجَعتَ من قبل أن أَقدِرَ عليك أن أُؤَمِّنك وجميعَ ولدك وإخوتك ، وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأُسَوِّغَك ما أصبْتَ من دم أو مال ، وأُعطيَك ألفَ ألفِ درهم ، وما سألتَ من الحوائج ، وأُنزِلَك من البلاد حيث شئتَ ، وأن أُطلِقَ مَن فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمِّن كل من جاءك وبايعك واتّبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أُتبِعَ أحداً منه بشى كان منه أبدا ، فإن أردتَ أن تتوثَّق لنفسك فوجِّه إلىَّ مَن أحببت أن يأخُذَ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثِقُ به » .

وكتب على العنوان ، من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٣ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣١)

= على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور عيسى بن موسى — بعد رجوعه من قتال النفس الزكية — فقاتله ، وقتل إبراهيم فى المعركة سنة ١٤٥ هـ أيضا — انظر الفخرى ص ١٤٨ وتاريخ الطبرى ج ٩ ص ٢٠١ .

(١) فى رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير من هذه الرواية ، وهى : « ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدرعليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف درهم ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأقضىلك ماشئت من الحاجات ، وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع أحدا منكم بمكروه ، فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت ، والسلام » .

٥٩ — رد النفس الزكية على أبى جعفر

فكتب إليه محمد بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدىّ[١] محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد :

« أما بعد : « طسم تلكَ آياتُ الكتابِ المُبين . نتلُو عليكَ مِن نبإِ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يُؤمنون . إنَّ فرعونَ علا فى الأرضِ وجعلَ أهلَها شِيَعاً يستضعفُ طائفةً منهُم يُذبِّحُ أبناءَهُم ويستحيِي نساءَهُم إنَّهُ كانَ منَ المُفسدينَ . ونُريدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ استُضعِفُوا فى الأرضِ ونجعلَهُم أئمةً ونجعلَهُمُ الوارثينَ . ونُمكِّنَ لهُم فى الأرضِ ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهُما منهُم ما كانُوا يحذرُونَ » وأنا أَعرِضُ عليك من الأمان مثل الذى عرَضْتَ علىَّ ، فإن الحقّ حقّنا ، وإنما ادَّعيتم هذا الأمرَ بنا، وخرجتم له بشيعتنا وحَظِيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليًّا كان الوَصِىّ ، وكان الإمامَ ، وكيف ورثتم ولايته ووَلَدُه أحياء ؟ ثم قد علمتَ أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ له مثلُ نَسَبنا وشَرَفنا وحالنا ، وشرَف آبائنا ، لسنا من أبناء اللُّعَناءِ ولا الطُّرَداء ولا الطُّلَقاءِ ، وليس يمُتُّ[٢] أحد من بنى هاشم بمثل الذى نَمُتُّ به من القرابة والسابقةِ والفضل ، وإنا بنو أمِّ أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو[٣] فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدُنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السَّلَف أولهم إسلاما علِىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، أول من آمن بالله وصلّى إلى القِبْلَة ، ومن البنات خيرهن

(١) كان أبوه عبد الله يقول للناس عنه : هذا هو المهدى الذى بشربه ، فلقب بالمهدىّ .

(٢) أى يتوسل .

(٣) هى فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهى أم أبى طالب وأم عبد الله والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انظر شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٥ وتاريخ الطبرى ٢ : ١٧٢ وغيره .

فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام : حَسَن وحُسَيْن سيِّدا شَباب أهل الجنة ، وإن هاشِماً وَلَدَ عَلِيّا مرتين[١] ، وإن عبد المطَّلب وَلَدَ حَسَنا مرتين[٢] ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَدنى مرتين من قِبَل حسن وحسين[٣] ، وإنى أوْسَطُ[٤] بنى هاشم نَسَباً ، وأصْرَحُهم أبا ، لم تُعْرِق فىَّ العَجَمُ ، ولم تَنَازَعْ فىَّ أمهاتُ الأولادِ[٥] ، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهاتِ فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ، فأنا ابنُ أرفعِ الناس درجةً فى الجنة ، وأهونِهم عذابا فى النار[٦] ، وأنا ابنُ خير الأخيار ، وَابنُ خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار .

ولك اللهُ علىَّ إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبْتَ دعوتى ، أن أُؤَمِّنك على نفسك وولدك ومالك وعلى كل أمر أحدثتَه إلا حَدًّا من حدود الله ، أو حَقّا لِمُسْلِم أو مُعَاهَد، فقد علمتَ ما يلزمك فى ذلك ، وأنا أوْلَى بالأمر منك ، وأوفَى بالعهد ، وأنت أَحْرَى بقبول الأمان منى ، فأما أمانُك الذى عرَضْتَ علىَّ فأىُّ الأمانات هو ؟ أأمانُ ابنِ هُبَيرة[٧]؟ أم أمانُ عمك عبد الله بن على[٨]؟ أم أمانُ أبى مُسْلِم[٩]؟ والسلام»[١٠].

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٠ ، والكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٤ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣٢)

---

(١) يعنى على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وعليا زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

(٢) يعنى جده وأبا جده . فهو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ابن عبدالمطلب.

(٣) يعنى نفسه ، ويعنى محمدا الباقر بن على زين العابدين بن الحسين . (٤) أرفعهم وخيرهم .

(٥) يعرض بالمنصور ، وكانت أم المنصور أم ولد يقال لها سلامة ، بربرية — انظر مروج الذهب ٢ : ٢٢٨ والعقد الفريد ٣ : ٤٤ .

(٦) يعنى جده أبا طالب ، وأن الله سيخفف عنه العذاب لما كان منه من نصرة رسول الله وحمايته من أذى قريش . (٧) انظر ص ١٣ . (٨) انظر ص ٢٤ . (٩) انظر ص ٣٠.

(١٠) فى رواية الكامل للمبرد وصبح الأعشى اختلاف يسير أيضا ، جاء فيهما بعد الآية الكريمة: « وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، فقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وحظتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ، ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وسببنا ، وإنا بنو أم أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية =

٦٠ — رد أبي جعفر على النفس الزكية

فكتب إليه أبو جعفر :

« بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله: عبدالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعدُ: فقد أتانى كتابُك ، وبَلَغنى كلامُك ، فإذا جُلُّ فخرِك بقرابة النساء ، لِتُضِلَّ به الجُفَاةَ وَالغَوْغاءَ ، ولم يجعل الله النساءَ كالعُمومة[1] والآباء ، ولا كالعَصَبةِ والأولياء ، لأن الله جعل العَمَّ أبا وبَدَأ به فى كتابه على الوالد الأدْنى ، فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام : « وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ[2] » ، ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم ، وعمومتُه أربعةٌ ، فأنزل الله عز وجل « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ » فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى[3] ، وكَفَرَ اثنان أحدهما أبوك[4] ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ[5] ، ولا ذمَّةً ، ولا ميراثاً .

= دونكم، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجم ، ولم تعرق فى أمهات الأولاد ، وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا ، فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أصحابه أقدمهم إسلاما ، وأوسعهم علما ، وأكثرهم جهادا ، على بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلهن خديجة بنت خويلد ، أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لى ... الخ » .

(١) لا يجهل أبو جعفر أن النفس الزكية فضلا عن قرابته برسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة النساء (إذ أن جده الحسن بن على هو ابن فاطمة بنت رسول الله) له به قرابة من جهة العمومة أيضا كأبى جعفر (إذ أن جده أبا طالب عم رسول الله ، كما أن العباس جد المنصور عم رسول الله) غير أن العباسيين كانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من العلويين . لأن رسول الله مات وعمه العباس حى ، فهو أولى بوراثته بعصبية العمومة من ابن عمه على ، ومقدم عليه فى الميراث ، وسترى أبا جعفر يصرح فى أواخر هذه الرسالة بأن العباس هو وارث الرسول .

(٢) أقول : ولا تنهض الآية دليلا لأبى جعفر ، فإن المذكورين فيها ليسوا بأعمام ليوسف ، بل يعقوب أبوه ، وإسحاق جده ، وإبراهيم أبو جده ، على أن البـدء فيها بإبراهيم لغرض ، فهو أبو الملة وأبناؤه تبع له فيها . (٣) يعنى جده العباس ، وثانيهما سيدنا حمزة .

(٤) يعنى جد النفس الزكية أبا طالب ، وثانيهما أبو لهب . (٥) أى عهدا .

فأما ما ذكرتَ من النساء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين على قرب الأنساب وحقِّ الأحساب ، لكان الخير كلُّه لآمِنَةَ بنت وَهْب[1] ، ولكن الله يختارُ لدينه من يشاء من خَلْقه[2] .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتِها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلامَ لا بنتاً ولا ولداً[3] ، ولو أن أحداً رُزِق الإسلام بالقرابة رُزِقَه عبدُ الله أَوْلاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء[4] ، قال الله عز وجل : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .

وأما ما ذكرتَ من فاطمة بنت أَسَد[5] أم على بن أبى طالب ، وفاطمة أم الحسن ، وأن هاشماً وَلَدَ عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين . وأن النبى صلى الله عليه وسلم وَلَدكَ مرتين ، نخيرُ الأَوَّلين والآخِرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وَزعمتَ أنك أوسطُ بنى هاشم نسباً ، وَأَصرحُهم أمًّا وَأَبًا ، وأنه لم تَلِدْكَ العَجَمُ ولم تُعرِق فيك أمهاتُ الأولاد ، فقد رأيتُك فخَرْتَ على بنى هاشم طُرًّا ، فانظر وَيْحَكَ أين أنت من الله غداً ؟ فإنك قد تعدَّيت طَوْرَكَ ، وَفخَرْتَ على مَن هو خير

---

(١) هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، أم رسول الله .

(٢) فى رواية الطبرى : « ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم » .

(٣) روى الطبرى (ج ٢ : ص ١٧٢) قال : « عبد الله أبو رسول الله ، وأبو طالب ، والزبير ، وعبد الكعبة ، وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، ولد عبد المطلب إخوة . أم جميعهم فاطمة بنت عمرو ... »

(٤) وفى رواية الكامل للمبرد « فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب ، فإن الله لم يهدأ أحدا من ولدها للإسلام ، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبى ذلك فقال » .

(٥) هى فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف . (شرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤) وليتنبه إلى أنها لم يرد لها ذكر فى كتاب النفس الزكية السالف .

منك نَفْساً وأباً ، وَأوَّلا وَآخرا ، فَخَرتَ على إبْراهيم[1] ابن رسول الله صلى الله عليه وَسلم وَعلى وَالدِ وَلَده ، وَما خِيارُ بنى أبيك خاصَّةً ، وَأهلُ الفضل منهم إلا بنو أمّهات أولاد ، وَما وُلِد فيكم بعد وَفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ من علىٍّ بن الحسين[2] ، وَهو لِأمّ وَلد ، وَلَهُو خير من جَدِّك حَسَن بن حسن ، وَما كان فيكم بعده مثلُ ابنه محمد[3] بن علىّ ، وَجَدَّته أمّ وَلد ، وَلَهُوَ خير من أبيك ، وَلا مثلُ ابنه جعفر[4] ، وَجدَّتُه أمّ وَلد ، وَلهو خير منك .

وأما قولك : إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وَسلم ، فإن الله عز وَجل قد أَبى ذلك . فقال : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » . وَلكنكم بنو ابنته ، وَإنها لَقَرَابةٌ قريبة ، غير أنها امرأة لا تجوزُ الميراثَ[5] ، وَلا تَرِث الولاية ، ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تُورَثُ الإمامة من

---

(١) أمه مارية التى أهداها المقوقس عظيم القبط إلى رسول الله فتسرى بها ، وجاء منها به .

(٢) هو على زين العابدين بن الحسين بن على ؛ قال ابن خلكان فى ترجمته : « وذكر أبو القاسم الزمخشرى فى كتاب ربيع الأبرار أن الصحابة رضى الله عنهم لما أتوا المدينة بسبى فارس فى خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا ، وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضا ، فقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن بنات الملوك لايعاملن معاملة غيرهن من بنات السوقة، فقال : كيف الطريق إلى العمل معهن ؟ قال : يقومن ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن ، فقومن . فأخذهن على بن أبى طالب ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لولده الحسين ، وأخرى لمحمد ابن أبى بكر الصديق ، فأولد عبد الله أمته ولده سالما ، وأولد الحسين زين العابدين ، وأولد محمد ولده القاسم ، فهؤلاء الثلاثة بنو خالة ، وأمهاتهم بنات يزدجرد » اه ثم قال : « وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم على بن الحسين والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس فى السرارى ــ وفيات الأعيان ١ : ٣٢٠ .

(٣) هو محمد الملقب بالباقر وأمه هى أم عبد الله بنت الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ــ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٥٠ ــ ولكن أخاه زيد بن على كانت أمه أمة ، وقد قدمنا فى الجزء الثانى ص ٣٦٢ مادار بينه وبين هشام بن عبد الملك من الحديث فى هذا الصدد .

(٤) هو جعفر الملقب بالصادق ابن محمد الباقر ، وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر ــ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ .

(٥) لأنها من أصحاب الفروض ، فتأخذ فرضها فقط (نعم إنها تأخذ التركة كلها فرضا وردا إن لم يكن هناك عاصب) .

قِبَلِهَا ؟ وَلقد ظلَمها أبوكَ من كل وجه ، فأخرجها تُخَاصِم[١] ، وَمَرَّضَهَا سِرًّا ، وَدفَنَهَا ليلا ، فأبى الناسُ إلا تقديمَ الشيخين وتفضيلَهما ، ولقد جاءت السنة التى لا اختلافَ فيها بين المسلمين أن الجدَّ أبا الأم وَالخالَ وَالخالةَ لا يرِثون .

وأما قولك : إن اللهُ اختار لك فى الكفر ، فجعل أباك أهونَ أهل النار عذابا ، فليس فى الشر خِيَار ، ولا من عذاب الله هيِّن ، ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخَر بالنار ، وستَرِد فتعلم ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[٢] .

وأما ما فَخَرتَ به من عَلِىٍّ وسابقته ، فقد حضَرَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الوفاةُ ، فأمر غيرَه[٣] بالصلاة ، ثم أخذَ الناس رجلا بعد رجل[٤] فلم يأخذوه ثم كان فى أصحاب الشُّورَى[٥] فتركوه كلُّهم دَفْعاً له عنها ، ولم يرَوا له حقا فيها ، أمَّا عبد الرحمن فقدَّمَ عليه عثمان ، وقُتل عثمان وهو له مُتَّهِم ، وقاتَله طلحةُ والزُّبير ، وأبَى سعد بيعته[٦] ، وأغلق دونه بابَهُ ، ثم بايع معاويةَ بعده .

ثمَّ طَلَبَهَا بكل وجه ، وَقَاتَلَ عليها ، وتفرَّق عنه أصحابُه ، وشكَّ فيه شيعتُه قبل الحكومة ، ثم حَكَّم حَكَمَين ، وأعطاهما عهدَه وميثاقه على الرِّضا بما حَكَمَا به ، فاجتمَعَا على خلْعه .

وأفضَى أمرُ جدِّك إلى أبيك الحسن ، فبايعها من معاوية بخِرَقٍ ودراهم ، ولَحِقَ

---

(١) يريد خروج فاطمة إلى أبى بكر رضى الله عنهما تطلب ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فدك — انظر الجزء الثانى ص ٢٨٥ — وقد هجرت فاطمة أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت — بعد ستة أشهر من وفاة أبيها — فدفنها على ليلا ، ولم يؤذن بها أبا بكر — تاريخ الطبرى ٣ : ٢٠٢ .

(٢) وفى رواية الطبرى : « وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ؛ وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى . . . الخ »

(٣) لما مرض رسول الله المرض الذى مات فيه ، أذن بالصلاة ، فقال : مروا أبا بكر أن يصلى بالناس — تاريخ الطبرى ٣ : ١٩٥ وغيره .

(٤) أى لتولى الخلافة .

(٥) وهم : على وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف .

(٦) وكان سعد ممن تربص ولم يبايع عليا حين ولى الخلافة — تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٤ .

بالحجاز ، وأسلَمَ شيعته بيد معاوية ، ودفَعَ الأمرَ إلى غير أهله ، وأخذ مالاً[١] من غير وَلاَئِه ولا حلّه ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ثم خرج عمك الحسين بن عليّ على ابن مَرْجانة[٢] ، فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه وأتَوا برأسه إليه ، وقتلوا رجالكم ، وأسَروا الصِّبْية والنساء ، وحَمَلوهم بلا وِطَاء[٣] فى المَحَامِل ، كالسَّبْيِ المجلوب ، إلى الشأم[٤] .

ثم خرج منكم غير واحد على بنى أمية ، فقتّلوكم وصلّبوكم على جُذُوع النخل[٥] ، وأحرقوكم بالنيران ، ونَفَوْكم من البُلدان ، حتى قُتل يحيي[٦] بن زيد بخُراسان .

حتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْركوه ، ورفعْنا أقداركم ، وأورثْناكم أرضَهم وديارهم ، بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة ، كما تُلْعَن الكَفَرَةُ ، فعنفْناهم وكفّرناهم ، وبيّنّا فضله ، وأشَدْنا بذكره ، فاتخذتَ ذلك علينا حجة وظننتَ أنا — لِمَا ذكرنا من فَضْلِ عليّ — قدّمناه على حمزة والعباس وجعفر[٧] ، كلُّ أولئك مَضَوا سالمين مُسَلَّماً منهم ، وابتُلِي أبوك بالدماء[٨] .

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ١٩ . (٢) هو عبيد الله بن زياد ، ومرجانة : أمه .

(٣) الوطاء بالكسر والفتح : المهاد الوطىء ، وجمعه أوطية ، والمحمل كمجلس : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان وجمعه محامل . وفى الكامل للمبرد وصبح الأعشى « ثم أتوا بكم على الأقتاب من غير أوطية كالسبي المجلوب ... » والأقتاب جمع قتب بالتحريك وهو الإكاف (بالكسر) الصغير على قدر سنام البعير . (٤) انظر الجزء الثانى ص ٣٦٠ .

(٥) خرج زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك سنة ١٢١ هـ فقتل وصلب بالكناسة ثم أحرق — انظر ماقدمناه فى الجزء الثانى ص ٤٢٠ .

(٦) هرب بعد مقتل أبيه إلى خراسان، وخرج فىخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ فقتل وصلب وأحرق وذرى فى الفرات — انظر الجزء الثانى ص ٣٩٢ .

(٧) هو جعفر بن أبى طالب ، قتل فى غزوة مؤتة سنة ٨ هـ — انظر الجزء الأول ص ٣٩٥ .

(٨) فى رواية الطبرى « حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وأسنينا سلفكم (أى رفعناه) وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه ، للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين مسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل، وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فىالصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له ،وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بمانالوا منه».

ولقد علِمتَ أن مَكرُمَتنا فى الجاهلية سِقايةُ الحجيج الأعظم وولايةُ زَمْزَم ، وكانت للعباس دون إخوته[١] ، فنازَعَنا فيها أبوك[٢] ، فقَضَى لنا عليه عمر ، فلم نَزَل نَليها فى الجاهلية والإسلام ، ولقد قَحِط أهل المدينة[٣] ، فلم يتوسَّل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه ، إلا بأبينا[٤] ، حتى نَعَشَهم الله ، وسقاهم الغيثَ ، وأبوك حاضر لم يتوسَّلْ به .

ولقد علمتَ أنه لم يبقَ أحدٌ من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارِثَه من عُمُومته[٥] ، ثم طلب هذا الأمرَ غيرُ واحد من بنى هاشم فلم ينَلْه إلا ولدُه ، فالسِّقايةُ سِقايتُه ، وميراثُ النبىّ له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباسُ وَارِثُه ومورِّثُه[٦] ، ولقد جاء الإسلام[٧] والعباس يَمُون أبا طالب وعِيالَه ، ويُنفِق عليهم للأَزْمة التى

---

(١) انظر أسد الغابة ٣ : ١٠٩ .

(٢) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٤٦١ « وكانت السقاية فى الجاهلية بيد أبى طالب ثم سلمها إلى أخيه العباس » .

(٣) كان ذلك عام الرمادة سنة ١٨ هـ ، أصابت الناس فيه مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها، فكانت تسفى إذا ريحت ترابا كالرماد فسمى ذلك العام عام الرمادة — انظر تاريخ الطبرى ٤ : ٢٢٣ .

(٤) خطب عمر عام الرمادة بالعباس ، فكان فيما قال : « اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله ، فإنك تقول (وقولك الحق) : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك فى عمه » فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المآزر ، وطفق الناس بالعباس يقولون: «هنيئا لك ياساقى الحرمين » — انظر العقد الفريد ٢ : ١٣٢ .

(٥) فى الكامل للمبرد وصبح الأعشى « وتوفى رسول الله صلى عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس ، فكان وارثه دون بنى عبد المطلب » .

(٧) وفيهما . « فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث » .

(٦) فى الطبرى « وأما ما ذكرت من بدر فإن الإسلام جاء . . . » غير أنه لم يرد ذكر بدر فى كتاب النفس الزكية .

أصابته[١] ، ولولا أن العباس أُخْرِج إلى بَدْر كُرْهاً لمات عَمَّاك طالِب وعَقِيلٌ جوعا ، ولَلَحَسا جِفَانَ عُتْبة وشَيْبة[٢] ، ولكنه كان من المُطْعِمِين ، فأذهب عنكم العارَ والشَّنار[٣] ، وكفانا كم النفقةَ والمئُونة ، ثم فَدَى عَقِيلا يوم بَدْر[٤] .

فكيف تفخَر علينا ؟ وقد مُنَّا كم[٥] فى الكفر ، وفَدَيْنا كم من الأَسْر ، وحُزْنا عليكم مكارِمَ الآباء ، ووَرِثنا دونكم خاتَمَ الأَنْبِياء ، وطلبنا بثأركم فأدركْنا منه ما عَجَزتم عنه ، ووضعنا كم بحيث لم تَضَعُوا أنفسَكم ، والسلام عليك ، ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١١ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٥ : ١٩٩ ، والكامل للمبرد ٢ : ٢٩٥ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٣٣)

٦١ — كتاب أبى جعفر إلى الحسن بن زيد

وخاصم عيسى وسليمانُ وإدريسُ بنو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، بنى محمد النفس الزكية فى ميراث عبد الله ، وقالوا : قُتل أبوكم محمد فورِثه

---

(١) جاء فى شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٥ « ذكروا أن قريشا أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعميه حمزة والعباس : ألا نحمل ثقل أبى طالب فى هذا المحل (والمحل كالقحط وزنا ومعنى) فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان شديد الحب لعقيل ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا . وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليا » .

(٢) الجفان : جمع جفنة بالفتح وهى القصعة ، وعتبة هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو هند أم معاوية ، وكان من المطعمين من قريش — انظر سيرة ابن هشام ١ : ٤٠٦ ، وشيبة أخو عتبة .

(٣) الشنار : أقبح العيب . وفى الطبرى « السبة » والمعنى واحد .

(٤) كان العباس ممن خرج مع المشركين يوم بدر ثم أسر ، وكذا عقيل بن أبى طالب . وروى الطبرى (ج ٢ : ص ٢٩٠) عن ابن عباس أن رسول الله صلى عليه وسلم قال للعباس حين انتهى به إلى المدينة : ياعباس افد نفسك وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو ابن جحدم ، فإنك ذو مال ، فقال : يارسول الله إنى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى . فقال : الله أعلم بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك . قال فإنه ليس لى مال ، قال : فأين المال الذى وضعته بمكة حيث خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا . قال : والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلم أنك رسول الله ، ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه .

(٥) فى الطبرى « وقد علنا كم » والمعنى واحد .

عبدُ الله ، فتنازَعوا إلى الحسن بن زيد ، فكتب بذلك إلى أبى جعفر ، فكتب إليه :

« أما بعد : فإذا بلغك كتابى هذا فورِّثهم من جَدهم ، فإنى قد رَدَدْتُ عليهم أموالهم[1] ، صِلَةً لأرحامهم ، وحفظًا لقرابتهم » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٣٢)

٦٢ — كتب بين أبى جعفر وسلم بن قتيبة

وكتب أبو جعفر إلى سَلْم بن قُتَيبة الباهلى لما وَلاّه البصرة — بعد مقتل إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن — :

أمّا بعدُ ، فاهدم دُورَ مَن خرج مع إبراهيم واعقِر نخلهم » .

فكتب إليه سلْم : « بأى ذلك أبدأ ، أبا الدور أم بالنخل » ؟

فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد : فقد كتبت إليك آمُرك بإفساد تمرهم ، فكتبت تستأذننى فى أيِّهِ تبدأ به . أبِالبَرْنِىِّ[2] أم بالشُّهْرِيز[3] ؟ » وعزله ، وكان ذلك سنة ١٤٦ هـ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٤)

٦٣ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكان أبو العباس السَّفّاح ، عامَ وفاته (سنة ١٣٦ هـ) عَقَد لأخيه أبى جعفر الخْلافة من بعده ، وَجعله ولىّ عهد المسلمين ، ومن بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، وكتب العهد بذلك وصَيَّره فى ثوب ، وختم عليه بخاتَمه وخواتيم أهل بيته ، ودَفَعه إلى عيسى ابن موسى[4] .

---

(١) كان عيسى بن موسى لما قتل محمدا النفس الزكية ، قبض أموال بنى الحسن كلها ، فأجاز ذلك أبو جعفر . (٢) البرنى : تمر ، فارسى معرب .

(٣) تمر أيضا . جاء فى القاموس : « تمر شهريز بالضم والكسر ، وبالنعت وبالإضافة ، وبالشين : نوع معروف » . (٤) انظر تاريخ الطبرى ٩ : ١٥٤ .

فلما وَلِيَ أبو جعفر الخلافة أقرَّ عيسى بن موسى على ما كان أبو العباس ولاّه من ولاية الكوفة وَسَوادها، وكان له مُكْرِماً مُجِلاً، وَكان إذا دخل عليه أجلسه عن يمينه، وَأجلس المهدى ابنه عن يساره، ثم عزم على تقديم المهدى عليه فى الخلافة، وَكلّمه فى ذلك برفيق من الكلام فأبَى، فتغيَّر عليه وَباعَدَه بعضَ المباعدة. وقصَد إليه بالأذى حتى أجابه إلى ما سأله[1]، وكان ذلك سنة ١٤٧ هـ.

وروى الطبرى أن أبا جعفر كتب إليه فى ذلك:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله: عبدِ الله المنصور أمير المؤمنين إلى عيسى ابن موسى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، أما بعــدُ، فالحمدُ لله ذِى المَنِّ القديم، وَالفضلِ العظيم، والبَلاء[2] الحَسَن الجميل، الذى ابتدأ الخلق بعلمه، وَأنفذَ القضاءَ بأمره، فلا يبلُغُ مخلوق كُنْهَ حقِّه، ولا ينال فى عظمته كُنْهَ ذِكره، يدبِّر ما أراد من الأمور بقُدْرته، ويُصْدرها عن مشيئته، لاقاضىَ فيها

(١) من ذلك ما قيل من أن أبا جعفر سقاه بعض مايتلفه، فرض مدة، وبلغت العلة منه كل مبلغ حتى تمعط شعره ثم أفاق من علته، وقيل إنه وضــم الجند فصاروا يشتمونه إذا رأوه وينالون منه، فشكا ذلك إلى المنصور فقال للجند: لا تؤذوا ابن أخى، فإنه جلدة بين عينى ولو كنت تقدمت إليكم لضربت أعناقكم، فكانوا يكفون ثم يعودون، فمكث بذلك زمانا، فلما كتب أبو جعفر إليه الكتاب الآتى، وأتاه جوابه بالإباء. عاد الجند لأشد ما كانوا يصنعون، فكانوا يأتون باب عيسى فيمنعون من يدخل إليه، فإذا ركب مشوا خلفه، وقالوا: أنت البقرة التى قال الله فيها « فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » فعاد فشكاهم، فقال له المنصور: يابن أخى أنا والله أخافهم عليك وعلى نفسى، قد أشربوا حب هذا الفتى (المهدى) فلو قدمته بين يديك فيكون بينى وبينك لكفوا، فأجابه، وقيل إن أباجعفر لما أعياه الأمر فى خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد، بعث إلى خالد بن برمك وقال له: هل عندك حيلة فيه، فقد أعيتنا وجوه الحيل، وضل عنا الرأى. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وسار إليه فى ثلاثين رجلا من كبار شيعة أبى جعفر، فأداره بكل وجه من وجوه الحذر والطمع، فأبى عليه، فخرج خالد فقال: نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب، ونشهد عليه إن أنكره، وساروا إلى أبى جعفر، فأعلموه أنه قدأجاب. فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدى، وكتب بذلك إلى الآفاق، وبلغ الخبر عيسى فأتى أبا جعفر منكرا لما ادعى عليه، فدعاهم أبو جعفر فسألهم، فقالوا: نشهد عليه أنه قد أجاب، وليس له أن يرجع، فأمضى أبو جعفر الأمر وشكر لخالد ما كان منه ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٢، والفخرى ص ١٥٥.

(٢) البلاء يكون منحة، ويكون محنة.

غيرُه ، وَلاَ نَفاذَ لها إلا به ، يُجْرِيها على أَذْلالها(١) ، لا يستأْمِرُ(٢) بها وزيراً ، ولا يُشاور فيها مُعِيناً ، ولا يلتبس عليه شيء أرادَه ، يَمْضى قضاؤه فيما أَحَبَّ العبادُ وكَرِهوا ، لايستطيعون منه امتناعا ، ولا عن أنفسهم دِفاعاً ، ربّ الأرض وَمن عليها ، له الخلقُ والأمرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ثم إنك قد علمتَ الحالَ التى كُنّا عليها فى وِلاية الظَّلَمَة : كيف كانت قوّتنا وحِيلَتُنا ، لِمَا اجترأ عليه أهلُ بيتِ اللّعنة علينا، فيما أحبَبْنا وكرِهْنا ، فصَبَرنا أنفسَنا على مادَعَونا إليه ، من تسليم الأمور إلى من أسنَدُوها إليه ، واجتَمَعَ رأيُهم عليه ، نُسامُ الخَسْفَ(٣) ، ونُوطَأ بالعَسْف، لانَدْفَع ظُلماً، ولا نَمْنع ضَيْماً، ولا نُعْطَى حقا، ولا نُنكِر مُنْكَرًا ، ولا نستطيع لها ولا لأنفسِنا نفعاً، حتى إذا بَلَغَ الكتابُ أَجَلَه، وانتهى الأمر إلى مُدّته، وأذِنَ آللهُ فى هلاك عدوّه ، وارتاح بالرحمة لأهل بيتِ نبيه صلى الله عليه وسلم ، فابتَعَثَ آللهُ لهم أنصاراً يطلبون بثأرهم ، ويجاهِدون عدوَّهم ، ويَدْعُون إلى حُبِّهم ، وينصرون دولتهم ، من أَرَضِينَ متفرِّقة ، وأسباب مختلفة ، وأهواءٍ مؤتلفة ، فجمَعَهم الله على طاعتنا، وألَّف بين قلوبهم بمودَّتنا على نصرتنا ، وأعزَّهم بنَصْرنا، لم نَلْق منهم رجلا، ولم نَشْهَرَ معهم سيفاً ، إلاَّ ماقذَفَ آللهُ فى قلوبهم ، حتى ابتعثهم لنا من بلادهم ببصائرَ نافِذَة، وطاعةٍ خالصة، يَلْقَوْن الظَّفَر ، ويعودون بالنصر، ويُنْصَرُون بالرُّعْب، لايَلْقَون أحداً إلا هَزَموه ، ولا وَاتِرا إلا قتلوه ، حتى بَلَغَ الله بنا بذلك أقْصَى مَدانا ، وغايةَ مُنَانا ، ومنتهى آمالِنا ، وإظهارَ حقنا ، وإهلاكَ عدوّنا ، كرامةً من آلله جلَّ وعزَّ لنا، وفضلا منه علينا بغير حَوْلٍ منا ولا قوّة .

ثم لم نزَلْ من ذلك فى نعمةِ آلله وفَضْله علينا ، حتى نَشَأَ هذا الغُلام(٤) ، فقذَفَ آلله

---

(١) يقال : أمور الله جارية أذلالها (بالنصب) وعلى أذلالها : أى مجاريها ، جمع ذل بالكسر، وذل الطريق : محجته . (٢) الاستئمار والمؤامرة : المشاورة .

(٣) سامه الخسف : أولاه الذل . والعسف : الظلم : (٤) يعنى ابنه محمدا المهدى .

له فى قلوب أنصار الدِّين ألذين ابتعثهم لنا مِثْلَ ابتدائه لنا أوَّلَ أمرِ نا، وأشْرَبَ قلوبهم مَوَدَّتَه ، وقَسَم فى صدورهم مَحَبَّتَهُ ، فصاروا لايذكرون إلا فَضْلَهُ ، ولا يُنوِّهون[1] إلا باسمه ، ولا يعرفون إلا حَقَّه ، فلما رأى أمير المؤمنين ماقَذَف آللهُ فى قلوبهم من مودته ، وأجْرَى على ألسنتهم من ذِكره ، ومعرفتهم إياه بعلاماته وآسمه ، ودعا العامَّة إلى طاعته ، أيقنَتْ نفسُ أمير المؤمنين أنَّ ذلك أمْرٌ تولاَّه آلله وصَنَعه ، لم يكن للعباد فيه أمرٌ ولا قدرة ولا مُؤَامَرَة ولا مُذَاكَرَة ، لِلّذى رَأى أميرُ المؤمنين من اجتماعِ الكلمة ، وتتابُعِ العامَّة ، حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفةُ المهدىِّ بحقِّ الأُبُوَّة لأفْضَتِ الأمورُ إليه ، وكان أمير المؤمنين لا يَمْنَعُ مما آجتمعت عليه العامَّة ، ولا يجدُ مُنَاصا عن خلاصِ مادَعَوا إليه ، وكان أشدَّ الناس على أمير المؤمنين فى ذلك الأقربُ فالأقربُ من خاصَّته وثِقاته من حَرَسه وشُرَطه، فلم يجد أميرُ المؤمنين بُدًّا من استصلاحهم ومتابعتهم ، وكان أمير المؤمنين وأهلُ بيته أحقَّ مَنْ سارَعَ إلى ذلك ، وَحَرِصَ عليه وَرَغِبَ فيه ، وعَرَف فضلَه ، ورَجا بَرَكَتَهُ ، وصَدَّق الرِّوايةَ فيه ، وحَمِدَ آلله إذ جعل فى ذُرِّيَّته مِثْلَ ماسألتِ الأنبياءُ قبله ، إذ قال العبد الصالح[2] : « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . فوهَبَ آلله لأمير المؤمنين وليًّا ، ثم جعله تقيًّا مباركا مَهْدِيًّا ، وللنبى صلى الله عليه وسلم سَمِيًّا ، وسَلَبَ مَن انتحلَ هذا الاسمَ[3] ، ودعا إلى تلك الشُّبْهَةِ التى تحيَّر فيها أهلُ تلك النِّيَّة ، وافتتَنَ بها أهلُ تلك الشِّقْوَةِ ، فانتزَعَ ذلك منهم ، وجعل دائِرَةَ السَّوْءِ عليهم ، وأقرَّ الحقَّ قَرَارَه ، وأعلن للمهدىِّ مَنارَه ، وللدين أنصارَه .

---

(١) نوه بفلان : إذا رفعه وطير به .

(٢) هو زكريا عليه السلام .

(٣) يعنى النفس الزكية ، وكان يلقب بالمهدى — انظر ص ٧٩ .

فأحبَّ أميرُ المؤمنين أن يُعلمك الذى اجتمع عليه رأىُ رعيته ، وكنتَ فى نفسه بمنزلة ولده ، يحبُّ مِنْ سَترك ورُشْدِك وَزَيْنِك مايحبُّ لنفسه وولده ، وَيرَى لك ـ إذا بلغك مِنْ حال ابن عمك ما ترَى من اجتماع الناس عليه ـ أن يكون ابتداء ذلك مِنْ قِبَلك، لِيعلَمَ أنصارُنا من أهل خُراسان وغيرهم أنك أسرعُ إلى ماأحبُّوا ، مما عليه رأيهم فى صلاحهم منهم إلى ذلك من أنفسهم ، وأن ما كان عليه مَن فضلٍ عرَفوه للمهدىِّ ، أو أمَّلوه فيه ، كنتَ أحظَى الناس بذلك وأَسَرَّهم به ، لِمكانه وقرابته ، فاقبَلْ نُصْحَ أمير المؤمنين لك ، تَصلُحْ وَتَرْشُد ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٦٩)

٦٤ — رد عيسى بن موسى على المنصور

فكتب إليه عيسى بن موسى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين من عيسى بن موسى .

سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ، أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكُر فيه ماأجمعْتَ[١] عليه ، من خِلاف الحقِّ، وركوبِ الإثم فى قطيعةِ الرَّحِم ،ونقضِ ما أَخذَ اللهُ عليه من الميثاق من العامَّة ، بالوفاء للخلافة والعهدِ لى مِنْ بعدك ، لِتقطعَ بذلك ماوَصَلَ اللهُ من حَبْله ، وَتفرِّق بَيْنَ ما ألَّف اللهُ جَمْعَه ، وَتجمعَ بَيْنَ ما فرَّق الله أمرَه ، مكابرَةً لِلهِ فى سمائه ، وَحوْلاً[٢] على الله فى قضائه ، ومتابَعةً للشيطان فى هواه ، ومَنْ كابَرَ الله صَرَعَه، ومن نازَعه قمَعه[٣]، ومَن ما كرَه عن شىء خدَعَه ، ومن توكَّل على الله مَنَعه ، وَمَنْ تواضَعَ لله رَفَعَهُ .

إن الذى أسَّسَ عليه البناء ، وخطَّ عليه الحِذاء[٤] ، من الخليفة الماضى ، عَهْدُه لى

---

(١) أجمع الأمر وأجمع عليه : عزم ، وخلاف : مخالفة .

(٢) الحول : الاحتيال والتحيل . (٣) قمعه كمنعه : قهره وذلله .

(٤) أى القالب الذى قدر الحذاء وقطع على مثاله ، ومعنى هذا وما قبله : أن القاعدة التى أسس عليها بنيان الدولة ، والخطة التى رسمها أبو العباس وارتضاها ، عهد لى ... الخ.

من الله ، وَأَمْرٌ نحن فيه سواء ، ليس لأحد من المسلمين فيه رُخْصَة[1] دون أحد ، فإن وَجَبَ وفاء فيه فما الأولُ بأحقَّ به من الآخِر ، وإن حَلَّ من الآخِر شيء فما حُرِّم ذلك من الأول ، بل الأولُ الذى تلا خَبَرَه ، وعَرَفَ أثرَه ، وكشف عما ظَنَّ به وأَمَّلَ فيه أسرعُ ، وكان الحقُّ أَوْلَى بالذى أراد أن يصنع أوَّلا ، فلا يَدْعُك إلى الأمن من البلاء اغترارٌ بالله ، وترخيصٌ للناس فى تركِ الوفاء ، فَإِنَّ مَنْ أَجَابَك إلى تَرْك شىء وَجَبَ لى ، واستَحلَّ ذلك منى ، لم يَحْرَج[2] إذا أمْكَنَتْهُ الفُرْصة ، وأفْتَنَتْه[3] بالرُّخْصَة ، أن يكونَ إلى مِثل ذلك منك أسْرَعَ ، ويكون بالذى أَسَّسْتَ من ذلك أنْجَعَ ، فاقبَلِ العافيَةَ[4] ، وارضَ من الله بما صَنعَ ، وخُذ ما أُوتيتَ بِقُوَّة ، وكُنْ من الشاكرين ، فإن اللهَ جلَّ وعز زائِدٌ مَنْ شَكَرَه ، وَعْداً منه حَقًّا لاخُلْفَ فيه ، فمن راقَبَ اللهَ حفِظَهُ ، ومن أَضْمَرَ خِلافَهُ خَذَلَهُ ، والله يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ، ولسنا مع ذلك نَأْمَنُ من حوادث الأمور ، وبَغَتَاتِ الموت ، قبل ما ابتدأتَ به من قطيعتى ، فإن يَعْجَلْ بى أمرٌ كنتَ قد كُفيتَ مَئُونَةَ ما اغتَمَمْتَ له ، وسَتَرْتَ قُبْحَ ما أردتَ إظهارَه ، وإنْ بقيتُ بعدك لم تكن أوْغَرْتَ[5] صدرى ، وقطعتَ رَحِمى ، ولا أظهرتَ[6] أعدائى فى اتِّباع أَثرِك ، وقبولِ أَدَبك ، وعَملٍ بمثالك .

وذكرتَ أن الأمور كلَّها بِيَدِ الله هو مُدَبِّرها ومُقَدِّرها وَمُصْدِرها عن مشيئته ، فقد صدقتَ ، إنَّ الأمور بيد الله ، وقد حَقَّ على من عرَف ذلك ووَصَفه العملُ به ، والانتهاء إليه .

---

(١) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه ، والتسهيل . والمعنى : ليس لأحد منهم أن يتحلل منه ، بل يجب عليهم جميعا الوفاء به .

(٢) حرج كفرح : أثم . (٣) فتنه كضربه وفتنه وأفتنه : أوقعه فى الفتنة .

(٤) فى الأصل « العاقبة » وهو تصحيف .

(٥) الوغر ويحرك : الحقد والضغن والعداوة والتوقد من الغيظ ، وفى الأصل « أوعرت » وهو تصحيف . (٦) ظهر عليه : غلبه وقوى عليه ، وأظهره عليه : أعانه عليه وأظفره به .

وأعلم أنا لسْنا جرَرْنا إلى أنفسنا نفعاً ، ولا دَفَعْنا عنها ضرًّا ، ولا نِلنا الذى عرَفْتَه بحَوْلنا ولا قوتنا ، ولو وُكِلنا فى ذلك إلى أنفسنا وأهوائنا ، لَضَعُفَتْ قوتُنا ، وَعجزَتْ قدرتنا فى طلب ما بَلغَ اللهُ بنا ، ولكن الله إذا أراد عزمًا لإنفاذِ أمره ، وإنجازِ وعده ، وإتمام عهده ، وتأكيد عَقْدِه ، أَحْكمَ إبرامه ، وَأَبْرَمَ إحكامه ، ونوّرَ إعلانَه ، وثَبّتَ أركانه ، حين أَسّس بُنيانَه ، فلا يستطيع العباد تأخيرَ ما عجّل ، ولا تعجيلَ ما أخّر ، غيرَ أن الشيطان عدوٌّ مضِلٌّ مُبين ، قد حذّرَ اللهُ طاعتَه ، وبيّنَ عداوتَه ، يَنزَغُ[1] بين وُلاةِ الحق وأهلِ طاعته ، لِيُفَرِّق جَمْعَهم ، ويشتّتَ شملهم ، ويُوقِعَ العداوة والبغضاء بينهم ، ويتبرأ منهم عند حقائق الأمور ، ومَضايِق البَلايا ، وقد قال الله عز وجل فى كتابه : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إلاَّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » . ووَصَفَ الذين اتقَوا فقال : « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »

فأُعيذُ أمير المؤمنين بالله من أن يكون نيتُه وضميرُ سريرتهِ خِلافَ ما زَيّنَ اللهُ به جلّ وعزّ من كان قَبْله ، فإنه قد سألَتهم أبناؤهم ، ونازَعَتْهُمْ أهواؤهم إلى مثل الذى هَمَّ به أميرُ المؤمنين ، فآثَرُوا الحق على ماسواه ، وعرَفوا أن الله لاغالبَ لقضائه ، ولا مانعَ لعطائه ، ولم يأمَنوا مع ذلك تغيير النِّعَم ، وتعجيلَ النِّقَم ، فآثَرُوا الآجِلَةَ ، وَقبِلوا العافِيَة ، وكرِهُوا التغيير ، وخافوا التبديلَ . فأظهروا الجميلَ ، فتمّم اللهُ لهم أمورهم ، وكفاهم ما أَهَمَّهم ، ومَنَع سلطانَهم ، وَأعزَّ أنصارَهم ، وكرّم أعوانهم ، وشرّف بنيانهم ، فتمت النعمُ ، وتظاهرتِ[2] المننُ ، فاستوجبوا الشكر ، فتَمّ أمرُ الله وهم كارهون ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » .

***

---

(١) نزغ بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس ، قال تعالى « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » وفى الأصل « ينزع » وهو تصحيف .

(٢) معناه : تضاعفت ، يقال ظاهر بين ثوبين أى لبس أحدهما على الآخر وتظاهروا عليه : تعاونوا .

وروى أن المنصور لمَّا رجع إليه من عند عيسى جواب كتابه وقَّع فى كتابه :

« اسْلُ عنها تنَلْ منها عِوَضا فى الدنيا ، وتأمَنْ تبِعَتها فى الآخرة » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٧٠)

٦٥ — كتاب عيسى بن موسى إلى المنصور

وروى الصُّولى قال :

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور ، حين ألحَّ عليه فى البيعة للمهدىّ ، كتابا غليظا لكتاب المنصور إليه :

« فهمتُ كتابَ أمير المؤمنين ، المُزيلَ عنه نعمَ الله ، والمعرِّضَه لسُخْطه ، بما قرُب فيه من القطيعة ونقض الميثاق ، أوجبَ ما كان الشكرُ لله عليه ، وألزَمَ ما كان الوفاء له ، فأعقَبَ سبُوغَ[1] النعم كفرا ، وأتبَع الوفاءَ بالحق غَدْراً ، وأمِنَ اللهَ أن يجعلَ ما مدَّ مِنْ بَسْطتِه إحسانا ، وتمكينَه إياه استدراجا ، وكفى اللهُ من الظالم منتصراً ، وللمظلوم ناصراً ، ولا قوةَ إلا بالله ، وهو حسْبِى وإليه المصير .

ولقد انتهت أمورٌ يا أمير المؤمنين لو قعدتُ عنك فيها — فضلا عن ترك معونتك عليها — لقَامَ بك القاعدُ ، ولطالَ عليك القصيرُ ، ولقد كنتُ واجِدًا فيها بُغْيتى ، وآمِناً معها نَكْثَ بيعتى ، فلزِمْتُ لك طريقةَ الوفاء ، إلى أن أوردْتُك شريعةَ[2] الرخاء ، وما أنَا بآيِسٍ من انتقام الله ورَفْع حِلْمه » .

وكتب بعد ذلك :

« بدَتْ لِى أماراتٌ من الغَدْرِ شِمْتُهَا أَظُنُّ وإياها سَتُمْطِركم دَمَا[3]

وما يعــلَمُ العَالِى مَتَى هَبَطاتُه وإن سارَ فى ريح الغرور مُسَلما

---

(١) أى تمامها .

(٢) الشريعة : المورد .

(٣) فى الأصل « سمتها » وهو تصحيف .

أتَهضِمُنى حقا تراه مُؤَخرا لُحكم إلٰهى حين صرتُ مُقدَّما؟
سَنَنْتَ انتقاضَ العهدِ فاصبرْ لمثله بنَقْضِكَ من عهدى الذى كان أبْرِما
(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٥)

٦٦ — كتاب آخر

وكتب عيسى بن موسى إلى المنصور حين ألحّ عليه فى الخلع، وطرح عليه مِنْ أهل خراسان مَنْ هدّده بالقتل .

« لو سامَنى غيرُك ما سُمْتَنى لاستنصرتُك عليه، ولا ستشفَعتُ بك إليه، حتى تُقِرَّ الحُرَم[1] مَقرَّها، وتُنْزِل الوفاءَ منزلَته، ونحن أول دولة يُسْتَنُّ بعَمَلِنا فيها، ويُنْظَر إلى ما اخترناه منها، وقد استعنتُ بك على قوم لايعرفون الحقَّ معرفتَك، ولا يَلْحظون العواقبَ لَحْظَك، فكن لى عليهم نصيرًا، ومنهم مُجيرًا، يَجْزِك اللّٰه خيرَ جزائك عن صلة الرَّحِم، وَقَطْعِ الظُّلْم، إن شاء اللّٰه » . (الأوراق للصولى ٢ : ٣١٦)

٦٧ — رد المنصور عليه

فأجابه المنصور :

« لولا أنك تُسَامُ النزولَ عن حقٍّ لك، وواجبٍ فى يديك، لزال الضَّرَعُ[2] إليك، والتحمُّلُ عليك، ولولا أنى أخاف أن تسبِق أيدى هذه العصبةِ من أهل الدولة إليك، لَمَا كَلَّفتُك شاقًّا، ولا حمَّلتك مكروها، ولكنى عندك — بالنصح لك، والإشفاقِ عليك — فى جَنْبَةِ[3] مَنْ لا يرضَى منك إلا بإرادته، ولا يستمهل أيامَك لسرعته، وما الذى أسمو بك إليه بدون الذى يستنزلونك عنه، واللّٰهُ يوفّقك ويُحْسِن الاختيارَ لك » . (الأوراق للصولى ٢ : ٣١٦)

---

(١) الحرم : جمع حرمة بالضم، وهى مايجب القيام به ولا يحل انتهاكه .
(٢) الضرع والضراعة : الخضوع والاستكانة. (٣) الجنبة : الجانب .

٦٨ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى كتاباً يحثه فيه على خلع نفسه وتقديم المهدى عليه، فكتب إليه عيسى:

« بسم الله الرحمن الرحيم : وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ[١] فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ » . وقال عز وجل : « وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » .

قرأتُ كتاب أمير المؤمنين وتفهَّمْته وأنعمتُ[٢] بالنظر إليه كما أمر، وَنَحَرْتُه[٣]، فوجدتُ أمير المؤمنين إنما يَزيدنى لِيَنْقُصَنى، ويقرِّبنى لِيُبْعِدَنى، وما أجهلُ مالى فى رضاه من الحظ الجزيل، والأثر الخطير[٤]، ولكنه سامَنى ماتشِحّ[٥] به الأنفسُ، وتُبْذَلُ دونه، وما لايسمح به والد لولده مادام له حَظٌّ فيه.

وقد علم أمير المؤمنين أنه يريد هذا الأمر لابنه لا له، وهو صائر إلى ماسيصير إليه، أشغَلَ مايكونُ، وأحْوَجَ إلى حَسَنَةٍ قدَّمَها، وسيئة اجتنبها، ولا صِلَةَ فى معصية الله، ولا قطيعةَ ما كانت فى ذات الله » .

(الأوراق للصولى ٢ : ٣١٩)

٦٩ — كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى

وبلغ المنصورَ أن عيسى بن موسى قتل رجلا من ولد نَصْر بن سَيَّار[٦] كان مستخفيا بالكوفة، فَدُلَّ عليه فضرب عُنقه، فأنكر ذلك وأعظمه وَهَمَّ فى عيسى بأمر كان فيه هلاكُه، ثم قطعه عن ذلك جهلُ عيسى بما فعل، فكتب إليه :

---

(١) نصب على المدح . (٢) يقال : أنعم فى الأمر : بالغ .

(٣) معناه : وخبرته كل الخبرة وأصبت حقيقته، وأصله من نحر البعير إذا أصاب نحره، وفى الأصل « وتنحرته » وهو تحريف . (٤) أى العظيم .

(٥) أى ماتبخل به وهو الخلافة، وفعله كفرح ونصر وضرب .

(٦) كان واليا على خراسان فى خلافة مروان بن محمد الأموى .

« أما بعد : فإنه لولا نظرُ أمير المؤمنين واستبقاؤه، لم يؤخرك عقوبةَ قتل ابن نصر ابن سَيَّار ، واستبدادِكَ به ، بما يقطَع أطماعَ العُمَّال فى مثله ، فأَمْسِكْ عمَّنْ ولاك أمير المؤمنين أمرَه من عربىّ وأعجميّ ، وأحمرَ(١) وأسودَ ، وَلا تستبدنَّ على أمير المؤمنين بإمضاء عقوبةٍ فى أحد قِبَله تِبَاعَةٌ(٢) ، فإنه لا يَرَى أن يأخذ أحداً بِظِنَّة(٣) قد وضَعَها اللهُ عنه بالتوبة ، ولا بِحَدَثٍ كان منه فى حرب أعقبه اللهُ منها سِلْماً سَتَرَ به عن ذى غُلَّة(٤) ، وحَجَزَ به عن مِحْنة ما فى الصدور ، وليس ييأسُ أمير المؤمنين لأحدٍ ولا لنفسه من الله مِنْ إقبال مُدْبِر ، كما أنه لا يأمَنُ إدبارَ مُقْبِل إن شاء الله والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٤)

٧٠ — كتاب عبيد الله العمرى إلى أبى جعفر المنصور

ورَوَى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن أبا جعفر المنصور لما قَفَل من حَجِّه سنة ثمان وأربعين ومائة ، سأل عن عُبيد الله بن عمر بن حَفْص بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو الفقيه المعروف بالعُمَرى ، فقيل له : إنه لم يحجَّ العامَ يا أمير المؤمنين ، ولو حجَّ لكان أول داخل عليك ، فلا تَقبَل عليه أحداً ، ولا يَقْدَح فيه عندك إلا باطلٌ أوَ كذّاب ، فإنه من علمتَ ، فقال أبو جعفر : والله ما تخلف عن الحج فى عامه هذا إلاّ عِلماً منه بأنى حاجّ فلذلك تخلّفَ ، ولا واللهِ ما زاده ذلك عندى إلا شرفا ورفعة ، وإنى من التوقير والإجلال له بحال لا إخال أحدًا من الناس بذلك ، لشرفه فى قريش وعظم منزلته من هذا الأمر ، والموضع الذى جعله الله فيه ، والمكان الذى أنزله به ، فلما قَدِم أبو جعفر بغداد ورد عليه كتاب عبيد الله العمرى ، وفيه :

---

(١) الحمراء : العجم لبياضهم ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم إنهم الحمراء ، وكانت تسمى الموالى الحمراء.

(٢) التباعة ككتابة ، والتبعة كفرحة ، واحد . (٣) الظنة : التهمة .

(٤) الغلة فى الأصل : شدة العطش وحرارة الجوف .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أبى جعفر أمير المؤمنين من عبيد الله بن عمر :

سلام الله عليك ورحمة الله التى اتسعت فوَسِعَتْ من شاء، أما بعدُ : فإنى عَهِدْتُكَ وأمرُ نفسك لك مُهِمٌّ ، وقد أصبحتَ وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرِها[1] وأسودِها وأبيضها ، وشريفِها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدوّ والصديق، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حِصَّتُه من العدل ، ونصيبُه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإنى أحذِّرك يوما تعْنُو[2] فيه الوجوهُ والقلوب ، وتنقطعُ فيه الحُجَّةُ ، لِمَلِكٍ قد قهرهم بجَبَرُوته ، وأذلّهم بسلطانه ، والخلقُ داخِرون[3] له ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه وعقابه ، وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداءَ السَّريرة ، وإنى أعوذ بالله أن تُنزل كتابى سوءَ المنزِل، إنما كتبتُ به نصيحةً والسلام[4] » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١١٧)

٧١ — رد أبى جعفر على العمرى

فأجابه أبو جعفر المنصور :

« من عبد الله بن محمد أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن عمر بن حفص ، سلام عليك . أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إلىَّ تذكر أنك عهِدتنى وأمرُ نفسى لى مهمّ ، فأصبحتُ وقد وَلِيتُ أمر هذه الأمة بأَسْرِها وكتبتَ تذكرُ أنه بلغك أن أمر هذه الأمة سيرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة ، ولستُ إن شاء الله من أولئك، وليس هذا زمان ذلك ، إنما ذلك زمان تظهر فيه الرغبة ، والرغبة تكون رغبة بعض الناس إلى بعض ؛ صلاح دنياهم أحب إليهم من صلاح دينهم ، وكتبتَ تحذرنى ما حُذِّرَت به الأمم من قبلى ، وقِدْمًا كان يقال : اختلافُ الليل والنهار يُقرِّبان كلَّ بعيد ويُبْلِيان

(١) انظر هامش ص ١٤٨ من الجزء الأول .

(٢) عنا كسما : ذل وخضع . (٣) دخر كنم وفرح : ذل أيضا .

(٤) قدمنا فى الجزء الأول ص ١٤٧ أن هذا الكتاب كتبه أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب حين ولى الخلافة ، وأن الكتاب الذى يليه كتبه عمر إليهما ردا عليهما ، كما جاء فى رواية صاحب فتوح الشام وإعجاز القرآن .

كل جديد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار ، وكتبت تتعوّذ بالله أن يُنزل كتابك سوء المنزل ، وأنك إنما كتبت به نصيحة ، فصدقْتَ وَبَرِرْتَ ، فلا تَدَعِ الكتبَ إلىَّ ، فإنه لاغنى بى عن ذلك ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ١١٨)

٧٢– كتاب أبى جعفر إلى محمد بن سليمان

وأُتِىَ محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس فى عمله على الكوفة — وكان أبو جعفر ولاّه إياها سنة ١٥٠ هـ — بعبد الكريم بن أبى العَوْجاء ، فأمر بحبسه ، وكثُر شفعاؤه عندأبى جعفر، وألحّوا عليه فيه، فلم يتكلم فيه إلا ظَنين[١] ، فأمر بالكتاب إلى محمد بن سليمان بالكفِّ عنه إلى أن يأتيه رأيه .

ثم إن محمداً دعا به وأمر بضرب عنقه ، فلما أيقن أنه مقتول قال : أَمَا وَاللهِ لئن قتلتمونى لقد وضعتُ أربعة آلاف حديث ، أحرِّم فيها الحلال ، وأُحِلُّ فيها الحرام ، واللهِ لقد فطّرتكم فى يومْ صومكم ، وصوّمتكم فى يوم فِطركم ، فضُربت عنقه .

وورد على محمد رسول أبى جعفر بكتابه : « إياك أن تُحْدِث فى أمر ابن أبى العوجاء شيئاً ، فإنك إن فعلتَ فعلتُ بك وفعلتْ . . يتهدده » .

فقال محمد للرسول : هذا رأس ابن أبى العوجاء وهذا بدنه مصلوباً بالكُنَاسة[٢] ، فأخبِر أمير المؤمنين بما أعلمتك ، فتغيَّظ عليه أبو جعفر وأمر بالكتاب بعزله ، وقال : واللهِ لَهَمَمْتُ أن أُقِيدَه[٣] به ، ثم أرسل إلى عيسى ابن على وقال له : هذا عملك ، أنت أشرتَ بتولية هذا الغلام ، فولّيتُه غلاما جاهلا لاعلْم له بما يأتى ، يُقْدِم على رجل يقتله ولا ينتظر أمرى! وقد كتبتُ بعزله ، وبالله لأفعلن بهولأفعلن... فسكت عنه عيسى حتى

---

(١) الظنين : المتهم . (٢) الكناسة : محلة بالكوفة .

(٣) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

سكن غضبه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إن محمداً إنما قتل هـذا الرجل على الزندقة ، فإن كان قتلُه صواباً فهو لك ، وإن كان خطأً فهو على محمد ، فأمر أبو جعفر بالكتب فمُزقت وأُقِرَّ على عمله — وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٢٨٧)

٧٣ — رسالة غسان بن عبد الحميد فى العتاب

قال ابن طيفور :

ومن الرسائل المفردات رسالة غَسَّان[١] بن عبد الحميد المدائنى كاتب جعفر بن سليمان فى العتاب :

« أما بعد : فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطواراً فى صُوَرهم ، وجعل بينهم أموراً يتآلفُون عليها ، ويُعْمِلُون أحْلامهم[٢] فيها من حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودَّةٍ يتعاطوْنها ، وأخُوَّةٍ يتداولونها ، تُرْعَى بوفاء ، وتؤدَّى بأمانة ، وتُضَيَّع بتقصير ، وتُنْتَقص بخيانة ، ليس مَن أُدِّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعَدَ من المؤدِّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس مَن ضُيِّعَتْ منه بأشقَى ممن ضَيَّعها فيما يُدْخِل من التقصير عليه ، فإنه من أخطأهُ الوفاء من أخيه ، فإنما يَدْخل عليه تقصيرُ غيره ، ومن ضيَّع الوفاءَ لإخوانه فقد أَدخلَ النقصَ فى خاصَّة نفسِه ، والمرء يجدُ من أخيه إذا خانه بَدَلاً ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرَت به متحوَّلا ، فليس نقصٌ يستبدِلُ به كنقصٍ لا يستطيع مزايلتَه ، وقد ألبس الله عباداً من عباده نِعَما ، وجعل لهم فى صلاح الأمور قَسْماً ، فكان ذلك عندهم ذريعةً يرعوْنها ، لِما أُلحق عليهم فيها مما يكون صلاحا وتماماً لها ، لئلا يعملوا بانتقاصٍ لأمرٍ بلَّغهم الله إياه ، ولا

(١) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ١٨٣) : « كان يكتب لجعفر بن سليمان بن على ، وكان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى » .

(٢) فى الأصل « أخلاقهم » وأراه محرفا .

بوضيعة الخُلُق رفعهم الله إليه حتى نُسِبَ إليهم ونُسِبوا إليه، فسمّى لهم فِعلاً وسموا له فُعُلاً[١] وأوْلى مَن ألبستَه[٢] نعمةً، وأجرى لها على الألسُن صفةً، أن يكون عملُه موافقا لما صنَعَ الله به، ولا يكون لما أصلح منه مُفسِدا، ولا يكون[٣] له مخالفا.

ولم أزَلْ أتعرّفُ مِن نِعَم الله عز وجل عليَّ، قديماً وحديثاً، ويافِعاً ومُسِنّاً، فيما أبلانى[٤] وأظهَرَ منى، وأثبتَ معرفتَه عند الناس، ما أصبحتُ أرَى استصلاحهُ والتوقّيَ لتغيُّره حقّاً عَلَيَّ واجباً، فليس[٥] مَن كانت منه فجيعةٌ لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا، واختارَ واختارُوا، فوقعَ رأيُه عليهم، ووقع رأيُهم عليه، وارتضوْه لأنفسهم، وارتضاهم لنفسه، واقتصروا عليه بمودتهم، واقتصر عليهم بمودَّته، فحمّلوه أُخُوَّتهم، وحمَّلهم أُخوّته، واسترعَوه الوفاء لهم، حتى ثبّت اللهُ بينهم وبينه ما كان داعياً لكل رأى جميل، نافياً لكل صَنيعٍ مَعيبٍ، وأمرٍ مُريبٍ، فأىُّ نقصٍ أكثرُ، وأىُّ دناءةٍ أبيَنُ، من أن يكون امرؤٌ بمنزلة ثقةٍ، قد حُفِظتْ منه حُرمةٌ، واعتُقدتْ بها عليه أمانةٌ، فوجبَتْ منه مُصافاةٌ، وانتُظِرَتْ منه صِلةٌ، ثم ينكشِفُ عن خيانة وغدْرٍ وقطيعةٍ وفجعةٍ؟ ثم أحقُّ مَن كنتُ له على الجميل فيما بينى وبينه، أهلُ الفضل فى المنزلة، والثقة فى المكافأة، والأمانة فى الوفاء، والجمالِ فى الإخاء، الذين[٦] يُرْغبُ فيهم إنْمامُه، ويُوثقُ بحفظهم اليسيرَ من الحُرْمة، فما كنتُ لأقطعَ خاصّتى ممن يرغب فى عامتى، ولا لأضيِّعَ الكثيرَ ممن لا يضيع اليسيرَ، ولا ألقَى أخاً شاهداً، بغير ما أكون عليه غائباً، فأكونَ قد لقيتُه بِدَلٍّ[٧]، وغِبْتُ

---

(١) جمع فعول كصبور. (٢) فى الأصل «السنة» وهو تحريف.

(٣) فى الأصل «ولم يكن». (٤) أبلاه الله: أنعم عليه وأحسن إليه.

(٥) تنبه إلى أن خبر ليس لم يرد بعد فى الكلام، إلا أن يكون محذوفا لأنه مفهوم من السياق.

(٦) فى الأصل «لا الذين» والكلام على الإثبات لا على النفى، وإنمامه: زيادته.

(٧) الدل (والهدى بفتح فسكون والسمت أيضا): الحالة التى يكون عليها الإنسان، من السكينة والوقار فى الهيئة وحسن المنظر والشمائل والسيرة.

عنه بقَدَرٍ (١) ، ويكون قد استودَعَني شيئاً حفِظتُ ضِدَّه وسترتُ سواه ، بل أنا لأخى حين يَغيبُ عنى وأَرْعاه ، أحفظُ منّى حين يشاهِدُنى فيعاينُ ما يكونُ منى ، ولم يكن لِيَمُتَّ (٢) بالأسباب إلىَّ أهلُ الفضل والأحساب، لايدعونى إليهم إلاالرغبةُ فيهم ،والتزيّنُ بأحسابهم ، وَالاستعدادُ بعُدَدهم ، حتى إذا استحكمتْ حُرُمَتهم وتظاهرتْ ، ووجبَتْ وعظُمَتْ وصرت إمّا محافظاً يَزِينهُ حِفاظُه ، وإما مضيِّعاً يَشِينهُ تضييعُه (٣) عمِلتُ فى ذلك بمايقطَع ما أردتُ صلتَه، ويَشِينُ ما أردتُ زَيْنَه، ويصِيرُ علىَّ ولا يَصِير لى، ويزهِّد فىَّ نُظراءَهم ، إذا مددتُ بالأسباب إليهم ، فأكون عند من اعتقدتُ إخاءَهُ مَقْلِيًّا (٤)، قد تغيَّرتْ عنده منزلتى ، ومن أردتُ استعارة مودَّته مكروها ، لايقبل ذلك منى ، إنى إذَنْ إلى نفسى لَمُسِىء ، وبحَظِّى لمخطِئٌ ، وما كنتُ لأختار الإخوانَ على فضلهم ، ثم أسير فيما بينى وبينهم بما يخالف أخطارهم (٥) ومنازلهم ، لَبئْس (٦) إذَنْ ما خالطتُ به الأكفاءَ ، وراقبتُ به الْحُرَمَ ، وأسلمتُ (٧) به المودةَ التى قد أعطى الله فيها النعمَ ، وأترك (٨) مخالطةَ الأكفاءِ قبل اعتقادها ، وإن كان الفضلُ فيما بيننا أحسنَ من إيجاب حقها، ثم الاستخفافِ بها ، فإن المُجانبَ المستورَ خيرٌ من المحافظِ المذمومِ ، ومَن لِيمَ على جميل لم يتناوله ، أحسنُ ممن ليم على سَمِيجٍ (٩) قد أتاه .

وإنه بلَغَنِى أن غاشًّا ظالما أتاك بأمرٍ ، لم أكن له أهلاً ، ولم تكن بقبوله خليقاً، لأنى لم أكن لأشباههِ معروفا ، ولم أكن على استماع مِثله مَخُوفا ، فوجد فيك مَساغاً ، وعندك مستَقَرًّا ، وكنتُ أحسنَ منازل إخوانك عندك ، والثقة لهم منك فى حِصن

---

(١) فى الأصل « وعتب عند تمذر » وهو تحريف .

(٢) أى ليتوسل . (٣) فى الأصل هكذا « يشدنه تضيه » .

(٤) قلاه كرماه ورضيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .

(٥) الأخطار : جمع خطر بالتحريك : وهو القدر .

(٦) فى الأصل « ليسير » . (٧) أى خذلت .

(٨) والمعنى : وإنه لجدير بى أن أترك مخالطتهم مادام حالى فى السير معهم على ماذكر ، التقدير: وإنى لإذن أترك ... الخ . (٩) سمج كشمس وكتف : قبيح .

حَصينٍ ، ومحلّ مكين ، لايناله أكاذيب الكاذبين ، ولا أقاويلُ المفسدين ؛ وذلك أن الكاذب كان بالتُّهَمة على منزلتى وحُرْمتى ، أحقّ منى بالتُّهَمة على رأيى وخُلقى ، وأنا كنت عندك بالثقة فى وفائى ، أحقّ منهُ بالتصديق فى عَضِيهتِه[١] إياى ، فإن الأخ المخْبور[٢] ، أولى بالثقة من السَّاعى بالكذب والزُّور ، وإذا كان يُحْفِظ الإخوان ماهو مَثْلومٌ بأيدى السفهاء[٣] ، إذا شاءوا سَعَوا فقُبِل قولُهم ، فكيف تَبقى على ذلك أُخوّةٌ ، أو تُرْعى معه حُرمةٌ ، أو يَصْلُح عليه قلبٌ ، أو يسلَم صَدْرٌ ؟ وكنتَ إذ حَذَّرتَ أخاك من أهل الدناءة حقيقاً أن تحذَرهُمْ فى إخوانك[٤] الذين وقع إحسانُك عليهم ، فلا تقبلُ سِعايتهم بهم ، وكيف تسخَط على أهل الدناءة لإخائك[٥] وترضى قولَهم على إخوانك ؟ لقد عرَفتَ أن على الأخ مِن ردّ الكذب عن أخيه[٦] ما حسَّنَ الغيب له ، فإذا لم تكن لذلك رادًّا مكذِّبا ، فهلاَّ كنت فيه واقفا متأمِّلا حتى تكشِفَهُ ويتبين لك حقُّه من باطله ! فإن وجدته حقا أتيتَ ما أتيتَ على بينة لك فيها حُجَّةٌ ، وإن وجدتَه باطلا كان أن تستخرجَ أخاك من تُهَمة ، خيراً من أن تُقيم له على سَخْطةٍ ولم يكن منه إساءةٌ ، فقد كان إخوانك يرجُون إن أساءوا أن يأتى على ذلك فضلُك ، ولا يخافون إن أحسنوا أنْ يضيعَ ذلك عندك ، لقد طالت عِشرتى ، وتردَّد خبَرُك[٧] علىّ فى حالات متصرِّفة ، ومنازلَ مختلفة ، لا يَصْرِف حالى لك حالٌ انصرفَتْ ، ولا يَقْلِبُ رأيى منزلةٌ انقلَبتْ ، فكان ذلك منى فى غِياب سلطانك ، ثم كان فى مُؤاتى[٨] زَمانك ، والناس فى ذلك تنصرف عنك حالاتُهم ، ويختلف عليهم رأيُهم ، فلم تكن

---

(١) العضيهة : الكذب والبهتان ، عضهه كمنعه عضها وعضيهة: قال فيه مالم يكن .

(٢) أى المختبر المجرب ، وفى الأصل « المحبور » وهو تصحيف .

(٣) أحفظه : أغضبه، وفى الأصل « إذا كان يحافظ الإخوان إنما هو معلوم ... » وهو تحريف

(٤) فى الأصل « أن يحذرهم منهم لإخوانك » وهو تحريف .

(٥) فى الأصل « لأجابك » وهو تحريف . (٦) فى الأصل « من » .

(٧) فى الأصل « وترددت حبرك على » .

(٨) آتاه على الأمر : طاوعه ووافقه ــ وفى لغة لأهل اليمن واتاه ــ والمعنى وقت أن كان الزمان لك مواتيا ومساعدا ، أى إبان سلطانك ، وفى الأصل « موان » وهو تحريف .

حاجةُ كثيرٍ من الصديق فى السلطان إلا أن يأكلوك ويأكلوا بك ، ويتعجّلوا يومَك مِن غدك ، ولا ينظرون لكَ ولا يبالون ما دخل — إذا أصابوا — فى جَنْبك ، فكانت حاجتى الإبقاء عليك ، والادّخار لك ، والاستغفار لما يتعجّل المتعجّلون منك مع ما أؤمل فيك ، ولم تكن حاجتهم حين نبَا بك الزمان إلا أن يخذُلوك ويدفنوا مودتك ويُميتوا ذكرَ إخائك ، ويتقرب أكثرهم بك ، ويسمو بعداوتك ، وإن كانوا قد أخلّوا بصداقتك[1] ، وكانت حاجتى حفظك وحياطتك ، أفما كان فى هذا ما تَرُدُّ به عنى بَغْىَ باغٍ ، وسعاية ساعٍ ؟ ما كنتُ لأُعادِىَ مَن غشَّك ، وأعْتَتِب[2] بالغشِّ لك ! ولاَ لأوالى من ناصحَك وأقطع نصيحتى لك ! ولا لِأُعَرِّض نفسى فيك وأستخِفَّ بعد ذلك بحقك ! فأكونَ عوناً لمن عاديتُه فيك ، مفارِقا لمن واليتُ فيما واليتُه عليه، معرّضا فى أمرٍ لأسَلِّم له ما قِبلى ، لقد بحمد الله خبرَنى الإخوانُ فى طول هذا الزمان ، فبغير هذا عرَفونى ، وعلى[3] غيره احتملونى ، فما[4] كنتُ لأُعايِشك بغير ماعايَشتهم ، ولا لأعملَ[5] فى إخائك بغير ما عمِلتُ فى إخائهم ، وأنت أعظمهم منزلةً ، وأقدمهم مودةً ، وأكملهم ثقة ، وأزينهم أُخُوّةً ، وأجملهم محافظةً ، فما أعظمَ عندى أن أُنْزَل منزلةَ استخفافٍ بحقك ، أو تُهمَة عندك على براءةٍ فيما بينى وبينك ! فإنه إن تكن البراءة أخرجتنى من التقصير عندك فى الظن بك، فغفر الله لك، لقد جرَى علَى لسانك مالم يَجْرِ عَلَى لسان أخ قبلك ، واضطررْتَنى فى إخائك إلى معاذيرَ لم يضطرّنى إليها أحدٌ سِواك ، ولولم أكن بفضلك عارفا ، وعَلَى نصيبى منك شَحِيحًا ، لَشَحَحْتُ على ماسلف

---

(١) فى الأصل « وإن كان قد دخلوا صداقتك » وهو تحريف ، وعندى أن هذه الجملة مقحمة فى الكلام ، إذ الأولى حذفها .

(٢) اعتتب : رجع عن أمر كان فيه إلى غيره ، وفى الأصل هكذا « واعىد » .

(٣) فى الأصل « ولعل » وهو تحريف .

(٤) فى الأصل « فيما » وهوتحريف .

(٥) فى الأصل « لأتحمل » وهو تحريف .

منى فيما بينى وبينك أن يَذْهَب باطلا ، ويصيرَ ضائعاً ، ويتحول حَسَنُه قبيحاً ، ومعروفه مُنكرًا ، ولو كانت منك إساءة فيما بينى وبينك لرأيت أنْ قد وَجَبَ عَلَىّ من حقك ما يُوجِبُ احتمالَ ذلك ، فكيف أهتِك حُرمتَك عن غير إساءة منك ؟ ولو أنى قد هجوتُك لكنتُ لنفسى بهجائك ، أهْجَى منى لك ، لأنى بذلك لها مكذِّب فيما سلف منْ مِدْحتى إياك ، وثنائى عليك ، وقولى فيك ! فهل يهجو امرؤ غيرَه بأشدَّ من إكذابه نفسَه ؟ مع قطع الأخوَّة ، وَهتْك الحرمة ، ولو كنتُ شاعراً ألتمسُ بشعرى موضِعاً ، وأطلب له مَخرَجا ، ما جعلت مَخْرَجى فى صديقى ، الذى هجاؤُه علىَّ أشدُّ منه عليه ، فإن ظهر افتضحتُ ، وَإن خفِىَ احتقظت ، وَلو وجدت من أهل الدناءة وَالسَّفاه مَن شَيْنُه بهم أَلصقُ ، وَهم به أحقُّ ، ما أنا بالقول فيهم بِحَرِىٍّ[1] ، وَايمُ الله إنى لأَرى الشعرَ فى جميل الأمور ، وحُسْن الثناء على الصديق قبيحاً ، فكيفَ إذا كان فى الظلم العدوَانُ ، وَالفجعة للإخوان ؟ فَاجتمعَتْ نقيصة الشِّعر وَنقيصة الغدر ، وَلقد ثقُل علىّ ما كان من ذلك وهو بَاطل ، صوناً للنفس عنه ، فكيف أرْضَى أن يكون منى ما أستحِقُّه به ؟ وإنى لأرجو أن أكون ممن يصبر للوفاء على بليَّةٍ إن نزلتْ، فكيف أخرج مِنهُ بغير اضطرار إلى غيره ؟ ، ولو كنت على وقع عليه[2] لكنت بالنقص على نفسى مُقِرًّا ، وكيف أسخَطُ على من أساء القول إلىّ ، إذا أسأتُ الفعلَ إلى نفسى ؟ وأَمَرُّ بأن يُحْسِن لى القولَ وأنا مسىء إلى نفسى فى الفعل ؟ فهَلاَّ رغبتَ بى أن أكون أتيتُ ذلك ، كما رغبتُ بك عن التصديق به فيما بينى وبينك ! ولكنك حَبَسْتَ كتبك عنا وقطعْتَ تعهُّدَك ، ونحن نُحْسِنُ الظن بك ، ومحالنا عندك ، لا نُنْزِلُ ذلك إلا على العُذر لك ، والشغلِ منك ، ثم إخراجك ما أخرجت إخراجَ

---

(١) فى الأصل « ولو وجدت من أهل الدناءة والسفاه فاسدلهم بهم ألصق وهم به أحق وأنا للقول فيهم وهم فيه أحرى » وقد أصلحتها كما ترى .

(٢) أى على الاضطرار إلى غير الوفاء .

محقّقٍ متيقن، لا لإخراجَ متأمِّلٍ ناظرٍ ، فراجِعْ أحْسَن[1] ، واعلَمْ أنّا لم نَحُلْ عن حبس الرأى فى حفظ حقك ساعةً من ليل ولا نهار ، فى سرٍّ ولا علانية ، ولا غَيْبةٍ ولا شهادة، ولا نأتى أمرًا ينقُص من حُرمتنا ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٩٨)

٧٤ — كتاب لغسان بن عبد الحميد فى تهنئة بتزويج

وكتب غَسَّان بن عبد الحميد فى تهنئة تزويج :

« قد بَلَغنى جَمْعُ الأمير أهلَه على الحال التى جَمَعهم عليها من نعمة الله عليه ، فالحمدُ لله على كل ما يَرَى الأميرُ فيما له فيه نعمةٌ ، فأسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك ميمونا ، والشَّمْلَ مجتمعا ، والبركةَ عظيمةً ، والأمورَ سليمةً ، وكذلك فقد عظَّم الله القَسْمَ منه لزَوْجه ، جعل الأمير سَكَنًا[2] لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : « خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فلما كان الأمير هو المنظور إليه وهى المنظور إليها ، اختارَها الأمير لنفسه ، واختار نفسَه لها ، وأراد الله عز وجل أن يَزيدها مع فضلها فى نفسها ، فضلاً اختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دونَ غيرها ، فكان ذلك فضلا من الله زَيَّنَه بفضل ، وكرامةً من الله وَصَلَ بعضَها ببعض ، فنرغب إلى الله عز وجل فى أن يَزيد الأميرَ فى كل سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمةٍ مقسومةٍ ، ويُعطيَه فى ذلك شكراً يكون لرضاهُ مُوجباً ، كما أعطاه فضلا كان الشكر له به واجبا ، ثم يُمَلِّى[3] الأميرَ ذلك بأحسنِ مَا مَلَّى أحداً من خَلْقه ، كرامةً اصطنَعها عنده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٢)

---

(١) أى فالمراجعة أحسن ، وربما كان « فراجع وأحسن » .

(٢) السكن : مايسكن إليه .

(٣) ملاه الله حبيبه: متعه به وأعاشه معه طويلا.

٧٥ — تحميد له

وله تحميد فى المطر :

« الحمد لله الذى نشَرَ رحمتَه فى بلاده، وبسَطَ سَعَتَه على عباده، الذى لا يزال العبادُ منه فى رِزْق يقتسمونه، وفضلٍ ينتظرونه، لا ينقُضُه ما قبله، ولا ينقضِى ما بعده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٧٦ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله لم يَرْضَ لنفسه أن يُمْضِيَ قضاءه فيما وافق العبادَ أو خالَفَهم ، ولم يَرْضَ من العباد إلا بأن يسلِّموا لأمره فيما أحبُّوا أو كرِهوا مما أَنزلَ بهم ، فقضاء الله غير مردود، وأمرُه غيرُ مدفوعٍ، والساخِط لذلك غير مُعْتَب[1]، وللراضى به، أفضلُ العِوَض » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

٧٧ — تعزية له إلى خليفة

« أما بعد ، فإن الله جعل خلافته حفظا لدينه ، ورحمةً لعباده ، ثم جعلَ لهم أولياء خلفاء يتوارثونها، ويتداولون الكرامةَ من الله بها ، فتنقضى مدةُ ماضيهم[2] لخِيرة الله إياه، وتأتى خِلافةُ باقيهم لاصطناع الله له، فنحمَد اللهَ الذى جعل فيكم أهلَ تلك الخلافة الذين جعلهم لها وُرَّاثا فكان منهم الماضى الذى كانت له، والباقى الذى صارت إليه، والحمد لله على ما كانت عليه حياةُ أمير المؤمنين ووفاتُه من كرامة الله إياه ، وعلى وضعه الخلافةَ عند أمير المؤمنين الباقى ، ونسأل الله أن يُعْظِم فى الماضى الأجرَ ، ويمنحك من الباقى أفضلَ الحظ ، ويُعينك فى المصيبة على أفضلِ الصبر ، وفى النعمة على أفضل الشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٦)

---

(١) أعتبه : أرضاه . (٢) فى الأصل « مابينهم » وهو تحريف .

٧٨ — تعزية له

« أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى تولى القضاء فى خلقه ، وأوجب عليهم الرضا بمـا قضى به ، والموتُ لا بُدَّ منه ، وأمرُ الدنيا إلى فناء كلِّه ، فما أشبَهَ الباقيَ الذى يُنتظر الفَناء له ، بالماضى الذى قد أتى الفناء عليه ، وأحوجُ ما يكون ذو العقل إلى عقله ، وذو الفضل إلى فضله ، حين ينزلُ به من قضاء ربه ما يبتلى فيه صَبْرَه ، ويختبرُ به تسليمَه ، فإن فاته الصبر كان عنـده أكبر الرزِيَّة ، وإن أحرَزَه كان أعظم الغنيمة ، وقد أحسَنَ الله إليك فى رأيك ، وما قَسمَ لك ، وعرَّفك ما اتّخذ به الحجةَ عليك ، وما ينبغى لك أن تعود بمنفعة على غيرك ، فكيف بك إن عجز ذلك عنك عند اختبار ربّك إياك ، فإذا أخذ منك مَن قد سَبَقَتِ النعمةُ فيه المصيبةَ به ، مع إمْتاعه إياك بطول صحبته على الذى خَلَق لك منـه ، ومنه لك ، ثم قدَّمه الله قبلك فكان فَرَطا[1] لك ، وعوَّضَك اللهُ أجْرَه ، وجعلك المستخلَف بعده ، فى الصلة له ، والترحُّم والصلاة عليه ، والخلافة فى رُكنه ، ولم ينزل بك من المصيبة بأخيك ، إلا ما رأيتـه نزل بالناس فى أحبائهم قبلك ، فلا أحسِبك رأيت منهم صابراً إلا غبَطته[2] ، ولا جازعا إلا عجَّزته ، فخذ لنفسك بالذى تغبِطُ به غيرك ، واحْذَر عليها الذى تعجِّز فيـه سواك ، وإذا ذكر الشيطانُ مصيبتك ، فاذكر ثوابَ ربك ، فهو خير لك من نصيبك من حياة أخيك ، فاطلُبْ بذلك صحبتَه لا يرْزَؤك ولا ترزؤه ، ولا تدخل فُرقة بينك وبينه ، فلعمرى لئن كنتما اصطحبتما فى الدنيا بمـا اصطحبتما به من النعمة ، ثم أُعطيتَ صحبتَه فى دار المُقامَة والرَّحمة ، لقد سَعِد بك وسعِدتَ به ، ونفع الله بكل واحد منكما صاحبَه ، فما أقدر اللهَ على أن يُعطيَك ذلك فيه باحتسابك إياه ، ويُعطيَه ذلك فيك بدعائك له ، فإنه قد تقدَّم

---

(١) الفرط : ماتقدمك من أجر وعمل .

(٢) غبطه : تمنى مثل نعمته على أن لاتتحول عن صاحبها .

لك فيه من الأجر ، وتخلّفَ عليك له الدعاء ، فاستكمِلْ إحداهما بالأخرى ، أكمَلَ اللهُ لنا ولك الآخرةَ والأولى، ورحمةُ اللهِ على فلان ، وجعل اللهُ ما يرجع إليه خيراً له مما كان فيه، وجعل أجره خيرًا لك من بقائه، وخلَفَه بأحسن خلافة ، وأعانك على حسن الخلافة له من بعده » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٠)

٧٩ — تعزية له

« إن أعظم المصائب عندنا مصيبتك ، وأجلّ المَرَازِئ فى أنفسنا مَرْزِئتك ، ولو تركنا تعزيتك بمصيبتك لخاصّتنا بك ، ومشاركتنا فيها لك ، لكنت بمنزله ذلك إن شاء اللهُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢١)

٨٠ — تعزية له

« أما بعد ، فإن اللهَ تبارك وتعالى خلق الدنيا هيِّنةً عليه ، زهيدةً عنده ، ثم أمر عباده أن يُنزلوها المنزِلَة التى أنزلها اللهُ بها ، ثم أمتع بها البَرّ والفاجرَ ، والمُحسنَ والمسىء ، فلم تكن سَرّاؤها علامةً لرضاه ، ولا بلواها دليلا على سُخطه ، نظرًا لهم . بأن يَبْلُوَهم فى أهونِ الدارَين عليه ، ويجزِيَهم فى أفضل الدارين عنده ، وأكرَمَ أهلَ طاعته بأن أعطاهم فيها الزَّهادةَ ، كما أكرمهم بأن زَوَى[١] عنهم فيها الفتنةَ ، ولو كانت عنده بمنزلة كرامةٍ ، جعَلَ أهلَ طاعته هم أهل الإكثار منها والمسارعة فيها ، فليست دارًا اختارها اللهُ لأهل ولايته ، قَبَضها عنهم ، وأمرهم بالإبعاد[٢] عنها بأنفسهم ، وجعلها فتنةً وغُرورًا ، وأسماها لعباده لهوًا ولعباً ، لئلا يُسَرّ ذو عقل بما أُعْطِى[٣] فيها ، ولا يَأْسَ[٤] على ما فاته منها ، ولولا أن اللهَ عز وجَلّ جعلها بُلغةً للآخرة ، وامتحاناً

(١) أى نحاها وأبعدها .
(٢) فى الأصل « فنصها عنهم والإبعاض عنها ... » .
(٣) فى الأصل « بما أفضى » . (٤) أى يحزن .

لأعمال البرية ، لكانت هى أهون عليه من أن يخلقها ، أو أن يعمرها بمن عمرها ، أو يَبُثَّ ما بَثَّ لها .

ومن أمور الدنيا ما جعله الله على الأسوة[١] ، ومنه ما جعله على التفضيل ، فأحقُّ أمورها أن يرضاه مَن أُعْطِيَه ، ويصبِرَ له من نزل به ، ما كان أمرَ أسوةٍ فى محبةٍ أو مكروه ، وهذا الموتُ مما آسَى اللهُ فيه بين الخلائق ، فقضى أن تذوقه كلُّ نفسٍ ويُعْنَى به كل حى ، فالمتقدِّم فيه على أسوةٍ ممن قبله وممن بعده ، وأنه سيلحقُه الباقى كما سبقه الماضى ، ومكارِهُ الدنيا حالَّةٌ[٢] على من عَمَرَ الدنيا ، فإن اللهَ خلقها للبلاء حين خلقها ، وخلق أهلها على الابتلاء ، لجعل لهم منها أطْباقا[٣] يركبونها ، وحالاتٍ ينتقلون فيها من مِحْنة إلى مكروه ، ونقص[٤] وعافية ، فكلُّ ذى سلامةٍ وإن طالت ، وذى عافية وإن تتابعت ، لا بُدَّ أن تنالَه المكارِهُ ، وتتصرَّف به الحالاتُ ، ويُبْلَى بالخير والشر فتنةً ، على ذلك وضعت ، فيرجو عبدٌ أن يَعْمُرَها بما لم يعمرها أحد قبله ، ولا يعمرُها به أحد بعده ؟ إنه من نفسه فى قريب الدنيا وظاهرها — وينسَى عواقبها التى بقيَتْ وعِبَرَها التى مضت — كان جاهلا مغرورًا ، ومن جعل قلبه فى الفكر والتذكر كان مُعافًى معصوما ، وكلُّ كثيرِ الدنيا قليلٌ ، وكل حالاتها غرورٌ ، غيرَ أن اللهَ برحمته جعل ما يتقرَّب به العباد إليه زاكيًا عظيما عنده ، فاصبِرْ لأمره ، وارضَ بقضائه ، وارجُ ما وعد أهل المعرفة بحقه من النعيم المقيم ، والخلود الدائم ، فيما لم تعلمه نفسٌ ، ولم تَرَه عين ، ولم يخطُر على قلب ، ولم تبلغه أمنيَّةٌ ، فضلا مذْخُورًا لأهل طاعته حين يحُلُّون عنده ، ويتلذذون فيه بالشهوات ، ويتجددون فيه على طول البقاء ؛ قد فنى الموتُ وبقُوا بعده كما كان يُفنيهم ويبقَى بعدهم ، وجميعُ العباد أسوة لأخيك فى الموت الذى أتى عليه ، ونظير ذلك فى أشباه المَرْزِئة التى دخلت عليك ، فاذكر ذلك عنده

---

(١) اى القدوة . (٢) فى الأصل « حلة » وهو تحريف .

(٣) جمع طبق بالتحريك : وهو الحال . (٤) فى الأصل « وتقص » .

مصيبتك ، والعبادُ على مقادير ، فكلٌّ داخلٍ فيها مكتوبٌ الذى له وعليه ، وكلٌّ خارج منها محفوظٌ ما قدَّم وما تقدم إليه فى الدنيا ، أعمال قُدِّرت لآجال ، وآجالٌ قُدِّرت لأعمال ، وابتلاء قُدر لجزاء ، وجزاء أُخِّر لابتلاء ، وكذا ، والسلام .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢١)

٨١ — رسالة عمارة بن حمزة فى على بن ماهان

قال ابن طيفور : ومن الرسائل المفردات رسالة عُمارة بن حمزة[١] فى على بن ماهان ، فإنه يقال إنه لا مثل لها فى معناها وهى :

«أما بعد، فقد بلغ أميرَالمؤمنين كتابُك فى ابن ماهان وخالد، ولم يُرِدْ أميرالمؤمنين بكتابه إليك مشقَّةً عليك فيما وَصَف لك من الأمور ، وصَرَّف لك من الموعظة ، ولكنه أَحبَّ أَن ينبِّهك لرُشدك ، ويدُلَّك على حظِّك، فيشدُّ بذلك عَقْدَ ما خشيتَ وَهْيَه[٢] ، ويذلِّل لك صعوبةَ ما خِفْتَ نِفارَه — ولم يكن يقع ذلك ليصلَ إليك ، إلا ببعض الغِلظة التى فيها لَذْعٌ وتقبيض — وَيأخذَ بمَراشدِ الأمور ، ووثائق الحزم ، ورغائبِ الحظ التى لا يصل إليها إلا بالكُره دون الهُوَيْنَى ، وبما يَمرُّ على أهلِه ويغلُظ ، دون ما يَحْلَوْلَى ويلين ، وأَخْلِقْ بما شَقَّ عليك من كتاب أمير المؤمنين أن يُعقِبَكَ منه مسرَّةً ، فإن خيرَ الأمور خيرُها عواقبَ .

وقد أَصبح أَمير المؤمنين واثقا بتمام عصمة الله عز وجل فى حالك التى يرجو أَنْ لا يُزيلك اللهُ عنها سَرَّاءَ لاضَرَّاءَ ، مادمتَ بحقها قائما ، ولبُعْدها[٣] لازما ، مع أن أمير المؤمين ليس ذلك يَخافُ عليك ، ولا فيه يتعَهَّدُكَ ، ولكنَّ أموراً من فَلَتات الخطأ ، وميل الهوَى ، وخشية الزَّلل ، لا يأمَنها عليك ولا على نفسه ولا على الأقرب

---

(١) فى الأصل «إلى على بن ماهان» ولكن سياق الرسالة يدل على أنها كتبت عن الخليفة إلى أحد عماله فى شأن على بن ماهان ، لا إليه ، كما سترى .

(٢) الوهى : الشق فى الشىء . (٣) البعد : المذهب ، يقال : لاله بعد : أى مذهب .

رُحماً(١) ونصيحةً له ، فإن الجهاد جهادُ المرءِ نفسَه ثم حامَّتَه(٢) ، لأن النفس أمَّارة بالسوء ، والناس متزيِّنون بالباطل ، والشيطان شديد العداوة ، لطيف(٣) الغِشِّ ، بصير بالعَوْرة ، مُعِدٌّ للفُرْصة ، قد التمس أن يصعِّب على نفسه ما ذلَّل اللهُ ، ويحمِل عليها مُؤْنةَ ما قدَّم الله فيه الصُّنْعَ والكفاية .

قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلُغ غاية التأديب ، فإنه لا يبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التي يُحتاج فيها إلى الأدب، وليس لها نهاية دونَ الفناء ، ولم يُصْبِح يتعهَّد أحداً من الناس بعد نفسِه أحقَّ منك بتعهُّده ، لأنك الثقةُ له ، ولعدوه الثائر(٤) الأعظم ، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يُصيخون(٥) بأسماعهم إلى خبرٍ : يوَدُّون أن تزِلَّ قَدَم بعد ثبوتها ، وتفسُدَ حال بعد صلاحها ، وتكِلَّ بصيرة بعد نفاذها ، متخذين ذلك ذريعةً إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين ، ولم يكن بين طاعته ومعصيته إلا ساعة من نهار .

وأمير المؤمنين لا يُنكِر قُربَ الطاعة من المعصية ، قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلُّب القلوب ، واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ، ولا يُنكر جرْيَ المقادير بغَيبِ ذلك عن العباد ، واستئثار الله بعلم مالم يأتهم إلا بغتةً ، بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما في قلوبهم ضغائنُ دونها الغَدْرُ يُظهِر أسرارَهم ، ويُخرج أضغانهم ، ثم يبلُغ بغضبه منهم مالم يكن ذلك عنده عزيزا ، ولم يكن بهم امتناع ، غير أنه قد أنكر وأنعمَ(٦) أن تعجَل إلى « ابن ماهان » — وإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مُؤامرته(٧) ، ويكرَه لك العَجَلة فإنها موكَّلٌ بها الندمُ ، وإنه كان يقال : « أصاب متأمِّل أو كاد » وقالت العرب « فإمَّا ترَيَنَّ أمرا رشدا ، فتبيَّنْ ثم ارعَوِ ، أو أقدِمْ وأحكِمْ » والحقُّ ما أمر الله عز وجل به من التبيُّن ، وما حذَّر أن يُصابَ قومٌ بجهالةٍ

(١) أى رحمة وعطفا . (٢) الحامة : الخاصة .
(٣) أى دقيق ، من لطف ككرم : إذا دق . (٤) أى الآخذ بالثأر .
(٥) أصاخ له : استمع . (٦) أنعم : زاد (أى فى إنكاره) .
(٧) المؤامرة : المشاورة (أى مؤامرة أمير المؤمنين) .

وما خوّف على ذلك من الندامة[١] ، فليس يبْرَح المرء بخيرٍ ما فَرَغ لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ .

وأما ما ذكرتَ من كذا ، فليس يبعُدُ أن يدعو إلى « خالد » التُّهَمَة ، وإلى « ابن ماهان » المعذِرَةَ ، فإنما العجلة مُسْتَرَاحُ المُرِيب ، والبِدارُ بالأمور أمْرُ من ليس على ثقةٍ من رأيه ، ومن لا يرجو أن يكون التثبُّت لقوله مُصدِّقا ، ولرأيه مُنَفِّذًا ، فمن أخذ بهذا الرأى ، وأنزل أحدا منزلَ تُهَمَة وهو غيرُ ظنين[٢] فقد أعظم الجريرةَ .

وَأمَّا ما سألتَ من البَعثة إليك فَرأىُ أمير المؤمنين البيانُ الذى يُذهِب عنه ريب الشك ، ولَبْسَ الشبهة فيما تحمله من أمر عيسى ، وما دام على الثقة واليقين فليست منزلتك عند أمير المؤمنين بالمتلوِّنة ، فيكون الناس مَجازا إلى انتقامك ، وقد صدَّق أمير المؤمنين قولَك ، وعَذَر خالدا باعتذارك ، وتجاوزَ عما لا عُذْرَ فيه ، غيرَ أنه ليس يحبُّ لنفسه من العَجَلة وسرعةِ المبادَرة ، ما يَكره لكم ، ولا يرضَى منها بمثلِ مايَسخَط منكم ، ولا يريد المخالفةَ إلى ما ينْهَى عنه .

وأما الشر الذى كان يُثيره لو كان نُفِّسَ[٣] عنه ، فيما لم يكن ليدافعه ولا ليستظهر عليه بمثلِ طاعة الله عز وجل وتقواه ، ولزوم الأمر ذى الْحجة والعذر ، ولو ميَّلَ[٤] أمير المؤمنين بين أن تقع كريهةٌ ذاتُ شوكة يُزاول[٥] خطَرها ، ويعالج مُؤْنتها ، وبين أن يأخذ بشُبُهات الأمور المبْهَمَة ، حذَرًا لما عسى أن يقع ، لاختار ذاتَ الشوكة بأن يحمل[٦] بليَّتها على التحفظ والإقدام على الشبهة بغير بيِّنة ، ليس ذلك إلا أن يكون

---

(١) قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

(٢) الظنين : المتهم . (٣) نفس عنه : فرج .

(٤) ميل بين أمرين : يقال : إنى لأميل بين ذينك الأمرين وأمايل بينهما ، أيهما آتى : أى أتردد وأرجح

(٥) فى الأصل « نزلت » وأرى أنه محرف وصوابه « يزاول » أو « يرد » أو « يزيل » .

(٦) فى الأصل « ينحل » وأراه محرفا ، وربما كان يحيل أو « ينحى » أى يوجه .

عهدُ أمير المؤمنين حديثاً بغَشْمِ (١) الحرب التى لم تكن تكفُّ أيدى شيعته عما بسَطوها إليه ولكنه لا تستوى السيرةُ قبل الإنجاز وبعده ، بذلك مضت سُنَن الله عز وجل ، حتى حرَّم الله على الأنبياء أن تكون لهم أسْرَى حتى يُثخِنوا فى الأرض ، وأمر بضربِ الرقاب فإذا أثخنوا فالمنُّ أو الفِداء (٢) وليس مَن سَعى فى طاعته فى البَسْط أمسَّ بأجسَمِ بلاء ممن انتهى إلى أمره فى الكفِّ اليومَ ، فإنما الطاعةُ كلها بمنزلة قُربانٍ وتمحيصٍ يحُولُ بين الناس وبين أهوائهم ، لأن الحق لا يتبَع الهوى ، ولا يجرى على شهوات النفوس ، فمن أراد الله به الخيرَ محَّصَه فأخلص إيمانه ، وأنفذ بُغيته ، وألهمه عزائمَ الصبر عند ما يثقُل عليه من الحق ، ويخِفُّ عليه من الباطل ، ومن يتّبع هواه فى كفٍّ أو بسطٍ محقَه الله عزّ وجلّ وخذَله .

قد علم أمير المؤمنين أن للشيطان من كل قوم قسما يجتبيهم (٣) ويصدِّق عليهم ظنَّه ، ولو كان ذلك مُخطِئَه من قوم أخطأه من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وَقع هذا الحق بمَراغِمِ الشيطان ومَكارِهه ، فليس تارِكَه جُهْداً ، وليس وبالُ ذلك كله كائناً إلاّ على أوليائه ومستجيبيه ، وأميرُ المؤمنين يرجو أن يكون الله قد بلغ بحقِّه

---

(١) الغشم : الظلم ، والمعنى بشدتها .

(٢) قال تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ـ يثخن : أى يبالغ فى قتل الكفار ـ وذلك « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى يوم بدر بسبعين أسيرا . فاستشار أصحابه فيهم ، فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله النصر عليهم ، استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، وقال عمر : اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وقد كذبوك وقاتلوك وأخرجوك، فرأى عليه الصلاة والسلام رأى أبى بكر، وأخذ الفداء من الأسرى، فنزلت الآية عتابا له فى قبول الفدية ، ثم نسخت بقوله تعالى : « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » أمره سبحانه بالإثخان فى الكفار الذين يصدون عن سبيل الله ، ومنعه عن قبول الفدية منهم ـ وذلك حين كانت الشوكة للمشركين ـ ثم خير بين المن والفداء لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين» .

(٣) اجتباه : اختاره .

مَبلغاً لا يَضِيره(١) معه عداوةُ عدو ، ولا خِذلانُ خاذل ، ولا يستجيش(٢) من لم ينصره اليومَ لو لم يكن له نصير .

وَقد رآكَ أميرُ المؤمنين خلطتَ اعترافا باعتذار ، وتنصُّلا بجاحدة ، فأمَّا الذنبُ فمغفورٌ متجاوَزٌ عنه ، وأما العذر والحجة فلم يعرفهما أمير المؤمنين ، ولم يثبتا لك ، ولو ثَبَتا لك لم يزد ذلك مِنْ رضاه عنك ، ورأيه فيك ، على ما رأيت مستحكماً لك عنده .

وأمَّا قُرب بعضِ أصحابك لبعض حتى يدعُوَهم ذلك إلى الشهادة بسَفْك دمائهم ، فإن ذلك قد عَمَّ الناس بكل أُفُق ، وهو راجع إليك جوابا يجب أن تفهمه وتَدَبَّرَه ، وهو يستعيذ بالله من زَلَل(٣) الغيّ ، وخَطَل القول ، وشُبُهات العملِ ، وزينة الهوى ، وخطَرَاتِ الشيطان .

اعلم أن هذا الجند الذين اُستُرْعيتَهم ، وأُعِنْتَ بطاعتهم ونُصرتهم ، مِن أفضـلِ أهل الأرض عليك حقا ، وأن حقَّهم هو حقُّ الله عز وجل ، وحق أمير المؤمنين ، وحق همَّة نفسك على نفسك ، وأنه إن وصل إلى أقصاهم دارا ، أو أدناهم منزلا ، ضَياعٌ ، كان ذلك لك ماسًّا ولو لم تشعُر به ، وأنك لاتقدر لهم على شيء مما تَلتَمِس به صلاحَ أمورهم ، مِن بذلِ مالٍ ، أو مواساةٍ بنَفْس ، هو أعمُّ لهم نفعا ، وأغزرُ عليهم غَناءً ، مِن أدبٍ صالحٍ تأخذهم به ، وسيرةٍ صالحةٍ تحمِلُهم عليها ، مِن العفاف فى الدين ، والحضور للصلوات ، والتعلُّم للقرآن ، والتكرُّم فى الأخلاق ، والتزيُّن بالوقار والصدق والكفّ عن الشبهة ، مع أن عفو الوالى عما بدا له أن يعفو عنه ، ليس ذلك بإبطال شهادة مَن شُهِد عليه ، وإنما يكون ذلك لو كانت حقوقهم فيما بينهم ، فلا يستطيع الإمام أن يُبْطلها ، وأما إذا كان الحق حقّ الإمام يُمْضِى فيه ما أحبّ ، ويعفو عما أراد ، فمن ذا الذى يخاصِمُه فى حَقه ، وينهاه عن التثبُّت فيما اشتبه عليه ، والعفوِ فيما أحبّ العفو عنه ؟ أوَ ليس قد يكفُرُ الرجل بعد إيمانه ، ثم يَثبُت ذلك عليه ، إمَّا بإقراره ، وإما بِبَيِّنة

---

(١) ضاره يضيره : ضره . (٢) استجاشه : طلب منه جيشا ، أى استنصره .

(٣) فى الأصل « من ذلك » وهو تحريف .

فيستتيبه الإمام ، ويحقِنُ دَمَه إن تاب ، ولا يشاركه الشهودُ فى أمره ، ولاَ يلُومونه ، ولا يقولون اتَّهمْنا وَرُدّتْ شهادتنا ، مع أن تثبُّت الوالى فيما تثبَّت فيه من أمر أصحابه ، حتى يُبَرِّئَ البرىءَ ، ويُنطِّف[1] السقيم المُقرَّ بذنبه ، هو أقوى فى الأمر ، وأبلغ فى الرأى ، وأقرب إلى أن يأمَن البرىء ، ويخاف السقيم ، وينطق الصدوق ، ويهاب الكذوب ، وإذا سَوَّى بين البرىء والسقيم فى العقوبة ، وبين الصَّدُوق والكَذوب فى إجازة القول ، لم يتبكَّل[2] ذو الحزم ، ولم يسلَم ذو الاستقامة ، ولم يَزد الشرُّ إلا فُشُوّا فى دين وَرأى ونُصح[3] .

وأما ماسألتَ أمير المؤمنين من رضاه عنك ، وما عظَّمتَ من موقع كتابه منك ، فلم يكتب إليكَ كتاب ساخط ، ولكن كتابَ استعتاب ، وليس كلٌّ مستعتباً — وقد أعطاك الله عز وجل منه الرضا قبل أن تسأله ، وأنّى سألتَه ، ورضى عن « خالد » بما رأى من إشراكك إياه مع نفسك فى المعذرة والطِّلْبة ، وهو يسأل الله توفيقه وتسديده ، وأن يتحنن عليكم برأفته ، وَيُؤْوِيَكم فى كَنَف ألفته ، ويحجُزكم عن معاصيه ، ويجعلكم خير أعوان وَإخوانٍ ووزراء على إنفاذ عَدله فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنه سميع قريب ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٣)

٨٢ — كتاب له فى السلامة

« أما بعد ، فإنى كتبت إلى أمير المؤمنين حين حَلَلتُ محلَّ الوالى من خُراسان من دار الإمارة بمَرْوَ ، متعرِّفا مِن حِفظِ الله أميرَ المؤمنين فيها ، أجمل ما يعرِفه أحدٌ

(١) نطفه كنصر وضرب ونطفه : اتهمه ولطخه بعيب ، وفى الأصل « وينطق » .

(٢) أى لم يغنم ، قال أوس بن حجر :

على خير ما أبصرتها من بضاعة ... لملتمس بيعا لها أو تبكّلا

أى تغنما ، وفى الأصل « لم يمسكل » وربما كان « لم يتكلم » .

(٣) فى الأصل « إلا ومسوا من دين ورأى مصح » وهو تحريف .

توجَّهَ فى أموره ، وسار مَسِيرا فى طاعته ، وقرأتُ عهد أمير المؤمنين على مَن قَدِمْتُ عليه من رعيته وَجنده ، مؤدِّيا إليهم عنه الذى جعل الله لهم عنده من كذا ، وأعلمتُهم أن كل مُحْسِنٍ أَحَمَدُوا له أثراً ، فبسيرته سار ، وبهُداه وعهدِه ائتمَّ واهتَدَى ، وأَن مَن خالف بهم سُبُلَ العدلِ والإنصاف ، وسار فيهم بالجَوْر والاعتساف ، فبالتعَدِّى لأمره ، والخلافِ لعهده ، وأعلمتُهم أن القيام بكل ما قرأتُه فى عهده ، أو حكيتُ لهم من رأْيه وأمره ، رَهْنٌ غَلِقٌ[1] ، فأثبتَ لى فيهم قَدَمَ ولاية [وتوطّد][2] منّى به سلطان ، فاستقام سرورُ ذلك فيهم ، ورجع بأهوائهم إلى الأُلفة ، وَنَفَى عن صدورهم حَسَكَاتِ[3] الوَحْشة والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٨)

٨٣ — كتاب له

وكتب :

« بلغنى كتابك تصف (كذا) ، فإن رأيتَ ألاَّ تعتمد على ما لَصِقْتَ به من عُذرك ، وأطمتَ فيه الهَوَى من قَبول عفوك ، وتجعلنى أحَد من يُسَرُّ بسرورك ، وتُشْرِكه فى مُهِمّات أمورك ، فإنى أحدهم وأوسطُهم عنايةً بما عَناك ، وتوسُّطاً لِمَا عَراك ، فعلتَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٨٤ — كتاب جبل بن يزيد إلى بعض إخوانه

وكتب جَبَلُ بن يزيد[4] إلى بعض إخوانه :

---

(١) غلق الرهن كفرح فهو غلق : استحقه المرتهن ، وذلك إذا لم يفتك فى الوقت المشروط . وفى الأصل « منغلق » وهو تحريف .

(٢) مابين القوسين بياض بالأصل ، وقد زدته لتستقيم العبارة .

(٣) الحسك بالتحريك : نبات عند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب ، واحدته حسكة .

(٤) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو كاتب عمارة بن حمزة ، وكان مترجما من معدودى البلغاء والبرعاء » — انظر الفهرست ص ١٧١ .

« تمّم الله علينا وعليك النعمَ ، وأجزَلَ لنا ولك محاسِنَ صالح القِسَم ، إن الله تبارك وتعالى أجرى بيننا وبينك لطيفَ مودّةٍ ، وخاصَّ أخُوّة ، غير أن المعرفة قد تُحمَدُ بعد الخِبْرة ، والثقة إنما تعرَفُ بعد التجرِبة ، وقد أحببتُ أن يعلم من قِبَلك الذى أحدَثَ اللهُ لك من حال دولتك ، وأن يعلم : هل أبقَتْ لنا منك النعمةُ سَعَةً ، أم تركَتْ لنا منك صَفْحَةً نعرِف بها عهدَك ، ونأمُلُ بها وصْلَك ، فإن أصحاب السلطان بحالِ بَلْوَى فى التغيُّر والانتقال ، إلاَّ مَن نالته من الله تباركَ وتعالى عِصمةٌ ، فإن كنتَ على ما رجَوْنا من الوفاء ، وَحُسْنِ الحفظ للمودَّة والإخاء ، فمثلُك لم يرضَ لنفسه إلا بأجملِ الأخلاق ، وأوفقِها للسّداد ، وإن حجَزَك عن ذلك ما تأتى به الأقدارُ فى مُتصرَّف الليل والنهار ، نَعذِرْك بما نعذِرُ به أهل السلطان إذا غيَّرتهم الحالُ ، وتنكَّرتْ شمائِلُهم بين الإخوان » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٨٥ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه أيضاً :

« اعلم أنى إليك مَشُوق ، وأن صِلَةَ الإخوان كَرَم ، وخيرُ الصِّلات ما لم يكن لها وجهٌ إلا الرجاء والحفظُ وتجديدُ المودَّة وتصحيحُ الإخاء ، فإن الذى يكاتِب إخوانه على حال الرغبة ، يكفى القائلَ كتابُه حيث شاء إن أحبَّ مال به إلى الصحَّة ، وإن شاء وَضَعه للرغبةِ ، والرَّغْبَةُ أملكُهما به ، والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة ، فقد يستقْطِع الصِّلَة عند الحدَث مخافة المَلامة من الناس على القطيعة الشَّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مودةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكتابُ على مثلِ حالنا وحالك اليومَ شاهدٌ على أن ذلك ليس إلا صحّة الإخاء ، والشوقَ إلى المحادثة بالكتاب ، حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ، ولا يُوضع منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال إن كنتَ

فى خاصَّة نفسك ، فإن أداء الحق وَصِلَة الإخوان أعظم الخاصَّـةِ بك خاصة ، وإنما أمْرُنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصَّتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لَكَ ، أليس ما سَرَّنَا سرَّك ، وما سَلَبناه حظا لك ، فهذه كذلك وذلك كهذى ، والله يوفِّقنا وإياك ، وأنت أبا يوسف ، هكذا حال ما بيننا وبينك ما وصفتُ لأبى سعيد ، غير أنه سألَنا أمرًا لم يسألْناه قطُّ ، فله فضلُ السَّبْق علينا فى المسألة ، ولنا فضلُ المنزلة عليك فى اللائمة ، ولن أدَعَك والفعلَ ، دونَ أن تشفعَه بالعمل الذى هو صِلَة القول ، وسلام عليك ورحمة الله ، وقَضَى الله عز وجل بالحُسْنَى لنا ولك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٥)

٨٦ — كتابه إلى بعض إخوانه

وله إلى بعض إخوانه :

« أما بعد ، فإن أعظم الأمور فيما بين الناس حقا أمران : منهما الإخاء فى الدين ، فهو سبب وصيّة الله بين عباده بالألفة والمحبّة التى انقطعت بها قرائنُ القلوب من بعضهم إلى بعض ، فاتّصَلَتْ بحبائلهم مرائرُ[1] حَبْلها ، وتقطعَتْ فيما بينهم عاطفاتُ وَصْلها ، ومنهما مجاملةُ جميل الأعداء ، وحفظُ ما يحِقُّ لأهل حُسن البلاء ، ثم الصنائعُ بعد ذلك فى مواقعها فضائلُ ، بقَدْرِ ماجرَتْ به أسبابُها ، ولَطُفَتْ مَداخِلُها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٧ — كتاب له فى المطر

قد كنتُ كتبت إلى أمير المؤمنين أُعْلِمه المَطْرة التى أصابتنا ، وما أنزل الله بها من رحمته ، ثم عادت لنا بعدها من الله عائِدةُ رحمة ، بوَلْىٍ[2] مطرٍ أنزله الله بأحسنِ

---

(١) المرائر : جمع مريرة ، وهى الحبل الشديد الفتل .

(٢) الولى : المطر يأتى بعد المطر .

ما رأينا من المطر ، وابِلاً جَوْداً[١] لا يفتُر غزيرُه ، ولا يرعوِى جَوْده ، إلا إلى دِيمَة[٢] عن دِيمَةٍ ، يتراخى إليها يسيرا رَيثما تعود ، فأقامت علينا سماؤه مستهِلةً[٣] بذلك وكذلك ، إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكونٍ من الريح ، وفُتورٍ من القُرِّ[٤] ، وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمتَه ، ويبسُط به رزقَه ، فأسبَغَ النعمة ، وأوسَعَ البركَة ، وأوثقَ[٥] بحمد الله معارفَ الخِصْب والحِمى ، والله محمود على آلائه[٦] ، وَمشكور على بلائه ، وما أنزل الله من سُقياه ورحمته بعد الذى أقبلَتْ به السَّنة البَرِّيَّة[٧] والقَحْطُ وعدم الإمطار ، وشدةُ ما بلغ الناسُ من القُنُوطِ وسوء الظنون » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

٨٨ — تعزية له

« مَن كان من نعمة الله ، وَالعلم بالله ، على مِثْل الذى حُبِيتَ به ، اقتصَرَ برأيه وَصحة فهمه على ما يعود عليه فى العاجل والآجل ، وبلَغَنى وفاة فلان ، فأعظِمْ لله بها فى المصائب مصيبةً ، وأَجلِلْ بها فى الأحداث نائبةً ، نَوَّر الله له فى قبره ، وعَزَم لك على الصبر ، وَبارك لنا وَلك فى الذى تَئُول إليه العواقبُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

٨٩ — تعزية له

« أما بعد ، فإن من صحِبَ الدنيا لم يَخْلُ من تصرُّف أحوالها ، وَكثرة مَعارِيضِ فجائعها ، فى اخترام[٨] الأنفس فى خواصِّها ، ومواقع البلايا بين ذلك فيما يَهُدّها ، ويعْرُو

(١) الوابل : المطر الشديد الضخم القطر ، والجود : المطر الغزير أو مالا مطر فوقه .

(٢) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد وبرق .

(٣) استهل المطر : اشتد انصبابه . (٤) القر مثلثة : البرد .

(٥) فى الأصل « وأوبق » وأراه مصحفا ، والصواب « وأوثق » أى جعلها وثيقة ، وأرض وثيقة : كثيرة العشب موثوق بها . (٦) الآلاء : النعم ، والبلاء : النعمة أيضا .

(٧) البرية : الصحراء ، ونسب السنة إليها تشبيها بها فى الجدب والقحط .

(٨) اخترمته المنية : أخذته .

من الأسى عليها ، وكلٌّ ذلك لا سبيلَ إلى دفعه ولا حيلةَ يستعان بها عند نزوله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قَضَى ، وَالتسليمُ لأمره فى كل ما أَتَى ، والسكونُ إلى الأُسْوة التى نهَجَ الله سبيلها ، وخفَّف بها مواقعَ المصائب على أهلها ، ثم الرجاء بعد ذلك لحسن ثواب الله ، الذى جعله لمن لَزِم أمره ، وأجْشَم (١) نفسَه مكروهها فى مَوَاطِنِ الصبر على المصيبة والشكر فى حال العافية » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨ و ١٢ : ٢٦٣)

٩٠ — تعزية له إلى الخليفة

« فإن الله أنزل أميرَ المؤمنين من الإسلام وأهله منزلاً عظَّم فيه فضلَه ، وَاختصَّه منه بالذى هو أهلُه وأوْلى به ، فأصبح بفضل نعمة الله عليه ، ولطيف إحسانه إليه ، عِماداً لجميع المسلمين ، عليه تجتمع أهواؤهم ، وإليه تسكُن أملاؤهم (٢) ، وبه يُصلح الله دينَهم ، ولا تصلُح إلا به دنياهم ، فما يُلبسه اللهُ من عافية ، ويُحْدِث له من كرامة ، تُجلِّلهم مع النعمة فى وصولها ، وأعباء الشكْر فى وجوبها ، وما ينوبهُ — والله ولى حِفظِه — من نائبةِ حدثٍ برزء مصيبة ، شَرِكوه فى ألم الحدَث ، وَتركوا شرِكته فى حسن الثواب .

وَقد كان من قضاء الله فى ابن أمير المؤمنين ، ما عَظُمت به المصيبةُ ، وعمَّت به الرزيةُ للمنزلةِ التى أنزله الله بها من دينه وقرابته من نبيه صلى الله عليه وسلم ، مع مكانه من خليفته ، وما كان فيه مع ذلك من الأمل العظيم ، والرجاء الجسيم ، الذى به سكَنتِ القلوب ، وأُمِّل لجليلات الخطوب ، وَكان عاريَّةً من عوارى نعم الله ، أنعم بها الله على أمير المُؤمنين ، فاستمتَعَ بما أعاره فيه من قُرَّة العين والغِبطة والسرور ، إلى أن بلغَ منتهى مُدَّةِ ما أُعِير ، وقَضى كل ارتجاع [أن] يرتجعها مُعِيرُها فيَبْتلِى بها من

---

(١) أى كلفها كجشمها . (٢) جمع ملأ بالتحريك : وهو الجماعة .

أعيرها ، وكان يجرى من تقدير الله فى ذلك على حتم من العمر ، وقسم من الرزق ، ومدة لها وقت وتأجيل ، فلما استكمل الحتم من عمره ، واستتم القسم من رزقه ، قبضه الله إليه اختياراً لما عنده ، وابتلى أمير المؤمنين ليجمع له إن شاء الله حسن ثواب حسبته ، إلى ماضى ما استمتع به فيه من نعمه ، محموداً فى ذلك بلاؤه ، منتصحاً فيه قضاؤه ، مسلما فيه لأمره الذى جرت به سنته ، واعتدلت بالأسوة فيه حال جميع خلقه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، نسأل الله الذى ابتدأه بمنه وفضله ، أن يجعله وخليفته وارث إرث نبوته ، وصفى الأصفياء من صفوته ، وفى معدن الفضل من أهل خيرته ، وأن يلحقه بالأخيار من سلفه والمنتجبين[1] الأبرار من فرطه ، ويكرم فيما لديه مآبه ، ويحسن فى المعاد ثوابه ، ويعظم هناك فضيلته ، ويقرب إليه وسيلته ، ويرفع فى أعالى درجات الصالحين درجته ، إكراما بذلك لنبيه ، وتوقيراً لخليفته ، وتطولا عليه فيه بمنه وكرمه ، وأن يعظم أجر أمير المؤمنين فى مصيبته ويحسن فيها ثوابه ، ويجزل فيها عوضه ، ويكرم بها فى المعاد ذكره ، ويريه من معارف عاجل حسن الخلف فى الزيادة النامية فى عباده ، والمواهب المتتابعة فى ولده ، ما يجبر به مصيبته ، ويقر به عينه ، ويتم به كرامته ، ويبلغ به أفضل ما ينتهى إلى رضاه ، من سبوغ[2] العطية ، وتمام النعمة ، وإيتاء كل حسنة ، وصرف كل سيئة ، ولا يريه وإيانا فى ولده مكروهاً أبدا ، فإنه وليه وولى إتمام النعمة عليه ، وما اختصه به وظاهر عليه من المن والإحسان والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٨)

٩١ — فصل له فى الذم

« إن فلانا حمة[3] من بقايا حمة الشيطان ، جمع الله إليه أولاد المزائم وذوى الفتك وأبناء النقم ، ثم قدم باطلهم بين أعينهم ، فلفقهم[4] على غير أسباب ، حتى إذا تضايقت

---

(١) انتجبه : اختاره . (٢) أى تمامها . (٣) الحمة : الإبرة تضرب بها الحية .

(٤) أى جمع بعضهم إلى بعض ، من لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

بهم المذاهبُ ، أخرجهم الله كالنَّبل لم يوصَل به ريشُه ، ولم يُشْدَد عليه نصلُه، فطاش عن المرمَى ، وقصُر عن المَدى ، فنزعُوا أيديهم ، وصاروا إلى ربِّهم بالْخَبَل[١] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٩)

٩٢ — كتاب بشر البلوى إلى يزيد بن منصور

وكتب بِشْر[٢] بن أبى كِبارٍ البَلَوىّ إلى يزيد بن منصور عامل أبى جعفر المنصور على اليمن ، وقَدِم إلى صَنْعاء أوّلَ سنة ١٥٤ بعد الفُرَات بن سالم ، وقد طلب منه ما كان فرَضه الفُرَاتُ لنفسه على أهل اليمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنه قَدِم علىَّ كتاب من الأمير ـ حفظه الله ـ مع رسوله نُعْمان الهَمْدانِىّ ، يأمرنى أن أبعثَ إليه بفَرْض الفُرَات بن سالم ، وأنا أخبر الأمير ـ أكرمه الله ـ أنه كان قَدِم علينا قبل كتابه كتابُ الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، يأمرنا فيه أن نفرّق ماجَمع الفُرَاتُ ، وأن نَهدِمَ مابنَى ، وأن نُوالىَ مَن عادى ، وأن نُعادِىَ مَن والى ، ونظرتُ فى الرسالتين ، وقِسْتُ بين الرسولين ، لغير تحيُّرِ عَرَضَ ، ولالشُبهةٍ بحمد الله دخلَتْ ، فرأيتُ أنْ لاأنقُضَ ماجاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، لِمَا قَدِم به النعمان ـ لعنه الله وغضب عليه ـ وعلمتُ أنَّهُ من يَزِغْ منا عن أمر الله يُذِقْه من عذاب السَّعِير[٣] ، فليقْضِ الأمير ـ حفظه الله ـ فىَّ ما كان قاضياً[٤] ، ثم ليُعَجِّلْ ذلك ولا يُنْظِرْنى[٥] ، فوالله إنَّ العافية لَفِى عقابه ، وإن العقاب

---

(١) الخبل : الفساد .

(٢) جاء فى المواهب الفتحية ٢ : ١٤٠ « هو من فضلاء اليمن من أهل صنعاء ، من قبيلة بلىّ كغنى ، وهو أبلغ الناس ، وكانت بلاغته تتهادى فى البلاد ، وكان له فيها مأخذ لم يسبقه إليه أحد ولم يلحقه فيه ، ويتعجب من بلاغته ونفاستها ، وأنه فيها أوحد ، وأنه لايشابه بلاغته البلغاء ، وأنه منفرد بحسن اختلاس القرآن الكريم ـ هكذا ذكر أبو محمد الهمدانى الشهير بابن الحائك المتوفى سنة ٣٣٤ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « فَاقْضِ مَاأَنْتَ قَاضٍ »

(٥) أنظره : أخره .

لفى عافيته ، وإن الموت لَخيرٌ من الحياة معه ، إذا كان هـذا الجِدَّ منه ، والحقُّ عنده والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٢ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤١)

٩٣ — كتاب أبي جعفر إلى عامله بحضرموت

وولَّى المنصور رجلا من العرب حَضْرَمَوْتَ ، فكتب إليه والى البريد « إنه يُكثر الخروج فى طلب الصيد ببُزَاةٍ[1] وكلابٍ قد أعدَّها » فعزله ، وكتب إليه :

« ثَكِلَتك أُمُّك[2] ، وعَدِمَتك عشيرتُك ، ماهذه العُدَّةُ التى أعدَدْتَها للنِّكاية فى الوَحْش ؟ إنَّا إنما استكفَيناك أمورَ المسلمين، ولم نستكفِك أمورَ الوحش ، سلِّم ما كنت تَلِى مِن عملنا إلى فلان بن فلان ، والْحَقْ بأهلك مَلوما مَدْحُورا[3] » .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٩٧)

٩٤ — فصل من كتاب أبي جعفر إلى الآفاق بالبيعة للمهدى

« والمهدىُّ — معشرَ المسلمين — فى عَفافه وصلاحه وورعه وطبائعه وشِيَمه وحِلمه ورأفته واستصلاحه واستبقائه ، وعفوه ومقدرته ، ورأيه ومكيدته وشوكته على عدوّه ، وحسن تدبيره فى ولايته وسياسته لجنوده ، ورِفْقه وعدله ، وأدبه وفِقهه ، وفهمه ونجابته ويُمْنِ نَقيبته[4] وتَوْسِعةِ ذات يده ، واغتفاره وهَدْيه ، وحسن جزائه أهلَ الغَناء[5] عنه والبلاء معه ، والطاعة له والسمع منه ، ولينه وحزمه وعزمه ، ووفائه وصدقه ، هو المصطنَع[6] لولايتكم، والمتخيَّر لسياستكم واجتماعِ أُلفتِكم ، وتمام نعمةِ الله عليكم، ولم يكن الله ليُعِدَّ لهذه الأمور إلا مصطنَعا فى رأيه، كاملا فى فضله وسياسته، قويا على طاعة الله ونصر دينه والذبِّ عن حقه وملَّته .

---

(١) البزاة جمع البازى: وهو ضرب من الصقور .
(٢) ثكله كفرح : فقده .
(٣) دحره كمنع : طرده وأبعده ودفعه .
(٤) النقيبة : النفس والطبيعة .
(٥) الغناء . الكفاية .
(٦) أى المختار .

وقد بايع أميرُ المؤمنين ومَن قِبلَه من أهل بيته وجنوده ورعيته للمهدى محمد ابن أمير المؤمنين ، ولعيسى بن موسى من بعد محمدٍ المهدىّ ، مستبشرين ببيعتهم ، راغبين فيما صَفَقَت[١] عليه أيمانهم من تخيُّرٍ للذى كان يُذْكَر فى الأمير من تمام نعمَة الله عليهم مؤمِّلين لما فى الأحاديث المأثورة من أهل الحق قبلهم مُوقنين بخيرة الله لهم ، فإن اسم المهدى محمد ابن أمير المؤمنين واسم أبيه ، والزمان الذى كان يُذْكَر ذلك فيه ، والأمور التى تُنْسَب إليه، والفتوح التى كانت تُذكَر أنها تُفْتَح عليه فى أول أمره ، ومبتَدإ زمانه - وقد رأيناها وَعَرفناها يشهَدُ بعضها لبعض، متصِلةً على حالاتها، متواليةً على ماذُكر فى الأحاديث منها يصدِّق الأولُ منها الآخِرَ على مراتبها ومنازلها، والأحايين التى تكون فيها ، لا يُخْرَم[٢] شىء منها عن شىء متلاحقةً ملتئمةً إن شاء الله ولا قوة إلا بالله - واصِلٌ[٣] هـذه الأطرافَ المنكَرَةَ والأعلامَ المقدَّمة بأصولها الجسيمة العظيمة التى ملأت[٤] الأرض نورا وعدلا وعِزا لأهل الإسلام ، وظَفَرا وتأييداً لأهل الحق ، ونصراً وفضلا ونعمةً من الله عليهم، ولم يحبَّ أميرُ المؤمنين أن يُخْرِج عيسى بن موسى من هذا الإلّ[٥] ، فعقد له من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، وَجَعَلَه ولىَّ عهده ، ونوى أميرُ المؤمنين الخيرَ فى ذلك ، واحتسَبَ الأجرَ من الله عليه ، ورجا صلاحَ الرعية .

فبايِعوا باسم الله وعلى بَرَكته وتوفيقه وتسديده ، لمحمد ابن أمير المؤمنين بيعةَ رِضوانٍ من الله إن شاء الله، بصحّةٍ من نيَّاتكم، وسلامةٍ من صدوركم، ووفاءٍ واستقامةٍ بخير صَفقةٍ صَفَقَتْ عليها أيمانكم ، وأعظمِها إن شاء الله وأتمِّها نعمَةً ، وأحسنها عاقبَةً ، وأبلغها فى طاعَة الله منزلةً ،وأرفعها فى الخير درجَةً ، فأبْشِرُوا بنِعمٍ مُحَبَّبَاتٍ عاجلاتٍ وآجلاتٍ يُعِزّ الله بها دينكم ، ويتِمُّ بها النعمةَ عليكم ، ويقمَعُ بها الشيطانَ وجنودَه وأباليسَه ،

---

(١) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع

(٢) فى الأصل « لايحرم » وأراه مصحفا . (٣) خبر « فإن » .

(٤) فى الأصل « علا » .

(٥) الإل : العهد ، وفى الأصل « إلا » .

ويفُلُّ بها حَدَّهم ، ويُوهِن بها قوتهم ، ويَصْرَعهم فى كل مَوْطِن ، ويقتلهم فى كل مشهد ، فإنكم ـ معشر المسلمين ـ قد أخذتم فى توفيق الله إياكم، وتسديده لكم، بطرَف أمرٍ فيما ألهمكم الله من بيعتكم للمهدى ابن أمير المؤمنين ، سيُؤدِّيكم إلى النِّعم التى كانت توصَف ، والظهورِ الذى كان يُذْكَر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٣٩)

٩٥ ــ كتاب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد

وكتب بعض الهاشميين إلى المهدى وهو ولى عهد يشكر له :

« إن لباسَ النِّعَم التى ألبسَ اللهُ الأميرَ كرامةٌ توحَّدَ له بها فى سابق علمه ، ونافذِ قضائه ، فأحَلَّه من التناسُل فى أذكَى النَّسْل ، وأطيبِ المَحَلِّ ، طينةً عن طينةٍ ، وأباً عن أب ، وخَلَفاً عن سَلَف ، حتى انتهى به إلى المحلّ الذى منهُ بَرَزَ ، فكان خيرَ البريّة وابنَ خيرِها ، حقًّا له غيرَ مجحود ، وسابقةً له معروفة عند أهل الأدب والدين ، ثم خصَّنا اللهُ فى أنفسنا : بأن جَعَلنا من أهل المعرفَة بذلك ، وفى الأمير : بأن جعل لنا فى نَسَبه شَرِكةً انشعبَتْ بها إلينا شُعْبةٌ فى شرفنا المذكور ، وزَيْنِنا الأعظم ، واللهُ محمودٌ .

ثم كان من بلاء الأمير عندى ما كان فى الخاصّة مشهورا ، وعن لسانى وشكرى وقولى منشورا، ولست أدَّعِى حقا لى قِبَلَ الأمير فى القرابة والحُرْمة والموَدَّة إلا وللأمير عندى الفضلُ والزيادة على القَدْر ، فأما ما علىّ من واجب الحق للأمير فلا أرانى ـ وإن اجتهدتُ ـ بالغاً كُنْهَ حقِّ الأمير علىّ ، غير أن المحصول منى أن دنياى التى أُصْلِح ، وآخرتى التى أطلُب ، إنما أستَنْجِحُها بالأمير ، لأن الأمير فى الدنيا ذو قرابتى، فالعائِدَة[1] علىّ ، وفى دينى المهدىّ المرتضَى، على ذلك بَيْعةُ يدى ، ورِضا نفسى ، قد أوضح الله

---

(١) العائدة : الفائدة والمعروف والصلة .

للناس من بَرَكة الأمير وَيُمْنه وعلامات صفته ، مالم يُصبح أحد يحتاج فيه إلى خَبَر مُخْبِر ، ولا صِفَة واصفٍ ، وَالله محمودٌ ، نسأل الله الذى بلَّغَ الأميرَ فى نفسه وعلى ألسُن الناس مابلَّغ ، أن يتمِّمه له بأحسن ماتمَّمهُ لأحدٍ قطُّ فى طول البقاء لأمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، وأتمّ النعمَة عليه فيه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٩٦ — كتاب أبى جعفر عند موته يوصى بالمهدى

وروى الطبرىّ أنه لما مات أبو جعفر المنصور (سنة ١٥٨ هـ) خرج الربيع[١] ابن يونُس ، وفى يده قِرطاس ، فألقى أسفله على الأرض ، وتناول طرَفه ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَن خَلَف بعده ، من بنى هاشم ، وشيعتِه من أهل خُراسان ، وعامة المسلمين » ثم ألقى القرطاس من يده وبكى وبكى الناس ، فأخذ القرطاسَ وقال: قد أمكنكم البكاء ، ولكن هذا عَهْدٌ عَهِده أمير المؤمنين ، لابدَّ من أن نقرأه عليكم ، فأنصِتوا ، رَحِمكم الله ، فسكت الناس ثم رجع إلى القراءة . « أما بعدُ : فإنى كتبت كتابى هذا ، وأنا حَىٌّ فى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسألُ اللهَ ألاَّ يَفْتِنكم بعدى ، ولا يَلْبِسَكم[٢] شِيَعاً ، ولا يُذِيق بعضكم بأس بعض ، يابنى هاشم ويا أهل خراسان » .

---

(١) هو أبوالفضل الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة كيسان مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان ، وزر للمنصور ، وكان مهيبا فصيحا كافيا حازما فطنا ، ولم يزل وزيرا للمنصور إلى أن مات المنصور ، فقام بأخذ البيعة للمهدى ، ثم سعى به أعداؤه إلى الهادى ، فقتله سنة ١٧٠ هـ انظر ترجمته فى الفخرى ص ١٥٨ ووفيات الأعيان ١ : ١٨٥ .

(٢) أخذه من قوله تعالى « قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » واللبس : الخلط ، يقال : لبست الأمر ألبسه كضرب: إذا خلطت بعضه ببعض ، أى يجعلكم فرقا مختلفة الأهواء .

ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدىّ ، وإذْ كارِهِ البيعةَ له ، وحضِّهم على القيام بدولته ، والوفاء بعهده . . . إلى آخر الكتاب .

قال النوفلى: قال أبى : وكان هذا شيئا وضعه الربيع .

ثم أخذ الربيع البيعة منهم لمحمد المهدى .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٢٤)

٩٧ — كتاب لجبل بن يزيد تعزية وتهنئة للمهدى

فإنَّه مَنْ أقرَّ لهُ بالقُدْرةِ ، واعتَرَف لهُ بالرُّبُوبيَّة ، لم يُنكِر مواقعَ أقداره ، وما مَضَتْ به سُنَّتُه على إحلالِها فى الأوَّلين والآخرين . وإنَّ الخبَرَ أتانا بوافِدِ أمير المؤمنين المهدىّ بأنها[1] كانت بيعةً سليمةً مباركةً ، لم يُطْلع أحداً منَ الناس فيها اعتراضٌ ولا خلافٌ بقول ولا فعل ، بل استفاضَ به الرِّضَا والغِبطةُ ، وَظَهَر السرورُ من العامَّة والخاصَّة ، واجتمَع فى ذلك أمران : مصيبةٌ لاتَعْدِلُها المصائبُ ، ولا تُوَازِيها الفجائعُ ، وعائِدَةٌ[2] من الله تَعظُمُ عن كل ماعسى وَاصِفٌ أن يصفَه مِن أهلها ، أو يعظِّم من وُجُوهِ شكرِ اللهِ فيها ، فإنا لِلهِ وإنا إليه راجعون ، إعظاماً للرزيَّة ، وإقرارا بالقَضِيَّة ، واعترافا لله بالقدرة .

والحمدُ لِلهِ على ما تَلاَفَى بِهِ عبادَه فى بلاَئه ، من نعمته التى لَمَّ بها الشَّعَثَ[3] ، وجَبرَ بها المصيبةَ وَشدَّ بها أركانَ الإسلام وَأَهلِه ، وأعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نَزَلَتْ ، وأعظِمْ بالنعمَة نعمَةً حَدَثَت . وإن أحقَّ من انتصحَ لله فى قضائه ، واعترف بوجود حُسْن بلائه ، مَنْ عَلِمَ أن الفجائع أمرٌ جَرَتْ به سُنَنُ الله بين عباده تذكيرا وتحذيرا ، ومنْ به انقادت معرفتُها ، ووفَمَتْ حُجَجُ الله على العباد فيها ، ولولا ذلك لم يكن لِمعزَّ

---

(١) الأصل « كأنها » وهو تحريف . (٢) العائدة : المنفعة .

(٣) الشعث : انتشار الأمر .

أن يَرُوم تعزية أمير المؤمنين ، ولا لمُؤسٍّ[(١)] تأسيةً ، إعظاما له عن ذلك ، وتوفيرا لجلال منزلته ، وا كتفاء به فى ذلك بنفسه ، مع الذى يحِقّ على جميع المسلمين من الوقوف على مساماة فضله ، والترقِّى فى رفيع درجته ، فعظَّم اللهُ على الحادث النازل أجْرَه ، وأحسنَ على الخلافة عوْنَه ، ثم لا وَكَلَه اللهُ فى شىء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العملَ بما يُرْضيه ، ويبلغ به تأديةَ حقِّه فيما استرعاه واستحفظه ، وجعَلَه أهلَه وأحقَّ به ، واللهُ فاعِلٌ ذلك إن شاء الله والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٠)

٩٨ — تعزية لغسان بن عبد الحميد عن خليفة[(٢)]

« أما بعدُ : فإن اللهَ تبارك وتعالى جعل المقادير عِلماً ثابتاً عنده ، وكتابا سابقاً منهُ ، فجَرَت عليه ومَضَتْ به الأمورُ فى قدرته ، والعبادُ فى قبْضَته ، وليس عبد من عبيده إلا وقد كان عُمْرُه فى الدنيا موظُوفا قبل خَلْقه ، وكان مايصيبه منها مكتوبا عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهلَ عبادته أهلَ حظوظٍ متكاملةٍ فى السعادة ، وأهلَ فضائلَ متظاهِرةٍ فى الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتَجَبَ[(٣)] منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموتَ الذى لا بُدَّ منه ، وجعله الحياةَ لهم فيما عنده ، فكانت وفاةُ مَن توَفَّى[(٤)] منهم له سعادةً فيما يُصيِّرهم إليه ، وحياةُ من أحْيَا منهم له كرامةً فيما يصطنِعُهم له ، فيَمْضى الأول منهم سعيدا ، ويَبْقَى الباقى منهم مُصْطنَعا ، فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ، ولا يَبْقَى باقيهم إلا ليزداد خيرا فيها ، قد أخذوا من الله بأسبابٍ أصلح لهم بها مَعادَهم فى آخرتهم ، وحفِظَ لهم بها دنياهم فى مَحْياهم ، يُعْرَفُ حقُّ الميت منهم بعد موته ، كما كان يُعْرَف حقُّه فى حياته ، ويُعظَّم حقُّ الحىِّ منهم للمنزل الذى أنزله الله به .

---

(١) أساه تأسية : عزاه .

(٢) أرى أن هذه الرسالة تعزية من غسان للمهدى عن أبيه المنصور .

(٣) أى اختار (٤) عائد الموصول محذوف:أى من توفاه .

والحمدُ لله الذى جعل أمير المؤمنين « فلانا » من خلفائه الذين عُمِّروا فى كرامته وتمكينه ، ومَضَوْا على أحسن الرجاء فيما عنده ، ثم جَمَعَ له الأجرَ بما أدَّى من حق الله فى حياته ، فيما نظر به للرعيَّة ، من استخلاف أمير المؤمنين بعده ، وجَمَعَ لأمير المؤمنين الأجرَ فى محبته إياه بالبرِّ والمؤازَرة له ، وفيما احتسَبَ به من مودَّته ، وقامَ به من الحق فيما استخلفه عليه ، فوالدُكَ يا أمير المؤمنين خيرُ الناس فَرَطا[1] ، وأنت أفضل الناس خَلَفًا ، لقد لقَّيْت واللهِ والدكَ من الحياة ما يُرجَّى له فى الوفاة ، وأعقبَكَ من مصيبتك به ، ما وطَّأ لك من الخلافة بعده ، وأعقبَ الرعيةَ من فَقْده ، ما عمِلتَ به فيها من المعدَلة[2] ، والماضى مفقودٌ مستخلَفٌ منه ، والباقى محمودٌ مرضىٌّ به ، وأمرُ الرعية قائم معدولٌ فيه ، فَعَلَ اللهُ كذا والسلام » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

٩٩ — فصل من تعزية له

« ولم يزَلْ أهلُ بيتِ أمير المؤمنين أعظمَ الناسِ مصيبةً بميِّت ، وأعظمَ الناس نعمةً بحَىٍّ ، لِفضلِ أمواتِهم ، ونعمةِ الله على أحيائهم ، فإن الله جعلَ أمواتَهم للمسلمين سَلَفا ، وجعل أحياءهم لهم عِصَما ، فلُحُوق[3] المسلمين بسَلَفهِم من أمواتهم نجاةٌ لهم فى مَعادهم ، واعتصامُهم بطاعة أحيائهم صلاحٌ لأمورهم فى دنياهم ، وأحقُّ الأموات أن يسلُوَ عنه الأحياء ، مَن يُرثى له ـ لفضله ـ أن يكون اختار اللهُ له ماعنده ، فيذهب ما يوجَدَ عليه من الحزن ، لِمَا يقع له عند الله من حُسْن الأمل ، فإن الحِسْبة تَجبُرُ المصيبةَ ، والحزن لايَرُدُّ المَرْزِئَةَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

---

(١) الفرط : ماتقدمك من أجر وعمل .

(٢) فى الأصل «العقلة» ولايستقيم بها المعنى ، وأرى أنها محرفة عن « المعدلة » أى العدل

(٣) فى الأصل « للحقوق » وهو تحريف .

١٠٠ — كتاب له فى المودة

« وقد أصبحتْ للوسائل إليك أسبابٌ ، وللحقوق إليك دواعٍ ، منها ما يَشْهَدُك ممن خالَطَك وكثُر لِقاؤه لك ، ومنها ما غاب عنك ، من مُؤَدٍّ لحقك ، وعارفٍ بفضلك ، مناصِحٍ لك ، مُدَّخِرٍ لموضع ذلك إذا هُومِتَ[1] به إليك ، وليس من كان له نصيبٌ من مخالطتك ، بأوجَبَ حقًّا ممن له فضلٌ فى أداء حقك ، ولا أحسِب أحدا ممن طالت لك خِلْطتُه[2] ، يبلغ من المعرفة بحقك ، وما جعل الله فيك من الفضل ، ما بلغ[3] أصحابَ النصيحة وإظهار المودة والسرور بما أحدث الله لك من الزيادة ، وقد أحْبَبْتُ — إذ كنتُ على ذلك لك ، وأحرزتُ حظى من معرفة فضلك — أن أُحْرِز حظى فى موقع ذلك لى عندك ، وأن تجرىَ المكاتبة، وكذا. . . . » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

١٠١ — عهد من المهدى إلى أحد ولاته

« هذا ما عَهِد به عبد الله المهدىّ محمد أمير المؤمنين إلى فلان ، حين ولاَّه ثغرَ أرمينيةَ والباب والأبواب[4] ، حَرْبَها وخَراجَها وصدقاتِها وجميعَ أعمالها .

أمَرَه بتقوى الله فى سرائره وعَلانيته ، والاعتصام بالله والعمل بطاعته ، والإيثارِ لحقّه على ماسواه ، والمراقبة له والخَشْية منه ، والحفظ لدينه وأمانته ، والانتهاء إلى مايحِقّ عليه فيما وافقَه وخالَفَه ، فإن الله لا يُضيع لمحسِن أجرا ، ولا يُصْلِح لمُفْسِدٍ عملا .

وأمَرَه أن يُشْعِر قلْبَه مخافَةَ الله وهَيبتَه ، وأن يعلم أنه لاحَول ولا قوةَ فى شىء

---

(١) أى توسل . (٢) الخلطة بالكسر : العشرة (وبالضم : الشركة) .

(٣) فى الأصل « بل أبلغ من أصحاب ... » وهو تحريف .

(٤) قال ياقوت [فى معجم الأدباء ٢ : ٩ « باب الأبواب ، ويقال له الباب غير مضاف ، والباب والأبواب ، ... مدينة على بحر طبرستان . وهو بحر الخزر » .

إلا بالله والعمل بطاعته ، فإن الله عز وجل إذا علم بذلك بصدق نيته ، وصحةٍ من يقينه ، أحْسَنَ عَونَه ، وخار[١] له فى قضائه ، وكفاه ما همَّه ، ولم يكِلْه فى شىء من أموره إلى نفسه إن شاء الله .

وأمَرَه أن يتعاهد نفسَه فى دينه وطاعته ونصيحته وحاله ، فى الصغير والكبير من أمره ، ويُكثِر ذكرَ علمه به وقدرته عليه ، وألاَّ يأتمر أمرا حتى يستخيرَ الله فيه ، ويستعينَه عليه ، ويستقضيَه فيه ، بالذى هو أحبُّ إليه ، وأرْضَى عنده ، فإن العاقبة للتقْوَى ، وإن أفضل الأمور أصلحُها عاجلا ، وخيرُها عاقبةً ، وأعظمُها أجرا ، وأحسنها ذُخرا ، إن شاء الله .

وأمره أن يعلم أن الثَّغْر الذى ولاَّه أمرَه ، من أعظم ثغوره عنده ، وأهمِّ أعماله إليه ، لقُرْبه من العدو ، وَإطْلاله عليهم ، وَموقعه من المسلمين ، وَأنه لم يُسْنِده إليه إلا لحاله عنده ، وَثِقته به ، وَمعرفته بطاعته وَنصيحته ، وَكِفايته وَضبطه وَمبالغته ، وَحسن سيرته ، وسياسته ومكيدته ، ونكايته فى أهل الشرك بالله ، وعن الإسلام ، وأهله وأنه ليس أحد من عماله إنِ اتَّقَى واعتصَم بأمره وأخذ بعهده ورأيه ، بأسرعَ منه بكل أمر زاده الله به عنده منزلةً ومزيةً وفضلاً .

وأمرَه أن يصلِّيَ الصلواتِ لمواقيتها فى مسجد الجماعةِ ، ولا يتشاغل عنها بغيرها ، فإن الله جعلها عمود الدين ، فقال تبارك وتعالى : « فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » .

وأمَره أن يفتح بابه لأهل عمله ، ويُقِلَّ الاحتجاب عنهم ، ويُلِينَ كَنَفَه[٢] لهم ، وينظر فى أمورهم ومظالمهم ، وَيُنْصِف بعضهم من بعض ، ولا يُحابى شريفاً لشرفه ، ولا يتعدَّى على وضيع لِضَعَته ، وألاَّ يكون لأحد من الناس ، يخالف الحقَّ عنده ،

---

(١) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير .
(٢) الكنف : الجانب .

هوادةٌ ولا غَميزة(١) ، وأن يصبر نفسه على ما نابه وَوَرَدَ عليه من أمورهم ومظالمهم ، وينظر ويَجلسَ له ، حتى يؤدِّيَ إلى كل ذى حقٍّ حقَّه ، فإن فى ذلك صلاحَهم ومعونته على ماينوى من العدل عليهم ، وتأدية حق الله عليه فيهم إن شاء الله .

وأمرَه بحُسْنِ الولاية وَرِفقِ السياسة ، وإظهارِ العدل والعمل بالحق ، وَكفِّ الظلم ، وإبطالِ الجَوْر ، وإيثار أهل الطاعة والنصيحة والفضل والورع وصدق النية ، ويفضِّلهم على غيرهم ، ويستعين بآرائهم فيما هو مُصْدِرُه حتى يكون ما يُمضى ويُنْفِذ منه بحسَب ما يجتمعون عليه ويرَوْنهُ موافقاً للعدل ، ومجانباً للظلم والجَوْر .

هذا عهدى إليك ، وَأمرى إياك فيما وَليتك ، وأسندتُ إليك وقلّدتك ، فامتثله ، واعمَلْ به ولا تُجاوِزه ، واستعن بالله فيما غلبك ، يُعِنْك اللهُ ، واللهَ أسأل أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وأن يوفقك ويُحْسِن كفايتك » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٥٠٣)

١٠٢ — كتاب المهدى إلى محمد بن سليمان

وكتب المهدىُّ إلى محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو والى البصرة ، يأمره أن يردَّ آل زيادٍ إلى نسبهم(٢) .

---

(١) أى مطعن أو مطمع .

(٢) كانت سمية أم زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كلدة الثقفى ، وكان طبيبا يعالجه ، فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة ، فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت على فراشه زيادا ، (فى السنة الأولى من الهجرة كما جاء فى الطبرى ٢ : ٢٥٩) فلما كان يوم الطائف نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد نزل فهو حر ، وولاؤه لله ورسوله » فنزل أبو بكرة وأسلم ولحق برسول الله ، فقال الحارث بن كلدة لنافع : أنت ابنى فلا تفعل كما فعل هذا ، يريد أبا بكرة ، فلحق به (العقد الفريد ٣ : ٢).

وقد قدمنا لك أخبار زياد واستلحاق معاوية إياه ــ انظر الجزء الأول ص ٣٣٥ ، ص ٥١١ والجزء الثانى ص ٣٤ ، ومنذ استلحاقه (سنة ٤٤ هـ) أصبح هو وذريته يعدون فى سلالة أبى سفيان ويعتبرون من قريش ، وبعد قليل أصبحت سلالة أبى بكرة مولى رسول الله تعد فى ثقيف .

فلما كانت خلافة المهدى أمر برد آل أبى بكرة من نسبهم فى ثقيف إلى ولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم =

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإن أحقَّ ما حَمَلَ عليه وُلاةُ المسلمين أنفسَهم وخواصَّهم وعوامَّهم فى أمورهم وأحكامهم ، العملُ بينهم بما فى كتاب الله ، والاتباعُ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصبرُ على ذلك والمواظبةُ عليه ، والرضا به فيما وافقَهم وخالَفَهم ، لِلَّذى فيه من إقامة حدود الله ، ومعرفةِ حقوقه ، واتّباع مَرضاته ، وإحرازِ جَزائه وحُسن ثوابه ، ولِمَا فى مخالفة ذلك والصُّدودِ عنه وغَلَبة الهوى لغيره ، من الضلال وَالخَسارِ فى الدنيا والآخرة .

وقد كان من رَأْىِ معاوية بن أبى سُفيان فى استلحاقِه زيادَ بن عُبَيدٍ ، عَبْدِ آلِ عِلاجٍ من ثقيف ، وادّعائه ما أباه بعدَ معاويةَ عامّةُ المسلمين ، وَكثيرٌ منهم فى زمانه ، لِعلمهم بزيادٍ وأبى زياد وأمِّه ، من أهل الرضا والفضل والفقه والوَرَع والعلم ، ولم يَدْعُ معاويةَ إلى ذلك وَرَعٌ وَلا هَدْى ، ولا اتباعُ سُنَّة هادية ، ولا قُدوة من أئمة الحق ماضيةٍ ، إلاّ الرغبةُ فى هلاك دينه وآخرته ، والتصميم على مخالفة الكتاب والسُّنَّة ، والعُجْب بزياد فى جَلَده ونَفاذه ، وَما رَجا من معونته ومُوَازَرته إياه على باطلِ ما كان يَرْكَن إليه فى سيرته وآثاره وأعماله الخبيثة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولدُ للفِراش وللعاهِرِ الحجَرُ[١] » وقال : « من ادَّعَى إلى غير أبيه ،

= وبرد آل زياد إلى نسبهم من عبيد . وكان سبب ذلك أن رجلا من آل أبى بكرة رفع ظلامة إلى المهدى ، وتقرب إليه فيها بولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المهدى : إن هذا نسب واعتزاء ماتقرون به إلا عند حاجة تعرض لكم ، وعند اضطراركم إلى التقرب به إلينا ! فقال : ياأمير المؤمنين ، من جحد ذلك فإنا سنقر ، أنا أسالك أن تردنى ومعشر آل أبى بكرة إلى نسبنا من ولاء رسول الله ، وتأمر بآل زياد بن عبيد فيخرجوا من نسبهم الذى ألحقهم به معاوية ، فيردوا إلى نسبهم من عبيد فى موالى ثقيف ، فأمر المهدى فى آل أبى بكرة وآل زياد أن يرد كل فريق منهم إلى نسبه ، وكان مما قوى رأيه فى آل زياد أنه قدم عليه وهو ينظر فى المظالم رجل منهم ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا ابن عمك ، قال : أى ابن عمى أنت ؟ فانتسب إلى زياد ، فقال له المهدى : يابن سمية الزانية ، متى كنت ابن عمى ؟ وغضب وأمر به فوجىء فى عنقه وأخرج ، وكتب المهدى فيهم إلى محمد بن سليمان الكتاب المذكور ، فأخرجوا من ديوان قريش .
ثم إن آل زياد بعد ذاك رشوا الديوان حتى ردهم إلى ما كانوا عليه ـ انظر تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٤ والفخرى ص ١٦٢ .

(١) العاهر : الزانى ، أى لاحق له فى النسب ولاحظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب ، أى لاشىء له .

أو انتمى إلى غير مَوَاليه ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلا[١] » .

ولعَمْرى ماوُلِدَ زيادٌ فى حِجْر أبى سفيان ، ولا على فِراشه ، ولا كان عُبيدٌ عبداً لأبى سفيان ، ولا سُمَيَّةُ أَمَةً له ، ولا كانا فى مِلكه ، ولا صارا إليه لِسَبب من الأسباب ، ولقد قال معاوية فيما يعلمه أهلُ الحفظ للأحاديث عند كلام نصر بن الحجّاج ابن عِلاط السُّلَمىّ ومن كان معه من مَوالى بنى المُغيرة المخزوميِّين ، وإرادتهم استلحاقه وإثباتَ دعوته ، وقد أعدَّ لهم معاوية حَجَرا تحت بعض فُرُشِه ، فألقاه إليهم ، فقالوا له: نسوِّغ لك ما فعلتَ فى زياد ، ولا تُسَوِّغ لنا مافعَلْنا فى صاحبنا ! فقال : قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خير لكم من قضاء معاوية ، فخالف معاويةُ بقضائه فى زياد واستلحاقه إياه ، وما صنع فيه وأقْدَم عليه ، أَمْرَ الله جلَّ وعزَّ ، وقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتَّبع فى ذلك هواه رغبةً عن الحقّ ، ومجانبةً له ، وقد قال الله عز وجل : «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » وقال لداود صلى الله عليه وسلم — وقد آتاه الحكم والنُّبُوَّة والمال والخلافة — : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » .

فأمير المؤمنين يسأل الله أن يَعْصِم له نفسَه ودينَه ، وأن يُعيذه من غَلَبة الهوى ، ويُوفِّقهُ فى جميع الأمور لِما يحبُّ ويرضى ، إنه سميع قريب ، وقد رأى أميرُ المؤمنين أن يردَّ زيادا ومن كان مِن ولده إلى أمّهم ونَسَبهم المعروف ، ويُلحِقهم بأبيهم عُبيد وأمّهم سُمَيَّة ، ويتَّبع فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أجمع عليه الصالحون وأئمةُ الهدى ، ولا يُجيز لمعاوية ما أقْدَم عليه ممن اجترأ على مخالفة كتابَ الله وسنة رسوله صلى الله

(١) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية ــ انظر الجزء الأول ص ٣٣ .

عليه وسلم ، وكان أمير المؤمنين أحقَّ مَن أخذ بذلك وعَمِل به ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم واتّباعِه آثارَه ، وإحيائِه سُنَّتَه ، وإبطاله سُنَنَ غيره الزائغة الجائرة عن الحق والهدى ، وقد قال الله جل وعز : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ » .

فاعلَمْ أن ذلك مِن رَأْيِ أمير المؤمنين فى زياد وما كان من ولد زياد ، فألحِقهم بأبيهم زياد بن عبيد وأمِّهم سمية ، واحمِلْهم عليه ، وأظهِرْه لمن قِبَلك من المسلمين ، حتى يعرِفوه ويستقيمَ فيهم ، فإن أمير المؤمنين قد كتَبَ إلى قاضى البصرة ، وصاحِب ديوانهم بذلك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وكتب معاوية بن عبيد الله فى سنة ١٥٩ هـ . (تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٥)

١٠٣ — كتاب بشر البلوى إلى على بن سليمان

وكتبَ بِشر البَلَوىّ إلى على بن سليمان وكان والياً للمهدى على اليمن يعاتبه[١] :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ : فإنه مهما اختلَطَ عَلَىَّ من عقلى ، واشتَبَهَ علىَّ من رأيى ، وشككْتُ فيه من أمرى ، فلستُ أشُكُّ فى أن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يَقْدُرَ[٢] عَلَىَّ رزقى ، أو يبتلِىَ بالشِّدة عِيالى ، أطلَعَك على[٣] باب طمعى ، وَدلَّك على وجه طلبى ، وجعلك جليساً لأهل حاجتى ، ثم ابتلانى بطلبها إليك ، فإذا ذكرْتُها لك أسفَرتَ[٤] وأبشرتَ ووعدت من نفسك وعْداً حسنا ، ففرَّقتُ نفقتى لإسفارك ، ووسَّعتُ على عيالى لإبشارك ، وتسلَّفْتُ[٥] من إخوانى لوعدك ، فإذا أتيتك مُتَنَجِّزا

---

(١) هكذا نقل صاحب مفتاح الأفكار، وفى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبى مطرف.

(٢) قدر عليه رزقه كنصر وضرب، وقدره . ضيقه.

(٣) فى مفتاح الأفكار « على ذات طمعى » .

(٤) سفر الصبح كضرب وأسفر : أضاء وأشرق ، وأبشرت : أى بشرت .

(٥) أى اقترضت .

ذلك عَبَسْتَ وبَسَرْتَ ، ثم أدبرتَ واستكبرتَ[١] وقد تصرَّمَتِ النفقةُ ، وانقطع الرجاء ، ويئِسْتُ من الطمع ، كما يئِس الكفَّارُ مِنْ أصحابِ القُبُورِ[٢] .

وأعظمُ من ذلك عندى كَرْباً ، وأشده جَهْداً[٣] أن غيرك يعْرض عَلَىَّ الحاجةَ التى طلبتُها إليك ، فأكرَهُ أن تكون إلاَّ بسببك ، وأن تجرِىَ إلاَّ على يدك ، ولَعَمْرِى ما كان ذلك إلا لسابقِ العلم فى شِقْوَتى[٤] بك . فأسألُ الله الذى جعل جاهتَك[٥] من بلائى ، وحُسْنَ منزلتك من مُصابى . وطولَ حياتك فتنةً لِعيالى ، أن ينقلَك إلى جَنَّته[٦] قبلَ أنْ يرتَدَّ إليْكَ طَرْفُكَ[٧] والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٧ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٠٤ — كتاب عيسى بن موسى بنزوله عن ولاية العهد لموسى الهادى

وفاوض المهدىُّ عيسى بنَ موسى فى أن ينزِل عن ولاية العهد لأبنه موسى الهادى ، وألحَّ عليه فى ذلك فأبَى ، ثم أجابه إلى سُؤله ، على مالٍ عوَّضَه المهدىُّ إياه مِنْ حقِّه : عشرةِ آلافِ ألفِ درهم وَضِياعٍ بالزَّابِ الأعلى[٨] وكَسْكَرَ[٩] ، وكتب

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى « ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ » وبسر كنصر: كلح وعبس .

(٢) أخذه من قوله تعالى : « قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ » .

(٣) الجهد : المشقة . (٤) الشقوة : الشقاء .

(٥) الجاه والجاهة : المنزلة والقدر . وفى المنظوم والمنثور « جاهك » .

(٦) فى المنظوم والمنثور « أن يعجلك إلى نار جهنم » .

(٧) أخذه من قوله تعالى : « قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » . (٨) انظر ص ١٤ ج ٣

(٩) كسكر : كورة جنوبى العراق ، كانت قصبتها مدينة واسط (التى بين الكوفة والبصرة) .

عليه بذلك كتاباً أشْهَدَ عليه فيه جماعةَ أهل بيته وصحابته وَجميع شيعته وكُتّابه وجنده فى الدواوين ، ليكون حُجة على عيسى وَقَطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه ، وكان ذلك سنة ١٦٠ هـ .

وهذه نسخة الشرط الذى كتبهُ عيسى على نفسه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله المهدى محمدٍ أمير المؤمنين ، وَلِوَلِىِّ عهد المسلمين موسى بن المهدىّ ولأهل بيته وجميع قُوّاده وجُنوده من أهل خُراسان ، وعامّةِ المسلمين فى مَشَارق الأرض ومَغاربها ، وحيثُ كان كائنٌ منهم ، كتبتهُ للمهدىّ محمدٍ أمير المؤمنين ، ووَلىِّ عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على ، فيما جُعِل إليه من العَهد ، إذ كان إلىّ ، حتى اجتَمَعَتْ كلمة المسلمين واتَّسَقَ أمرهم ، وَأْتَلَفَتْ أهواؤهم على الرضا بولاية موسى بن المهدىّ محمد أمير المؤمنين وعرفْت الحظَّ فى ذلك علىَّ ، والحظَّ فيه لى ، ودخلتُ فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى ابن أمير المؤمنين ، والبَيعةِ له ، والخروج مما كان لى فى رقابهم من البَيعة ، وجعلتكم فى حِلٍّ من ذلك ، وَسَعَةٍ من غير حَرَج يَدْخُل عليكم ، أو على أحد من جماعتكم وعامّة المسلمين ، وليس فى شىء من ذلك قديمٍ وَلَا حَديثٍ لى دَعْوَى ولا طِلْبةٌ[1] ولا حُجة ولا مقالة ولا طاعة على أحد منكم ولا على عامة المسلمين ولا بَيعة ، فى حياة المهدى محمد أمير المؤمنين ، ولا بعده ، ولا بعد ولىّ عهد المسلمين موسى ، ولا ما كنتُ حيًّا حتى أموت ، وقد بايعتُ لمحمد المهدى أمير المؤمنين ، ولموسى ابن أمير المؤمنين مِنْ بعده ، وجعلتُ لهما ولعامّة المسلمين من أهل خراسان وغيرهم الوفاء بما شرطتُ على نفسى فى هذا الأمر الذى خرجتُ منهُ ، والتمامَ[2] عليه ، علىّ بذلك عهدُ الله وما اعتقدَ أحدٌ من خَلْقه مِن عهدٍ أو ميثاق أو تغليظ أو تأكيد ،

---

(١) الطلبة بالكسر : الطلب ، والطلبة بفتح فكسر : ماطلبته

(٢) تم على الأمر وتمم عليه بالتحريك : أى استمر عليه .

على السَّمع والطاعة والنصيحة للمهدى محمد أمير المؤمنين ، وولىّ عهدِه موسى ابن أمير المؤمنين ، فى السرِّ والعَلانية ، والقول والفعل والنية ، والشِّدة والرخاء ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء ، والموالاةِ لهما ولمن والاهما ، والمُعاداةِ لمن عاداهما ، كائنا من كان فى هذا الأمر الذى خرجتُ منه ، فإن أنا نَكَبْتُ[١] أو غيَّرتُ أو بَدَّلت أو دَغَلت[٢] أو نويتُ غيرَ ما أعطيتُ عليه هذه الأَيْمانَ ، أو دعوتُ إلى خِلاف شىء مما حملتُ على نفسى فى هذا الكتاب ، للمهدى محمد أمير المؤمنين ، ولولىّ عهده موسى ابن أمير المؤمنين ولعامَّة المسلمين ، أولم أفِ بذلك ، فكلُّ زوجة عندى يومَ كتبتُ هذا الكتاب أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألْبَتَّةَ[٣] طلاقَ الحَرَج[٤] ، وكل مملوك عندى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله ، وكل مالٍ لى نَقْدٍ أو عَرْض[٥] أو قَرْض أو أرض ، أو قليل أو كثير ، تالِدٍ أو طارفٍ[٦] ، أو أستفيده فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنة ، صدقةٌ على المساكين يَضَع ذلك الوالى حيثُ يرَى ، وعلىَّ من مدينة السلام[٧] المشىُ حافيا إلى بيت الله العَتيق الذى بمكةَ ،

---

(١) نكب عنه كنصر وفرح : عدل .

(٢) دغل فى الشىء كمنع : دخل فيه دخول المريب ، وأدغل فيه : أدخل فيه مايخالفه ويفسده ، والمعنى على كليهما مستقيم .

(٣) يقال : لا أفعله بتة بالنصب ، ولا أفعله ألبتة ، لكل أمر لارجعة فيه ونصبه على المصدر ، من البت : وهو القطع المستأصل ، وطلقها ثلاثا بتة وبتاتا وألبتة : أى قطعا لاعود فيها ، قال شارح القاموس: « ألبتة ، بقطع الهمزة كما فى نسختنا ، وضبط فى الصحاح بوصلها » وفى شرح التصريح (١ : ٣٣٣ — باب المفعول المطلق) : « وفى اللباب : لم يسمع فى البتة إلا قطع الهمزة ، والقياس وصلها » .

(٤) أى طلاق التحريم ، يقال : حرجت الصلاة على المرأة (كفرح) حرجا بالتحريك : أى حرمت وهو من الضيق ، لأن الشىء إذا حرم فقد ضاق ، وحرج على ظلمك حرجا أى حرم ، ويقال : أحرج امرأته بطلقة أى حرمها .

(٥) العرض : المتاع ، وكل شىء عرض إلا الدراهم والدنانير فإنها عين .

(٦) التالد والتليد والتلاد (بالكسر) والمتلد (بضم فسكون ففتح) : المال القديم الأصلى الذى ولد عندك ، والطارف والطريف : المال المستحدث .

(٧) هى بغداد ، بناها المنصور وانتقل إليها من الهاشمية (وهى مدينة كان قد اختطها أخوه السفاح قرب الكوفة) وشرع فى عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ فكانت قاعدة الدولة العباسية .

نَذْرا واجبا ثلاثين سنةً لا كفَّارة لى ولا مَخْرَج منه إلا الوفاء به ، واللهُ على الوفاء بذلك راعٍ كفيلٌ شهيدٌ ، وكفى بالله شهيدا » .

وَشَهِد على عيسى بن موسى بإقرَارِه بما فى هذا الشرْط أرْبعمائة وثلاثون من بنى هاشم ، وَمن المَوالى وَالصحابة من قرَيش والوزراء والكتب والقضاة .

وكتب فى صفر سنة ١٦٠ هـ ، وختم عيسى بن موسى .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٣)

١٠٥ — كتاب المهدى إلى روح بن حاتم

وفى سنة ١٦٧ هـ تُوُفِّى عيسى بن موسى بالكوفة ، ووالى الكوفة يومئذ رَوْحُ ابن حاتم، فحضر جنازته، فقيل له : تقدَّمْ فأنت الأمير ، فقال : ما كان الله ليرَى رَوحا يصلى على عيسى بن موسى ، فليتقدَّمْ أكبرُ ولده ، فأبَوا عليه ، وأبى عليهم ، فتقدم العباس بن عيسى فصلَّى على أبيه .

وَبلغ ذلك المهدىَّ فغضِب على روح وكتب إليه :

« قد بلغنى ما كان مِنْ نُكُوصِك[1] عن الصلاة على عيسى ، أبِنَفْسِك ، أم بأبيك ، أم بجَدِّك ، كنت تصلِّى عليه ؟ أوَليس إنما ذلك مَقامِى لو حضرتُ ؟ فإذْ غبتُ كنتَ أنت أولَى به ، لِمَوْضِعك من السلطان » .

فأمر بمحاسبته ، وكان يَلِى الخراج مع الصلاة والأحداث .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٩

---

(١) نكص عن الأمر : أحجم .

١٠٦ — كتاب أبى عبيد الله إلى المهدى

وكتب إلى المهدىِّ وزيرُه أبو عُبَيد الله[1] وقد عزَله عن ديوان الرسائل سنة (١٦٧) هـ، وولاَّه الربيعَ :

« لم يُنْكِر أمير المؤمنين حالى فى قُرْب المُؤانسة، وخُصوص الخِلْطَة[2]، من حالى عنده قبل ذلك فى قيامى بواجب خدمته التى أدْنَتنى من نعمته، ووطَّدت[3] لقَدَمى من كرامته، فلِمَ أُبدَّلُ — أعزَّ الله أميرَ المؤمنين — حالَ التبعيد؟ وأُقرَّب فى محل الإقصاء، وما يعلم الله منى فيما قلتُ إلاَّ ما عَلِمه أمير المؤمنين، فإن رأى — أكرمه الله — أن يعارض قولى بعِلْمه بَدْءًا وعاقبةً، فَعَلَ إن شاء الله » .

* * *

فلما قرأ كتابه شهد بتصديقه قلبُه، فقال : ظلَمْنا أبا عبيد الله فلْيُردَّ إلى حاله، ويعلم ما تجدَّد له من حسن رأيى فيه .

(زهر الآداب ١ : ٣٤٣)

١٠٧ — تحميد لأبى عبيد الله

« الحمد لله الذى شَرَع — لإظهار حقِّه، وإنفاذِ سابِقِ قضائه فيمن ذَرَأ وبَرَأ[4] من عباده. بإدخال مَن أراد أن يُدْخِلَ فى رحمته، وإنجازِ ما حَقَّ له من العبادة على

---

(١) هو أبو عبيد الله معاوية بن يسار من موالى الأشعريين، كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة، ضمه المنصور إليه، وكان قد عزم على أن يستوزره، لكنه آثر به ابنه المهدى، فكان غالبا على أمور المهدى لا يعصى له قولا، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال مايشير به، فلما ولى المهدى الخلافة فوض إليه تدبير المملكة، وسلم إليه الدواوين، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة، ومات سنة ١٧٠ هـ.

وكان الربيع بن يونس يحقد عليه، فجهد أن ينال منه، وسعى بابنه إلى المهدى، واتهمه بالزندقة فقتله المهدى — انظر أخباره فى تاريخ الطبرى ٩ : ٣٣٩ و ١٠ : ٩ والفخرى ص ١٦٣ .

(٢) الخلطة بالكسر : العشرة . (٣) وطد الشىء كوعد ووطده : ثبته .

(٤) ذرأ الله الخلق وبرأهم — كجعل فيهما — خلقهم .

خَلْقه ، بابتدائه خَلْقهم ، ومُظاهَرتِه الآلاء[١] عليهم ، وَإحسانِه البَلاء عندهم ، وإبلاغِه في الحجَج إلى عامَّتهم - دِيناً رَضِيَه لنفسه وَملائكتِه الذين أسكَنَ سَمواتِه ورسُلِه فأتمَّه على وجهٍ لم يَرْضَ إلاَّ به[٢] ، وَلم يقبَلْ إلا إياه ، ثم كان ما أعزَّ به نفسَه ، وَأظْهَرَ به نورَه ، وأراد أن يَبلُوَ[٣] بِه عبادَه ، تحقيقاً لِما سبَقَ به علمُه ، وإنفاذاً لِما جرَتْ به مقاديرُه ، أنْ بَعَثَ لِما شرَع من دينه ، واصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقرَّبين ، مَن ارتضَى واختار من أنبيائه ورُسُلِه المُجْتَبَيْنَ[٤] لتبليغ رسالته وإظهارِ حقه ، واستشلاءِ[٥] من أراد سعادتَه مِن خَلْقِه بالرحمة التي اطَّلَعَتْ عليهم وَعمَّتْهم ، لِيُعبَد مُخلَصاً له ، محمودا بما استَحْمَدَ به إلى خَلْقه ، مشهودا له بما أشْهَد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغُ لِما أُرسِلوا به ، والنصيحة لمن أُرْسِلوا إليه ، غيرَ مختلفين فيما بُعِثوا له ، ولا متفرِّقين فيما استُعْمِلوا فيه ، يدعوهم آخِرُهم إلى ما دعاهم إليه أولُ ، فيصدِّق بذلك بعضُهم بعضا ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فمضَتْ رسلُ الله وأنبياؤه على ذلك ، سالكين مِنْهاج الحق وَسبيله ، والدُّعاء إلى الله عز وجل وَإلى طاعته ، هادين مهديِّين ، غيرَ مَبْخُوسين شيئا مما كانوا أهلَه في المنزلة عند الله ، والقُربة منه ، والوسيلةِ إليه ، هم ومن آمَن بهم وعزَّرَهم[٦] واتبع النور الذى أُنزِلَ معهم ، حتى تقضَّتْ بهم الأعمارُ ، وتقطَّعَتْ بهم الآثار ، وتخرَّمتْهم[٧] الآجالُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٧)

---

(١) الآلاء : النعم ، ومظاهرتها : مضاعفتها ، والبلاء : النعمة أيضا .

(٢) فى الأصل « فأتمن على وجه من لم يرض الا به » وهو تحريف .

(٣) بلاه يبلوه : اختبره .

(٤) اجتباه : اختاره .

(٥) الاستشلاء : الاستنقاذ من المهلكة .

(٦) التعزير : التفخيم والتعظيم .

(٧) تخرمته المنية واخترمته : أخذته واقتطعته .

١٠٨ – تحميد لأبى عبيد الله

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمةً قَدَّمها لعباده قبل خَلْقِه إياهم ، وَاستيجابِهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرَعَه لهم دينا يَدِينون بِه ، ثم جعل تجديدَ وَحْيِه ومُتابَعة رسله رحمةً تَلافاهم بها بعد تقديمها ، ومِنَّةً ظاهرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطوُّلًا على العباد بالنَّعماء ، وإعذارا إليهم بالحجج ، وتقدِمَةً بالوعد ، وإنذاراً إليهم عواقبَ سُخْطه فى المَعاد .

والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهُداه وشرائع حقه على فَترة من الرسل ، وطُمُوس من مَعَالِم الحق ، ودُرُوسٍ[1] من سُبُل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبِىَ لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهِرين بحقه ، القاهرين لمن ابتغى سبيلا غير سبيله ، فعظَّم حُرْمَتَه ، ووسَّع حَوْزتَه ، وصَدَع[2] بأمره ، وجاهَدَ عن حقه فى حَوْماتِ الضلالة وظُلُمات الكفر ، بالحق المبين ، والسِّراج المنير ، ثم جعله مصدِّقا لمن سَبَقَه من الرسل ، ومجدِّدا لما بُعثوا له وهُدًى ورحمة، ثم جعل لدينه وظائفَ وظَفَّها على أهله ، وشرائعَ شَرَعها لهم ، لا يكمُلُ دينهم إلا بها ، وجعل أداءها إليه ، واعتصامَهم بها ، إماما لدينه ، ونِظاما لنوره ، وقِواماً لحقه ، واستيجابا لما وَعَد عليه من ثوابه ، وأَمْناً لما أوعَدَ مَن خالَفَه من عقابه ، فليس يَسَعُ أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به ، وأجزَلَ لهم فضلَه وأجْره ، وجعل لهم عِزَّه وعُلوَّه ، واختار لهم الغَلَبة والعاقبة على مَن فارقهم فيه ، إلا معرفتُها وأداؤها بما يُستكمَل به حدودُها وممّا لها من كذا وكذا» . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٨)

---

(١) أى امحاء ، (٢) أى جهر .

١٠٩ — تحميد لأبى عبيد الله

« أما بعدُ ، فالحمد لله ذى الآلاء والقدرة ، والطَّوْل والعِزَّة ، الذى اصطفى الإسلام دينا لنفسه وملائكتِه وأنبيائه وَمَن كرُم عليه من خلقه ، فبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم اختصاصاً له فى ذلك بكَراماته ، واصطفاء له به على عباده ، فأعزَّه ومَنَعه ، وكفاه وَحَاطَه ، وتوكَّل لأهله بالعلم والتمكين ، والظهورِ والتأييد ، فلم يُلحِد فيه مُلْحِد ، ولم يَزِغْ عن قبول حقه زَائغٌ ، بعد إعذار الله إليه ، وإعادة الُحجَّة لله عليه ، إلا أنزلَ به من الذُّل والصَّغار ، والاجتياح والاستئصال ، مايجعل له فيه قَمْعاً[1] ، حَمْدًا كثيراً دائما مُرْضيا له ، مُؤَمِّنا من غِيَره[2] ، مُوجِبا لأفضل مَزيد ثوابه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

١١٠ — تحميد لأبى عبيد الله

« والحمد لله الذى أكرم أمير المؤمنين بما أصارَ إليه من الخلافة ، وإرْثِ النبوَّة وجعله القائمَ بأمر عباده وبلاده ، والمُحْيِيَ لسُنَنه ، والذابَّ عن دينه وحقه ، والمُناصِبَ لأهل الشِّرْكِ والُجحودِ به ، ثم نَصَره وأظهرَ فضلَ أيامه ودولته ، ومكَّن له فى بلاد عدوِّه ، وجعل كلِمته العُليا ، وأنصارَه الغالبين ، ومَن ناوَأه[3] من أهل الخلافِ الأذلِّين المقهورين ، وعرَّفَه مِن نعمته فى ذلك ومنَّته وجميل صُنْعه وعاداته ، أحسنَ ما عوَّد أحداً من أوليائه الذابِّين عن الإسلام وأهلِه ، حَمْداً متتابِعا لا انقطاعَ له ولا انصرامَ دون بلوغ حقه ، وقد كان كذا وكذا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٩)

---

(١) الصغار : الذل . واجتاحه : أهلكه واستأصله : وقمه كنمه : قهره وذلله .
(٢) أى من نقمته . وغير الدهر : أحداثه المغيرة . (٣) ناوأه : عاداه .

١١١ — تحميد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

« فالحمد لله على ما يُحْدث لأمير المؤمنين في دولته وسلطانه ، ولِعامَّة المسلمين من صُنْعه وكراماته ، في جسيم الأمور ولطيفها ، وخاصِّها وعامِّها ، بما يجعله للنعمة تماما ؛ وعلى ما يُحِلُّ بعدوّه من بأسه وقَوارعه[١] ، ويُوقع بهم من جوائحه واستئصاله ، ما يكون لموعوده إنجازا ، حَمْدا يبلُغُ رضاه ، ويُستوجَب به مزيدُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٩٥)

١١٢ — كتاب إبراهيم بن أبي يحيي الأسلمى إلى المهدى

« وكتب إبراهيم بن أبي يحيي الأسْلَمِيّ إلى المهدى يعزّيه على ابنته[٢] :

« أما بعدُ : فإن أَحَقَّ مَن عَرَف حقَّ الله عليه فيما أخَذَ منه ، من عظَّم حقَّ الله عليه فيما أبْقَى له . واعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الماضِيَ قَبلك هو الباقي لك ، وأن الباقيَ بعدك هو المأجور فيك ، وأنَّ أجْرَ الصابرين فيما يُصابُون به ، أعظمُ من النِّعْمة عليهم فيما يعافَوْنَ منه » .

(البيان والتبيين ٢ : ٣٦ والعقد الفريد ٢ : ٣٥ واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

١١٣ — جواب تعزية لشبيب بن شيبة[٣]

« قد نالتنى عِظَتُك بما عزَّيتَ به[٤] ، فجزاكَ الله أفضلَ الجزاء ، فمِثلُك أهْدَى النُّصْح ، وتوكَّلَ بالتذكر ، وقَضَى واجبَ الحق عليه في الإرشاد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٣)

---

(١) القارعة : الداهية الفاجئة .

(٢) هى ابنته البانوقة ، وقد أظهر عليها المهدى جزعا لم يسمع بمثله ؛ فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى ، واجتهدوا فى البلاغة — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١ .

(٣) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقرى التميمى ، خطيب عباسى بليغ ، توفى سنة ١٧٠ هـ .

(٤) فى الأصل « قد نالتنى عظتك بما عزيت به أو تعزيتك » والعبارة غير مستقيمة .

١١٤ – كتاب فى البيعة لمحمد بن حجر (١)

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين بمنّ الله ونعمته عليه وحسن بدئه وبلائه (٢) عنده ، لم يزل مُذْ حَمّله رعاية هذه الأمة ، وقلّده حَريمَهم (٣) ، يفعل كذا .

وقد كان من حادثِ نعمة الله على هذه الأمة فى حِينه هذا وزمانه ، أنْ أخرجَ لهم من ذرّية أمير المؤمنين ذريّةً مباركةً طيّبةً ، حَذَاهم على مِثاله ، وحَلاَّهم بحِلْيته ، وجعل فيهم وليَّ عهده ، فلمَّ بهم أمورهم ، وسَدَّ بهم ثغورهم ، ثم أحدثُ نعمِه عليهم ما ألَّفَ بين قلوبهم ، وأفشى ذِكرَه فى خاصَّتهم وعامتهم ، وسَمَتْ نحوَه أبصارُهم ، من البيعة لهرون ابن أمير المؤمنين ، وما أمَّلوا فى ذلك ورجَوْا . من ألْفتهم فى دينهم ، والبلوغ لأفضلِ أملهم ، ولم يكن الله ليختارَ للقيام بأمر هذه الأمة ، والذّبِّ عن دينها إلا مِن بيتِ نبيّه صلى الله عليه وسلم وخيرته وصَفْوته مُضْطَلِعاً (٤) فى رأيه ، كاملا فى فضله ، سائِساً قويًّا على طاعته ، ولو أن الرعية عَدَلَتْ بأبصارها عنه ، أو قَصَدَتْ بأهوائها دونه لَمَحَقَها الله ، [إذ أفاض عليها ببرَكته ويُمْنِه ، من الخير والصلاح (٥)] ما أصبحَتْ تتقلَّبُ فيه من نعمته ، وتتسرْبَلُه من كرامته ، كما قد عرَّفهم وأراهم من حسن ثوابه على صدق نياتهم فيه ، وعظيم رجائهم له ، وقد أتتنا بيعةُ هرون على حين ظَمأ إليها ، وتطلُّعٍ نحوها ، فتبادرَتْها أكُفُّنا ، وأسرعَ إليها شاهِدُنا وغائبنا ، وبايَعْنا بيعةَ رِضوانٍ من الله ، بصِحّةٍ من نيَّاتنا ، وسلامةٍ من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا ، راغبين فيما صَفقَتَ (٦) عليه أيمانُنا ، عارفين بأنها مَفتَحُ نعْمة ، ومقدِّمة فضيلة ، ودرجة

---

(١) هو محمد بن حجر بن سليمان ، كاتب العباس بن محمد أخى المنصور ، وهو كاتب بليغ مترسل — انظر الفهرست ص ١٧٢ ، ص ١٨١ — .

(٢) أى نعمته . (٣) الحريم : ماتحميه وتقاتل عنه . (٤) أى قويا .

(٥) فى الأصل « لمحقها الله صلح ما أصبحت تتقلب . . . » والعبارة كما ترى مضطربة ، وقد زدت مابين القوسين ليستقيم المعنى .

(٦) صفق يده بالبيعة والبيع كضرب وعلى يده : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع .

فى الخير رفيعة ، مقدِّمين للسرور بها نُضْحَ الجيوب[١] ، باذلين لما جاء فيها ثمارَ القلوب ، فنسأل الله أن يفعل الذى . . . . » [٢]

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٤٠)

١١٥ — رسالة ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب ابن سَيَابَة[٣] إلى يحيى[٤] بن خالد بن بَرْمَك :

« لِلأَصْيَد[٥] الجوادِ ، الوارى الزِّنادِ ، الماجدِ الأجداد ، الوزيرِ الفاضل ، الأَشَمِّ[٦] الباذل ، اللُّبَابِ الحُلاَحِلِ[٧] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير ،

---

(١) جيب القميص : طوقه ، وهو ناصح الجيب أى القلب والصدر .   (٢) كذا فى الأصل .

(٣) هو إبراهيم بن سيابة مولى بنى هاشم ، وهو من مقاربى شعراء وقته ، وليست له نباهة ولا شعر شريف ، وإنما كان يميل بمودته ومدحه إلى إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق فغنيا فى شعره ورفعا منه — انظر ترجمته فى الأغانى ١١ : ٥ .

(٤) هو يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد ، كان جده برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم « النوبهار » وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ، فلما فتح المسلمون بلخ أسلم ابنه خالد فيمن أسلم من أهلها ، وساد وتقدم فى الدولة العباسية ، واستوزره السفاح بعد وزيره أبى سلمة الخلال ، ولما تولى المنصور الخلافة أقره على وزارته فبقى سنة وشهورا ، وولد له ابنه يحيى ، وكان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال ، فضم إليه المهدى ولده الرشيد وجعله فى حجره ، ثم صار يحيى كاتب الرشيد ونائبه ووزيره قبل أن يتولى الخلافة ، وكان الهادى أراد أن يجعل الخلافة فى ابنه جعفر ، ويخلع أخاه الرشيد ، وسعى إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وقيل له : إنه ليس عليك من الرشيد خلاف ، وإنما يفسده يحيى ، فأغضب ذلك الهادى على يحيى وأمر بحبسه ، فلما كانت الليلة التى توفى فيها الهادى (من سنة ١٧٠ ﻫ) قعد الرشيد للخلافة فدعا يحيى من محبسه — وكان الهادى قد عزم على قتله وقتل الرشيد فى تلك الليلة — وقال له : يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلدتك الأمر ، ودفع له خاتمه ، فتولى الوزارة ونهض بأعباء الدولة أتم نهوض ، وكان كاتبا بليغا لبيبا سديد الآراء حسن التدبير ، ثم أقاله واستوزر ابنه الفضل ، ثم أقال الفضل واستوزر أخاه جعفرا ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه وحبسه (سنة ١٨٧) وخلده فى الحبس حتى مات فيه (سنة ١٩٠) — انظر وفيات الأعيان ٣ : ٢٤٣ وتاريخ الطبرى ١٠ : ص ٣٤ ، ص ٤٨ : والفخرى ص ١٣٩ ، ١٧٩ ومروج الذهب ٢ : ٢٦٣ .

(٥) الأصيد : الذى يرفع رأسه كبرا ، ومنه قيل للملك أصيد لأنه لا يلتفت من زهوه يمينا ولا شمالا ، والزناد جمع زند بالفتح : وهو العود الذى يقدح به النار ، وورى الزند كوعى وولى : خرجت ناره ، وفلان وارى الزناد : كناية عن مضاء العزيمة .   (٦) الأشم : السيد ذو الأنفة .

(٧) لباب كل شىء : خياره ، والحلاحل : السيد الشجاع ، أو الضخم الكثير المروءة ، أو الرزين فى ثخانة ، والمستكين : الخاضع .

فإنى أحمَد اللهَ ذا العِزة القدير ، إليك وإلى الصغير والـكبير ، بالرحمة العامَّة ، والبركة التامة .

أما بعدُ ، فاغنَم واسْلَم ، واعلَمْ ـ إن كنت تعلَم ـ أنه من يَرْحَم يُرْحَم ، ومن يَحْرِم يُحْرَم ، ومن يُحسن يَغنَم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدَم[1] ، وقد سبقَ إلىَّ تفضُّلُك علىّ ، واطِّراحُك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقُد ، فلستُ بحىٍّ صحيح ، ولا بميتٍ مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحمَّلت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرَعَتْ بى حَثًّا إليك خِطائى فأناخَتْ بمَذْهَبٍ ذى رَجاءِ[2]

راغِبٌ راهِبٌ إليك يُرَجِّى منك عَفْوًا عنه وفَضْلَ عطاءِ

ولَعَمْرِى ما مَنْ أصَرَّ ومن تا ب مُقِرًّا من ذنبه بِسواءِ

فإن رأيتَ ـ أراك الله ما تحبُّ ، وأبقاك فى خير ـ أن لا تزهَدَ فيما ترى من تضرُّعى وتخشُّعى ، وتذلُّلِى وتضعُّفِى ، فإن ذلك ليس منى بنَحِيزة[3] ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنُّع ولا تخدُّع ، ولـكنه تذلُّلٌ ، وتخشُّع ، وتضرُّع ، من غير ضارِع[4] ولا مَهِين ولا خاشِع لمن لا يستحق ذلك ، إلا لِمَن التضرُّعُ له عِزٌّ ورفعة وشرف » .

(البيان والتبيين ٣ : ١١٠)

١١٦ — بين ابن سيابة وصديق له

وكتب إبراهيم بن سَيَابَةَ إلى صديق له يساويه فى الأدب ، ويرتفع عليه فى الحال ، وكان كثيرَ المال ، كثير الصامت ، يستسلِفُ منه بعض ما يرتفِقُ به إلى أن يأتيه بعضُ ما يؤمِّل ، فكتب إليه صديقه هذا يعتذر ويقول : « إن المال مكذوب له وعليه ،

---

(١) أخذه من قول الحطيئة :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

(٢) الخطوة بالفتح : المرة الواحدة من الخطو ، والجمع خطوات بالتحريك وخطاء بالكسر .

(٣) النحيزة : الطبيعة . (٤) الضارع : الذليل ، والمهين : الحقير .

والناس يُضيفون إلى الناس فى هذا الباب ماليس عندهم ، وأنا اليوم مُضِيق[1] ، وليست الحال كما نحبّ ، وأحقُّ مَن عَذَر الصديقُ العاقلُ » فلما وَرد كتابه على ابن سيابة كتب إليه : إن كنتَ كاذبا فجعلك الله صادقا ، وإن كنت مَلُوما فجعلك الله معذورا » .

(البخلاء ص ١٧٩ ، والأغانى ١١ : ٦)

١١٧ — كتاب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحي بن خالد

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحي بن خالد يستعفيه من عمل :

« شُكْرِى لك على ما أسألك الخروجَ منه ، شكرُ مَن نال الدخولَ فيه ، فأمّا عُذرى فى تطويلِ الكتاب إليك فلم يذهب ، على أن وجوهَ الحوائج قد يكثُر الكلامُ فيها ، وتشتد قراءتُها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وَإن نفسى جاشَتْ بعظيم حاجتها » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨١ ، وكتاب الصناعتين ص ٣٢٧)

١١٨ — كتاب آخر

وكتب جعفر إليه أيضاً :

« إنما حمَّلت فلانا حاجتى ، لأنه ضَعُفَ عن حَمْل أياديك شكرى ، فجعلتهُ شاهِداً على فضلك عندى ، وقيِّما بشكرى لك وحدى » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٤)

١١٩ — كتاب آخر

وكتب جعفر إلى رجل لم يكاتبه :

« لستُ بما صرفتَ إلىَّ من معروفك ، بأسَرَّ منى بما أهديتَ إلىَّ من قضاء الحق

---

(١) أضاق الرجل فهو مضيق : إذا ضاق عليه معاشه .

عنك ، وقلة ذوى الْحزْمة بك لأنك قد تصل من لايثق ولا يأنس إلا بمن يعتمد عليه »
(المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

١٢٠ — كتاب يوسف بن القاسم إلى يحيي بن خالد

وزوَّج يوسفُ بن القاسم ابنه أحمدَ بابنةِ الحسن بن سليمان — ويعرف بالشِّيمى — وكان من كتَّاب البرامكة ، فكتب إلى يحيي بن خالد :

« عرَضَتْ حاجةٌ فكرِهْتُ أنْ أعدِل بها عن الوزير ، فأبخَسَه[1] — مع معرفتى بمحبته لِرَبِّ[2] نعمتِه ، والزيادةِ فى صنيعته — حَظًّا ، ولزِمَنى حقٌّ لا يمكن دفعُه ولا تأخيرُه ، وهو نَقدُ مَهْرٍ عن « أحمد » إلى ابنة الحسن بن سليمان ، فإن رأى الوزيرُ أن يوقِّع مع ما استحققْتُه من أرزاقى بشهرين ، سَلَفا لشهرين ، فَعلَ ، فإنى أرجو أن أبلُغَ بذلك لعَبده « أحمدَ » محبَّته ، وأنال بُغيَتَه إن شاء الله » .

١٢١ — رد يحيي عليه

فوقَّع يحيي إليه :

« هذه فضيلةٌ فى أوليائنا ، وحقوق فى ضيافتنا ، فنحن بالقيام منها دونَك حرِيُّون ، وبِحَظٍّ نقلِها عن مالك جَديرون ، وقد أمرتُ لأحمدَ بما سألتَ من المال ، بمسألتك فيه ، وزيادة الضعف ، استظهاراً منى له ومؤكدا ، وأمرتُ باستحقاقك لشهرين من مال السلطان — أعزه اللهُ — ومثله صلةً من مالى ، وأنفذْتُ إليك بذلك كلِّه رِقاعاً بخَطِّى إلى مَن تقْبِض ذلك منه ، فأما السَّلَف من مال السلطان فلا سبيل إليه ، ولا أعرِفُ « جعفرا » بتارك « أحمدَ » إليك ولا إلينا ، كما لم يترك « الفضلُ » « قاسماً[3] » إن شاء الله » :

---

(١) أى أنقصه . (٢) رب النعمة : تنميتها وزيادتها وإتمامها وإصلاحها .

(٣) يعنى القاسم بن يوسف أخا أحمد بن يوسف ، وقد أمر له الفضل بن يحيى لما بلغه خبر أبيه يوسف وأخيه أحمد ، بثلاثين ألف درهم ، ولقيه معاوية بن صالح فقال له : فما عزمت أن تعمل فيها ؟ قال : أرفد بها أخى أحمد فى عرسه ، قال معاوية : وإن أخذها كلها ؟ قال : وإن أخذها كلها فلا بأس .

وفى أسفل الرقعة من شعر يحيى :

عِنْدِى لمثلك إحسانٌ وتـكرِمَة فثِقْ بذلك منى وابسُطِ الأَمَلا
اعمَلْ على ثقةٍ ، إنى أنا رَجُلٌ لا أمنَعُ المرء موجوداً إذا سألا
وإن عندى لك الُحسْنَى ونافلةً(١) بنُصْحِ غَيْبِك إذ لم تبغِ بى بَدَلا

١٢٢ — رد يوسف بن القاسم عليه

فـكتب إليه يوسف بن القاسم :

فهمتُ ما قلتَ فى بِرِّى ومنزلتى ونُصْحِ غيبى وبَسْطِى نحوكَ الأَمَلا
ولم أَزَلْ منك من أمرى على ثقةٍ لا أبتغِى بك ممن قد ترَى بَدَلَا
بصِدقٍ وعدِكَ إذ أسلفْتَ عارفةً(٢) وحسنِ عفوك عمن زاغ أو جهِلاَ
فِبى وبابْنِىَ وَسْمٌ(٣) فى محبتكمْ كما تعَرَّفْتَ مِن نيرانها الإِبِلاَ
فقد بسَطتم لنا جاها بجاهكمُ وقد كفيتم ببذل العُرْفِ مَن بَخِلاَ
لولا كُمُ كان جُود الناس مشتبِهاً لـكن بَرَعْتم فأضحى جُودكم مَثَلا

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٦)

١٢٣ — كتاب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى

وكتب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد الحارثى :

« حَفظك الله وحاطَك ، رأيتُك ـ أكرمك الله ـ فى خَرْجَتك هذه رغِبْتَ عن مواصلتنا بكُتُبِك ، وإبلاغنا خَبرَك ، وقطَعْتَنا قطعَ ذى السَّلْوَة ، أو أخِى المَلَّة(٤) ، حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البُعد منا توّاقا ، فوقَعَ بُعْدُك بحيثُ

---

(١) النافلة : العطية . (٢) العارفة : المعروف .

(٣) الوسم : العلامة ـ أثر الـكى ـ وقوله « كما تعرفت . . . » أى كما تميز الإبل بسماتها وهى الآثار التى تحدث بكيها بالنار ، وفى الأصل « كما تفرقت » وهو تحريف .

(٤) مللته ومنه بالـكسر مللا وملة وملالة وملالا : سئمته .

تحبُّ من جهتين : إحداهما حلاوةُ الولاية ، والأخرى لَذَّةُ الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجَّيْناه ، قاطعناك مُجمِلين ، أو لَبِسْناك(١) على يقين ، وإن لم يكن إدلالًا بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك ، فليس قدر الهدايا وإن كثُرت ، ولا الفوائد وإن جلَّت ، احتمال لَوْم الإخوان إذا كانت الهدايا تُراد لهم ، والفوائد إنما تنال بهم ، والمباهاة بأعراض الدنيا تراد لِخلْطتهم(٢) ، وما أدرى ما أقول فى اختيارك تركَ الكتب المحدِّثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثةُ الحضور ، على تَنائى الدُّور ، والقلوبُ بها مشاهِدة ، وإن كانت الأبدان متباعِدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لَقَدِيمًا عزَّ الوفاء ، وقد أصبتُك من مرارة العتاب بما لا تُقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهَّمَنَّ أنى أدرت إعناتك(٣) بإعتابى ، ولا أزرِى(٤) عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فمشكور ، وإن قطعتَ فمعذور ، والسلام » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٢)

١٢٤ — بين يوسف بن القاسم ومحمد بن زياد

واقتضَى محمد بن زياد الحارثى يوسفَ بن القاسم حوائجَ له ، سأله عرْضَه لها على الرشيد ، فقال له : إنى أنتظِرُ بها وقتا أرجو لك فيه رجوعَها بمَسَرَّتك دون مساءتك ، ثم كتب محمد بن زياد إليه فى ذلك ، وكان صديقا له مُدِلًّا عليه ، فكان فى كتابه :

« ولولا أنك وَسَمْتَ حاجتى بالتأخير ، لَجرَت مَجْرَى غيرها ، إمَّا بنجاح وإما بسَراحٍ » .

* * *

(١) يقال : لبست قوما : أى تمليت بهم دهرا .　　(٢) الخلطة بالكسر : العشرة .
(٣) أعنته : أدخل المشقة عليه ، وأعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) أى الرضا .
(٤) زرى عليه كرمى : عابه وعاتبه كأزرى لكنه قليل ، وفى الأصل « ولا أرزأ » وهو تحريف .

فوقّع يوسف بن القاسم فى كتابه :

« صدقتَ وتعدَّيْتَ ، فأمَّا صِدْقُكَ ففى تأخيرى ، وأما تعدِّيك ففى عَذْلى عليه ، وإنما طلبتُ وقتاً أُصادِف منهُ فيه طِيبَ نفْس ، وطَلَاقَةَ وَجْه ، فيمكننى القول ـ قبلَ عرْضِ الحاجة ـ فى تقريظك ، بما لعلَّه أن يُميلَ إليك قلبَه ، وَظننتَ أنى أخَّرْتُها توانِياً فتعديتَ » .

وكتب بعدها :

إنى إذا ما صاحِبى تَعَدَّى فى اللوم والعذل علىّ حَدَّا
لم أُولِه بالعذلِ عذْلًا قَصْدَا ولم أُبقِّ فى احتمالٍ جُهْدَا
فإن أبَى إلا التعدِّى عَمْدَا أوسعتهُ بالحلم منى صَدَّا
حتى يَرَى وجه اختيارى سدَّا ويَرجِعَ الذم إلىَّ حَمْدَا

ثم قضى حوائجه ، وكتب إليه :

« قد حقَّق الله رجاءنا فيما أملنا ، وأنجح طلبنا فيما ابتغَيْنا ، وخرج التوقيعُ بما أحبَبْنا ، والحمد لله على ذلك » .

وفى أسفل الرقعة :

الرِّفق يُمْنٌ وبعضُ الناس يحسِبهُ عجزا ، وما العجزُ إلا الخُرْقُ والعَجَلُ
وَالخُرْقَ يُورثُ رَيْثاً[1] لانجاحَ له والرفقُ يحيـا به الآمِلِ الأَمَلُ

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٩)

١٢٥ ـ كتاب ليوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى

وكتب يوسف بن القاسم عن الفضل بن يحيى فى حاجة لرجل :

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة

(١) الريث : البطء .

المصطنَع ، ووسيلتهُ إلى مصطنِعه ، سيَّما عند من يُحْسِن الصنيعة ويستتمُّها مستثبتا الشكر عليها ، والثناء الجميل بها، بَسَطَ الله بالخير يديك ، وَوَصَلَ به أسبابك ، وأعانك عليه ، وجعلك من أهله » . (كتاب الأوراق للصولى ١ : ١٥٨)

١٢٦ — كتاب يحي بن خالد إلى ابنه الفضل

وقال الرشيد ليحيى بن خالد البَرمكى : يا أبتِ[١] إنى أردت أن أجعل الخاتَم[٢] الذى فى يد الفضل إلى جعفر ، وقد احتشمتُ من مكاتبته فى ذلك، فاكْفِنِيه ، فكتب إليه يحيى :

« قد أَمَرَ أمير المؤمنين أَعْلَى الله أَمْرَهُ — أن يحوِّل الخاتَم من يمينك إلى شمالك » .

١٢٧ — رد الفضل عليه

فكتب إليه الفضل[٣] :

« قد سمعتُ مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وقد أطعتُ أمْرَه، وما انقلَبَتْ عنى نعمةٌ صارت إليه ، ولا عَزَبت[٤] عنى رُتْبةٌ طلعَت عليه » .

فقال جعفر[٥]:

---

(١) كان الرشيد يعظم يحيىَ بن خالد ، وكان يدعوه : ياأبت ، لتربيته إياه ويده عليه ، كما قدمنا، ولأن ابنه الفضل كان أخاه من الرضاع » ولذا كان الرشيد يدعوه : ياأخى ، وذلك أن الرشيد ولد أول المحرم سنة ١٤٩ هـ ، وولد الفضل بن يحيى قبله بسبعة أيام ، فجعلت أم الفضل ظئرا للرشيد ، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل، وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بلبان الرشيد ــ انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ .

(٢) يكنى بذلك عن الوزارة ، وكان جعفر أبلغ فى الرسائل والكتابة من الفضل .

(٣) وزر للرشيد كما قدمنا ، وتوفى فى سجنه سنة ١٩٣ هـ ــ (فى السنة التى مات فيها الرشيد) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٠٨ والفخرى ص ١٨٣ .

(٤) عزب كدخل وجلس : بعد وغاب ، وفى رواية « ولا غربت » وغرب كنصر : بعد أيضا.

(٥) قتله الرشيد سنة ١٨٧ كما سيأتى ــ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٠٥ والفخرى ص ١٨٦ .

« لله أخى ما أنفَسَ نَفْسَهُ ! وأبْيَنَ دلائلَ الفضل عليه ، وأقوى مُنَّةَ[٢] العقل فيه ، وأوسعَ فى البلاغة ذَرْعَه[١] ، وأرْحَبَ بها جَنابَه ! يُوجِب على نفسه مايجب له ، ويحمِل بكَرَمِهِ فوق طاقته » .

(زهر الآداب ١ : ٣٣٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٤٠٩ ، والفخرى ص ١٨٦)

١٢٨ — كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل

ثم إن الرشيد قلَّد الفضلَ بن يحيى خُراسان ، فتوجَّه إليها وأقام بها مُدَّةً وورد على الرشيد يوما كتابُ صاحب البريد بخراسان ـ ويحيى بن خالد بين يديه ـ يذكر فيه أن الفضل بن يحيى متشاغِل بالصيد وإدمان اللّذات عن النظر فى أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يَرْدَعُه عن مثل هذا ، فمدَّ يدهُ إلى دواة الرشيد ، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حَفِظك الله يا بُنىَّ ، وأمْتَعَ بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه من التشاغُل بالصيد ومداومة اللذات ، عن النظر فى أمور الرعية ما أنكرَه ، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك ، فإنه من عاد إلى ما يَزِينه أو يَشِينه لم يعرِفْه أهلُ دهره إلاَّ به والسلام » :

وكتب فى أسفله هذه الأبيات :

انصَبْ نهاراً فى طِلاب العُلا ... واصبِر على فقدِ لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليـــلُ أتى مُقْبِلاً ... واستترَتْ فيه وجوهُ العُيوبِ
فكابِدِ الليلَ بما تشتهِى ... فإنما الليلُ نهارُ الأريبِ[٣]
كم مِن فتًى تحْسِبه ناسِكا ... يستقبلُ الليـــلَ بأمرٍ عجيبِ

---

(١) المنة : القوة . (٢) أصل الذرع : بسط اليدين . (٣) الأريب : العاقل .

أرْخَى عليه الليلُ أستارَه فبات فى لهوٍ وعيش خَصيبِ
ولذَّةُ الأحمقِ مكشوفةٌ يَسْعَى بها كل عدوٍ رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب، فلما فرغ قال: أبلغْتَ يا أبتِ، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهاراً إلى أن انصرف من عمله.

(وفيات الأعيان ١ : ٤٠٩، ومروج الذهب ٢ : ٢٨٢)

١٢٩ — كتاب أبى العباس بن جرير إلى الفضل بن يحي

وكتب أبو العباس بن جَرِير إلى الفضل بن يحيى:

«لا أعلم منزلةً تُوحِشنى من الأمير ولا تُوحِشه منى، لأننى فى المودَّة له كنفسى، وفى الطاعة كيدِه، وإنما أُلْطِفُه[1] مِن فَضله، وقد بعثتُ بعضَ مايحتاج إليه فى سفره» وذَكَر ما بَعَثَ.

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٣)

* * *

قال صاحب زهر الآداب:

وكتب غيره فى هذا المعنى:

«إذا كان اللَّطَفُ دَليلَ محبة، ومِيسَمَ[2] قُربة، كَفَى قليلُه عن كثيره، وناب يسيرُه عن خطيرِه، لاسيما إذا كان المقصود ذا هِمَّة، لايستعظم نفيسا، ولا يستصغر خَسيسا، وقد حُزْتَ من هذه الصفة أجَلَّ فضائلها، وأرفعَ منازلها».

(زهر الآداب ٣ : ٣٤٤)

---

(١) ألطفه بكذا: أتحفه وبره به، واللطف بالضم وبالتحريك: البر والتكرمة، ويقال: جاءتنا لطفة من فلان بالتحريك أى هدية.

(٢) أى علامة — والميسم كما يكون اسما للآلة التى يوسم بها يكون اسما لأثر الوسم أيضا قال الشاعر:

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

أى أثر وسم.

١٣٠ — كتاب للفضل بن يحيى

وكتب الفضل بن يحيى إلى رجل يشاوره فى أمر حَدَث :

« ليس كل امرئ — وإن كان ذا عزيمةٍ فى رأيه ، وأصالةٍ فى عقله — بمستغنٍ عن مكاشَفَة أهلِ الرأى ، لتوزيع الله عز وجل أقسامَ الفضلِ فى خلقه ، وإشراكه إياهم فى عطاياه فرأيك فى كذا » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٧)

١٣١ — كتاب عمر بن مهران إلى الرشيد

وولَّى الرشيدُ جعفر بن يحيى مصرَ سنة ١٧٦ هـ ، فولاَّها عمرَ بن مِهْران ، وكان بها قوم قد اعتادوا المَطْلَ وكَسْر الخراج ، فبدأ برجل منهم ، فَلَوَاه[1] ، فقال : واللهِ لا تؤدى ما عليك من الخراج إلا فى بيت المال بمدينة السلام إن سلمتَ ، قال : فأنا أؤدِّى ، فقال : قد حلفتُ ولا أحْنَثُ ، فأشخصه مع رجلين من الجند ، وكتب إلى الرشيد :

« إنى دعوت بفلان بن فلان ، وطالبته بما عليه من الخراج فلَوَانى واستنظرنى[2] فأنظرتُه ، ثم دعوتُه فدافع ومال إلى الإلطاط[3] ، فآليتُ ألاَّ يُؤَدِّيَه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملةُ ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذْتُه مع فلان بن فلان وفلان بن فلان من قيادة فلان بن فلان ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىَّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

فلم يَلْوِه أحد بشىء من الخراج . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٦١)

---

(١) لواه بدينه : مطله .
(٢) استنظره : طلب منه النظرة (بفتح فكسر) وهى التأخير ، وأنظره : أخره .
(٣) لط حقه وألط : جحده .

١٣٢ — كتاب ابي الربيع محمد بن الليث إلى جعفر بن يحيي

« وكتب جعفر بن يحيي إلى محمد(١) بن الليث يستوصفه الخطّ ، فكتب إليه » :

« أما بعدُ ، فليكن قلمك بَحْريا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرِّقّة والغِلَظ ، ضيِّق النَّقْب(٢) ، فابْرِه بَرْياً مستوِياً كمِنقار الحمامة ، اعطِفْ بطنَه ، ورقِّق شفَتَيْه ، وليكن مِدادك فارسيّا ، خفيفا إذا وزنتَه ، فانقَعْه ليلةً ثم صفِّه فى الدَّواة ، وليكن قِرْطاسك رقيقا مستوىَ النَّسج ، تخرج السَّحاة(٣) مستويَةً من أحد الطَّرَفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطورُ إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طَرْف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقلُّه فى الوَسَط ، ولا تمُطَّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمةً ثلاثة أحرف ولا أربعة ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قَرَنْتَ القليلَ كان قبيحا ، وإذا جمعتَ الكثير كان سَمِجا .

ثم ابتدئ الألف برأس القلم كله واخطُطه بعَرْضه واختِمه بأسفله ، واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطّةَ العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ، ورأسَ كل مُرْسَل ، برأس القلم ، واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء ، والمطةَ السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسِّنّ السفلى من القلم ، وَامْطُطْ بعَرْض القلم ، والمطُّ نِصْفُ الخط ، ولا يقوَى عليه إلا العاقل ، ولا أحسَبُ العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٨١)

---

(١) هو أبو الربيع محمد بن الليث ، من موالى بنى أمية ، وكتب ليحيي بن خالد ، وكان بليغا مترسلا كاتبا فقيها متكلما بارعا واعظا فى رسائله — انظر ترجمته فى الفهرست لابن النديم ص ١٧٥ .

(٢) النقب : الثقب ، بالفتح فيهما .

(٣) سحاة القرطاس : ماأخذ منه : وسحا القرطاس وسحاه : أخذ منه سحاة .

١٣٣ — كتاب له فى السلامة

وكتب أبو الربيع محمد بن الليث فى السلامة :

« أما بعدُ : فإنى كتبت إليك ، وأميرُ المؤمنين — أطال الله بقاءه ، وزيَّن أمرَه بلباس التقوى — وولىُّ عهده — مَدَّ الله للمسلمين فى عمره — فى تظاهُرِ نعم الله عليهما ، وتوالِى إحسانه إليهما ، وَحوادثِ مزيده إياهما وَمَن قِبَلهما وَما يتناهى إليهما ، وَيُعَزِّز لَديهما ، من عِز أطرافهما ، وَثغورِ رعيتهما وَجنودهما ، من الأمن وَالسلامة ، والهدوء والاستقامة ، على أحسنِ ما جرَت به العادةُ ، ومضَتْ به النعمة عليهما ، والله محمود مشكور ، وَالأميرُ أسعده الله بما آتاه ، وَمن جمعت النعمة فى ظِلٍّ كَنَفه ، على أحسنِ ما كان يُبليه ويُوليه ، وَيُجْرى النعمة فيه ، وَهو محمود ، وَنحن من تتابُع النعمِ ، وَتكامُلِ المزيد ، بحيثُ يَقْصُرُ الوصفُ عنا ، وَعن الحفظ له نظرُنا ، وَاللهَ نسأل العوْنَ على شكره وَتأدية حقه » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٥)

١٣٤ — كتاب له فى الاعتذار

« كيف يَسَعُك أن تأخذنى بظنٍّ ، لو كنتَ فيه على حقيقة عِلْمٍ لما وَسِعَك أخْذى وَلا عقابى عليه ، ولو كانت العقوبةُ على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب ، واسعةً لك فى حُكْمِ الرَّبِّ ، لكان فيما حَجَبَتِ الغيوبُ من العمل ، ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبتُ على حالٍ ، إلاَّ رَيْثَمَا يتبَعُها انتقالٌ ما يدعوك إلى أن تُمْسِك عنى ، وتقِفَ حتى تعرِفَ أَيُمْضَى رأىٌ أم ينصرف ؟ » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٥ — كتاب منصور النمرى إلى الرشيد

وكتب منصور[١] النَّمَرى[٢] إلى الرشيد:

« والله يا أمير المؤمنين ما وَخَزَتنا شوكتُهم، ولا مَضَّتْنا[٣] فَرحتُهم، وإنما نحن حُرْمة من حُرَمك، وطَرَف من أطرافك، فَنَنْشُدك الله أن يَحُول غَضَبُك لنا غضباً علينا، ونقمتُك فينا نقمةً منا، فقد صرنا نشترى: ألاَّ تغضبَ لنا بألاَّ تغضبَ علينا، وألاَّ تنتقمَ فينا بألاَّ تنتقم منا ». (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٨)

١٣٦ — كتاب محمد بن عبد الله بن حرب

وكتب محمد[٤] بن عبد الله بن حرب:

« أما بعد، فإنى أحمد الله الذى توحَّد بالحمد لنفسه، وجعله غايةَ شكرِ عباده، وأَوَّلَ دَعْوَى أهلِ جَنَّته[٥] إذ أذهب عنهم الحَزَنَ، وأصارهم إلى مغفرته وحُلولِ دار المُقَامَة من فضله، وأُتْبِعُ ذلك الصلاةَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً، لما به من الضلالة هُدِينا، ومن حَيْرَاتِ العَمَى نُجِّينا، ثم أقول: جعلك الله لكل خير

(١) هو منصور بن الزبرقان بن سلمة بن النمر بن قاسط، شاعر من شعراء الدولة العباسية من أهل الجزيرة. وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتابى وراويته وعنه أخذ ومن بحره استقى، ووصفه العتابى للفضل بن يحيى بن خالد وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه ثم وصله بالرشيد — انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ١٦.

(٢) فى الأصل « النميرى » وهو تحريف.

(٣) مضه الشىء وأمضه: بلغ من قلبه الحزن به.

(٤) كاتب الحسن بن قحطبة على أرمينية، ثم كتب ليزيد بن أسيد، ثم كتب للفضل بن يحيى — انظر الفهرست ص ١٨٣.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ. إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ »

مُوفَّقاً ، ومن كل سوء معصوما ، قد كان أتانى منك كتابٌ حالَ عليه الحَولُ عندى ، ولم يمنعنى من إجابتك فيه فى البَدْء إلا أن رسولك الموصِّل له أخبرنى بإجماعٍ منك على بَعْثِه خاصَّةً من أهلك لمطالعتى ، فكانت الإجابة منى مع خاصَّتك أوقعَ بموافقتى ، ثم رأيتك — والله يُصْلِح بالك — قطعتَ رُسُلَك عنى ، فصار ذلك سبباً لإبطاء جوابى عنك ، غيرَ زاهدٍ فى إخائك ، ولا راغبٍ عن ودادك ، ولا مُنكِر لجميل حالك ، والفاضلِ من أقسام الله لك فيما منحك وأعارك فى عقلك ومحمودِ صفاتك ووفائك ، فإنى وجدت حقائق الأُخوَّة لا تثبُتُ إلا بمَحْض المودَّة من صحة العقل والمجبولِ فى الطبيعة ، وأصبتُ العقل قائداً إلى زين العاجلة وحُظوتها ، ومحبوبِ ما يتعاطف به ذوو الحِجَى فيها ، ويتواصلون به فى دوام نعيمها وميسور أمورها ، ودَرْكاً لمذخور أجر الآخرة وسعادتها وما ليس له عَدْلٌ ولا خَطَرٌ من جزائها وثوابها ، وقد ألزم نفسى من تنافسها فى إخائك وضِنِّها وتمسكها بما أجرى الله بينى وبينك ، ما يجاوز مَدَى المتنافسين فى رغائب الأمور المحروص عليها من كنوز الذهب والفضة ، لأنى رأيت الأموال ، وإن كثرتْ عند مَن يجمعها ، حتى لا يُحْصَى عددها وتعجز المواضعُ عنده لما نال منها دانيةً لديه إلا رَيْثما تختلف أعصُرُ الدهر عليه فيها بالإتلاف لها ، بالنوائب المفرِّقة لما جُمِع منها ، وكنزَ الإخاءِ ممّن استحكمتْ منه قواه بخالص الصفاء ، أفضلَ ذخيرةً وأحمَد مَغَبَّـةً ، وأمسَّ عند ملمّات الدهور منفعةً ، وأوصلَ إلى كل مرجوٍّ من خير فى عاجل أو عاقبة ، من كنوز الأموال المكتنَفة المتصرفة ، فعلى ذلك فليكن عندك من الحالة ، وبه فليكن فى غابر الأيام لى الثقة ، وإلى الله الحولُ والقوة ، فأمّا قِيلُك : إنا صِرْنا عندك — فيما أخلفنْا من ظنك ، وبعد الذى اختبرتَ مِن شاهِدنا ، ووافقَك منا — كبَرْق الخُلَّب[1] الذى يُضىء قليلا ، ويضمحِلُّ وشيكا[2] ، فإنَّ برق الخلَّب لِمَن عاينَه غيرُ متصل له

---

(١) البرق الخلب (بالوصف) وبرق الخلب (بالإضافة) : المطمع المخلف .

(٢) أى سريعا .

مايلتمس به النور أمامه ، ولا يبلغ له منتهى غايته فى دُجَى ظلمة الليل وأهواله ، وذلك غيرُ قياسِ مَن رسَخَتْ فى القلوب مودتُه ، واستكنَّت فى سريرتها مِقَتُه[1] ، وساعدتها منه محبَّتُه وثِقَتُه ، وتمسكتْ بها حبائلُه ، وانطوت عليها ضمائرُه ، وإن الدليل من ذلك على رأيى فيك ، لَاحتفاظى بكتابك إلىَّ منذُ سنةٍ قد مضتْ له ، وهو عندى غير مضيَّع ، ولا مُغْفَل لدىّ ، وقد أتلفتُ ما يناهز المائةَ الألف من مالى فى معاريض نوائبى وحاجاتى ، وأنا متمسك بكتابك ، متلوِّم[2] بحوائجك ، وتأدية الواجب من حقك ، جعل الله الُخلَّة[3] منا ومنك فيما يُديم به المسَرَّة ، ويوالى به النعمة ، وتكون عاقبته إلى السعادة فى دار الخلود والمُقامة من فضله والسلام » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٩)

١٣٧ — كتاب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد

وكَتب محمد بن على إلى محمد بن يحيى بن خالد ، وكان والياً على أَرْمينية للرشيد :

« إن قوما صاروا إلى سبيل النُّصْح ، فذكروا ضياعا بأرمينية قد عَفَت وَدرَسَتْ[4] يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وإنى وقفتُ عن المطالبة حتَّى أعرِفَ رأيك » .

١٣٨ — رد محمد بن يحيى عليه

فكتب إليه :

« قرأتُ هذه الرُّقْعة المذمومة وفهمتها ، وسوقُ السِّعاية بحمد الله فى أيامنا كاسِدة ، وألسنةُ السُّعاة فى أيامنا كليلَة خاسِئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخُذهم بما فى ديوانك ، فإنا لم نُولِّك الناحية لتَتَبُّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الدَّاثِرَة ، وجنِّبنى وتجنَّبْ بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنتَ إذا حَلَلْتَ بدار قوم ... رَحَلْتَ بخِزْية وتركت عارا

---

(١) المقة : المحبة .
(٢) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر .
(٣) الخلة : الصداقة .
(٤) عفا الرسم ودرس ودثر : بعفى .

وأجْرِ أمورك على ما يكسِب الدعاء لنا لا علينا ، وَاعلم أنها مدة تنتهى ، وأيام تنقضى ، فإما ذكر جميل ، وإما خِزى طويل » . (زهر الآداب ١ : ٣٠٥)

١٣٩ — كتاب جعفر بن يحيى إلى أحد عماله

وكَتب جعفر بن يحيى فى العفو والمسامحة لأحد عماله :

« عندنا الاغتفارُ لِمَا اقترفتَ ، وتصديقُ كلِّ ما قلتَ واحتججتَ بذكره ، وَاعتذرتَ بوَصفه ، والإسقاطُ لِما جَحَدْتَه ، والإكذابُ للجَوْرِ الذى اقترفتَه ، والرجوعُ عما أنكرته ، والزِّيادةُ فيما اخترتَه ، استدعاءً لك وإن انصرفتَ ، وحِياطةً لما قدَّمْتَ وإن ذُمِمْتَ ، وإيثاراً للإغضاء والاحتمال ، فإنهما أبلغُ فى الإصلاح ، وأنجعُ فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمَن عليه قريحتُه ، وتَرُدُّه إلى الاُستقامة تجربته » .

* * *

وله فصل من رسالة :

« فإن العذر إذا جاء واضحا لم يكن لسوء الظن مجازٌ ، ولا لمن أراد التَّجنِّىَ مَخلَص ، وما أريد أن أزداد بك عِلْما إلى عامى » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

١٤٠ — كتاب حميد بن مهران إلى عامل معزول

وكتب [حُمَيد[١] بن مِهْرَان] إلى عامل عزل عن عمله :

« بلغنى ـ أعزك الله ـ انصرافُك عن عملك ، ورجوعُك إلى منزلك ، فسُرِرت بذلك ، ولم أستفظِعه وأجزَعْ له ، لعلمى بأن قدرك أجَلُّ وأعلى من أن يرفعك عملٌ

(١) فى الأصل « حمدون بن نهراق » ولم أجد فى كتب التراجم ترجمة بهذا الاسم ، وأرجح أن يكون محرفا وصوابه « حميد بن مهران » كما ذكرت ، قال ابن النديم فى الفهرست ص ١٧٩ « حميد ابن مهران الكاتب من أصفهان ، وكان يكتب للبرامكة مدة حياتهم ، وله كتاب رسائل » .

تتولاه ، أو يضعك عزلٌ عنه ، ووالله لو لم تختر الانصرافَ ، وتردْ الاعتزالَ ، لكان في لُطف تدبيرك ، وثُقُوب رويّتك ، وحسن تأتّيك[١] ، ما تُزِيل به السببَ الداعيَ إلى عزلك ، والباعثَ على صَرْفك ، ونحن إلى تهنئتك بهذه الحال أولَى بنا من أن نعزّيك ، إذ أردت الانصراف فأوتيته ، وأحببتَ الاعتزال فأُعطيته ، فبارك الله لك في منقلَبك ، وهنّأك النعم بدوامها ، ورزقك الشكر الموجبَ لها ، الزائد فيها » .

(زهر الآداب ١ : ٣٢٥)

١٤١ — تحميد لأنس بن أبي شيخ

« الحمد لله الذي بالقلوب معرِفَتُهُ ، وبالعقول حُجَّتُه ، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم أميناً فوفَّى له ، ومُبَلِّغاً فأدَّى عنه ، فحجَّ به المُنكِرَ وتألَّفَ به المُدْبِرَ ، وثَبَّتَ به المستبْصِرَ ، إلى أن توفّاه على مِنْهاج طاعته ، وشريعةِ دينه ، ثم أورثكم عَهْدَه ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمةَ الوُسْطَى[٣] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٥)

---

(١) تأتى للأمر : ترفق له وأتاه من وجهه .

(٢) قال ابن النديم في الفهرست ص : ١٨٢ « بلغاء الناس عشرة : عبد الله بن المقفع ، عمار ابن حمزة ، حجر بن محمد ، محمد بن حجر ، أنس بن أبي شيخ — وعليه اعتمد أحمد بن يوسف الكاتب — سالم ، مسعدة ، الهزبر ، عبد الجبار بن عدى ، أحمد بن يوسف » .

وكان جعفر بن يحيى معجبا ببلاغته : وقد اجتباه وجعله كاتبه الخاص ونديمه ، ولما نكب الرشيد البرامكة وقتل جعفرا ، أشركه الرشيد معه في الإثم وقتله وصلبه على عود في الرقة .

وفيه يروى ابن عبدوس الجهشيارى عن الجاحظ أنه قال : « كان أنس بن أبي شيخ يكتب لجعفر ابن يحيى ، وكان ذكيا فهما نقى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة ، وقتل مع جعفر بن يحيى » — انظر كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) الوسطى مؤنث الأوسط ، ويقال : فلان أوسط قومه : أى أشرفهم وأحسبهم .

١٤٢ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجى

وكتب بشر البَلَوىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبىّ والى صَنْعاء لهٰرون الرشيد، لمّا قَدِمها سنة ١٨٢، وعزم على أن يولّى بشرا بعض نواحى اليمن، فعاقه عن ذلك هشام بن يوسف الأَبْناوى[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإن رَأَى الأمير ـ أمتع الله به ـ أن لا يُعْلِم هشاما مايُريد من صِلَتى، فإنه لم يُرِدْنى وآلِى قطُّ بخير، ولم يفتح لى بابَ صلةٍ، فتكون منهُ خالصةً لايريد بها إلا وجهَ اللهَ وَحْدَه، ولا يرجو بها إلا ثوابه، إلا عَرَضَ هشام من دونها، فثقَّلَها وكرَّهها[٢] وأدارَ القياسَ فيها، وضرب لها الأمثالَ، وألقى الحيلةَ فيها إلى الكاتب والحاجِب، «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ[٣]» ومَدَحنى بما لايُسْمَع به من أخلاق، وانتقصَنى فيما لايُطْمَع بغيره منى، ليكون ما أظهر من المِدْحة، مصدِّقا لِما أَسَرَّ مِنَ العَيْبَة، ثم زخرف ذلك بالموعظة، وزيَّنه بالنصيحة، وقارَبه بالمودَّة، وأغراه من ناحية الشفقة، وشهدَ عليه أربعَ شهاداتٍ بالله إنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ[٤]،

---

(١) نسبة إلى الأبناء، وهم قوم من الفرس استوطنوا اليمن، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف ابن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة، فنصروه وملكوا اليمن وتزوجوا فى العرب، فقيل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ـ كغلبة الأنصار ـ.

(٢) وفى مفتاح الأفكار «وكثرها».

(٣) أخذه من قوله تعالى فى قصة إبليس مع آدم وحواء، وقاسمهما: أى أقسم لهما.

(٤) اقتبسه من قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ. وَالخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ».

فإذا الحاجب يُزْلِقُني ببصره(١)، وإذا الكاتب يَسْلِقُني بلسانه(٢)، وإذا الخادم يُعْرِض عني بجانبه(٣)، وإذا الوالى ينظرنى نظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ(٤)، فصارت وجوه النفع مردودَة، وأبوابُ الطمع مسدودَة، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ(٥)، والصلة التي كنت أشرفتُ عليها صَعِيداً زَلَقاً، وأصبحَ ماؤُها غَوْراً فما أستطيع له طَلَباً(٦)، فأسأل الله الذى جعل لكل نبيٍّ عدُوًّا من المجرمين(٧)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى: « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ » أى أنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك نظرا شزرا يكاد يزل قدمك.

(٢) اقتبسه من قوله تعالى: « فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ » وسلقه بالكلام: آذاه، قال صاحب الصحاح: وبابه ضرب.

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: « وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ».

(٤) اقتبسه من قوله تعالى: « فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ».

(٥) اقتبسه من قوله تعالى: « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ » والهشيم: النابت اليابس المتكسر، تذوره: تطيره وتذهبه.

(٦) اقتبسه من قوله تعالى: « فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً » والحسبان: البلاء والشر والجراد والصواعق. والصعيد: التراب ووجه الأرض، زلقا أى ملساء لا يثبت عليها قدم، غورا. أى غائرا.

(٧) اقتبسه من قوله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ».

أن يكفيني شره ، ويصرفَ عنى كيدَه ، فإنهُ يرَانى هُوَ وَقَبِيلُهُ ، مِن حيثُ لا أراهم[١] ، والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٣ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٠)

١٤٣ — كتاب بشر البلوى إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبى

وكتب بِشر[٢] البَلَوِىّ إلى إبراهيم بن عبد الله الحَجَبِىّ أيضاً يستمنحه :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ ، فإن الله ـ وله الحمد ـ قد كان عرضنى وجوها كثيرة ، وخيَّرنى فى مَكاسب حلال ، وكنت ـ بتوفيق الله عز وجلّ وإحسانه ـ قد اخترتُ منها ناحيةَ الأمير ـ حفظه الله تعالى ـ ورضيتُ به من كل مَطْلَب ، واقتصرت على رجائه من كل مكسَب ، فأثابه اللهُ عز وجل فَتْحًا قَرِيباً ومَغانِمَ كثِيرةً عَجَّلَها ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حكيماً[٣] ، وقد عرَف الأمير ـ أبقاه الله تعالى ـ طُولَ مودَّتى له ، وَقديمَ حُرمتى ، وهِجرَتى معه ، وَأنى مِمَّن أنفقَ من قبل الفَتْح وَقاتَل[٤] ، ثم إنى

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » .

(٢) كذا نقل صاحب مفتاح الأفكار ، وفى المنظوم والمنثور أن هذا الكتاب لمطرف بن أبى مطرف.

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » والمراد بالفتح فى الآية فتح مكة .

لم أتحرَّف(١) ـ بحمد الله ـ بعد الهجرة ، ولم أنافق بعد النُّصْرة ، ولم أكن كحاطِبٍ(٢) حين ألقَى بالمَوَدَّة(٣) ، ولا كتَميمٍ يومَ نادَوْا مِن وراء الحُجُرَاتِ(٤) ، بل أقمتُ على مكانتي ، واصطبرتُ على عُسْرتي ، لا أَرُدُّ الجوْعةَ إلا بالبُلْغَةَ(٥) أحيانا ، ولا أُوارِي العَوْرَةَ إلا بالغُنْيةِ(٦) زمانا ، حتى جاء الفتحُ مِنْ عند الله(٧) ، وطَلَعَ الأمير ـ حفظه الله ـ

---

(١) فى الأصل « المنظوم والمنثور » « أتعرف » وهو تحريف ، وتحرف وانحرف واحرورف : مال وعدل .

(٢) هو حاطب بن أبى بلتعة ، وكان من خبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أجمع السير إلى مكة لفتحها (سنة ٨ هـ) دعا الله أن يعمى الأخبار على قريش ، فكتب إليهم حاطب كتابا يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، وبعثه مع امرأة وجعل لها جعلا ، فأعلم الله رسوله ذلك ، فبعث أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقوا إلى الروضة فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها : أخرجى الكتاب ، قالت . مامعى كتاب ، فقالوا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ماهذا يا حاطب ؟ قال : لا تعجل على يارسول الله : إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك ياعمر ! لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ـ انظر كتب السيرة ـ .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ » وقد نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة للسبب المتقدم ذكره ، وفى مفتاح الأفكار والمواهب الفتحية « حين ألقى بالمدة » وقال صاحب المواهب الفتحية فى تفسير تلك الرسالة : « والمدة بضم الميم : اسم مااستمددت به من المداد على القلم ، وهى المعروفة عند العوام بالملة ، أى حين ألقى بالمداد على تلك الصحيفة » .

وعندى أن ذلك التفسير متكلف ، وأن كلمة « بالمدة » محرفة عن « بالمودة » ويؤيد ذلك ما جرت به سنة بشر البلوى فى الكتابة من اقتباس آى القرآن كما عرفت .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وذاك أنه وفد عليه صلى الله عليه وسلم سنة تسع وفد بنى تميم ، فجلسوا ينتظرونه ، فلما أبطأ عليهم نادوا من وراء حجراته بصوت جاف : أن يامحمد اخرج إلينا ، فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم ، فنزلت فيهم الآية .

(٥) البلغة : مايتبلغ به من العيش .

(٦) الغنية بالضم والكسر : اسم من الاستغناء .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ »

فلما ظهر وتمكَّن ، ورجوْنا الغنَى منه حين أيسرَ وأثخنَ[١] ، والعزَّ تماماً عَلَى الّذِى أَحْسَنَ[٢] ، وأنْ يَشْفِىَ اللهُ بهِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ[٣] ويُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ رَكَن إلى الظالمين ، وأصغى إلى المُداهنين ، واستمع من المنافقين ، وعفا عن المُرْجِفين[٤] ، وتجاوز عن المستهزئين ، وخَفَضَ جَنَاحه للمتكبِّرين ، وصعَّر[٥] خدَّه للمستضعَفِين ، وعَبَسَ فى وجوه المُقِلِّين ، وجفا عشيرَتَه الأقرَبين ، وأقصى شيعته الأوَّلين والآخِرين ، وحرَم إخوانه الأقدَمين ، « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » ثم تأوَّلَ الكتاب ، فتعدَّى الصوابَ ، وقرَّب الأحزابَ ، وآوَى المتخلِّفين[٦] من الأعراب ، وآثَرَ بالفَىْء مَن لم يُوجِفْ عليه بخَيْلٍ ولا رِكاب[٧] ، فأصبحت أياديه عند المؤلَّفةِ قلوبُهم ، ومَن كان يُسِرُّ النفاقَ فيهم ، ويَلمِزُه فى الصَّدَقات منهم[٨] ، وصنائعُه عند المعذِّرين من

---

(١) أثخنه : غلبه ؛ أى حين غلب أعداءه وقهرهم .

(٢) أخذه من قوله تعالى: « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » .

(٤) أرجف القوم : خاضوا فى أخبار الفتن ونحوها .

(٥) صعر خده : أماله كبرا .

(٦) فى مفتاح الأفكار « وأرفق المخالفين » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ » ووجف البعير والفرس وجفا : عدا ، وأوجفته : أعديته .

(٨) اقتبسه من قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » واللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وفعله كضرب ونصر .

الأعراب[١] ، والذين جاءوا من بعدهم ، ظاهرةً فى الآفاق وفى أنفسهم[٢] ، وأصبح نُقَباء العَقَبةِ[٣] ، وفُقَراء الهجرة ، ومساكين الصُّفَّة[٤] تَفِيضُ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ[٥] ، وأصبح السابقون الأوَّلون منا ومن أهل النُّصرة[٦] مُرْجَيْنَ لِأَمْرِ اللهِ[٧] ، والتائبون العابدون موقوفين لحكم الله ، وأصبح الفقراء المستضعفون محصورين فى سبيل الله ، فإنْ رأى الأمير — حفظه الله تعالى — أن يَميرنا

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ » والمعذر: إما من عذر فى الأمر: إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له، فمعناه : المقصرون الذين لا عذر لهم ، وإما من اعتذر ، فأصله المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها ذالا وأدغمت فى الذال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس « المعذرون » بسكون العين ، وهم الذين لهم العذر ، وكان يقول : والله لكذا أنزلت ، وقال : لعن الله المعذرين « بالتشديد ».

(٢) اقتبسه من قوله تعالى: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

(٣) العقبة : بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة ، ونقباؤها : هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، وذلك أنه كان فى بدء أمره يوافى الموسم ، ويتتبع القبائل فى رحالها يدعوهم إلى أن يمنعوه ليبلغ رسالة ربه ، فلا يجد من ينصره ، حتى كانت سنة إحدى عشرة من النبوة ، لقى ستة نفر من الأوس عند هذه العقبة فدعاهم إلى الإسلام وعرض عليهم أن يمنعوه فقالوا : هذا والله النبى الذى تعدنا به اليهود ، يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ، فآمنوا به وصدقوه ، ثم انصرفوا إلى المدينة ، وذكروا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم ناس وفشا فيهم الإسلام ، ولما كانت سنة اثنتى عشرة من النبوة وافى الموسم منهم اثنا عشر رجلا ، هؤلاء الستة وستة أخر ، فآمنوا وأسلموا ، فلما كانت سنة ثلاث عشرة من النبوة أتى منهم سبعون رجلا وامرأتان .

(٤) أهل الصفة . هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه ، فكانوا يأوون إلى صفة مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهى موضع مظلل من المسجد يبيتون فيه .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى: « تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ » .

فإنا قد سَغَبْنا[١] ، وأن يَعطفَ علينا من قبل أَنْ يَزِيغَ قُلُوبُ فَرِيقٍ[٢] مِنَّا ، فَعَلَ ، فـ«إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا[٣] ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا » ولست أدرى ماذا أعتذرُ به اليومَ إلى الناس فى أمرى عن الأمير ! وهم يعلمون أنى قد رأيتُ فيه ثُمُرَتَيْ أَمَلي ، ولم أَبْلُغْ فى نفسِى رُبْعَ رجائى ، أم ماذا ينتظر الأمير ـ حفظه الله ـ فيَّ؟ بعد أن آتاه الله المُلْكَ ، وعلَّمَه الحكمة[٤] ومكَّنه من خزائن الأرض[٥] ، وجعله فى الدنيا وجيهاً[٦] ، وفى الإسلام مكيناً . وعند الخليفة ـ أبقاه الله تعالى ـ مُطاعاً أميناً[٧] ، فمن يفرُ[٨] الأميرَ بعد هذه النعمة ؟ أم من يَعْذِره مع هذه الكرامة ؟ ومَن يرضى منه بأقلَّ من جَبْره[٩] ، إلا مَن سَفِه[١٠] نفسَه ، ولست آمَنُ أن يتطاول علينا الجَزَع ،

---

(١) ماز أهله كباع : أتاهم بالميرة بكسر الميم وهى الطعام ، وسغب كفرح ونصر : جاع ، وفى الأصل « المنظوم والمنثور » «فإنا قد استعنا » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ » .

(٣) الهلع : أشد الجزع .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ » ، وقوله تعالى : «وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى فى قصة يوسف : « قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ . وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ».

(٦) اقتبسه من قوله تعالى: « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ » .

(٧) اقتبسه من قوله تعالى : « مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ » .

(٨) أى يخفظ عرضه من النقد .

(٩) فى الأصل « جبرانه » والذى فى كتب اللغة : « جبر العظم والفقير واليتيم كنصر جبرا بالفتح وجبورا بالضم ، وجبارة بالكسر » .

(١٠) أخذه من قوله تعالى : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ».

ويتمادى به منا المَنْعُ ، أن يجتمع منا أئمةٌ صابرة ، وفرقة خاشعة، وطائفة ممنوعة، وأخرى مدفوعة ، فيدعو ربَّهم تضرُّعاً وخُفْيَةً إنه لايحبُّ المعتدين[١] والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤ ؛ ومفتاح الأفكار ص ٢٧٣ والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٤)

١٤٤ — كتابه إلى الحجبي

وكتب إليه أيضاً — وكان نهى بشرا عن التعرّض للوزراء ولأهل العراق — :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إليَّ تنهانى عن السلطان وعن قُرْبه ، ولستُ أعتذرُ إليك فى ذلك ، إن دعانى السلطانُ سارعتُ ، وإن أبطأَ عنى تعرّضْتُ . فإن كان الله تبارك وتعالى أحلَّ لك خِدْمة أمير المؤمنين، ومنادمةَ الفضل، ومُسامرةَ جعفر[٢] ، وأباح لك أن تأخذ من أموالهم القناطيرَ المُقَنْطَرَة من الذهب والفضة[٣] ، وحرَّم علىَّ مكاتبة الشُّرَط ، ومراسلة البُرُد[٤] ، والتخدُّمَ للحُضّان[٥] والتعرّضَ للدّايات ، وحَظَرَ علىَّ من أموالهم ما أسُدُّ به الفَوْرَةَ[٦] ، وأوارى به

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » .

(٢) يعني الفضل بن يحيي البرمكى ، وجعفرا أخاه .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . . . الآية » .

(٤) البرد جمع بريد : وهو الرسول .

(٥) تخدم خادما : اتخذه ، والحضان جمع حاضن ، والحاضن والحاضنة : الموكلان بالصبي يحفظانه ويربيانه ، لأن المربى والكافل يضم الطفل إلى حضنه (بالكسر) ، وكما تسمى المرأة التى تربى الطفل « الحاضنة » تسمى فى العربية أيضا « الداية » — وحرفت فى لغتنا العامية فقيل « الدادة » — والداية عربية خصيحة ، قال الفرزدق :

ربيبة دايات ثلاث ربينها يلقمنها من كل سخن ومبرد

(ورب الصبي رباه حتى أدرك) ويرادفها أيضا « الظئر » بالكسر — العاطفة على ولد غيرها المرضعة له، فى الناس وغيرهم — وقد توسعوا فى كلمة الداية فاستعملت بمعنى القابلة .

(٦) فورة الحر : شدته ، يعنى بذلك فوران النفس وجيشانها من شدة الجوع ، أى ما أقضى به حاجتى

العَوْرَة ، فأنا الهالك وأنت الناجى ، وَإن لم يكن الأمر على ذلك ، وكان لكلٍّ امْرِئٍ مِنَّا ما اكتَسَبَ مِنَ الإِثْم ، فأنت الذى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم [١] ، وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ [٢] والسلام » . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

١٤٥ — كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكى

وكتب إلى يحيى بن خالد البرمكى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فإنى كتبتُ إليك كتباً لم أرَ لشىء منها جوابا ، ولستُ — أمتع الله بك — أتكبّر عن مُوَاتَرة [٣] الكتب إليك ، ولا أستنكِفُ من [٤] ترْكِكَ الكتابَ إلىّ ، لأن مِثلك لا يكتب إلى ضعيفٍ مثلى إلا بعون الله وتأييده ، ولا يلقّى الحكمةَ كتابَه إلا بتوفيق الله عز وجل وإحسانه ، ولعلك — أمتع الله بك — لم يوافق نزول ذلك من ربك ، فإنه تبارك وتعالى يقدِّر ما يشاء ، إنه بعباده خبير بصير [٥] » . (مفتاح الأفكار ص ٢٧٥)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ـ كبره معظمه ـ

(٢) قال تعالى : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » .

(٣) أى متابعة .

(٤) فى الأصل « ولا أستنكف على » والذى فى كتب اللغة تعديته بمن .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ » .

١٤٦ — كتابه إلى يحيى بن خالد البرمكى

« وكتب بشر البلَوى إلى يحيى بن خالد أيضاً يستمتع[١] بالحَجَبى المذكور :

« أما بعد : حفظَ الله أبا على ، وحفظ لك ما استحفَظَكَ[٢] من دينك وأمانتك ، وخَواتِيم عَمَلك ، أمَّا ما تُحب أن ينتهىَ إليك علمُهُ من قدوم الحَجَبىّ علينا ، وما عمِلَ به فينا ، وعلى ما أصبح المسلمون معه قبلَنا ، فكلٌّ ذلك بحمد الله تعالى ونِعَمهِ على أفضل سرُورك ، وأعظم رجائك ، ومنتهى أمَلِك ، من سكون الدَّهْماء[٣] ، وأمانِ السُّبُل ، وحُسن الحال ، وتتابع الأمطار ، وقد أصبح الناس بحمدِ الله رُحماءَ[٤] بينهم ، لا يُسْمَع إلا سَلاماً سَلاماً[٥] ، وذلك أن الحجبىَّ لمَّا قدِم علينا ، فزِعَ إلى خيار الناس وأهل الصلاح منهم ، فقرَّبهم وأدناهم ، وغلُظ على أهل الفجور والرِّيبة ، وأبعدهم وأقصاهم ، وبعث لحملة القرآن ، فلما اجتمعوا إليه من أطراف البلاد تخيَّر الفقهاء وذوى الرأى منهم ، فجعلهم بطانتَه ، وأهلَ مشاورته ، وبعث أكثرهم عُمَّالا على كثير من نواحى عمله ، وعَهِد إليهم ما عهد إليه أمير المؤمنين ، فى أَخْذ الصَّدَقات والزكاة على

---

(١) أى يطلب إبقاءه للانتفاع به ، يقال : متعه الله وأمتعه بفلان : أى أبقاه ليستمتع به فيما يحب من الانتفاع به والسرور بمكانه .

(٢) أى ماجعلك حافظا عليه من الدين والأمانة ، وخواتيم العمل ، أى العمل الصالح الذى هو آخر عمل عمله . وأصل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رجل يودعه لسفر ، فقال له رسول الله : « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك » أى الصالح الذى جعلته آخر عملك فى الإقامة . فإن المسافر يسن له ختم إقامته بعمل صالح ، فيندب لكل من ودع أحدا من المسلمين أن يقول له ذلك وأن يكرره .

(٣) الدهماء : جماعة الناس .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » وسلاما سلاما فى قول بشر نائب فاعل على الحكاية ، ويجوز أن يكون الأصل « لا تسمع إلا سلاما سلاما »

وجوهها ، وقَسْمِ السَّهْمان[١] الخمسة مُوفَّرةً بين أهلها ، وأعلَمهم أن أمير المؤمنين لم يأمره ولا مَن قَبْلَه من وُلاة اليمن وغيرها إلا بالعدل والإحسان ، وأن أمير المؤمنين يبرأ إلى الله مِن ظلم كلِّ ظالم ، وجَوْرِ كلِّ جائر ، وأنه قد خلع مايتنقَّل به عن رقبته ، وجعله فى دين الحجَبى وأمانته ، فلم يبق عند ذلك فِرقةٌ من فرق المسلمين ، ولاجماعةٌ من الصالحين ، ولا أحدٌ من الفقراء المساكين ، إلاّ دعا لأمير المؤمنين بطول البقاء ، ثم دَعَوا لك يا أبا على بأفضلِ الدعاء ، ونَشَروا عنك أحسنَ الثناء ، لِمَا ساقه الله إليهم بسببك ، وجعله بيُمْنِ[٢] مُوازَرَتك وأجْراه لهم على لسانك ويدك ، ولِمَا أخَذَ الحجبىُّ فيهم من ورائك ، فإنا قد عرَفناه بالرِّفق الذى ليس معه ضعف ، وبالشدة التى ليس معها عُنْف ، وبالجِدِّ الذى لا يخالطه هَزْلٌ ، ثم هو مع ذلك قليلُ الغفلة ، شديد التُّهَمَة ، لا يتَّكل على كُتَّابه ، ولا يفوِّض أمره إلى أُمَنائه ، ولا يطمئنّ إلى جلسائه ، حتى يتفقَّد الأشياء بنفسه ، فيُورد ما حَضَر منها على عَيْنه ، ويُصْدر ما غاب عنه منها على علمه ، لايمنعه من مُطالبة الصغير مُزاولةُ الكبير ، قد أحكم السياسة ، ورَسَخ فى التدبير ، فأشدُّ الناس خوفا لِغَضَبه أرجاهم جميعاً لِمَثُوبته ، وأقلُّهم أمانا لعقوبته أطولهم لُزُوما لمجالسته ، قدشَغَلَ كُلًّا بنفسه ، فأقبل كل على شأنه ، فليس أحَدٌ يجاوز حَدَّه ، ولا يعدُو قدرَه ، ولا يتكلم إلا فيما يَعنيه ، ولسنا نراه بحمد الله يزداد فى كل يوم إلا شِدَّةً ، ولاتزداد الأمور معه إلا إحكاما ، فليس لمغتاب إليه سبيلٌ ، ولالمنتقِصٍ معه مطمعٌ ، والسلام » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٥ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٧)

---

(١) السهمان : جمع سهم ، وهو النصيب ، والسهمان الخمسة ومصرفها مبين فى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » وذكر الله تعالى فى الآية للتعظيم ، والمراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ، فكأنه قال : فأن لله خمسه يصرف إلى هؤلاء ، لكل منهم خمس الخمس ، والأخماس الأربعة الباقية للفاتحين .

(٢) اليمن : البركة ، والموازرة : المعاونة والمساعدة .

١٤٧ — كتابه إلى بشار بن رضابة

وكتب ينصح بَشّار بن رُضَابَة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فإنى رأيتك فى أول زمانك تَغْدُو على العلماء وتَرُوحُ عنهم (١) ، وتحدِّث عن الله وعن ملائكته ورسله ، وقد أصبحتَ تحدِّث عن مَعْنٍ (٢) وعن عُمَّاله ، وعن أبى مُسْلِمٍ (٣) وعن أصحابه ، فبئسَ للظالمين بَدلاً (٤) ، فمَنْ خلَّفْتَ على أهلك ، أم على من تتكل فى هَوْل سَفَرك ، أم بمن تثقُ فى حال غُربتك ؟ أبالله أم عليه ؟ وكيف ؟ ولستُ أخشى عليك إلا مِن قِبَله ، لأنه قد أعذَرَ إليك وأنذرَ ، فعَصَيتَ أمره ، وأطعت أعداءه ، وخرجتَ مُغاضباً تظنُّ أنْ لَنْ يقدِرَ عليك (٥) ، فاتَّقِ على نفسك الزَّلَلَ ، وانْزِلْ من دابَّتك فى كل جَبَل (٦) ،

---

(١) غدا يغدو غدوا . ذهب غدوة بالضم : وهى مابين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وراح يروح رواحا : سار بالعشى ، هذا هو الأصل فى الغدو والرواح ، وقد استعملتهما العرب فى الذهاب فى أى وقت كان من ليل أو نهار ، ومنه الحديث : « من راح إلى الجمعة فى الساعة الأولى » أى مشى إليها وذهب إلى الصلاة .

(٢) هو معن بن زائدة الشيبانى ، وكان شجاعا جوادا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، منقطعا إلى ابن هبيرة أمير العراقين ، ثم ولى سجستان فى أواخر أمره فى عهد بنى العباس ، وتوفى سنة ١٥١ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٠٨ — .

(٣) يعنى أبا مسلم الخراسانى ، وقد تقدم .

(٤) أخذه من قوله تعالى فى إبليس : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » .

وذو النون : هو يونس ، والنون : الحوت .

(٦) وانزل من دابتك أى مطية غوايتك التى تقتحم بك المهالك ، كنى بها عن كل ما يكون وصلة للشر من المال أو الجاه أو الصحة أو الفراغ . فى كل جبل : أى عقبة من العقبات اللاتى تحول دون الخير . والمعنى : إذا جمحت بك تلك المطية فى عقبة من تلك العقبات فبادر بالنزول لئلا تتوغل بك فيها فتهلك .

فإذا استويْتَ أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى ظهورها[١] ، فلا تقل : سُبْحانَ الَّذِى سخَّر لنا هذا ، لأن الله تبارك وتعالى قد كَرِه أن يُحْمَد على ما نهى عنه ، ولكن قُلْ : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذابًا ضِعْفًا فى النَّارِ[٢] » .

(مفتاح الأفكار ص ٢٧٨ ، والمواهب الفتحية ٢ : ١٤٢)

١٤٨ — كتاب مطرف بن أبى مطرف إلى أحد إخوانه

قال ابن طيفور :

وكتب إلى مُطَرِّف[٣] بن أبى مُطَرِّف الليثى رجل من إخوانه يسأله عن عبد الله ابن مُصْعَب الزبيرى ، فكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إلىّ تسألنى عن عبد الله بن مُصْعب ، كأنك همَمْتَ به أو تريد[٤] القدوم عليه ، فلا تفعَلْ — أمتعَ الله بك[٥] — فإن حُسْنَ الظنّ به لا يقع فى الفَهْم إلا بخِذْلان الله ، وإن الطمع فيما عنده لا يخطُر على القلب إلا من سوء التوكل على الله عز وجل ، وإن الرجاء لما فى يده لا ينبغى[٦] إلا بعد اليأس من رَوْح الله ، لأنه

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » . وقوله تعالى : « وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أى مطيقين .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى النَّارِ » .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عداد البلغاء — انظر ص ١٨٢ ، وأورد صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب ، معزوا إلى بشر البلوى ، فقال : « وكتب بشر البلوى إلى الشافعى يهجو عبد الله بن مصعب ... » .

(٤) فى مفتاح الأفكار « إذ سرك القدوم عليه » . (٥) فيه « يرحمك الله » .

(٦) فيه « لا يكون » والروح : الرحمة ، وأقتر : ضيق فى النفقة .

يَرَى أن الإقتارَ الذى نهى الله عز وجل عنه هو التبذير الذى يعاقِب الله فيه ، وأن الاقتصاد الذى أمر الله به هو الإسراف الذى يعذِّب الله عليه ، وأن بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَسَ بالمَنِّ[١] ، والبصلَ بالسَّلْوَى ، إلا لفُضولِ أحلامهم ، وقديم علمٍ توارثوه عن آبائهم ، وأن الضيافة مرفوعة ، وأن الصلة موضوعة ، وأن الهِبَة مكروهة ، وأن الصَّدَقة منسوخة ، وأن السَّلَف[٢] بدعة ، وأن التوسُّع ضلالة ، وأن الجود فُسُوق وأن السخاء من هَمَزات الشياطين ، وأن مواساةَ الرجل أخاه من العظائم المُوبِقة[٣] ، وأن فضاله عليه إحدى الكبائر الموجِبةِ الهَلَكَة ، وأن الله لايغفر أن يُؤْثِرَ المرء فى الخَصَاصَة على نفسه[٤] ، فقد ضلَّ عند أبى بكر ضلالا بعيداً ، كأنْ لم يسمع بالمعروف إلا فى الجاهلية الأُولَى الذين قطع الله دابرهم ، ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم ، وكأنْ لم تأخذ الرَّجفةُ آلَ مَدْيَنَ[٥] عنده إلا لسخاء كان فيهم ، ولم تُهْلِكِ الرِّيحُ العقيم

---

(١) المن : طل ينزل من السماء على الشجر ، يحلو وينعقد عسلا ويجف جفاف الصمغ ، وكان ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس ، والسلوى : السمانى ـ بضم السين وتخفيف الميم والقصر ـ وكانت ريح الجنوب تبعثه عليهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ » .

(٢) السلف : القرض الذى لامنفعة للمقرض فيه غير الأجر والشكر ، وعلى المقترض رده كما أخذه .

(٣) أى المهلكة .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » . وقوله : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » . والخصاصة : الفقر .

(٥) مدين : بلد شعيب عليه السلام ، بلد بجزيرة العرب على بحر القلزم (كقنفذ: وهو البحر الأحمر) محاذ لتبوك على نحو من ست مراحل ، بناه مدين بن إبراهيم عليه السلام فسمى باسمه ، وعليه . قوله تعالى: « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » . ويطلق أيضاً على القبيلة ، وعليه قوله تعالى : « وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ » . والرجفة : الزلزلة =

عاداً[١] إلا لتوسُّع ذُكِرَ عنهم، فهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثوابَ على الإقتار، ويَمدُ نفسه الفقرَ، ويأمرها بالبخل، خيفةَ أن تنزل به قوارِعُ[٢] الظالمين، أو أن يصيبه ما أصاب القرونَ الأولين[٣]، فأقِمْ — يرحمك الله — على مكانتك، واصطبر على عُسْرتك، وتربَّصْ به الدوائرَ[٤] عسى اللهُ أنْ يُبْدِلنا خيْرًا مِنْهُ زكاةً وأقْربَ رُحْمًا[٥]».

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٢، ومفتاح الأفكار ٢٧٨)

١٤٩ — كتاب آخر له

وكتب إلى ذلك الرجل الذى يصف له عبد الله بن مُصْعَب :

«أما بعد، فإنكَ كتبتَ إلىَّ تسألنى عن عبد الله بن مصعب، فكان والله غَثًّا[٦] فى دينه، قَذِراً فى دنياه، رَثًّا فى مُرُوءته، سَمِجًا فى هيئته، مسكينا فى علمه، منقطِعا إلى نفسه، راضيا عن عقله، بخيلا بما وَسَّع الله عليه من رزقه كَتُوماً لِما آتاه الله من فضله

= الشديدة، قال تعالى فيهم: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُو الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

(١) عاد: هم قوم هود عليه السلام وكانوا يسكنون الأحقاف — رمل فيما بين عمان إلى حضرموت — قال تعالى فيهم: «وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ، مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ». والريح العقيم: هى الدبور. وسماها عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لاخير فيها ولا منفعة، لأنها لاتحمل المطر ولا تلقح الشجر.

(٢) القوارع: جمع قارعة، وهى الداهية الفاجئة.

(٣) وفى مفتاح الأفكار «ما أصاب القوم المجرمين».

(٤) الدوائر: جمع دائرة، وهى الهزيمة، وتربص به: انتظر به شرا (أو خيرا) يحل به.

(٥) اقتبسه من قوله تعالى «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا» أى رحمة.

(٦) الغث: ضد السمين، أى رقيق الدين مهزوله.

حَلَّافا لَجُوجاً لا يُطْمَع فيما عنده حتى يحلِف ألا يفعل ، ولا يُرَجَّى منه أحد ما يُعطى حتى يُقْسِم بالله ألاَّ يقبَلَ ، فإذا ألحَّ فى ذلك وأكثر حَنِثَ متعمِّدا ، وأتى الذى ذكره من ذلك متطوِّعا ، لو أنفقَ مافى الأرض جميعا لم يكن ذلك قدرَ حِنْثه فى هَزْله ، فكيف ظنُّك بكفَّارة حلفِه فى جدِّه ؟ ولو سكَنَ الفالجُ[1] فى لسانه لم ينقُصْ ذلك حرفا واحدا من إيمانه ، أشدُّ الناس إكراماً لأبعدِهم من ذلك استحقاقا ، وأقلُّ الناس إحسانا إلىَّ أشدهم لذلك استيجابا ، كأن البخل والشؤم صارا جميعا فى سَهْمه ، وكانا قبل ذلك حَظّاً[2] فى قسْمه ، فاستجْمَعَهما من الورَثة ، واستحقَّ ما استهلك منهما بالشُّفْعَة ، واستولاهما من كلٍّ بالقيمة ، وأشهَدَ على حِيازتهما أهلَ الدين والأمانة ، حتى خَلَصا له من كل بائع ، وسَلِما من تَبِعة كل منازع ، فلا يُصيب إلا مخطئا ، ولا يُحْسِن إلا ناسيا ، ولا يُنفق إلا كارها ، ولا يُنْصِف إلا صاغرا ، ولا يَعْدِل إلا راهِبا[3] ولا يرفع نفسه عن[4] منزلة إلا ذَلَّ بعد تعزُّزه فيها ، ولا يَكْرَه خُطَّةَ سُوءٍ إلاَّ أصابه ماهو شرٌّ منها ، لا تُرَدُّ أعناقُ أموره إلا على تعسُّف وجهالة ، ولا تَصْدُر أعقابُ رأيه إلاَّ عن حُرْقة وندامة ، برَأْيِ جَدِّه[5] خرجَتْ أُمُّنا[6] ، وشؤمِ والده[7] هُدِمَتْ قِبلَتنا ، وعلى يديه ظهر الدجَّالُ فينا ، فمن يَهْدِهِ الله يَوْمَئذٍ فهُوَ المُهتَدِ ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً[8] » .   (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣)

---

(١) الفالج : مرض يحدث فى أحد شقى البدن طولا فيبطل إحساسه وحركته ، وربما كان فى الشقين   (٢) فى الأصل « خطا » وهو تحريف .

(٣) أى خائفا ، وفى الأصل « راغبا » وهو تحريف .

(٤) الظاهر أن صوابه « إلى » .

(٥) يعنى الزبير بن العوام .   (٦) يعنى أم المؤمنين السيدة عائشة .

(٧) يعنى عبد الله بن الزبير ، وقد عاذ بالكعبة وقاتله الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق كما قدمنا فى الجزء الثانى .

(٨) الآية الكريمة : « مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ » .

١٥٠ – كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنك كتبتَ إلىَّ تسألنى عن عبد الله بن مُصْعَب ، فكان واللهِ قويًّا على أهل الضعف والمَسْكَنة ، ذليلا عند أهل الجَلَد والقوة ، بليغا فيما استحَى الحكماء من ذكره ، وصّافا لما لا يُنتفَعَ به كَليلاً عما لا يُستغنَى عنه ، قد غلَبَتْ عليه الدَّعابة واستهْوَته[1] ، فلا يُحسِن إلا ترَّهاتِ[2] الأمور ، ولا يحفظ إلا سَفْسَاف[3] الأحاديث ولا يَرْوِى إلا خُرافاتِ الأباطيل ، فأمَّا البصيرةُ النافعة ، والحكمة البالغةُ ، فقد أصبح منها أبو بكر[4] غُفْلاً ، وفى المعرفة بها طِفلا ، ولو لبث أربعين سنة لم يَفْهَم أولاها ، ولم يعرِف أُخراها ، إلا نظرَ المَغْشِيِّ عليه من الموت[5] » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣)

١٥١ – كتاب آخر

وله أيضاً فيه[6] :

أما بَعدُ : فَإِنَّ مِن النَّاس مَنْ تَحمُّلُ حاجتِه أهْوَنُ مِن فُحش طَلَبه ، ومنهم من حِمْلُ عداوته أخفُّ من ثِقَل صداقته ، ومنهم من إفراط لائمته أحسنُ مِن قَدْر مِدْحته[7] وإن الله خلق أبا بكر ليَغُمَّ به الدنيا ، ويقذِّر به أهلها ، فهو على قَذَره فيها مِن حُجَج الله .

(١) أى استمالته . (٢) الترهات جمع ترهة : وهى الباطل .
(٣) السفساف : الردىء من كل شىء . (٤) كنية عبد الله بن مصعب .
(٥) أخذه من قوله تعالى : « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .
(٦) ورد هذا الكتاب فى مفتاح الأفكار منسوبا إلى بشر البلوى أيضا .
(٧) القدر : التضييق ، وفى المنظوم والمنثور « ومنهم من فرط لائمته أخف من قدر صداقته » .

على أهلها ، فأسألُ الذى فتنَ الأرض بحياته ، وغَمَّ أهلها بطول بقائه ، أن يُديلَ بَطْنَها من ظهرها[١] ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٣ ومفتاح الأفكار ص ٢٨٠)

١٥٢ - كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنى قد ظننتُ أنه لم يَدْعُكَ إلى خلاف أمير المؤمنين فى عهده ووصيه، وتَرْكِ ما أمرك به من القسم فى رعيته ، مع البغض لأهل بيته والفرية على قرابته، إلا أنك لم تَرَ أن تَمسَّكَ النارُ إلا أيَّامًا مَعْدُودةً[٢] ، وأنك فكَّرتَ فى ذلك وقدَّرْتَ[٣] ، فقلتَ : نصيحةٌ ظاهرةٌ ، وفِرْيةٌ غائبةٌ ، ومُتْعة عاجلة، ومواعيد آجِلة ، وتهاونْتَ بعذاب الآخرة ، ولو قد لقيتَ أبا مُسْلِم وأتيتَ الحجّاج ، وجُمع بينك وبين أخوَيْك : مروان ابن الحكم ، و مُسْرِف[٤] بن عُقْبة ، لقد أعلمكَ القومُ جميعاً أنهم وجدوا مثقال الذَّرّة مكتوباً ، ووزنَ الحبَّة محسوبًا ، وأنهم قد أُخِذُوا بأيْسَرَ من ذنبك، وعُذِّبوا بأصغرَ من جُرْمك، وأن الأيام ليست كما عَدَدْتَ ،وأن المُدة على غير ما كنتَ حَسَبْتَ ،وأنك قد أوهمتَ[٥] حين فكَّرت ، وأسأتَ حين قدَّرت ، وأنهم كانوا ظنوا كما ظننتَ ، فَأَرْدَاكُمْ ظَنُّكم الَّذِى ظَنَنْتُمْ بربكم فأصبحْتُمْ مِنَ الخاسرين . فإن تَصْبِرُوا فالنَّارُ مَثْوًى لكم وَإنْ تَسْتَعْتِبُوا فَمَا أَنْتُمْ مِنَ المُعْتَبِينَ[٦] » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٤)

---

(١) أداله الله من عدوه : نصره عليه . والمعنى : أن ينصر الله بطن الأرض على ظهرها ، فيظفر منه بذلك المهجو ويضمه إليه : أى أن يميته الله ويهلكه .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « إنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ » .

(٤) هو مسلم بن عقبة المرى صاحب يوم الحرة - انظر الجزء الثانى ص ٨٧ - وقد سمى مسرفا . والمراد هنا أنهما أخواه فى الفعل . (٥) وهم كوعد وورث وأوهم بمعنى .

(٦) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا

١٥٣ — كتاب آخر

وكتب إليه أيضاً :

« أما بعد ، فإن الله قد وعدك وَعْدا حَسَناً[١] ، فلستُ أدرى أطال عليك العهدُ فقسا قلبُك ، أم أردتَ أن يحِلَّ عليك غضبٌ من ربك ، فأخلفتَ مَوْعِدَه الذى وعدْتَه ، ونقضتَ عهدَه الذى عاهدته ، وصحبْتَ أعداءه ، وهو يدعوك من أخراك فيدْفُعك عن أولاك ، فلا دعاؤه نفعَكَ ، ولا دفْعُه منعَك ، حتى نَفَرت على وَجْهك « كالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأَرْضِ حَيْرَانَ » وقد ألقيتَ حَمْلَكَ من كتاب الله ، ونَزَعْتَ حَبْلَكَ من عُرْوَة الله ؛ فما أدْرى أيها الرجل : مَن استخلَفْتَ على أهلك ، أم بمن تثقُ فى حال غربتك ، أم على مَن تتكل فى هَوْلِ سَفَرِكَ ؟ أبالله أم عليه[٢] ؟ فكيف ولست أخاف عليك أحداً غيره[٣] ؟ والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١٥)

١٥٤ — كتاب آخر

وكتب أيضا :

« أما بعد فإن أبا نَهِيك خبَّرنى أنك اختضَبْتَ بالوَسْمَة[٤] ، فعلمتُ أنك أردت

= تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » واستعتب : طلب العتبى بالضم أى الرضا ، وأعتبه : أرضاه .

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى » .

(٢) فى الأصل « علمه » وهو تحريف .

(٣) انظر كتاب بشر البلوى إلى بشار بن رضابة ص ١٧٧ .

(٤) الوسمة : نبات يخضب بورقه .

بذلك ابتغاء الزينة عند أهل الدنيا ، لِما عرفْتَ من قبح وَجهك عند أهل الآخرة ، لِتركِك الصلوات ، ومنْعِك الصَّدَقاتِ ، واستحلالِك الْحُرُمات . وكلما ازددتَ من ذلك إكثارا ، كنتَ عند نفسك من المقصِّرين ، وَعند أهل السماء من المقوتين ، وفى أهل الأرض من المعترَضين ، فالحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به ، فإنك من الذين قال الله عز وَجل فيهم فى كتابه : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦)

١٥٥ — كتاب آخر

وكتب أيضاً :

أما بعد ، فإن الله حبَّبَ إلى كل مسلم شُعْبةً من دينه ، فمنهم من حَبَّب إليه الصلاة ، فهو قانتٌ آناء الليل ساجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ[1] ، ومنهم من حَبَّب إليه الزكاةَ ، فهو ينفِقُ ماله بالليل والنهار سِرًّا وعَلانيةً ، ابتغاءَ مَرْضاةِ الله وتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِم[2] ، ومنهم من حبَّب إليه الجِهاد ، فهو بين المسلمين وبين عدوهم ، يَذُبُّ عن حريمهم ، ويقاتل مِنْ دُونِهم ، وفاءً بعهد الله ، وتسليما لبيعة الله . فأمّا الراسخون فى العلم ممن قد عرَف سيرتك ، وما أبْدَى لهم الله من سريرتك ، فقد اقتصروا على

---

(١) الآية الكريمة : « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ . . . . » والقنوت : الدعاء ، والقيام فى الصلاة والطاعة.

(٢) اقتبسه من قوله تعالى « الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وقوله : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

بغضك ، ثقةً والله بعداوتك ، فهم لايوترون[١] إلا بك وبأشباهك ، ولا يرَوْن القُنُوتَ اليوم واجبا إلاّ من أجْلِكَ وأجل أضرابك[٢] ، ولا يعتمدون بالدعاء فيه إلا عليك وعلى أمثالك ، حِفْظًا على صلواتهم ، ورعايةً لِمَا ائتُمِنُوا عليه من دينهم[٣] ، ووفاء بعهد الميثاق الذى أُخِذَ عليهم : أن يُصَلُّوا مع الله وملائكته على رسوله[٤] ، وأن يلعنوا مع الله مَنْ لَعَنَ من أعدائه وأهل معصيته[٥] ، فهم يَعْرِضونك على الله فى أدبار السجود وعند إدبار النجوم[٦] ، ويسألونه بآلائه[٧] مُخلِصين ، وبأسمائه مُلْحِفِين[٨] ، أن يُصيبَكَ بعذابٍ من عنده أو بأيديهم[٩] ، لِمَا استحلَّتْ جنودكَ من سَفْك الدماء ، وأباحت رُسُلك من حُرَم النساء ، ولِظُلْمِكَ اليتامى ، وافترائك على ذى القربى ، وتعريضك إياهم

---

(١) أوتر : صلى الوتر ، وأنت : دعا على عدوه ، وجاء فى لسان العرب « وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قنت شهرا فى صلاة الصبح بعد الركوع يدعو على رِعل (بكسر الراء) وذكوان (بفتح الذال) وجاء فى تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ « وكان على إذا صلى الغداة يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور السلمى وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد ، فبلغ ذلك معاوية فكان إذا قنت لعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا » .

(٢) الأضراب جمع ضرب بالفتح : وهو المثل .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى فى صفة المؤمنين : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » .

(٤) قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » .

(٦) قال تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » . وقال : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » وأدبار جمع دبر كعنق ؛ وإدبار مصدر أدبر .

(٧) الآلاء : النعم .

(٨) فى الأصل « مختلفين » وهو تحريف .

(٩) اقتبسه من قوله تعالى : « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا » .

فى فتوحك للعقاب والهَلَكة والخلاف والمعصية، فويلٌ لك ولكتّابك مما كَتَبَتْ أيدِيكم وَوَيْلٌ لَكُمْ مِمَّا تَكْسِبُونَ[(١)] ، وقد وردتْ كتبُك محمد الله من أمير المؤمنين — حفظه الله — على حِلْمٍ لا يُوهِنه الغضب ، وعلى عمل لا يغيِّره الكذب ، وعلى إيمان لا يستخفُّه الذين لا يُوقِنُون[(٢)] ، حفظ الله أمير المؤمنين حِفْظًا يكون له حِصْنًا من عذابه وحِرْزاً من غضبه ، وحاجزا من معصيته، ونورا يستضىء به يوم لِقائه فى خَلْقه ، ويهتدى به إلى جنته » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٧)

١٥٦ — كتاب آخر

وكتب إليه[(٣)] :

« أما بعدُ ، فإنى رأيتك فى أمر دينك مُنْتَقَصا[(٤)] مخذولا ، وفى أمر دنياك فاجرا مثبورا[(٥)] ، وفيما بين ذلك مُبْغَضا ممقوتا ، وتلك خِصال لا تجتمع فى مسلم إلا بِبُوء سَريرة ، أو إصرارٍ[(٦)] على كبيرة ، أو إضمارٍ لعظيمة يَعُمُّ بها عباد الله ، ويخُصُّ بها أولياء الله[(٧)] ، ومن آية ذلك أنه تشمئزُّ قلوبُ أهلِ الحَرَمين إذا ذُكِرْتَ ، وتقشعرُّ جُلود أهل المِصْرَين إذا مُدِحْتَ، وأنهم لا يزدادون لك إلا بُغضا ، ولا فى الشهادة عليك إلا قَطْعا ، لمعرفتك بهم قديما وحديثا ، وعِلمهم بمساوِيك صغيرًا وكبيرًا ، فلعمرى لئن

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

(٣) نقل صاحب مفتاح الأفكار هذا الكتاب والكتاب الذى يليه ، كتابا واحدا معزوا إلى بشر البلوى .

(٤) فى مفتاح الأفكار « متصنعا » . (٥) أى هالكا أو مصروفا عن الخير .

(٦) فى مفتاح الأفكار « أو مقارفة كبيرة » .

(٧) فيه « يعم بها أولياء الله ، ويخص بها ولد رسول الله » .

كنتَ إلى يومك هذا كما ذكروا ، إنك إذَنْ لمن المستهزئين،ولئن كنت قد نَزَعْتَ[١] عما عَهِدُوا ، ما خلَصَتْ لله إذن نيتُك ، ولا صَدَقَتْ توبتُك ، وإن فى إيمانك لضعفاً ، وإن فى نفسك لوَهَنــــا ، وإن فى صدرك لكِبْرا ما أنت ببالِغِه[٢] ، وإن فى قلبك لَقَساوة[٣] ، وإن فى معيشتك لإسرافا[٤] ، فاستَعِذْ بِاللهِ إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٦ ومفتاح الأفكار ٢٧٩)

١٥٧ — كتاب آخر

وكتب إليه :

« أما بعد ، فإنى نظرت فى قول الله عزّ وجل فى كتابه : « يٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بمَا تَعْمَلُونَ عليمٌ » فعلمتُ أنه يريد الطيِّباتِ من المكاسب ، وأنه لا يَعْنِى بها الحلو والحامض ، ولا الحارّ والبارد من الطعام ، وقد زعم أهلُ المعرفة بك أنه لم يقع فى يدك من زِينَةِ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ[٥] ، وأرزاقه الطيبة التى بَسَطها على خلقه ، ما تردّ به جوعةً ولا توارى به عورةً ، وإن ذلك لم يصل إليك إلا ببَغْىِ المسلمين ، وبِطانة المستهزئين ، وإفْكِ المُفْتَرِين ، ولا أحسبك — إذا كانت

---

(١) نزع عن الشيء كضرب : كف عنه .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « إنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فى آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إنْ فى صُدُورِهِمْ إلاَّ كِبْرٌ مَاهُمْ بِبالِغِيهِ » .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِىَ كالْحِجارَةِ أوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » .

(٤) ورد عقب ذلك فى مفتاح الأفكار : « وما أحسبه صح فى يدك من زينةالله التى أخرج لعباده وأرزاقه الطيبة التى بسطها على خلقه ، ماتبلغ به لذة ، ولا تقضى به ذمة ، لأن ذلك لم يصل إليك إلا ببغى المسلمين .... إلى آخر ماورد فى الكتاب التالى » .

(٥) اقتبسه من قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

بهذا وأشباهه مكاسِبُك ـ تبرَأ من كَسْبِك من شيء من دَيْنك إلى أحد من غُرَمائك إلا صرتَ بها تبْرَأ من ذلك إلى أهل الأرض ، رهينةً عند أهل السماء ، ولا تصل بشيء من جمعك أحداً من ذوى قرابتك إلا كانت مسألة الله إياك عن قطيعتهم أهوَنَ عليك من محاسبته إياك بالذى وصل إليهم منك ، ولا تُنْفِق نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً[1] إلا وُقِّعَتْ لك فى سِجِّين[2] ، ولا ترْفع منزلةً إلا هبطَتْ بك أسفَلَ سافِلينَ[3] ، وما سَلِمَ — مع ما تعرف فى نفسك — قلبُك ، حتى عرَفْتَ به المشرِقَ والمغرِبَ إلا من ضَعفِ قلبك ، ولافُتح عليك حتى رجَعْتَ إلى أهلك إلاَّ من قلة عقلك ، ولو نَفَرْتَ فى الأرض حَيْرَانَ على وَجْهك[4] ، ورَكِبْتَ الفُلْكَ أنفاً من حدَثك ، أو سرت إلى الجبال هرَباً من خطيئتك ، أو ترَمَّمْتَ[5] العظامَ مع الـكلاب ، أو ولَغت[6] فضولَ المـاء مع السباع ، لَمَـا كان ذلك بقدر جُرمك خفضا ودَعةً فى حياتك ، وبقدر عملك

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ » .

(٢) قال تعالى : « كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ » .

(٣) قال تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(٤) اقتبسه من قوله تعالى : « كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا » .

(٥) ترمم : تعرق ، وتعرق العظم : أكل ماعليه من اللحم .

(٦) ولغ الـكلب فى الإناء وفى الشراب ومنـه وبه بلغ كيهب : شرب مافيه بأطراف أسنانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه .

رَغَدا من معيشتك ، ولو ابيضَّتْ عيناكَ من الْحُزْنِ [١] ، أو عَضَضْتَ على يديك [٢] فأَبنْتَهما من الغَبْنِ ، أو تقطَّع قلبك من الهم ، أو ذهبَتْ نفسُك حسَرَاتٍ [٣] ، لمَّا كان ذلك أَرْشَ [٤] ما خرجْتَ به من دينك ، ولا نَذْرَ مالوَيْتَ [٥] به من أمانتك ، ولا قيمة ما فاتك من ربك ، فإذا بلغت من نفسك المسكينة ما بلغْتَ ، ورضيَتْ عنك نفسك الضعيفة بما صنَعْتَ ، فلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلٰهًا آخرَ فتقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤١٥ ومفتاح الأفكار ص ٢٧٩)

١٥٨ — كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه جعفر

وذكروا أن جعفر بن يحيى كان يدخل فى منادمة الرشيد حتى كان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه .

وكتب يحيى إلى ابنه جعفر حين أعْيَتْه حيلتُه فيه :

« إنى إنما أهملتك ليَعْثُرَ الزمان بك عثرة تعرفُ بها أمْرَك ، وإن كنتُ لأخشى أن تكون التى لا شَوَى [٦] لَهَا » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٣)

---

(١) اقتبسه من قوله تعالى : « وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » .

(٢) اقتبسه من قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً » وأبانه قطعه .

(٣) اقتبسه من قوله تعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

(٤) الأرش : الدية .

(٥) لوى به : ذهب ، ولوى بحقه : جحده إياه .

(٦) لاشوى لها : أى لابرء لها أو لا إبقاء لها ، أشوى من الشيء : أبقى ، والاسم الشوى ، قال الهذلى :

فإن من القول التى لاشوى لها ... إذا زل عن ظهر اللسان انفلاتها

١٥٩ — كتاب يحيى بن خالد إلى أيوب بن هرون بن سليمان

ثم تغيَّر الرشيد على البرامكة ، فأوقع[1] بهم (سنة ١٨٧) وقتل جعفرا ، وحبس يحيى والفضلَ وسائر البرامكة فى سجن الزَّنادقة إلى أن ماتوا فيه ، واستصفى أموالهم وضياعهم .

ووافى أيوبَ بن هرون بن سليمان بن على خبرُ مَقْتَلِ جعفر وزوال أمرهم ، فكتب إلى يحيى يعزّيه ، فكتب إليه :

« أنا بقضاء الله راضٍ ، وبالخيار منه عالِم ، ولا يؤاخِذُ الله العبادَ إلا بذنوبهم ، وما ربُّك بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ، وما يعفو الله أكثرُ ، ولله الحمدُ » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٨٧)

١٦٠ — كتاب يحيى بن خالد إلى الرشيد

وكتب يحيى بن خالد من الحبْس، إلى الرشيد :

« يا أمير المؤمنين إن كان الذنب خاصًّا فلا تعُمَّنَّ بالعقوبة ، فإن الله عز وجل يقول : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٦)

١٦١ — بين يحيى بن خالد والرشيد

وكتب يحيى بن خالد وهو فى الحبس إلى هرون الرشيد :

« لِأمير المؤمنين ، وخليفةِ المهديِّين ، وَإمامِ المسلمين ، وخليفةِ رب العالمين ، مِن عبدٍ أسلمَته[2] ذنوبُه وَأوْبَقَته عيوبُه ، وخذَله شقيقُه ، ورَفَضه صديقُه ، ومالَ به

---

(١) كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها — وحديثهم فى ذلك طويل ليس هاهنا موضعه — فعزم على نكبتهم ، حتى انتهز فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ هـ ، فقتل جعفرا ليلا فى طريقه ، وقبض على سائر البرامكة وسجنهم .

(٢) أسلمته خذلته ،فأسقطته من عليامرتبته . أو أسلمته إلى السجن والعذاب، وأوبقته : أهلكته.

الزمان ، ونزل به الحدَثان[1] . فحلَّ فى الضيق بعد السَّعة ، وعالَجَ البؤسَ بعد الدَّعَة، وافترَشَ السُّخْط بعد الرِّضا ، واكتَحَل السُّهاد بعد الهُجُود ، ساعتُه شهر ، وليلته دَهْر ، قد عايَنَ الموتَ ، وشارَفَ الفَوتَ ، جَزَعا لَموْجِدتك[2] يا أمير المؤمنين ، وأسَفاً على مافات من قربك ، لا على شىء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك ، وكانا فى يدىَّ عاريَّةً[3] ، والعاريةُ مردودَة ، وأما ما أُصِبْتُ به من ولدى فبذَنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزتَ به فوق حدِّه ، فتذكَّر يا أمير المؤمنين كِبَرَ سِنِّى ، وَضعف قوَّتى ، وارحَم شيبتى ، وهب لى رضاكَ ، بالعفو عن ذنب إن كان[4] ، فمِنْ مثلى الزَّلَلُ ، ومن مثلك الإقالة ، وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضَى عنى ، فإذا رضيتَ رجوتُ إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاظمُك[5] بعدهُ ذنبٌ أنْ تغفِرَه ، مَدَّ الله لى فى عمرك ، وجعل يومى قبل يومك ، وكتب إليه بهذه الأبيات :

قل للخليفة ذى الصَّنيـــعة والعطايا الفاشـــيَهْ

وابنِ الخلائفِ من قُريـــشٍ والمـــلوك العاليَهْ

إنَّ البرامكةَ الذيـــنَ رُمُوا لديك بداهيه

---

(١) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه ؛ وربما أنثته العرب ، يذهبون به إلى الحوادث كما فى قوله :

ألا هلك الشهاب المستنير ومدرهنا الكمى إذا نغير

ووهاب المئين إذا ألمت بنا الحدثان والحامى النصور

وأما حدثان الأمر (بكسر فسكون) فهو أوله وابتداؤه ، يقال : أتيته فى حدثان شبابه ، ووقع هنا خطأ لصاحب القاموس نشأ من الاختصار قال . « وحدثان الأمر بالكسر : أوله وابتداؤه كحداثته ، ومن الدهر : نوبه كحوادثه وأحداثه » والصواب : والحدثان بفتحات من الدهر نوبه . . . الخ والدعة : الراحة وخفض العيش .

(٢) الموجدة : الغضب .

(٣) العارية مشددة وقد تخفف : مايستعار .

(٤) وفى العقد « ففكر فى أمرى — جعلنى الله فداك — وليمل هواك بالعفو عن ذنب ... » .

(٥) تعاظمه : عظم عليه .

صُفْرُ الوجوه عليهم خِلَعُ المَذلة بادِيَه
فكأنهم مما بهمْ أعجازُ نخلٍ خاوِيَه
عَمَّتْهمُ لك سَخْطةٌ لم تُبْقِ منهم باقِيَة
بعد الإمارة والوزا . رة والأمور الساميه
ومنازلٍ كانت لهم فوق المنازل عاليه
أضْحَوا وجُلُّ مناهمُ منك الرضا والعافيه
يامن يودُّ لىَ الرَّدَى يكفيك منى ما بِيَه
يكفيك ما أبصرتَ من ذُلِّى وذلِّ مكانِيَه
وبكاء فاطمةَ الكئيـ بة والمدامعُ جاريه(١)
ومقالُها بتوجُّعٍ يا سَوْءَتى وشقائِيَه !
مَن لِي وقد غضِبَ الزما ن على جميع رجالِيَه ؟
يا لَهْفَ نفسى لَهْفَها ما لِلزمانِ ومالِيَه ؟
يا عَطْفَةَ الملك الرِّضا عُودِى علينا ثانيه

فلم يكن له جواب من الرشيد .

* * *

وفى رواية أن الرشيد ردَّ عليه من كتاب :

إن أمير المؤمنين لم يأتِ على ولدك الأمين ، ومِنْ رأيه تَرْكُ الباقين ، ولم يأمر بحبسك ، وهو يريد بقاء نفسك ، إنما أخرك وإياهم لتعالجَ البؤس بعد النعيم ثم تصير إلى العذاب الأليم ، فأبشر أيها المخادع الزِّنْديق ، والمخالف الفِسِّيق(٢) ، بما أعدَّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك ، وخمول ذكرك ، وإطفاء أمرك ، فتوقَّعْه صباحا ومساء »

(١) هى زوجه فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة بن شبيب .
(٢) رجل فاسق وفسيق كسكير ، وفسق كزحل : دائم الفسق .

ووقَّع الرشيد عليه : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

واعتل يحيى فى الحبس ، فلما أشفى[١] دعا برقعة ، فكتب فى عنوانها : يُنفَذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهدَ مولاه يحيى بن خالد ، وفيها مكتوب :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم: قد تقدَّم الخصم إلى موقف الفَصْل، وأنت على الأثر ، والله حَكَمٌ عَدْل . وستَقْدَم فتَعْلَم » فلما ثَقِل[٢] قال للسَّجان : هذا عهدى تُوصله إلى أمير المؤمنين ، فإنه ولىّ نعمتى ، وأحقُّ من نفَّذ وصيتى ، فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد .

قال سهل بن هرون : وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة إليه فلما قرأها جعل يكتب فى أسفلها ، ولا أدرى لِمَن الرقعة ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، ألا أكفيك ؟ قال : كلا ، إنى أخاف عادة الراحة أن يتقوى سلطانُ العجز ، فيحكم بالغَفلة ، ويقضى بالبلادة ، ووقَّع فيها : « الحَكَمَ الذى رضيتَ به فى الآخرة لك ، هو أعْدَى الخصوم عليك ، وهو من لا يُنْقَض حكمه ، ولا يُرَدُّ قضاؤه » قال : ثم رمى الصكّ إلىّ ، فلما رأيته علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يُؤْثِر الجواب عنه .

(العقد الفريد ٣ : ٢٥ وغرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٦ والإمامة والسياسة ٢ : ١٣٨)

١٦٢ — عهد الأمين على نفسه للرشيد

وحجّ الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين[٣] وعبد الله المأمون[٤] وقُوَّاده ووزراؤه وقضاته سنة ١٨٦ هـ ، فلما قضى مَناسِكَه استكتب ولدَيْه الأمين والمأمونَ بخط يدهما

---

(١) أشفى على الموت : أى أشرف .
(٢) ثقل كفرح فهو ثقيل وثاقل : اشتد مرضه .
(٣) وأمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور .
(٤) وأمه أم ولد يقال لها مراجل .

عهدين ، عَهِد فيهما بالخلافة من بعده للأمين ، ثم من بعد الأمين للمأمون ، وأشهدَ فيهما ، وأمر بتعليقهما فى داخل الكعبة ، وتقدَّم إلى حَجَبتها فى حفظهما ومَنْع من أرادَ إخراجهما والذهاب بهما .

ونسخة عهد الأمين — كما رواه الطبرى — :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، كتَبَه محمد بن هٰرون أميرِ المؤمنين فى صحَّة من عقله ، وجَوازٍ من أمره ، طائعاً غير مُكْرَه : إن أمير المؤمنين ولاَّنى العهدَ من بعده ، وصيَّر البَيعةَ لى فى رِقاب المسلمين جميعا ، وَوَلَّى عبد الله بن هٰرون أميرِ المؤمنين العهدَ والخلافةَ وجميعَ أمور المسلمين بعدى ، برِضاً منى وتسليم ، طائعا غيرَ مُكْرَه ، وولاَّه خراسان وثغورها وكُوَرَها وحَرْبها وَجُندها وخَراجها وَطِرازها[1] وَبَريدها وبيوتَ أموالها وَصدقاتِها وعُشْرها وعشورها وجميع أعمالها فى حياته وبعده .

وشَرَطْتُ لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، برِضاً منى وطيبِ نفسى ، أنَّ لأخى عبد الله بن هٰرون علىَّ الوفاءَ بما عَقَد له هٰرون أمير المؤمنين ، من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعا بعدى ، وتسليمَ ذلك له ، وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلِّها وما أقطعَه أمير المؤمنين من قَطيعة ، أو جَعَلَ له مِنْ عُقْدة[2] أو ضَيْعة من ضياعه ، أو ابتاعَ من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحته ، من مال أو حُلِىّ أو جوهر أو مَتاع أو كِسوَة أو منزل أو دوابّ أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين مُوَفَّرا مُسَلَّما إليه ، وقد عرَفت ذلك كله شيئا شيئا .

---

(١) الطراز : ماينسج من الثياب للسلطان ، والموضع الذى تنسج فيه الثياب الجياد ، فارسى معرب ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٣٩) أنه كان للطراز دور كدور ضرب النقود .

(٢) العقدة : الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا (واعتقد الضيعة والمال : اقتناهما) .

فإن حدَث بأمير المؤمنين حدَثُ الموت ، وأفضَتِ الخلافة إلى محمد بن أمير المؤمنين ، فَعلَى محمدٍ إنفاذُ ما أمَرَه به هرون أمير المؤمنين فى تولية عبد الله بن هرون أمير المؤمنين خراسان وثغورَها ، وَمن ضَمَّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقَرْماسِين[١] ، وأن يُمضِيَ عبدَ الله بن أمير المؤمنين إلى خراسان والرّىّ والكُوَر التى سماها أمير المؤمنين حيث كان عبدالله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين، وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحبَّ من لَدُن الرّىّ إلى أقصى عمل خراسان، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مَقُوداً ولا رجلا واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضَمَّهم إليه أمير المؤمنين، ولا يحوِّل عبدَ الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التى ولّاه إياها هرون أمير المؤمنين من ثُغور خراسان وأعمالها كلِّها، ما بين عَمَل الرّىّ مما يلى هَمَذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يُشْخِصه[٢] إليه ، ولا يفرِّق أحداً من أصحابه وقوّاده عنه ، ولا يُوَلِّى عليه أحداً ، ولا يَبْعث عليه ولا على أحد من عمَّاله ووُلاة أموره بُنْداراً[٣] ولا محاسِباً ولا عاملا، ولا يُدْخِل عليه فى صغير من أمره ولا كبيرٍ ضرراً ولا يَحُول بينه وبين معمل فى ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يَعرِض لأحد ممن ضَمَّ إليه أميرُ المؤمنين ، من أهل بيته وصَحابته وقُضاته وعمَّاله وكتّابه وقوّاده وخَدَمه ومَواليه وجُنده، بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم، فى أنفسهم ولا قَراباتهم ولا مَواليهم ، ولا أحدٍ يُنْسَلُ[٤] منهم ، ولا فى دمائهم ولا فى أموالهم ، ولا فى ضِياعهم ودُورهم ورِباعهم[٥] وأمتعتهم ورقيقهم ودوابِّهم ، شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً ، ولا أحدٍ من الناس بأمْرِه ورأيه وهواه ، وبترخيص

---

(١) قرماسين : موضع ، قال ياقوت : أظنه فى طريق مكة .
(٢) أى ولا يقدمه إليه ، وفى الأصل « ولا شخصه إليه » وهو تحريف .
(٣) البندار : التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء وجمعه بنادرة ، دخيل .
(٤) أى يولد ، نسل كنصر وأنسل : ولد ، وفى الأصل « يتنسل » وهو تحريف .
(٥) الرباع : جمع ربع بالفتح ، وهو المنزل .

له فى ذلك ، وإدهانٍ[١] منه فيه ، لأحَدَ من ولد آدم ، ولا يحكُمُ فى أمرهم ولا أحدٌ من قضاته ومن عماله وممن كان بسبَبٍ منه ، بغير حُكمِ عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأى قضاته .

وإن نزَعَ[٢] إليه أحد ممن ضَمَّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقواده وعماله وكتّابه وخدمه ومواليه وجنده ، ورفَض اسمَه ومكْتَبَه ومكانَه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين ، عاصياً له أو مُخالِفاً عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردُّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصِغَرٍ[٣] له وقَماء ، حتى يُنفِذ فيه رأيه وأمْرَه .

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خَلْعَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده ، أو عَزْلَ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورِها وأعمالِها ، والذى مِنْ حَدِّ عملها مما يلى هَمَذانَ ، والكُوَر التى سماها أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، أو صَرْفِ أحدٍ من قُوّاده الذين ضمّهم أمير المؤمنين إليه ممن قَدِم قَرْماسِين ، أو أن ينتقصه قليلا أو كثيرا مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صَغُرت أو كبُرت ، فلِعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين الخلافةُ بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدَّم على محمد ابن أمير المؤمنين ، وهو ولىُّ الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعةُ مِن جميع قوّاد أمير المؤمنين هٰرون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين فى جميع الأجناد والأمصار ، لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، والقيامُ معه والمجاهدةُ لمن خالَفَه ، والنصرُ له والذَّبُّ عنه ، ما كانت الحياةُ فى أبدانهم ، وليس لأحد منهم جميعاً مَن كانوا أو حيث كانوا أن يخالفه ، ولا يَعصِيَه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يُطيع محمد ابن أمير المؤمنين فى خَلْع عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، وصَرْفِ العهدِ عنه

---

(١) الإدهان . إظهار خلاف مايضمر والغش .

(٢) أى مال . (٣) الصغر : كعنب ، والصغار بالفتح : الذل . وكذا القماء والقماءة .

من بعده إلى غيره ، أو ينتقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هٰرون فى حياته وصحته ، واشترَط فى كتابه الذى كتَبَه عليه فى البيت الحرام فى هذا الكتاب ، وعبدُ الله ابن أمير المؤمنين المصدَّقُ فى قوله ، وأنتم فى حِلٍّ من البَيْعة التى فى أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون إن نَقَص شيئا مما جَعلَه له أمير المؤمنين هٰرون ، وعلى محمد ابن هٰرون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هٰرون ، ويسلِّم له الخلافة وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هٰرون، ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين، أن يخلعا القاسم[١] ابن أمير المؤمنين هٰرون ولا يقدِّما عليه أحدا من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البريَّة ، فإذا أفضتِ الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمرُ إليه فى إمضاء ما جَعلَه أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صَرْفِ ذلك عنه إلى مَن رَأى من ولده وإخوته ، وتقديمِ من أراد أن يقدِّم قَبْله ، وتصييرِ القاسم ابن أمير المؤمنين بعدَ مَن يقدم قبله ، يَحكمُ فى ذلك بما أحبَّ ورَأى .

فعليكم معشرَ المسلمين إنفاذ ما كتَبَ به أمير المؤمنين فى كتابه هذا ، وشَرَط عليهم ، وأمَرَ به ، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزَمكم وأوجَبَ عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التى أخَذَ الله على الملائكة المقرَّبين والنبيين والمرسلين ، ووكَّدها فى أعناق المؤمنين والمسلمين : لَتَفُنَّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمَّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنى أمير المؤمنين بما سمَّى وكتب فى كتابه هذا واشترَط عليكم وأقررتم به على أنفسكم ، فإن أنتم بَدَّلتم من ذلك شيئا أو غيرتم أو نكَثْتم أو خالفتم ما أمَرَكم به أمير المؤمنين واشترط عليكم فى كتابه هذا ، فبرِئت منكم ذمَّةُ الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وذمم المؤمنين والمسلمين ، وكل مالٍ هو اليوم لكل راجل منكم

---

(١) وكان يلقب بالمؤتمن ، وأمه أم ولد يقال لها قصف (والمعتصم بن الرشيد أمه أم ولد أيضا يقال لها ماردة) .

أو يستفيده إلى خمسين سنةً فهو صَدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة خمسين حِجَّةً نَذْرا واجباً لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك، وكل مملوك لأحد منكم أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنةً حُرٌّ ، وكل امرأة له فهى طالق ثلاثا أَلبتَّةَ طلاقَ الحرَج[1] لامَثْنَوِيَّةَ فيها ، والله عليكم بذلك كفيلٌ وراعٍ وكفى بالله حَسيبا » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٣)

١٦٣ — صورة أخرى

وروى صاحب صبح الأعشى عهد الأمين بصورة أخرى . وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتابٌ لعبد الله هرون أمير المؤمنين ، كتَبَه له محمد ابن أمير المؤمنين ، فى صِحَّة من بدنه وعقله ، وجوازٍ من أمره ، طائعاً غيرَ مُكرَهٍ .

إن أمير المؤمنين هرون ولاّنى العهدَ من بعده، وجعل لى البَيْعةَ فى رقاب المسلمين جميعاً ، وولَّى أخى عبد الله ابن أمير المؤمنين هرون العهدَ والخلافة وجميعَ أمور المسلمين من بعدى ، برِضاً منى وتسليم ، طائعاً غيرَ مُكرَه ، وولّاه خُراسان بثُغورها وكُوَرها وجنودها وخَراجها وطِرازِها وبَريدها وبيوت أموالها وصَدقاتها وعُشْرها وعُشورها ، وجميع أعمالها ، فى حياته وبعد وفاته ، فشرطْتُ لعبد الله ابن أمير المؤمنين علىَّ الوفاء بما جَعَله له أميرُ المؤمنين هرونُ ، من البيعة والعهد وولاية الخلافة وأمور المسلمين بعدى ، وتسليم ذلك له ، وما جَعَل له من ولاية خُراسان وأعمالها ، وما أَقْطَعَه أمير المؤمنين هرون مِن قَطيعة ، وجعل له من عُقْدة أو ضَيْعة من ضِياعه وعُقَده ، أو ابتاع له من الضِّياع والعُقَد ، وما أعطاه فى حياته وصحَّته : من مال أو حُلِىّ أو جوهر أو متاع أو كُسْوة أو رقيق أو منزِل أو دوابّ ، قليلا أو كثيراً ، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين ،

---

(١) انظر ص ١٤٠ ، ويقال : حلف يمينا لامثنوية فيها : أى لا استثناء فيها .

مُوفَّرا عليه مُسَلَّماً له ، وقد عرَفتُ ذلك كله شيئاً فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه ، أنا وعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، فإن اختلَفْنا فى شىء منه ، فالقولُ فيه قولُ عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، لا أَتبعه بشىء من ذلك ، ولا آخُذه منه ، ولا أنتقِصُه صغيراً ولا كبيراً من ماله ، ولا من ولاية خراسان ولا غيرها ، مما ولاّه أميرُ المؤمنين من الأعمال ، ولا أعزِلُه عن شىء منها ، ولا أَخلَعه ولا أستبدِل به غيرَه ، ولا أُقدِّم عليه فى العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً ، ولا أُدخِل عليه مكروهاً فى نفسه ولا دمه ولا شَعْره ولا بَشَرِه[1] ، ولا خاصٍّ ولا عامٍّ من أموره وولايته ، ولا أمواله ولا قطائعه ولا عُقَده ، ولا أُغيِّر عليه شيئاً لسبب من الأسباب ، ولا آخُذه ولا أحدًا من عُمّاله وكُتّابه وولاةِ أمره ممن صَحِبه وأقام معه بمحاسبة ، ولا أَتتبَّع شيئاً جرَى على يديه وأيديهم فى ولاية خراسان وأعمالها وغيرها ، مما ولاّه أميرُ المؤمنين فى حياته وصحّته ، من الجِباية والأموال والطِّراز والبَريد والصَّدَقات والعُشْر والعُشور وغير ذلك ، ولا آمُر بذلك أحداً من الناس ولا أُرخِّص فيه لغيرى ، ولا أُحدِّث نفسى فيه بشىء أُمضيه عليه ، ولا أَلتمِسُ قطيعةً له ، ولا أُنقِص شيئاً مما جعله له هٰرون أمير المؤمنين وأعطاهُ فى حياتِه وخلافتِه وسلطانه ، من جميع ما سمَّيتُ فى كتابى هذا ، وآخُذ له علىّ وعلى جميع الناس البيعةَ ، ولا أُرخِّص لأحد — من جميع الناس كلّهم فى جميع ما ولاّه — فى خَلعه ولا مخالفته ، ولا أَسمع من أحد — من البريّة فى ذلك قولاً ، ولا أَرضَى بذلك فى سرٍّ ولا علانية ، ولا أُغمِض عليه ، ولا أَتغافل عنه ، ولا أَقبَلُ من برٍّ من العباد ولا فاجرٍ ، ولا صادقٍ ولا كاذب ، ولا ناصحٍ ولا غاشٍّ ، وَلا قريب ولا بعيد ، وَلا أحدٍ من ولد آدم عليه السلام ، من ذَكَر ولا أُنثى ، مَشُورةً وَلا حِيلةً وَلا مكيدةً فى شىء من الأمور : سِرِّها وعلانيتها ، وحقِّها وَباطِلِها ، وظاهِرِها وباطِنِها ، ولا سببٍ من

---

(١) البشر : ظاهر جلد الإنسان ، جمع بشرة .

الأسباب ، أريدُ بذلك إفسادَ شيء مما أعطيتُ عبد الله بن هرون أمير المؤمنين من نفسى ، وأوجبتُ له علىَّ ، وشرطتُ وسمَّيتُ فى كتابى هذا .

وإن أراد به أحدٌ من الناس أجمعين سوءا أو مكروها ، أو أراد خلعَه أو محاربتَه أو الوصولَ إلى نفسه ودمه أو حُرَمه أو ماله أو سلطانه أو ولايته ، جميعا أو فُرادَى مُسَرِّين أو مظهرين له ، فإنى أنصُره وأحُوطه(١) وأدفع عنه ، كما أدفع عن نفسى وَمُهجَتى ودمى وشَعْرى وبَشَرى وَحرَمى وَسلطانى ، وَأُجهِّز الجنودَ إليه ، وأعينه على كل من غشَّه وَخالَفه ، وَلا أُسلِمُه(٢) ولا أخذله ولا أتخلَّى عنه ، ويكون أمرى وَأمْرُه فى ذلك وَاحدا أبدا ما كنت حيًا

إن حَدَث بأمير المؤمنين هرون حَدَثُ الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحَضْرة أمير المؤمنين ، أو أحَدُنا ، أو كنا غائبَيْن عنه جميعا، مجتمعَيْن كنا أو متفرقَيْن، وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين فى ولايته بخراسان، فعلىَّ لعبدالله ابن أمير المؤمنين أنْ أُمْضِيَه إلى خراسان ، وأن أُسلِّم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها، ولا أعوِّقه عنها ، ولا أحبِسه قِبَلى، ولا فى شيء من البُلدان دون خراسان، وأعجِّل إشخاصَه إلى خراسان، وَالِياً عليها مُفْرَداً بها ، مُفوَّضاً إليه جميعُ أعمالها كلِّها ، وأُشْخِص معه مَن ضَمَّ إليه أمير المؤمنين من قوَّاده وجنوده وأصحابه وكُتَّابه وعُمَّاله ومَواليه وخَدَمه ، وَمن تبعه من صنوف الناس بأهليهم وأموالهم ، وَلا أحبِس عنه أحدا ، وَلا أُشْرِك معه فى شيء منها أحدا ، ولا أُرسل أمينا وَلا كاتبا ولا بُنْدارا ، ولا أضْرِب على يديه فى قليل ولا كثير .

وَأعطيت هرونَ أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطتُ لهما على نفسى ، من جميع ما سمَّيتُ وكتبت فى كتابى هذا عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذمَّةَ أمير المؤمنين وذمَّتى وذمة آبائى وذِمَم المؤمنين ، وأشَدَّ ما أخَذَ اللهُ تعالى على النبيِّين والمرسلين

---

(١) حاطه : صانه وحفظه . (٢) أسلمه : خذله .

وخَلْقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه ، والأيمانَ المؤكَّدة التى أمرَ الله عز وجل الوفاء بها ، ونَهَى عن نَقْضِها وتبديلها .

فإن أنا نقضتُ شيئا مِما شَرَطْتُ لهٰرون أمير المؤمنين ولعبدِ الله بن هٰرون أمير المؤمنين ، وسمَّيت فى كتابى هذا ، أو حَدَّثتُ نفسى أن أنقُضَ شيئا مما أنا عليه ، أو غيَّرتُ أو بَدَّلت ، أو حُلت أو غَدَرْتُ ، أو قبلتُ ذلك من أحد من الناس : صغيراً أو كبيرا ، بَرًّا أو فاجرا ، ذَكَرا أو أنثى ، وجماعةً أو فُرَادَى ، فبرِئْتُ من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينهِ ومن محمد صلى الله عليه ، ولَقِيت الله عزّ وجل يوم القيامة كافرا مشركا ، وكلُّ امرأة هى اليوم لى أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألبتةَ طلاقَ الحَرَج ، وعَلَىَّ المشىُ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حِجَّة : نَذْراً واجبا لله تعالى فى عُنق ، حافيا راجِلا ، لا يقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وَكلُّ مالٍ هو لى اليومَ ، أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْىٌ[1] بالغُ الكعبة الحَرام ، وكلُّ مملوك هو لى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله عز وجل .

وكلّ ماجعلت لأمير المؤمنين ولعبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين وكتبتُه وشرطته لهما ، وحلفْتُ عليه ، وسمَّيْتُ فى كتابى هذا ، لازمٌ لى الوفاء به ، لا أُضمِر غيرَه ، ولا أنوِى إلاَّ إياه ، فإن أضمَرْتُ أو نويتُ غيره ، فهذه العقودُ والمواثيق والأيمان كلُّها لازِمة لى ، واجبةٌ علىّ ، وقوَّاد أمير المؤمنين وجنودُه وأهل الآفاق والأمصار ، فى حِلٍّ من خَلْعى وإخراجى من ولايتى عليهم ، حتى أكون سُوقَةً من السُّوق ، وكَرجلٍ من عُرْض[2] المسلمين ، لاحقّ لى عليهم ، ولا ولاَية ، ولا تَبِعَة لى قِبلَهم ، ولا بَيْعَةَ لى فى أعناقهم ، وهم فى حلٍّ من الأيمان التى أعطَوْنى ، بَرَاءٌ من تَبِعتها وَوِزْرها فى الدنيا والآخرة .

شهد سليمان ابن أمير المؤمنين المنصور ، وعيسى بن جعفر ، وجعفر بن جعفر ،

---

(١) الهدى : مايهدى إلى الحرم . (٢) عرض الشىء بالضم : وسطه وناحيته .

وعبد الله بن المهدىّ ، وجعفر بن موسى أمير المؤمنين، وإسحٰق بن موسى أمير المؤمنين، وإسحٰق بن عيسى بن على ، وأحمد بن إسماعيل بن على ، وسليمان بن جعفر بن سليمان ، وعيسى بن صالح بن على ، وداود بن عيسى بن موسى ، وَيَحْيى بن عيسى بن موسى ، ودَاود بن سليمان بن جعفر ، وخُزَيمة بن خازم ، وَهَرْثَمة بن أَعْيَن ، وَيحيى بن خالد ، والفضل بن يحيى ، وجعفر بن يحيى ، والفضل بن الربيع مَوْلَى أمير المؤمنين ، والقاسم ابن الرَّبيع مولى أمير المؤمنين ، ودمائة بن عبد العزيز العَبْسى ، وسليمان بن عبد الله الأصمّ ، والربيع بن عبد الله الحارثى ، وعبد الرحمٰن بن أبى الشِّمْر الغَسَّانى ، ومحمد بن عبد الرحمٰن قاضِى مكّةَ ، وعبد الكريم بن شُعَيب الحَجَبىّ ، وإبراهيم بن عبد الله الحجبى ، وعبد الله بن شعيب الحجبى ، ومحمد بن عبد الله بن عثمان الحجبى ، وإبراهيم ابن عبد الرحمٰن بن نَبيه الحجبىّ ، وعبد الواحد بن عبد الله الحجبى ، وإسمٰعل بن عبد الرحمٰن ابن نبيه الحجبى ، وَأَبانٌ مَوْلَى أمير المؤمنين ، ومحمد بن منصور ، وإسمٰعيل بن صُبَيح ، والحارث مولى أمير المؤمنين ، وخالد مولى أمير المؤمنين .

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة . (صبح الأعشى ١٤ : ٨٥)

١٦٤ — عهد المأمون على نفسه للرشيد

ونسخة عهد المأمون :

« هذا كتاب لعبد الله هٰرون أمير المؤمنين، كتَبَه له عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين فى صحّة من عقله ، وجَوازٍ مِن أمره ، وصِدْقِ نيَّة فيما كتب فى كتابه هذا ، ومعرفةٍ بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين ، إن أمير المؤمنين هٰرون ولاَّنى العهد والخلافة وجميعَ أمور المسلمين فى سلطانه ، بعد أخى محمد بن هٰرون ، ووَلاَّنى فى حياته وبعده ثغورَ خراسان وكُوَرَها وجميع أعمالها : من الصَّدقات والعُشْر والبريد والطِّراز وغير ذلك ، وشَرَطَ لى على محمد بن هٰرون الوفاء بما عَقَدَ لى من الخلافة وولاية

أمور العباد والبلاد بعده وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يَعرِض لى فى شئ مما أقطَعَنى أمير المؤمنين ، أو ابتاع لى من الضِّياع والعُقد والدور والرِّباع ، أو ابتَعْتُ منه لنفسى من ذلك ، وما أعطانى أميرُ المؤمنين من الأموال والجوهر والكُسا والمتاع والدوابِّ والرَّقيق وغير ذلك ، ولا يَعرِض لى ولا لأحد من عمالى وكتّابى بسبب محاسبة ، ولا يتتبّع لى فى ذلك ولا لأحد منهم أثرًا ، ولا يُدْخِلُ علىَّ ولا عليهم ولا على من كان معى ، ومن استعنتُ به من جميع الناس ، مكروهاً فى نفس ولا دم ولا شعر ولا بَشَرٍ ولا مال ولا صغير من الأمور ولا كبير ، فأجابَه إلى ذلك وأقرَّ به ، وكتب له كتابا أكَّدَ فيه على نفسه ، ورَضِىَ به أمير المؤمنين هٰرون وقَبِلَه ، وعرَف صِدْق نيّته فيه ، فشَرَطْتُ لأمير المؤمنين وجعلْتُ له على نفسى أنْ أسمعَ لمحمد وأطيعَه ولا أعصيَه ، وأنصَحَه ولا أغُشَّه ، وأوفِّى ببيعته وولايته ، ولا أغْدِر ولا أنكُث ، وأنفِّذ كتُبُه وأموره ، وأُحْسِن مُوازرَتَه ومكانَفَته(١) ، وأجاهد عدوَّه فى ناحيتى بأحسن جهاد ، ما وَفَى لى بما شَرَط لى ولأمير المؤمنين فى أمرى ، وسَمَّى فى الكتاب الذى كتبه لأمير المؤمنين ، ورضِىَ به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئاً من ذلك ، ولم ينقُض أمراً من الأمور التى شَرَطها أمير المؤمنين لى عليه .

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جُند ، وكَتَبَ إلىَّ يأمرنى بإشخاصه إليه ، أو إلى ناحية من النواحى ، أو إلى عدو من أعدائه ، خالَفَه أو أراد نَقْصَ شىء من سلطانه أو سلطانى ، الذى أسنده أمير المؤمنين إلينا وَوَلاَّنا إياه ، فعلىَّ أن أُنفّذ أمْرَه ولا أخالفه ولا أُقصِّر فى شىء كتب به إلىّ .

وإن أراد محمد أن يولِّىَ رجلا من ولده العهدَ والخلافةَ من بعدى ، فذلك له ، ماوَفَّى لى بما جعله أميرُ المؤمنين إلىَّ ، واشترطه لى عليه ، وشَرَط على نفسه فى أمرى ، وَعَلَىَّ إنفاذُ ذلك والوفاء له به ، ولا أنقُص من ذلك ولا أغيِّره ولا أُبدِّله ، ولا أقدِّم قَبْله

---

(١) المكانفة : الموازرة والمعاونة .

أحدا من ولدى ، ولا قريبا ولا بعيدا من الناس أجمعين ، إلاَّ أنْ يُولِّيَ أمير المؤمنين هٰرون أحدا من ولده العهدَ من بعدى ، فَيَلْزَمُنى ومحمداً الوفاء له .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمدٍ علىَّ الوفاء بما شَرَطْتُ وسمَّيْتُ فى كتابى هذا ، ما وَفَّى لى محمد بجميع ما اشترط لى أمير المؤمنين عليه فى نفسى، وما أعطانى أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمَّاة فى هذا الكتاب الذى كتبه لى ، وعلىَّ عهدُ الله وميثاقُه وذمَّة أمير المؤمنين وذمتى وذِمَم آبائى وذمم المؤمنين ، وأشدّ ما أخَذَ الله على النبيين والمرسلين من خَلقه أجمعين ، من عهوده ومواثيقه والأيمان المُؤَكَّدة التى أمر الله بالوفاء بها ، ونهَى عن نقضها وتبديلها ، فإن أنا نَقَضْتُ شيئا مما شرَطْتُ وسمَّيْتُ فى كتابى هذا ، أو غيَّرت أو بدّلت أو نكَثْتُ أَو غدَرْتُ، فبرِئتُ من الله عز وَجل ومن ولايته ودينه ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقِيتُ اللهَ يوم القيامة كافِرا مشركا ، وكلُّ امرأة هى لى اليومَ أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً طالقٌ ثلاثا ألْبَتَّة طلاقَ الحَرَج ، وكلُّ مملوك هو لى اليومَ أو أمْلكه إلى ثلاثين سنةً أحرارٌ لوجه الله ، وعلىَّ المشىُ إلى بيت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين حِجَّة نَذْراً واجباً علىَّ فى عنقى ، حافيا راجلا ، لايقبل الله منى إلا الوفاء بذلك ، وكل مالٍ هو لى اليومَ أو أملِكه إلى ثلاثين سنةً هَدْىٌ بالغُ الكعبة ، وكلّ ما جعلتُ لأمير المؤمنين وشرطْتُ فى كتابى هذا لازمٌ لى، لا أُضْمِر غيره ، ولا أنوِى سواه » .

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين ، وفلان ، وفلان

وكتب فى ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائة[1]

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٦ ، وصبح الأعشى ١٤ : ٨٩)

---

(١) ولم يزل هذان الشرطان معلقين فى جوف الكعبة حتى مات الرشيد ، فلما انقضت سنتان من خلافة الأمين كلم الفضل بن الربيع وزيره محمد بن عبد الله الحجبى فى إتيانه بهما فنزعهما من الكعبة وذهب بهما إلى بغداد ، فأخذهما الفضل فخرقهما وأحرقهما بالنار .

١٦٥ — كتاب الرشيد إلى عماله

وكتب الرشيد إلى عُمَّاله فى هذا الشأن :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم : أما بعدُ فإن الله وَلِيُّ أمير المؤمنين وَوَلِيُّ ما وَلَّاه ، والحافظُ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه ، والصانعُ له فيما قَدَّم وأخَّر من أموره ، وَالمُنْعِم عليه بالنصر والتأييد فى مَشارق الأرض ومَغاربها ، وَالكالِئُ[1] والحافظ والكافى من جميع خَلْقه ، وَهو المحمود على جميع آلائه[2]، المسئولُ تمامَ حُسْنِ ما أمْضَى من قضائه لأمير المؤمنين، وعادتِه الجميلةِ عنده، وَإلهامَ ما يَرْضَى به، وَيُوجِبُ له عليه أحسنَ المَزِيد من فضله .

وقد كان مِن نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عَوامِّ المسلمين ، ما تولَّى اللهُ من محمد وعبد الله ابنَىْ أمير المؤمنين ، مِن تبليغه بهما أحسنَ ما أمَّلَتِ الأمةُ ، ومَدَّت إليه أعناقَها، وقَذَفَ اللهُ لهما فى قلوب العامَّة من المحبة والمودَّة والسكون إليهما والثقةِ بهما ، لِعِمادِ دينهم ، وقِوام أمورهم ، وجَمْعِ أُلْفَتهم ، وصلاح دَهْمائهم[3]، ودَفْعِ المحذور والمكروه من الشَّتاتِ والفُرقةِ عنهم ، حتى ألْقَوا إليهما أزِمَّتَهم ، وأعطَوهما بيعَتَهم ، وصَفَقَاتِ أيمانهم بالعهود والمواثيق ووَكِيدِ الأَيْمان المغلَّظة عليهم ، أراد اللهُ فلم يكن له مَرَدّ ، وأمْضاه فلم يقدِر أحدٌ من العباد على نقْضِه ولا إزالته ، ولا صَرْفٍ لهُ عن محبته وَمشيئته ، وما سَبَقَ فى علمه منه ، وَأمير المؤمنين يَرْجُو تمامَ النعمة عليه وعليهما فى ذلكَ وعلى الأمة كافَّةً ، لا عاقِبَ لأمْر الله ، ولا رَادَّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لحكمه .

وَلم يزل أمير المؤمنين منذ اجتمعت الأمة على عَقد العَهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من

---

(١) أى الحارس والحافظ .

(٢) الآلاء : النعم ، واحدها إلى كحمل ، وألو وألى كشمس وألى كفق وإلى كغنى .

(٣) الدهماء : جماعة الناس .

بعد أمير المؤمنين ، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين ، يُعْمِل فِكْرَه ورَأْيَه ونظره ورَويته فيما فيه الصلاحُ لهما ولجميع الرعية ، والجَمْعُ للكلمة ، واللَّمُّ للشَّعَثِ ، والدَّفعُ للشَّتات والفُرْقة ، والحَسْمُ لكيد أعدَاء النِّعم ، منْ أهل الكفرِ وَالنفاقِ ، والغِلِّ وَالشقاق ، وَالقَطْعُ لآمالهم من كل فُرْصة يرجون إدراكها وانتهازها منهما بانتقاصِ حقهما ، ويستخير اللهَ أميرُ المؤمنين فى ذلك ، ويسأله العزيمةَ له على مافيه الخِيَرةُ لهما ولجميع الأمة، والقوةُ فى أمر الله وَحقِّه ، وائتلافُ أهوائهما ، وَصلاحُ ذاتِ بينهما ، وتحصينَهما من كيد أعداء النعم ، وَردُّ حَسَدهم ومكرهم وَبغيهم وسعيهم بالفساد بينهما فعزَمَ اللهُ لأمير المؤمنين على الشُّخوص بهما إلى بيت الله وَأخْذِ البيعة منهما لأمير المؤمنين بالسمع وَالطاعة وَالإنفاذ لأمره ، واكتتابِ الشَّرْط على كل واحد منهما ، لأمير المؤمنين ولهما، بأشدّ المواثيق والعهود وأغلظِ الأيمان وَالتوكيد، والأخْذِ لكل واحد منهما على صاحبه ، بما التمس به أمير المؤمنين اجتماعَ أُلفتهما وَمَودَّتهما وَتواصُلهما وَمُوازرَتهما ومكانفَتهما على حُسن النظر لأنفسهما ولرعية أمير المؤمنين التى استرعاهما ، وَالجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم ، والجهاد لعدوّ المسلمين من كانوا وحيث كانوا ، وقَطْعِ طمع كل عدوّ مُظْهِرٍ للعداوة ومُسِرٍّ لها وَكل منافق مارقٍ وأهل الأهواء الضَّالَّة المُضلَّة من فرقة تَكيدُ بكَيْدٍ تُوقِعُه بينهما ، ويَدْحَس تَدْحَس[1] به لهما ، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه ، من الضرب بين الأمة ، والسعى بالفساد فى الأرض ، والدعاء إلى البدَع والضلالة ، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وَسلم ، ومناصحةً لله ولجميع المسلمين ، وذَبًّا عن سلطان الله الذى قدَّره وتوحَّد فيه الذى حمَّله إياه ،والاجتهادَ فى كل مافيه قُرْبَةٌ إلى الله ، وما ينال به رِضوانهُ والوسيلةَ عنده .

فلمَّا قدِم مكَّةَ أظهر لمحمد وعبد الله رأْيه فى ذلك ، وما نظَر فيه لهما ، فقَبلا كل

---

(١) دحس بينهما : كمنع دَحسا : أفسد ، ودحس بالشر : دسه من حيث لا يعلم .

مادَعاهما إليه من التوكيد على أنفسهما بقبوله وَكتبا لأمير المؤمنين فى بَطْن بيت الله الحرام بخُطوط أيديهما ، بِمَحْضَر ممن شهِد المَوْسِمَ من أهل بيت أمير المؤمنين وقوّاده وصحابته وقُضاته وحَجَبة الكعبة وَشهاداتهم عليهما كتابين ، استودَعَهما أمير المؤمنين الْحَجَبةَ ، وأمرَ بتعليقهما فى داخل الكعبة .

فلما فَرَغ أمير المؤمنين من ذلك كله فى دَاخل بيت الله الحرام وبَطْن الكعبة أمر قُضاتَه الذين شَهدوا عليهما ، وحَضَروا كتابهما ، أن يُعلِموا جميعَ مَن حَضر الموسمَ من الحاجّ والعُمَّارِ(١) ووفود الأمصار ماشهدوا عليه مِن شرطهما وكتابهما ، وقراءة ذلك عليهم ، ليفهموه وَيَعُوه(٢) ويعرِفوه ويحفظوه ، وَيؤدُّوه إلى إخوانهم وأهلِ بلدانهم وأمصارهم ، ففعلوا ذلك ، وقُرِئَ عليهم الشرطان جميعا فى المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتوا الشهادة عليه، وعرَفوا نظرَ أمير المؤمنين وعِنايتَه بصلاحهم، وحَقْن دمائهم ، ولَمَّ شَعْثهم ، وإطفاء جَمْرة أعداء الله وأعداء دِينه وَكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه فى ذلك .

وقد نَسَخ لك أمير المؤمنين ذَيْنك الشرطين اللَّذين كتبهما لأمير المؤمنين ابناه محمد وعبد الله فى بطن الكعبة فى أسفل كتابه هذا ، فاحمدِ الله عز وجل على ماصَنَع لمحمد وعبد الله وَلِيَّيْ عهدِ المسلمين حَمْداً كثيرا ، واشكره ببِلائه عند أمير المؤمنين وعند وليَّيْ عهد المسلمين وعندك وعند جماعة أمَّة محمد صلى الله عليه وسلم كثيرا ، واقرأْ كتاب أمير المؤمنين على مَن قِبلَك من المسلمين ، وأفهِمْهم إياه ، وقم به بينهم وأثبِتْه فى الديوان قِبَلك وقِبَل قُوَّاد أمير المؤمنين وَرعيته قِبلك ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله ، وحَسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ، وبه الحَوْل والقوة والطَّوْل» .

---

(١) العمار : المعتمرون ــ والفرق بين الحج والعمرة : أن العمرة تكون للإنسان فى السنة كلها ، والحج وقت واحد فى السنة.

(٢) وعاه يعيه : حفظه .

وكتب إسمعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ست وثمانين ومائة . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٧٧)

١٦٦ — رسالة يحيى بن زياد الحارثى في تقريظ الرشيد

« أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ لأمير المؤمنين فى غابرِ أموره ، أحسنَ ما عَوَّده فى سالفِها ، من السلامةِ التى حَرَسَه بها من المكارِه ، والعزِّ الذى قهر له به الأعداءَ ، والنصر الذى مكّن له فى البلاد ، والهُدَى الذى وهب له به المحبةَ ، والرِّفْقِ الذى أدرَّ له به الحَلَبَ[1] والاستصلاح الذى اتَّسَقَتْ له به الرعيةُ ، حتى يكون ـ بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقْبَلٌ به منه ـ أبعدَ خُلَفائه فى الخير ذكرا ، وأبقاهم فى العدل أثرًا وأطولَهم فى العمر مدةً ، وأحسنَهم فى المَعاد مُنقَلَبا .

ثم نحمَدُ اللهَ الذى جعل نِعمتَه على أمير المؤمنين شواهِدَ منه على منزلته منه ، ومكانِه عنده ، لايحتاجُ معها إلى شَهادات المُثْنِينَ ، ولاصفاتِ المقرِّظين ، ثم جعل ذكرَ نعمتِه على أمير المؤمنين ومُناصحتَها والمجاهدةَ لمن كادَها ، فريضةً أوجبَها على العباد ، ومِحنةً امتحنهم بها ، وفُرْقانا ميَّز به بينهم ، فمن أصبح مِن رعيته أكثرُ شُغْله أن يستعمِلَ لسانَه فى صِفته ، وذِكْرِ محاسنه وفضائله ، ووجُوبِ حقه وطاعته ، فقد أصبح آثرًا أَوْلَى الأمور وأحسَنَها مَغَبَّةً فى دنياه ودينه ، ومن بَدَّل ذلك عن قدرة عليه ، ودفَعَه بعد معرفة ، فلم يَدَعْه إلا عن خِذلانٍ حاقَ به ، أو بِدْعةٍ استمالَتْه ، وكانت حُجَّةُ اللهِ لأمير المؤمنين عليه هى الكافية لِمَئُونته ، وقد كان علماء الناس وجُهّالهم يُسَوُّوْن فى عامِّ المعرفةِ بفضل أمير المؤمنين ، فأما الخاصُّ فلأهل الفضل فيه فضلُهم ، غيرَ أنه مهما كان من ذلك فقد أصبحوا وهم فيه على منازِلَ ثلاثٍ : حاسِدٌ حَجَبَ الحسدُ

(١) الحلب بالتحريك : اللبن المحلوب .

بَصَرِه عن مَواقع الصواب أن يراه ، والنِّعْمَةِ أنْ يشكرَها ، والحقِّ أن يؤدِّيه ، وكانت معرفتُه عليه وَبَالاً ، وحَسَدُه إلى الغِيَر به قائداً ، وذو هَوًى قادَه الهوَى إلى البدعة ، وأخرجَتْه الضلالةُ من الجماعة ، فهو عُرْضةٌ لسُوء الأدَب أو سَيْفِ النَّكال ، لم يُوحِشِ الله أحداً بفَقْدِه[1] ، ولم يعزِّر[2] أحدا بموالاته ، ومُوَثَّق معصومٌ[3] استنقذه اللهُ بمُوالاة أمير المؤمنين من غِلِّ الحَسَد ، وبِدَعِ الآراء ، وجَبَله على صحَّة الهوى ، فهو إن نَظَر فبِعَينه ينْظُر ، وإن قال فبلسانه يقول ، لا يأمَن حتى يعلَمَ أن أمير المؤمنين قد استوطأ مِهَادَ الخَفْضِ ، ولا يزال له طليعةُ رأيٍ تُوفِي على خُطَّة حَزْمٍ ، وغامِض فِطْنَةٍ تَغَلْغَلُ إلى لطيف مفقمة ، وسهم مَكِيدة نحو عَورة[4] ، قد عَلِم أن يومَ أمير المؤمنين يومُه ، وأن غَدَه غدُه ، فهو إن تعرَّض لأداء الحقِّ فى نصيحته ، ينظر لنفسه نَظَرَ من لا يأمُلُ السلامةَ إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه ، وقد رجوتُ بالقرابة التى جعلها اللهُ لى به ، والواجبِ الذى عرَفتُه من حقه ، والعظيمِ الذى حَمَلْتُه من معروفه ، ألاَّ يكون أحدٌ ينظر إليه بعين الإشفاق أقوَمَ ما جعله الله أهلَه منى ، فإن أبلُغِ الذى أردتُ فبتوفيق الله ، وإن أقصر فعَن مِثل ما حاولتُ قَصَّر المجتهد .

فأوّلُ ما أنا ذاكِرُه من فضله : أن الله قدَّم له الصُّنْعَ فى سابقِ علمه ، فجعل مَحْتِده[5] خيرَ المَحاتِدِ عُنْصرا ، ثم اختار له أباً فأباً ، لا ينقُلُه من أب إلى أب إلا نَقَل معه وَإليه فضيلةَ العُنْصُر الذى هو منهُ ، حتى صَيّره بعد فضائل أبيه إلى أفضل بَدَنه[6] فكان خيرَ خَلَفٍ مِن خيرِ سلَفٍ ، وأفضَلَ وَلَدٍ من أفضلِ أُبُوَّة ، وأرضى إمامٍ من أزكَى أئمةٍ ، ثم اختار لَهُ مكارم الأخلاق ، وألبسَه جمالَ الصورة ، فلا نعلم نحن ولا

---

(١) فى الأصل « لمن يوحش الله أخذه بفقده » .

(٢) عزره : نخمه وعظمه — أو صوابه « ولم يعزز » أى لم يجعله عزيزا ، ، والمعنى واحد .

(٣) فى الأصل : « وموثق معصوم ثم استنقذه بموالاة ... » .

(٤) العورة : الخلل فى الثغر ونحوه .

(٥) المحتد : الأصل . (٦) بدن الرجل . نسبه وحسبه .

آباؤنا خليفةً أبعدَ فى حِلمه من ذُلٍّ ، ولا فى هَيْبته من تجبُّر ، ولا فى شِدّته من عُنف ، ولا فى لينه من وَهْن ، ولا فى أَناتِه من غَفْلة ، ولا فى اقتصاده من بُخل ، ولا فى بذله من إضاعة ، ولا أرَقَّ وجهاً عند لِقاء ، ولا أحسن بِشْرا عند تحيَّةٍ ، ولا أغزرَ دَمْعاً عند مَوْعظة ، ولا ألينَ قِيادا عند تذكير بالله منه .

ثم أفضت إليه الخلافةُ ، وفى المال ما فيه من القِلّة ، وفى الناس ما فيهم من الاستجراح[١] ، فما دَفع عن مال يُعطيه عن قلّة ، ولا قَطَع عادَةَ تَوْسِعةٍ على رعيته ، ثم استدرَّ الحلَب برِفقه ، فكلما درَّ له منه شُخْبٌ[٢] فوّقه طائفةً من جنده ، حتى سقاهم بعد التفويق رِيًّا ، وبعد النَّهَل عَلَلاً[٣] ، ثم ساسَ رعيته بألْيَن السياسة ، فعفا عن مُذْنبها ولو شاء لَعاقَبَ ، وآمَنَ خائفَها ولو طلب لأدركَ ، ودَفَع بالحسنة السيئةَ وَلو كافأ لَقَدَرَ، فما بَرِح صُنْعُ الله له يَفُضُّ جموع الضَّلالة بِلا قتال ، ويُعِزّ له النصرَ بلا مكاثرة، حتى فرَغ ـ بِشُغله ـ مَنْ كان لا يَفرُغُ من الوزراء ، ونام ـ بسَهره ـ مَنْ كان لا ينام منَ العامَّة ، واطمأنت ـ بمَفَاءاته[٤] للأسفار ـ دَارُ من كان لا ينال الخفْضَ من الجنود حتى استوطَئُوا مَرْكب الأمن ، فكلهم ضَنينٌ بمفارقته .

أمَّا ذو النية فركَنَ إلى الخفْض[٥] ، وأمَّا مَن لا يَدَ له[٦] ففعَلَ ما كان يُؤْخَذ به من الاستكراه ، وأما الحشْوُ من الجُند والرَّعاع فغلبَتْ عليهم عادَةُ الهُوَيْنى ، حتى لقد رأيناه يحْزُبه[٧] الأمرُ ، فما يجد له الأمرُ غَناءً عنده إن وَكلَه إلى قوّته ، ولا نشاطا ولا جِدًّا ، ولا قوَّةً بماله[٨] ، فلما رَأَى ما رَأَى مِن تخاذُلِ العامَّة ، وتواكُلِ

---

(١) الاستجراح : النقصان والعيب والفساد .

(٢) الشخب بالفتح والضم : ماخرج من الضرع من اللبن إذا احتلب ، وفوقه إياه : أعطاه إياه قليلا قليلا .

(٣) النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثانى .

(٤) جمع مفاءة ، من فاء : إذا رجع .

(٥) الخفض : الدعة ، وفى الأصل « النفض » .

(٦) اليد : القوة ، وفى الأصل « لايبدله » .

(٧) حزبه الأمر كنصر : اشتد عليه ، وفى الأصل « حتى لو » وهو تحريف، والغناء : الكفاية.

(٨) فى الأصل ، « وقواه بماله » يشير بذلك إلى ما كان من البرامكة من استئثارهم بأمور الدولة وتصريف أحوال السلطان واحتجان الأموال .

الجنود ، ونُزُور[1] الفَيْء ، وجُمُود الحلَب ، واستكلابِ[2] العُمَّال على الخيانة ، وجُرْأَةِ الرعية على منع الحق ، ومالَ الفراغُ بكثير من الناس عن القَصْد[3] ، فتحركَتَ الأهواء واستعَرَتْ نيرانُ العصبيَّة ، وَجاشت صدورُ الحَسَدَةِ وأشياعِهم بالأمانى ، وظنوا أن لاشِدَّةَ معه ، وأن عفْوَه لا نكيرَ بعده ، وأميرُ المؤمنين يَرْمُقُهم بعين بصيرة ، وأذنٍ مُصيخة[4] ، وقلبٍ يقظان ، وقد وَفَّر الحِلمَ أن يخفّ لأولِ بَوَادر السفهاء ، فهو ينتظر بالمُدْبِر أن يُقبِل ، وبالمائدِ[5] أن يعتدل ، وبالمغلوب على رأيه أن يتذكَّر فيُبْصر ، شمَّر فى إثرهم تشميرَ مَن قدَّم الرويةَ قبل العجَلة ، والعفوَ قبل العقوبة ، والتثبُّتَ قبل الإقدام ، فاتخذ رَوابطَ[6] انتجبها[7] على الجلَدِ والنشاطِ ، ليست لهم سوابقُ تدعوهم إلى الإدلال ، وتسمو بهم إلى كثيرٍ لم ينالوه ، إنما همُّهم أن يتفاضلوا فى النَّجدة ، ويستوجبوا بالغَناء ، ثم فرَّقهم على خواصٍّ خَدَمه ، فإذا أراد أن يتناول بهم فُرْصَةً مُمكِنة ، أوعدواً غارًّا[8] ، أو رَتْقَ فتقٍ قبل اتِّساعه[9] ، يَغمِسُ يديه إلى أيِّهم أراده ، فينفذُ لأمره ، ولم يَشْرَكه فيه مُشيرٌ ، ولم يخرج به توقيع ، ولم يُحْصَ فيه عامة ، ولم يُطَّلَعْ منه على مكيدة ، فلم نعلم أننا رأينا جنداً أسرع نهضةً إذا أُمِرُوا ، وأحسنَ إجابة إذا دُعُوا ، وأفضل غَناءً إذا استُكفُوا من جنده ، ثم قَصَد بنفسه حتى مَثَل بين النواحى إلى أهمِّها له فَساداً فى البَيْضة[10] ، وانتقاصا من الأطراف ، فأتى ناحية الشأم فوطِئها وَطأةً جمع الله بها منهم شَتاتَ الفُرْقة ، وأخْمَدَ بها بينهم نارَ الفتنة .

---

(١) النزور : القلة .

(٢) استكلب الكلب ، ضرى وتعود أكل الناس (واستكلب الرجل : نبح فى قفر لتسمعه الكلاب فتنبح فيستدل بها عليه) ويقال أيضا : تكالبوا عليه : أى تواثبوا وحرصوا عليه حتى كأنهم كلاب

(٣) القصد : الاستقامة . (٤) من أصاخ له : أى استمع .

(٥) من ماد يميد : أى تحرك واضطرب .

(٦) أى جنودا مرابطة . (٧) أى اختارها .

(٨) الغار : الغافل . (٩) فى الأصل « قبل الساعة » وهو تحريف .

(١٠) البيضة : الحوزة والساحة .

وَأما الجزيرة فإنه ألفاها وهى كالجُرْح النَّغِل[١]، فاستأصَلَ الله به منها شأفةَ الداء، وأطفأ به عنها نوائرَ[٢] السفهاء، وخيَّر أميرُ المؤمنين من منزله الذى هو به مَنزِلا جمع من بَسْطةٍ فى الموضع، ورفاغِيَةٍ[٣] فى المعاش، أنه حامِلٌ للجنود، جامعٌ للمَرافق، فباشرَ أمْرَه أمْرًا أمْرًا، حتى إذا استَدْبرَ[٤] له منها مُبرَمٌ، استُقْبِلَ بعده جُسامٌ[٥] مُنْتَقِضٌ، وإذا أَثْخن[٦] من ثغوره ثغرٌ لم يَرْضَ حتى يفتتحَ من حُصُون أعدائه حِصنا، وإذا قضى الله عنه حُجَّةً، وَصَلَ خَطْوَه منها عزّا، ثم رأينا ما عزَم الله به عليه من تَرْكِ الصوائف[٧]، مراقباً للذى كان من غُمُوط[٨] أهل الشام لما كانوا فيه من النعمة، فلم نشكُكْ فى أنه توفيق من الله له وافَقَ سُخْطًا عليهم، حتى استباحوا الُحرَم، وتسافكوا الدماء، ونَقَضُوا ما بينهم من مُبرَمِ حَبْلِ الإسلام.

ومن ذلك أن أرْمِينِيَةَ كانت فيها جنود تُخْرَجُ عليهم أطْماع[٩]، وتُحْمَل إليهم ـ بعد اعترافهم خراجَهم ـ الأموالُ من كوَر الشام، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا، فلم يتوكَّلْ على الله فى أمره فوَكَلَه إلى نفسه، ولم يكتف به فى حِفْظ طَرَف أو قاصِيَةِ ثَغرٍ إلَّا كفاه مَئُونتَه، وعَلِم أن ما يَدخل مُنَن[١٠] أضعافِ العافيةِ من عوَارِضِ العِلَل، إنما هو تقديرٌ من الله لايمتنعُ بعُذر، ولا يُستطاعُ دفْعُه بحيلة، يُصيبُ فيه أقوامًا بالبلايا والتمحيص، ويَقْسِم فيه لأقوام الأجرَ والجِهادَ والسعادةَ، فرأى أنّ فى عاجِل

---

(١) من نغل الأديم كفرح: إذا فسد فى الدباغ، والشأفة: قرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب، والأصل، واستأصل الله شأفته: أذهبه كما تذهب تلك القرحة، أو معناه: أزاله من أصله.

(٢) نوائر: جمع نائرة، وهى العداوة والشحناء، وفى الأصل «بوائر».

(٣) الرفاغية: الرفاهية، سعة العيش والخصب.

(٤) فى الأصل «استدمج». (٥) شىء جسيم وجسام: عظيم.

(٦) أثخنه: غلبه وأوهنه، وفى الأصل «وإذا أشحن من ثغوره ثغرا» وهو تحريف.

(٧) الصوائف: جمع صائفة، وهى غزوة الروم، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج.

(٨) غمط النعمة كضرب وسمع: بطرها وحقرها ولم يشكرها (غير أن الوارد فى كتب اللغة أن مصدره غمط كشمس لا غموط).

(٩) أطماع: جمع طمع بالتحريك، وهو رزق الجند.

(١٠) المنن: جمع منة بالضم، وهى: القوة.

ما يَرْفَع عن أهل أرمينيةَ من ضرر مَئونتهم وحَمْطهم[١]، نفعاً للرعية، وإجمالًا للفَيْء، ورِفْقاً بالعامة، مع اقتصاره[٢] فى «الأبواب» على أكنافِ سَجِيّتها، وفى سائر أرمينيةَ على المُقَاتِلَة من أهلها، ولم يَزَل منذُ أراه الله ذلك، يَكفيه مَئُونة ذاك الثَّغر، ويكُفُّ عنه بوائقه[٣] حتى كأنه ـ فى هُدُوء الأحداثِ عنه، وسكونِ الأفئدة من رَوْعاته ـ مِصْرٌ من الأمصار، واسِطُ المَحَلَّةِ، مأمون النَّائرة، فلما اغتنم خاقانُ[٤] ما اغتنَمَ، انتهز الفرْصةَ مُبادِراً لِمَا قد أيقَن من مُعاجلة أمير المؤمنين إياه، فكأنه حين بلغَه ذلك فى إعظامه إياه بسببه له، وما أتْعب فيه من بدنه، وأسهرَ فيه من ليله، وأنصبَ[٥] فيه من نهاره ـ لم يعلم الذى كان يكون من أشباهه[٦] فى الأزمنة الماضية قَبْلَه ـ وإنه بذلك لجِدٌّ عالِمٍ ـ غير أن حَمِيَّته للإسلام، وشَفَقَته عليه، وامتعاضَه من أن يُتناول شىء من أطرافه، قد زاد ذلك عنده قَدْراً فى العِظَم، وتفاقُماً[٧] فى الخطْب، حتى أكمَلَ البَعْثَ بأكثر العدد وأكمَلِ العُدَّة، واستقلَّ[٨] أهلَ الكُوَرِ والأمصار، ونَدَب له من أهل بيته مَن لم يترك بعده نهايةً فى التخيُّرُ، وكان قد صرَف باله إلى هذين الثغرَيْن من الخزَر والروم، وإلى هذين العدوَّين المحارِبَيْن له من المارِقَة المتعصِّبة.

فلما بلغ اللهُ فى إحكام أمرِها ما بَلَغَ، لم يستغْنِ عن إعادة النظر فى أمر غيرها من نواحيه، ليَستبرِئَ[٩] به إرادته فى أقوام يدافِع ظنونَهم به فى أخرى، وعلِم أن لما شمِلَ مَنْ بمدينة السلام من الأمْن والفراغ نتيجةً مكروهة، فشَخَصَ عنها عند تحقيق ذلك، مُؤْثِرا لأبْغَضِ وَطَنَيه على أحبِّهما، وأخشَن عَيْشَيه على أليَنهما، فلما ظهرت له العَوْرَةُ

(١) حمطه كضربه : قشره، وحمطه كضربه أيضا : شواه.

(٢) فى الأصل «مع اقتصاده» وهو تحريف، وباب الأبواب: مدينة على بحر الخزر (بحر قزوين) من غربيه، والأكناف : النواحى، والسجية : الطبيعة.

(٣) البوائق : جمع بائقة، وهى : الداهية.

(٤) لقب ملك الترك. (٥) أى أتعب.

(٦) فى الأصل «من اشتباهه». (٧) أى شدة.

(٨) أى حمل. (٩) استبرأه : استنقاه.

أقدَمَ إقدام ذى الحجّة ، فلم ير مثلها ناراً خَبَت[١] ، وسحابةً أقشَعَت ، لم يسفِك بها دمَ امرئٍ مسلم صَبْرًا ، ولم ينتهك فيها حُرْمَة مُحَرَّمٍ إباحةً ، وذلك أنه بَسَط يده بَسْطَ مَنْ يُريد الاستصلاحَ لا من يريد الانتقامَ ، فلم يلبث الظالِعُ[٢] أنْ رَجَع عن ظَلْعه ، والناطقُ أنْ صَمَتَ عن بِدْعته ، والناكِثُ أنْ رَجَع إلى قَصْده ، وازداد البرىء على البراءة فَرَحا ، والسَّالم بالسلامة اغتباطا .

ولم نَرَ مثله فيما أفضَى الله به إليه من خلافته ، وحَمَّله من أمور عباده ، أمّا ليلُه بمُناجاة ربِّه فيها واستعانتِه إياه عليها فَسَاهِرٌ ، وأمَّا نهارُه فى جَلْبِ فيئها وإحكام أمورها فتَعِبٌ ، وأما صَدَقاتُه على فقرائها وأهلِ الحاجة فجارِيَةٌ ، وأما مجلِسُه من فقهائها وصُلَحائها فغاصٌّ[٣] ، وأما غِلْظَتُه على ظالمها فعَتِيدة[٤] ، وأما إفضاله لِمَظلومها فمَبْسُوط ، ولئن كان الحق لزم أقواما استوجبوا فى أنفسهم وأموالهم ، إنّا لَنَعلم أنَّ ما ترك أكثر ، وأنه لولا ما خَفَّف من الوَطْأة على أقوام لحَمَّل الواحدَ منهم مثلَ الذى حَمَّله للجميع ، ولكنه رَضِيَ بالعفو ، وسَخَا نَفْساً عن الاستقصاء ، فأوجبَ أن يبْسُطَ يداً بغِلْظة ، ويُتبِعَها أخرى بلِين ، فكان من ذلك نظرُه فى هذه البقايا التى هى فَىْء المسلمين ومالُ الله ، غير أن الله جعلَه قَيِّمَه فيه ، وفى أخذِه وصَرْفه فى وجوهه ، فلما رأى ضَرَاوَةَ[٥] العُمّال بها ، ومُصانَعتهم دونَها ، وأنْ قد صارت كالسُّنّة اللازِمة ، لا يَدَعُها عَفِيفُهم تورُّعا ، ولا شريفهم تنزُّها ، أحَبَّ مع توفيره للمسلمين فَيْئَهم أن يُحْدِث لهم أدَبًا يَفطِم به عنهم أهلَ الضَّراوة ، ويعرِف به ذوو الاستخفافِ بالأمانة والأمْنِ[٦] للتَّبِعة ، أن لهم من تفقُّده وأدَبِه عَيْناً تَرْمُقُ ، ويَدًا تَقْبِضُ ، ولو أنه حين هَمَّ بأخذ تلك البقايا حَمَلَ على

---

(١) خبت : انطفأت ؛ وأقشع السحاب وانقشع وتقشع : انكشف .

(٢) من ظلع كمنع : إذا غمز فى مشيه ، والمراد المنحرف الزائغ .

(٣) منزل غاص بالقوم : أى ممتلئ . (٤) أى حاضرة مهيأة .

(٥) ضرى به كرضى ضراوة : لهج به وأغرى ، والمصانعة ، الرشوة والمداهنة .

(٦) فى الأصل « والأمر » وهو تحريف .

الموسر بقدر يَساره ، وَأخذ المُعسِرَ بطاعته ، كان قد أنصفَ ، كَلا ! ولـكنه أحب أن يستبقىَ قوةً ، ولا يبلغَ من المُـكثِرِ جَهْدًا ، واقتصر بهم على العُشر من ذلك ، كرَماً فى القدرة حين رأى موضعَ الرّفق ، وتجافَى عن العِلّة حين عرَف مكان العُذر ، فأىُّ نعمة أعظم ، وأىُّ بلاء أحسن من هذه البقايا ؟ كانت فى أيديهم جُمَامًا[١] فلما اطّلَع طِلعَها[٢] أخذ ما أخذ ، وترَكَ ما ترك ، محلّلا مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات[٣]] المقصِّر من العُمَّال المؤدية التى لم تـكن تعدُو أفواههم ، فليس منهم أحدٌ إلا كان منهُ لَهُ وَاعظ ألّا يكسِرَ شيئاً من الخراج تضييعا ، أو يأخذه غُلُولا[٤] ، أو يُنفقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما فرَغ من علاج الداء المَخُوف فاستأصَلَه ، وَمن الفَىْء المتفرق فجَمَعَه ، ومن الأمور المعطَّلة فأحكمها ، استخلَفَ على القيام بذلك من لايُجزِئه[٥] عقله عن حَذَر ، ولا إضاعةٌ عن حِفْظ ، ولا لينٌ عن تشدُّد ، ولا يستحل الأكف عن نقضِ ما أبرَم ، ولا مزاولة ما أحكم ، ولا فَتْح ما أغلق ، ولا إغلاق ما فتح ، « فلان » : خِيرة أبوَيه ، وَمُحُّ[٦] بَيْضته ، وجَوهر أرُومَته ، الفائت سبقا ، البيِّن عَنَقاً[٧] ، الراسخ عِرقاً ، المتفجر بَحْرا ، المحمود أمْرا ، القائل فَصْلا ، الحاكم عَدْلا ، ثم انصرف بما أفاده الله من الأجر إلى جَناحه الذى كان مَدَّه على مَن خلَّف من الأهل والأمْوال والرعايا والجنود ، « فلان » : سليل صُلبه ، وثمرة قلبه ، المُحْتنِك[٨] مَع فَتَاء سِنِّه عقلا ، والمأمون مَع شدة شكيمته

---

(١) الجمام بالضم والـكسر ، أصله ما اجتمع من ماء الفرس .
(٢) يقال ، اطلع طلعه : إذا علم أمره .
(٣) محل هذه الـكلمة بياض بالأصل ، وهى المناسبة للمقام .
(٤) الغلول بالضم ، الخيانة .
(٥) أى لا يغنيه ، وفى الأصل « يحويه » وأراه محرفا .
(٦) المح : صفرة البيض أو ما فى البيض كله .
(٧) العنق : ضرب من السير فسيح سريع .
(٨) المحتنك : الذى أحكمته التجارب ، والفتاء : الشباب .

حَمْلا ، والمُحْصَد[(١)] مَع لينه وتعطُّفه أمرا ، الشبيه بأمير المؤمنين إن نطَقَ لفظا ، وَإن نظر لَحْظا ، وإن سُئِل جودا ، وإن اهتصر[(٢)] عُودا ، وإن ساس رِفقا ، وإن غَضِب حِلْما ، وإن وصف علما ، وإن كُلِّمَ فهما ، وإن قَدَر عَفْوا ، وإن لقِيَ بِشْرا ، وإنْ نازع فَلْجا[(٣)] ، وإن قارَع ظَفَرًا ، فكان عند ظنه به ، رعايةً للحُرْمة ، وحَزْما فى المكيدة ، وجَانِبا للفَىْء ، وحِياطةً للغائب ، ومباشرةً للشاهد .

هذا قليل من كثير ، مما جعلك الله أهلَه ، وإنما اقتصرتُ عليه لأنى رأيت المتكلمين من الخطباء تركوه ، وأن ما سمعتُ من الكتب المقروءَة لم تَنْتظمه ، فأحبَبْتُ أن يعلم أمير المؤمنين أن له فى كل أمر عَمِل به فى رعيته حُجةً واضحة ، وعُذْرا معروفا ، إن قام به متكلمٌ فى خاصَّةٍ حَسُن مَوْقِعُه ، وإن قرئَ به كتابٌ فى عامّة قَوِيت به حُجَّتُه .

والحمد لله الذى جعله وذُرّيته أولياءَ هذه النعم ، والمخصوصين بهذه الفضائل ، ونسأله أن يُبْقيَه وإياهم للدّين الذى سدَّ بهم عَوْرته ، والحقّ الذى أقرَّ بهم جادَّتَه ، والعدل الذى أوضح بهم أعلامه حتى يكونوا وَرَثة هذه الأمة وخلفاءها فى غابر الدهر وباقيات الأيام ، مستقلِّين[(٤)] بالعدل ، موفَّقين للسَّداد ، معصومين من الشُّبُهات ، مستوجبين مع فضائل الدنيا لأفضلِ كراماتِ المعاد ، والسلام » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٩٢)

١٦٧ — رسالة أبى الربيع محمد بن الليث التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين[(٥)] ملك الروم

« من عبد الله هرون أمير المؤمنين إلى قُسْطَنْطِينَ عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى ، فإنى أحمَدُ اللهَ الذى لاشريك معه ، وَلا وَلَدَ له ، ولا

(١) المحصد : المحكم أيضا . (٢) اهتصره : كسره .
(٣) الفلج ، الفوز والظفر . (٤) أى ناهضين به رافعين له .
(٥) هو قسطنطين السادس، ولى ملك الروم سنة ٧٨٠م (وقد ولى الرشيد الخلافة من سنة ٧٨٦ إلى سنة ٨٩٠ م = سنة ١٧٠ إلى سنة ١٩٣ هـ) .

إله غيرُه ، الذى تعالَى عن شَبَه المحدودين بعظمته ، واحتجبَ دون المخلوقين بعزّته ، فليست الأبصار بمُدْرِكةٍ له ، ولا الأوْهام بواقعةٍ عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشْبهها ، وتعالِياً أن يُشْبهه شيء منها ، وهو الواحد القهّار ، الذى ارتفع عن مَبَالغ صفات القائلين ومذاهب لُغات العالَمِين ، وفِكَر الملائكة المقرّبين ، فليس كمثله شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعدُ ، فإن الله جل ثناؤه ، وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى إليه : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله ، وأفضلِ فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسِّياً ، ولقوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » مُوافِقًا ، وكنتَ - مِن كُتُب اللهِ المنزَّلة ، وآياته المفسّرة ، وخلقِه الكثير - بحيثُ رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لموعظته ، وانتفاعَك بمجادلته انتفاعَ بَشَر كثير وخلقٍ عظيم ، قد بُؤتَ بأوزارهم مع وِزْرك ، واحتملتَ من آثامهم إلى إثمك فأحبَّ أن يدعُوَك ومَن رجا أن ينتفع بدعوته معك ، إلى كَلِمةٍ سَواء بيننا وبينكم ألاَّ نَعبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بَعضُنا بَعضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ، فإن تولَّيتم عن ذلك رغبةً عنه ، أو تركتموه زَهادةً فيه ، فاشهَدوا بأنَّا مُسلِمون ، واستمِعوا ما أمير المؤمنين واصِفٌ لكم ، ومحتجٌّ به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهِدة ، وآذانٍ واعيةٍ ، ثم اتَّبعوا أحسن ماتستمعون ، ولا قوةَ إلا بالله .

فإن الله عزَّ وجل يقول فيما أنزل من كتابه ، واقتصَّ على عباده : « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » إن الله تباركَ اسمُه ، وتعالَى جَدُّه ، وصف فيما أنزل من آياته ، وشَرَحَ من بيِّناته ، الأممَ الماضية ، والقرونَ الخالية ، والمِلَلَ المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله

آلهة أخرى لا برهانَ لهمْ بها ، ولا حُجةَ لهم فيها ، فقال : « يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ » .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة ، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالثُ ثلاثةٍ : بأيَّتِما آيةٍ يا محمد تزعم أن الله إله واحد ! فأنزل الله عز وجل فى ذلك آية تشهدُ لها العقول ، وتؤمن بها القلوبُ ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها ردًّا ، ولا تُطيق لها جَحْدا ، ذَكَرَ فيها اتصالَ خَلْقِه ، واتِّفاق صُنعه ، ليوقِنَ الجاهلون من العرب ، والضالّون من أهل الكتاب ، أنَّ إلٰه السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق واحدٌ لا شريك له ، خالق لا شىء معه ، فقال : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » فَتفكَّرْ فى تفسير هذه الآية من كلام الرَّبّ عز وجل ، وما أوضَحَ فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مُفكر ينظر فيما ذكر اللهُ فيها مما بين السماء والأرض ، إلاَّ رَأى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مِثلَ ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعَرَفَ من اتصال خلْقه فيما بين ذَوائب[1] شُئونِ رأسه ، إلى أطراف أناملِ قَدَمه ، وفى ذلك أوضحُ آيةٍ ، وأبْيَنُ دلالةٍ ، على أن الذى خلقه وصَنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شىء ابتدعه ، ولا على مثالٍ صَنَعه ،

---

(١) الذوائب : جمع ذؤابة بالضم ، وذؤابة كل شىء ، أعلاه : والشئون ، مواصل قبائل الرأس (وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض) .

قد ترَون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عز وجل خَلَق للأنام الأرضَ ، وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يَدْحُوها[1] إلا لهم ، ولا يُديمها إلا معهم . وجعل ذلك الخلق متصلا بالنّبْت ، لايقوم إلا به ، ولا يَصْلُحُ إلا عليه ، وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعاً لكم ، ومعاشاً لأنعامكم متَّصِلا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدَرٍ معلوم لمعاش مقسوم ، فليس ينجُم[2] النبتُ إلا به ، ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحابَ الذى يبسُطُه كيف يشاء ، متصلا بالريح المسَخَّرة فى جوِّ السماء تُثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون كما قال الله عز وجل: « وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ » ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوِّ السماء ، بما يؤثِّر فى خلق الهواء ، من الأزمنة التى لا تثبُت الهَواجر[3] إلا بثَباتها ، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها ، ولولا ذلك لَظَلَّ را كداً بالحَرِّ المُميت ، أو ماثلا[4] بالبَرْد القاتل ، ووصَلَ الأزمنة التى جعلها متصرِّفةً متلوِّنةً بمَسير الشمس والقمر الدائبَيْن لكم ، المختلِفَيْن بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عدد السنينَ إلا به ، ولا مواقعَ الحسابِ إلا مِن قِبَله ، متصلا بِدَوَران الفلَك الذى فيه يَسْبَحان ، وبه يأْفُلان ، ووصَلَ مَسير الفلك بالسماء للناظرين سواء. فهذا خلق الله عز وجل ، مافيه تبايُن ولا تزايُلٌ ولا تفاوت ، كما قال سبحانه وتعالى : « مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ » ولو كان لله شريك أو معه ظَهير[5] عليه ، يُمْسك منه مايُرْسل ، ويرسل منه مايُمسك ، أو يؤخِّر شيئاً من ذلك عن وَقت زمانه أو يعجِّله قبل مجىء إبّانِه ، لتفاوَتَ الخلقُ ، ولَتَبايَنَ الصنع ، ولفَسدت السمٰوات والأرض، ولذهب كل إلٰه بما خلق كما قال عز وجل — وكذَّب المُبطلين — بَلْ أَتيناهُم

---

(١) دحاها يدحوها : بسطها . (٢) نجم كنصر : طلع وظهر .

(٣) الهواجر : جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

(٤) فى الأصل « مايلا » ، أو صوابه « ماثلا » .

(٥) الظهير : المعين .

بالحقّ وَإنَّهُمْ لَكاذِبون. ما اتخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إلهٍ ، إذا لَذَهَبَ كُلُّ إلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفون ».

والعجبُ : كيف يصف مخلوق ربَّه ، أو يجعل معهُ إلهًا غيره ! وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء ، صنْعةً ظاهرةً ، وحكمةً بالغةً ، وتأليفا متَّفقا ، وتدبيراً متصلا ، من السماء والأرض ، لا يقوم بعضُهُ إلا ببعض ، مُتجَليا بين يديه ، ماثِلا نُصْبَ عينيه ، يناديه إلى صانعه ، ويدلُّه على خالقه ، ويشهد له على وحدانيته ، ويَهْديه إلى رُبُوبيتّه « فتعالَى اللهُ عمَّا يُشْرِكُونَ. أيُشْرِكُونَ ما لا يَخلُقُ شيئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » حقا ما كرّر هؤلاء الجاهلون بربهم ، الضالُّون عن أنفسهم ، فى خلق الله النظرَ ، وَلا رَجَعوا ـ كما قال الله عز وجل ـ الفكرَ ، ولو أعملوا فكرهم ، وأجهدوا نظرهم ، فيما تسمع آذانُهم ، وترى أبصارُهم ، من حوادث حالات الخلق ، وعجائبِ طبقات الصُّنع ، لوجدوا فى أقرب مايَرَون بأعينهم : من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثرَ فى التدبير بصُنعهم ، مايدلُّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فإنهم يَرَون فى أنفسهم بأعينهم ، ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنعةً بعد صنعةٍ ، ومحوَّلةٌ طبقةً عن طبقة ، ومنقولة حالا إلى حال : سُلالةً من طين ، ثم نُطْفةً من ماء مَهين[1] ، ثم عَلَقَةً ، ثم مُضْغةً ، ثم عظماً كساه الله عز وجل لحماً ونفخَ فيه رُوحاً فإذا هو خَلْقٌ آخرُ ، فتبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقين ، الذى خلق فى قَرارٍ مَكين ، من ماء قليل ضعيف ذليل ، خَلْقا صوَّره بتخطيط ، وقدَّره بتركيب ، وألَّفه بأجزاء متَّفقة ، وأعضاءٍ متَّصلة ، من قَدَم إلى ساقٍ إلى فخذ إلى ما فوق ذلك ، من مَفاصِلِ ما يُعْلِن ، أو عجائب ما يُبْطِن ، ليعلم الجاهلون ، ويوقن الجاحدون ، أن الذى صنع ذلك وخَلَقه ، ودبَّره وقدَّره ، وهيَّأ ظاهره وباطنه ، إله واحد لاشريك معه ، فلا يذهَبَنَّ ذِكْر هذا صَفْحاً عنكم ، ولا تسقُط حِكمته جهلا به عليكم ، وفكِّروا

---

(١) المهين : الحقير .

فى آيات الرسل وبيِّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكرا للمُبصرين ، وبصرا للمعتبِرين ، وذِكْرَى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتَصٌّ من ذلك إن شاء الله عليكم ، مافيه شهاداتٌ واضحات ، وعلامات بيِّنات ، ومبتدئٌ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم فيما أنزل الله منها فى الوحىْ إليه ، فإنه ماأحدٌ يقرَعُ بآيات النبوَّة قلبَه ، ويحصِّن ببيِّنات الهدى عقلَه ، إلا قادَتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لايجد إلى إنكار ماجاء به من الحق سبيلا ، فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقِّه وما أُنزل إليه من ربه عز وجل ، فأحضِرْ كتابَ أمير المؤمنين فهمَك ، وألقِ إلى ماهو وَاصف إن شاء الله سمعك .

إن الله عز وجل اصطفى الإسلام لنفسه ، واختار له رُسُلا من خلقه ، وابتعث كل رسول بلسان قومه ، ليبيِّن لهم مايتَّقون ، ويعلِّمهم مايجهلون ، من توحيد الرب ، وشرائع الحق « لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً » فلم تزَل رسل الله قائمةً بأمره ، متواليةً على حقه ، فى مَواضى الدهور ، وخَوالى القرون ، وَطَبقات الزمان ، يصدِّق آخِرُهم بنبوَّة أوَّلهم ، ويصدِّق أولهم قولَ آخرِهم ، ومَفاتِحُ دعوتهم واحدة لاتختلف ، ومَجامع مِلَّتهم ملتئِمة لاتفترق ، حتى تناهَتِ الولايةُ والوراثة التى بَنَى عيسى عليه السلام عليها وَبشَّر بها ، إلى النبى الأُمِّىّ الذى انتخبه الله لوحيه ، وَاختاره بعلمه ، فلم يزَل ينقله بالآباء الأخايِر ، والأمَّهات الطواهِر ، أمةً فأمةً ، وقَرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خير أوَانٍ ، وأفضل زمان ، من أثبَتِ محاتِدِ[1] أُرُومات البريَّة أصْلا ، وَأعلى ذَوائب نَبَعاتِ[2] العرب فَرْعا ، وأطيَب

(١) محاتد : جمع محتد كمجلس . وهو الأصل ، والأرومة بالفتح وتضم : الأصل أيضا .

(٢) نبعات : جمع نبعة كوردة ، والنبع شجر يتخذ منه القسى والسهام ، ومعناها هنا الأصول .

مَنابِتِ أعياصٍ[1] قريش مَغرِسا ، وَأرفع ذُرَى مجْدِ بنى هاشم سَمْكا[2] ، محمدٍ صلى الله عليه وسلم خيرِها عند الله وخلقه نفْسا ، على حينَ أوحشتِ الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وَامتلأت الآفاق من عَبدة الأصنام والأوثان ، واشتملتِ البِدَعُ فى الدين ، وَأطبقَتِ الظُلَمُ على الناس أجمعين ، وَصار الحق رَسْماً عافِياً[3] ، خَلَقا بالياً ، ميّتاً وَسْط[4] أموات ، ما إن يُحِسّون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدِّين أثراً يتّبعونه ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله الذى أنزل إليه ، يدعوهم إلى توحيد الرب عز وجل ، ويحذّرهم عقوباتِ الشِّرْك ، ويجادلهم بنور البرهان ، وآياتِ القرآن ، وعلاماتِ الإسلام ، صابراً على الأذى ، محتملاً المكروه ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مُظْهِر دِينِه ، ومُعِزٌّ تمكينه ، وعاصِمُه ومستخلِفُه فى الأرض ، فليس يَثْنيه رَيْب ، ولا يَلْوِيه هَيْب ، ولا يُعَنِّيه أذًى ، حتى إذا قَهرت البينات ألبابَهم ، وبَهرت الآياتُ أبصارهم ، وخصَم نور الحق حُجتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلا إلى دَفْع حقه ، وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عز وجل العليمُ بما يُسِرُّون ، الخابرُ بما يُعْلِنُونَ : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » بغْياً وعداوةً ، وحسدا ولَجاجةً ، افترض الله عليه قتالهم ، وأمرَه أن يجرِّد السيف لهم ، وهم فى عِصابة يسيرة ، وعِدّة قليلة ، مستضعَفِين مستَذَلّين ، يخافون أن يتخطَّفهم العرب ، وتدَاعَى عليهم الأممُ ، وتَستَحمِلهُم[5] الحروبُ ، فآواهم فى كَنَفه ، وأيّدهم بنصره ، وأنذرهم بمَقْدَمة من

---

(١) الأعياص : جمع عيص بالكسر ، وهو الأصل ، ومنبت خيار الشجر .

(٢) سمكه سمكا : رفعه ، والسمك أيضا ، السقف .

(٣) أى ممحوا دارسا .

(٤) جاء فى كتب اللغة : « تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف ، وجلست فى وسط الدار بالتحريك لأنه اسم ، و كل موضع يصلح فيه بين فهو وسط بالتسكين ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن ، وليس بالوجه » .

(٥) استحمله نفسه : حمله حوائجه وأموره .

الرعب ، ومَشْغَلة من الحق ، وجنود من الملائـكة ، حتى هزم كثيراً من المشركين بقِلَّتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازاً لوعده ، وتصديقاً لقوله : « وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » فأَحْسِنِ النظرَ وقلّب الفكر فى حالات النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى قائما لله ، لِتَجِدَ لِمذاهب فكرك ، وتصاريفِ نظرك ، مضطرَباً واسعاً ، ومعتَمَداً نافعاً ، وشُعوباً جمة ، كلها خيرٌ يدعوك إلى نفسه ، وبيانٌ يكشف لك عن مَحْضه ، وأخبِر أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لو لم تـكن البعثة للنبىِّ صلى الله عليه وسلم بلَغَتْك ، ولم تـكن الأنباء بأموره تقرَّرتْ قِبَلك ، ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نَجَمَ بين ظَهْرَانَىْ[1] مثل هذه الضلالات المستأصِلة ، والجماعات المستأسِدة[2] ، التى ذكَرَ أميرُ المؤمنين ، من قبائل العرب ، وجَماهير الأمم ، وصَنَادِيد الملوك ، ناجمٌ قد نَصَب لها ، وغَرِىَ[3] بها ، يجهِّل أحلامَها[4] ، ويكفِّر أسلافها ، ويفرِّق أُلَّافها ، ويلعن آباءها ، ويضلِّل أديانها ، وينادى بشِهاب[5] الحق بينها ، ويَجهَر بكلمة الإخلاص إلى مَنْ تراخَى عنها ، حتى حَمِيتِ العرب ، وأنِفَت العجَم ، وغضِبَت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه إليه ، وحيداً فريداً لا يَحفِل بهم غَضَباً ، ولا يَرهَب عَنَتاً[6] ، يقول الله عزَّ وجل: « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » أكنتَ تقول فيما تَجْرى الأقاويل به ، وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهَل ما يفعل ، ويعمَى عما يقول ، وقد دعا الحتفَ[7] إلى نفسه ،

---

(١) يقال : هو بين ظهريهم وظهرانيهم — ولا تكسر النون — وبين أظهرهم : أى وسطهم .

(٢) أى القوية .

(٣) يقال : غرى به كفرح وأغرى به وغرى مبنيين للمجهول : أى أولع .

(٤) الأحلام : جمع حلم بالكسر ، وهو العقل .

(٥) الشهاب : شعلة من نار ساطعة .

(٦) العنت : دخول المشقة على الإنسان . (٧) الحتف : الهلاك .

وأذِن الله لقومه فى قتله ، فليست الأيام بمادَّةٍ له ، ولا الحالُ بثابتةٍ له ، إلّا رَيْثما تستلحِمه[١] أسبابُهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضباً لربهم ، وأَنَفةً لدينهم ، وحَمِيّة لأصنامِهم ، وحسداً من عند أنفسهم . وإما صادق بَصِير بموضع قَدَمه ، ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفَّل الله عز وجل بحفظه ، وصَحِبَه بعِزِّه ، وجعله فى حِرْزه ، وعَصَمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة ـ مع صُحْبة الله ـ إليه، ولا الهَيْبَةُ بداخلة ـ مع عصمة الله ـ عليه، ولا سيوف الأعداء بمأذونٍ لها فيه ، ثم ما رأيُكم[٢] يا أهل الكتابِ لو قيل لكم : إن الرجل الذى يدعى العِصْمة ، وينتحِل المَنَعة ، قد نَجحَت الأمورُ به على ما قال ، وسَلِمَت الحال له فيما ادّعى ، حتى نَصَب لِعِمَارات[٣] العرب ، وجماعات الأمم يقاتل بمن طاوعه مَن خالفه، وبمن تابَعَه مَن عانده ،جادًّا مُشمِّرا،محتسبا واثقا بموعود الله ونَصْره ، لا تأخذه لَوْمَةُ لائم فى ربِّه ، ولا يوجد لديه غَمِيزة[٤] فى دينه ، ولا يَلْفِته خِذْلانُ خاذلٍ عن حقه ، حتى أعزّ الله دينَه ، وأظهر تمكينَه ، وانقادت الأهواء له ، واجتمعت الفِرَق عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقَّه يقينا عندكم ، ودعوتَه ثبوتا فيكم ، حتى تقول الجماعة من حُلَمائكم ، وأهلُ الحُنكة من ذوى آرائكم : ما كان الرجل ـ إذ كان وحيدا فريدا قليلا ، ضعيفا ذليلا ، معروفا بالعقل ، منسوبا إلى الفضل ـ ليجترئَ أن يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعْصِمه من العرب جميعا ، ويمنعه من الأمم طُرًّا[٥] ، حتى يبلِّغ رسالاتِ ربه ، ويُظْهِرَه على الدين كُله ، ويَدْخُل الناس أفواجاً فى دينه ، إلا وهو على ثقةٍ من أمره ، وَيقين من حاله .

فسبحانَ اللهِ يا أهل الكتاب ! ما أبيَنَ حقَّ النبى صلى الله عليه وسلم لمن طَلَبه ، وأسهلَه لمن قَصَد له ؛ واستعمِلوا فى طلبه ألبابَكم ، وارفعوا [إليه[٦]] أبصاركم ،

---

(١) استلحم (مبنيا للمجهول) إذا نشب فى الحرب فلم يجد مخلصا .
(٢) فى الأصل « ثم إن آيتكم » وهو تحريف لا يستقيم عليه المعنى ، وقد أصلحته كما ترى .
(٣) العمارة بالفتح والكسر : الحى العظيم . (٤) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن .
(٥) أى جميعا . (٦) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

تنظروا بعون الله إليه ، وتقفوا إن شاء الله عليه ، فإن علاماتِ نبوّته ، وآياتِ رسالته ، ظاهرة لا تَخفَى على من طلبها ، جَمّةٌ لا يُحْصَى عددها ، منها خواصُّ تعرفها العرب ، وعوامٌّ لا تَدْفَعها الأمم ، فأما الخواصُّ المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا ، التى أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقَبِلها الأتباعُ عن الأسلاف ، فأمور قد كثُرت البيِّناتُ فيها ، وتداوَلَت الشَّهادات عليها ، وثبتَتِ الحججُ بها ، وتراخَت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِياناً ، وقبلناه إيقاناً ، فهى أظهر فينا من الشمس ، وأبيَنُ لدينا من النهار ، ولكن غيَّبَت الأزمان عنكم أمرَها ، ولم ينقل الآباء إليكم عِلمَها ، وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجةِ عن العقل ، فليس أمير المؤمنين بمُحَاجٍّ لكم ، ولا قاصدٍ إليكم من قِبَلها .
وأما الآيات العوامُّ والدّلالاتُ الظاهرة فى آفاق الأرَضِين ، القاطعةُ لحُجَجِ المُبطلين ، التى لا تُنكِر عقولُ الأمم وجوبَ حقها ، وَلا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها ، فسيوُجِها أميرُ المؤمنين مسالكَ أسماعكم ، ويُعيد بها حُجَّةَ الله فى أعناقكم ، من وجوه جَمّة وأبواب كثيرة إن شاء الله ، منها : أنه لم تزل الشياطين فيما خلا من فَتَرَات الرسل ، وَنَدَرَات[1] النُّذُر ، تصعَد إلى سماء الدنيا ، وتُنْصِت لِلمَلإِ الأعلى ، فتستَرِق السَّمع ، وتحتفظ العلمَ ، وتنزل به إلى كل أفّاك[2] أثيم ، يَبْنون أكاذيبهم على واضِح صدقه ، وَيُنَفِّقون[3] أباطيلهم بحسب حقه ، خلطا للباطل فيه ، وسوها[4] للعباد عليه ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل آياتِ القرآن إليه ، حُرِست السماء بالنجوم ، ورُميت الشياطين بالشُّهُب ، وانقطعت الأباطيلُ ، واضمحلتِ الأكاذيب ، وخَلَص الوحيُ فبطلَتِ الكهّان ، وضَلّت السُّحّار ، وكذَبت الأحلام ، وتحيّرت الشياطين ، فكانت آيةً بيِّنة ، وعلامةً واضحة ، وحجّة بالغةً ، تَبهَر قرائحَ العقول ، وتخرق

(١) أى فترات أيضا ، يقال : لقيته ندرة وفى الندرة : أى بين الأيام .
(٢) الأفاك : الكذاب .
(٣) ينفقون : أى يروجون ، مضعف من نفق البيع : أى راج .
(٤) كذا فى الأصل .

حُجُب الغيوب ، فلا يقوم مع ضيائها ظُلمة ، ولا يثبت عند مُحكَمِها شبهةٌ ، ولا يُقيم معها فى محمد صلى الله عليه وسلم شكٌّ ، لا من أصحابه خاصَّةً ، ولا ممَّن جاء بعده عامَّةً ، وإنما جعلها الله عز وجل آية باقيةً فى الغابرين ، وحِراسَةً ثابتةً من الشياطين ، لأن الله جلَّ وَعلا جعل نبيَّنا صلى الله عليه وسلم آخِرَ النبيين ، فليس باعثا بعده نبيا يكذِّب أقاويلَ الكَهَنة ، ويقطع أخابير[1] الجِنَّة .

وستقول ـ فيما يذهبُ إليه الظنُّ ، ويقع عليه الرأىُ ـ أنت وَمَن عَقَل من أمتك وأهل ملتك : هذه آيةٌ حاسمة ، وحجة قاطعة بَيِّنَةٌ قائمة ، مستعلية لأمرها ، مستغنية بنفسها لاتحتاج إلى ما قَبلها ، ولا يُتَّكَل على ما بعدها ، إن أقرَّت العقول بما تقول ، أو قامت البينة على ما تدَّعى ، بَلَى ، ثم تقول : وأنَّى لك بالبَيِّنة ؟ ولسنا نُقِرُّ بكتابك ، ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولك فيما قد سبَقَنا وإياك زمانُه ، وحَجَبَتِ الغُيوبُ عنا وعنك عِلمَه ، فأرجِعُ إليكم إن قلتم ذلك ، فإن وِجْدانَ القُضاة قبل طلب البَيِّنات .

وليس يجعل أميرُ المؤمنين فيما ينازعك ويُحاجُّك فيه حا كما غيرَ عقلك ، ولا قاضياً سوى نفسك ، ولكنه يذكِّرك اللهَ الذى إليه مَعادُك ، وعليه حِسابُك ، لمَّا[2] جعلتَ التفهُّم لمسألته من بالك ، وركِبْتَ حدودها فى جوابك ، عادلًا بالقِسْط ، قاضياً بالحق ، قائلا بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالأَثَرة لدينك ، فلقد وفق الله لك آيةً ، وأهدَى إليك بيِّنةً ، لاتستطيع دَفْعَها لحجْبها عن عقلك ، ولا حِجابا لنورها دون بصرك ، فلا تدفَع الآية بقولك ، والبيّنة بلسانك ، جَحْدًا يقطع وصول الحجج إليك ، ولا تُغْلِق[3] أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مُداوَلٌ حيثُ شئت ، ومنقادٌ تصرُّفه فيما هَوِيت ، ولكن أنصِبْ نفسك للفهم وأنت شهيد ، وأرِدِ الحق وقبولَه فيما تُريد ،

---

(١) أخابير : جمع الجمع الخبر .

(٢) أى إلا . (٣) فى الأصل « ويد تغلق » وهو تحريف .

فإذا تصوَّرْتَ البيِّنات مجسَّدةً فى قلبك ، وتبيَّنْتَ الحجج مُمَثَّلَةً لنظرك، قد أضاء صوابُها لك ، وقَرَع حقُّها قلبَك ، فاجعل القول بها شِعارًا لِلِّسان به متصلا ، وافهَم المسألةَ ، فهَّمَكَ اللهُ الحقَّ ، وجنَّبك الجحْدَ ، ما تقول أنت ومَن قِبَلَك فى رجل كان يتيما ضعيفاً أجيراً ساهياً لاهياً عائلاً[1] خاملا ، لم يَتْلُ كتابا ، ولم يتعلم خطًّا ، ولم يَكُ فى مَحَلَّة علم ، ولا إرْثِ ملك ، ولا معدِنِ أدَب ، ولا بيتِ نبوّة ، فتراقَتِ الأيام به ، واتصلت الحال بأمره ، حتى خرج إلى العرب عامَّةً ، والقبائل كافَّةً ، وحيداً طريداً شريداً ، مخذولا مجهولا ، مجفُوّا مَرْمِيًّا بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا إلى الهَجْر لأديانهم ، وهم مُجْمِعون على دَعْوة العَصَبيّة ، وحَمِيَّة الجاهلية ، مُتعادُون متباغُون ، مختلفةٌ أهواؤهم ، مُتفرِّقةٌ أمْلاؤهم[2] ، يتسافكون الدماء ، ويتناوحون[3] النساء ، ويستحِلُّونَ الْحرَم ، لا تَمنَعُهم أُلفةٌ ، ولا تَعصِمهم دعوة ، ولا يحجِزهم بِرّ ، فألَّف قلوبَها ، وجمع شَتِيتَها ، حتى تناصرتِ القلوب ، وتواصلت النفوس ، وترافَدَتِ[4] الأيدى ، ثم اجتمعت الكلمة ، واتفقت الأفئدة ، حتى صار غايةً لِمُلْتَقى رِحالهم ، ونهايةً لمُنْتَجَع أسفارهم ، وصاروا له حِزباً متفقين ، وجنداً مطيعين ، بلا دُنْيا بَسَطَها لهم ، ولا أموالٍ أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا مُلْكٍ سَلَفَ لآبائه فيهم ، ولا نباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم ، أتقولُ : إنه ما قال ذلك كله إلا بوحى عظيم ، وتنزيل كريم ، وحكمة بالغة ؟ فإن قلت ذلك فقد أقررتَ أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول ، وتركت ما كنت تقول إنه لم يُدْرِكه ولم يَبْلُغه إلا بعقل سديد ، وَنظَرٍ بعيد ، ورفق لطيف ، وَرأىٍ وَثيق ، استَبَى به عقولَ الرجال ، واستمال عليه أفئدةَ العوامّ ، فإن قلتم ذلك ، فأنا سائلكم بإلهكم الذى تعبدون ،

(١) عائلا : فقيرا .

(٢) الأملاء : جمع ملأ كسبب ، وهو الجماعة .

(٣) تناوح النساء : أن يقابل بعضهن بعضا إذا نحن ، وكذا تناوح الرياح : إذا تقابلت فى المهب لأن بعضها يناوح بعضا . (٤) ترافدت : تعاونت .

ودينكم الذى تنتحلون ، لمَّا صدقتم أنفسكم ، وتجنَّبتم الهوَى عنكم : أتؤمِنُ قلوبكم ، وتُقِرُّ عقولكم ، ويحتمل نظركم أن محمداً صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورِفقِ التدبير ، كان يقول لِرِجالاتِ العرب ، وجماعات الأمم ، ودُهاةِ قريش : إن من آياتِ نبوَّتى ، ودلالاتِ رسالتى ، وعلامات زمانى ، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء ، ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلَا ، ثم يجعل ذلك كتابا يُقرَأُ ، وقرآنا يُتْلَى ؛ وهو كاذب فيما تلا ، ومُبْطِل فيما ادّعى ، إبطالًا تُدْرِكه عيون الناظرين ، وكذباً يظهر لجميع العالمين ، فسبحان الله ! أرأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادَّعى من الآثمين ، ثم حاول إبعادَ القلوب ، وإنغالَ[1] الصدور ، وإنفارَ النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يَزيد على ذلك ؟ .

فيا أَهْلَ الكتاب ، لا يَحْمِلنَّكُمُ الإلفُ لدينكم على اللَّعب بتوحيدكم ، فلَعَمْرُ الله لئن تداركتم أنفسكم ، وناصحتم نظركم ، لَتعلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لو حاول الكذب ، أو رام الإفك ، لَما كان يترك جميع الأرض ، وما يَغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصِد للسماء المتصلة بالبَصر ، البارزة للنظر ، التى لا تَخْفَى على بَشَر ، ولا تَغيب عن أحد ، فيدَّعى فيها كَذِبا ظاهرا ، وإفكاً بارزا مكشوفا ، لا يبقَى صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى ، إلا عرَف أنه إفك وزُور ، وكذب وغُرور ، ولا سيَّما إذا كان يُلقى ذلك إلى أقوام أكثرُهم أعرابٌ ، ليس بينهم وبين السماءِ حِجابٌ ، إنما يراعُون الكواكب ، ويتفقَّدون الغيوم ، فأبعَدُ عَهدِ آخِرِهم بها تفقُّدُه لها ، ونظرُه إليها ساعةً أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين ، لَعَمْرُ الله لو عَثَرَتِ العرب من أمر النبى صلى الله عليه وسلم على كذب ، لكان أولَ من يُوَاثبه به ويجادله فيه ، أعداؤه من قريش عامَّةً ، وحُسَّادُه من جيرته خاصَّةً ، ونظراؤه من أهل

---

(١) الإنغال : الإفساد . وأصله من نغل الأديم كفرح : إذا فسد فى الدباغ . وأنغله : أفسده .

بيته دِنْيةً[1] الذين كانوا يستغِرُّونه[2] بكل طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث ، فيتعلَّقون بالحروف المُشْكِلة ، والآيات المشتَبِهة ، جَدَلاً وخصومة بها ، وطَعْنا وإلحادا ومنازعةً فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم ، وأخبر عن ذلك من أمرهم ، فقال عز وجل : « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ[3] » وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحدٍ أن يقوله على الله فى أمرهم ، إلا عن خصومة شديدة ، ومنازَعة بليغة ، ومجادلة معروفة فأحسِن النظرَ لنفسك ، ولا تهلِكَنَّ شفقةً على ملكك ، فَأَيمُ الله لئن قلت : إن النجوم شىء كانت العرب تراه بعيونها ، وتعرِفه بقلوبها ، فما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو عارف بها غيرُ جاهل لها ، لِيقولَ فيها إلا حقًّا ، ويَنتحِلَ فيها إلا صِدقا ، لقد ثبَّتَّ فروعَ كلامك فيها على أُسِّه ، ووصلتَ آخِرَ قولك له بأوله ، ثبوتا على ما ذكرت من عَقْده ، ولزوما لما فرَّطتَ من نظاره ، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته ، ولا مَذْهَبا عن الإيمان بنبوَّته .

ولئن زعمت أنه ادَّعى أمر النجوم كَذِبا ، وانتحلها باطلا ، عارفا كان بها أم جاهلا ، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعمى عن بصره إلى ما يخطئُ فيه بشرٌ ، فأكذبْتَ نفسك ، وتركت قولك ، إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب ، والجمعُ لشَتِيت القبائل ، إلا برأى سديد ، وعقل أصيل ، ورِفْق بالغ ، إلى أحد أمرين ، لا تجد لكلامك وَجْهاً تذهب إليه غيرهما ، ولا مَحْملا تضعه عليه سواهما : إما أن تقول : إنه ألَّف قلوبَ العرب ، وفرَّق جموع الأمم ، بتنزيل الوحى ، فتؤمِنَ أنه نبىٌّ ، وإما أن تقول : فَعَل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يُقْبل ، كيف يَصِفه أحد من الجاحدين به

---

(١) يقال : هو ابن عمى دنية بالكسر ودنيا بالكسر والضم : أى لحاً .

(٢) فى الأصل « يستعيرونه بكل طريق » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى ، واستغر فلانا : أتاه على غفلة ، والمراد : يتعرضون له بكل طريق ويؤذونه على غرة .

(٣) الخصم : المجادل .

المكذبين له بغَباوة ، أو يرمُونه بجهالة ، وهم يجُوزُون به حدودَ الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطَّون به مراتبَ الحكماء ومنازل الناس ، تكثيرا لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدرُ الخلق عليه ، ولا تهتدى الألسن إليه ، حتى لقد نحَلوه[1] فعلَ الرَّبِّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة ، وأنحاء جمة .

من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغيُوب قبل ظهورها ، ويصف الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز ما يكون فى زمانه من ذلك إلى ما يكون فى زماننا ، غيْباً أطلعه الله عزّ وجل عليه ، أضافوا ذلك علما إليه ، فقالوا : كان أعلمَ الناس بمواقعِ النجوم ، وأبصرَهم بمنازل البُرُوج ، وأنظرَهم فى دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحِجاز دار نجوم ، ولا محلّ حساب ، ولا معدِن أدب ، بل كيف والمنجِّم يَقيسُ ويُخْطِئُ ، ويشُكّ فيما يدّعى ، وهو أخو صواب لا شكّ فيه ، وفارسُ صدق لا قياسَ معه .

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم عليما بباطن أخبار النبيين ، وخَفِىِّ قِصَصِ القُرون الأوَّلين ، قالوا : كان أحْيَا الناس قلباً ، وأوسَعَهم سِرْبا[2] ، وأسرَعَهم أخذاً ، يتتبَّع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعُلِّمه ، سبحان الله ! أَوَلا يعلمون أن المتعلِّم معروفُ المعلِّم ، متفاوِتُ الحالاتِ ، متنقِّلُ الطَّبقات ؟ وأنه ما أحدٌ يؤدَّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درجاتٌ فى علمه ، وتاراتٌ فى أخذه ، ومنازلُ فى تعلُّمه ، تارةً تلميذ ، وتارة مقارِبٌ ، وأخرى حاذِق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهِرٌ لجِيرَته ، مستفيضٌ فى عشيرته ، لا يُجْهَل أمره ، ولا يَخْفَى ذكره ، ولا يُنسَى عند مواضع الحاجة إليه ، وتاراتِ الاحتجاج به عليه ، ولو كان ذلك معروفا فيهم ، أو موجودا لديهم ، أو ظاهرا عندهم ،

---

(١) نحلوه : أى نسبوا إليه .   (٢) السرب : البال ، والقلب والنفس .

لَمَّا أمَرَه الله عزّ وجل أن يَحْتَجَّ عليهم ، ويقول فى ذلك لهم : لقد لبِثْتُ فيكم عُمُرًا من قبله ، لا أتلو قرآنا ، ولا أدّعى وحياً ، أفلا تعقلون !

وأيمُ اللهِ لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لَعَلِموا أن معلِّمَه على غير المِلَّة التى يعرِفون لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكُر فضائحَ قولهم ، ومعايبَ أمرهم ، ومخازِىَ أسلافهم ، وعوائِرَ[1] أديانهم ، وأنه لو كان معلِّمه نصرانيا لدعاه إلى النَّصرانية أو يهوديا لدعاه إلى اليهودية ، أو مَجُوسِيًا لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلِّمٌ لَمَا وقع على الحقيقة ، هدايةً من تِلقاء نفسه ، ومعرِفةً بقوة عقله ؛ ولو كان معلِّمه الشيطان لَمَا دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمَرَه بهَجْر الأوثان ، وكَسْر الأصنام ، وصِلَة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض ، كيف وكان الشيطان يصُدُّ الناس عن سبيله ، ويُزَهِّدهم فى دينه وينهاهم عن طاعته ، ويُخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخِطه ، ويحملهم على مَعاصيه ؟ إنه إذنْ لرحيم بهم ، ناظر لهم ، شفيق عليهم ، كأنه هو المبعوث إليهم ، كلا ، ما كان ليُنقِذهم من حبائله ، ويخلِّصهم من مَصايده ، ويُخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعَه وفِتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره ، وما كان ليَنْهَى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤذوا ذريتهم ، ولا ليقول لهم : لم تعبدُون نَحِيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عارًا ، وتذَرُون عبادة الربِّ الذى خلقكم أطْوارا ! هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صِراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكِره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحِشُ منه النفوسُ ، ألا تسمعون إلى قول الله عزّ وجل : « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فى الأرْضِ وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهم » فما كان الشيطان لِيَرْضَى للعرب باللَّعْنَةِ وَالبَكَمَ ، والعَمَى والصَّمَم ، فاتَّقِ الله ولا تكن من الجاحدين .

---

(١) أراد بها مثالبها ومخازيها ، وفى كتب اللغة : العوراء : الفعلة القبيحة (غير أن فعلاء لايجمع على فواعل) وفيها : العوائر جمع عائر ، والعائر من السهام والحجارة : الذى لايدرى من رماه . أصابه سهم عائر فقتله : أى لايدرى من رماه .

ومنها : أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد صلى الله عليه وسلم بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَوْنَق كَحَباب[1] الماء ، وزِبْرِج[2] يعلو ولا يُعْلَى ، وعجائبُ لا تَبلى ولا تَفْنى ، وجِدّة لا تتغير ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم أبلغهم قولا ، وأحسنهم وصفا ، فيا سبحان الله ! ألاَ يعلمون أن لو كان القرآن كلاما للعباد ، لَمَا أقرّت الأعداء من [العرب[3]] بفضله ، ولا عَجَزت القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهم فى الكتاب ، ويتحدّاهم فى الوحى ، بصوتٍ رفيع ، ونداء سميع ، فيقول : « هاتُوا بُرْهَانَكم إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » وهم فُرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطَب ، وأهلُ عداوة له وَبَغْيٍ عليهِ ، فتَسْتَحْسِر[4] الأبصارُ ، وتثقُل الأسماعُ ، وتنعقِد الألسُنُ ، وتخْرَس الخطباء ، وتَعْجِزُ البلغاءُ ، وتحارُ الشعراء ، وتستسلِم الكُهّان ، ثم لقد قايستِ البُصراء بالكلام والعلماء بالمنطق بين ما بأيدينا من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وما جاءَ به من كلام الوحْى ، فإذا بينهما بَوْن[5] بعيد ، وتفاوُتٌ شديد ، ليس بشبهٍ له ولا مُدانٍ ولا قريب ، وكذلك ينبغى لكلام الرب عز وجل أن يعلوَ كلام الخلق ، وألاّ يُشْبه قولَ العباد فى تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ؛ لأن الله عز وجل لا يُشْبهه شىء من ذلك ، إنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُرِى ماضِىَ أسلافنا ، وصُلّح آبائنا ، من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، ماهو جديد عندنا ، بيِّن قِبَلنا ، فلم يَعْفُ أثرُه ، ولم يَدْرُس خبره ، ولم يتقادَمْ عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلَتْ ، ثم أمرَها فرجَعتْ ، ومن نحو بعير تظلَّم ، وذئب تكلَّم ، وأشباه لذلك كثيرة ، ونظائرَ له عجيبة ، قالوا : كان محمد صلى الله عليه وسلم كاهناً حاذقا ، وساحرًا ماهرًا ، يشبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار ،

---

(١) حباب الماء : فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير .

(٢) الزبرج : الزينة من وشى أو جوهر .

(٣) فى الأصل بياض محل هذه الكلمة .

(٤) استحسر : أعيا . (٥) البون : الفضل والمزية .

كيف والجوعُ الكثيرة تَصْدُر عن الأطعمة اليسيرة ، والمياه القليلة شِبَاعاً رِوَاءً أيكون ذلك والسحر سواءً ؟ والأخذ بالعيون لايجرى فى البطون ، ولو كانوا ينظرون لدينهم ويُنْصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد صلى الله عليه وسلم آثارا قائمة ، ومنافع دائمة ، ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لَبَطَلَتْ آيات الكتب ، وعلامات الرسل ، ولعَلَتِ الشُّبهةُ ، وسقَطت الحجةُ ، وكَذَبتِ النبوة ، ولَبطَل ما كان يفعله عيسى عليه السلام : من إبرائِه الأكْمَهَ (١) والأبْرَصَ وإحيائِه الموتى ، فلا يكونَنّ التقليدُ للرجال مبلغَ عِلمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك أنه إذا قالت البُصَراء من أمتنا والعلماء بملَّتنا : كان النبى صلى الله عليه وسلم أمِّيا لا يُحْسِن الكتاب ، وحافظا لاينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقلُ السديد والحفظُ السريع والنسيانُ البطىء ، قالوا : كان أخطَّ الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرُس بالليل .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون ، والأمر كما يصفون ، لما خَفيتِ الصُّحُف له ، ولا اكتُتِمت الدراسةُ عليه ، ولَمَا كان يُطيق سَتْرَها عن أهله ، ولا حجابَها دون قومه ، وكيف تؤمن القلوب ، وتقِرّ العقول ، أن رجلا كبيرا حَمَل عِلْما كثيرا ، وحِكَما جَمَّاء : من آياتٍ متشابهة ، وسُوَر متوالية ، وهو صاحب أسْفار مترامية(٢) ، وأخو حَرْب دائمة ، لا يُبْطئ لفظه ، ولا يسقُط حفظه ؛ لولا(٣) أن الله عز وجل كفاه أن يُحَرِّك به لسانَه ، وضَمِن له جمْعَه وقرآنه ، فقال عز وجل : « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » فلم يكن يُسقط واوا ولا ألفا ، ولا ينسَى كلمة ولا حَرْفا ، ما أبْينَ هذا وأعجبه ! وأعجب منه المنكِرُ له !

---

(١) من ولد أعمى . (٢) فى الأصل « متراخية » .
(٣) فى الأصل « ولا يسقط حقه ، ولولا أن الله » .

وأما قولهم فى الخطِّ وإكثارُهم فى الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أُمِّيًّا ليُثْبت حُجَّتَه ، ويصدّق مقالته ، ولِئلا يشُكَّ المُبْطلون فى أمره ، ويقولون : تعلَّمَه من غيره . فإنه قد قال ذلك بطائنُ من مُنافقة العرب ، وطوائفُ من كفَرَة العجم ، فنطقَتْ به الأعداء من جِيرته ، والحَسَدة من عشيرته ، الذين بلغوا [ما بلغوا[١]] من مُجادلة حقه، ومخاصَمة ربه ، كفُاةً لمن قرُب ، ووكلاءَ لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأمم مهتديةً إليه ، لأنهم[٢] قد أحاطوا من عِلْم خَبَره وخفِىِّ أثره ، بما كان عن غيرهم محتجِبا ، ومن سواهم مكتَتِمًا ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر ، أو يختلف إلى أحد ، لما خفِىَ عنا ، ولسَقَط علينا[٣] ، وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلِف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبيرا ، لعَرَف ذلك أترابُه المختلِفون معهُ ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك مَن حوله مِن جِيرته نُصرة ، ولا من معه من أهل بيته دِنيةً ، الذين عليهم يُورِد ومِن قِبَلهم يُصْدِر ، ولكان شائعا عند حَشَم معلِّمه وجيرةِ موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدَّب بين ظهرْانَيْهم ، ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكِّين ، ثم بَلَغهم وتقرَّر قِبَلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » لخاصَمه منهم من كفر ، ولكفَر به منهم من آمن ، ثم يدّعِى ذلك قرآنا ، وينتحِلُه وحيا . أمَا كان يَرْهَبُ أن ينتشِر فى الأقربين ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطُلَ حجتُه ، وتنتقِضَ دعوتُه ، وتسقط نبوتُه ، وينفِرَ أصحابه الذين لم يصبروا[٤] معه فى المجاهدة أنفسَهم ، ويبذلوا عند الشدائد مُهَجَهم ، وينفِقوا فيه — على الحاجة — أموالهم ، مُناصِبين[٥] لأهل الشرق والغرب والعَجَم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون عائِلون جائعون ، لا طَلَباً لدنيا ، ولا طمعا فى مَنال ، إلا لِما

---

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) فى الأصل « إلا أنهم » .

(٣) فى الأصل « ولا سقط » .

(٤) صبر نفسه : حبسها . (٥) أى معادين .

تَعقَّبوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه ، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يُغلَب كسرى وقيصرُ لهم ، فصدَّقوا بقوله وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر ، وصَرُمت[١] العزائم وقوِيَت النيات ، فنَشِطت النفوس ، وشَجُعت القلوب ، وحُمِّلت الأبدان ، لَما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْل[٢] إليه ، فكن من ذلك على يقين لا يخلِجُه[٣] شك ، ومعرفةٍ لا يخلِطها ريب إن شاء الله .

ومن ذلك : أنه إذا قال المسلمون : مامن فَعال محمود ، ولا مقال معروف ، ولا خُلُقٍ كريم ، ولا أدب فاضلٍ ، إلا وقد أدَّب الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله فى الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحُضُّ على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخَل لشُبهةِ طاعنٍ ، ولا مَعْلَق لحُجَّة قائل ، ولا مَغْمَز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخُصُومة بشر ، فى وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور ، قالوا : أمورٌ حَمَلَ عليها نفسَه ، ودعاه إليها عقلُه ، وصَبَرَ عليها ، لِما أمَّل ورجا فيها ، سبحانَ الله ! وما أمَّل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدبارُه عنها ، حيث أمكنَتْه القدرةُ منها ، وأعثَرَته الحال عليها ، وإن قالوا : حبّ الأثَرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أُسْوةً : فى سِهامهم[٤] وقِصاصِهم[٥] ، وحدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم ، وإن قالوا المُلك ، فلقد كان أشدَّ الناس لربه تواضعا ، وأعظمَهم فى جنبه تصاغُرًا ، ما إنْ أكل متّكِئاً قطُّ إلا مرَّةً ، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادم عليها ، فقال : « اللّهُمَّ إنِّى عبْدُكَ وَرَسُولُكَ » ، وإن قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَسَ منه مَعاشاً ، وأخْشنَ رِياشاً[٦] ، وأغلظَ مأْكلاً ؟ وكيف

---

(١) عزيمة صارمة : أى ماضية .

(٢) وهل إلى الشىء يوهل بفتحهما ويهل بالكسر وهلا بالسكون : ذهب وهمه إليه .

(٣) خلجه كضربه : حركه وجذبه وانتزعه .

(٤) جمع سهم بالفتح : وهو الحظ والنصيب .

(٥) وفى الحديث « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٦) أى لباسا ، وأصل الرياش : اللباس الفاخر .

يذوقُ العيشَ ، أو يجد لذيذ النعيم ، مَن حرَّم السُّكرَ والخمر ، ونهى عن الدِّيباج والقزّ وكان أكثرَ دهرِه صائما ، وأطولَ ليلِه قائما ؟ فإن قالوا : طلب الصَّوْتَ[١] ورَغِب فى الدين ، فذلك مالم يطلبه أحدٌ فى حب الصوت ، والتماس الحمد ، لِما صَبَرَ على مَغاضِب قومه ، ومَلاوِم أهله ، وشتائم العرب ، وتوعُّد العَجَم ، واستهزاء قريش : يرمونه بالعُقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويَبْهَتونه[٢] بالسحر ، وليس يدرى مايَهْجُم[٣] به الأمرُ .

أم يقولون : طلَبَ تأثيلَ[٤] الملكِ لقومه ، وأراد توطئةَ الولاية لأقاربه ، فكيف يطلب لقومه ما قد زَهِد فيه لنفسه ؟ أم كَيف يطلب لهم عِزّ الملك ، وقد أوطأهم الذُّلَّ ثم القتلَ ؟ لعمرُ الله أنْ لو أراد المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لِذوى رَحِمه ، لَوَكَّد لهم عَقْدًا لايُحَلّ ، ولأَبْرَمَ لهم أمرا لايُنْقَض ، ولَأَثَّل لهم فى عُنْفوان[٥] أمره ملكا لايخرج من أيديهم ، ولا يَبرح[٦] أبداً فيهم ، امتثالا لصَنِيعكم ، واحتذاء على مِثالكم ، مع أقاويلَ جمة ، ونظائرَ كثيرة ، لايستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم غلب العرب وقَهَر العجم ، أو قال فى أمر السلطان والنجوم بِكَذب .

فإن قلتم : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان فى قوة عقله ، وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم ، وصَدَّقْنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَتِ العلماء ، وزلّت الحكماء ، وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أنَّ خطأ قلوب العلماء كخطأ دائرة الرَّحَى : ليست العلماء بمُخْطِئة إلا المرةَ والثنتين ، كما لا تُخطِئُ الرحى إلا الحَبّةَ والحبتين ، ومِثلُ الذى نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم ،

---

(١) الصوت والصيت : الذكر الحسن .
(٢) بهته كمنعه : قال عليه مالم يفعل .
(٣) أى ماينجلى عنه الأمر ، من نجاح وفوز ، أو خذلان وفشل .
(٤) أى تأصيله وتعظيمه . (٥) أى فى أوله وحداثته .
(٦) فى الأصل « ولا ينوح » وهو تحريف .

والجهلِ فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحْصِيه أحد ، ولا يَبْلُغه عددٌ ، وأمير المؤمنين واصِفٌ بعْضه لـكم ، ومُورِدٌ ما حَضَرَ كتابَه إن شاء الله لـكم ، وايمُ الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين : هَبُوا محمداً صلى الله عليه وسلم كان فى أمر النجوم من المخطئين ، فـكيف أخطأتِ العرب ، وهَفَتِ الأمم فى تَرْكِ مجادلته ، ورَفْضِ منازعته ؟ وكيف لم تقل العلماء من إفتائه[1] والحـكماء من حكمائهم ، توبيخاً منهم له ، وتعييرا لمن آمن معه : هذا أمر من أوْضَح الأكاذيب ، وأبطَلِ الأباطيل ، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ ، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولـكنه دَرَجَ[2] على طول الأزمان ، فـكيف إذَنْ صدَّقت العرب بنبوّته ، ولم تـكفُر القبائل برسالته ، وهم يسمعون كذبا لاينفع معه صدقٌ كان قبلَه ، وباطلا لا يُعْصَم معه حقٌّ حَدَثَ بعده ؟ وإن قلتم : أدخلهم بالقَهْر ، وضَبَطهم بالقتل ، وأكرههم بالسيف ، فما بالُ القليل من المسلمين الذين قهرهم الـكثيرُ من المشركين ، ما بالُهم آمَنوا وَصدَّقوا ، وَصَبرُوا وصابروا وجَدُّوا وجاهدوا ، كيف لم تنـكسِر عزائمهم ، وَتَهِنْ[3] بصائرهم ، ويرجعوا إلى دينهم ، وَيَهْرُبوا عن توحيدهم ؟ كلا ، لو كان الأمر على ما تقول لَأُرْفَضَّ[4] القوم عن الرسول ، ولـكان صلى الله عليه وسلم أولَ مقتول أو مخذول ، فأَحْسِنِ النظر فيما تذهب الأهواء برأيك إليه من آيات النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن جمَحَتِ الدَّعوى بكم ، فقائل ـ قد مالت به الأهواء فى الباطل ـ فقال : إنه إلَّا يكن الأنبياء ذكرت النجومَ فى صحُفها ، بيَّنت الحـكماء منها ذكراً فى كتبها ، فجعلت المنقَضَّ من الـكواكب بين الأعوام ، دليلا على أمر يَحْدُث تلك الأيامَ ، ولا ما هذا الاختلاق ، يَلِطُّ به الجاهلُ للفُسَّاق[5] ، ما إن وَضَعَتِ الحـكماء ذلك فى الـكتب

---

(١) هكذا فى الأصل . (٢) أى انقرض وفنى .

(٣) أى تضعف . (٤) أى تفرقوا عنه وذهبوا .

(٥) هكذا فى الأصل ، ولط بالأمر كضرب : لزمه .

إلا لَيالِيَ مُلِئَتِ السماء من الشُّهُب ، وبالله لو ادّعيتم غير ذلك فكان حقا ، وكانت القالةُ منكم صِدقا لَما كانت الدعوى بناقِضَةٍ لآية النجوم حُجَّةً ، ولا مُدْخِلَةٍ على أحد فيها شُبهةً ، لأن رَمْيا يقع فَرْط السنين من الكواكب ، لا يُبْطِلُ رَجما قد مَلَأ السماء من كل جانب ، ثم لو لم تكن النجوم آية دامِغةً(١) ، وحجةً بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، وبيِّنة عادلة ، وداعية قائمة ، تُبْطِل أظانينَ المشركين ، وتَرْدَع أقاويل المنافقين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم، ليُعظِّم أمرها ، ولا ليكرِّر فى آى القرآن ذكرُها ، رهبةً لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر النجوم ، واحتجّ به عليك من ذكر الرُّجوم ، مَوْقِعاً لِظَنٍّ ، أو مَعْلَما بطعنٍ ، أو مَغْمَزا لقول ، لَنَاصَبوه إذن بالمجادلة ، وكاشَفوه بالمنازَعة ، وجاهروه بالقول الذى لا يستطيع له رَدّا ، ولا يُطيق له جَحْدا ، ولكنها آيات ملأَت الأقطار كثرةً ، وحَسَرت الأبصار قوةً ، قد وجِلَتِ العقولَ ، ووَلِهَتِ القلوب ، وملأَت النفوس جزَعا ووجعا ، وفَزَعا شغَلهم عن الأولاد ، وأذهَلَهم عن البلاد ، حتى بلغ أميرَ المؤمنين ، وتقرَّر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل لما ملأ السماء حَرَسا ، وأحدث لها رَصَدا ، وَخَلَق فيها شُهُبا ، ذكرت العقلاء من العرب وَقَعاتِ الله عز وجلّ فى الكتب بقوم نوح وَعاد وثمود وأشباههم من مؤلِّفِى تلك الجنود ، الذين كانوا أشدّ بطْشا ، وأكثر جَمْعا ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسُهم مَتَائِنَ عُقَدهم ، وإن أهل الطائف لمّا فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا فيه الخروجَ إلى قرائهم ، قام فيهم رجل منهم ذو سِنٍّ وعقل فقال : يامعشر العرب ، لاتُهلِكوا أنفسكم قبل أن تَهلِكُوا ، وَلا تَخرُجوا من أموالكم قبل أن تُخرَجوا ، تفقَّدوا مواقعَ نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى ، فإن كانت النجوم التى حدث الرمىُ بها ، والنجوم التى أخليتم الأموال

(١) فى الأصل « دافعه » والمعنى عليها صحيح ، ولكن يظهر أنها « دامغة » .

لها ، هِيَ لِبُرُوجِ الشمس والقمر ، ومَسَالِ[1] الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المُتْلِفة الأنفس والأموال ، وإن كانت النجوم التى حَدَثَ القذفُ بها إنما هى نجوم خُلِقت اليومَ ، فليست المعرفةُ بواقعة على مُبتداها ، ولا الأبصار بلاحِقةٍ مُنْتَهاها ، فأمْسِكوا العُقَد[2] عليكم وَالأموال ، فإنه أمر يَحدُثُ فى إحدى هذه الليال .

فإن قلت : كيف وقعت الأمور فى هذا الرجل كالعِيان ، وصارت المقالة منه كوَعْىِ الآذان ؟ أنبأكَ أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفِقْه من المسلمين ، الذين حَملوا إلينا سُنَنَ الدين ، هم أدوا ذلك إلينا ، وأبقوه نخراً . . . .[3] علينا ، فما إن يَنفَكُّ منهم مفتخِر يقول : أبونا الذى حَبَس على العرب الأموالَ والعُقَدَ ، فما إن يدفع القولَ فى ذلك منا أحد ، هيهات ! ما كانت العرب لِتقِرّ عند الفَخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبينُ فيها من ضوء النهار ، فافهَمْ ما كتب به أمير المؤمنين فى هذا إليك ، ولا يكن التعلّل فيها بالشُّبهات أوثقَ مالديك ، فإنه قلَّ حجةٌ إلا وإلى جَنْبها شُبهةٌ تَخَيَّلُ للعقول ، وتَعَرَّضُ للقلوب ، وتجلْجَلُ[4] فى الصدور ، فلا يثبُتُ مع تخيُّلها ، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ ، إلا مَن وَزنَ الحقَّ والباطل بميزان عادل ، لايميل إلى تفريط ، وَلا ينحطُّ فى تقصير ، وقد جعلَ الله عز وجلَّ العقولَ موازينَ لِلأمور ، فَزِنُوا ما سمعتم من حُجج كلام الرب عز وَجَلَّ بما تَنفُون به الشبهة عن الحق ، ولا تُميلوا اللسانَ ، فتخسروا الميزان .

وسيعلّل أمير المؤمنين إن شاء الله ما جاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرُّجوم والشُّهب فى القرآن والرواية والكتب ، فألطِفُوا النظرَ فى صحة معانيه ، ونَحُّوا الهوَى عن شُبهةٍ[5] ما وقعتْ فيه ، قال الله عزّ وجل : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

---

(١) مصدر أريد به المكان . والمعنى : ومرعى الحيوان ومنبت الشجر .

(٢) العقد : جمع عقدة بالضم ، وهى الضيعة والعقار الذى اعتقده صاحبه ملكا .

(٣) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

(٤) أى تحرك .

(٥) فى الأصل «عن شبهة إنما» .

بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ » وقال : « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » وقال : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » وإن شَطَبَ[1] عن الحق شاطِبٌ ، أو ذهب إلى الباطل ذاهبٌ ، لا يعرف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معانى الـكتب ، ولا تفسيرَ آيِ القرآن ، فقال : إنما جُعلت الـكواكبُ والمصابيحُ حِفظاً من الله عز وجل للسماء ، ورُجُوماً للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدِّين ، فإن فى آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبْطل دعواه التى لا بيِّنة عليها ، ويكذِّبُ مقالته التى لا شهودَ لها ، فقالت الجن ، فجعل الله تبارك وتعالى قولَها وَحْياً ، وبه منها صِدْقاً : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُباً » أَلَا تَرَوْن أنها كانت الجن لَمَسَت السماءَ فلم تجدها مُلِئت حَرَساً شديداً وشُهُباً ، وقعدتِ الشياطينُ منها مَقَاعِدَ للسمع فلم تجد شُهُباً ولا رَصَدًا ، أوَ لا تسمعون إلى ما يحقِّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهد له من قول الله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » مع قول الجن أيام حُرِست السماء ، ورُميت الشياطينُ : « وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » فإذا أعملتم فى ذلك فِكركم ، وقلَّبْتم فيه نظركم ، فكنتم على برهان يقين ، ونور مستبين من استطاعة الجنِّ للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراق ، وإمكانِ السماءِ للقعود فى تلك الحال الأولى ، ففكِّروا فى الحال الأُخرى حيث حُرِست الآياتُ أن تعارِض باطِلا بحق ، ومُنِعت الشياطينُ أن تَنْزِل بصدق ، وامتنعت السماء أن يصعَد إليها شيطانٌ ، فقال الله عزّ وجل « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ » قالت الجن : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا »

---

(١) شطب عن الشىء : عدل عنه وبعد .

إنّ فى قولهم الآن لأعظم نور وبيان ، وأبينُ من ذلك لكم ، وأصحُّ لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبارُ الله عزّ وجل حين جُعلت الكواكب حِفظًا من كل شيطان مارد أنهم « لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا[1] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون وَيَتْلُون عَلَى ملك سليمان ، فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكّرين .

ومن آيات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرَتِ القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعتِ القادةُ من صناديد الكفر بأتباعها ، حَذَرًا على عِير[2] لها أقبلت من الشام ، بصنوف رَغائبِ أموالٍ عظام ، فكانت العِيرُ والنَّفير طائفتين : طائفة ذات عُدَّة كثيرة وشَوْكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رَغيبة ورجال قليلة ، وفُرصة مُمْكنة ، أخرج الله عز وجل نبيَّه صلى الله عليه وسلم وَوَعَدَه ومَن معه من المسلمين إحداهما ، فكرِه المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابِرَ الكافرين ، ويُشيِّد بذلك أركانَ الدين ، فلما تَرَاءتِ الفِئتان ، وتَناوَشَتِ الفُرْسان ، وتلاقى الناسُ، وقَبْلَ ذلك ما قال الله عز وجل : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » قبض النبى صلى الله عليه وسلم قَبْضَةً من تراب ، حَثَاها فى وجوههم ، فلم يقْنَاهَ دون مَنَاخِرِهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتالٍ من المسلمين ، يأهل الكتاب فأيّتما آيةٍ أعظمُ حجةً ، وأوضحُ بينةً ، وأقهر غَلبةً من هذه التى لو صَدَرت الأمورُ بلا تحقيق لها ، لانفضَّت الجموعُ من المسلمين كُفَّارًا بها ، أبِشارةُ اللهِ المسلمينَ بأمْدادِ الملائكة

---

(١) الدحور : الطرد والإبعاد والدفع ـ واصب : شديد .

(٢) العير القافلة ، أو الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، يشير إلى عير قريش التى أقبل بها أبو سفيان بن حرب من الشأم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو بالمدينة) قد تحين رجوعها من الشأم إلى مكة ، فندب المسلمين للخروج معه بغية الظفر بها ، ولما علم أبوسفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون ، لهساحل بالعير ، وبعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم فأجيروا تجارتكم ، فأدركتهم حميتهم ونفروا سراعا ، وكان من وراء ذلك غزوة بدر الكبرى كما هو مشهور ، والنفير : القوم يستنفرون للحرب ، وهم هنا مشركو قريش الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة .

المقرَّبين ، وهزيمةِ نفير المشركين التى نجمت الأمورُ عليها ، وتناهت الحال بهم إليها ، أم قبضةٌ من تراب يسير ، ماملا المَنَاخِرَ من عدد كثير ؟

فلئن قلتم : إن هذه آيات بيّنات ، وعلاماتٌ واضحات ، ولكننا لا نُقِرّ لكم بها ، ولا نؤمن بقولكم فيها ، أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يختلقها كذبا من تِلْقاء نفسه ، ثم يدَّعيها وَحْياً مِن عندِ ربِّه ، وهو لايدرى لَعَلَّ الأمور تقع بخلاف ما يقول ، فيظْهَرُ كذبُه ، وَيرْفَضُّ تبعُه .

ويزعم أن أصحابه كانوا كثيرًا أقوياء ، نِشَاطًا جُلَدَاء ، فكان على معرفة بقوّتهم ويقين من غَلَبتهم ، فقد قال الله عزّ وجل : « وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبرَ أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدّعى ذلك تنزيلا من ربهم ! هذا لا تقبَلُه الآراء ، ولا تُقِرُّ به الحكماء ، ولا يَحُدُّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم ، وإخبارِه ما أخبرهم من هزيمة اللهِ عدوَّهم ، أن يشجِّع جُبْنَهُمْ ، ويقوِّيَ ضعفَهم ، فكيف إذن لم يثق[1] لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقِلَّتهم – بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحال[2] الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يُكَذِّب نبوّته ، ويقطعُ حُجَّته ، ويكون له ما بعده ؟ وكيف إذن لم ينسُب الأمرَ إلى نفسه ، ويُنَحِّى الخبر عن ربه ، ليكون الخطَر أصغر ، والشأنُ أيسَرَ ، إن جرَتِ الأقدارُ بما يَحْذَر ، أو وقعت الأمور على ما يكرَه ؟ ولكنه أثبته فى كتاب مسطور ، ورَقٍّ[3] منشور ، فِعْلٌ لَعمرُ الله يدل على النبوة التى كان بها واثقا ، وَيهْدِى إلى الوَحْى الذى كان إليه سا كنا .

---

(١) فى الأصل « يبق » وأراه مصحفا .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله « يجىء » .   (٣) الرق : جلد رقيق يكتب فيه .

وَإن عرض لنظرك ، أو وقع فى خَلَدك ، أن الله عز وجل عوّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبة ، وأجراه على المَنَعة ، فكان يَجْرى على عادَة قد عرَفها ، ويسلُك جادّةً قد خبَرها ، فلقد كانت الهزيمة فى أولِ وقْعةٍ أوقعها الله ، ثم لقد دَالتِ الحرب فيما بعد سِجالاً[1] فيما بينه وبينهم ، تارةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم ، فنامِحُوا الله عز وجل فى نظركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم ، فَلَعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هزمكم برَمْيَةٍ من ترَاب ، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين ، فأحضِرْ كتابى هذا فهمَك ، واصْبر له ، وإن خَصَمَك ، فإن هذه آية عظيمة ، وحُجَّة بليغة ، وبيِّنة عجيبة ، فى غَلبة العرب .

وأعجبُ من هذه وألطفُ ، وأكثر منها وأعظم ، الآية فى غَلبة العجم ، واستَمعْ : أَمَرَ الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقولَ للمؤمنين ـ وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مُستضعَفين ـ : إن قبائل العرب ستتحزّبُ عليكم ، وإن الله سيهزمُهم لكم ، وَحْياً أنزله فى الكتاب ، فقال : « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ » فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدُهُورٍ طويلة ، وسنينَ كثيرة ، محبوسين محصورين فى حَوْمة الموت ، وعسكر الخوفِ ، وخَنْدَق القهر ، وذلِّ الحَصْر ، سَوادُهم الأعَمُّ ، وجُلُّهم الأعظَم : حُفاة عُرَاة عالة[2] ، إخوان دَبَرٍ[3] ، وأصحاب وَبَر ، لاقوةَ بهم ، ولا مَنَعةَ لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عُدّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم ، وأحاطت القبائل بخَنْدقهم ، وسالت الأحزابُ تصديقاً لِحَتْم الله عليهم ، تُريد أن تُزَلْزِل أقدامهم ، وتُهَريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصَفَ الله عز وجل من سوءِ الحال ، وضِيق المآل ، وشدة الكِظاظ[4] ، فإن الله قد

(١) فى الأصل « فيها بعد » وسجال جمع سجل بالفتح : وهو الدلو العظيمة مملوءة ، ويقال : الحرب بينهم سجال : أى سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء .

(٢) عالة جمع عائل : وهو الفقير .

(٣) الدبر : قرحة الدابة ، والمعنى أنهم مجهودون كالبعير الدبر .

(٤) الكظاظ : الشدة والتعب والممارسة الشديدة فى الحرب .

وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله مايجهلون ، ولا ليذكرهم من أمره مالا يعرفون ، حذاراً أن تنكسر عزائمهم ، وتتغير بصائرهم ، فتنهزم أفئدتهم ، وتموت نجدتهم ، وتختلف كلمتهم ، فقال الله عز وجل : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً » حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة: « يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالت طائفةٌ أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عَوْرة[١] فأْذنْ لنا ، يقول الله تعالى : « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا » فبينا هم على تلك الحال قد أجمعت العربُ تفريقهم فى الجبال ، وتقسيمَهم بالقِداح[٢] ، وأخذَهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يُنبئهم به من عِلْم الغيوب ، ويبشّرهم به من أمر الفتوح ، « إن الله سينصركم على جمع الروم ، ويغلِبُ لكم جموع فارس ، فيهزم لكم جنودهم ، ويُورِثكم قصورَهم ، ويستخلفكم فى الأرض من بعدهم ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمْنا » وَعْداً صدَّقه الكتابُ ، وبشارةً نطقَ بها الوَحْيُ ، فقال : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا » فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحالُ ، وتزلزلت الأقدامُ ، وطارت القلوبُ ، ودارَتِ العيون ، وأشرف الموتُ : « مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا » أيَعِدُنا هزيمةَ جموع الأحزاب ، وفتْحَ قصور الشام ، وغلَبة جنود كسرى ، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب ، وأحدق الموت بنا من كل مكان ، فبقينا فى مَسْغَبَةٍ[٣] من الجوع ، ومَجْهَدَة من الخوف ،

---

(١) أى يخشى عليها لأنها غير حصينة .
(٢) القداح : قداح الميسر ، والمعنى : يتقامرون (أو يتآمرون) على تشتيتهم وتمزيقهم .
(٣) المسغبة : المجاعة .

وضَنْك من الحال ، مقهورين مقموعين[1] ، وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموعَ من المشركين ، وذكروا ما خبّرهم الله من تحزُّبهم عليهم ، ومَسيرهم إليهم : « هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهَ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً » فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى مَضايِق تلك الحال ، وشدة ذلك الخِصال[2] ، وعمومِ تلك البلايا الباهظة ، والأمور الفادِحَة ، التى قد أخذ بأنفاسهم غمُّها ، وبلغ مجهودَهم كَرْبُها ، رافعين إلى الله عز وجل أيديهم ، يقلِّبون فى السماء أعينَهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة ، والجموع العظيمة ، والأحزابِ المقتدِرة ، رِيحاً من الأرض ، وجنودا من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيَّرت الأمتعة ، وسفَتِ الترابَ فى العيون ، وقذفت الرعب فى القلوب ، فولَّوا مُدْبِرِين ، وخرجوا منهزمين ، لا يَلْوِى[3] والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمرٌ صدق اللهُ فيه قوله ، وأنجزَ به وعدَه ، وهزَم الأحزاب وحْدَه ، وذكَّر المؤمنين نعمته فيهم ، وعرَّفهم منَّته بهم ، فقال : « اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » وقال عز وجل : « وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » ما كان الله عز وجل ليقتصَّ على المسلمين فى أنفسهم إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا مالا يُنكره عقلُك ، ولا يَدْفعه نظرُك ، لَما جادلتُك بالكتاب ، ولا نازعتك بالتنزيل ، وإنى لأترك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى ، ماهو أعظمُ من هذا وأبينُ ، وأجلُّ وأوضح ، ولكن ليس لى أن أحاجّك من آيات

---

(١) أى مقهورين مذلولين .

(٢) خصل القوم خصلا وخصالا : نضلهم .   (٣) أى لا يقف ولا ينتظر .

القرآن ، إلا بما عليه شاهدٌ من بُرهان ، ومُخبر من بيان ، لايستطيع عقلُك رَدًّا له ، ولا قلبك جَحْدا له ، وكيف ينبسط لسانُك ، أو يجترئُ قلبُك ، أن يقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقتصّ عليهم من أمورهم مالا يعرِفون ! لا ، مايَسُوغُ لك ولا يَجْمُل بك ، ولا يُقْبَل منك أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أَمَا كان يَخاف أن يكذِّبه أصحابُه، وتتنقل أحوالُه ، وتنتقِضَ أموره ! لعمرُ اللهِ لو وصفتَ بهذا من لايُعْرَف بفضل ، ولا يُنْسَب إلى عقل لَما كان سائغا لك ، ولا جائزا منك ، فكيف تصفُ به مَن يُرْفَعُ عن الناس قدرُه ، ويفضُلُ عليهم عَقْلُه ، وتُقِرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحدا صَنَع ماصنع ، وبلَغَ ما بلَغَ ، فأيَّتُما آيةٍ فيما اقتصّ عليك أمير المؤمنين أعظمُ ، أو بينةٍ أعجبُ : أمَا كَان يُتلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم سنينَ كثيرة ، أم ما كان(١) ينادِى به القرآنُ من الهزيمة لهم ، وينطِق به الوحىُ من الفتح عليهم ، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: « إن الله عز وجل يُؤَمِّن خوفكم ويُعِزّ نصركم على الأمم » وهو على تلك الحال ، ثم نَجَمَت الأمور على ما قال ، أم عسكران متطابقان ، وجيشان متقابلان، باتت الريح تَحُوش(٢) أحدهما حتى انهزموا، وبات الآخرون منها فى عافية وغَفْلة حتى أصبحوا ، فأحْسِنِ النظرَ فى أمرك ، والتثبتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات ، وأبيَن الدّلالاتِ على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وَحَقِّه ، وأنْ ليس يتقوّل شيئاً من تلقاء نفسه ، أنه قال فى عُنْفُوان أمره : « إن الله عز وجل سيُظهِر دينى على الدين كله » وجاء مع ذلك بأثَرة عن ربه ، فى كتاب محضوط ، وتنزيل محفوظ ، فأىّ أمْرَيْهِ(٣) لك أدلُّ ، أو أيهما عندك أعجب ؟ إذ كنت

---

(١) فى الأصل « أما كان » .

(٢) حاش الصيد : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ، وحاش الإبل: جمعها وساقها .

(٣) فى الأصل : « فأى أمر بذلك» .

بنبوته مصدِّقا ، ولرسالته محقِّقا : الخبرُ الذى أخبره ، أم الفعلُ الذى صدَّقه ، لئن نظرتَ بعقلك ، وقلت فى نفسك : كيف تَرَقَّت إلى هذانيَّتُه ، وارتفعت نحوَه هِمَّتُه ، أم كيف امتدت إليه فِطنتُه ، وقَوِيت عليه رَوِيَّته ؟ بل كيف دعَته إليه نفسُه ، وشجَّعه عليه قلبُه ، ودخل فيه طمعُه ، وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكُر جنودَ كسرى ، وجموعَ الروم ، وملوكَ التُّرك ، وملوكَ الشِّرك ، وقُيُولَ[1] اليمن ، وصناديدَ الأمم ؟ إن هذا لعَجَب ، ولا سيما إذا لم يكن فى إرْث مُلْك قاهر ، ولا كَنَف عِزّ غالب ، ولا مَعْدِن علم سالف .

ولئن أعدْتَ النظار وكرَّرت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثَره ، وكَيف صدَّق فعلُه قولَه ، حتى غلَبَ الشرقَ والغربَ ؟ إن هذا لعَجَب ! وأعجب من هذا أمرٌ يدُلُّك أمير المؤمنين عليه ، ويَهْديك إن شاء الله إليه ، لو قلتَ لأهل مملكتك ومَن قِبلَك من أمتك : هل بلغكم أو تقرَّر قِبلَكم ، أنه كان فى الدهر الأول ، والعصر الخالى ، أحدٌ مثل محمد صلى الله عليه وسلم : بدأَتِ الأمورُ به مثل حاله ، من الوَحْدة والضعف والذِّلَّة والقِلَّة ، وَصَدَرَتِ الحال به كفعاله ، فى الغَلَبة والمَنَعة والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا : لا .

ثم أنت لاتؤمن بمقالته ، ولا تُقِرّ برسالته ، إلفًا لدِينك ، وضِنًّا بملكك ، وطمعا فى قليل من الدنيا قد نعاه الله إليك ، ورغبةً فى صُبابة عيشٍ غير باقية فى يديك ، فهذا عجبٌ ، وأعجبُ من هذا أمر نَقِفُك أمير المؤمنين على نور حقه ، ويُوضّح لك إن شاء الله بيانَ أمره : أصبحتِ العربُ طُرًّا والأمم جميعا فى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابعَ لهم ، ولا مخرَجَ للحق من بينهم : رَجُلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين، وَرَجُلٌ مُكَذِّب به من الكافرين ، ورجل شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلمَّا قيل له : أخرجتَ نفسَك من الحق ، وأبرأْتَها من الصواب ،

---

(١) القيول : جمع قيل بالفتح ، وهو : الملك من ملوك حمير .

وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لابدّ أن يكون الحق فى التصديق أو التكذيب ، ولستَ على واحدٍ منهما ، اعتزل عنها .

وأما المكذِّبُ فلمَّا قيل له : أنت منكِر ، والمنكِرُ ليس بمُدَّعٍ ، ومن لم يَدَّعِ لم يَلزَمه بينةٌ ، ولا يُسأل عن حُجة ، اتبع صاحبه وأَيمُ الله على ذلك ، لو سئل هذا المدعى عن بينته ، وكَشْفِ حجته ، فقيل له : من أين عرَف قلبك ، وأيقنَتْ نفسُك إيقاناً لايُخالجه شكٌّ ، ومعرفة لايشوبُها رَيْب ، ولا ينازِعها شبهةٌ ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول؟ لَمَا درَى مايقول، لأنه لايستطيع أن يتقوَّل على الرسل، ولا أن يتكذَّب على الكتب ، فيقول : قد أخبر الله فيها أنه لايبعث نبيا ، ولا يُنزِل وحْياً فى كتاب مسطور بعد التوراة والإنجيل والزَّبور ، بل قد يجد أهل الكتاب فى أقاويل رسلهم ، وأخابير كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى يُنزِلُ كتابا جديداً أو كلامًا حديثاً ، بعد خراب بيت المقدِس فى آخر الزمان ، ولم يُنزِلْ بعد ذلك كتابا إلا القرآن .

وأما الرجلُ المصدِّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل له : أمّا أنت فقد ادَّعيتَ ، والمدَّعى يُسْأَل عن الحجة ، وتُقبَل منه البينةُ ، فما بيِّنتُك ، ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لايخرج من بيننا ، ولا بُدَّ أن يكون مع بعضنا ؟ قالوا : بلى ! قال : فأية بينةٍ أحقُّ وأعدلُ ، وأى شهود أزكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحِبَيَّ ، وثبوتِ الحق مِن بعدهما فى يدىَّ ؟ قالوا : إن الأمر لكمَا تقول ، ولكن البينة أشفَى للصدور ، فأقام بيِّنةً من الكتاب ، وشهودا من الوحى ، وآياتٍ سوى ذلك عِظامًا ، وبيِّناتٍ عوامَّ ، من كلام لايقدر عليه الخلقُ ، وصِدق لا يكون إلا مِن قِبَل الربِّ ، شبيها بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتب به فى صَدْر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهد له قلوبُ الأمم ، ويُزَكِّيه فِعالُ العرب .

فلما أقام بيِّنتَه ، وثبتَتْ حجته ، وَوَجب حقه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف

توسّعتِ الأمور عليك ، وضاقت المقالة ، لك أن تقول : إن الله لا يبعث نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولا وَحياً ينزِل غير القرآن ، فأبطلتَ الكتب الحدَثة ، وأ كذبتَ الوثيقةَ ، ولم تترك وحياً غير القرآن ، وَلَمْ يَجُز للنصارى أن تقول : لا نبيّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتابَ خَلْفَ الإنجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا : كل متنبّئٍ بعد نبيّنا كذاب ، فشاعت وجازت الحجةُ ، ووضَح العُذْر . وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل يبعث نبيّا حديثاً ، وَيُنْزِلُ كتابا جديداً ، فليس لهم أن يكذّبوا نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يردُّوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة : أما الشاكُّ فسقَطَ ، وأما المنكر فَبَطَل ، وأما المصدِّق فثبت ثبُوتًا ليس فيه مَدْخَل شُبهة ، ولا مَوْضعُ حُجّة ، ولا مَعْلَق لمنازعة ، وذلك أن المنكر لوجوب حقه ، والشاكّ فى ثبوت صدقه ، لايجد بُدًّا من أن يُنَحى الصدق عن الخلق ، وَيُخلِيَ الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكّين فى بعثهم ، فأحسِنِ النظر فى معانيه ، ينكشفْ لك عما فيه إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدلّ علاماته صلى الله عليه وسلم ، ووسع له فيما صَدَر إليه ، أنه لما أخبرت النصارى واليهود أنهم لم يجدوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل موصوفا مكتوبا ، تجمّعت العلماء منهم ، وتدارسَتِ الكتبَ فيما بينهم ، فلما نظروا إلى اسمه ، وعاينوه بنعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتِحون بذكره على من سواهم ، كفَرت طائفةٌ حَسَدًا من عند أنفسها ، وجَحَدا من بعد ما تبيّن لها ، وآمنت طائفة ، تصديقا بكتابها ، وخوفا من ربها .

فلعمرُ الله لولا أن الذين آمنوا بحقه ، وصدَّقوا بأمره ، رَأَوا صِفَته عِيانًا ، وقَبلوا نَعْته إيقانا ، لَما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على اسمه ونسبه وصفته وعلامته ، وهم علماء بنى إسرائيل ، وحمَلَةُ الإنجيل : من أهل الكتاب الذين

احتج الله عز وجل بهم على العرب فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ولعمر الله إنها لآية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله فى كتابه وجعلها على العرب من بيِّناته ، فقال لهم : « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » يقولون : وَعَدَنا أن يُرْسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقَّق قوله ، وصدَّق وعدَه ، واحتجَّ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وذكرَه ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ليجادلَ ويحتجَّ فى أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه فى التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، ونور مستبين ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكَذِب ، ويتقوَّل عليهم الباطلَ ، مع حِرْصه على تصديق أهل الكتاب ، ليستدعِيَ به إيمانَ أحياء العرب ، أمَا كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود فى مَثانِى كتبهم ، وسُمِّى على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وَصْفَه مستبِينا ، أنهم سيُدْبِرون عنه إدبارا ، تزداد به العرب نِفارًا ، إلا أن يقولوا خَطَأً من علمه ، وهواءً من خَبره ، فكيف لم يخطّ إذن فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ؟ سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجبَ من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تُنْكِروا ما يقولون لكم ، مما ليس لِذى لُبٍّ أن يأذن له أن يؤمن به ، ولا أن ينبِذَ(١) إليه سمعَه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة إلى خَلقه ، لطُفَت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزَّلة عليهم ، على صغائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طلبها ، فهى مكرَّرة فى مَثانِى كتبهم ، وبُطُون صحفهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العَظِيمَ والأمرَ الكبير ، والذكر الحكيم الذى مَلَكَ آفاق الأرَضِين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكروه

---

(١) أى يلقى .

بخير يأتمرون به ، ولا بشرٍّ ينتهون عنه ، كلا ! ما ترك الله على هذا خَلْقَه ، ولا بهذا وَصَف تبارك وتعالى نفسَه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعتَ إلى قلبك ، لتقولَنّ فى نفسك : لعمرُ اللهِ لو كان هذا الأمر الذى طلع طلوعَ الشمس ، وامتدَّ امتدادَ النهار ، فَبَلَغ مَشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها ، وسُهولَ الآفاق وحُزونَها[١] ، حقا وصدقا وعدلًا ، لبشَّرتِ الكتب به ، وتنبَّأتِ الرسلُ عليه ، ودَعَتِ النُّذُرُ إليه ، تزيينا له ، وترغيبا فيه ، وأمْراً به ، ولو كان ضَلالة وجَهالة وعَماية ، لتقدَّموا فى التحذِيرِ منه ، والتزهيد فيه ، والتَّثبيط عنهُ ، فيدعو ذلك إلى أن يَنظروا فى كتب الأنبياء ، وأقاويل الرسل ، فأيم الله لئن طلبتَ لَتَجِدَنّ ، ولئن اجتهدت لتُوَفَّقَنّ ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخيرُ بمحظور ، ولقد كانت العلماء بالكتب والبُصَراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتُمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرفِ تأويل الحُكم إلى أشباهه ، حَسَدا من عند أنفسهم ، وبَغْيا بعد ما تبيَّنَ لهم ، ثم لقد اقتديتم بهم ، وجرَيتم معهم ، وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ولا قوة معكم ، إلا الاقتداء بالآباء ، والاتِّباعَ للآثار ، فاتَّقِ الله فى نفسك ، واتَّهِمِ الرجال على دينك ، ولا تجعل النظرَ إلى غيرك من ذوى الشك فى القلوب ، والفسخ فى . . .[٢] والتُّهَم فى التعطيل ، الذين لعلَّهم يَعرِض لآرائهم ، وَيقع فى أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرَع لكم من حُجَج الوحى ، شىء زِيد فى المصاحف بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مالا يحتمله عقلٌ صحيح ، ولا نظر قوىّ ، وذاك الشاكّ فى شهاداتِ الرجالِ ـ متفقةً من بُلدان وأمصار مختلفة ، وشعوبٍ وقبائلَ متفرِّقة ، ليس يدعوهم إلى ما شَهِدوا دِين ، ولا يَحمِلُهم على ما اتفقوا عليه دنيا ـ لايستقيم له أن يُؤمِن[٣] بما لم تُدْرِكْه جوارِحُه ، وتُحيط به

---

(١) الحزون : جمع حزن بالفتح ، وهو : ماغلظ من الأرض.

(٢) هكذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « أن يؤمن له » بزيادة له بعد يؤمن ، ولا حاجة إليها بل هى قلقة فى الجملة .

حواسّه ، لإسقاطه حُجَّةَ الإجماع ، وإبطالِه شهادةَ العوامّ ، واتفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة ، فهو سائِلُكم عن الحجة فى الإنجيل ، والبيّنةِ على التوارة ، شكّا فى الرب ، وتكذيباً بالرسل ، فما كنتَ قائِلَه له ، أو مُجيبَه به فى كتابكم ، فأجِبْه بمثله فى كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غيرَ معتدلة ولا مؤتلفة ولا مُرْتَفِقة ولا واحدة تعتدِلُ حالاهما ، ويتّفق أمرهما من كتابكم ، ما لم تنزِل به الملائكة وَحْيا كالقرآن ، ولم يُشافِهِ المسيح به أصحابَه باللسان ، إنما كان فعلا أُثْبِت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعًا بعده ، وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكاً فيه ، ولا يورده عليكم مِرْيَةً به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَجه مخزونة ، لا يُزاد فيها على تقادُم عَهْدٍ ، ولا يُنتقَص منها على تقارُب دهر ، وأن ذلك ثَبَتَ فى الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريّين : « بالوَحْيِ أكلّمكم ، والأمثالَ أضرِبُ لكم » فأمثالُه المضروبة كلام ، وكلامُه الرائع وَحْيٌ ، ولكن ما بالُ الشكّ يُنفَى عن كتابكم بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وصفَ أمير المؤمنين لكم ، وسِيّانِ فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، إما ما قربا[1] من عهده ، ومعاينة وحيه ، واجتماعِ على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقل للذين يَشُكُّونَ فيه ويرتابون به : أوقِفوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرِفون وقومها[2] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أمّا طبقاتُ الرجال التابعين ، وحالاتُ أزمان أمير المؤمنين ، فذلك مالا يسُوغُ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُل الشبهة عليه ، لانتشارِ القرآن وامتدادِ الزمان ، وكثرة الحَمَلَة لآياته فيهم ، والحفظَةِ لِلسانه منهم ، ولكن الدين الذى نزل به القرآن ،

---

(١) هكذا فى الأصل ، والعبارة كما ترى مضطربة .

(٢) هكذا فى الأصل .

وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهُرِهم ، وكيف بوقوع تُهَمة ، أو دخول شُبهة »
على أقوام لَبِث النبي صلى الله عليه وسلم عشرين حِجَّةً فيهم ، يتلو كتاب الله عز وجل
فى كل عام عليهم ، حتى حَمَلوه فى صدورهم ، وحَفِظوه فى قلوبهم ، وكرَّر فى آذانهم
مسموعا ، وأُمِرَّ على أبصارهم مكتوبا ، وجرى على ألسنتهم مَتْلُوًّا ، وجمعه كثير منهم
محفوظاً ، ثم توارثوه فيهم ، وتداولوه فيما بينهم ، حتى أدَّوْه إلينا ، وأوفَوا به عندنا ،
من مواضعَ متفاوتة ، وأصناف وأجناس متباينة ، على كلمة واحدة .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه ، وأمكنت الحالُ من الحَمْل عليه ،
فليَعْلَموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا فى الزيادة متَّهَمين ، وأن المنافقين المُلْحِدين ليسوا
على ذلك بقادرين ، وكيف يَقدِر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين ،
بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ؟ وَوعتْه أسماعهم ، ثم تُسكَّتَم القدرة لهم ، وتَستتِر الزيادة منهم ؟
هذا مالا يقدر عليه منافق ، ولا يُطيقه مشرك ولا فاسق ، وأَيمُ اللهِ أَنْ لَو قَدرتِ
اليهود على الزيادة فى الإنجيل لأفسدُوا كتابكم ، وغيَّروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين
على الزيادة فى كتابه قادرين ، لبدَّلوا ديننا ، وغيَّروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مُقْرِنين[1]
وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذى كتب به أمير المؤمنين إليكم ، وأورده من حُجَج الله
عليكم ، أوَّلَ ما تَلقَوْن ، ورأسَ ما تقترفون ، فلا تُلْقِينَّ إلى ما قاله المُضِلُّ سَمْعَك ،
ولا تُنْصِتِ الدَّهرَ إليه ذهنك ؛ فإنه اتخذ الشَّكَّ فى كتابنا ذَريعةً إلى الإخلال بكتابك
وسُلَّما إلى الشك فى دينك[2] ، وعِلَّةً فى الطعن على مِلَّتك ، ولكن قل : يا وَلىَّ الشيطان:
أَنَّى وقع لك إيمانٌ بأنك من ولد فلان ؟ أتقول شَهِدَت الجِيرةُ ، واجتمعت العشيرةُ ،
واتفق المختلفون ، فذهب الشكُّ وزال الرَّيْب ، ووقع الإيقان من غير العِيان ؟ صدقتَ
فما بالُ الشك فيما اجتمعت العامَّة على القول به ، واتفقت الجماعة فى الشهادة عليه ».

---

(١) أقرن للأمر : أطاقه وقوى عليه.
(٢) فى الأصل « فى دينه » .

من آيات الكتب وبيِّنات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه، فتؤمن أنه من نُطْفَة خُلِق ، ومن رَحِم خرَج ، فإن جَحَد وأَبَى ألاَّ يؤمن بما لا يرى فقل : أرأيتَ لو كنت سميعا أعمى ، أكنتَ تُؤمن بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سَبُع ، أو أرض أو جبل ، أو شبه ذلك ، مما لم يدركه العِيانُ ، ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم، فقل فهل لك إلا بالاجتماع الكفرُ بالرب؟ وما لدائه دَوَاءٌ غير الصَّلب ؟ فاتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل مُلكك ، لا تقدُمْ إلى النار ، فتحملَ أوزارًا مع وِزْرِكَ . فإن من أبين آيات الوحى ، وأدلِّ علامات النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمرا من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم فى الأمور بين يدَىْ ربه ، والله أظهرَ فيما أنزل من الكتاب أمورا كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورةً ، فقال تأديبا له ، وإخبارا لمن آمَنَ من بعده: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» وقال : «عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ » وقال تعالى : «وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . إِذَنْ لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا » وقال له حين صرفَ قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام ، حين سكنت القلوب إليها ، وأنِسَت النفوس بها : «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ » وكانت القبلة التى صرفه الله إليها وأمره بها عظيمةً على المنافقين واقعة ، بخلاف الكافرين ، كبيرةً[1] إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القِبْلتان ، وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ

---

(١) فى الأصل « كثيرة » وهو تصحيف .

فيهما واحدة ، لا اختلافَ فيها ولا افتراقَ عليها ، وكيف تختلف الطاعةُ من رجل بَنَى بأمر الله عز وجل ، ثم هدَمَ بوحى الله ؟ .

فإن قلت : إن الله حوَّلَه عن أفضل القِبلتين ، وأقومِ الجِهتين ، فلا سِواءَ فى الفضل البيِّن والخير السِّرِّ : قِبلة سلَّط الله عليها الـكافرين ، ولم يمنعها من الظالمين ، وقِبلة مَنَعها بجنودٍ من عنده ، وعَصَمها بغير ما حَوْلٍ من خلقه ، ولا حُرْمة يدعيها أحد ممن فيها ، « فأرسل طيراً أبَابِيلَ[1] تَرْمِى الأعداء بحجارة من سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » فإن تقل : هذا خبر نُنكِره ، وقول لا نَعرِفه ، فبأىِّ حديث بعد هذا تُؤْمِن به ، وتشهد لله عزّ وجل أنه من قِبَله ؟ وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عزّ وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بَشَر كثير .

فإن قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خبَّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نقُلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ، ويُوحِشهم منه ، وأحب أن يرمُوه بالـكذب ، ويقذِفوه بالحق ، ويَصِمُوه بالجنون ، ويظنُّوا به الظنونَ ، كلا ! ما كان نبىٌّ ولا غيرُ نبى لِيجاهِرَ[2] أقواما بخلاف ما رأَتْ أبصارُهم ، وشاهَدتْ آباؤهم ، فيُخْبِرَهم بخلاف ما شَهِدوا ، وتـكذيبِ ما عاينوا ، فلا تـكونَنَّ فى هذا من المُمْتَرِين ، ولا بأمر الفيل من المـكذِّبين .

فلعمرُ اللهِ لو كان من أمْر النبى صلى الله عليه وسلم ما تُلْحِد أنت وقومك إليه ، لَمَا قام معه رجلان ، ولا اختلف فيه سَيْفان ، وإن فيما صَنَعَ الله عزّ وجل بالفِيل وأتْباعِه ، دلالةً على قِبلة الله وأنبيائه ، فاتَّقِ الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وكَشَفَ الأَغْطِيةَ لك عن النور بآيات الوحى فإن مالت

---

(١) أبابيل : جماعات ، والسجيل : الطين المتحجر ، كعصف مأكول : أى كزرع أكل حبه وبقى تبنه ، وقصة أصحاب الفيل مشهورة .

(٢) فى الأصل « ليجاهد » وهو تحريف .

الأهواء بك ، وغلَبت الأساقفةُ عليك ، وحَضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهةً أخرى بلا حُجَّةٍ عندهم، ولا سلطانٍ أتاهم ، فقل: أَنْبِئُونى عما اجتمعت عليه النصرانية، وذهبت إليه بهم المعانى ، من تشقيق[1] الكلام ، وتصريفِ الكتب : أحُروفٌ تتعسَّفُونها ، أم لغة تعرِفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذَنْ قوم يلعبون ، وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغةٍ معروفة ، ومعانٍ معلومة ، فقل : أخبِرُونى عن قولكم : أب وابن ، أهما ما تعترِف العقولُ من المنطق ، ويقع فى القلوب من المعنى ، أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذى تذهَب أوهامُ العباد إليه ، ولا بالذى تَقَعُ الحقائق فى الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل . « بِكْرِى » لا يَعْنى ولادةَ الرَّحِم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريِّين : « أنتم إخوتى » لايعنى أُخُوَّةَ النَّسَب ، فذلك قول لايجدون معه بُدّا من أن ينسُبوا عيسى عليه السلام عَبْدا ، وإن قالوا : بل هو ما تجرِى به ألسُنُ العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة ، والأُبوّة المعلومة ، فليُخْبِرونا متى كان الأبُ وِالدا ، والابن مولودا ، أقَبْل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قَبْلَها ، رَجَعوا عن القول الأول بتثبيت الأُبوّة ، إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بُدَّ إذا سقطت الولادةُ المعروفة ، وبَطَلت الأُبُوّة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والابن اسمان عُلّقا على غير معنى ، ونسَبان أُضيفا إلى غير حق ، فيُقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الإبن مولوداً والأب والداً بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الإبن حدَثٌ مخلوق ، وعبْد مَرْبُوب ، لقولهم : إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولَد حتى خُلِقَ ، وقل لمن يقول الزُّور العظيم ، ويقذِف بالإفك المبين، أليس الأبُ أبًا على حِياله

(١) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

ولم يزَلْ ، والابنُ ابناً نجلَ[١] ، وروحُ القدُس كذلك ، فإن قالوا : نعم ، فقد أقرُّوا بأنهم ثلاثة متباينة ، وقعَت عليهم ثلاثةُ أسماء متفاوِتة ، وترَكوا قولهم : إنهم ثلاثةٌ أصلُهم واحدٌ .

وإن قالوا : الأب والابن وروحُ القدُس واحد، ولكنّ بعضَه أبٌ ، وبعضه ابن ، وبعضه روح القدس ، فقد دَخلوا فى التحديد الذى هو عَيبٌ عندهم ، وقالوا فى التبعيض بما هو كُفْر قِبلَهم ، وَإن قالوا: ليس مُبَعَّضا ولا مُجزّأً ولا محدودا ،ولا ثلاثة متباينين، فإذَنْ هم قوم يلعبون : يقولون : الأب ابن، والابن أب، والوالد مولود، والمولُود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير، والكثير قليل ! وهذا من أبيَنِ المحال، وأخلَفِ المقال ، وليس من المنطق ما لا يوجد فى لغة عَرَب ولا عجَم ، ولا لسانِ أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كلَّ نبى بلسان قومه ليُبَيِّنَ لهم ، فيُضِلَّ الله الظالمين ، ولولا ذلك لَما فهمتِ الأمم مذاهِبَ أقاويل الرُّسُلِ ، ولا معانِىَ أحاديث الكتب ، فلا تُطِعِ الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا محال فى مَجَارِى المقال ، ومَعَانِى الفِعال .

لعمرُ الله لئن اتَّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، واهتممت بالنظر فى توحيدك ، لتعلَمَنَّ أن الواحد لا يكون ثلاثة ، وأن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجهٍ ماله ثانٍ تقولُ به ، ولا منه مَخرَج تستريح إليه ، فألقِ نحوَه سمْعك ، وأنصِتْ إليه فهمْك ، فإن أمير المؤمنين واصِفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين، ولا لازما غيرَ المحدودين، ولا داخلا على ربِّ العالمين : وهو أن يكون الشىء أصلُه واحدٌ وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الإنسان ، وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزَمُها أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصل بالجزء، ولكن الجزء بعض الأصل ، فإذا أردت الجزء قلت : يد الإنسان ، وسمع الإنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مُجزَّأ مُبَعَّض ، لَما جاز هذا القول فيه ، ولا

(١) نجل : أى ولد .

دَخَلَ هذا المثل عليه ، وكذلك الشمس : الأصل واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة : وهى عين الشمس ، وضوء الشمس ، وشُعاع الشمس ، ودقيقها ، وغليظها ، وحَرورُها[1] ، وأعلاها ، وأسفلها ، وأشباه ذلك .

فلئن قلتَ : سمَّيت كل جزء من الأجزاء على حِياله إنسانا ، وَكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونَسَبْتَ فِعلَ الأصل إلى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسُب الأصل فاعلا ببعض الأجزاء كما تقول : بَسَط الإنسانُ بيده ، ومشى برجله ، ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مَثلا ، وجعلتَ الله له قياسا ، فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهى أب وابن ورُوحُ القُدُس ، وكل جزء منها إله على حِياله ، وَرَبٌّ دون غيره ، لم تجد بُدّا أن تُلْحِق اليَدَ والعينَ والنفس بالأب والابن وروح القدس ، فتُكَثِّرَ آلهتك ، وتحدِّدَ ربك ، وتترك قولك : إن الله ليس محدودا ولا مُجَزّأ ولا مُبَعَّضا ، إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن وروح القدس ، فإن كنت تقول هذا وكنت إنما تعبُدُ أسماء ، فما تجد بُدّا من أن تعبُدَ الأسماء كلَّها ، وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمٍ : ارحمنى ، وبثانٍ : اغفِر لى ، فاتَّقوا الله يا أَهل الكتاب ، فإن الله عزّ وجل ليس بأب ولا ابن ولا اسم ، ولكن له الأسماء الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك ، وقالوا : ليس إنساناً ، فقل : لا ، ولكنه للإنسان ، وقل : هو إنسان بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس ، فقالوا : أليس هذا الشمس طالعاً ؟ فقل : لا ، ولكنه بعضها ، ولو كانت الأسماء التى تقع أبصارُكم عليها ، وتُشِير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواء وسماء ، لكانت الشمس والهواء والسماءُ أكثر مما يَبْلُغه الإحصاء ، ولو

---

(١) الحرور : الحر .

قصدتَ بالإجابة لِمَسالِكِ هذه الأودية ، لبطَلَتِ الحُجَج الدَّاحِضَة ، وانقطعت الأقاويل المتناقضة ، وسَلْ مَن قِبَلك من أساقِفِ أمتك ، وشَمامِسَة أهل ملَّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عَبْدا : على أى شىء وقع اسم المسيح من عيسى : عَلَى الرُّوح ، أم الجسد ، أم على كِلَيْهما ؟ فإن قالوا : وَقَعَ على الروح نفسِهِ ، لأن الرُّوح إله دون غيره ، فقد أقروا بأن إلٰهَهُم يأكل ويشرب ، وَيمشى وَيَرْكب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيَّنا قِبَلهم ، موصوفا عندهم ، فإن قالوا : وَقَع اسم المسيح على الجَسَد بعينه ، فكان الجسد هو المسيح إذن دون غيره ، والمسيح إذن مخلوق عندهم ، والإلٰه إنسان إذن مثلهم ، فلِمَ يعبدون المخلوق ، ويَدَعون مَن خَلَقَه وَبَرَأَه ؟ وإن قالوا : وَقَعَ الاسم عَلَى الروح والجسد جميعا، فلن يَجدوا مَخْرجا ولا بُدًّا ولا مَحِيصا — إذا أوقعوا الاسم عليهما — من أن يُضيفوا الأعمالَ إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خَلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم، وذلك لِمَا يجدون من ذكر موتِ عيسى عليه السلام فى الكتب عندهم، وفى الإنجيل الذى قِبَلهم ، وسَلْ مَن قِبَلك عن الأب والابن ، فقل : أيُّهما أعظم ، وأيهما أصغر ؟ فإن قالوا : الأبُ أعظمُ والابن أصغر ، فقد جعلوهما متبايِنَين ، وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأبُ بأعظمَ من الابن ، ولا الابنُ بأصغرَ من الأب ، فقد نُقِض حينئذ جوابُهم ، وأكذَبَ المسيحُ عليه السلام كلامَهم ، حيث يقول : « لو كنتم تحبُّوننى لفرِحتم حيث أذهبُ إلى إلٰهى ، فإن إلٰهى أعظم منى[1] » فلم يقل : « أعظم منى » إلا وهو مُقِرٌّ بأنه أصغر منه ، وسَلْهم عن قول المسيح : « أنا أذهب إلى إلٰهى وإلٰهكم[2] » فقل: مَن هذا الإلٰه الذى ذهب عيسى إليه صلى الله عليه وسلم : إلٰهٌ فى السماء ، متباينٌ منه ، منقطعٌ عنه ؟ فهما إذن اثنان

---

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٨) من الكتاب المقدس طبع بيروت سنة ١٩٠٩ « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الأب ، لأن أبى أعظم منى » .

(٢) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ٢٠ آية ١٧) من الكتاب المقدس : « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

متباينان ، أم إلهٌ كان به متصلا ، وكانا جميعاً واحداً ؟ فكيف إذَنْ يجوز له أن يقول أذهبُ إليه » ؟ إلا أن يقولوا : إنّ بعضَه ذَهبَ إلى بعض ! وهذا مما لايجوز عندهم فى صفة الربِّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قِبَلك : أَخَرَجَ المسيحُ من بطن أمه مريمَ بكماله ، حتى كان البطنُ منه فارغا ، وكان هو منه بكماله خارجا ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم : إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرج المسيح ، ولم يخلُ البطنُ ، فقد كَذَبوا إذن فى قولهم : إنه قد خرج ، وأقرّوا أنه قد وُلِدَ ، فتعالَى اللهُ عما يَصفون ، وتنزَّه عما يشركون . وسَلْهم : لِمَ هبط عيسى إلى بطن مريم ، وتجسَّد باللحم والدم ؟ فإن قالوا : لِيَمْحَقَ الخطايا من الأرض ، ويربُطُ الشيطانَ عن الخلق ، فقل : كيف إذن لم يربطهُ عن نفسه ؟ وكيف جلاباه[1] من اليهود بصَلْبه ؟ ولِمَ سُلِّط على أهل دينه يُتَّبَعُونَ فى كل شِعْب[2] ، ويُقْتَلونَ بكل وادٍ ؟

وقل للذين يقولون : إن الخالق فى كل مكان من السماء والأرض وغير ذلك : أيُّهما أعظم : المحيطُ المشتَمِل أم المحاط المُشتَمَلُ عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون؟ فإن قالوا : إنما التَحَمَ بعضُه دون بعض ، فقد حَدُّوا وبعَّضُوا ونَقَصوا ، وإمَّا قالوا ، فلن يجدوا بُدًّا من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذى جعلوه رَبَّهم ، وهو إله عندهم ، ميت بعضه جيفة ، وإن بعضه حىّ طيب ، لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حىٍّ فيه رُوحٌ ، فلا بُدَّ إذن أن يدخل عليه ما يَدْخُل على الأجسام الحيَّة من الخوف والفزَع والفرَح والعطشِ وأشباهِ ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم ، وإفْكٌ مُبين ، فاتَّقِ عقوبة اللهِ ربِّك ولا تَمْشِ مُكِبًّا على وجهك ، ولكن اطلب والتمِسْ وابْحَثْ ، فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل : « من سأل أُعطِىَ ، ومن طَلَبَ وَجَدَ ، ومن استفتحَ فُتِحَ له »[3] .

---

(١) كذا بالأصل . (٢) الشعب : الطريق فى الجبل .

(٣) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٤٢) من الكتاب المقدس : « من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده » وورد فى إنجيل لوقا (الإصحاح ١١ آية ١٠ من الكتاب المقدس) « من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له » .

اجْمَع العلماء والبُصَراء الذين عندك ، والأساقفةَ والرُّهْبان الذين قبلك ، فقل : لأى شىء نسبتم المسيح إلهاً ، وجعلتموه رَبًّا ؟ ونجد الله سَمَّاه فى الكتاب ابناً ، وقد تجدونه قال : « إنى أذهَبُ إلى أبى وأبيكم ، وإلهى وإلهكم أيضاً » وهذا كلام يحتمل وجهين : أحدهما أولى به ، وقولٌ لايحتملُ إلا وجهاً وهو الرُّبُوبية ، أم كيف تنظرون إلى كلامه : « أذهب إلى أبى وأبيكم » فتُفْرِدونها فى نفسه وقد قالها فيه وفى غيره ؟

فاتَّقِ الله وكن من القائمين بالحق ، الموحِّدين للرب . إنَّ أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالا جَمَّةً ، وَصَرَفَ إليك مسائلَ كثيرة ، وبيَّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلاً من كثير ، واضِحاً من تفسير ، لا تمتنع العقولُ من التصديق به ، ولا القلوبُ من الإقرار به .

وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ما يُكْتَفَى به ، إن شاء الله ، وباليسير منه ، لأن كتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وحُجَجه محروسةٌ ، لايُزَاد فيها ولا يُنْقَص منها ، وإذا وجدت فيها كلمة تدلك عَلَى حق وتَهْديك إلى رشد، فلستَ واجِدًا أخرى تصُدُّك عنه ، وتُشَكِّكُك فيه ، إذا تُلِى ذلك بالحق ، ووُضِع على الصدق ، ولكن ضَلَّتِ اليهود والنصارى بتحريفِ تأويل الكلام وتصريف تفسير الكُتُب ، وأمير المؤمنين يسأل الله العِصْمة والتوفيق .

من ذلك ما قد شهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم ، وبيَّنَه فى الإنجيل لكم ، إذ قال للحَوارِيِّين : « أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط رُوحُ الحقِّ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسِهِ ، إنما يقُول كما يقال له ، وَهو يشْهد علىَّ وأنتم تَشهدون ، لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعَدَّ اللهُ لكم يخبركم به[1] » وترجمة البارقليط : أحمد ،

---

(١) ورد فى إنجيل يوحنا (الإصحاح ١٤ آية ٢٦) من الكتاب المقدس : « وأما المعزى:الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ، ويذكركم بكل ماقلته لكم » وفيه أيضا (الإصحاح ٥ آية ٢٦) : « ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى =

هذا ما لا شَكَّ ولا مِرْيةَ فيه ، وهو الذى يخبر بما وعد الله المؤمنينَ وَصَالِحِى الْحواريِّين فى القرآن ، ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الإنجيل .

ومن ذلك قول أشْعَيَا النبى عليه السلام : « قيل لى : أقم بطارا ماترى يخبرى[1] ؟ قال : أرَى را كبَين مُقبِلَين أحدهما يقول لصاحبه : سقطَتْ بابِل وأصنامها المنحوتة » ولسنا نعلم نبيًّا رَكِب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعِل السُّنَّة كى يعلم الناس أنهم بَشَر[2] » يقول : كى يتبيَّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان ، ولسنا نعلم نبيًّا وضع سُنَّةً تُنْسَب إليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، أما عيسى فإنه نَصَب سُنَّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قولُ حَبَقُّوق المتنبى فى زمان دانيال : « جاءَ الله من السماء ، والقِدِّيس من جبال فاران ، وامتلأت السَّماء من تحميد أحمدَ وتقديسه ، وَمَسَح الأرضَ بيمينه ، ومَلك رقابَ الأمم[3] » وقال أيضا : « تُضىء لنوره الأرضُ ، وتُحمَل خَيْــــله

= من عند الأب ينبثق ، فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء » وفيه — (الإصحاح ١٦ آية ١٣) « وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية » .

(١) كذا بالأصل وهو تحريف ، وورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٢١ آية ٩٦) من الكتاب المقدس : « لأنه هكذا قال لى السيد ، اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى ، فرأى ركابا ، أزواج فرسان ، ركاب حمير ، ركاب جمال ، فأصغى إصغاء شديدا ، ثم صرخ كأسد : أيها السيد : أنا قائم على المرصد دائما فى النهار ، وأنا واقف على المحرس كل الليالى ، وهو ذا ركاب من الرجال ، أزواج من الفرسان ، فأجاب وقال : سقطت بابل وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة كسرها إلى الأرض . . . » .

(٢) ورد فى سفر المزامير (مزمور ٩ آية ٢٠) من الكتاب المقدس: « يارب اجعل عليهم رعباء ليعلم الأمم أنهم بشر ، سلاه » .

(٣) ورد فى نبوءة حبقوق (الإصحاح ٣ آية ٣) من الكتاب المقدس : « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران ، سلاه » وجاء فى معجم ياقوت : « فاران : كلمة عبرانية معربة ، وهى من أسماء مكة ، ذكرها فى التوراة ، وقيل : هى اسم لجبال مكة . . . » .

وفى آية ٦ : « وقف وقاس الأرض ، نظر فرجفت الأمم ، ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القدم ، مسالك الأزل له » .

فى البحر[١] » فإلى مَن ينحو هذا القولَ ، وإلى أين يُذهَب بهذا المعنى ؟ لئن ذُهِب به إلى غير الذى تُحمَل خيلُه فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمرُه ، وغلَبَ على الأرض ومَسَحها[٢] ، ومَلَكَ رقاب الأمم كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبور : « صدِّقوا وسبِّحوا الربَّ تسبيحا حديثا ، سبِّحوا الذى هلَّله[٣] الصالحون ، لِيفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ، ويتوب صِهيَونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر ، وسدَّد الصالحين بالكرامة ، يسبّحونه على مضاجعهم ، ويكبِّرون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوفٌ ذات شفرَتين ، لينتقمَ الله من الأمم الذين لا يعبُدونه ، ثم يقيّد ملوكهم بالقيود ، وأشرافَهم بالأغلال[٤] » فأيَّتُما أمّةٍ يكبِّرون الله بأصوات وأذانِ الصلوات الدائمة ، وعلى كلِّ شرَف[٥] ، وعند كل حرب ، وأيتما أمةٍ كانت سيوفها ذات شَفْرَتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك قول أشعَيَا : « سبِّحوا الرَّب تسبيحاً حديثا، وَيسبِّحه من آفاق الأرض فَوج[٦] يكون فى بنى فيار[٧] » وبنو فيار قريش،أهل فاران الذى نزل فيه القرآن ،وأيَّتُمَا أمّةٍ تُسبِّح من آفاق الأرض ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عندى أكدى[٨]

---

(١) وجاء فى آية ١٥ من نبوءة حبقوق ، « سلكت البحر بخيلك كوم المياه الكثيرة » .

(٢) « فى الأصل » ومنحها. (٣) فى الأصل « هلكه » .

(٤) ورد فى سفر المزامير (مزمور ١٤٩ آية ١ — ٩) من الكتاب المقدس : « هللوا » غنوا للرب ترنيمة جديدة : تسبيحته فى جماعة الأتقياء ، ليفرح إسرائيل بخالقه ، ليبتهج بنو صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص ، ندف وعود ، ليرنموا له ، لأن الرب راض عن شعبه ، يجمل الودعاء بالخلاص ، ليبتهج الأتقياء بمجد ، ليرنموا على مضاجعهم ، تنويهات الله فى أفواههم، وسيف ذو حدين فى يدهم، ليصنعوا نقمة فى الأمم ، وتأديبات فى الشعوب ، لأسر ملوكهم بقيود ،وشرفائهم بكبول من حديد ، ليجروا بهم الحكم المكتوب ، كرامة هذا لجميع أتقيائه ، هللويا » .

(٥) الشرف : المكان العالى .

(٦) فى الأصل « فرح » والظاهر أنه محرف عن « فوج » وهو الجماعة من الناس .

(٧) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١٠ — ١٢) من الكتاب المقدس: « غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملئه والجزائر وسكانها ، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار ، لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال ، ليهتفوا ، ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . (٨) هكذا فى الأصل ،

ومن ذلك قول أشعياَ « عبدى الذى وَجَب به حبى الذى بَشَّرْتُ به نفسى ، أُفيض عليه رُوحى ، يُوصى الأمم بالوصايا ، لايضحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق ، ويفتح العيون العُور ، ويُسْمِع الآذان الصُّمّ ، ويُحْيى القلوبَ الغُلْفَ[١] ، وما أُعطيه لا أُعطى غيرَه ، أحمد يحمَد الله حَمْدا حديثا، تهليله يأتى من أقصى الأرض، يجوز الماء بشدة أمواجه، ويعرح وكورها[٢] سكانها يَحمَدون الله على كل شَرَف، وَيكبّرونه على كل رابية[٣] » .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين[٤] ، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزَّبور : « انصبَّتْ رحمتى على شَفَتيك من أجل ذلك بارَكل الدهرَ تَقلَّدِ السيف على الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسْر والسَّباء بهاك وحمدك أحمد يغلب البر منك كلمة الحق ، وذلت لك الأشياء سيفك يحسمه يمينك ونبالك مسمومة ويسقط عند الأمم[٥] » فأيُّ نبى كان على الأمم جبَّارا ، ولهم بإذن الله قَتَّالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

ومن ذلك فى آخر التوراة : « جاء الله تبارك وتعالى من سِيناء ، وأشرَق من ساعير ، واستبان واستعلَنَ من جبال فاران ، وجاء عن يمينه رَبَوَاتُ القدِّيسين[٦] »

---

(١) الغلف جمع أغلف ، وقلب أغلف : كأنما غشى غلافا فهو لا يعى .

(٢) هكذا فى الأصل .

(٣) ورد فى نبوءة أشعيا (الإصحاح ٤٢ آية ١ ــ ٤) من الكتاب المقدس : هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى ، وضعت روحى عليه ، فيخرج الحق للأمم ، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة خامدة لا يطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا ينكسرّ حتى يضع الحق فى الأرض ، وتنتظر الجزائر شريعته » .

(٤) فى الأصل : « فى خمسة وأربعين مزمورا » .

(٥) هكذا وردت العبارة فى الاصل،وهى مليئة بالتحريف ويتضح لك تصحيحها إذا رجعت إلى سفر المزامير ، جاء فى المزمور ٤٥ آية ٢ ــ ٥ من الكتاب المقدس : « انسكبت النعمة على شفتيك ، لذلك باركك الله إلى الأبد ، تقلد سيفك على فخذك ، أيها الجبار جلالك وبهاءك ، وبجلالك اقتحم ، اركب من أجل الحق والدعة والبر ، فتريك يمينك مخاوف ، نبلك المسنونة فى قلب أعداء الملك ، شعوب تحتك يسقطون » .

(٦) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ٣٣ آية ١) من الكتاب المقدس : « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس ، وعن يمينه نار شريعة لهم » .

وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزَل التوراة على موسى فى طور سيناء ، وَأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير ، وهو جبل بالشام، وأنزل القرآن على محمدصلى الله عليه وسلم فى جبال فاران ، وهِى بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرَّراً ، وتعرِفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجَل لموسى عليه السلام : « سأقيم لهم من إخوتهم مثلك أجْعَل كلامى على فمه ، ولا يتكلم إلا بما آمُره به[1] » فَمَن إخْوَةُ بنى إسرائيل إلا بنو إسمٰعيل ؟ أمَا تعلم أن لو كان الله عز وجل يَعنى أحدا منهم لقال لهم : أقيم لكم نبيا منكم !

فإن قلتم : إنما قال من إخوتكم ،وهو يُريد من أنفسكم ، فهَبْ أمير المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْف منكم ، وَوَسَّع فى هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل فى التوراة : « مثل موسى فى بنى إسرائيل لايقوم »فهل تجدون من هذا مَخْرَجا ، ومن الإيمان أنَّ المعنى وَقَع عَلَى محمد صلى الله عليه وسلم بُدًّا؟ ألاتسمع قول الله عز وجل؟ «أجعل كلامى على فمه كى يُغْنَى به ، أُمِّىٌّ لايقرأ ولا يكتب » .

أو ليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوارييِّه أن يقولوا فى صلواتهم : « ياأبانا الذى فى السموٰات تقدَّس اسمك[2] » كيف صار عيسى دونهم ابنا، وصار دونه أبا وهم يقولون: « ياأبانا » ؟ أم كيف لم يجعل سليمان بن داود إلهٰا ، وقد قال الله عز وجل لداود : « يولد لك غلام يُسَمَّى لى وأُسَمَّى له» ؟ ولم لايجعلون إسرائيل إلهٰا وقدقال الله عز وجَلَّ له: «أنت بِكْرِى» بل لِمَ لا يُسَمُّون المؤمنين عامةً والحَوارِيِّين خاصَّة آلهة، وقد قال المسيح للحواريِّن : « أنتم إخوتى » وقد قال فى الإنجيل : « أعطِ كل من آمن بى سلطانا

---

(١) ورد فى سفر التثنية (الإصحاح ١٨ آية ١٥) من الكتاب المقدس : « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون » .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٦ آية ٩) من الكتاب المقدس : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك » .

يُدْعَى له » وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة ، أفَلاَ تجعلونهم كلَّهم آلهةً ؟ وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله وهو يقول فى مواضع جمة، وأماكن كثيرة، إنه ابن الإنسان؟ فكيف يكون ابنُ الإنسان ابنَ الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً ، وجعلوا الله إنسانا حديثا، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزَل ، وابن الإنسان فيما حَدَث ! وهذه أمور متناقضة ، وحجج دَاحِضة ، وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رُفع إلى السماء ، فليَعْبُدوا الملائكة، فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ ، فقد رفعه الله وغيره ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذَكَر . فآدمُ وحوّاء لم يُخْلَقَا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا من غَمِّ[1] الرحم ، وضِيق البطن ، وحال الصِّبا ، فيما وقع فيه المسيح ، وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى فما أحيا حِزْقيل[2] أكثر ، وما كان من الْيَسَع تلميذ إلياس أعجبُ ، لأنه أحيا الموتى بعد مِئِينَ من السِّنين ، وإن طلبتم ذلك فى سِيَرَ الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله، وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسْقَام التى أبرأ ، والعجائب التى أرَى ، فعجائب موسى أعجبُ ، وآياتُه أعظمُ ، أين ما ذكرتُ لك من عجائب عيسى ، من عجائب موسى : من انقلاب البحر له ، وسلوكِ الجيش معه ؟ أم أين ذلك من حَجَر

---

(١) أى ستره . (٢) جاء فى كتب التفسير عند تفسير قوله تعالى فى القرآن الكريم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » .

قيل : هم قوم من بنى إسرائيل وهم أهل داوردان — قرية قبل واسط — وكان وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم ، ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره، مر عليهم حزقيل عليه السلام — أحد أنبياء بنى إسرائيل — وقد عريت عظامهم ، وتفرقت أوصالهم ، فتعجب من ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه : ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى ، فنادى ، فقاموا يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ، وقيل : هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ، ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم .

يَضْربه فيتفجَّر بعيُون الماء ، ويحمِلُه معه حيث شاء ؟ بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حَبْس يُوشَعَ الشمس[١] ثلاثَ ساعات! وكل ماصنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمْره وقَدَره وقضائه ، فاتق اللهَ وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى مالم يقل ، فإنكم لاتجدونه قال لكم فى شىء من كتبكم : اعبُدونى فإنى ربكم ، تعالى الله عما يقول الظالمونَ ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحَبَّ أن يَنْصَح لك ، فى أوْلَى داريك بك ، وأهمِّ شأنَيْك لك ، فدعاك إلى الإسلام ، وأمرك بالإيمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فإن قبِلْتَ فحظَّك أصبْتَ ، ونفسَك أحرزتَ ، ولك ما للسلمين وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجِزْية التى يَحْقِن الله بها دماءكم ، ويحرِّم بها سِباءكم ، ويجعلها قِواما لِمَعاشكم ، وصلاحا لبلادكم ، وتوفيرا لأموالكم ، وأمْنا لجنابكم ، وسَعة لسربكم[٢] ، وبَرَكة عَلَى فقرائكم ، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنة منكم .

ولن يذكُر أمير المؤمنين فى الجزية لكم : من حُلول الأمن فيكم ، وعُموم العافية إياكم ، واستقامةِ البَرَكة عليكم ، وكفِّ أيدى المسلمين عنكم وبَسْطِها على الأعداء منكم ، شيئاً إلّا وفى قليل ما كان من أشباهِ ذلك أيامَ تلك الفِدْية ، التى كان الله أجْرَى نعمتَها لكم على يده ، وفتَح بركتَها عليكم من قِبَله ، مايدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويَشْهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله ، فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طَرَف من أطرافكم ، وصِنف من أصنافكم ، بتلك الفدية ، أموراً عظيمةَ البركة ، واسعةَ المنفعة ، فى أمورٍ غير واحدة :

---

(١) هو يوشع بن نون، فتى موسى عليهما السلام . روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبر الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

(٢) السرب بالفتح : الطريق ، وبالكسر: النفس .

منها أن قادةَ جنودكم وساسَةَ حربكم ، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عَقْدها ، فِراغًا لمحاربة أعدائكم ، ومناصَبة من نَاوَأكم[1] ، بين أن يستعجموهم[2] فى بلادهم ، ويَنزِلوا عليهم فى ديارهم ، ولا يرهبون تَعَقُّبَ بشرٍ إن ساروا فى أرضهم ، ولا يتخوَّفون طِرادًا إن اجتمعوا لقتالهم ، أن يُقيموا فى خَفْضٍ ودعَة ، وأمْنٍ وسَعة ، مع الأزواج والأولاد والعِيال والأوطان والرِّباع والمَحَالِّ ، وهم اليوم يترقَّبون الجيوش من كل شِعْب ، ويتخوَّفون الحُتوفَ فى كل وقت ، لايهدأ لهم جَأْشٌ[3] ، ولا يَسْكُن لهم فَزَع ، ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال ، قد قطعت الهموم دابِرَهم ، وأضمَرَتِ المخاوفُ جُنُوبَهم ، واستأصلتِ الجنودُ أموالهم .

ومنها : أن أهل الحِراثة وإخوانَ العِمارة فى بلادك وأطرافِ أرضك ، كانوا سِراعًا إلى عِمارة أرضهم ، وإصلاح ماتحت أيديهم ، فيما لا قوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به ، ولا بقاءَ لدينهم إلا معه ، قد أمِنوا الجيوش ومَعَرَّتَها ، والجنودَ وبادِرَتها[4] ، وانتشروا للعمارة ، وابتكروا فى الزراعة ، فارقوا رءوسَ الجبال وأقحامَ الغِياض[5] ، وراحُوا فى أوساط أوطانهم ، وظِلال محالِّهم ، يشقِّقون الأنهار ، ويغرِسُون الأشجار ، ويفجِّرون العيون ، حتى نَمَتِ الأموال ، واخْضَرَّت المحال ، وأخصَبَ الجنابُ ، وأصبحوا اليوم عن الزراعة مُمْسِكين ، وللحِراثة تاركين ، وبغيرها مشتغِلين فى إصلاح آلات الحَرْب ، وإحراز العيال فى الحُصُون ، ورمِّ القلاع للجَلاء ، وتحريش الحصون للبلاء ، قد انتقلوا عن منابتِ البَرِّ ، وكرائم الأرض ، ومجارى المياه ، إلى أوشال[6] الجبال ، وأشجارِ الغياض ، وبُطون الأودية ، فليس يبلغون من عمارة بلادهم ، ولزوم أوطانهم ، ومن

---

(١) ناوأه: عاداه . (٢) كذا فى الأصل .

(٣) الجأش : النفس ، ورواع القلب إذا اضطرب عند الفزع ، وفى الأصل « لاسكن لهم جأش »

(٤) البادرة : مايبدر من حدتك فى الغضب من قول أو فعل .

(٥) الغياض : جمع غيضة بالفتح ، وهى الأجة ومجتمع الشجر فى مغيض ماء .

(٦) الأوشال : جمع وشل بالتحريك ، وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة .

تناوُلِ ثمارهم وقِوام معاشهم ، مِثلَ ما كانوا يبلغون ، ولا ينالون من خَفض العيش وطِيب الأمن ، ولذّة الدَّعة ، قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات وأصحابَ الأموال وأهل الظِّلْفِ والحافِر[١] ، كانوا يتناولون ما شارَفَهم من بلادنا ، وما قارَبَهم من أسواقنا ، فيفقّون تجاراتهم ، ويُغلُونَ بضائعهم ، فتعظمُ الأرباحُ وتضعّفُ الأثمان ، وكانت الباعةُ من تجار المسلمين وغيرهم من الذّمّيين يتناولونهم للبيع لهم ، ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمّت البركة ، وسهُلت المنفعة ، حتى نالتِ الرّعاء فى جبالها وامالها[٢] ، والنساء فى غزُولهنّ وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبلَك من ذوى العبادة والزّهادة والتألُّه والنُّسك والنيّات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الخوف ، قد نجوتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها ، والأمور التى أمركم بها ، من نحو قوله : « مَنْ لَطَم خدَّكَ الأيمن فأمكِنْه من الأيسر ، ومن انتزع قميصَك فأعطِه كِساءك ، ومن لطمك فاغفِر له ، ومن شتَمك فأعرِضْ عنه »[٣] .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حَوْزَتك ، قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفْض ، ودَعَة الحال ، وحلاوة الأمْن ، ورفاهِيَة العيش ، وسَعَة العافية ، من سِباء أزواجهم ، وهَيْض[٤] أولادهم ، وحَطْمِ معاشهم ، وأسْرِ رجالهم ، وغنيمة بَقَرِهم وغنمهم ، وإفساد شَجَرهم وثِمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، مالم يكن لهم رأىٌ يعرِفه ، ولا ظنٌّ يَبلُغُه ، ولا طمعٌ يقارِبُه ، ولا أمَلٌ يذهب إليه ، وما قد عرَفَت

---

(١) الظلف للبقرة والشاة : بمنزلة القدم لنا .

(٢) كذا بالأصل .

(٣) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٣٩ ـ ٤١) من الكتاب المقدس : « وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك معه ميلا واحدا فاذهب معه اثنين » .

(٤) من هاض العظم يهيضه : إذا كسره بعد الجبور ، والحطم : الكسر .

الخاصّة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبَرَكَةِ ولايتكم مُلكهم ، ومنفعةِ سياستكم أمْرَهُم ، ماقد ازدادوا لكم به محبّةً ، وفى بقائكم رغبةً ، ولأمركم طاعةً ، وعلى ملككم شفقةً ، وفيما نابكم نصيحةً ، مع ماقد ازددتم بذلك من الهَيْبة فى صدور الأعداء ، والشَّرَفِ فى قلوب النُّظَراء ، والعِظَم فى عيون الأمم ، حتى أقرّوا لكم بقُوَّة عزائم العقول ، وفضل سياسةِ الأمور ، وصِحَّة تدبير المُلك ، وصدقِ النيّة ، ولُطْف الحيلة التى جعلوا نسبة عملكم بها ، ومحلّ رأيكم فيها ، على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قَوُوا ، ولفقرائكم حتى استغنَوْا ، ولقرّانكم حتى بينوا وحيو وهووا المسلمين[1] من أيام الحروب ، وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين ، وجيرتكم الأقربين ، حتى كفتم من فراغكم لهم ، واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر سحر[2] القتل ، وذُلّ الأسر ، وغَلَبة القهر ، والإذعان والاستسلام ، وإمّا كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرتَ ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله فى الفِدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مُقيم معكم فى الجِزْية ، فلا يكونَنّ لك رأىٌ غيرها ، ولا أمير سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العَجَب من أمركم ، وأطال تقليبَ الفِكرة فى بعضكم ، فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه ، مما أصبحتم عليه من انتظار وَقَعات الحروب وصَوْلات الجنود ، وأكل الحدود ، وتوقُّع الجلاء والسِّباء والقتل ، والأسر والحَصْر ، شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم ، وكيداً استدرككم به لِمَا عَلِم من قلوبكم .

ألاَ إنّ أعجبَ عذركم وأفظَعَه كان عند أمير المؤمنين ، إذ بلغه جُرْأتكم على الله عز وجل فى نقضِ عهده ، واستخفافكم بحقِّه فى خَفْر[3] ذمته ، وتَهاوُنكم بما كان

---

(١) كذا بالأصل . (٢) كذا بالأصل . (٣) أى نقض .

منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونُذُورَ الأَيمان الذى وضعه الله عزّ وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقه ، وأمانا أفاضه فى عباده ، لِتَسْكُن إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، وَيقيموا به من دنياهم ودينهم ، فمَا مِن مَلِك من الملوك ، ولا أمة من الأمم ، تُبيح حِمَى آلله عز وجل ، تهاوُنا به وجُرْأَةً عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرةً(١) من دُوَل الأعداء ، وأنزل عليهم عذاباً من السماء ، وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجْرِىَ الله نِقْمته منكم بأيدى المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عَهْدَكم وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلَّظة ، والعهود المؤكدة ، التى قد اعتقَدها فى رقابكم ، وحَمَلها على ظهوركم ، فأشْهَدْتم الله بها على أنفسكم ، وتسامَعَ بها مَن حَوْلكم ، وحَكَم بها بطارِقَتكمُ وأساقفتكم ، فلا أللهَ اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكْثًا للعهد ، وبُغْضًا للمسلمين ، وخَتْرا(٢) بالأمانة ، وإباحة للحِمَى ، فتوقَّعوا العقوبَةَ ، وانتظِرُوا الْغَيْبَ ، فلقد وثقَ أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريدُ الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمَع أمير المؤمنين وعَزَم عليه ، وقَذَف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوشِ بلادَكم ، واستباءِ المقاتِلَة أرضكم ، والتفرّغ لكم من كل شغل ، والإيثارِ لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ(٣) وأنتم صاغرون ، فكونوا على عُدّة من الجزية ، ويقين من الأُنتجاع الذى لا طاقَةَ لكم إن شاء الله به ، ولا صَبْرَ لكم بإِذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارِغَة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخِيَّة بالإنفاق ، ويده مُطْلَقَة بالبذل ، والمسلمون نشَاطٌ إليكم ، منقلبون عليكم ، قد عوّدهم الله فى لقائكم عادةً يرجون انتظار مثلها ، وأَبْلاهم فى قتالكم بلاءً من أمثالها ، إن شاء الله .

---

(١) الدائرة : الهزيمة .

(٢) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر .   (٣) انظر الجزء الأول ص ٣٩ .

وكتابُ أمير المؤمنين نَذِيرُه بين يَدَىْ جنوده ، ومُقَدِّمه إن شاء الله من جيوشه، إلا أن تؤدُّوا الجِزية عن التى دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحَدَاك[1] ومَن قِبَلك عليها ، رحمةً للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجُّعا للمساكين مما لا تَوَجَّع منه لهم من الجلاء والسِّباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوةً من قلوبكم ، وأَثَرَةً لأنفسكم ، واعتصاماً بخواصِّكم ، وإجلاء لعوامِّكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدبَ المسيح إياكم ، وقولَه فى الكتاب لكم : « طُوبَى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم[2] » .

وأَيمُ اللهِ لو يعلم مَن قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين ، اتحَدَّروا عليه ، وأقبلوا إليه ، : من إيوائهم ، وإنزالهم الأرضَ الواسعةَ ، وإمكانهم من مَسَايِل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقاربُه ، رِفقاً بهم ونظراً لهم ، وإحساناً إليهم ، مع تخْلِيته إياهم وأديانَهم ، لا يُكرِهُهم على خلافها ، ولا يَجْبُرهم على غيرها ، لاختاروا قُرْبَ أمير المؤمنين على قربك ، وجوارَه على جوارك ، ولأنقذوا[3] أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم ، مما يَحُلُّ بهم فى كل عام ، ويلقَوْن من كل غزَاةٍ ، فاتق الله واقبَلْ ما عُرِض عليك من الجزية ، ولا يمنعَنَّك ما فيه[4] الحظُّ لك ولأهل مملكتك ، ونحن على رجاء أن الله لا يؤخِّر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوَّة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخُل عليكم فى الإذعان

---

(١) من حدا الإبل وبها : إذا ساقها .

(٢) ورد فى إنجيل متى (الإصحاح ٥ آية ٧ — ٩)من الكتاب المقدس« طوبى للرحماء لأنهم يرحمون طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون » .

(٣) فى الأصل « ولا ابتذلوا » .

(٤) فاعل يمنع غير موجود فى الجملة ، والظاهر أن الأصل « ولا يمنعك العناد أو الشيطان مثلا » .

لهم ، وأداء الجزية إليهم ، حَمِيَّةٌ ولا نقيصةٌ ولا عارٌ ، والذين يفُون لكم بما يَعقِدُون ويُتبِعون فعلَهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصَّةٍ ، لما جعل الله عليه رأيَه ، وفيه نظرَه ، من البرِّ والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط ، نظرا لدينه ، وخوفا من ربه ، ولِمَا قَذَفَ الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأَثَرة ، ولِمَا جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائحِ فى السر والعلانية ، وما عوَّده الله ممن نَصَب له بمجاذبة ، ورماه بمكايَدة ، وعرَاه بحِيلةٍ : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين ، فابذُلْ من الجزية ما شئت ، وسَمِّ منها ما هَوِيت . واعلم أن أميرالمؤمنين ليس يَحذُوك عليها لحاجةٍ به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعةً لربه ، وأثرةً لحقه ، وليَجْعَلَها سبباً لِمَا يُريد أن يجرى فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبولُ المهدىِّ ـ رحمه الله ـ الفديةَ منكم ، بطِلْبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه[1] ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظامٍ لها ، ولقد كان يُعْطِى فى المجلس الواحد مِراراً أمثالَها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم ، فأما اليوم إذ استبان له غدرُكم ونقضكم ونَكْثُكم ، واستخفافكم بدينكم ، وجُرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلامُ أو الحرب المُجْلِية إن شاء الله ، ولا حولَ بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكَّل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٢٦)

١٦٨ — كتاب نقفور ملك الروم إلى الرشيد

وجرى الصلح بين الرشيد وبين إيرِينى[2] ملكة الروم بعد حروب دارت بينهما ، فعادت الروم على إيرينى فخلعتها ، وملَّكت عليها نِقفُور[3] ، فلما استوثقت له الرومُ بالطاعة كتب إلى الرشيد :

---

(١) كذا بالأصل . (٢) وليت ملك الروم سنة ٧٩٢ . (٣) ولى ملك الروم سنة ٨٠٢ م .

« من نقفور ملك الروم إلى هٰرون ملك العرب .

أما بعدُ ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مَقامَ الرُّخّ[1] ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق ، فحملَتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقا بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك لضعف النساء وحُمْقِهن ، فإذا قرأت كتابى فاردُدْ ما حصل قِبَلك من أموالها ، وافتدِ نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وَإلاَّ فالسيفُ بينى وبينك » .

١٦٩ — رد الرشيد عليه

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب وكَتب إليه :

« بسم ٱللّٰه الرحمٰن الرحيم : من هٰرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم .

قد قرأتُ كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه ، والسلام » .

ثم شَخَص إليه من يومه ففَتَح وغنِم ، فطلب نقفور الموادعة على خَراجٍ يؤديه فى كل سنة، فأجابه إلى ذلك، وكان ذلك سنة ١٨٧ هـ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٩٢)

١٧٠ — رواية أخرى

وفى رواية صبح الأعشى أن نقفور كَتب إلى الرشيد :

« أما بعدُ ، فإن هذه المرأة وضعتك موضعَ الشاه ، ووضعت نفسها موضع الرُّخ ، وينبغى أن تعلم أنى أنا الشاه ، وأنت الرُّخ ، فأدِّ إلىّ ما كانت المرأة تؤدى إليك » .

فلما قرأ الكتاب ، قال لكتّابه : أجيبوا عنه ، فكتبوا مالم يَرتَضِه ، فكتب هو إليه :

« من عبد الله هٰرون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعهُ ، والسلام على من اتبع الهدى » .

---

(١) الرخ والبيدق : من أدوات الشطرنج .

ويقال : إنه كتب : « الجواب ما تراه لا ما تسمعه ، وَسَيَعْلَمُ الـكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار » .

(صبح الأعشى ١ : ١٩٢ ، ٦ : ٤٥٧)

* * *

وفى رواية الأغانى أن نقفور كتب إلى الرشيد :

« أما بعد ، فإن هذه المرأة كانت وضعتك وأباك وَأخاك موضع الملوك ، ووضعتْ نفسها موضعَ السَّوَق[1] ، وإنى وَاضِعُك بغير ذلك الموضع ، وَعَامِلٌ على طَرْق بلادك ، والهجوم على أمصارك ، أو تؤدِّيَ إلىَّ ما كانت المرأة تؤدِّى إليك ، والسلام » .

(الأغانى ١٧ : ٤٤)

١٧١ — كتاب الرشيد إلى على بن عيسى بن ماهان

وَوَلّى الرشيد على بن عيسى بن ماهانَ خراسانَ (سنة ١٨٣) فعاثَ فيها فساداً ، وظَلَمَ أهلها ، وَوَتَرَ أشرافها ، وأخَذَ أموالهم ، واستخفّ برجالهم ، فكتب رجال من وجوهها إلى الرشيد ، وكتبت جماعة من كُوَرها إلى قراباتها وأصحابها تشكو سوء سيرته ، وخُبْث طُعْمَته ، ورداءة مذهبه ، وتسأل أمير المؤمنين أن يُبْدلها منه مَن أَحَبَّ من كُفَاته وأنصاره ، فدعا الرشيد هَرْثَمة بن أعْيَن وقال له : لقد أنكر أهل خراسان أمْر علىّ بن عيسى ، إذ خالف عهدى ونَبَذَه وراء ظهره ، وقد كتب يستمِدُّ ويستجيش[2] ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أُمِدُّه بك ، وأوجّه إليه معك من الأموال والسلاح والعُدَّة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلّع إليه نفسُه ، وأكتب معك كتابا بخطّى فلا تَفُضَّنَّه ولا تطّلِعنَّ فيه حتى تصل إلى نيسابور ، فإذا نزلتَها فاعمل بما فيه وامتثِله ولا تجاوِزْه إن شاء الله ، وأنا مُوَجِّه معك « رَجَاء » الخادم بكتاب أكتبه إلى على

---

(١) السوقة بالضم : الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد يجمع على سوق بضم ففتح .

(٢) وذلك لقتال رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان قد خرج على الرشيد بسمرقند كما سيجىء .

ابن عيسى بخطى ، فلا تُظهِرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهّبْ للمسير ، وأظهِر لخاصّتك وعامّتك أنى أوجهك مَدَدا لعلى بن عيسى وعونا له .

ثم كتب إلى على بن عيسى كتابا بخطه ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يابن الزانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوّهتُ باسمك ، وأوطأتُ سادةَ العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناء ملوك العجم خَوَلَك[١] وأتباعك ، فكان جزائى أنْ خالفتَ عهدى ، ونبذتَ وراء ظهرك أمرى ، حتى عِثْتَ فى الأرض ، وظلمتَ الرعية ، وأسخطتَ الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طُعْمتك[٢] ، وظاهِرِ خيانتك ، وقد وليتُ هَرْثَمةَ بن أعْيَن مولاىَ ثغرَ خُراسان ، وأمرته أن يشُدَّ وطْأته عليك وعلى ولدك وكُتّابك وعُمّالك ، ولا يتركَ وراء ظهوركم دِرهما ولا حقًّا لِمسلم ولا مُعاهَدٍ إلّا أخَذَكم به ، حتى تردّه إلى أهله ، فإن أبيْتَ ذلك وأباه ولدُك وعُمّالك ، فله أن يبسُط عليكم العذابَ ، ويصُبَّ عليكم السِّياطَ ، ويُحِلَّ بكم ما يَحِلُّ بمن نكَثَ وغيَّر وبدَّل وخالَف وظلَمَ وتعدَّى وغَشَم[٣] ، انتقاماً لله عزّ وجل بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهَدين ثالثاً ، فلا تعرِّضْ نفسك للتى لاشَوَى[٤] لها ، وأخرجْ مما يلزمُك طائعاً أو مكْرَهاً » .

وكان ذلك سنة ١٩١ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

١٧٢ — عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقد ولاه خراسان

وكتب عَهْدَ هَرْثَمة بخطه :

« هذا ما عَهِد هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى هَرْثَمة بن أعْيَن ، حين ولَّاه ثغرْ[٥]

---

(١) الخول : الحاشية والحشم . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .

(٣) غشمه كضربه : ظلمه .

(٤) أشوى من الشىء : أبقى منه بعضا ، والاسم الشوى ، ولا شوى لها : أى لا إبقاء لها ، أو لا برء لها . (٥) الثغر : موضع المخافة من فروج البلدان .

خراسان وأعمالَه وخراجَه : أمَرَه بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ماهو بسبيله ، فيُحِلّ حلالَه ، ويُحرِّم حرامه ، ويقِفَ عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يردّه إلى إمامه ، ليُرِيه الله عز وجل فيه رأيَه ، ويعزِمَ له على رشده .

وأمَرَه أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشُدَّ عليهم وَطْأته ، ويُحِل بهم سَطْوتَه ، ويستخرج منهم كل مال يصحُّ عليهم ، من خَراج أمير المؤمنين ، وفَىْء المسلمين ، فإذا استنظَفَ[1] ما عندهم وقِبَلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين ، والمعاهَدين ، وأخَذَهم بحقٍّ كلِّ ذى حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبَتَتْ قِبَلهم حقوق لأمير المؤمنين ، وحقوق للمسلمين ، فدافَعوا بها وجحدوها ، أن يَصُبَّ عليهم سَوْط عذاب الله ، وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحالَ التى إن تخطاها بأدنى أدَب[2] ، تلِفَتْ أنفسُهم وبطَلَت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخَصهم كما تُشْخَص العُصاة ـ من خشونة الوِطاء ، وخُشونة المطعم والمشرب ، وغِلَظ الملْبَس ـ مع الثِّقات من أصحابه ، إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله .

فاعمَلْ يا أبا حاتم بما عَهِدت إليك ، فإنى آثرتُ الله ودينى على هواى وإرادتى ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك ، ودبِّر فى عُمّال الكُوَر الذين تمر بهم فى صُعُودك مالا يستوحشون معه إلى أمر يَريبهم ، وظنٍّ يُرعبهم ، وابسُطْ من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يَرْضى الله منك وخليفته ومَن ولّاك الله أمره إن شاء الله .

هذا عهدى وكتابى بخطى ، وأنا أُشْهِد الله وملائكته وحَمَلَة عرشه وسكان سمواته ، وكفى بالله شهيداً » .

وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضُره إلا اللهُ وملائكته .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٢)

---

(١) استنظف الوالى ما عليه من الخراج : استوفاه . (٢) أى تأديب .

١٧٣ — كتاب هرثمة بن أعين إلى الرشيد

وسار هرثمة إلى خراسان، وأنفذ ما عَهِد به إليه الرشيد، فلما حمل عليَّ بن عيسى إلى الرشيد، كتب إليه كتابا يخبره ما صنع، ونسخته:

«بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإن الله عزَّ وجل لم يزل يُبلى[1] أميرَ المؤمنين فى كل ما قلَّده من خلافته، واسترعاه من أمور عباده وبلاده أجملَ البَلاء وأكملَه، ويعرِّفه فى كل ما حَضَره ونأى عنه، من خاصِّ أموره وعامِّها، ولَطيفها[2] وجليلها، أتمَّ الكفاية، وأحسنَ الولاية، ويُعطيه فى ذلك كلِّه أفضَلَ الأُمْنية، ويُبْلِغه فيه أقصَى غاية الهمة، امتناناً منه عليه، وحِفظا لِمَا جَعَلَ إليه، مما تكفَّلَ بإعزازه وإعزاز أوليائه وأهل حقه وطاعته، فنستَتِمُّ اللهَ أحسنَ ما عوَّده وعوَّدَنا، من الكِفاية فى كل ما يؤدِّينا إليه، ونسأله توفيقا لِمَا نقضِى به المُفْتَرَضَ مِن حَقِّهِ فى الوقوف عند أمره، والاقتصار على رأيه.

ولم أزَلْ — أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين — مُذْ فَصَلْتُ[3] عن معسكَر أمير المؤمنين، ممتَثِلا ما أَمَرنى به فيما أَنْهَضَنِى له، لا أجاوز ذلك ولا أتعدّاه إلى غيره، ولا أتعرَّفُ اليُمْنَ والبَرَكَةَ إلَّا فى امتثاله، إلى أن حَلَلْتُ أوائلَ خُراسان، صائنا للأمر الذى أمَرَنى أميرُ المؤمنين بصيانتِهِ وسَتْرِه، لا أُفضِى ذلك إلى خاصّىٍّ ولا إلى عامّىٍّ، ودبَّرْتُ فى مكاتبة أهل: «الشاش وفَرْغانَة[4]». وخَزْلِهما عن الخائن، وقَطْعِ طَمَعِه وطَمَعِ مَنْ قِبَله عنهما، ومكاتبةِ مَن «ببَلْخ» بما كنت كتبتُ به إلى أمير المؤمنين وفسَّرتُ له، فلما نزلتُ نيسابورَ عمِلتُ فى أمر الكُوَرِ التى اجتزْتُ عليها، بتولية

(١) الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: أبلاه الله بلاء حسنا، وأبليته معروفا، قال زهير:

جزى الله بالإحسان مافعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

(٢) لطف الشىء لطفا ولطافة ككرم: صغر ودق فهو لطيف.

(٣) فصل من البلد فصولا: خرج منه.

(٤) الشاش وفرغانة: كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين، وخزله كضربه: قطعه.

مَن وَلَّيت عليها قبل مجاوزتى إياها ، كجُرْجان ونَيْسابور ونَسَا وسَرْخَس(٢) ، ولم آلُ الاحتياطَ فى ذلك ، واختيارَ الكُفَاة وأهل الأمانة والصِّحَّة من ثِقات أصحابى ، وتقدمتُ إليهم فى سَتْر الأمر وكِتمانه ، وأخذتُ عليهم بذلك أيمانَ البَيْعة ، ودفعتُ إلى كل رجل منهم عَهْدَه بولايته ، وأمَرْتهم بالمسير إلى كُوَر أعمالهم ، على أخْفَى الحالات وأسْتَرِها ، والتشبُّه بالمجتازين فى وُرودهم الكُورَ ومُقَامِهم بها ، إلى الوقت الذى سمَّيتُ لهم ، وهو اليوم الذى قدَّرتُ فيه دخولى إلى « مَرْو » ، والْتِقَائى وعلىَّ ابن عيسى ، وعملتُ فى استكفائى إسْمٰعيلَ بن حَفْص بن مُصْعَب أمرَ جُرْجان بما كنت كتبت به إلى أمير المؤمنين ، فنفَّذَ أولئك العمالُ لأمرى ، وقام كلُّ رجل منهم فى الوقت الذى وُقِّتَ له بضَبْط عمله ، وإحكام ناحيته ، وكفى اللّٰهُ أمير المؤمنين المئُونةَ فى ذلك بلطيف صُنعه .

ولما صِرتُ من مدينة « مَرْو » على مِنزِلٍ ، اخترتُ عِدَّةً من ثِقات أصحابى ، وكتبتُ بِقسمية ولد على بن عيسى وكُتَّابه وأهل بيته وغيرهم رِقاعا ، ودفعتُ إلى كل رجل منهم رُقْعةً باُسم مَن وكَّلتُه بحفظه فى دخولى ، ولم آمَنْ لو قصَّرتُ فى ذلك وأخَّرتُه ، أن يصيروا عند ظهور الخبر وانتشاره ، إلى التغيب والانتشار ، فعملوا بذلك ، ورَحَلْت عن موضعى نحو مدينة « مرو » ، فلما صرت منها على ميلين تلقَّانى علىُّ ابن عيسى فى ولده وأهل بيته وقوّاده ، فلَقِيتُه بأحسنِ لقاء وآنَسْتُه ، وبلَغْتُ من توقيره وتعظيمه والتماسِ النزول إليه أوَّلَ ما بَصُرْتُ به ، ما ازداد به أُنْساً وثِقةً ، إلى ما كان رَكَنَ إليه قبل ذلك مما كان يأتيه من كُتُبى ، فإنها لم تنقطع عنه بالتعظيم والإجلال منى له والالتماس ، لِأُلْقِيَ سُوءَ الظن عنه ، لئلا يَسبِق إلى قلبه أمرٌ ينتقضُ به ما دبَّرَ أميرُ المؤمنين فى أمره ، وأمَرَنى به فى ذلك ، وكان اللّٰه تبارك وتعالى هو المنفرد بكِفاية أميرِ المؤمنين الأمرَ فيه ، إلى أن ضَمنى وإياه مجلسُه ، وصرت إلى الأكل معه ،

---

(١) هكذا ضبطه ياقوت فى معجم البلدان ، ثم قال : « ويقال سرخس بالتحريك ، والأول أكثر »

فلما فرَغْنا من ذلك بَدَأنى يسألنى المصيرَ إلى منزل كان ارتاده لى ، فأعلمتُه ما معى من الأمور التى لاتحتمل تأخيرَ المُناظرة فيها ، ثم دَفَع إليه « رَجاء » الخادِمُ كتابَ أمير المؤمنين، وأبلغَه رسالته ، فعلم عند ذلك أنْ قد حَلّ به الأمرُ الذى جناه على نفسه، وكَسَبَتْه يداه ، مِنْ سُخط أمير المؤمنين ، وتغيُّر رأيه ، بخلافِه أمْرَه ، وتعدِّيه سيرتَه .

ثم صرت إلى التوكيل به ، ومضيت إلى المسجد الجامع ، فبسطْتُ آمال الناس ممَّن حَضَر ، وافتتحتُ القول بما حَمَّلنى أمير المؤمنين إليهم ، وأعلمتهم إعظامَ أمير المؤمنين ما أتاه ووضَحَ عنده من سوء سيرة علىّ ، وما أمرنى به فيه وفى عُمَّاله وَأعوانه ، وأنى بالغٌ مِنْ ذلك ، ومن إنصاف العامة وَالخاصّة ، والأخذِ لهم بحقوقهم أقصى غايتهم ، وأمرتُ بقراءة عهدى عليهم، وأعلمتُهم أن ذلك مِثالى وإمامى ، وأنِّى به أَقْتَدِى ، وعليه أَحْتذى ، فمتى زُلْتُ عن باب واحد من أبوابه فقد ظلمتُ نفسى ، وَأحْلَلْتُ بها ما يَحِلُّ بمن خالَفَ رَأى أمير المؤمنين وأمْرَه ، فأظهروا السرورَ بذلك والاستبشارَ ، وعَلَتْ بالتكبير والتهليلِ أصواتُهم ، وكثُر دعاؤهم لأمير المؤمنين بالبقاء ، وحسن الجزاء .

ثم انكفأتُ إلى المجلس الذى كان علىٌّ بن عيسى فيه ، فصرت إلى تقييده وتقييد ولده وأهل بيته وكتَّابه وعمَّاله، والاستيثاق منهم جميعا، وأمرتُهم بالخروج إلىّ من الأموال التى احتجنُوها[1] من أموال أمير المؤمنين وَفَىْءِ المسلمين، وإعفائى بذلك من الإقدام عليهم بالمكروه والضرب ، وناديت فى أصحاب ودائعهم بإخراج ما كان عندهم ، فحَمَلُوا إلىّ - إلى أن كتبتُ إلى أمير المؤمنين - صَدْراً صالحًا من الوَرِق والعَيْنِ[2] ، وأرجو أن يُعين الله على استيفاء ماقبلهم ، واستنظافِ ماوراء ظهورهم ، ويسهِّلَ الله من ذلك أفضلَ ما لم يزَل يعوِّدُه أميرَ المؤمنين من الصُّنع فى مثله ، من الأمور التى يُعْنَى بها إن شاء الله تعالى .

---

(١) احتجن المال : ضمه واحتواه .

(٢) الورق : الدراهم المضروبة ، والعين : الدينار .

ولم أَدَعْ عند قدومى « مَرْو » التقدمَ فى توجيه الرسل وإنفاذِ الكتب البالغة فى الإعذار والإنذار، والتبصير والإرشاد، إلى « رافِع[1] » ومَن قبَله من أهل سَمَرْقَنْد، وإلى مَن ببَلْخ[2] ، على حُسْن ظنّى بهم فى الإجابة ولزوم الطاعة والاستقامة ، ومهما تنصرِفْ به رُسُلى إلىّ ياأمير المؤمنين من أخبار القوم فى إجابتهم وامتناعهم، أَعْمَلْ على حسَبه مِن أمرِهم ، وأكتب بذلك إلى أمير المؤمنين على حَقّه وصِدْقِه، وأرجو أن يعرف الله أمير المؤمنين فى ذلك من جميل صنعه ، ولطيف كفايته ، مالم تَزَل عادتُه جاريةً به عنده بمَنّه وَطَوْله وقُوّته ، والسلام » .   (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٥)

---

(١) هو رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وكان من خبره أنه ظهر بسمرقند مخالفا للرشيد وخلعه ونزع يده من طاعته (سنة ١٩٠) وذلك أن يحيى بن الأشعث الطائى كان تزوج ابنة لعمه أبى النعمان، وكانت ذات يسار ولسان ، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند ، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد ، التمست سببا للتخلص منه ، فعىّ عليها ، وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها، فدس إليها من قال لها : إنه لاسبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ، ثم تتوب فتحل للأزواج ، ففعلت ذلك وتزوجها رافع، وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفع ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره ، فدرأ سليمان بن حميد الأزدى — عامل على بن عيسى على سمرقند — عنه الحد ، وحمله على حمار مقيدا حتى طلقها ثم حبسه فى سجن سمرقند ، فهرب من الحبس ليلا فلحق بعلى بن عيسى ببلخ فطلب الأمان ، فلم يجبه على إليه ،وهم بضرب عنقه، فكلمه فيه ابنه عيسى بن على ، وجدد طلاق المرأة وأذن له فى الانصراف إلى سمرقند ، فانصرف إليها فوثب بسليمان بن حميد فقتله ، فوجه على بن عيسى إليه ابنه ، فمال الناس إلى سباع بن مسعدة فرأسوه عليهم فوثب على رافع فقيده فوثبوا على سباع فقيدوه ورأسوا رافعاً وبايعوه وطابقه من وراء النهر ، ووافاه عيسى بن على فلقيه رافع فهزمه ، ثم غلظ أمر رافع بسمرقند سنة ١٩١ ، وكتب أهل نسف إليه يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على ، فوجه صاحب الشاش فى أتراكه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فأحدقوا به وقتلوه ، فخرج على بن عيسى عن بلخ إلى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها .

(٢) كان عيسى بن على قبل قتله دفن فى بستان داره ببلخ أموالا عظيمة — قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ، ولم يعلم بها أباه ولا أطلع على ذلك إلا جارية كانت له ، فلما شخص على بن عيسى عن بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس ، فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة .

١٧٤ — رد الرشيد عليه

فأجابه الرشيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعدُ ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك بقدومك « مَرْوَ » في اليوم الذي سَمَّيْتَ ، وعلى الحال التي وصفتَ ، وما فسَّرتَ ، وما كنت قدَّمْتَ من الحِيَل قبل ورُودك إياها ، وعمِلْتَ به في أمر الكُور التي سَمَّيْتَ ، وتولية مَن ولَّيتَ عليها قبل نفوذك عنها ، ولطَّفْتَ له من الأمر الذي استجمع لك به ما أردتَ من أمر الخائن على بن عيسى وولده وأهل بيته ، ومن صار في يدك من عمَّاله ، وأصحاب عمَّاله ، واحتذائك في ذلك كلِّه ما كان أميرُ المؤمنين مَثَّلَ لك وَوَقَفَك عليه ، وفهِم أميرُ المؤمنين كلَّ ما كتبتَ به ، وحَمِدَ اللهَ على ذلك كثيرا ، وعلى تسديده إياك ، وما أعانك به من توفيقه ، حتى بلغت إرادةَ أمير المؤمنين ، وأدركتَ طِلبَتَه ، وأحسنتَ ما كان يُحبُّ بك وعلى يديك إحكامَه ، مما كان اشتد به اعتناؤه ، ولجَّ به اهتمامُه ، وجزاك الخير على نصيحتك وكفايتك ، فلا أعدم اللهُ أميرَ المؤمنين أحسنَ ما عرَّفه منك ، في كل ما أهاب[1] بك إليه ، واعتمد بك عليه .

وأميرُ المؤمنين يأمرك أن تزداد جِدًّا واجتهادا فيما أمرك به ، من تتبُّع أموالِ الخائن على بن عيسى وولده وكتَّابه وعمَّاله ووكلائه وَجَهابذته[2] ، والنظرِ فيما اختانوا[3] به أمير المؤمنين في أمواله ، وظلموا به الرعيةَ في أموالهم ، وتتبُّع ذلك واستخراجه من مَظَانِّه ومواضِعِه التي صارت إليه ، ومن أيدي أصحاب الودائع التي استودَعوها إياهم ، واستعمال اللين والشدة في ذلك كله ، حتى تصير إلى استنظافِ ما وراء ظهورهم ، ولا تبقي من نفسك في ذلك بقيَّة ، وفي إنصاف الناس منهم في حقوقهم

---

(١) أهاب به : دعاه . (٢) الجهابذة جمع جهبذ بكسر الجيم والباء : وهو النقاد الخبير .

(٣) خانه واختانه : بمعنى .

ومظالمهم حتى لا تَبـْقَى لمتظَلِّمٍ منهم قِبَلهم ظُلامةٌ إلاّ استقصيتَ ذلك له ، وحملته وإياهم على الحق والعدل فيها ، فإذا بلغتَ أقصى غاية الإحكام والمبالغة فى ذلك ، فأَشْخِص الخائنَ وولدَه وأهل بيته وكتَّابه وعمَّاله إلى أمير المؤمنين فى وَثاق[1] ، وعلى الحال التى استحقُّوها من التغيير والتنكيل بما كَسَبَتْ أيديهم ، وما اللهُ بِظَلَّامٍ للعبيد .

ثم اعمَلْ بما أمَرَكَ به أمير المؤمنين ، من الشُّخوص إلى سَمَرقند ، ومحاولة ما قبل « خامِل[2] » ومن كان على رأيه ، ممن أظهر خِلافا وامتناعا من أهل كُوَر ما وراء النهر وَطخارستان[3] بالدُّعاء إلى الفِيئَة[4] والمراجعة ، وبَسْطِ أمانات أمير المؤمنين التى حمَّلكَها إليهم ، فإن قبلوا وأنابوا وراجعوا ما هو أَمْلَكَ بهم ، وفرّقوا جموعهم ، فهو ما يحبُّ أمير المؤمنين أن يعاملهم به ، من العفو عنهم والإقالة لهم ، إذ كانوا رَعِيَّتَهُ ، وهو الواجب عَلَى أمير المؤمنين لهم إذا أجابهم إلى طِلبتهم ، وآمَنَ رَوْعَهُم ، وكفاهم ولايةَ مَن كرِهوا ولايتَه ، وأمرَ بإنصافهم فى حقوقهم وظُلاماتهم ، وإن خالفوا ماظنَّ أمير المؤمنين ، فحا كِمهُم إلى الله إذ طغَوا و بغَوا وكرِهوا العافيةَ وردُّوها ، فإن أمير المؤمنين قد قضَى ما عليه ، فغيَّر ونكَّل وعزل واستبدل وعفا عمن أحدث وصفَح عمن اجترَمَ[5] ، وهو يُشْهِد الله عليهم بعد ذلك فى خِلاف إن آثَرُوه ، وعُنُودٍ[6] إن أظهروه ، وكفى بالله شهيداً ، ولا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، عليه يتوكل وإليه يُنيب ، والسلام » .

وكتب إسماعيل بن صُبَيْح بين يدى أمير المؤمنين .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٠٧)

---

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : مايشد به .

(٢) يعنى رافع بن ليث ، وسماه بضد اسمه تحقيرا له وتهوينا لشأنه .

(٣) ضبطه ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء ، وضبطه ابن خلكان فى وفيات الأعيان (فى ترجمة بشار بن برد ١ : ٩٠) فقال : بضم الطاء وضم الراء ، وهى ولاية واسعة كبيرة من نواحى خراسان وراء نهر بلخ على جيحون . (٤) الفيئة بالفتح والكسر : الرجوع .

(٥) أجرم واجترم : بمعنى . (٦) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال .

١٧٥ — كتاب لهرثمة بن أعين

وكتَب هرثمة بن أعْيَن :

« ليس يكون منك شىء وإن حَسُنَ ، إلاّ وحُسْنُ ظنّى بك يبلُغه ، فاستَتِمَّ أحسَنَ ما كان منك ، يتمَّ لك أحسنُ ما تُحِبُّ منى ، ولا يمنعنَّك الاكتفاء بحالك اليومَ ، مِن طَلَب الزيادة فى غد ، فإنه لَقَلَّ شىءٌ لا يزيد إلا نَقصَ ، والزمانُ يَمْحَق الكثيرَ ، كما يربو على الزيادة القليلُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

١٧٦ — كتاب لقمامة بن زيد فى السلامة إلى الخليفة

وكتب قُمامة[١] بن زيد فى السلامة إلى الخليفة .

« كلُّ ما قِبلَنا وما يقناهى إلينا عن ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها ، فى صلاح ذلك كلِّه واستقامته وهدوئه ، على أفضلِ ماعوَّد اللهُ أميرَ المؤمنين فيه العلوَّ والعافية ، وأنا أحتذى[٢] فيـه من أمير المؤمنين أمرين : إمَّا تقدِمَةٌ عرَّفنى فيها رأيَه ، فأنا ألزِمُها ولا أعدِلُ عنها ، وإمَّا أثرٌ قد نَهجَه أمير المؤمنين فأنا أرْكَبُه وأتَّبعه ولا أفارقه ، فعلى هذا بحَول الله وقوته مُعتَمَدى ، قد كفَى الله به فى الهداية ، وأعطى فيـه الخيرَ والمنَّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨)

١٧٧ — كتاب آخر

« كتبت إليك وقد استقام كلُّ ما قِبَلى واعتدل ، وجمَعَ الله أيدى أهله وقلوبَهم على إمامهم ، وأراهم من تباشير الخير وأمارات البَرَكة ، ما أرجو أن يُديمَه الله ، ويتابع

---

(١) كتب عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، وكان بليغا فصيحا — انظر الفهرست ص ١٧٣ ، ص ١٨٢ (وقد ولى عبد الملك للرشيد بلاد الجزيرة والشام ثم وليهما من بعده لابنه الأمين)

(٢) فى الأصل « وإلاعتدى » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى .

المَزِيدَ فيه ، والحمد الله الذى قذَفَ فى قلوب رعيته من الإذعان بحقه ، والبُخُوع[1] بطاعته ، والخروج من ضِيق ما كانوا فيه إلى سَعَةٍ مما كانوا عليه ، والذى ولاَّكَ ذلك منا ومنهم بذاتِك[2] وباسْمِك ، وجَعَلَكَ الحامِلَ له عنا ، والقائمَ به لنا ، واللسانَ فيه دونَنا ، وأحسن اللهُ جزاءك على ماحُطْتَ من هذه الدولة ، وتلافيتَ ما كان قد رثَّ من حَبْلها ، وَوَهَى مِن قُوَّتها » . (المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

١٧٨ — كتاب إسحق بن الخطاب إلى الهزبر بن صبيح

ولإسحٰق[3] بن الخطاب إلى الهِزَبْرِ[4] بن صُبَيح يعزيه عن أبيه :

« فإنَّ أَولَى مَن حسُن عَزاؤُه مَن كان بمعرفته مكتفيا ، وعن غيره فيما أنعم الله عليه معزِّيا ، وأنت لسانٌ منصوبٌ لذلك ، بفضل ما عندك فيما بلغَه منطقُك ، وأتَى عليه بيانُك، وهذا أَوانُ اختبار الله إياك بشكر ذلك ، وَإقرارك بالحجة عليه فيما كنت به محتجّا عَلَى غيرك ، ودليلا عليه مما ذَخَر الله لأهل الفضل ، وَوَعدهم إياه عَلَى مارضى من القول عند وقوع قضائه وقَدَره ، وما أخبَرَ به خلقَه وبلاهم بحَسَنه وسَيِّئه ، وحُلْوه ومُرِّه ، والموتَ قد رأيتَ ورأينا خَطَراتِه بين أظهُرنا ، يخترمُ[5] الأبعدَ فلا يَحفِل ، ويترك الأقربَ يجزَع له ، وتتقلبُ قلوبنا فى ذلك مع أهوائنا دون الرضا به ، أسأل الله توفيقك وتوفيقنا بحظِّ العاجل ، وسعادة الآجل .

وقد كان أبو الهزَبر مخلوقا لما صار إليه ، لايؤمَن منه الشفقةُ عليه ، حتى أتاه ما كان يُتوقَّع ، ونزَل به مالم يُنكَر ، فأعاذك الله أن تكون لِمِحْنَة الله كارهاً ،

---

(١) بخع بالحق كمنع بخوعا : أقر به وخضع له .

(٢) فى الأصل « بدبك » وهو تحريف ، والظاهر أن هذا الكتاب كتبه قامة عن عبد الملك ابن صالح إلى الرشيد بعد نكبة البرامكة .

(٣) كاتب قامة بن زيد — انظر الفهرست ص ١٨٢ .

(٤) هكذا فى المنظوم والمنثور ، وفى الفهرست « الهرير بن الصريح » كاتب قامة بن زيد، وكان فصيحا مترسلا — انظر الفهرست ص ١٧٣ ، ص ١٨٢ .

(٥) اخترمته المنية : أخذته .

ولقَدَره مُنكِراً ، بطَرْفٍ أو وَجْدِ قلب أو بأدْنَى جزَع ، وإن خَلَصَتْ فى التسليم لذلك نيَّتُك دون تحقيقه بقولك ، وتصديقه بفعلك ، فإن الله لم يَرْضَ من طيِّب[1] خلقه ومَن أثنَى عليه بصالح عمله ، إلا بباطنٍ مع ظاهر ، وظاهرٍ مع باطن ، ولم يَحْمِل كلاًّ إلا على قدر طاقته ، ومَبْلَغ عمله ، فيما قرَّب من طاعته ، وجانَبَ معصيته ، ولم يجعل لك عذراً فى تقصيرٍ عن شكر نعمه عليك ، وإحسانه فى كل الحالات إليك ، ورَحِم الله أبا الهزبر ، وجعل ما نَقَلَه إليه خيراً ثَوَاباً وأمَلاً ، وخيراً عُقْباً ومَرَدًّا ، وأرجو أن يفعل الله ذلك به ، لِمَا كان عليه فى دينه ونفسه وكريم خُلُقِه ، وما متَّعه الله به من لسان الناس فيه ، وأصحَبَه إياه من حسن الثناء عليه ، وعوَّضك الله من فقده وما عَدِمْتَ من الأُنس به السعادةَ فى دنياك ودينك ، حتى تلقاه على أفضل حالات أَمَلِك ، وَأوفاها له فيما تُؤثِر من طاعته ، وأبلَغها فى شكر نعمته ، وما قدَّمك به على كثير من خلقه فيما تراه ويرى بك من فضله ، جَعلَنا الله وإياك من الموفَّقين بالعصمة ، والآمنين من عذاب يوم القيامة ، ولا أعدَمنا الأنسَ بك ، والمتاع بطول بقائك » .

(اختيار المنظوم والمنثور : ١٣ : ٣٢٣)

١٧٩ — كتاب إسحق بن الخطاب إلى زيد بن الفرج

وكتب إسحٰق بن الخَطَّاب إلى زيد بن الفرج يعزّيه عن أمه :

« أسأل الله أن يَعْصِمك بعِصْمة التقوى ، وَيوفِّقك من العمل لما يُحِبُّ وَيَرْضَى ، وَإنا وخلقَ الله كلَّهم إليه راجعون ، إن الإكثار من العِظَة لا يُغْنِى عن ذى الجهالة ، والاقتصار على الكفاية لا يُخِلُّ بذى المعرفة ، وعندك مما كنت تَعِظُ به غيرَك ما قد احتجنا إلى الانتفاع به فى نفسك ، وكَفَى بالله واعظا ، وبما وعَدَ من ثَوَابه معزِّيا ، ولست أصغِّر مصيبتَك بوالدتك ، ولا أهوِّن ما نزل بك فيها ، بل أعظِّمها وأُجِلُّها

---

(١) فى الأصل « طسه » .

لِمَا كنت ترجو من الله على برِّك بها ، وتتقرَّب من زيادته إياك بدعائها ، غيرَ أنَّ أملَكَ الأمرين بك فى حق الله عليك : التسليمُ لأمره ، والرضا بما وَقَع مِن قَدَره ، والأخذُ من نفسك بكل ما دعاك إليه بيتك من بُعْدِ صلاحه وحُسْنِ عمله[1] ، فإنك ومثلَك مِن حَمَلة النِّعَم ، وذوى التقلُّب من الله فى البلاء الحسَنِ ، لستم كمن يَدعُ ما يَلزَم ، ويجهَلُ ما ينبغى له أن يَعلَمهُ ، ولولا ما فى الكتاب من قضاء حق الله ، ومِن جَرٍ[2] ثوابٍ وتذكُّرٍ ، لرَضِيتُ بمعرفتك . دون تعزيتك ، فأعظَمَ اللهُ أجْرَكَ ، ولا أفقَدكَ ما يعودك ببقائها من نافلة[3] وزيادةٍ فى حَظٍّ ، وجعَلَك وإيانا من الشاكرين الراضين بمَجَارِى أقضِيَته ، وَوَلِىَ لك أمورَكَ وإخوانَك بتعميرك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٤)

١٨٠ — كتاب للهزبر فى التنصل

« قد فتحتَ علىَّ ـ منع الله فقدك ـ باب المعتِبَة ، وأحوجْتَنى إلى أن أُغْلِقَه عنى بالمعذِرة والُحجَّة ، وكلَّفتنى من ذلك ما لم يكن لى خُلُقًا ولا عادة ، وَرأيتك عجِلتَ فقبِلتَ صناعة لسان كاذب ، واستعذبت رأىَ فاجر ، فاسْمَع وَأنْصِف ، ولا يذهبَنَّ بك هوًى مُسْرِفٌ ، ولا يغلِبَنَّ عليك شىء سَبَق إلى أُذُن أو قَلب ، فَليس لك أن تَغْفُلَ ولا تَغافَلَ[1] ، ولا تجعل توهُّماً كحقٍّ ، ولا يقيناً كشكٍّ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

---

(١) وردت هذه العبارة فى الأصل هكذا : « والأخذ من نفسك بكل مادعتك إليه سنك من بعد صلحه وعمل حسنه » وقد أصلحتها كما ترى (ومع هذا فإنى لست بمستريح إلى هذا التخريج ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام) .

(٢) فى الأصل « حر » .

(٣) النافلة : العطية .

(٤) فى الأصل « أن تفعل ولا تعامل » وهو تحريف .

١٨١ — كتاب محمد بن كثير إلى الرشيد

وكتب محمد بن كُثَيِّر إلى هٰرون الرشيد :

« يا أمير المؤمنين ، لولا حظٌّ كرم الفعل فى مطالع السؤال ، لَأَلْهَى المَطْلُ قلوبَ الشاكرين ، ولَصَرَفَ عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة ، فأى الحالين يبعد قولك عن مَجاز فعلك ؟ » .

فقال هٰرون الرشيد : هذا الكلام لايحتمل الجواب ، إذا كان الإقرار به يمنع من الاحتجاج عليه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

١٨٢ — كتاب أبى هرون العبدى إلى زبيدة بنت جعفر

ولما مات قرد زُبَيدة[1] بنت جعفر ، ساءها ذلك ونالها من الغم ما عرَفهُ الصغير والكبير من خاصّتها ، فكتب إليها أبو هٰرون العَبْدى :

« أيتها السيدة الخَطِيرة ، إن مَوْقِع الخطب بذهاب الصغير المُعْجِب ، كموقع السرور بنَيْل الكثير المُفْرِح ، ومَن جَهِل قدر التعزية عن التَّافِهِ الخفىِّ ، عَمِىَ عن التهنئة بالجليل السَّنِىِّ[2] ، فلا نَقَصَكِ اللهُ الزَّائدَ فى سرورك ، ولا حَرَمَك أجرَ الذاهب مِن صغيرك » .

فأمرت له بجائزة (زهر الآداب ٣ : ٢٩٧)

١٨٣ — كتاب الأمين إلى أخيه المأمون

ووافتِ الرشيدَ منيّته وهو بطُوسَ إحدى مدن خُراسان فى جمادى الآخرة

(١) هى زبيدة أم جعفر : بنت جعفر بن المنصور ، زوج الرشيد ، وأم الأمين ، توفيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ — تاريخ الطبرى ١٩ : ١٢١ .
(٢) السنى : الرفيع .

سنة ١٩٣ ، وكان معه ابنه صالح[١] ، والمأمونُ يومئذ بمَرْو ، والأمين ببغداد ، فبويع له بالخلافة .

وكان الأمين لمَّا بلغه أن أباه قد اشتدت علَّته ، وأنه لِمَا بِه ، بعث بكر بن المُعْتَمِر ، وكتب معه كتبا : منها كتاب إلى أخيه المأمون ، وكتاب إلى أخيه صالح ، وأمره بإخفائها حتى يموت أمير المؤمنين ، فإذا مات دفَعَ إلى كلٍّ كتابَه ، فلما قَضَى الرشيدُ دفع ابن المعتمر إلى صالح كتابه ، وبعث إلى المأمون بكتابه .

وكانت نسخة كتاب الأمين إلى أخيه المأمون :

« إذا وَرَد عليك كتاب أخيك ـ أعاذَه الله من فَقْدِك ـ عند حُلول مالا مَرَدَّ له ولا مَدْفَعَ ، مما قد أخَفَّ[٢] وتناسَخَ الأُمَمَ الخالية ، والقرونَ الماضية ، بما عزَّاك الله به ، واعلَمْ أن الله جلَّ ثناؤه ، قد اختار لأمير المؤمنين أفضلَ الدارَيْن ، وأجزَلَ الحظَّين ، فقبَضَهُ الله طاهراً زاكيا قد شَكَر سَعْيَه ، وغفر ذنْبَه إن شاء الله ، فقُمْ في أمرك قيامَ ذى الحزم والعزم ، والناظِرِ لأخيه ونفسِهِ وسُلطانه وعامَّة المسلمين ، وإياك أن يغلِبَ عليك الجزَعُ ، فإنه يُحْبِطُ[٣] الأجْرَ ، ويُعْقِب الوِزْرَ ، وصلواتُ الله على أمير المؤمنين حيًّا وميتا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وخذ البَيعة على من قِبَلَك مِن قُوَّادك وجندك وخاصَّتك وعامتك لأخيك ، ثم لنفسك ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين على الشَّريطة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نَسْخِها[٤] له أو إثباتها ، فإنك مُقَلَّد من ذاك ما قَلَّدك الله وخليفته ، وأَعلِمْ مَن قِبَلك

(١) أمه أم ولد يقال لها رئم .

(٢) من خف القوم عن منزلهم خفوفا : أى ارتحلوا مسرعين ، وخف القوم خفوفا أيضا : قلوا .

(٣) أى يفسد .

(٤) أى من فسخها وإبطالها ، وقد تقدم لك فى عهد الأمين : « فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه فى إمضاء ماجعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده ، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ... الخ » .

رأيي فى صلاحهم وسَدِّ خَلَّتهم[1] والتوسِعَة عَلَيْهِمْ، فمن أنكرْتَه عند بيعته، أو اتهمتَه على طاعته، فابعث إلىَّ برأسه مع خبره، وإياك وإقالتَه، فإن النار أوْلَى به، واكتب إلى عُمَّالِ ثغورك وأمراء أجنادك، بما طَرَقَك من المصيبة بأمير المؤمنين، وأعلِمْهم أن الله لم يَرْضَ الدنيا له ثوابا حتى قبَضه إلى رَوْحه[2] وراحته وجَنته مَغْبُوطاً محموداً، قائداً لجميع خلفائه إلى الجنة إن شاء الله، ومُرْهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخَوَاصِّهِمْ وعوامِّهم على مثل ما أمرتُك به مِنْ أخذها على مَن قِبَلك، وأوعِزْ إليهم فى ضبط ثغورهم، والقوة على عدوهم. إنى متفقِّدٌ حالاتهم، ولامٌّ شَعَثَهم، ومُوَسِّع عليهم، ولا آنٍ[3] فى تقوية أجنادى وأنصارى، ولكن كُتُبك إليهم كتباً عامَّة لِتُقْرأ عليهم، فإن ذلك ما يسكِّنهم ويبسُطُ أملهم، واعمل بما تأمر به لِمَن حَضَرك أو نأى عنك من أجنادك على حَسَب ما ترى وتشاهِد، فإن أخاك يعرف حُسْن اختيارك وصِحَّةَ رأيك، وبُعْد نظرك، وهو يستحفِظُ اللهَ لك، ويسأله أن يشُدَّ بك عضُده، ويجمَعَ بك أمْرَه، إنه لطيف لما يشاء».

وكتب بكر بن المعتمر بين يدىَّ وإملائى شوال سنة ١٩٢.

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٥)

١٨٤ — كتاب الأمين إلى أخيه صالح

ونسخة كتابه إلى أخيه صالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم : إذا وَرَد عليك كتابى هذا عند وقوع ما قد سَبَقَ فى عِلْم الله، ونَفَذ مِن قضائه فى خُلَفائه وأوليائه، وجَرَتْ به سُنَّتُه فى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرَّبين ـ فقال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ـ فاحمَدوا الله على ما صار إليه أميرُ المؤمنين من عظيم ثوابه، ومُرَافقة

---

(١) الخلة : الحاجة والفقر. (٢) أى رحمته. (٣) أى ولا مبطىء ولا متأخر.

أنبيائه صلوات الله عليهم ، إنا إليه راجعون ، وإياه نسألُ أن يُحْسِنِ الخلافةَ على أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان لهم عِصْمةً وكَهْفاً[١] ، وبهم رءوفا رحيما .

فشَمِّر فى أمرك ، وإياك أن تُلْقِيَ بيديك ، فإن أخاك قد اختارك لما استنهضَك له ، وهو متفقِّد مواقِعَ فِقْدانك[٢] ، فحقِّق ظنَّه ، ونسأل الله التوفيق .

وخذ البيعة على مَن قِبَلَك من ولد أمير المؤمنين وأهل بيته ومَواليه وخاصَّته وعامَّته ، لمحمد أمير المؤمنين، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشَّريطة التى جعلها أميرُ المؤمنين صلوات الله عليه مِن فَسْخها على القاسم أو إثباتها، فإن السعادة واليُمْن فى الأخذ بعهْده والمُضِيِّ عَلَى مَناهِجه ، وأَعْلِم مَن قِبَلَك من الخاصَّة والعامَّة رأيى فى استصلاحهم ، وَرَدِّ مظالمهم ، وتفقُّد حالاتهم ، وأداءِ أرزاقهم وأَعْطِيَاتِهم[٣] عليهم ، فإن شَغَبَ[٤] شاغب ، أو نَعَرَ ناعِر ، فاسْطُ به سَطوةً تجعله نَكالًا لما بين يديها وما خَلْفها ومَوْعِظة للمتقين .

واضمُم إلى الميمون ابن الميمون الفضلِ[٥] بن الربيع وَلَد أمير المؤمنين وخَدَمه وأهْلَه ومُرْه بالمسير معهم فيمن معهُ وجنده ورابِطته[٦] ، وصيِّر إلى عبد الله بن مالِك أمْرَ العسكر وأحداثه ، فإنه ثقةٌ على ما يَلِي ، مقبول عند العامّة ، واضمم إليه جميع جند الشُّرَط من الروابط وغيرهم إلى من معه من جنده ، ومره بالجدِّ والتيقظ وتقديم الحزم فى أمره كله ليلَه ونهارَه ، فإن أهل العداوة والنفاق لهذا السلطان يغتنمون مثلَ حُلول هذه المصيبة.

---

(١) الكهف : الوزر والملجأ .

(٢) يريد بالفقدان الغياب ، والمعنى . أن أخاك يرقبك فى المواقف التى استنهضك لها ، ولا يحب أن يراك غائبا فى موقف منها . (٣) أعطيات : جمع أعطية ، وأعطية : جمع عطاء .

(٤) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح : هيج الشر عليهم ، ونعر كمنع وضرب نعيرا ونعارا : صاح، والمهنى ثار ودعا إلى الفتنة .

(٥) هو الفضل بن الربيع بن يونس ، استوزره الرشيد بعد أن نكب البرامكة ، ثم ابنه الأمين من بعده ، وهو الذى زين للأمين خلع المأمون من البيعة كما سيأتى ، وتوفى سنة ٢٠٨ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ٤١٢ والفخرى ص ١٩٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٣ .

(٦) الرباط (بالكسر) والمرابطة : ملازمة ثغر العدو ، فالرابطة هى الجند المرابطون .

وأقِرَّ حاتم بن هرثمة على ماهو عليه، ومُره بحِراسة مايحفظ به قُصُورَ أميرالمؤمنين، فإنه ممن لا يُعْرَف إلا بالطاعة ، ولا يَدين إلا بها ، بمَعاقِدَ من الله ، مما قدَّم له من حال أبيه[١] المحمود عند الخلفاء .

ومُر الخدم بإحضار رَوَابطهم مَن يُسَدّ بهم وبأجنادهم مواضعُ الخَلَل من عسكرك، فإنهم حدٌّ من حدودك .

وصيِّر مقدِّمتك إلى أَسَد بن يزيد بن مَزْيد ، وساقَتَك[٢] إلى يَحيى بن مُعاذ فيمن معه من الجنود ، ومُرهما بمُناوَبتك فى كل ليلة ، والزَم الطريقَ الأعظم ، ولا تَعدُوَنَّ المَراحِلَ ، فإن ذلك أرفَقُ بك ، ومُر أسد بن يزيد أن يتخيَّر رجلا من أهل بيته أو قواده فيصير إلى مقدِّمته ، ثم يصير أمامه لتهيئة المنازل أو بعض الطريق ، فإن لم يَحضُرْك فى عسكرك بعضُ من سَمَّيتُ فاُختَرْ لمواضعهم مَن تثِق بطاعته ونصيحته وهيبته عند العوامّ ، فإن ذلك لن يُعْوِزَك من قُوادك وأنصارك إن شاء الله .

وإياكَ أن تُنفِذَ رأياً أو تُبْرِم أمراً إلّا برَأْى شيخك وبقيَّة آبائك الفضلِ ابن الربيع ، وأقْرِرْ جميع الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والسلاح والخزائن وَغير ذلك ، ولا تُخرجَنَّ أحداً منهم مِن ضِمْن ما يلى إلى أَنْ تَقْدَم عَلَىَّ .

وقد أوصيتُ بكر بن المعتمر بما سَيُبْلِغُكَهُ ، واعمَل فى ذلك بقدر ما تشاهد وترى ، وإن أمرتَ لأهل العسكر بعطاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولِّىَ لإعطائهم على دَوَاوينَ[٣] يتخذها لنفسه ، بمَحْضَر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل ابن الربيع لم يزل مثل ذلك لمُهِمَّات الأمور .

---

(١) يعنى هرثمة بن أعين ، وقد تقدم ذكره .

(٢) الساقة : مؤخرة الجيش .

(٣) الديوان : الكتاب الذى يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسى معرب .. قال القلقشندى فى صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردى فى الأحكام السلطانية » فى سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما : أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه فى مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم ، فقال « ديوانه » أى مجانين،فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء =

وأنفذْ إلىَّ عند وصول كتابى هذا إليك إسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر على مَرْكَبَيْهِماَ من البَريد(١) ، ولا يكون لك عُرْجة(٢) ولا مُهْلة بموضعك الذى أنت فيه حتى توجِّه إلىَّ بعسكرك بما فيه من الأموال والخزائن إن شاء الله . أخوك يستدفع الله عنك ، ويسأله لك حُسْنَ التأييد برحمته » .

وكتب بكر بن المعتمر بين يدىّ وإملائى فى شوال سنة ١٩٢ .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٢٦)

١٨٥ — كتاب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع

وكتب عيسى بن واضح إلى الفضل بن الربيع :

« قد أكَّد الله من حُرْمتى بك ، ووصل من الشُّعَب بينى وبينك ، ماجعله ذَخيرةً ليوم الحاجة ، وعُدَّةً عند مُلِمِّ النازلة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٣)

١٨٦ — كتاب موسى بن عيسى إلى الأمين

وكتب موسى بن عيسى فى سلامة المَوْسِم إلى الأمين :

« أما بعدُ ، فإن الله بحَمْدِه ومَنّه هو ولىُّ أمير المؤمنين وولىُّ النعمة عليه فيما حمَّله

= من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان . والثانى : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمور ، ووقوفهم على الجلى منها والخفى » اهـ ومنه ترى أن الديوان كان يطلق فى الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين ، وعلى جماعة الكتاب ، وقد أطلق فى العربية على جريدة الحساب ، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب ، ثم على طائفة الكتاب ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من دون الدواوين فى العرب سنة ٢٣ هـ أى رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش ، فيها أسماؤهم ومراتبهم فى النسب وأرزاقهم — انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣ .

(١) البريد : البغلة المرتبة فى الرباط ، كلمة فارسية : تعريب بريده دم : أى محذوف الذنب ، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها ، فأعربت وخففت ، ثم سمى به الرسول المحمول عليها ، وفى قول بعض العرب « الحمى بريد الموت » أى أنها رسوله المنذر به ، ثم سميت به المسافة التى يقطعها .

(٢) عرج تعريجا : ميل وأقام وحبس المطية على النزل ، والعرجة مثلثة العين والعرجة بالتحريك : التعريج .

اللهُ واستحفظَه ، وجَعلَه القائم به ، والمحافظَ عليه ، من ولاية دينه ، ورِعاية أهله ، والمرجوّ لإتمام[1] ذلك بمَنِّه ورحمته .

وإنى كتبتُ إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر[2] الأول ، وقد قضى الله مَناسِكَنا ، وتمّم حَجَّنا ، وأرانا فى مواقِفِنا وإفاضتِنا ومَن حَضَر الموسمَ معنا من رعية أمير المؤمنين أفضلَ مالم يَزل يُبْلِى[3] اللهُ أميرَ المؤمنين ويعوّده ، ويُبْلِى الرعيةَ فى خلافته ، من السلامة والعافية ، والتوفيق والكفاية ، والله محمود .

ولم أر مَوْسِما كان أعمَّ عافيةً وسلامةً ، وأحسن هَدْيا ودَعَةً ، وأكثرَ داعياً لأمير المؤمنين ووليّ عهده بطول البقاء ، من موسم الناس فى عامِهم هذا ، بنعمةِ الله وفضلِه .

أحببتُ الكتابَ إلى أمير المؤمنين ، لمعرفتى بعنايته وتطلّعه إلى عمله ، ليُسَرَّ به ، «ويَحمَدَ الله عليه ويشكره ، فإنه شاكر يحبّ الشاكرين» .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧١)

١٨٧ — كتاب المأمون إلى الأمين

واستوزر الأمينُ الفضلَ بن الربيع ، فما لَبِث أن سَعَى فى إغرائه بأخيهِ المأمون ، وحثّه على خَلْعه ، وَصَرْفِ ولاية العهد من بعده إلى ابنهِ موسى ، ولم يزل به يزيِّن له خلْعَه حتى جَنَح إلى رأيه[4] .

---

(١) فى الأصل « لإنعام » وأرى أنه « لإتمام » .

(٢) نفر الحاج من منى كضرب نفرا ونفورا ، ويوم النفر الأول : هو الثانى من أيام التشريق (وأيام التشريق ثلاثة ، وهى بعد يوم النحر ، قيل سميت بذلك لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها : أى تقدد فى الشرقة بالفتح وهى الشمس) .

(٣) أبلاه : أنعم عليه وأحسن إليه .

(٤) وذلك أن الفضل بن الربيع كان مع الرشيد بطوس ، فلما مات الرشيد أمر الفضل الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحاق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون ، وجمع الفضل جميع ما كان فى عسكر الرشيد وحمله إلى الأمين ، وكان الرشيد قد أشهد به للمأمون ، =

وكتب الأمين إلى المأمون يسأله أن يتجافَى له عن كُوَرٍ من كُوَر خراسان سمّاها وأن يوجّه العمال إليها من قِبَل الأمين ، وأن يحتمل توجيه رجل من قبَله يولّيه البريدَ عليه ليكتب إليه بخبره ، فكَبُر ذلك على المأمون واشتد ، وأحضر خاصّته من الرؤساء والأعلام ، وقرأ عليهم الكتاب ، واستشارهم فى الأمر ، فأشار عليه كلٌّ بما يرى ، فقال المأمون لوزيره الفضل[1] بن سَهْل ذى الرياستين : اكتب يا فضلُ إليه ، فكتب :

« وقد بلغنى كتابُ أمير المؤْمنين ، يسأل التَّجَافِىَ عن مَواضعَ سمَّاها ، مما أَثْبتَه الرشيد فى العَقْدِ ، وجَعَلَ أمرَه إلىَّ ، وما أمْرٌ رآه أمير المؤمنين أحدٌ يجاوِزُ أكثرَه ، غير أن الذى[2] جعل إلىَّ الطَّرْف الذى أنا به لا ظَنينٌ فى النظر لعامَّته ، ولا جاهِلٌ بما أَسْنَدَ إلىَّ من أمره ، ولو لم يكن ذلك مُثْبَتًا بالعهود والمَواثيق المأخوذة، ثم كنتُ على الحال التى أنا عليها : مِنْ إشراف عدوٍّ مَخُوف الشَّوكة ، وعامَّةٍ لا تَتأَلَّفُ عن هَضْمِها[3] ،

= ثم فكر الفضل بعد مقدمه العراق ، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون وهو حى لم يبق عليه، فزين للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، فقال الأمين إلى أقوالهم ، ثم استشار عقلاء أصحابه فنهوه عن ذلك وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق ، وقالوا له : لا تجرئ القواد على النكث للأيمان وعلى الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع .

(١) هو الفضل بن سهل بن عبد الله السرخسى وزير المأمون ، ويلقب بذى الرياستين لأنه تقلد الوزارة والسيف ، وقد جاء فى رسالة الشكر - وسنرد عليك بعد - : « فأية نعمة أجل قدرا وأسنى أمرا معشر الشيعة ، من نعمة أمير المؤمنين أيده الله عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبه التى رتبه بها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ورياسة التدبير ... إلخ » وكذلك ذكر الجهشيارى فى كتابه «الوزراء والكتاب ص ٣٨٧ » قال : « ولقب المأمون الفضل بن سهل ذا الرياستين ، ومعنى ذلك رياسة الحرب ورياسة التدبير » . وهو من أبناء الفرس ، وكان بنو سهل صنائع البرامكة . وكان أبوه سهل مجوسيا فأسلم على يد المهدى ، وأسلم الفضل على يد المأمون سنة ١٩٠ ، وقتله المأمون سنة ٢٠٢ كما سيأتى، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤١٣ والفخرى ص ٢٠٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ : ٣٣٩ .

(٢) هو الرشيد ، والطرف : منتهى كل شىء ، وهو هنا خراسان لأنها منتهى الدولة . والظنين : المتهم .

(٣) أى عن طريق ظلمها ونقص حقوقها .

وأجنادٍ لا تُسْتَتْبَع طاعتُها إلا بالأموال وطَرَفٍ[1] من الإفضال ، لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامَّته ، وما يُحِبُّ من لَمِّ أطرافه ، ما يوجب عليه أن يَقسم له كثيراً من عنايته ، وأن يستصلِحَه ببَذْلِ كثيرٍ من ماله ، فكيف بمسألةٍ ما أوجَبَه الحقُّ ، ووكَّدَتهُ مأخوذةُ العهد ؟ وإنى لأعلَمُ أن أمير المؤمنين لو عَلِم من الحال ما علمتُ ، لم يُطْلِع ما كتبَ بمسألته إلىَّ ، ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٠)

١٨٨ — رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين الرشيد ، وإن كان أفْرَدَك بالطَّرْف ، وَضَمَّ ماضَمَّ إليك من كُوَر الجبَل ، تأييداً لأمرك ، وتحصيناً لطَرْفك ، فإن ذلك لا يُوجِب لك فَضْلة المال عن كفايتك ، وقد كان هذا الطرفُ وخَراجُه كافياً لِحَدَثه ، ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يَفْضُل مِن رَدِّه ، وقد ضمَّ لك إلى الطرف كُوَراً من أمَّهات كُوَر الأموال لا حاجَةَ لك فيها ، فالحقُّ فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها .

فكتبتُ إليك أسألك رَدَّ تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ، ليكون فُضولُ رَدِّها مصروفةً إلى مواضعها ، وأنْ تأذَن لقائمٍ بالخبَرِ يكون بحضْرَتك يؤدِّى إلينا عِلْمَ ما نُعْنَى به من خَبَر طَرْفك ، فكتبتَ تَلِطُّ[2] دون ذلك بما إنْ تَمَّ أمْرُك عليه صيَّرنا الحقُّ إلى مطالبتك ، فاثْنِ عن همِّك ، أثْنِ عن مطالبتك إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٣)

---

(١) الطرف بالتحريك : الطائفة من الشىء .

(٢) لط حقه وعنه كضرب ، وألط : جحده .

١٨٩ — رد المأمون على الأمين

فلما قرأ المأمون الكتاب كتب مجيبا له :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كِتاب أمير المؤمنين ، ولِمَ يكتب فيما جَهِل فأكشف له عن وجهه ؟ ولِمَ يسأل مَا لايُوجبه حَق فيُلزمَنى الُحجَّةَ بترك إجابته ؟ وإنما يتجاوز المناظِران مَنزِلةَ النَّصَفةِ[١] مَا ضاقت النَّصَفةُ عن أهلها ، فمتى تجاوَز متجاوِزٌ - وهى موجودةٌ - ولم يكن تجاوُزُها إلا عن نَقْضها واحتمالِ مَا فى تركها ؟ فلا تبعَثْنِي يابن أبى على مخالفتك وأنا مُذْعنٌ بطاعتك ، ولا على قطيعَتِك وأنا على إيثارِ[٢] ما تحبُّ من صِلتك ، وارضَ مما حَكَمَ به الحقُّ فى أمرك ، أكُنْ بالمكان الذى أنزَلَنى به الحقُّ فيما بينى وبينك والسلام » .
(تاريخ الطبرى ١ : ١٣٤)

١٩٠ — رد الأمين على المأمون

فلما وصل كتاب المأمون إلى الأمين غضب وتغيظ وأمر بالإمساك عن الدعاء له على المنابر ، وكتب إليه :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك غامِطًا[٣] لنعمة الله عليك فيما مكَّن لك من ظِلِّها[٤] متعرِّضاً لِحرَاقِ نارٍ[٥] لا قِبَل لك بها ، ولَحظُّكَ عن الطاعة[٦] كان أوْدَع ، وإن كان قد تقدَّم منى متقدِّم[٧] فليس بخارج من مواضِع نَفْعِك ، إذ كان راجعا على العامة من رعيَّتك ، وأكثرُ من ذلك مايمكِّنُ لك من منزِلة السلامة ، ويُثْبِت لك من حال الهُدْنَة[٨] ، فأعْلِمْنى رأيك أعمَلْ عليه إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

---

(١) النصفة : الإنصاف والعدل . (٢) أى تقديم وتفضيل .
(٣) غمط نعمة الله وغمطها كضرب وسمع فيهما : بطرها وكفرها ولم يشكرها .
(٤) الظل : معروف ، والعز والمنعة . (٥) نار حراق : لاتبقى شيئا .
(٦) أى ولنزولك على إرادتى مطيعا لأمرى . . . .
(٧) أى طلب متقدم ، وهو سؤاله إياه أن يتجافى له عن بعض كور خراسان .
(٨) الهدنة : المصالحة والدعة والسكون .

١٩١ — كتاب المأمون إلى الأمين

وقال المأمون لذى الرياستين : إن ولدى وأهلى ومالى الذى أفرَدَه الرشيد لى بحضرة الأمين ، وهو مائة ألف ألف ، وأنا إليها محتاج ، وهى قِبَله ، فما ترَى فى ذلك؟ فكتب عنه إلى الأمين :

« أما بعد : فإن نظرَ أمير المؤمنين للعامَّة نَظَرُ من لا يقتصر عنه على إعطاء النَّصَفَة من نفسه حتى يتجاوَزَها إليهم ببرِّه وصِلَته ، وإذ كان ذلك رأيَه فى عامَّته فأَحْرِ (١) بأن يكون على مجاوزة ذلك بِصِنْوِه (٢) وقَسِيم نَسَبه ، فقد تعْلَمَ يا أمير المؤمنين حالاً أنا عليها : مِنْ ثغورٍ حَلَلْتُ بين لَهَواتِها (٣) ، وأجنادٍ لا تزال مُوقِنةً بنشر غَيِّها ، وبنَكْثِ آرائِها ، وقلة الخَرْج (٤) قِبَلى ، والأهلُ والولدُ والمالُ قِبَل أمير المؤمنين ، وما لِلأهل — وإن كانوا فى كِفاية من برِّ أمير المؤمنين ، فكان لهم والداً — بُدٌّ من الإشراف ، والنُّزوع (٥) إلى كَنَفِى وما لى بالمال من القوة والظَّهير (٦) على لَمِّ الشَّعَث بحضْرتى ، وقد وجَّهْتُ لحمل العِيال وحمل ذلك المال ، فرأىُ أمير المؤمنين فى إجازة فلان إلى « الرَّقَّة (٧) » فى حمل ذلك المال ، والأمر بمعونته عليه ، غيرَ مُحَرِّج (٨) له فيه إلى ضِيقة تقع بمخالفته ، أو حاملٍ له على رأىٍ يكون على غير موافقته والسلام » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٤)

---

(١) أى فأجدر وأخلق .

(٢) إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون ، والمراد بالصنو هنا أخوه المأمون .

(٣) اللهوات جمع لهاة بالفتح ، وهى فى الأصل : اللحمة المشرفة على الحلق .

(٤) الخرج والخراج واحد .

(٥) نزع إلى أهله كضرب : اشتاق .

(٦) الظهير : المعين .

(٧) الرقة : بلد على الفرات .

(٨) حرج عليه : ضيق عليه .

١٩٢ — رد أحد أعيان أهل العسكر

فوافق قدومَ الرسولِ بغدادَ ما أمرَ به الأمينُ من الكفِّ عن الدعاء للمأمون في الخُطبة يوم الجمعة ، فدفع الكتب إلى كلِّ مَن كُتِبَ إليه معه ، فمنهم من أمسك عن الجواب وأعرَبَ للرسول عما فى نفسه ، ومنهم من أجاب عن كتابه ، وكتب أحدهم :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابُك ، ولِلْحَقِّ بُرْهانٌ يَدُلُّ على نفسه تَثبُت به الْحُجَّة على كل مَن صار إلى مُفارقته ، فكفى غَبْناً بإضاعة حظٍّ مِن حظ العاقبة ، لِمَأْمُولٍ مِن حَظٍّ عاجلةٍ ، وأبْيَنُ فى الغَبن إضاعةُ حَظ عاقبةٍ فى التعرُّض للنَّكبة والوقائع ولى من العلم بمواضع خَطَرِ ما أرجو أن يَحْسُنَ معه النظرُ مِنى لنفسى ، ويَضَع عنى مُؤْنةَ استزادتى إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦)

١٩٣ — كتاب رسول المأمون إليه

وكتب الرسول الموجّه إلى بغداد ، إلى المأمون :

« أما بعدُ : فإنى وافيتُ البلدَة وقد أعلَنَ خَليطُك[1] بتنكُّره ، وقدَّم عَلَما من اعتراضه ومفارقته بحَضْرته ، ودفعتُ كتبك فوجدت أكثر الناس وُلاةَ السَّريرة ، ونُفاةَ العلانيَة ، ووجدتُ المستمالين بالرغبة لا يَحُوطُونَ إلا عنها ، ولا ينالون ما احتملوا فيها ، والمنازِعُ مختلج[2] الرأىِ لايجد دافعاً منه عن همِّه ، ولا راغباً فى عامِّه ، والمُحِلّون بأنفسهم يُجِلُّون تَمامَ الحَدَث ، ليسلموا من مُنهزِم حَدَثهم ، والقومُ على جِدٍّ فلا تميلوا للتوانى[3] إن شاء الله والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٦)

---

(١) الخليط : المشارك فى حقوق الملك ، يعنى الأمين .

(٢) أى مضطربه .

(٣) فى الأصل « ولاتجعلوا للتوادى » وأراه محرفا .

١٩٤ - رد الأمين على المأمون

فكتب إليه الأمين :

« أما بعد : فقد بلغنى كتابك بما ذكرتَ : مما عليه رأىُ أمير المؤمنين فى عامَّته ، فضلا عما يجب مِن حقٍّ لذى حُرمته وخليط[1] نفسه ، ومَحَلِّك بين لَهَواتِ ثغورٍ ، وحاجتِك لِمَحَلِّكَ بينها إلى فَضْلة من المال لتأييد أمرك ، والمالِ الذى سُمِّىَ لك من مال الله ، وتوجيهك مَنْ وجَّهْتَ فى حمله وحَمْلِ أهلك من قِبَل أمير المؤمنين .

ولَعَمْرى ما يُنْكِر أمير المؤمنين رأيا هو عليه مما ذكرتَ لعامّته ، وما يوجب عليه من لُحُوق أقربيه وعامَّته ، وبه إلى ذلك المال الذى ذكرتَ حاجةٌ فى تحصين أمور المسلمين ، فكان أولَى به إجراؤهُ منه على فرائضه ، وردُّه على مواضع حقه ، وليس بخارج مِنْ نَفعك ما عاد بِنَفْع العامة من رعيتك ، وأمّا ما ذكرتَ من حَمْل أهلك ، فإنَّ رأىَ أمير المؤمنين تَوَلِّى أمرهم ، وإن كنت بالمكان الذى أنت به من حق القرابة ، ولم أرَ من حملهم على سفرهم مثل الذى رأيت من تعريضهم بالسفر المتشتِّت ، وإنْ رَأَى ذلك مَنْ قِبَلى أُوَجِّهْهم إليك مع الثِّقة من رُسُلى إن شاء الله والسلام »

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٥ - كتاب المامون إلى أعيان أهل العسكر ببغداد

ورَأى المأمون أن يختار ثِقَةً من أصحابه ، يكتب معه كتباً إلى أعيان أهل العسكر من بغداد ، فإنْ أحدَثَ الأمينُ خَلْعاً للمأمون صار إلى ذويها ، وتعطَّفَ لعلم حالات أهلها ، وإلاّ أمسَكَ عن إيصالها ، وكان كتابه مع الرسول الذى وجَّهه لعلم الخبر :

---

(١) الخليط : الشريك .

« أما بعدُ : فإن أمرَ(١) المؤمنين كأعضاء البَدَن : تَحْدُثُ العِلَّةُ فى بعضها فيكون كُرْهُ ذلك مؤلِمًا لجميعها ، وكذلك الحَدَثُ فى المسلمين ، يكون فى بعضهم فَيصِلُ كُرْهُ ذلك إلى سائرهم ، لِلَّذى يَجْمَعُهم من شريعة دينهم ، ويَلْزَمُهُم من حُرْمة آخرتهم ، ثم ذلك من الأئمة أعظمُ ، لِلمكان الذى به الأئمةُ من سائر أممهم ، وقد كان من الخبَر مالا أحسِبُه إلا سَيَعُود عن مجيئه ، ويَسْفِر(٢) عما سُتِر ، وما اختلف مختلفان فكان أحدهما أزمَعَ(٣) على الغدر إلَّا كان أولَ مَعُونة المسلمين ومُوالاتهم فى ذات الله، وأنت - يَرْحَمُك الله - من الأمر بمَرْأى ومَسْمَع ، وبحيثُ إن قلتَ آذَنْ(٤) لقولك، وإن لم تجد للقول مَسَاغا فأمْسَكتَ عن مَخُوف ، أقْتَدِ فيه بك ، ولن يضيعَ على(٥) الله ثَوَابُ الإحسان ، مع ما يجب علينا بالإحسان مِن حقِّك ، ولَحَظٌّ حاز لك النصيبَيْن أو أحدَهما أمثَلُ من الإشراف لأحَد الحظَّيْن مع التعرُّض لِعَدَمِهما(٦) ، فاكتب إلىَّ برأيك ، وأعلِمْ ذلك لرسولى ، لِيُؤَدِّيَه إلىَّ عنك إن شاء الله » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٥)

١٩٦ - كتاب المأمون إلى على بن عيسى بن ماهان

وكان علىّ بن عيسى بن ماهانَ ممن مَالأَ على خلع المأمون من البيعة ، فكتب إليه المأمون لما بلغهُ ما عزم عليه :

---

(١) فى الأصل « أمير المؤمنين » وهو تحريف .
(٢) من سفرت المرأة كضرب : كشفت عن وجهها .
(٣) أزمع الأمر وعليه : أجمع وثبت عليه .
(٤) أذن إليه وله كفرح : استمع . (٥) أى عند الله .
(٦) معنى ذلك أن من نهض لنصرتنا حظى بالنصيبين : ثواب الله ومكافأتنا له ، أو بالنصيب الأول على الأقل إن لم يقدرلنا النجاح والظفر لأنه يدفع عن الحق ويعين فى ذات الله ، وذلك أفضل له وأولى به من الميل مع الأمين ، فإنه حينئذ يستشرف مكافأة الأمين له فحسب - ويفوته ثواب الله - وقد تكون والدبرة على الأمين ، فيفقد ناصره الحظين جميعا (ذلك إلى أنه يفقد مكافأة المأمون أيضا لا نحرافه عنه قعوده عن نصرته ، بل ويتعرض لعقوبته ونكاله) .

« أما بعدُ : فإنك فى ظِلِّ دَعْوةٍ لم تزَلْ أنت وسَلَفُك بمكانِ ذَبٍّ[1] عن حَرِيمِها، وعلى عِنايةٍ بحفظِها، ورِعَايةٍ لحقِّها، تُوجِبُون ذلك لأئمتكم، و تعتصِمُون بحَبْل جماعتكم، وتُعطُون بالطاعة من أنفسكم، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم، وحِزبا وإخوانا لأهل موافقتكم، تُؤْثِرُونهم على الآباء والأبناء، وتتصرَّفون فيما تصرَّفوا فيه من منزلة شديدة ورَخاء، لاتَرَوْن شيئا أبلغَ فى صلاحكم من الأمر الجامع لأُلفتكم، ولا أجْرَى لِبَوَارِكم[2] مما دعَا بشَتَاتِ كلمتكم، تَرَون مَن رغِب عن ذلك جائرا عن القَصْد[3]، وعن أَمِّه على مِنْهاج الحق، ثم كنتم عَلَى منهاج الحق، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نِقَمِ الله، فكم من أولئك قد صاروا ودِيمةَ مَسْبَعةٍ[4]، وَجَزَرًا جامدة، قد سَفَتِ الرِّياحُ فى وجهه، وتَداعتِ السِّباعُ إلى مَصْرَعه، غير مُمَهَّد ولا مُوَسَّد، قد صار إلى أمَّة . . . . . .[5] وغير عَاجل حظِّه ممن كانت الأئمة تُنْزِلكم لذلك بحيثُ أنزلتم أنفسكم، من الثِّقة بكم فى أمورها، والتقْدِمة فى آثارها، وأنت مُستشعَر[6] دون كثير من ثقاتها وخاصَّتها، حتى بلغ اللهُ بِكَ فى نفسك أَنْ كنت قَرِيعَ[7] أهلِ دعوتك، والعَلَمَ القائم بمُعظم أمْر أمتك، إن قلتَ ادْنُوا دَنَوْا، وإن أشَرتَ أقبلوا أقبَلوا، وإنأمسكتَ وقَفُوا وقرُّوا، ووِئَاما[8] لك واستنصاحًا، وتزداد نِعمةً مع الزيادة فى نفسك، ويزدادون نعمةً مع الزيادة لك بطاعتك، حتى حَلَلتَ المَحَلَّ الذى قَرُبْتَ به من يومك، وانقرَضَ فيما دونه أكثرُ مدتك، لاتنتظر بعدها إلَّا ما يكون خِتامَ عملِك : من خيرٍ فيُرْضَى ما تَقَدَّم من صالحِ فِعلك، أو خلافٍ فيضِلّ له متقدِّمُ

---

(١) الذب : الدفع . والحريم : ما تحميه وتقاتل عنه . (٢) البوار : الهلاك .
(٣) القصد : استقامة الطريق . وأمه : قصده . والمنهاج : الطريق الواضح .
(٤) أرض مسبعة : كثيرةالسباع . وتركوهم جزرا للسباع : أى قطعا . وجامدة : أى ليس بها حركة ولا حياة . (٥) بياض بالأصل، ولعله « إلى أمة الكفر » :
(٦) استشعر الشعار : لبسه (والشعار ككتاب : الثوب الذى يلى شعر الجسد) والمعنى : وأنت مقرب مؤثر لدى الأئمة .
(٧) القريع : السيد . (٨) الوئام والمواءمة : الموافقة .

سَعْيك ، وقد ترَى يا أبا يحيى حالًا عليها جَلَوْتَ[1] أهلَ نعمتك والوُلاةَ القائمة بحق إمامتك ، مِنْ طَعْنٍ فى عُقْدَةٍ كنتَ القائمَ بشَدِّها ، وبعهودٍ توليتَ مَعاقِدَ أخْذِها ، يُبْدَأ فيها بالأخَصَّيْن ، حتى أفضى الأمرُ إلى العامَّة من المسلمين ، بالأَيْمان المُحَرَّجة[2] ، والمواثيق المؤكَّدة ، وما طَلَعَ مما يدعو إلى نَشْرِ كلمةٍ ، وتفريق أُمّةٍ ، وشَتِّ جماعةٍ ، وتتعرَّض به لتبديل نعمة ، وزوالِ ما وطَّأتِ الأسلافُ من الأئمة ، ومتى زالت نعمةٌ مِنْ وُلاة أمْرِكم وَصَلَ زوالُها إليكم فى خواصِّ أنفسكم ، ولن يغيِّر اللهُ ما بِقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ، وليس الساعِي فى نَشْرِها بساعٍ فيها على نفسه ، دون السعي على حَمَلتها القائمين بحُرْمتها ، قد عرَّضوهم أنْ يكونوا جَزَرًا لأعدائهم ، وطُعْمَةَ قوم تَتَظفَّرُ مخالبُهم فى دمائهم ، ومكانُك المكَانُ الذى إن قلتَ رُجِع إلى قولك ؛ وإن أشرتَ لم تُتَّهم فى نصيحتك ، ولك مع إيثار الحقِّ الحظْوةُ عند أهل الحقِّ ، ولا سواءٌ مَن حَظِيَ بعاجِلٍ مع فِراق الحق فأوْبَقَ[3] نفسه فى عاقبته ، ومن أعان الحقَّ فأدرَكَ به صلاحَ العاقبةِ مع وفور الحظ فى عاجلته .

وليس لك ما تُسْتَدْعَى ، ولا عليه ما تُستعطَفُ ، ولكنه حق من حقِّ أحسابك ، يجب ثوابُه على ربك ، ثم على من قمتَ بالحق فيه من أهل إمامتك ، فإن أعْجزَك قولٌ أو فِعلٌ فصِرْ إلى الدار التى تأمن فيها على نفسك ، وتحكُم فيها برأيك ، وتجاوَزْ إلى مَن يُحْسِن تقبُّلا لصالح فِعلك ، ويكون مَرْجِعك إلى عُقَدك وأموالك ، ولك بذلك اللهُ ، وكفى بالله وكيلا ، وإن تعذَّرَ ذلك بَقِيةً على نفسك ، فإمْساكًا بيدك وقولا بحقٍّ ما لم تَخَفْ وقوعَه بكُرْهك ، فلعلَّ مُقتديا بك ومغْتَبطًا بنهيك ، ثم أعْلِمْنى رأيك أعرِفْه إن شاء الله » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

فأتى علىٌّ بالكتاب إلى الأمين .

---

(١) أى كشف .

(٢) من التحريج وهو التضييق : أى التى لايجد فيها من أخذت عليه سبيلا إلى النكث .

(٣) أى أهلك .

١٩٧ — كتاب المأمون إلى الأمين

ولما بعث الأمين إلى المأمون فى البيعة لابنه موسى، ووَجَّه الرسل إليه فى ذلك، كتب المأمون جواب كتابه :

« أما بعدُ، فقد انتهى إلىَّ كتابُ أمير المؤمنين مُنْكِرا لإبائى مَنْزِلةً تَهَضَّمَنى[1] بها، وأرادنى على خِلاف ما يَعْلَمَ من الحق فيها، ولَعَمْرِى إن أوْرَدَ أمير المؤمنين مَوَارِدَ النَّصَفة، فلم يطالِبْ إلا بها، ولم يوجِبْ نكِرَة تركها، لانْبَسَطَتْ بالحُجَّة مَطالعُ مقالته، ولكنتُ مَحْجُوجا بمفارقةِ ما يُوجِب من طاعته، فأمّا وأنا مُذْعِنٌ بها، وهو على ترك إعمالها، فأوْلَى به أن يُدِيرِ الحقَّ فى أمره، ثم يأخذ به ويُعْطِى من نفسه، فإن صرتُ إلى الحق فرَّغتُ عن قلبه، وإن أبيتُ الحقَّ قام بمَعْذِرته، وأمّا ما وعَدَ من بِرِّ طاعته، وأوْعَد من الوَطْأَة بمخالفته، فهل أحدٌ فارَقَ الحقَّ فى فِعله فأبْقَى للمتبيِّن موضِعَ ثِقةٍ بقوله؟ والسلام » (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٣)

١٩٨ — كتاب الأمين إلى المأمون

ولما عزم الأمين على خلع المأمون، أشار عليه إسمٰعيلُ بن صُبَيْح الكاتب أن يكتب إليه يُعْلِمه حاجَتَه إليه وما يُحبُّ من قُرْبه، والاستعانة برأيه، ويسأله القدومَ إليه، فقال الفضل بن الربيع : القولُ ما قال يا أمير المؤمنين، قال، فليكتب بما رأى، فكتب إليه :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هٰرون أمير المؤمنين .

« أما بعد، فإن أمير المؤمنين رَوَّى[2] فى أمرك، والموضِع الذى أنت فيه مِن

---

(١) هضمه واهتضمه وتهضمه : ظلمه وغصبه .

(٢) روى فى الأمر : نظر وفكر .

ثغرك ، وما يُؤمَّل في قُرْبك من المُعاونة والمكانفة على ما حمَّله اللهُ وقلده من أمور عبادِه وبلاده ، وفكِّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجَبَ لك من الولاية ، وأمرَ به من إفرادك على ماتصيَّر إليك منها ، فرَجا أميرُ المؤمنين أن لايدخل عليه وَكفٌ[1] في دينه ، ولا نكْثٌ في يمينه ، إذ كان إشخاصُه إياك فيما يعود على المسلمين نفْعُه ، ويصلُ إلى عامَّتهم صلاحُه وفضلُه ، وعَلِم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسَدُّ للثغور ، وأصْلَح للجنود ، وآكَدُ للفَيْء ، وأرَدُّ على العامَّة ، من مُقامِك ببلاد خُراسان ، منقطِعاً عن أهل بيتك ، متغيِّباً عن أمير المؤمنين ، وما يحبُّ الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك .

وقد رَأى أمير المؤمنين أن يولِّيَ موسى ابن أمير المؤمنين فيما يقلِّده من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك ، فاقْدَم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبْسَطِ أمَل ، وأفْسَحِ رَجاء ، وأحمَدِ عاقبةٍ ، وأنفَذِ بصيرة ، فإنك أولَى من استعان به أميرُ المؤمنين على أموره ، واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمَّته ، والسلام » . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٦)

١٩٩ — رد المأمون على الأمين

فكتب إليه المأمون :

« لعبد الله محمد أمير المؤمنين من عبد الله بن هرون :

أما بعدُ : فقد وصل إليَّ كتابُ أمير المؤمنين ، وإنما أنا عاملٌ من عُمَّاله ، وعَوْنٌ من أعوانه ، أمَرَ الرشيدُ صلوات الله عليه بلزوم هذا الثَّغر ومُكايَدَة مَن كايَدَ أهلَه من عدوِّ أمير المؤمنين ، ولعَمرى إن مُقامى به أرَدُّ على أميرِ المؤمنين ، وأعظَمُ غَناء[2] على المسلمين ، من الشُّخوص إلى أمير المؤمنين ، وإن كنتُ مُغتبِطاً

---

(١) الوكف : العيب والإثم والفساد والضعف . (٢) الغناء : الكفاية والمنفعة .

بِقُربه ، مسروراً بمشاهدة نعمة الله عنده ، فإن رَأى أن يُقِرّنى على عملى ، ويُعفِينى من الشخوص إليه فعل إن شاء الله ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٩)

٢٠٠ — كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

ونَمَى الشرُّ بين الأخوين واستطار شَرَرُه ، وبعث الأمين جيشا كثيفا بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشا بقيادة طاهر ابن الحسين ، ونشِبَ القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش الأمين وقُتِل ابن ماهان (سنة ١٩٥) .

وكتب طاهر[١] إلى المأمون :

« أطال الله بقاءك ، وكَبَتَ[٢] أعداءك ، وجعل مَن يَشْنَؤُك[٣] فِداءك ، كتابى إليك ورأسُ على بن عيسى بين يدىَّ ، وخاتَمُه فى إصبعى ، وجُندُه مُصَرَّف تحت أمرِى ، والحمد لله رب العالمين » .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٢ ، ١٥٥ ومروج الذهب ٢ : ٣٠٠ والفخرى ص ١٩٥ والمثل السائر ص ٣٣٩)

٢٠١ — كتاب الأمين إلى طاهر بن الحسين

وحدث بعد ذلك حروب ووقائع وشَغَب كثير ، حتى سار طاهر ومعه هرثمة بن أعيَن إلى بغداد وحاصراها — وقد نزل طاهر بالجانب الغربى ، وهرثمة بالجانب الشرقى — وكتب الأمين إلى طاهر بخطه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : اعلم أنه ما قام لنا مُذ قمنا قائمٌ بحقِّنا ، وكان جزاؤه إلا السيف ، فانظر لنفسك أو دَعْ » . (مروج الذهب ٢ : ٣٠٣)

---

(١) توفى سنة ٢٠٧ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٣٥ ، وله أخبار فى كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٠٧ وفى الطبرى .

(٢) كبته كضربه : صرعه وأخزاه وكسره ورده بغيظه وأذله .

(٣) شنأه كمنعه وسمعه : أبغضه .

٢٠٢ — كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون

وكان الغَلَبة لطاهر بن الحسين ، وقتل الأمين وحُمِلَ رأسُه إلى المأمون بخراسان (سنة ١٩٨) وكتب طاهر إلى المأمون بالفتح :

« أما بعدُ فالحمدُ لله المتعالِي ذى العِزَّة والجَلال والمُلْك والسلطان ، الذى إذا أراد أمراً فإنما يقولُ له كُنْ فيكون ، لاَ إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم .

كان فيما قدّر اللهُ فأَحْكَمَ ، ودبَّرَ فأَبْرَمَ ، انتكاثُ المخلوع ببيْعته ، وانتقاضُه بِعَهْده ، وارتكاسُه[١] فى فِتْنته ، وقضاؤه عليه القتلَ بما كسبَت يداه ، وما اللهُ بِظَلَّام للعبيد ، وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — فى إحاطة جُنْدِ الله بالمدينة والخُلْدِ[٢] ، وأَخْذِهم بأفواهها وطُرُقها ومَسالِكها فى دِجْلَةَ ، نَوَاحِىَ أزِقَّة مدينة السَّلام، وانتظامِ المَسَالِح[٣] حَوالَيْها ، وحَدْرِى السُّفُنَ والزَّواريقَ بالعَرَّادَاتِ[٤] والمَقَاتِلَةِ إلى ما وَاجَهَ الخُلْدَ وباب خراسَان ، تحفُّظًا بالمخلوع ، وتخوُّفا من أن يرُوغَ[٥] مَرَاغاً ، ويَسْلُكَ مَسْلَكا يجد به السبيلَ إلى إثارة فتنة ، وإحياء نائرة[٦] ، أو يُهايج قتالا ، بعد أن حَصَرَه الله عزّ وجل وخَذَله ، ومتابعةِ الرُّسُل بما يَعرض عليه هَرْثَمَةُ ابن أعيَن مَوْلى أمير المؤمنين ويسألنى من تخْليةِ الطريق له فى الخروج إليه ، واجتماعى وهرثمةَ بن أعيَن لِنتناظرَ فى ذلك[٧] ، وكراهتى ما أحدثَ وراءه من أمره بعد

(١) ارتكس : انتكس ووقع .

(٢) المدينة: أى بغداد ، وتسمى أيضامدينة السلام . والخلد: قصر بناه المنصور بها(ثم بنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة عرفت بالخلد ، والأصل فيها القصر المذكور) وقد هرب الأمين من قصر الخلد مما كان يصل إليه من حجارة المنجنيق — وهو آلة ترمى بها الحجارة — وصار إلى مدينة السلام.

(٣) المسالح جمع مسلحة بالفتح : وهى القوم ذوو سلاح .

(٤) العرادة : أصغر من المنجنيق . (٥) راغ : مال وحاد .

(٦) النائرة : العداوة والشحناء .

(٧) وذلك أنه لما اشتد الحصار على الأمين ، شاور خواصه فى النجاة بنفسه ، فكل أدلى برأى وأشار بوجه . وكان الأمين يستوحش من طاهر، ويأمن بهرثمة ويثق بناحيته ، فراسله فى ذلك ،فأجابه هرثمة إلى ماأراد ووعده بكل ما أحب وأنه عنعه ممن يريد قتله ، وبلغ ذلك طاهرا فاشتد عليه وزاد غيظه —

إرهاق[1] الله إياه ، وقَطْعِهِ رجاءه من كل حيلة ومُتَعَلَّق ، وانقطاعِ المنافِعِ عنه ، وحيلَ بينه وبين المـاء فضلا عن غيره ، حتى هَمَّ به خَدَمُه وأشياعُه من أهل المدينة ومن نجا مَعه إليها ، وتحزَّبوا على الوثوب به للدَّفْع عن أنفسهم والنجاةِ بها ، وغير ذلك مما فسَّرتُ لأمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ مما أرجو أن يكون قد أتاه .

وإنى أخبر أمير المؤمنين أنى روَّيتُ فيما دبَّر هرثمةُ بن أعين مَوْلى أمير المؤمنين فى المخلوع ، وما عَرَض عليه وأجابه إليه ، فوجدتُ الفتنةَ ، فى تخلُّصه من موضعه الذى قد أنزلَه الله فيه بالذِّلة والصَّغار ، وصيّره فيه إلى الضِّيق والحِصار تزداد ، ولا يزيد أهلُ التربُّص فى الأطراف إلا طَمَعا وانتشاراً . وأعلمتُ ذلك هرثمةَ بن أعين وَكراهتى ما أطمَعَه فيه وأجابه إليه ، فذكَر أنه لايرَى الرجوعَ عما أعطاه فصادَرْتُه ـ بعد يأسٍ من انصرافه عن رأيه ـ على أن يقدِّمَ المخلوعُ رداءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيفَه وقضيبَه قبل خروجه ، ثم أُخلِى له طريقَ الخروج إليه ، كراهةَ أن يكون بينى وبينه اختلافٌ نَصيرُ منه إلى أمرٍ يُطمع الأعداء فينا ، أو فِراقُ القلوب بخلاف ما نحن عليه من الائتلاف والاتفاق على ذلك ، وعلى أن نجتمع لميعادنا عَشِيَّةَ السبت .

وحنقه وأبى أن يرفه عنه ويدعه يخرج ، وقال : هو فى حيزى والجانب الذى أنا فيه ، وأنا أحرجته بالحصار والحرب حتى صار إلى طلب الأمان ، ولا أرضى أن يخرج إلى هرثمة دونى فيكون الفتح له ، ولما رأى هرثمة والقواد ذلك اجتمعوا وصار إليهم طاهر وخاصة قواده ، وأداروا الرأى بينهم وأخبروا طاهرا أنه لايخرج إليه أبدا ، وقالوا له : يخرج ببدنه إلى هرثمة ، ويدفع إليك الخاتم والقضيب والبردة ـ وذلك الخلافة ـ ولا تفسد هذا الأمر واغتنمه إذ يسره الله ، فأجاب إلى ذلك ورضى به ، ولما علم بعض ذوى الأهواء بالخبر أراد التقرب إلى طاهر نخبره أن الذى جرى بينهم وبينه مكر ، وأن الخاتم والبردة والقضيب تحمل مع الأمين إلى هرثمة ، فاغتاظ وأكمن له كمناء بالسلاح ، ووعد هرثمة الأمين أن يأتيه فى حرّاقة إلى مشرعة باب خراسان فيصير به إلى عسكره ، فلما صار إلى الحراقة خرج طاهر وأصحابه فرموها بالسهام والحجارة فانكفأت ، فغرق الأمين وهرثمة ومن كان فيها ، فلم يكن لهرثمة شاغل إلا نفسه فتعلق بزورق ومضى إلى عسكره بالجانب الشرقى ، وسبح الأمين حتى عبر دجلة فقبض عليه أصحاب طاهر وقتلوه .

(١) أرهقه : حمله على ما لايطيقه .

فتوجَّهْتُ فى خاصَّة ثِقاتى الذين اعتمدتُ عليهم ، وأثِق بهم بِرَبْطِ الجأْشِ[١] ، وصدق البأس ، وصحة المناصحة ، حتى طالعتُ جميعَ أمرِ كلٍّ من كنتُ وكَّلتُ بالمدينة والخُلْد بَرّا وبحرا ، والتقدِمَة إليهم فى التحفظ والتيقّظ ، والحِراسة والحَذَر ، ثم انكفأتُ إلى باب خُرَاسان ، وكنتُ أعدَدْتُ حَرَّاقاتٍ[٢] وسُفُنا سوى العُدّة التى كانت لأَرْكَبَها بنفسى لوقتِ ميعادى بينى وبين هَرْثمة ، فنزلتُها فى عِدَّة ممن كان رَكِبَ معى مِن خاصَّة ثِقاتى وشاكِرِيَّتى[٣] ، وصيَّرت عِدّةً منهم فُرْسانا ورَجَّالةً بين باب خراسان والمَشْرَعَة[٤] وعلى الشَّطِّ .

وأقبَلَ هرثمةُ بن أعْيَن حتى صار بقُرب باب خراسان مُعِدا مُسْتَعِدّا ، وقد خاتَلنى[٥] بالرسالة إلى المخلوع إلى أن يخرُج إليه إذا وَافى المَشْرَعةَ لِيَحْمِلَه قبل أن أعلَم ، أو يبعث إلىَّ بالرِّداء والسيف والقضيب ، على ما كان فارَقَنِى عليه من ذلك . فلما وَافى خروجُ المخلوع على مَن وكَّلتُ بباب خُرَاسان ، نهضوا عند طلوعه عليهم ، ليعرفوا الطابَع لأمْرى كان أتاهم ، وتقدُّمى إليهم ألاَّ يدَعوا أحدا يجوزُهم إلا بأمرى ، فبادَرَهم نحوَ المشرعةِ وقرَّبَ هرثمةُ إليه الحرَّاقةَ ، فسبَقَ الناكِثُ أصحابى إليها ، وتأخَّر « كَوْثر[٦] » فظفِرَ به « قُرَيْشٌ » مولاىَ ، ومعهُ الرِّداء والقضيبُ والسيف ، فأَخَذَه وما معه ، فنَفَرَ أصحابُ المخلوع عند ما رَأَوا من إرادة أصحَابى مَنْعَ مخلوعهم من الخروج ، فبادَرَ بعضُهم حرَّاقَةَ هرثمة ، فتكفَّأَتْ بهم حتى أُغْرِقت فى الماء ورَسَبَتْ ، فانصرف بعضُهم إلى المدينة ، ورَمى المخلوعُ عند ذلك بنفسه من الحرَّاقة فى دجلة متخلِّصا إلى الشَّطِّ ، نادماً على ما كان من خروجه ، ناقضاً للعهد ، داعيا بِشِعاره[٧] ، فابتَدَره[٨] عِدَّةٌ من

---

(١) الجاش : النفس ، وربط جأشه : اشتد قلبه .
(٢) الحراقات : سفن فيها مرامى نيران يرمى بها العدو .
(٣) الشاكرى : الأجير والمستخدم ، معرب جاكر .
(٤) المشرعة : مورد الشاربة . (٥) خاتله : خادعه .
(٦) كان خادما خصيا للأمين وكان يحبه .
(٧) لما أخذت السيوف الأمين جعل يصيح : ويحكم ! إنى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله فى دمى . (٨) ابتدره : عاجله .

أوليائى الذين كنت وكّلتهم بما بين مَشْرَعة باب خراسان ورُكْن الصَّراة ، فأخذوه عَنْوَةً[١] قهرا بلا عَهْد ولا عَقْد ، فدعا بشِعاره وعاد فى نَكْثه ، فعَرَضَ عليهم مائة حَبَّة : ذَكَرَ أن قيمة كل حبة مائة ألفِ دِرهم ، فأبَوا إلا الوفاء لخليفتهم أبقاه الله ، وصيانةً لدينهم ، وإيثارًا للحق الواجب عليهم ، فتعلَّقوا به ، قد أسلَمَه[٢] الله وأفرَدَه ، كلٌّ يرْغَبه ويريد أن يفوزَ بالحُظوة عندى دون صاحبه ، حتى اضطربوا فيما بينهم ، وتناولُوه بأسيافهم ، مُنازَعةً فيه ، وتَشاحًّا[٣] عليه ، إلى أن أُتيحَ له مَغيظٌ لله ودينِه ورسوله وخليفته ، فأتى عليه ، وأتانى الخبرُ بذلك ، فأمرتُ بحَمْل رأسِه إلىّ ، فلما أُتيتُ به تقدَّمتُ إلى مَن كنتُ وكّلتُ بالمدينة والخُلْد وما حوالَيها وسائرِ مَن فى المَسالِح ، فى لُزُوم مواضعهم والاحتفاظِ بما يَليهم إلى أن يأتيَهم أمرى ، ثم انصرفتُ ، فأعظَمَ اللهُ لأمير المؤمنين الصُّنعَ والفتحَ عليه ، وعلى الإسلام به وفيه .

فلمَّا أصبحتُ هاج الناس واختلفوا فى المخلوع : فمُصَدِّق بقتله ومكذِّبٌ ، وشاكٌّ ومُوقِن ، فرأيتُ أن أطرَح عنهم الشُّبْهَةَ فى أمره ، فمضيتُ برأسه لينظرُوا إليه ، فيَصِحَّ بعَينِهم ، وينقطعَ بذلك بَعَلُ[٤] قلوبهم ، ودَخَلُ[٥] التِياثِ المُسْتَشْرِفين للفساد ، والمُسْتَوفِزِين للفتنةِ ، وغدَوْتُ نحوَ المدينة فاستَسْلَمَ من فيها ، وأعطَى أهلُها الطاعة ، واستقامَ لأمير المؤمنين شرقيُّ ما يلِي مدينة السلام وغربيُّه وأرباعُه[٦] وأرْباضُه ونواحيه ، وقد وضَعتِ الحربُ أوزارَها ، وتلاقى بالسلام والإسلام أهله ، وبَعَّد اللهُ

---

(١) أى قهرا . (٢) أى خذله .

(٣) تشاحا على الأمر : لا يريدان أن يفوتهما .

(٤) بعل بأمره كفرح : دهش وفرق وبرم فلم يدر ما يصنع .

(٥) الدخل : ما داخل المرء من فساد فى عقل أو جسم ، والالتياث : الاختلاط والالتفاف ، واستشرف الشىء : رفع بصره إليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس ، واستوفز تحفز وتهيأ للوثوب .

(٦) كانت المدينة قديما تقسم أرباعا (ولا يزال ذلك التقسيم إلى اليوم فى بعض بلاد القطر المصرى ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام ، كل قسم ثمن وحرفته العامة فقالوا تمن) والأرباض جمع ربض بالتحريك ، وربض المدينة : ما حولها ، والأوزار : الأثقال ، جمع وزر بالكسر .

الدَّغَلَ[١] عنهم وأصارَهم بِبَركةِ أمير المؤمنين إلى الأَمْنِ والسكون والدَّعَة والاِستقامة والاِغتباط والصُّنع من الله جل وعز والخِيَرة والحمدُ لله على ذلك .

فكتبتُ إلى أمير المؤمنين ـ حفظه الله ـ وليس قِبَلى داعٍ إلى فتنة ، ولا متحركٌ ولا ساعٍ فى فساد ، ولا أحَدَ إلا سامعٌ مطيع باخع[٢] حاضِر ، قد أذاقه الله حلاوةَ أمير المؤمنين ، ودَعَةَ ولايته ، فهو يتقلَّب فى ظلِّها، يغدو فى مَتْجَره ويَرُوح فى مَعايشه، واللهُ ولىٌّ ما صنَع من ذلك ، والمتمِّم له ، والمانُّ بالزيادة فيه برحمته .

وأنا أسأل الله أن يَهْنِئَ[٣] أمير المؤمنين نعمتَه ، ويتابِعَ له فيها مَزِيده ، ويُوزِعَه[٤] عليها شكرَه ، وأن يجعل مَنَّه لديه متواليا دائما متواصلا ، حتى يَجْمَعَ الله له خيرَ الدنيا والآخرة ولأوليائِه وأنصارِ حقّه ولجماعة المسلمين ، ببركَته وبركة ولايته ويُمْنِ خلافته ، إنه ولىُّ ذلك منهم وفيِّه ، إنه سميع لطيف لما يشاء » .

وكتب يوم الأحد لأربع بقين من المحرم سنة ١٩٨ هـ

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٠٣).

٢٠٣ — كتاب طاهر بن الحسين إلى أبى عيسى بن الرشيد

وروى الصُّولى فى أدب الكتاب قال :

وقال طاهر بن الحسين ـ وهو يحارب الأمين ، وكان أبو عيسى بن الرشيد معه ـ لكتابه : اكتبوا إلى أبى عيسى كتابا تتقربون به إليه وتتباعَدون ، ولا تُطْمِعوه ولا تؤيِسوه ، فقالوا : إنْ رأى الأمير أن يُعلِمنا كيف ذلك ويَحُدَّه لنا ، فقال اكتبوا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حَفظك الله وأبقاك وأمتَعَ بك ، وعزيزٌ علىَّ أن

---

(١) الدغل : الفساد .

(٢) بخع بالحق كمنع : أقربه وخضع له ، كبخع بالكسر .

(٣) يقال هنأنا الله الطعام : أى جعله هنيئا .

(٤) أوزعه الله : ألهمه .

أكتبَ إلى صغير منكم أو كبير ، بغير التأمير ، وقد بلغنى عنك مُمالأةٌ[1] للمخلوع ، فإن كان ذلك منك مَيْلا على أمير المؤمنين ، فقليلُ ما أُكاتبك به كثيرٌ ، وإن كنت كما قال الله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » فالسلامُ عليك أيها الأميرُ ورحمة الله وبركاته » . (أدب الكتاب ص١٥١)

* * *

وروى ابن عبد ربه فى العقد الفريد قال :

وكتب طاهر بن الحسين حين أخذ بغداد إلى إبراهيم بن المهدى :

« أما بعد ، فإنه عزيزٌ علىَّ أن أكتب إلى أحد من بيت الخلافة بغير كلامِ الإمرة وسلامِها ، غير أنه بلغنى عنك أنك مائلُ الهَوَى والرأى للناكث المخلوع ، فإن كان كما بلغنى فقليلُ ما كتبتُ به كثير لك ، وإن يكن غير ذلك فالسلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وقد كتبتُ فى أسفل كتابى أبياتا فتدَبَّرها :

رُكوبُك الهَوْلَ مالم تلْقَ فُرْصَتَه ... جَهْلٌ رَمَى بك بالإقحامِ تَغْرِيرُ

أهونْ بدنيا يُصيبُ المخطئون بها ... حظَّ المُصيبين ، والمغرورُ مغرورُ

فازْرَعْ صوابا وخذ بالحزم حَيطتَه ... فلن يُذَمَّ لِأهل الحزمِ تدبيرُ

فإن ظفِرتَ مُصيباً أو هلكتَ به ... فأنت عند ذوى الألباب معذورُ

وإن ظفِرتَ على جهلٍ ففزْتَ به ... قالوا جَهُولٌ أعانته المقاديرُ

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٠٤ — كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

ولما قُتِل الأمين كتبت أمّه السيده زُبَيْدة[2] :

لِخير إمامٍ قامَ من خير عُنْصُرٍ ... وأفضلِ راقٍ فوقَ أعوادِ مِنْبَرِ

---

(١) مالأه : ساعده على الأمر وشايعه .

(٢) جاء فى تاريخ الطبرى : وقال خزيمة بن الحسن يرثيه على لسان أم جعفر : ثم أورد الأبيات .

ووارثِ عِلْمِ الأوّلين وفَخْرِهم ... ولِلْمَلِكِ المأمونِ من أمِّ جعفرِ

كتبتُ ، وعيني تَسْتهِلُّ دموعُها ... إليك ابنَ عمى من جُفونى ومَحْجِرى (١)

وقد مسَّنى ضُرٌّ وذُلٌّ كآبةٍ ... وأرّقَ عيني يابنَ عمى تفكُّرِى

أُصِبْتُ بأدْنَى الناس منك قرابةً ... ومَن زالَ عن كَبْدى فَقَلَّ تصبُّرِى

وَهِمْتُ لِمَا لاقيتُ بعد مُصابه ... فأمْرِى عظيمٌ مُنكَرٌ جِدُّ منكَرِ

سأشكو الذى لاقيتُه بعد فَقْدِه ... إليك شَكَاةَ المُستَهامِ المقهَّرِ (٢)

وأرجو لِمَا قَدْ مرَّ بى مُذْ فقدْتُه ... فأنت لِبَثِّى خيرُ رَبٍّ مُغيِّرِ (٣)

أتى طاهرٌ (لا طهَّر اللهُ طاهراً) ... فما طاهرٌ فيما أتى بمطَهَّرِ

فأبْرَزَنى مكشوفةَ الوجه حاسراً ... وأنْهَبَ أموالى وأخْرَبَ (٤) آدُرِى

يَعِزُّ على هٰرونَ ماقد لقيتُه ... وما نالنى من ناقصِ الخلْق أعوَرِ

فإن كان ما أسْدَى بأمرٍ أمَرْتَهُ ... صَبَرْتُ لأمرٍ من قديرٍ مُقدَّرِ

تذكَّرْ أميرَ المؤمنين قرابتى ... فَدَيْتُكَ من ذى حُرْمةٍ متذكِّرِ

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال : اللهم إنى أقولُ كما قال أمير المؤمنين علىّ ابن أبى طالب كرم الله وجهَه لمَّا بلغه قتل عثمانَ « واللهِ ما أمرتُ ولا رضِيتُ » اللهم جَلِّلْ قلب طاهر حزنا .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٣ ومروج الذهب ٢ : ٣١٦)

٢٠٥ — كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون

وكتبت إلى المأمون أيضاً تستعطفه :

« كلُّ ذنب يا أمير المؤمنين - وإن عَظُمَ - صغيرٌ فى جَنْب عفوك ، وكل زَلَل

---

(١) استهل المطر : اشتد انصبابه ، ومحجر العين كمجلس ومنبر : مادار بها .

(٢) الشكاة : الشكوى ، والمستهام : الهائم . (٣) البث : أشد الحزن .

(٤) امرأة حاسر : حسرت عنها درعها وكشفته ، وكل مكشوفة الرأس والذراعين حاسر ، وأنهب ماله : جعله نهبا يغار عليه ، ومن جموع دار : آدر وأدؤر ، وقد روى بالوجهين .

— وإن جَلّ — حقير عند صَفْحِك ، وذلك الذى عوّدَكَ الله ، فأطال مُدّتك ، وتمّم نعمتك ، وأدام بك الخيرَ ، ورفعَ بك الشَّرّ .

هذه رُقْعة الوالِهِ[1] التى ترجوكَ فى الحياة لنوائب الدهر ، وفى الممات لجميل الذّكر ، فإن رأيتَ أن ترحَم ضعفى واستكانتى[2] ، وقِلّةَ حيلتى ، وأن تصِلَ رَحِمِى ، وتحتسِبَ[3] فيما جعلك الله طالبا ، وفيه راغباً ، فافْعَلْ ، وتذكّرْ[4] من لو كان حَيًّا لكان شفيعى إليك » .

٢٠٦ — رد المأمون عليها

فكتب إليها المأمون :

« وصَلَتْ رُقعتك يا أمّاه ، حاطكِ[5] الله وتوَلاَّكِ بالرِّعاية ، ووقفتُ عليها وساءنى — شَهِد الله — جميعُ ماأوضَحْتِ فيها ، لكنّ الأقدارَ نافِذة ، والأحكامَ جارية ، والأمور متصرِّفة ، والمخلوقون فى قبْضتها لا يقدِرون على دِفاعها ، والدنيا كلُّها إلى شَتَات[6] وكل حىّ إلى ممات ، والغدرُ والبَغْىُ حَتْفُ الإنسانِ ، والمكر راجع إلى صاحبه[7] ، وقد أمرتُ بردِّ جميع ماأُخِذ لك ، ولَنْ تَفْقِدى ممّن مَضَى إلى رحمة الله إلا وجهَه ، وأنا بعد ذلك على أكثرَ مما تختارين ، والسلام » .

---

(١) الوله بالتحريك : الحزن أو ذهاب العقل حزنا ، وهو ولهان وواله وآله ، وهى ولهى وواهة وواله وميلاه (بكسر الميم) : شديدة الحزن والجزع على ولدها .

(٢) الاستكانة : الخضوع والذل .

(٣) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ينوى به وجه الله .

(٤) تعنى أباه الرشيد .

(٥) حاطه : حفظه وصانه . (٦) الشتات : التفرق . (٧) يعرض بالأمين .

٢٠٧ – كتاب أحمد بن يوسف فى قتل الأمين

وكان أول ماارتفع به أحمد[١] بن يوسف الكاتب ، أنه لما قُتل الأمين أمر طاهر بن الحسين الكُتّابَ أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أخصرَ من هذا ، فوُصِف له أحمد بن يوسف وموضِعُه من البلاغة فأحضَرَه لذلك[٢] فكتب :

« أما بعد . فإن المخلوع وإن كان قَسِيمَ أمير المؤمنين فى النَّسب واللُّحْمَة[٣] ، فقد فرّق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه فى الولاية والحُرْمة ، بمُفارَقته عِصْمَة الدين ، وخروجه عن الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما اقتصَّ علينا من نبإ نوح

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بنى عجل بن لجيم بالكوفة ، استوزره المأمون بعد أحمد بن أبى خالد الأحول وتوفى سنة ٢١٣ — انظر ترجمته فى الفخرى ص ٢٠٦ والأغانى ج ٢٠ : ص ٥٦ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥ : ٢١٦ وغرر الخصائص الواضحة ص ١٠٩ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦١ وكتاب الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ١٤٣ وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٣٤.

(٢) هذه رواية زهر الآداب ، ومنها ترى أن هذا الكتاب كتب فى بغداد ، وروى أنه كتب بمرو . روى الطبرى قال : « لما بعث طاهر برأس محمد إلى المأمون ، بكى ذو الرياستين وقال : سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ، فقال له المأمون : قد مضى مامضى فاحتل فى الاعتذار منه ، فكتب الناس فأطالوا ، وجاء أحمد بن يوسف بشبر من قرطاس فيه « أما بعد .. » وكذلك روى الجهشيارى فى كتاب الوزراء والكتاب قال : « ولما قتل طاهر محمدا المخلوع أنفذ رأسه إلى المأمون ، فقال الفضل بن سهل : ما فعل بنا طاهر ! سل علينا سيوف الناس . . . الخ ثم قال : وأمر المأمون الفضل أن ينشئ كتابا عن طاهر يخبره ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف . . .

وروى ياقوت فى معجم الأدباء الخبرين ، وقال بعد أن أورد الأول : فرضى طاهر ذلك وأنفذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه ، ثم أورد الثانى فقال : « وقيل إن المأمون لما حمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو ، أمر بانشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ، ليقرأ على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرضت النسخة على ذى الرياستين رجع نظره فيها ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أنصفناك ، ودعا بقهرمانه وأخذ القلم والقرطاس وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ، ويعد له فيها من الفرش والآلات والكسوة والكراع وغير ذلك ، ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف وقال له : إذا كان فى غد فاقعد فى الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق » .

(٣) اللحمة : القرابة .

وابنه « يانوحُ إنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » ولا صلةَ لأحدٍ في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وقد قَتَل الله المخلوعَ ورَدَّاه رِداءَ نَكْثِه[١] ، وَأَحْصَدَ[٢] لأمير المؤمنين أمرَه ، وأَنْجَزَ له ما كان ينتظر من سابق وعده ، فالأرضُ بأكنافها[٣] أوطأُ مِهادٍ لطاعَتِه ، وأتبعُ شيء لمشيئتِهِ ، وقد وجَّهْتُ إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأسُ المخلوع ، وبالآخرة وهِي البُرْدَة والقَضِيب .

وَالحمد لله الراجِع إلى أمير المؤمنين معلومَ حقه[٤] والكائِدِ له مَنْ خَتَرَ[٥] عهدَه ، ونَقَض عَقْدَه ، حتى رَدَّ به الأُلفةَ بعد فُرْقتها ، وجمَعَ به الأمة بعد شَتاتها ، وأحيا به أعلامَ الدين بعد دُرُوسِها[٦] ، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

(زهر الآداب ٢ : ٣٨ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢١٤ ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٧ وكتاب الوزراء والكتاب ص ٣٨٥)

٢٠٨ — رسالة الخميس لأحمد بن يوسف

ومن رسائل أحمد بن يوسف رسالة الخميس[٧] التى كتبها للمأمون وكانت تقرأ بخُراسان على شِيعة بنى العباس ، وهى :

---

(١) نكث العهد : نقضه . (٢) من أحصد الحبل : إذا أحكم فتله .

(٣) الأكناف : جمع كنف بالتحريك ، وهو الناحية .

(٤) الراجع هنا من رجع المتعدى ومفعوله « معلوم » .

(٥) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر ، وفى المنظوم والمنثور « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، والكائد له من خان عهده ونكث عقده ... » .

(٦) أى امحائها ، ، وفى زهر الآداب تكرير الحمد فى آخر الكتاب ، قال « والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين حقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

(٧) رسالة الخميس : هى رسالة كان يكتبها أبلغ كاتب فى الدولة ، فى عهد كل خليفة من أوائل الخلفاء العباسين ، فى تأييد الدعوة العباسية عامة ، وأن أولى الناس بولاية خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو العباس عمه ووارثه من بعده ، وفى تأييد الخليفة الحاضر خاصة ، والإشادة بذكره ، وتعداد مناقبه ومآثره وأنه أولى أهل بيته بالخلافة ، وكانوا يبعثون بهذه الرسالة إلى خراسان فتتلى على أهلها ، ويحشدونهم لسماعها ، تفخيما لشأن الخليفة لديهم ، وتجديدا لولائهم لبنى العباس واستدامتهم على التشيع لهم ، =

« من عبد الله الإمام[1] المأمونِ أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق ، والناصرين للدين ، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام .

سلامٌ عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، وَيسأله أن يصلِّيَ على محمد عبدِهِ وَرسولِهِ ، أما بعدُ : فالحمد لله القادر القاهر ، الباعِثِ الوَارِث ، ذى العزّ والسلطان ، والنور والبُرْهان ، فاطِرِ[2] السموَات وَالأرضِ وما بينهما ، والمتقدِّم بالمَنِّ والطَّوْل على أهلهما ، قبل استحقاقهم لمَثُوبَته بالمحافظة على شرَائع طاعته ، الذى جعل ماأودَعَ عبادَه من نعمته ، دليلا هاديا لهم إلى معرفته ، بما أفادهم من الألباب التى يفهمون بها فَصْلَ الخطاب ، حتى أُقيموا على موارد الاختبار ، وتعقَّبُوا مصادِرَ الاعتبار ، وحَكَموا على مابطَنَ بما ظهر ، وعلى ماغاب بما حضَر ، واستدلُّوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُتْقَن صَنعته ، وحاجةِ مُتَزايِلِ[3] خَلْقِهِ ومُتَواصِله إلى القَوْم[4] بما يَلُمُّه ويُصْلِحه ، على أن له بارئاً هو أنشأه وابتدأه ويَسَّرَ بعضَه لبعض ، فكان أقرب وجودهم

وقد ذكر ابن النديم فى الفهرست ص١٧١ « أن لعمارة بن حمزة كاتب المنصور ومولاه رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التى تقرأ لبنى العباس » والظاهر أن رسالة عمارة هى أولى رسائل الخميس ، حتى كانت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وكان أحمد بن يوسف فى خراسان فى ديوان الفضل بن سهل ، فعمل رسالة الخميس للدعاية للدولة العباسية وللمأمون ، وللاحتجاج له عن قتل أخيه ، وقد جاء فى الفهرست لابن النديم ص ١٨٣ : « الكتب المجمع على جودتها . عهد أرد شير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » ولما ثار العباسيون ببغداد على المأمون ، ونصبوا عمه إبراهيم بن المهدى خليفة مكانه — كما سيأتى — عمل إبرهيم لنفسه رسالة خميس — وكان غزير الأدب وافر الفضل ، لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا — إلى أن كانت خلافة المتوكل فعمل له إبرهيم بن العباس رسالة للخميس ، وقد ذكر ابن طيفور فى المنظوم والمنثور صدر رسالتى إبرهيم بن المهدى وإبرهيم بن العباس ، وسيردان عليك بعد ، ولم يحدثنا التاريخ أنه عملت رسائل للخميس بعد ذلك ، وسبب انقطاعها ما كان من غلبة الترك على الخلفاء ، ثم استيلاء الديلم على بغداد ، وانهيار بنيان وحدة الدولة وتشعبها إلى دول مستقلة فى المشرق والمغرب .

(١) كان الأمين قد نهى عن الدعاء على المنابر فى عمله كله للمأمون ، وأمر بالدعاء له عليها ، ثم من بعده لابنه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير وسماه الناطق بالحق ، وذلك سنة ١٩٥ ، فبلغ ذلك المأمون فتسمى بإمام الهدى وكوتب بذلك — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ١٣٩ .

(٢) فاطر : خالق . (٣) المتزايل : المتفرق .

(٤) القوم : القيام .

مايُباشِرُون مِن أنفسهم فى تصرُّف أحوالهم ، وفُنون انتقالهم ، وما تَظْهرون عليه من العَجْز عن التأتِّى[١] لِمَا تـكامَلَت به قُواهم ، وتمَّتْ به أدواتُهم ، مع أثَر تدبير الله عز وجلّ وتقديره فيهم ، حتى صاروا إلى الخلقة المحْـكَمة ، والصورة المُعْجِبة ، ليس لهم فى شىء منها تلطُّفٌ يتيمَّمونه ، ولا مقصِدٌ يعتمدونه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى ذِكْره « يـٰأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْـكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ » ثم مايتفكَّرون فيه مِن خَلْق السموات ، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسخَّراتٍ ، على مَسيرٍ [لَا يثبُتُ العالَمُ إلا به] : من تصاريف الأزمنة التى بها صلاحُ الحَرْث والنَّسل ، وإحياء الأرض ، ولِقاحُ النبات والأشجار ، وتعاوُرُ[٢] الليل والنهار ، ومَرُّ الأيام والشهور والسنين التى تُحْصَى بها الأوقاتُ ، ثم مايوجد من دلائل التركيب فى طَبقَات السَّقْف المرفوع ، والمِهادِ الموضوع ، [باختلاف] أجزائه والتئامها ، وخَرْقِ الأنهار ، وإرْساء الجبال ، ومن البيان الشاهِدِ على ماأخبر اللهُ عزّ وجل به من إنشائه الخلقَ ، وحدوثه بعد أن لم يكن ، مترَقِّيا فى النَّمـاء ، وثباته إلى أجَله فى البقاء ، ثم مَحارِه[٣] مُنقضِياً إلى غاية الفناء ، ولو لم يكن له مُفْتَتَحُ عَدَد ، ولا مُنقطع أَمَد ، ماازداد بنُشُوء ، ولا تَحيَّفه[٤] [نُقْصَانٌ] ولا تفاوُتٌ على الأزمان ، ثم مايوجد عليه منفعتُه من ثبات بعضِه لبعض ، وقِوَامِ كل شىء منه بما يُسِّرَ له ، فى بدء استمداده ، إلى منتهى نَفادِه ، كما احتج الله عز وجل على خلقه فقال: « أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً » وقال عزّ وجلّ : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وكلُّ ماتقدَّم من الأخبار عن آيات الله عز وجل ودلالاته فى سَمواته التى بَنَى ، وأطباقِ الأرض التى دَحَا[٥] ، وآثار صُنعه

---

(١) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

(٢) التعاور : التداول . (٣) المحار : الرجوع وفى الأصل « بحاره » .

(٤) تحيفه : تنقصه من حيفه ، والحيف ، كعنب جمع حيفة بالكسر : وهى الناحية .

(٥) دحا الله الأرض يدحوها ويدحاها دحوا : بسطها

فيما بَرَأَ وذَرأ[١] ثابتٌ فى فِطَر العقول ، حتى يَسْتَجرَّ أولى الزَّيْغ مايدْخِلون على أنفسهم من الشُّبْهة فيما يجعلون له من الأضداد والأنداد ، جَلَّ عما يُشْرِكون، ولولا توحُّدُه بالتدبير عن كل مُعِين وظَهِير[٢] ، لـكان الشركاءُ جُدَرَاء أن تختَلِف بهم إرادتُهم [فيما يخلُقون] ولم يكن التخلُّف فيه من إثباته وإزالته ليخلُوَ من أحد وجهيه ، وأيهما كان فيه فالعجزُ والنقصُ مما أتاهُ وَبَرَاه ، جَلَّ البديعُ خالقُ الخلق ومالكُ الأمر عن ذلك ، وتعالَى عُلُوًّا كبيرا ، كما قال سبحانه : « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » ثم من عظيم نعمة الله عزّ وجل على خلقه افتقادُه[٣] إياهم ، ثم يسدِّدهم وَيدُلُّهم على منافعهم ، ويجنِّبُهم مضارَّهم ، وَيَهديهم لما فيه صلاحهم ، ويرغِّبهم فى المحافظة على التمسُّك بدين الله عزّ وجل الذى جعله عِصْمَةً لهم ، وحاجِزاً بينهم .

ولولا ماتقدَّم به من تَلَافِيهم[٤] واستدراكهم بفضل رحمته لأُجْتاحهم[٥] التَّلَفُ لِقُصُور معرفتهم عن التأَتِّى لأقواتهم ومَعايشهم ، ولم يكونوا ليقتصروا على حظوظهم وأقسامهم عما بُنُوا عليه من الجَمْع والرغبة ، ولَتَهالـكُوا بِبَغْيِ بعضهم على بعض ، وعُدْوان قويِّهم على ضعيفهم ، ولـكنه بعد تعريفه إياهم مُلْكَ قدرته ، وجلالةَ عِزَّته ، بعث إليهم أنبياءه ورسُلَه مبشِّرين ومنذرين بالآيات التى لاتنالها أيدى المخلوقين ، فرَضُوا بما قَسَطَ بينهم ، وارتدعوا عن التباغِى والتظالُم ، لِمَا وُعدوا من الثواب الجسيم ، وخُوِّفوا من العقاب الأليم ، ولم يكونوا لِيُطِيعوا أمراً لِآمِر ، ولا نَهْياً لِناهٍ ، إلاّ بحُجَّة يتبيَّن بها [الحقُّ] لمَن خالَفه من المُبْطلين ، وتخويفٍ يتقُّون به مُقارَفة[٦] ماحُرِّ [م عليهم] ، ورجاءٍ يتجشمون له مَئُونةَ ماتَعَبَّدُوا به ، فافتتح الله عزّ وجل بأبيهم آدمَ عليه السلام،

---

(١) برأ الله الخلق وذرأهم (كجعل فيهما) : خلقهم . (٢) الظهير : المعين .
(٣) أى تفقده ، وفى الأصل « سماوه » . (٤) فى الأصل « تلافهم » .
(٥) أى أهلكهم واستأصلهم . (٦) قارف الذنب : اقترفه وأتاه .

فعلّمه الأسماءَ كلَّها ، وأمر الملائكة بالسجود له كما اقتص فى وَحْيه المنزَل — وكرّم ولده وفضَّلهم ، فقال جلَّ وعزّ : «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً» وجعل مافطَرهم عليه من العطف على ذَراريِّهم وأبنائهم سبباً لما أراد من بقائهم وتناسُلهم ، وما اختصَّهم به من العلم والفهم حُجَّةً عليهم ، ليمتحنَ طاعتهم ، ويَبْلُوَهم[1] أيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً .

ولم تَزَلْ رسُل الله عز وجل إلى خلقه تَتْرَى[2] بالنور الساطع ، والبرهان القاطع ، لايجدون لما يُوردون عليهم من الحق القاهر مَرَدًّا ولا مَدْفعا ، لقول الله عزّ وجل : «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» فلم يجد المكذِّبون مَسَاغاً[3] إلى دفع ما أُقيم عليهم من لازمِ الحجة إلا المعاندةَ والمجاحَدةَ ، وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم يُبعثون فى أعصار الحِقَب[4] نُذُرًا للأُمَمِ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ الله عز وجل بالنبىِّ الأُمِّىِّ محمد صلى الله عليه وسلم ، فبعثه فَرْدًا وحيدًا لا عاضِدَ له ولا رافِدَ[5] ، إلى قوم يعبدون أصناماً بُكْمًا ، وحِجَارةً صُمًّا ، فكذَّب به القومُ الذين بُعِث فيهم أولَ ما دعاهم ، ورامَهُ ملوكُ أقطار البلاد بتوجيه الأجناد ، ومُرافَدة القوة والعَتَاد[6] ، وبُغِىَ الغوائلَ ، ونُصبت له الحبائلُ ، وهو يدعو إلى سبيل ربه بما أمره به إذ يقول تعالى : «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» ثم جاهَدَ بمن أطاعه مَن عصاه ، وبمن اتَّبعه مَن خالفَه ، حتى أعزّ الله كلمتَه ، وأظهر دعوتَهُ ، وأكمَلَ لعباده دينَهم الذى ارتضى لهم ، فلما اختار الله له ما لديه ، واختصَّه بما عنده ، من النعيم

---

(١) أى يختبرهم . (٢) يقال : جاءوا تترى وينون ، وأصله وترى : أى متواترين متتابعين .
(٣) أى مدخلا وطريقا .
(٤) الحقب جمع حقبة بالكسر ، والحقبة من الدهر : مدة لاوقت لها .
(٥) الرافد : المعين الواصل . (٦) العتاد : العدة .

المقيم ، والجزاء الكريم ، بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجا[١] ، خَلَفَه - إذ خَتَم به الأنبياء - بالبَرَرَة النجباء من أدانيه ولحمته[٢] ، لإقامة الشرائع المفترَضَة ، وإنفاذ حُكم الله المنزَّل ، واقتفاء السُّنّة المأثورة ، وحِفظا له فى قرابته ، ومُجيبى دعوته وإتماما لِما أوجب له من الفضيلة ، وقريب الوسيلة ، وإنجازاً لِما وعده من إظهار ما بَعثَه به ، من دينه الذى اصطفاه وارتضاه .

وكان اختيارُ أولى الفضل من لحمته وعَصَبَته لإرْثِ خِلافته ، مِن عظيم الزُّلَف[٣] التى رَغِب إلى الله فيها أنبياؤه ، فيما اقتَصّ فى مُنزَل وَحْيه[٤] ، واختصّ تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما أمَرَه به من مسألةِ أمّته تصييرَ مَوَدَّته فى القُرْبى ، جَزاءه مِمَّن تَبعهُ على الرسالة ، وهَداه من الضلالة ، فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وَجل ، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألزمَه تأديتَه إلى خلقه . وألزمهم أداءَهُ ، فقال عز وجل : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ودلّ بما أخبَرَ به وأظهَرَه من تطهيره إياهم ، وإذهابه الرِّجْسَ[٥] عنهم ، على اصطفائه لهم ، فقال تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وكان مما أوجب لهم به حقَّ الوراثة فى مُحْكَم تنزيله قوله تعالى « وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ثم قَرَن طاعتَهم بطاعته فقال : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » وأحَلَّهُمْ من النَّباهة والصِّيت ، بالمحلّ الذى أعْلَى به أمْرَهم ، ورَفَعَ به ذِكْرَهم ، لِما أحبّ من التبيين فى الدلالة عليهم ، والهداية إليهم ، فإنه يقول عزّ وجل: « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » ،

---

(١) الأفواج جمع فوج بالفتح : وهو الجماعة . (٢) اللحمة : القرابة .

(٣) الزلف جمع زلفة بالضم : وهى القربة ، وفى الأصل « ومن عظم الزلف » وفيه أيضا « وبما اقتص » وهو تحريف .

(٤) يشير إلى قول زكريا عليه السلام « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » . (٥) الرجس : القذر ، والمأثم .

ولو كان الأئمة المقلَّدون أمرَ عباده خاملةً أنسابُهم ، متقطعةً أسبابُهم ، غيرَ مخصوصين بفضيلةٍ يَرَونهم بها دُون غيرهِمْ لم تعدُ طَلِبَتُهم وعَقْدُ الخلافةِ لهم ، أن تكون من مفترَضاته على كافَّة الأمة ، أو على بعض دون بعض ، فإن كان لأهل الشرق والغرب من ذوى النقص والكمال أن يختاروا لأنفسهم ، فليس فى اجتماع آرائهم مع تفرُّقهم واختلافهم طمعٌ آخرَ أيامِ الدهر ، وَإن كان إلى خاصَّة دون عامّة ، فستحتاجُ العامَّةُ مِنْ طَلَب معرفةِ تلك الحال ، إلى مِثلِ مَا احتاجوا إليه فى أئمتهم إذ لم يكن أهلُ الارتياب والطلب من أعلام الآفاق ، لِيتواطئُوا على اتفاق ، لِنَفادِ آجالهم قبل بلوغهم غايةَ الاجتهاد فى الفَحْص والتكشيف ، وحاجَتهم إلى اختيار البُلْدَان ، وتمحيصِ أُولى الفضائل بالامتحان ، وَمَا [هو] خافٍ عليهم من الشُّبَه فى اختيارهم ، والاختلافِ فيمن عسَوا أن يجتَبُوه(١) ويقدِّموه ، حتى تتهالكَ الرعيةُ ، بتظالُمِها بينها ، وَبطارِق مَن يَليها من الأمم إياها إذ لا ذائِدَ عنها ولا مُحَامِيَ ، فإذا ألزمتِ الأمةَ الحاجةُ إلى نَصْبِ الحُكّام لإقامة الدين ، وتقسيطِ الحقوقِ بين المسلمين ، وَمجاهدةِ عدوِّهم من المشركين ، لم يكُن لهم فى الإمامة عليهم مجازٌ إلى التخلص إليهم ، ولا ريبَ عند المعرفة برأفة الله ورحمته ، ولُطفه وحكمه ، فى دَفْعِه عن عباده ما لم يجعل فى حيلتهم له وُسْعا ، ولا فى حِيلتهم له دَرْكا ، وكِفايته إياهم ما يُعْجِزُهم منَ البحثِ والتنقيب عن ولاة أمرهم ، بنَصْبِه إياهم ، وما رَفعهم إليه من الدرجة التى أَعلاها وأسناها(٢) ، إذ وَصَل نسَبَهُم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترَضَ مودَّتهم على خَلْقه ، ولم يَشِنْهُم(٣) جهلُهم للغرض الذى ألزمَهم له ، ولم يَجب عليهم فرضٌ فى مَعرِفة مَن سواهم ، ولم يزلْ سِياقُ أئمةِ الهدى مُطَّرِدا ، ونظامُهم متَّصلا ، يتلقاه كابرٌ عن كابر ، ويؤدِّيه أوّلٌ إلى آخرٍ ، حتى تناهَى إلى أمير المؤمنين ، وهو حالٌّ دارَ دَعْوته ، وبين أنصاره مِن أهل

(١) اجتباه : اختاره . (٢) أى رفعها وأعلاها .
(٣) فى الأصل « يسفهم » وربما كان « يسفههم » .

خُراسان ، فنظرَ به خيرَهم ، وعرَفوا ما تصرَّفَتْ به أحوالهم ، وظهر لهم مِن بيان حُجَّته على مَن نازَعهُ فى الأمر ، وشاهَدوا من إبلاغه فى العُذْر ، واستظهارِه بالتأنّى والصبر ، ما أزاحَ عنهم الشُّبْهَةَ ، وكَشَط[1] الحَيْرَةَ ، حتى استراثوا[2] نهوضَه بحقه ، وخافوا الزَّيغَ على أديانِهم فيما أعطوه من صَفْقَةِ أيمانهم ، وهو ماضٍ على عادته ، مستديمٌ للمُوادَعة ، متلوِّم[3] على المراجَعة ، بالغٌ غايةَ ما وَسِعَه من الرُّخصة فى دفع الولاية التى نَهْنَهَ[4] بها الرعيةَ ، حتى ضاق عليه فى دينه تركُ القيامِ بما أنهضه اللهُ به من ثِقْلها ، وقلَّدَه مِن حِملها ، وخان المخلوعُ فابتغاه بالشِّرَّةِ والعِزَّة ، فتناول أولياءَ الحق باغياً طاغياً ، لِما أراد الله من تأييدهم[5] عليه بالبيان والحُجَّة التى وجبَ[6] لها قلبُه ، وفُتَّ بها فى عَضُده[7] ، وقَبِلَ الله ما أيدكم به[8] من النصر والغَلَبة فيه التى جعلها الله للمتقين ، فاجتمَعَ لكم معشَرَ أهلِ خراسان فى دولة أمير المؤمنين ثلاثُ خِلال اختصَّكم الله بفضيلتها ، وسَنِىِّ[9] مراتبها ، دون ثلاثٍ شَمِلَتْكم وغيرَكم :

أمَّا الأُولى من اللواتى خصَّكم الله بهن ، فما تقدَّم لأسلافكم من نصرة أهل بيت [النبى] وخاتم ميراثه من آباء أمير المؤمنين . وأمَّا الثانيةُ فما آثرَكم اللهُ به من نُصرَته فى دعوته الثانية . وأما الثالثة فما تقدَّمتم به من صحة ضمائركم ، ومَحْضِ[10] مناصحتكم .

وأما الثلاث اللواتى هن لكم ولغيركم :

فمنهن : ما أكَّد الله لأمير المؤمنين فى أعناق المسلمين ، من العهد الذى أخذ إصْرَه[11] ، وألهمَهم الوفاءَ به ، والتمسُّكَ بوثائق عِصْمته ، عند محاولة المخلوع ما حاول

---

(١) أى كشف ، وبابه ضرب.

(٢) استراثه : استبطأه ، وفى الأصل « استرادوا » وهو تحريف .

(٣) تلوم فى الأمر : تمكث وانتظر . (٤) نهنهه : كفه وزجره .

(٥) فى الأصل « بادبهم » . (٦) أى اضطرب وخفق .

(٧) فت فى عضده : أضعفه .

(٨) فى الأصل « وقبل ماأر .... كم به من النصر » وقد أصلحته كما ترى .

(٩) أى رفيع . (١٠) أى خالص . (١١) الإصر : العهد .

من الإعلان بالرِّدَّة ، والتَمسَ من تبديل مَعالِمِ الدين وتعفيةِ آثاره ، فلم يُلْفِ الرَّعية سُدًى مهمَلين ، لا جامعَ لأمرهم ، ولا ضَامَّ لنَشْرهم .

ومنهن : ما أفادكم الله وإياهم من العِبر ، عند حلول الغِيَر[١] ، بمن غدَر وخَتَر[٢] ، تذكِرَةً لأُولِي النُّهَى ، وحُجَّةً بالغةً على مَن أدْبَرَ وتولَّى ، لِيَهتَدِىَ مُتحيِّرٌ ، ويتعظ مُزْدجِر « وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ » .

ومنهن : اجتماعُ أهل الفضل من المسلمين ممَّن لم يكن له نصرٌ ولا أزْر[٣] فى الدعوة الأولى ، على المشايَعة فى الدعوة الثانية ، فأَصبح دُعاةُ أمير المؤمنين ـ من أهل الحرَمَيْن وَالمِصْرَين[٤] وَمدينة السلام والمشرقِ والمَغرب ، ممَّن غَار وأنجَدَ[٥] من المتمسِّكين بذممِهم ، المُوفين بِنُذُورهم ، مِن إخوانكم ، وإن كانَ الله قد قدَّمكم فى الأَمْرَين جميعا بتفوُّق حالكم على غيركم ـ يعتدُّون مِن مُعاضَدَتكم وَمكانفتكم[٦] بما جعله الله عز وَجل ألفةً لكم ، وَمَودَّةً بينكم ، يُبيدُ بهاَ ما كان الشيطان ينْزَغ[٧] به بيْن أهل التباعُدِ فى الأنساب ، والتنائى فى الأوطان ، مِن إيقاعِ العَداوَة والبَغْضاء ، والانطواء عَلَى الأحقاد والدِّمَن[٨] ، وطَلب تقديم الإحَن[٩] ، وصار أهل السموِّ إلى الدرجة العليا ، والاعتصام بالعُرْوَة الوُثقَى ، من أولياء أمير المؤمنين ، وشيعَته ، مُنْشرِحةً صدورهم بمكانَفَته ، مُنبسِطة أيديهم بمعاونَته على حقه ، منفسِحةً آمالُهم فى إذكاء[١٠] ناره على

(١) غير الدهر : أحداثه المغيرة .
(٢) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر ، وفعله كضرب ونصر .
(٣) الأزر . التقوية .
(٤) الحرمان : مكة والمدينة ، والمصران : الكوفة والبصرة .
(٥) غار . أتى الغور بالفتح ، وهو المنخفض من الأرض ، وأنجد : أتى النجد ، وهو المرتفع منها .
(٦) المكانفة : المعاونة والمؤازرة .
(٧) نزغ الشيطان بينهم كنم : أفسد وأغرى ووسوس .
(٨) الدمن جمع دمنة بالكسر : وهى الحقد القديم .
(٩) الإحن : جمع إحنة بالكسر ، وهى الحقد أيضا .
(١٠) أذكى النار : أشعلها ، وأثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

عدوه والإثخانِ فى بلاده وافتتاح مُمتنِع حُصُونه ، بما جَمَعَهُم الله عليه من الألفة ، ورَفَع عنهُم من الحمِيَّة[1] والعَصبيَّة ، راجين عودتَهُم إلى أحسنِ مَامَضى عليه سَلَفُهم فى عهد نبيه صلى الله عليه وسلم ، من سَلاَمَة الصدور ، وصلاحِ ذات البَيْن ، واجتماع القُوى على مجاهدة من شاقَّهُم[2] ، قد أفرخ الله عنهم نَفرَ[3] التجارُب والتجاذُب ، وجعل ما كان يسعَى به بعضُهم من الإعداد لبعض ، زِيادةً فى رِيحهم[4] ، وحَدًّا فى شوكتهم ، لائتلافهم فى دولة أميرالمؤمنين الجدودَة[5] المؤيَّدَة بصدق الضمائر ، ونفاذ البصائر ، وإلى الله يرغَبُ أمير المؤمنين فى إعانته على صَالِح نيته ، وتبليغه مُنتهى سُؤْله ، وغايةَ همته ، فى إعزاز دينه ، وإذلالِ من صَدَّ عن سبيله ، إنه سميع قريب .

وَمن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على النعمة تذكُّرُ ما كانت عليه الحالُ قبلَها ، فاستديموا الإفاضةَ فيما رَفَعَ اللهُ من خَساستكم ، وأعلَى من أقداركم ، بنُصْرَة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وما أبْلاَكم اللهُ فى الدعوة الأولى ، مما لا يؤدَّى حقُّه إلاّ بعَوْن الله وتوفيقه ، فإنه ارتاح لهم[6] بلطفه وتوفيقه ، فأنالَهم رَغائِبَ الأقسام ، وَسَنِيَّ الْحُظُوَات ، ورَفَعَ دَرَجَهم وَدَرَجَ خُلُوفِهم وأعقابِهم من بعدهم ، بعد إذ هم مَستَضْعَفون يخافون أن يتخطَّفهم الناس ، مُذْعِنُون بقَهْر عدوهم واستِئثاره عليهم ، ثم لم يلبَثوا أنْ صاروا إلى الحال التى يرَوْنهم بها من الغِبْطَة والبَهْجة ، إلا أنهم أخذوها بحقِّها ، وكانت فى أيدى الظَّلَمَة من أهل بيت اللَّعْنةِ وأتباعهم ، بخُلْسة الباطل ، ومِحْنةِ الابتلاءِ « وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

وليس أحدٌ منكم بخارج من الْمِحْنة بما أُلْبِس من النعمة ، وإن كنتم أهلَها

---

(١) الحمية : الأنفة . (٢) شاقه : خالفه وعاداه .

(٣) أفرخ : أى سكن وهدأ ، ونفر عليه كفرح وضرب ومنع نفرا ونفرانا بحركتين : غلى جوفه من الغضب والغيظ ، وهو من نفرت القدر . إذا غلت وفارت ، وفى الأصل الأول « قد أفرد الله عنهم نفرة التجارب » والمعنى عليه صحيح .

(٤) الريح : القوة . (٥) المجدود : العظيم الجد بالفتح ، وهو الحظ .

(٦) أى لأهل بيت نبيه ، وارتاح الله له برحمته : أنقذه من البلية .

الآخذين لها بحقها ، بل الذى يلزمكم استدامتها والقيامُ بحفظها ، على حَسَب ما أولاكم اللهُ منها ، فربما كان الذى يُعقِبُ أهلَها من الغفلةِ والاغترار ، ويُلهيهم بها من حُبُورها[1] وسرورها ، أعظمَ إثما وحُوبا[2] مما يُخافُ على أهل البَطالة والضُّرِّ ، من ضعف العزم ، وقلة الصبر ، لِما يستولى عليهم مِنَ استكانة الذِّلّةِ ، والاغترار بالتقصير ، والفَزَع إلى ربهم فى تنفيسِ كُرَبهم ، فإنه تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : «وَ إذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَ إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ» فحاجتكم — إذ أنجحَ الله سَعْيَكم ، وأظفرَكم بطَلِبتكم — إلى حِياطة ما أودعكم اللهُ من مِنِه ، وحِراسةِ ما آتاكم الله من فضله بالشكر المُمْتَرى[3] للمزيد .

فتعهّدوا — معشرَ شيعة أمير المؤمنين — أنفسَكم بتذكُّر ما سهَّل الله لكم من الحُزُونة[4] ، وذلَّلَ لكم من الصُّعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُرَّاق[5] المِلّة ، ومُخالِفى أهل القِبلة ، وأباحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصبحتم — بمَنِّ الله عليكم — حُماةَ الدين ، وأنصارَ الأئمة الراشدين ، وحُصُونَ كافَّةِ المسلمين ، بعد ما اجتثَّ[6] الله بكم قُرونَ النفاق ، وأبارَ بكم صَناديدَ الضَّلالة ، وشرَّد بمن لم تستحمِله سيوفكم ، وأضرَع[7] إليكم مَن أذعَنَ واستسلَمَ ، وقد استشرفكم[8] — معشرَ شيعةِ أمير المؤمنين — أهلُ الشَّنآن ، ولاحظوكم بأعيُن الحسَد والمنافسة ، فبَيْنَ ذلك مُجهِر مُعالِن[9] ، ومُستَسِرٌّ مُداهِن ، وداخِلٌ فى عِدادكم ، ووالِجٌ فى سَوادكم[10] ، يرى أمْنَه بين ظهوركم ، فطَعْنُه عليكم

(١) الحبور : السرور . (٢) الحوب : الإثم .

(٣) أى المستوجب . يقال : امترى الشىء : أى استخرجه ، والريح تمترى السحاب : أى تستخرجه وتستدره . (٤) حزن المكان ككرم حزونة : غلظ ، فهو حزن كضخم .

(٥) مراق الملة : الخارجون عنها ، جمع مارق .

(٦) اجتثه : قطعه . (٧) أضرع : أذل .

(٨) استشرفه : رفع بصره إليه ، والشنآن : البغض والكراهية .

(٩) جهر الكلام كمنع ، وبه ، وأجهر : أعلن به ، وأعلن الأمر ، وبه : أظهره ، وعالنه : أعلن إليه الأمر ، واستسر : استتر .

(١٠) الوالج . الداخل ، وسواد الأمة : عامتها .

فى دولتكم بريبة التمويه ، وخُدَعِ التشبيه ، أيسرُ عليه كُلفةً ، وأعظمُ فيكم جرْحاً ونِكايةً ، فتوقَّوْا هذه الطبقةَ أشدَّ التوقِّى ، فإن أكثرَ مَن يلجأ إلى استباحة الحِيلة ، مَن عجزَ عن المُباداةِ[١] والإصْحار ، وعند ظهور الحازم وغَلَبَتِه يحترِز من لطيف الخُدَع ، وخَفِىِّ الاُستدراج .

واحذروا ـ معشرَ شيعة أمير المؤمنين ـ من استمهال الطَّاءَة[٢] ، والركونِ إلى رَاحَةِ الدَّعة ، ما قد رأيتم وبَالَه عادَ على أهله ، وأورثَتْهم عواقبُه طولَ النــدم والحسْرة ، فإنـكم قد كنتم فى حال المراقبة لِعدوِّكم ، والخوفِ لِبائِقَتِه[٣] ، متيقِّظين مُتحفِّظين لما كان يرومُـكم به مِن ختْلِه[٤] وخيله ، ثم أفضيتم إلى الحجِّ ، وقد جَهَدَكم السعىُ ، ومسَّكم النَّصَبُ ، وسيُلْقِى الشيطانُ فى أمانيِّكم أنْ قد اكتفيتم بسالِفِ ما قاسيتم ، ويَجِد من ضعف العزائم مُعيناً داعياً إلى اغتنام الخفْضِ ، والإخلادِ إلى الأرض ، مالم تعتصموا بما عاينتم من الاُعتبار ، وتمتثلوا مواضِىَ الآثار فيمن سَلَف من القُرون الخالية ، وما أفضَتْ به إليه الغِرَّةُ من زوال النعم ، ووقوع الغِيَر ، فإن جميع ما خوَّلكم اللهُ وأفادكم مُرتَهنٌ بما ألزمكم من حِياطته واستمائه ، فقد وجَبَتْ عليكم الحُجَّةُ بما حضَّكم الله عليه ، وعظُمت عليكم المِنّةُ بما هداكم إليه ، وأراكم من آياته ومَثُلاته[٥] فيمن خلاَ قبلكم ، ما فيه أبلغُ الإعذار والإنذار لكم ، ومن اجتمع له اقتفاء صواب مَن تقدَّمه ، إلى ما ينبعثُ من نفسه ، فكأنَّه قد اختبرَ بالتجربة ، مع استمداده بما يستفيد ويستزيد ما يفتح لُبَّه ورأْيَه . وأيقِنُوا أنكم لن تصلوا إلى مَن

---

(١) بادى بالعداوة : جاهر بها ، وأصحر : برز وانكشف ـ وأصله : خرج إلى الصحراء .

(٢) الطاءه : الإبعاد فى المرعى .

(٣) البائقة : الداهية . (٤) الختل : الخداع.

(٥) العرب تقول للعقوبة مثلة بفتح فضم ، ومثلة بضم فسكون ، فمن قال الأولى جمعها على مثلات بفتح فضم أيضا ، ومن قال الثانية جمعها على مثلات بضم الأول وضم الثانى وفتحه وسكونه ، قال تعالى :

« وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ »

سِوا كم ، ممن هو أعسَرُ طاعةً عليكم ، وأعذرُ بمعصيتكم ، حتى تبدءوا باستصلاح أنفُسِكم ، وأنه لن يُرْجَى لـكم القوةُ على مجاهدة عدوكم ، حتى تقوَوْا على مجاهدة أهوائـكم ، فإن على كل امرئ ريبةً من أمره ، وغِطاء من غَيْبِه ، لا يَـكشِفُه إلا صحة المعرفة . والإذعانُ بالنَّصَفَة[1] ، فهناك يُؤْمَن عليه الجهلُ والمعانَدَةُ ، وإذا أُمِنَت هاتان الخلَّتَان انْسَدَّت بإذن الله ثُلَمُ الآفاتِ ، وفُتُوقُ المـكارِهِ ، فإنه لا يُخاف الضلال على مَن اهتدى . ولا اعتمادُ الجَوْرِ على مَن انتصف مِن هَوًى .

وليكن أولَ ما تتعهَّدون به أنفسكم ، وتُثابرون عليه من صالح أدبكم ، تناصُفُ الحقِّ بينـكم ، بتقديم أهلِ الفضائل والآثار المحمودة منـكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علِمْتم أن منـكم المبرِّز[2] الفائتَ الذى لا يُدْرَك شأْوُه ، ولا يُوازَى بلاؤُه ، حين كَشَفَ الإبلاءُ ضمائرَ القلوب ، وجَلَا مُشْتَبِهاتِ الظُّنون ، فصَرَّح بالمحاربة بعد التقدُّم فى الحجة ، ووَفاء بمُؤَكَّد العهد ، وركوباً منه لِهائل الخطَر ، غيرَ هائبٍ مع صحبة الحق ، ما بَرَقَ لديه الناكثُ المخلوعُ وَرَعَدَ ، ولا مُسْتَوْحِشٍ فيما تفرَّد به إلى مَن تولَّى وأدبرَ ، حتى أتى الغايَةَ التى أُجْرِىَ إليها فى الله عزَّ وجل ، ولخليفته ، ثم لرؤسائـكم من أهل المشايَعة والمـكانَفَة والنُّصْرة والحظِّ الجزيل والأَثَر المُبين ، ثوابُهم واجِبٌ ، وحقُّهم لازِمٌ ، ثم منـكم مَن يُحْتَظ لِسَلَفِه وأوَّلِه من الآباء الذين يحفظون ولا يتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَـكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف « وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

---

(١) النصفة : الإنصاف . (٢) برّز : فاق أصحابه ، والشأو : الغاية .

وأميرُ المؤمنين يرى توريثَ الحِكمة والذِّمام[1] سُنَّةً عليه فى أخلاقه التى يَرْعاها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى وِراثةَ التَّركَة فريضةً واجبة ، فَيَخْلُفُ السَّلَفَ الصالح عنده فى المزِيَّة والفضل مَن يُتْلَوْن به من أهلِ الغَناء[2] بأنفسهم ، ثم يتلوهم مَن اقْتَدَى بهم واهتدى بهديهم ، والسابقُ المتقدِّمُ مَن اعتدَّ ببلاء نفسه إلى بلاء سَلَفهِ ، ثم يَتْبَعه بعدُ المُبْلِي بنفسه ، ثم يتلوها المتوسّلُ بآبائه، ثم الصاعدُ به هواه ورأيُه ، طبقةً فطبقةً ، فلْيُقْصَرْ كلُّ امرئٍ منكم على المرتَبة التى أحَلَّه بهَا سعيُه ، ولْيَسْلُك إلى الازدياد فيها بالزيادَة من نفسه ، فإن من الفُتُوق العظيمة عَلَى أهل الدول ما يَنزَغُ به الشيطانُ بينهم ويكثُر عندهم ما يكون منه ، فيوافقُ من الحَيْف للأنفس ما يجد به مَسَاغا إلى ما يَرُوم من إيقاعِ الشَّحناء بينهم ، وتثبيتِ الإِحَنِ فى صدورهم ، بعد التآزُر والتناصُر . ومتى يَجمع المرء لمَزِيَّةِ مَن فوقَه واغتباطِ من دُونَه ، كُفِىَ ماتَرَك ، ولن تخلُصَ نيَّاتكم ، وتسلَمَ ضمائركم حتى تَمْحَضُوا[3] شكرَ ما أُوليه إخوانُكم ، وتعتدُّوا ما نالهم شاملا لكم، وتُجانبوا طَريقةَ مَن اقتصر بأُمْنيّته عَلَى خاصَّته، وتَعتَّبَ فيما أُوثِرَ به أهلُ الفضل دُونه، وكَفَى عِظَةً فيما نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : « وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » ولا يلتمسَنَّ أحدٌ مودَّتَه عَنْ سُوء نيَّة بحُسْن مُدَاراةٍ فى ظاهرٍ ، فإنَّ الله مقلِّدٌ كلَّ امرئٍ رِبْقَةَ[4] عملِه ، ومُطوِّقُه طوقَ سريرته ، ولا يغدِرَنَّ فيما يَلزمه لإمامه، فإنه إنما يَغدِرُ فى حَظِّه ، وَيَبْخَسُ قَسْمَه ، وَيَنْحَسُ[5] نفسَه ، ثم لايقتصرَنَّ عَلَى استصلاحها حتى يتناولَ مَن

---

(١) الذمام : الحق والحرمة . (٢) الغناء : الكفاية ، وفى الأصل « فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل مايتلون به أهل الغناء بأنفسهم » وأراه محرفا .

(٣) محضه كمنع وأمحضه : أخلصه .

(٤) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم ، كل عروة ربقة .

(٥) نحسها (كمنع) : عناها وأشقاها .

كانت مِنَّتُه عليه من أقرَبيه وحَشْويّه[١] ، فإنّ يَسيرَ ما هو مُعانٍ من تأديتهم ، لا ينشَبُ أن يتجاوز أدْنى المراتب إلى أقاصيها ، وقريبَها إلى مُنتاهِيها ، حتى يستفيضَ شامِلا عامًّا ، بعد أن بدا محلَّلاً[٢] خاصًّا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقِّدٌ من تثقيفِكم وتقويمكم على صالح الأدب ، ومحمود السِّيرة ، مالا يتفقَّد به من سِواكم ، فإنه إن كان يوجِبُ على نفسه استصلاحَ الرعية ، وحَمْلَهم على ما فيه رُشْدُهم وقِوامُهم ، لِما يلزَمُهُ من فضل العناية بالأخصِّ والأوْلَى فالأوْلى ، فإن فى إخلالكم من التقديم فى التأديب والتعهُّدِ وُجوها من الضرر ، منها : أنكم أوْلى بحسن الطاعة وسرعة الإجابة ، لِلُطْف محلِّكُم ، وقُرْبِ مكانِكُم عند أمير المؤمنين . ومنها : أنكمُ يأنَسُ بكم المُؤتمُّون ، ويقتدى بكم التابعون ، فمتى قصَّرتم وأخلَلْتم ، اقتفَى أثرَكم مَن نصَبْتُمْ له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تَزْرُوا[٣] عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان قَمِيناً[٤] أن يكون يسُومكم الرِّضا بمثل ما سُمْتُمُوه ، ثم تجرى هذه العادة فى الطَّبَقات ، حتى يطَّرِدَ السِّيَاقُ ، إلى أن يستفيض الفسادُ فى حَشْو الناس وعامّتهم ، فلا تُغْنِى قوةٌ ولا حزمٌ ولا شِدَّة إلا العجزَ والإضاعة ، ثُم يجد الأعداء مَساغا إلى الطعن والعيوب ، فلا يملكون أن يُرْهِقوكم[٥] ، ويستولى عليكم الفشلُ ، فإن الأيدى إنما تُبْسَط بنَفاذ العزائم ، والعزائم إنما تَنْفَذ بثبات الحجَّة ، والحجة إنما تثبت إذا كانت عن الحق ، وإذا أُضيع أوَّلُ هذه الرسوم التى رَسَم لكُم أميرُ المؤمنين

---

(١) نسبه إلى حشو ، ومعناها الحاشية والأتباع ، وقد تقدم فى رسالة يحيى بن زياد الحارثى ص ٢٠٩ « وأما الحشو من الجند والرعاع .. » وجاء أيضا فى رسالة الجاحظ فى مدح التجارة وذم عمل السلطان فى كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (هامش الكامل للمبرد ٢ : ٢٤٧) : « وهذا الكلام لايزال ينجم من حشونة أتباع السلطان ، فأما عليتهم وصاصصهم وذووالبصائر والتمييز منهم... »

(٢) أى ذا محل محدود خاص .

(٣) زرى عليه كرمى : عابه ، كأزرى ، لكنه قليل .

(٤) أى جديرا وخليقا ، وسامه الأمر : كلفه إياه ، وفى الأصل « بمثل ماسمتموه » وهو تحريف .

(٥) أرهقه : حمله على ما لايطيق .

تَبِعَتْه تَوَالِيه ، وشفَعَتْه لَوَاحِقُه ، ووجَد العدوُّ الملاحِظُ مكانَ العَوْرَةِ ، مَطْمَعًا فى إهمال ما كان يُعِدُّ له من الغِرّة ، ويتوفّق به من مُناهَزَة الفُرْصة .

وليكن ماتُفِيضون فيه وتَعُدُّونه ظهيرًا على طاعنٍ إن طعَنَ فى دولتكم ، ماألهَمَ آللهُ أمير المؤمنين من شمولِ رعيَّته بالعدل ، وفَرْشِ[1] الأمرِ فى مُضْمَراتها ومُنقلبها ، ورَفع به عنهم من سَيْر الجود[2] ، وبسَطَ به يده من إثابة أهل البلاء ، وتَغَمُّد[3] الجرائم لأولِى الزَّلل ، والإبلاغ فى دعاء من عانَدَ وشاقَّ إلى التوبة والإنابة ، وإقالةِ العَثْرَة بعد القدرة ، والحقْن لمُباحِ الدماء ، فلم تعلموه صَبَرَ مُحِلًا[4] ولاهَتَكَ لأحدٍ ممن أظهره الله به سَتْرًا ، ولا وَقَفَه على عَوْرة . ثم تولَّى آللهُ أميرَ المؤمنين فى حروبه شرقا وغربا ، التى أغناه الله عن الإطناب فى وصف صُنْع الله لكم فيها ، لاستفاضةِ أخبارِها فى دَهْمائكم[5] ، مع ماأحَبَّ من مطالعته إياكم ببالغ أدَبه ، وشافى عَطْفِه ، أن يتنكّب[6] عن الإسهاب ، فى غير ماصَمَد[7] له ، ورأى من تفريغ أسماعكم وأذهانكم ، لوَعْيِ ماالتَمس أن تَعُوه ، من تبصيركم حظَّكم ، وتنبيهكم على رشدكم ، وحَسْبُ أمير المؤمنين فى نفسه وفيكم آللهُ ، وكفى به مُبينًا .

وإن أمير المؤمنين — مع ماتقدَّم به إليكم — لَعَلَى ثقةٍ من حِياطة الله خِلافته التى جعَلها عِزًا لدينه ، وقِوامًا لخلقه ، وأنه ليس بها ممن أدبرَ عن حقها اختلالٌ ، بل مَن خلَعَ رِبْقَتَها وأضاعَ حظَّه منها ، جلَبَ الخَلَّة[8] والحاجة وخسرانَ الدنيا والآخرة ، وإنما أُتِيَ المقصِّرون فى إعظام حقها ، من ضعف الروية عن بلوغ ماتُفْضِى بهم إليه مصادرُ

---

(١) فرشه أمرا : او سعه إياه .

(٢) أى من الجود السائر الشامل . (٣) تغمده : ستره .

(٤) صبر الإنسان على القتل : أن يحبس ويرمى حتى يموت ، وقد قتله صبرا وصبره عليه ، والمحل الخارج من الميثاق والبيعة انظر شرحه بتوسع فى الجزء الأول ص ٤٠٣ - وفى الأصل «محلا» وهو تحريف .

(٥) الدهماء : جماعة الناس . (٦) تنكب عنه : عدل .

(٧) صمد كنصر : قصد .

(٨) الخلة : الفاقة والحاجة .

العواقب ، وتؤدِّيهم إليه رواجِعُ ماقدَّموا ، فلا يكونون بعملهم مُتجاوزين لهمَمِهم — وفيهم الذى هم فيه — إلى مايمنعهم[1] .

واستدِيموا مَعشَرَ المسلمينَ سابغَ النعمة ، بِحَمْدِ مُوليها والمتطوِّلِ بها ، وقد تَرَون ما كنتم فيه قبلها، وما آلَتْ إليه حالُ مَنْ سُلِبَهَا ، ثم يُعْقِب الندامةَ حين لامُسْتَعْتَب[2] ولا نَظِرَة يُمكن فيها استقالةُ الفارط بتقصيرٍ ولا هفوة زال ، وثِقوا من رعاية أمير المؤمنين محمود آثاركم ، وما مضى مِنْ بلاء كلٍّ امرىء منكم ، بما تطمئنون إليه ، وتتوقعون عادته ، بأسْنَى ماترتفع إليه آمالُكُمْ ، وتسمُو إليه هِمَمُكم ، إلى مايدَّخِر الله لمن تمسَّك بهداه ، واعتصَم بتقواه ، وجاهَد عن حقه ، وافيا بأمر عهده ، مِن جزيلِ ثوابه ، وكريم مآبه ، إلى الدار التى هى أكبرُ دَرَجاتٍ وأكبَرُ تفضيلاً .

أحَبَّ أمير المؤمنين أن يتعَهَّدكم بعِظَة تنبِّهكم على حظِّكم ، وتُثبِّتُ من بصائركم وتقطع من طمع الشيطان وحِزْبِهِ فيكم ، لِما يجب عليه إرشادكم ، ويرجو من تأدية حق مِنِّ الله عز وجل فيكم ، ولِما يَرَى من اتصالكم بِحَبْله ، وما يشمله من الصنيع فيما ولاَّكم الله به ، وتولاه لكم .

وأميرُ المؤمنين يسأل اللهَ الذى دَلَّ على الدعاء تَطَوُّلا ، وتكفَّلَ بالإجابة حَتْماً ، فقال عز وجل : « أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » أن يجمع على رضاه أُلْفَتَكم ، وأن يصلَ على الطاعة حبلَكم ، وأن يمتعكم بأحْسَن ماأودعَكم مِنْ مننه ، وَيُوزِعَكُمْ[3] عليها من شكره ، مايواصل لكم مزيدَه ، وأن يكفيَكم كيدَ الكافرين ، وحَسَدَ الباغين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ماحُفظ به « إمامُ هدًى » فى أوليائه وشيعته ، ويحمل عنه ثِقْلَ ماحُمِّلَه منكم . وبالله يستعين أمير المؤمنين على ماينوى من جزائكم بالحُسْنى ،

---

(١) فى الأصل « فلا يكون عملهم غير متجاوزين بهممهم وفيهم الذى هم فيه إلى مايمنعه » والعبارة كما ترى مضطربة .

(٢) أى استعتاب ، واستعتبه : طلب إليه العتبى . وهى الصفح والرضا . والنظرة : التأخير .

(٣) أى يلهمكم .

وحملِكم على الطريقة المُثلى ، وبه يرضى ناصرا ووَليًّا ، وكفى بالله وليا، وكفى بالله نصيرا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

(المنظوم والمنثور ١٢ : ١٧٣)

٢٠٩ - تحميد لأحمد بن يوسف إلى الولاة عن الخليفة

« أما بعد ، فالحمدُ لله ذى المنن الظاهرة والحُجج القاهرة ، الذى قَطَعَ بينه وبين عباده المَعْذِرَةَ ، وَرادَف عليهم البيِّنة ، وَمُهْلَةَ النَّظِرة[١] ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقَسْم والمكتوب ، وما ذَخَرَ لهم من ثواب الآخرة بالنُّجح المطلوب ، فهم فى العاجلة شُركاء فى النعمة ، وفى الآجلة شَتّى فى الرحمة يختص بها أهلَها المنتفعين بما ضَرَبَ لهم من الأمثال ، وتصريفِ الحال بعد الحال ، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مُدَد آجالهم ، قبل حلول ما يُتَوَقَّع ، وفَوْتِ ما لا يُرْتَجَعُ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢١٠ - تحميد لأحمد بن يوسف

ولأحمد بن يوسف عن ذى الرياستين إلى إبراهيم بن اسمعيل بن داود صَدْرَ فتح .

« أما بعدُ ، فالحمد للهِ الذى حفِظ من دينه ماضَيَّع المُلحدُون ، وَرَأَبَ[٢] منهُ ما [ثلمته] الصَّدَعَةُ ، وأعاد من حَبْلِه[٣] ماحاولوا نَقْضَه، حتى أعاد لعباده أَحْسَنَ أُلْفَتِهم، وَردَّ إليهم أَجمَلَ عَوْدِهِم ، من الاستِشْلاء[٤] بعد التردِّى فى قُحَم المَعاطِب. والاستنقاذِ بعد التوريط فى المَهالِك، وبلَّغ خليفتَه القائمَ بحقّه ، المُؤتَمَّ بكتابه ، الذائدَ[٥] عن حريم

---

(١) النظرة : التأخير .

(٢) رأبه : أصلحه ، وما بين القوسين بياض بالأصل ولعله ثلمته كما أثبتناه، والصدعة جمع صادع ، من صدعه : إذا شقه . (٣) المراد به الدين .

(٤) استشلاه : استنقذه من الهلكة ، والقحم جمع قحمة بالضم : وهى الاقتحام فى الشىء والمهلكة

(٥) أى الدافع .

الدين ، وميراثِ النبيين ، أجزلَ ما بلّغ الخلفاءَ الراشدين المَهديِّين ، من إعلاء الكلمة ، وغَلَبة الأعداء ، والفوز بالعاقبة التى وَعَدَها المتقين ، وفرّغه لما أشْعَر قلبَه ، وشَرَح له صدرَه ، من إمضاء حُكم الفرائض الموجَبة ، وَاقتفاء السُّنَن الهادية ، حيث سلك به من المناهج ، حَمْدا يُوَازى نعمَهُ ، ويَبلغُ أداءَشكره ، ويُوجِبُ مزيدَه .

والحمد لله على ماخصَّنا به من إعلاء الدرجة ، وإسناء[1] الرُّتبة ، فى مشايعة أمير المؤمنين — أيّده الله — والمجاهدةِ عن حقه ، والوفاءِ لله بما عقدَهُ له ، لانُريد بما كان منا إلاّ وجهَهَ ، ولا نسعَى فيه إلا لرضاه، حمداً لايُحْصَى عددُه، ولا يَنْقطِع أمَدُه » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٤)

٢١١ — تحميد لأحمد بن يوسف فى فتح السند

« الحمد لله ولىِّ الحمد ، وأهلِ الثناء والمجد ، خالقِ الخلق ومُدَبِّرِ الأمر، المُسْبِغ[2] على عباده ، والموجب عليهم حُجَّتَه ، فليسوا يرجُون إلاّ سَعَةَ فضلِه ، ولا يحذَرون إلا ما اجترَحُوا[3] من معصيته ، لِمَا سَبَق من جزيل إحسانه ، وتَظاهَر[4] من امتنانه ، وتقدَّم به الإعذارُ والإنذارُ اللذان لايستخِفُّ بما عظُمَ منهما إلاّ مَن استَحْوَذ[5] عليه الشيطانُ ، واستولى عليه الخِذْلانُ ، وقاده الحَيْنُ[6] إلى مَوَارِدِ الهلَكَةِ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٨٣)

٢١٢ — تحميد لكاتب خزيمة بن خازم فى فتح الصنارية[7]

« أما بعد ، فالحمد لله ذى المَلَكُوتِ والقدرة ، والجَبَرُوتِ والعِزّة ، والسلطان

---

(١) أسناه : أعلاه ورفعه .

(٢) أى المسبغ عليهم نعمه ، وأسبغ الله النعمة : أتمها . (٣) أى اكتسبوا واقترفوا .

(٤) أى تضاعف . (٥) أى استولى . (٦) الحين : المحنة والهلاك .

(٧) خزيمة بن خازم : هو أحد قواد الدولة العباسية ، وقد جاء فى تاريخ الطبرى (١٠ : ١٩٢) أنه لما حاصر طاهر بن الحسين بغداد استأمن إليه خزيمة وفارق الأمين وخلعه ودعا إلى المأمون سنة ١٩٨ ، وقد توفى سنة ٢٠٣ — انظر ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٨ : ٣٤١ ، ولم يذكر ياقوت « الصنارية » فى معجمه .

والقوة ، أهلِ المحامدِ كلِّها ، ومدبِّرِ الأمور ووليِّها ، وخالقِ الخلائق وبارِئها ، ومُميتِها ومُحْيِيها ، وباعِثِها ووارِثِها ، الذى أوجب على نفسه بما نفَذَ من مشيئته ، وسبَقَ من عِلْمه ، وثبَّت فى اللوح المحفوظ عنده إعزازَ دينه ، وإظهارَ حقه ، وإعلاء كلمته ، وإبلاجَ [1] حُجَّته ، وإزهاقَ باطل أعدائه ، الصادفين [2] عن طاعته ، والجاحدين لربوبيَّتِه ، المكذِّبين بكتبه ورسله ، بلَغَ بذلك أمرُه ، ونطقَ به كتابُه ، فإنه يقول تبارك اسمُه فى المُنْزَل من فُرْقانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٦٩)

٢١٣ — كتاب للفضل بن سهل

ووجَّه الفضل بن سهل إلى رجل بجائزة ، وكتب إليه :

« قد وجَّهت إليك بجائزة ، لا أُعْظِمها تكثُّرا ، ولا أُقلِّلها تجبُّرا ، ولا أقطعُ لك بعدها رجاء ، ولا أَسْتَثيبك عليها ثناء ، والسلام » .

(تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٣٤٢)

٢١٤ — كتاب إبراهيم بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرياستين

وكتب إبراهيم [3] بن إسماعيل بن داود إلى ذى الرِّياستين :

« وصل إلىَّ كتابُك بخطِّ يدك المباركة ، فلم أر قليلا أجمعَ ، ولا إيجازاً أكفأَ من إطناب ، ولا اختصارا أبلغَ فى معرفةٍ وفهمٍ منه ، وما رأيتُ كتابا على وَجازَتِه أحاطَ بما أحاط ، وضربتُ ظنِّى فى فلان فعظَّم ذلك سرورى ، وقد يُستعطَفُ الظالمُ ،

---

(١) أبلجه : أوضحه .   (٢) صدف عنه كضرب : أعرض .

(٣) ذكره ابن النديم فى الفهرست ص١٧٩ قال « إبراهيم بن إسمعيل بن داود الكاتب ، وله تقدم فى البراعة والبلاغة » .

ويُستعتَبُ المتجنِّى(١) ، وفى رِفْقك وعِلمك بالأمور ما يُصْلح الفاسدَ ، ويُذَلِّلُ الصعْبَ ، ويُقْبِلُ المُدْبِرَ ، ولا يمنعنَّك جَوْرُ مَن جار عليك، من الاعتقاد فى الحُجَّة عليه، والأخذِ بالثِّقة فى أمره ، فإن الله عز وجل لم يجعل عليك فى ذلك مَنقَصَةً ولا غضاضة ، بل فيه الإعذارُ والإنذارُ والاستبصارُ وقضاء حاجة النفس ، مع التأدية إلى السلامة ، والأمنِ من الندامة » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٦٢)

٢١٥ — كتاب إبراهيم بن إسماعيل إلى على بن الهيثم

وكتب إبراهيم بن إسمعيل إلى على بن الهيثم :

« بلغنى ما أظهرتَ من الوعيد والحِمِيَّة ، فحملتُ ذلك منك على شَرَف الحسَب ، وكرم النسب ، فإن لأشرافِ العرب سَطَواتٍ لايملكونها ، وَكلُّ ما أتيتَ فشبيهٌ بك وبموضعك ، وقد قيل : « احْذَرْ صولةَ اللئيم إذا شَبِع » وأنت أبا حسن — مَدَّ الله فى عمرك — منهم ، ولك فى معاداة الرجال لَذَّةٌ أرجو أن يجعلها الله سبيلا لهلاكك ، وقد ينبغِى أن تعلم أن الذى أنت فيه لم يُحْدِث لك نَفْسًا غيرَ نفسك ، ولا أبًا غيرَ أبيك ، وقد تَجْرِى المقاديرُ لكثير من السِّفْلة بوجوهٍ من الحظ ، يجعلها الله عليهم وَبالًا ، ولهم فى الدنيا والآخرة نَكالا، يَهتِك بها أستارهم، ويُخْرِج بها أضغانهم، إذا ضمَّتهم مضامن النعم ، وهم مع ذلك يَرَون أنه لا يُلْحِقهم بأهل الفضل غيرُ التجبُّر والفخر ، ووالله ما دعانى إلى هذا أنى أرَى الانتقامَ منك حظًّا ، ولكنى أحببتُ أن أعرِّفك من نفسك ما أصبحتَ به جاهلا ، وأصبحَ للناس باديا ، ولئن أنكرتَ نصيحتى(٢) لقد وضعتُها فى غير موضعها ، وبالله نستعين على ابتلائه الدنيا ، وتدنيسه النعمةَ ، وحَطِّه المراتبَ والأقدارَ بك ، أعاذَنا مما ابتلاك به » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

---

(١) استعتبه : طلب إليه العتبى (بالضم) وهى الرضا والصفح ، وتجنى عليه : ادعى ذنبا لم يفعله .
(٢) فى الأصل « فضيحتى » وهو تحريف .

٢١٦ — رد ابن الهيثم عليه

فأجابه على بن الهيثم :

« قرأتُ كتابك الذى تتظرّف ، وبجوابك عنه تتشرّف ، ولولا ما نسبْتنى إليه من الكِبْر ما كان له مَعْنى ، إن الله جعلنى فى أصلٍ حرَمك نيلَه ، ولم يُلْبِسْك فضلَه ، فلزِمْتُ الموضعَ الذى وضعنى الله به ، جَهِلَه مَن جَهِلَهُ وَعلِمَهُ مَنْ عَلِمَه ، إذ أنت تنتقل من نسب إلى نسب ، ومن أب إلى أب ، بلا أصل ثابت ، وما مَثَلُك إلا مثل إبليس لمّا أذَلَّه الله لآدم عليه السلام ، فأسجده وأبان فضلَه عليه ، أحْقَدَه نخسِرَ دنياه وآخرته ، إذ كاده وكاد ولده ، فلم يَبْلُغ له من كيادته[1] أكثرَ من قيادته ، والكَسْبِ اللُّومِ ، والفعلِ المأثومِ ، وما تُغْنِى أساطيرُك وأقاويلُك ، فلو كنت بأصول أبيك وأمك تَلفِظ ، أو عنها تنطِق ، لَطال عليك أن تتكلم أو تعلّمَ ، فاشكر اللهَ واشكرِ اللسانَ الذى انتحلتَه ، ونَبَتَّ به ولستَ من أهله ، أمّا أنا فلم أعْدُ ما كان عليه أبى من قوله فى نفسه ، وشرفِه فى رُتَبه ، وأنا بموضع من الكتابة وفى الشرف من العِمالة ، وبمكانٍ من أولاد الخلافة ، أحْلُو فى قلوبهم ، وأعذُبُ فى ألسنتهم ، وَأتولّى الدواوين ، وأخالط السلاطين ، وأحكُمُ فى أمرِ الدنيا والدين ، وأنت لاتصلُح لمعاشٍ ، ولا تُرَجّى فى معادٍ ، دنّس فِعْلَك لئيمُ أصلِك ، تهجو العرب بلسانهم ، وتفتخر عليهم بكلامهم فإذا أخذك عقابُ الله بأيديهم ، ووجب عليك حقُّه فيهم ، [اتخذت الإيمان ، وابتذاله دينه[2]] فحسْبُك ما أحببتَ من ذهاب آخرتك ، ولؤمِ طبعك ، ولو أردتُ قتلَك لم أقتلك ، أو أصل إلى قتلك ، بأكرمَ من لؤم فعلك وأصلِك ؛ فافخرْ بهذا جواباً ، على أنى لا أريك له أسبابا ، والسلام على كل عاقل كريم سليم الأصل ، ولرسول الله صلى الله عليه ، والإسلامِ وأهلِه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٢)

---

(١) الذى فى كتب اللغة أن مصدر كاد كيدا لا كيادة .

(٢) هكذا فى الأصل ، والمعنى غير متسق ، وأغلب الظن أنه قد سقط من الناسخ هنا كلام .

٢١٧ — كتاب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل

وكتب الحسن بن سهل إلى أخيه ذى الرياستين فى تهنئة بمولود :

« إنه ليس من نعم الله وفوائد قِسَمه - وَإنْ خُصَّ مَوقِعُها ، وَوَجَب شكرُها - نعمةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الولد لنمائها فى العدد ، وَزيادتها فى قوة العَضُد ، وَما يُتَعَجَّل به من عظيم بهجتها ، ويُرْجَى من باقى ذِكرها فى الخُلُوفِ والأعقاب ، ولاحِقِ بركتها فى الدعاء والاستغفار ، وإنّ الله قد أفادك وأنالك غلاماً سَرِيًّا سمَّيته فلانا ، فكانَ ميلادُه عند فَتْح الله على أمير المؤمنين ، فرجوتُ أن تكون موافاته بالنصر الذى أظهرَنا اللهُ به على عدوِّ الدين والمسلمين ، من دلائل بَرَكته وَيُمْنه ، وشواهِدِ سعادته والسعادة به ، فبارَكَ الله لأمير المؤمنين فى طارِف نعمته وتالِدِها ، وشَفَع له قَديمَ مِنَنِه بحادِثها ، ورزَقه ذكورا طيِّبين مهذَّبين يأنَس بهم رَبْعُه[1] ، وَيتصل بهم نجاحُه ، وَيجعلهم ذُرِّية زاكية ، وبقيةً صالحة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

٢١٨ — كتاب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن

وكتب الفضل بن سهل إلى أخيه الحسن بن سَهل فقال :

« إن الله قد جعل جَدَّك عاليا ، وجعلك فى كل خير مُقَدَّما ، وَإلى غاية كل فضل سابقا ، وصَيَّرك - وَإن نأتْ بك الدارُ - من أمير المؤمنين وكَرامته قريبا ، وقد جدَّد لك من البِرِّ كَيْتَ وكيتَ ، وكذا يحوزُ الله لك من الدين والدنيا والعز والشرف ، أكثرَه وأشرَفَه ، إن شاء الله » . (عيون الأخبار ١ : ٩٤)

---

(١) الربع : المنزل .

٢١٩ — عهد المأمون لعلى بن موسى الرضى

وفى سنة ٢٠١ هـ جعل المأمونُ — وهو بخُراسان — علىَّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ولىَّ عهد المسلمين والخليفةَ من بعده وسمَّاه الرِّضِيَّ من آل محمد صلى الله عليه وسلم، وكتب له كتابا بخطه، وذلك أنه نظر فى بنى العباس وبنى علىّ، فلم يجد أحدا هو أفضل ولا أوْرَع ولا أعلم منه، وأمَر الناس بطَرْح السَّواد وَلُبْس ثياب الخضرة، وَكتب بذلك إلى الآفاق.

وَهذه نسخة عهده لعلى بن موسى:

«هذا كتابٌ كتَبَهَ عبد الله بن هٰرون الرشيد أمير المؤمنين بيده لِعلىٍّ بن موسى ابن جعفر وَلىِّ عهده.

أما بعدُ: فإن الله عزَّ وجلّ اصطفى الإسلام دينا، واصطفى له من عباده رُسُلا دَالِّينَ عليه، وهادِينَ إليه، يُبشِّر أولهُم بآخِرهم، ويُصدِّق تالِيهم ماضِيَهم، حتى انتهت نُبُوَّةُ الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، على فَتْرَة من الرُّسُل، ودُرُوسٍ[1] من العلم، وانقطاعٍ من الوَحْى، واقترابٍ من الساعة، نخَتَمَ الله به النبيين، وجعله شاهِدًا لهم ومُهَيْمِناً[2] عليهم، وأنزلَ عليه كتابَه العزيزَ الذى «لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» فأَحَلَّ وَحَرَّمَ، ووَعَدَ وَأَوْعَدَ، وحَذَّر وَأَنذر، وأمَرَ وَنَهَى، لتكونَ له الُحجَّةُ البالغة على خَلْقه، و «لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ» فبلَّغَ عن الله رسالتَه، ودعا إلى سبيله بما أمرَه به من الحِكْمة والمَوْعِظة الحسنة، والمجادَلَة بالتى هى أحسنُ، ثم بالجهاد والغِلْظة حتى قبَضَه اللهُ إليه، واختار له ما عنده صلى الله عليه.

---

(١) أى امحاء (٢) أى شاهدا.

فلما انقضتِ النبوّة وختمَ الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحيَ والرسالة ، جعل قِوَامَ الدين ، ونِظامَ أمر المسلمين ، بالخلافةِ وإتمامها وعِزّها والقيام بحق الله فيها ، بالطاعةِ التى تُقامُ بها فرائِضُ الله وحُدودُه ، وشرائِعُ الإسلام وسُنَنُه ، ويُجاهَد بها عدوُّه ، فعلى خُلَفاءِ اللهِ طاعَتُه فيما استحفَظهم واسترعاهم من دينه وعباده ، وعلى المسلمين طاعةُ خُلفائِهم ومعاونَتُهم على إقامة حَقّ الله وعَدْله ، وَأَمْنِ السُّبُل ، وحَقْنِ الدّماء ، وصَلاحِ ذاتِ البَيْنِ وجَمْع الأُلْفة ، وفى إخلال ذلك اضطرابُ حَبْلِ المسلمين واختلالُهم ، واختلافُ ملّتهم ، وَقَهْرُ دينهم ، واستعلاء عدوّهم ، وتفرُّق الكلمة ، وخُسْران الدنيا والآخرة . فَحقٌّ على مَن استخلفه اللهُ فى أرضه ، وأْتمنَه على خلْقه ، أن يُؤْثِر ما فيه رضا الله وطاعَتُه ، ويَعْدِلَ فيما اللهُ واقِفُه عليه ، وسائِله عنه ، ويحكُمُ بالحق ويعمل بالعدل فيما حَمَّله اللهُ وقلّده ، فإن الله عز وَجل يقول لنبيه داود عليه السلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » وقال عز وجل : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وبَلَغنا أن عمر بن الخطاب قال : « لو ضاعت سَخْلَة[1] بجانب الفُراتِ لتخوّفتُ أنْ يسألنى اللهُ عنها » وايْمُ ٱللهِ إن المسئول عن خاصَّةِ نفسه ، الموقوفَ على عمله ، فيما بين الله وبينه ، لَمُتَعَرِّض لأمْر كبير ، وعلى خَطَر عظيم ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأمة ؟ وبالله الثقةُ ، وإليه المَفْزَعُ والرغبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوتُ الُحجّة ، والفوزُ من الله بالرضوان والرحمة .

وأنْظَرُ[2] الأئمة لنفسه ، وأنصحُهم فى دينه وعباده وخلافته فى أرضه ، مَن عَمِلَ بطاعة الله وكتابه وسُنَّة نبيه عليه السلام فى مُدّةِ أيامه ، واجتهد وأجْهَدَ رأيَه ونَظَره فيمن يولّيه عَهْدَه ، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعدَه ، ويَنْصِبه عَلَماً لهم ،

---

(١) السخلة : ولد الشاة ما كان .   (٢) أى أحسنهم نظرا .

ومَفْزَعا فى جَمْع أُلفتهم ، ولَمّ شَعَثهم ، وحَقْن دمائهم ، والأمن بإذن الله من فُرقتهم ، وفساد ذات بينهم واختلافهم ، ورَفْع نَزْغ[1] الشيطان وكَيدِه عنهم ، فإن الله عز وجل جعل العهدَ بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعِزّه وصلاح أهله ، وألْهَمَ خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ، ما عظُمَت به النِّعمةُ ، وشمِلَتْ منه العافيةُ ، ونقَضَ اللهُ بذلك مَرّ[2] أهل الشقاق والعداوة ، والسعْيِ فى الفُرقة والرَّفْض[3] للفتنةَ .

ولم يزَل[4] أمير المؤمنين منذُ أفْضَتْ إليه الخلافة فاختبر بَشاعَةَ مَذاقتها ، وثِقَل مَحمِلها[5] ، وشدة مَئُونتها ، وما يجب على مَن تقلَّدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حَمَّله منها ، فأَنْصَبَ بَدَنَه ، وأسهرَ عينَه ، وأطال فكره فيما فيه عِزُّ الدين ، وقَمْعُ المشركين ، وصَلاحُ الأمة ونَشْرُ العدل ، وإقامةُ الكتاب والسنة ، ومنَعه ذلك من الخفضِ والدَّعة بِهَنِئ العيش : عِلْما بما اللهُ سائلُهُ عنه ، ومَحَبّةً أن يلْقَى اللهَ مُناصِحَهُ فى دينه وعباده ، ومختاراً لولاية عهده ، ورعاية الأمة من بعده أفْضَلَ مَن يقدِرُ عليه فى دينه ووَرَعه وعِلمِه،وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه ، مُناجياً لله بالاستخارة فى ذلك ، ويسأله إلهامَه ما فيه رضاه وطاعتَهُ فى ليله ونهاره ، ومُعْمِلاً فى طَلَبه والتماسه من أهل بيتهِ من ولد عبد الله بن العباس وعلى بن أبى طالب فكْرَه ونَظَرَه ، ومقتصراً فيمن عَلِم حاله ومَذْهَبه منهم على علمه ، وبالغاً فى المسألة عمَّن خَفِيَ عليه أمْرُه جُهْدَهُ وطاقته ، حتى استقصَى أمورهم بمعرفته ، وابتَلى[6] أخبارَهم مشاهدةً ، وكشَفَ ما عندهم مُساءلَةً فكانت خِيرَتُه بعد استخارته لله وإجهادِه نفسَه فى قضاء حقه وبلادِه ، من البيتين

---

(١) نزغ الشيطان بينهم كمنع : أفسد وأغرى ووسوس . (٢) المر : الحبل .

(٣) رفض الرجل غنمه وإبله كضرب ونصر رفضا : تركها تبدد فى مراعيها ترعى حيث شاءت ولا يثنيها عن وجه تريده. والمعنى هنا : وترك الفتنة تسير فى الناس فى كل وجه .

(٤) لم يرد الخبر فى الكلام ، ولعله محذوف لأنه مفهوم من السياق .

(٥) المحمل كمجلس: شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمعنى: وثقل عبئها وحملها، والمئونة : الثقل والحمل .

(٦) أى اختبر .

جميعا : عليَّ بن موسَى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب لِما رأى من فضلِه البارع ، وعلمه الناصِع[1] وورَعِه الظاهر ، وزُهْده الخالص ، وتخلِّيه من الدنيا ، وتسلُّمِه من الناس ، وقد استبان له مالم تزَل الأخبارُ عليه متواطِئةً ، والألسُنُ عليه متفِقةً ، والكلمة فيه جامِعةً ، ولِمَا لم يزل يَعرِفه به من الفضل يافِعًا[2] وناشئًا وحَدَثا ومُكْتَهِلا ، فعقَد له بالعَقْد والخلافة إيثارًا لله والدين ، ونظرًا للمسلمين ، وطَلَبا للسلامة وثبات الحُجّة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناسُ فيه لربِّ العالمين .

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَدَه وأهلَ بيته وخاصَّته وقُوّادَه وخدَمه ، فبايَعوه مُسْرِعين مسرورين ، عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعةَ الله على الهوَى فى ولده وغيرهم ، مِمَّنْ هو أشبَكُ به رَحِمًا ، وأقربُ قرابةً ، وسمَّاه « الرِّضِيَّ » إذ كان رَضِيًّا عند أمير المؤمنين .

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيت أمير المؤمنين ومَن بالمدينة المحروسة من قُوّاده وجنده وعامَّة المسلمين « الرِّضِيَّ » من بعده ، على اسمِ الله وبَرَكته وحُسْن قضائه لدينه وعباده ، بَيْعةً مبسوطةً إليها أيديكم ، منشرِحةً لها صدورُكم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها ، شاكرين لله على ما ألْهمَ أميرَ المؤمنين من نَصاحته فى رعايتكم ، وحِرصه على رُشْدكم وصلاحكم ، راجين عائِدَهُ فى ذلك فى جَمْع ألْفتكم ، وحَقْنِ دمائكم ، ولَمِّ شَعَثكم ، وسَدِّ ثغوركم ، وقُوَّة دينكم ، ورَغْم عدوكم ، واستقامة أموركم ، وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فإنه الأمرُ إن سارعتم إليه ، وحَمِدْتم الله عليه ، عرَفتم الحظَّ فيه إن شاء الله تعالى » .

(صبح الأعشى ٩ : ٣٦٢)

---

(١) الناصع : الخالص من كل شىء .

(٢) يفع الغلام ييفع كمنع وأيفع فهو يافع: شب . واكتهل : صار كهلا، وهو من جاوز الثلاثين أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين .

٢٢٠ — صدر رسالة لإبراهيم بن المهدى فى الخميس

فلما علم العباسيون ببغداد بما فعل المأمون ، من نَقْلِ الخلافة من البيت الْعَبَّاسِيِّ إِلَى الْبَيْتِ العلوىِّ ، وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الْخُضْرة ، أنكروا عليه ذلك ، وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم[1] بن المهدى ، وقد أنشأ إبراهيم لنفسه رسالة للخميس ، صَدْرُها :

« الحمد لله الذى اختار الإسلام دينا لنفسه ، ورَضِىَ أن يعبده مَن فى سمواته من الملائكة المقرَّبين ، ومَن فى أرضه من النبيين والمرسلين ، ومن آمَن بالنور الذى هداهم له من الثَّقَلَيْنِ[2] ، واختار لرسالته فى سابق علمه ، والذِّكْرِ الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه كتابه ، وجَعَلَ طاعَتَه وطاعَةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم مَوْصُولةً (بكذا) فقال : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٢٧٩)

---

(١) توفى سنة ٢٢٤ هـ فى خلافة المعتصم — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٨ .

(٢) الإنس والجن .

٢٢١ — رسالة الشكر لأحمد بن يوسف

ولما قتل الفضل(١) بن سهل (سنة ٢٠٢) ، استوزر المأمون بعده أخاه الحسنَ(٢) ابن سهل جَبْرًا لمُصابه بقتل أخيه ، فأمر الحسنُ أحمدَ بن يوسف فكتب عن لسانه رسالةً يشكر فيها للمأمون صُنْعَه ، وهى :

« أما بعد، فالحمد لله القاهر القادر الخالقِ الرازق ، فاطرِ السموٰات والأرض، الذى أحاط بكل شىء عِلْماً ، ونطَقَ به خُبْرا ، وأتقَنه حِكْمةً وعلماً،وألَّف بين مُختلفِهِ ومتَّفقِه ، لِيدُلَّ بِقوام بعضه على بعض على اتِّصال تدبيرِ مشيئته ومبتَدَعِه ، وأنه أحَدٌ صَمَدٌ(٣) ، لا ضِدَّ له ولا نِدَّ ، إذ قدَّر له حاجَته ، ثم شدَّها ببلاَغِها إلى الغاية التى جعلها ، فقال الله

---

(١) وذلك أنه لما ثارت الفتنة ببغداد كما قدمنا ، كتم الفضل بن سهل عن المأمون أخبارها مدة ، وكان متى علم أن أحدا قد دخل عليه أو أعلمه بخبر سعى فى مكروهه وعاقبه ، فامتنع الناس من كلام المأمون ، وانطوت عنه الأخبار ، فدخل عليه على بن موسى الرضى وقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الناس ببغداد قد أنكروا عليك مبايعتى بولاية العهد وتغيير لباس السواد ، وقد خلعوك وبايعوا عمك إبراهيم ابن المهدى ، وأحضر إليه جماعة من القواد ليخبروه بذلك ، فلما سألهم المأمون أمسكوا ، وقالوا : نخاف من الفضل ، فإن أمنتنا شره أخبرناك ، فأمنهم وكتب لهم خطه ، فأخبروه بحقيقة الحال وعرفوه خيانة الفضل وتعميته الأمور عليه ، وستره الأخبار عنه وقالوا له الرأى أن تسير بنفسك إلى بغداد ، وتستدرك أمرك ، وإلا خرجت الخلافة من يدك ، فشخص من مرو إلى العراق ، فلما كان بسرخس دس على الفضل جماعة فقتلوه فى الحمام ، ثم أخذهم وقدمهم ليضرب أعناقهم ، فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا ! فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم ، وأما ما ادعيتموه فدعوى ليس لها بينة ، ثم ضرب أعناقهم وحمل رءوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل بواسط وكتب يعزيه ويوليه مكانه . وتزوج ابنته بوران بنت الحسن ، ودس إلى على بن موسى سما فى عنب — وكان يحب العنب — فأكل منه واستكثر فات من ساعته ، وكتب إلى بنى العباس ببغداد يقول لهم : إن الذى أنكرتموه من أمر على بن موسى قد زال ، وإن الرجل قد مات ، فأجابوه أغلظ جواب ، وجد المأمون فى المسير إلى بغداد فبلغها ، وقد هرب إبراهيم بن المهدى والفضل ابن الربيع ، فلما دخل المدينة (سنة ٢٠٤) تلقاه العباسيون وكلموه فى ترك لباس الخضرة والعود إلى السواد، فأجاب إلى ذلك وأمر الناس بالعود إلى لباس السواد ، ثم إنه عفا عن عمه إبراهيم وأحسن إليه وكذلك فعل مع الفضل بن الربيع .

(٢) توفى الحسن سنة ٢٣٦ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ١٤١ والفخرى ص ٢٠٣ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٧ : ٣١٩ .

(٣) الصمد : السيد الذى يقصد فى قضاء الحوائج .

عز وجل « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » وحكى عن نجيِّه موسى عليه السلام : « قالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقال الله تعالى : « وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً » ثم لم يكلِّف العِباد من شكره كِفاء نِعمته ، بل رضِىَ منهم باليسير ، وقبِلَ منهم العفوَ ، وجعل طاعتَهم إياه عائدةً عليهم بجزيل الحظِّ فى دينهم ودُنياهم لِغناه عن عبادتهم ، واتِّساع قدرته بالتطوُّل عليهم ، مفتتِحًا وخاتِما ، وبادِئا وعائِدا .

والحمد لله الذى اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم ، نبيًّا لرسالته ، وأْتمنه على وَحيه ، وأنزل عليه كتابه العزيز ، الذى لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . فأدَّى إلى خَلْقه الرسالةَ ، واستنقذَهم من الضلالة ، وصَدَع بأمر ربِّه ، وجاهَدَ فى سبيله ، ونَصَح لأمته ، حتى أتاه اليقين من ربِّه ، بعد استنارة الحقِّ ، وظهور الحُجَّة ، فصلَّى الله عليه بشيرًا وَنَذيرًا ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا ، قَدْ تَلاَفَى مِنَ الْهَاسَكَةِ ، وَجَمَعَ الأُلفة بعد الفُرقة ، وأوضح الهُدَى بعد الدُّروس[1] ، ومَعالِمَ الرُّشْدِ بعد الطُّمُوس ، وكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً .

والحمدُ لله الذى قفَّى على آثار المرسلين ، والأئمةِ الراشدين ، الهَادِىَ التقىَّ ، الطاهِرَ الزَّكىَّ ، الإمامَ المأمونَ أمير المؤمنين — أعزَّ الله نَصْرَه — فسَدَّ ثُلْمَتهم ، وَرَأَبَ صَدْعَهم[2] ، وقلَّدَه خِلافتهم ، وجعله لِكافَّة المسلمين غِيَاثا ورحمةً ، وجعل ما أَلْهمه من العدل والإحسان إليهم ، مِنةً عليه ورحمةً ذَخَرها له دون الخلفاء قبله ، فيما أظهر من فَضْل زمانه على الأزمنة ، وسياسةِ مَن تقدَّمه ، ومَنَح الرعية من عطفه ونظره مالا يَحْمِل عنهم أَوْبه[3] ، ولا يؤدِّى عنهم شكره ، إلا هو لا شريك له ، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثُوبتَه ، على صِلة رَحِم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى

(١) الدروس : الامحاء .

(٢) الصدع : الشق ، ورأبه كمنعه : أصلحه . (٣) أى ترجيعه وترديده .

رَحِمُه وقرابتُه ، واختيارِه لولاية عهدِه الأميرَ الرضىَّ علىَّ بن موسى — حفظه الله — حينَ أحمَدَ سيرَتَه(١) ، ورضِىَ محبَّته، وعرَف استِقْلاله(٢) بما قلَّده فى هَدْيه ودينه، ووفاءه بما أكَّد الله به عليه من عهد أمير المؤمنين — أيَّده الله — فى اعتيامه(٣) من آزَرَه وآساه بما شَفَع رأيه ، وأنفذَ تدبيره حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عِباده، لمَّا انتَضى(٤) القائمَ بدعوته ، ورئيسَ شريعته ، الأميرَ ذا الرياستين — رحمه الله — فاتَّخذه مكانِفا ظهيراً ووزيرا دون مَنْ سواه ، فاتبَع مِنْهاجَ أمير المؤمنين — أيده الله — وسار بسيرته شرقا وغربا ، وغَوْرا ونَجْدا ، مُوفيا بعهده ، قائما بدعوته ، مقتفِيا لأثره وسُنَّته ، فحَسَمَ الله به الأدواء ، وقمَع به الأعداء : من عُتَاةِ الأُمَمِ ، وطَواغِيتِ(٥) الشِّرك ، وأبار(٦) على يده أهلَ الشقاق والنفاق ، فى كل أُفُق وطَرَف ، بجَدِّ أمير المؤمنين — أعزَّه الله — وبَرَكةِ سياسته ودولته ، ونُجْح سَعْىِ مَن قامَ بنُصرة من قام بحقه وأنار برهانه ، حتى توفَّاه الله عز وجل ، حين بلغ هِمَّته وغايته ، وحُمَّ(٧) أجَلُه وانقطعت مُدَّته ، سعيدا حميدا ، شهيدا فقيدا ، عند إمامه — أكرمه الله — وعند الخاصَّة والعامة .

وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذى نزلَ به ، فأحيا آثارَه ، بوصف محاسنه فى مَشَاهِدِهِ ومجامِعه ، وترَحُّمِه عليه عند ذكره ، وحِفْظهِ فى لُحْمته(٨) وأهل حُرْمته ، وفيمن كان بحمْد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتمَّ به نعمتَه عندنا وعندكم معشرَ الشيعة ، فقد أصبح أمْرُه بكم متَّصلا ، ومَوْقِعُه مِن جماعتكم [متمكِّنا] ، يَقبِضكم ما قَبَضه ، ويبسُطكم ما بَسَطه من لَوْعة المصيبة ، وحُسْن العُقبى ، وقد علمتم —

---

(١) أحمد أمره : صار عنده محمودا . (٢) أى نهوضه .
(٣) اعتام الشىء : اختاره .
(٤) من انتضى السيف : إذا استله ، وربما كان « انتقى » .
(٥) الطواغيت جمع طاغوت : وهو كل رأس ضلال . (٦) أباره : أهلكه .
(٧) حم : قدر . (٨) اللحمة : القرابة .

معشَرَ أهل الحِجا والنُّهى والطاعة لله عز وَجل وخليفتِه ، وذوى الغَناء[1] والبَــــلاء فى دعوته ، من أهل خُراسان وغيرهم ممن حضَر ، ممن امتحن الله قلبه بوفاء العَهْد ، والاستبصار فى حق أمير المؤمنين أبقاه الله ، والمجاهدةِ دونه ، والصبر على مَواطن الصدق واللَّأْواء[2] ، والذبِّ عن البَيْضَة والحرِيم ، والمتحمِّلين للنَّصَب والمصائب التى انجَلَتْ حتى كأنْ لم تكن ، وبقِىَ أجْرُها على الله عز وجل ، ومحمودُ ذكرها شائعا فى الناس — أنَّ نِعَم الله قد جَلَّت ولَطُفَت ، وخصَّت وعمَّت ، وعَلَت وسَمَقَت[3] ، وتمَّتْ ودامت ، حتى قصَّرْنا عن موازينها ، والإحاطة بأدائها ، فإذا لم يكن لنا معشَرَ إخواننا سببٌ إلى مكافأة بَلائه بالعمل ، فنحن جُدَرَاء أن نجتهد فى القول ، ونُطْنِبَ فى الوصف إن شاء الله جل وعز ، فقد جعل ذِكرَ النِّعَم من أسباب الشكر .

وقد جدَّد لنا أمير المؤمنين ـ أيَّده الله ـ من الحِباء[4] والكرامة وجزيل الحِيطة وسَنِىِّ الرُّتبة التى قُرِئَ بها عليكم كتابُه ، ما يستغرقُ جُهدَنا ، ويستفرِغُ وُسْعَنا ، فنرغب إلى الله عزّ وجل وَلِىِّ الرغبة ، ومُؤْتِى السُّؤْل والطَّلِبة ، فى إعانتنا على تأدية ما وَجَبَ له ، فيما منَحَنا من فوائده ونِحَلِه[5] ، ثم نَسْترفِدكم[6] ونستعينكم على شكره ، وإمدادنا بما بلَغَتْه طاقتكم فى السعى له ، فقد آدَنا[7] ثِقلُ مَا حَمَّلنا ، وثِقلُ مَا طوَّقنا ، وعظُمَت فاقتُنا إلى استعمال القوىِّ من الأنفُس والحامَّة[8] ، والخاصَّة والعامَّة ، فى جزاء ما جَلَّل[9] أميرُ المؤمنين فينا من سُنَنه ، وشمِلَنا من تالِدِ أياديه وطَارِفها[10] ، وقديمها التى

---

(١) الغناء : الكفاية .
(٢) اللأواء : الشدة .
(٣) سمق كنصر سموقا : علا وطال .
(٤) العطاء بلا من ، أو عام .
(٥) النحل جمع نحلة بالكسر . وهى العطية .
(٦) استرفده استعانه .
(٧) آده الأمر يئوده : بلغ منه المجهود .
(٨) الحامة : خاصة الرجل من أهله وولده .
(٩) جلله : غطاه .
(١٠) أى من قديمها وحديثها .

وحديثها ، وكيف يوجد إلى مُوازاة أمير المؤمنين سبيلٌ ببَذْل جهدٍ ، أو بلوغ حَشْدٍ ، فإنما نقتدى بهُداه ، ونعشو[1] بنوره فى ديننا ، وليس عجزُنا عن أن نجزِىَ حقَّه[2] ، بواضعٍ عنا مُؤْنَة الدُّءوب فى التحرِّى لتأديته ، فإن الله عز وجل قد أخبر بفضائل الشكر ومناقبه ، وجعله من أسمائه « وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » وقد قال تعالى « مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيماً » وقال تعالى : « إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » ولولا أنَّ الله عزّ وجل رضِيَه لنفسه لأجللناه عن التسمية ، إذ كان أكثرَ ما نستعمله ونعرِفه فى مكافأة مَنْ مَنَّ وتطوّل ، ثم ثنَّى بذكر فضله فى العباد ، فإن الله تبارك وتعالى افتتح أولَ ما علَّم خلقَه بالحمد ، وجعله بدءَ كتابه وخاتمةَ دعوةِ أهل جنّته ، فقال عزّ وجل : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وخلق الله السموات والأرض ومن بَرأ وذرأ فى الحياة لِيَبْلوَ عبادَه بشكره ، وأعَدَّ الجنة فى الآخرة لمن شكَرَه ، والنارَ لمن كفرَه ، وقال الله تعالى: « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، وقال الله تعالى « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ، فجعَلَ التَّقوى واقعةً[3] ، والشكرَ مرْجُوًّا ، ليَدلَّ على ارتفاع رتبته ، وعلوّ درجته عنده ، وقال لنجيِّه موسى عليه السلام : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » فلم يكلِّفه إلا أَخْذَ ما أعطاه ، والشكرَ على ما آتاه ، وأخبَرَ بعزَّته فى العباد فقال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » .

---

(١) عشا النار وإليها : رآها ليلا من بعيد فقصدها مستضيئا ، كاعتشاها ، وبها .

(٢) فى الأصل « وليس علينا بأنا لن نجزى حقه » .

(٣) أى واجبة .

فأيّةُ نعمةٍ أجلُّ قدرا ، وأسْنَى أمْرا ـ معشر الشيعة ـ من نعمة أمير المؤمنين ـ أيّده الله ـ عند الأمير ذى الرياستين ، ومراتبِه التى رتَّبهُ بها ، فإنه أعطاه رياسَةَ الحرب وَرياسَةَ التدبير ، وعقدَ له على رأسِهما عَلَماً فى راية دَعوته ، وقلَّده سَيفهما ، وختَّمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرَسه وصاحب شُرْطته ، ومسيرَه بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخلْفَه ـ وصيَّر له الجلوسَ على الكرسىّ بحضرته فى صدر كل مجلسٍ جلَسَهُ ـ إلا أن يُؤْثِر به مَن أحبَّ مِن أبناء الخلفاء ـ وقدَّمه فى دخول داره[1] راكباً إلى أقصى مكانٍ ينتهى إليه أحدٌ من بنى هاشم ، لأنه منهم ، وأعظمُهم غناءً عنهم ، فسمَّاه صاحبَ دعوته ، وسيفَه على عدوه ، وبابه الذى يُدْخَل إليه منه ، وولّاه خيُولَه فى أقطار الأرض ، ومقدِّمَتَه بحضرته ، وقلَّده من الثغور ما قد علمتم ، بما أفرَدَه فى عهده ، إلى ما أنْفذَه من أمره ، فى جميع سلطانه ومُلكه، من مَشَارِقِ الأرض ومَغارِبها، وأين يأتى الوصفُ على مافضَّله به وقدَّمه وشرَّفه على الناس كافَّة ؟ ولكنا نُخطِر بذِكره ثم نكِلُ السامعين إلى مايرجعون إليه من المعرفة التى لاتبلغُها الصِّفةُ .

ثم لم يكن ما أكرمه به فى حياته ، بأعلَى مما أكرَمَه به فى وفاته : توَلَّى غُسْلَه وتكفينه وَمباشرتَه لجهازه إلى حُفْرته بيده ، وقاسَى من الغُصَص، وبُرَحاءِ[2] الحزن، وإذراءِ[3] العَبْرة ، وإراقةِ الدَّمْعة ، ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعهُ من القول، والدعاء فى صلاته عليه ، مِن الحكم وحِفظِ أهلِ الحُرْمة به ، رعايةً له فيهم ، ووفاءً بعهده من بعده ، وأقرَّ خاصَّتَه وقوادَه وعُمَّاله وكُتَّابه على مراتبهم ، وحَمِد بحَمْدِه ، وذمَّ بذمِّه ، وجدَّد لجنده وشاكِريّته[4] نظَرا وعطفاً ، فلم يبقَ عليه فى إحياء ذكره ، وبلوغ كل مايحبّه فى حياته ، [غايةً] إلا أتىَ مِن ورائها ، وأمرَ بقراءة فتُوحه ، كما

---

(١) فى الأصل « دار الأمير » . (٢) برحاء الحمى وغيرها : شدة الأذى .

(٣) أذرت العين الدمع : صبته .

(٤) فى الأصل « وشل كريته » وهو تحريف، وأرى أن صوابه « وشاكريته » والشاكرية جمع شاكرى : وهو الأجير والمستخدم معرب جاكر ـ انظر القاموس المحيط ـ والمعنى : وأتباعه ورجاله .

كانت تُقْرَأ على عهده ، وأضاف كل ما حَدَث من بعده ، إلى ما تقدّم مِن سَعْيه ، وأخبرَ أنه كان سببَه ، والمفتتَح به ، وولّى محمدَ بن الحسن خلافتَه ، ونَصَبَه مَنْصِبَه ، وأقامَه مُقامَه إلى أن جدّد العهدَ لى ، فاستخلفتهُ على ما وَلِيَ بحضرته ، ثم تتابعَتْ كتبُ أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ بعد مُصاب الأمير ذى الرِّياستين ، بما[1] لا يُقارَبُ من التفضيل والإطلاق والتفويض الذى كنتم سمعتم به وبَلَغكم ، فلم يكن يَرَى وراءه مجازاةً[2] ، ولا فوقه مَصْعَدا ، حتى جدّد لنا من كرامته ، ما قد قُرِئَ عليكم فى كتابه ، فبلغَ بنا ما لم تكن الهِمَم لِتَبْلُغَه ، والأمانِىُّ لِتُحِيطَ به ، لولا ما مَنحَنا الله عزّ وجل من الترقِّى فى الفضل إلى ما تنحسِر[3] من دونه الأبصارُ ، وتنقطع دونه الآمالُ ، وإنما اقتصصنا وذكرنا ما أبلانا واصطنَعَ عندنا من بلائه ، بدعائنا إلى الله عزّ وجل ، وإلى طاعته بالعدل والإحسان إلى رعيته والنظر بالصفح ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصِلَة المُروءة بالوفاء بالعهد ، والشكر للمِنَن ، ورعاية الأخلاق المحمودة ، وإحْظاء[4] أهلها ، وإقامةِ سُوقها ، حتى تنافَسُوها وتشاحُّوا[5] فيها ، وصارت هى الذرائع إليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمَّلَ متأمِّلٌ أهلَ الزُّلْفةِ والأُثْرةِ لديه ، لَوَجَد الأخصَّ فالأخصَّ ، والأعْلَى قدرا عنده ، الأفضلَ ديناً ومُروءةً ، فلو لم يكن فى الحُظْوة عنده إلا إيجابُها لصاحبها صِحّةَ المحبة ، والنزاهةَ عن كل ظِنةٍ[6] ، لكان فيها أعظمُ الغِبطة ، وأعدلُ الشهادة والدلالة .

وسنقُصُّ عليكم بما خبّرنا كم عنه ما لا سبيلَ إلى جَحْده وإنكاره ، لوضوح معالِمه ومَنَارِه ، أو ليسَ المجاهدَ عن دين الله ، والمُحامىَ عن بَيْضةِ المسلمين ،

---

(١) فى الأصل « كما » وهو تحريف. (٢) فى الأصل « مجاراة » وهو تصحيف .
(٣) أى تكل وتنقطع . (٤) فى الأصل « وإخطاء » وهو تصحيف .
(٥) فى الأصل « وشاحوا » (٦) الظنة : التهمة .

والمُؤاتىَ(١) لأغلظِ عدوِّهم شوكةً ، وأخوفِهم عداوةً والمُبَحْبِحَ(٢) من بلادهم فيما كان لا يُرام ولا يحاوَلُ ، لاستصعابِه وشدةِ مُقاساتِه ، حتى أذعن « جيغوية » بالعُبُوديَّة له ، ثم أباح حريمَه حين تمرَّد عليه ، حتى بلغ السَّبْىُ إلى ولده وحابومانه(٣) ، وتوغّلت خيولُه حتى توصلت إلى قُبَّتة ومنتهَى عِزِّه؟ أوَليْسَ مُسكِّنَ الهَيْج بالمشرق، حتى خَبَتِ(٤) النيرانُ فيه ، وأذعنَ رؤساؤها وقادتُها أوَليس غازِىَ بلاد بابِل حين طغَى [مِلكها] وَبدَّل ونكَثَ ونقَض ، حتى اجتثَّ أرُومَتَه(٥) ، وأباحَ حرَيمَه ، وأراح المسلمين من معَرَّته؟ أوَليس سادَّ الثغورِ ، ومُحصِّنَ عوْراتها ، والمُباشِرَ لتدبيرها ، والمُسْعَدَ المكايَدةِ المُنْجَح فيمن أرادها ، وفَاكَّ العُناةِ(٦) من رِقِّ الإسار ، وناشِرَ الرَحمةِ على فقراء المسلمين وضعفائِهم وأهلِ المَسْكَنة والخَلَّة منهم ، وقاسِمَ الصَّدَقات فى أهلها ، وعامِرَ المَوْسِمِ ومُحَصِّنه من الآفات ، حِياطةً للمسلمين فى حجِّهم وما يتقربون به إلى ربهم؟

وهل اقترنَ لأحد من الأئمة ما اقترَن له فى الملك والدين والعز والتواضع والسَّعَة والبَذْلِ والقدرة والعفو والغِلْظة واللِّيانِ فى مواضعها ، والنُّسْكِ مع الهِمَّة ، والسَّطوة مع الإقالة ؟ وهل ترك معشرَ الأولياءِ والإخوان فى الدين غايةً لم يسْمُ بنا إلى شرفها ، وعلِىِّ مَراتبها ، ومُستَزَادِ الحظِّ فى عاجلٍ وآجِلٍ لم يُبْلِغْناه ؟ احتاز لنا خاصَّ مَكرُمته ، ومُدَّخَرَ عاقبته ، أرشدَنا إلى الدين ، وسلَك بنا سُبُلَ الجنة ، حازَ لنا المُلْكَ ، فلم يبق وراء ما مَلَّكنا غايةٌ ، ووَرَدَ بنا الحروبَ وساسَها لنا ، فلم يَدَعْ غايةً

---

(١) آتى فلانا : جازاه .

(٢) فى الأصل هكذا «والمحبح» وتبحبح الدار ، وفى الدار ، وبحبح : إذا توسطها وتمكن من الحلول والمقام فيها ، وربما كان «والمجتاح» من اجتاحه : إذا أهلكه واستأصله .

(٣) كذا فى الأصل ، وقد يكون « وجواريه » .

(٤) خبت النار تخبو : سكنت وطفئت .

(٥) فى الأصل « لدومته » وهو تحريف . الأرومة بالفتح وتضم : الأصل .

(٦) العناة : جمع عان ، وهو الأسير .

فى التعلم والدراية ، والتقلُّد والفقه ، إلا سلَّطنا عليها بسُلطان الله[1] الذى آتاه ، علَّمنا الفضائل ، ثم فضَّلنا بها ! غلَبَ لنا الأمم ، ثم خوَّلَنَاها[2] ، علَّمَنا طرائقَ الشرف ، ثم شرَّفنا بها ، أخبرَنا عن الأنباء فكفانا مُؤْنةَ التماسها ، وأغنانا بما عنده فيها ، أخذَ على أيدينا الخيرَ للرعية فوهب لنا شُكرَها ، وَصدَّق مقالتَنا عند الشُّبْهة ، وَأنفذَ أمرَنا فى التدبير .

فيأيُّها الإمامُ المنصورُ المهدىُّ الرشيدُ : حُزْتَ فضائلَ الآباء ، واهتديتَ بهُدَى الأنبياء ، أنشكُرُك عن الإسلام ؟ فأنت القائمُ به ، الداعى له ، والناصِرُ لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ؟ فأنت المفتَتِح لممتَنِعِها عَنْوَةً[3] ، والمتطوِّلُ على أهلها بالرحمة ، والمنعطِفُ عليهم بحسن الفائدة ، بعد ما هيَّجَت منك سَوْرَةَ[4] الغضب ، فأطفأْتَ نارَها ، وأخمدْتَ لهَبَها ، وعُدْتَ على مَن سَفِه وأضاع حظَّه ، أم نشكرك على المساجد ؟ فأنت الذى أسَّسْتَها على التقوى ، وعَمَرتها بتلاوة القرآن ، وطهَّرْتَ المنابرَ وركبتها ، تعلوها صائما ، وتنطق عليها صادقا ، وَتدعو إلى الرُّشد عليها ناصحا ، وتختِم القرآن قبل أن تبدَأها مُحسنا ، وتتلو مِن قوَارعه[5] ماتُصيخُ لهُ الأسماعُ ، وَتَلين به القلوبُ ، أم نشكرك على البيت العَتيق ، والرُّكن والمَقام والحجَر وزَمْزَم ، وَمشاعِر الحج[6] ؟ وَأنت ذَببْتَ عنها ، وأعدتَ إليها عهدها فى مَبْعَث نبيها صلى الله عليه وسلم ، فأمَّنْتَ النازِع[7] إليها من كل فَجٍّ عميق ، والحالِّين بها من الركع السُّجود ،

(١) فى الأصل « فلم يدع غاية التعليم والدراية سلطانا بسلطان الله الذى آتاه فلم يدع غاية فى التقلد والفقه ، علمنا الفضائل ... » .
(٢) خوله الله المـال : أعطاه إياه متفضلا .
(٣) العنوة : القهر . (٤) أى حدته .
(٥) أى من آياته الشديدة القرع ، وأصاخ له : استمع .
(٦) مشاعر الحج : معالمه التى ندب الله إليها وأمر بالقيام بها ، جمع مشعر كمذهب .
(٧) نزع إليه كضرب : اشتاق ، والفج : الطريق الواسع .

أم نشكرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حفظتَ فيه من عِتْرته[١] ؟ بعفوك عن مُجْرِمهم ، ومضاعفتِك ثوابَ مُحْسِنهم ، وإحيائك مِن أمرهم ، مَا كان قد اندرَسَ وانطمس ، مُعِدًّا للِقاء نبى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رعيتَ منهُ فى قرابته وقرابتك وذوى رَحِمِه وَرَحِمك ماضيَّع الناسُ ، ووصلتَ منهم ما كان وَصَلَه . إذ كان الله عز وَجل قد فَرَضَ صِلَةَ الأرحام ، فكان أطوع خلقِ الله عز وجل فيما فَرَضَ عليه ، أم نشكرك عن العوامّ ؟ فقد ألبستَ المسلمين ثوبَ الأمْن ، وَأذقتَهم طعم السَّعة والرَّفاغةِ[٢] ، وَعَدَلْتَ بينهم بالإنصاف ، وتولَّيْتَ دونهم النَّصَبَ ، وَآثرْتَهم بالرَّاحة ، أم نشكرك عن الملوك وَالقواد والأجناد؟ فأنت الذى رفعتَ منازلهم، ووفَّرتَ عددهم، فلم يكونوا فى دهرِ أحدٍ من الخلفاء أسعدَ ولا أحظى منهم فى سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاوِن ، وَولَّيتهم من الثغور وَالأمصار، وَأدْرَرْتَ عليهم من الأرزاق وَالخواصِّ، أم نشكرك عن الأحكام والسنَن ؟ فأنت الذى أنهجتَ[٣] سبيلها ، فأوجبتَ فَرْضها ، ونافستَ فى أهلها ، أم نشكرك عن الأعداء ؟ فأنت الذى بدأتهم بالحجَّة ، وَدعوتهم إلى الفَيئة[٤] والإنابة ، ثم ثنَّيْتَ مُعَقِّبا بالعفو ، وَنَعشتهم بعد البؤس ، وَآنَستَهم من الوحشة ، أم نشكرك على مكارم الأخلاق ؟ فأنت الذى ثبَّتَّ وِطاءها[٥] ، ونفَيتَ عنها أضدادَها ، ولو نطقتْ بالفضل لنطقَتْ بشكرك فى إزَالتك إياها عن اللئام ، وإخطائك مَن اعتزَى[٦] (منهم) إليها ، أم نشكرك عن الثغور ؟ فأنت الذى تمَّمتها وحصَّنْتَ عوراتِها[٧] ، أم نشكرك عن السَّلَف ؟ فأنت الذى أشدْتَ بفعالهم ، وحَفِظتَهم فى أبنائهم ، أم نشكرك عن بُرْد رسول الله صلى الله عليه وَسلم وعن القضيب الذى (كَان) يَتخصَّر[٨] ، حتى جعلتهما زينتك ، وسَمَوْتَ بهما فى أعيادك

---

(١) العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون .
(٢) الرفاغة : الرفاهية .
(٣) أى أوضحت .
(٤) الفيئة : الرجوع .
(٥) فى الأصل « وطأتها » .
(٦) أى انتسب .
(٧) فى الأصل « عذراتها » .
(٨) أى يمسكه بيده .

عند حَشْدك على الطُّهر والزكاة والنُّسك والتقوى ؟ أم نشكرك عن المسلمين ؟ فى رعايتك إياهم ، وما تُرْعيهم من جَنابك ، وتَنفِى عنهم من الآفات ، وتفُلّ[1] عنهم مِن جَبابرة الكفر ، وتَفُضّ من جيوش الشرك والنَّكْث ، وتفتح من الحصون المستصعَبة ، وتسهّل من الطرق الوَعْرة ؟ أم نشكرك عن تواضعك لله عز وجل ولِصالِح المسلمين طلباً للرِّفعة عند الله ؟ أم نشكرك عن الدين؟ وقد جعلتَ السلطان عَبْدًا وقائدا ومنفِّذا ، وكان مأمورا فجعلته آمِراً ، وآلةً للقوة فجعلت القوةَ له آلةً .

فيامَن اتصلَ شكرُه بشكر الله عز وجل ، ونعمتُه بنعمة الله تعالى ، وطاعتُه بطاعة الله ، فوهَبَ الله لك شَرَفَ المنازل ، ورقَّاك دَرَج الفضائل ، وجزاك الله عنا وعن غيرنا ، مما شكَرَ مِن ناطقٍ أو صامِت ، جزيل الثواب ، ورَفيعَ الدرجات ، وأمْتَعَك ما آتاك ، وأمتع الأمةَ ما آتاهم منك ، والحمد لله ذى الرَّغبات ، ومتمِّم الصالحات ، شكراً لربِّ العالمين ، فإنه مَبْلغُ طاقتنا ، ومنتَهى جَهْدِنا ، وبه نستعين على تأدية فرائضه إنه لا يُعين على ذلك إلا هو .

أحببتُ أن أشكرَ إليكم أمير المؤمنين — أيَّده الله — إذ ورد علىَّ من إنعامه وإفضاله مالا أبْلُغه بالفعل ، وأن يكون ما اقتصَصْنا عليكم داعيا لكم إلى أن تشكروه عنا وعن أنفسكم وعن الإسلام والمسلمين ، وَرجوتُ بمَا وَفَّقنا الله له فيما شرَحْنا وأوضحْنا من الدلالة والبيان ، أن يكون مجتمِعاً ينتفع به مَن حَضَرَنا ، ومَن عسى أن يُؤدَّى إليه الخبرُ عنا ، أو حُدث بعدنا ، وَضَنَنْتُ بهذه المكرُمَةِ الرائعة والمأثُرَة البارعة التى ادَّخرها اللهُ لأمير المؤمنين — أعز الله نصره — وأفرَدَه بها دون الأئمة والخلفاء ، أن تَمُرَّ بالأسماع صَفْحا ، وتجتازَ على القلوب سَهْوا ، حتى تُؤكَّد بالشواهد والبرهان ، ليبقَى ذِكرُها ونفعُها فى الخُلوف والأعقاب .

---

(١) فل القوم كنصر : هزمهم .

ونحن نسأل الله عز وجل الذى جمع بأمير المؤمنين — مَدَّ الله فى عمره — أُلفتَنا ، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا ، وأنالنا من الغبطة فى دولته وسلطانه مالم تحوِه شيعةُ إمام ولا أنصار خايفة ، أن يُتمَّ نورَ أمير المؤمنين ، وَيُعلِيَ كعبَه ، ويمتّعنا ببقائه حتى يبلغه سُؤْله وهمَّتَه فى الاستكثار من البرّ ، وادّخار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر وأن يَلُمَّ به الشَّعَثَ ، ويَرْأَبَ به الصَّدْع ، ويُصْلح على يديه الفساد ، ويرتُق به فُتوق هذه الأمة ، وَيُثْخِن[1] بسياسته ونِكايته فى عدوها ، ويتابعَ الفتوحَ فى بُلدانهم حتى يؤْتيَهُ من نُجح السَّعْى ، ورَغائب الحظّ فى الدنيا ما يُجْزِل عليه ثوابه فى الآخرة ، وأرشَد نُجَباءه وأصفياءه الذين يقول لهم : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ١٦٦)

٢٢٢ — كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بأخيه

فصل من كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل يعزيه بذى الرياستين :

«وقد أبقَى اللهُ لأمير المؤمنين خَلَفا مِن خيرِ سَلَف ، افتقاداً منك لأثر ذى الرياستين — نضَّرَ اللهُ وجهَه ورَحِمَه — وسلوكا منك لمذهبه وكفايتِه لأمير المؤمنين ، وعائدتِه[2] عنه ، واجتهادِه فى طاعته ، ومعاونتِه على نيّته ، وابتذالك نفسَك فى إعزاز دولته ، وجهادِ عدوه ، والمحاماةِ عن سلطانه ، وحلولاً من قلب أمير المؤمنين محلَّه فى علوه وارتفاعِ مكانه ، إذ كنت شقيقَه وشبيهَه ، والجاريَ عند أمير المؤمنين فى الأُنس والثِّقة والتقديم مَجْرَاه » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

---

(١) أثخن فى العدو : بالغ الجراحة فيهم .

(٢) العائدة : المنفعة .

٢٢٣ — كتاب المأمون إليه يعزيه بأبيه

وفصل من كتاب المأمون إليه بالتعزية بأبيه سهل :

« وقد جَرَى من قضاء الله عزَّ وجل على أبى الفضل رَحِمه الله ، بِعَقِب المصيبة بذى الرياستين رَحِمه الله ، ما عظُمَ مَبْلَغُه من أمير المؤمنين ، ووصل إليه من مَضَضِ وألمٍ هَدَّه ، لِأُنسِه كان بمكانه ، ومَحلِّه كان من قلبه ، ولمعرفته بمَوْقِع ذلك عندك ، وما تجدَّد لك من الوَحْشة والوَجد واللَّوْعة لوفاته ، لأن المصائب لو تأخرتْ عن أمير المؤمنين وعنك بعد المصيبة بذى الرياستين رضى الله عنه عِدَّةَ سنين ، لَمَا عَفَا أثرُها ، ولا اندمَلَ كَلْمُها[1] ، ولا سَكن رَوْعُها ولا موقِعُها مِن فِكره ، فأعظمَ الله لأمير المؤمنين الأجْرَ فيه على عظم الرزية ، وأحسنَ عُقباه وعُقْباك منه ، ورَبَط[2] على قلبه وقلبك ، وعزَم لك من الصبر على ما يُرضيه عنك ، وسَدَّ الله كل ثُلْمة انثلمَتْ عليك ، ورَحِم الله أبا الفضل رحمةً تأتى من وراء زَلَله ، وتعُفِّى عَلَى فَرَطات لسانه ويده ، آنَسَ الله أمير المؤمنين ببقائك ، ودفع الأسواءَ والمكارِهَ عنك بقدرته » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٥)

٢٢٤ — كتاب المأمون إليه

من كتاب المأمون إلى الحسن بن سهل بالإحماد له على كفايته :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين إذا فكَّر فى نعمة الله عليه منذُ استخلَفَه فى أرضه ، واستحفظَه دِينَه[3] وعبادَه ، وألهمه من طاعته ، وجعل عليه رأيه وهمته ونيّته فى إقامة حقه ، وبَسْط عدله ، والعمل بفرائِضه وأحكامه ، وعَضَدَه به منك ، وجعل عندك من

---

(١) الكلم : الجرح .

(٢) ربط الله على قلبه : ألهمه الصبر وقواه . (٣) فى الأصل « منه » .

النية فى مساعدته ومعاونته على ما فيه القُرْبة إلى الله عزّ وجل، وَدَرْكُ رضوانه والقيام بما استكفاه من أمور، ونُجْح السعى فى إعزاز الدين وتأييده. ووَقْمِ[1] الشركِ وتدويخه، وتابَعَ له من الفتوح على يدك فى صنوف أعدائه، من شرق الأرض وغربها، وسَهْلها وجبلها، وسَهّل له البُلدانَ المستصعَبَة على غيره، حتى دَانَ له عظماؤها، وانقادت له رؤساؤها، وقِيدَت إليه أشرافُها، وحُمِلت إليه أربابُها، رَأَى أنه قد عَضَده منك بما لاتبلغُ الأوهامُ وَصْفَه، ولا العقولُ كُنْهَه، فالحمد لله رب العالمين على ذلك حمداً كثيراً، وشكر دائماً». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٢)

٢٢٥ — كتاب الحسن بن سهل إلى المأمون

وتزوج المأمون بُوران بنت الحسن بن سهل، فكتب إليه الحسن بعد أن زُفَّتْ إليه بورانُ، وتوَهَّمَ القُوّادُ أن هذا التزويج قد أنْسَى الحسنَ حاله قبل ذلك.

« قد تولَّى أميرُ المؤمنين مِن تعظيم عَبْدِه، فى قبول أَمَتِه، شيئا لا يتَّسع له الشكرُ عنهُ إلا بمعونة المِحَن[2] لأمير المؤمنين — أدام الله عزه — فى إخراج توقيعهِ بتزيين حالى فى العامَّة والخاصَّة بما يراه فيه صوابا إن شاء الله ».

فخرج التوقيع:

« الحسنُ بن سَهل زمامٌ على ما جَمَعَ أمورَ الخاصَّة، وكَنَفَ[3] أسبابَ العامَّة، وأحاط بالنفقات، ونفَذَ بالوُلاة، وإليه الخَرَاجُ والبَريد واختيار القضاة، جزاء بمعرفته بالحال التى قرَّبَتْهُ منا، وإثابةً لشكره إيانا على ما أولينا ».

(زهر الآداب ٢ : ٣٠)

---

(١) وقمه : قهره وأذله.
(٢) محنه كمنعه : اختبره، والاسم المحنة بالكسر والجمع محن.
(٣) كنفه كنصره : صانه وحفظه وحاطه.

٢٢٦ — كتاب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضى

وكتب الحسن بن سَهْل إلى محمد[١] بن سماعة القاضى :

« أما بعدُ : فإنى احتجتُ لبعض أمورى إلى رجل جامعٍ لخصال الخير ، ذى عِفّةٍ وَنزاهةِ طُعْمةٍ[٢] ، قد هذّبته الآداب ، وأحكمته التجاربُ ، ليس بِظَنين[٣] فى رأيه ، ولا بمطعونٍ فى حَسَبِهِ ، إن اؤتُمِن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مُهِمًّا من الأمور أجْزَأَ فيه[٤] ، له سِنٌّ مع أدبٍ ولسانٍ ، تُقْعِده الرَّزانةُ ، ويسكِّنُه الحِلْمُ ، قد فُرَّ عن ذكاء وفِطنة ، وعَضَّ على قارِحِه[٥] من الكمال ، تكفيه اللَّحْظَةُ ، وتُرْشِده السَّكْتة قد أبصر خِدْمة الملوك وأحكمَها ، وقام فى أمورهم فحُمِد فيها ، له أَناةُ الوزراء ، وصَولة الأمراء ، وتواضُعُ العلماء ، وفَهْم الفقهاء ، وجوابُ الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحِرْمان غده ، يكاد يسترقُ قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه ، وحُسْن بيانه ، دَلائلُ الفضل عليه لائحةٌ ، وأماراتُ العلم له شاهدة ، مُضْطلِعا[٦] بما استُنْهِض ، مستقِلا بما حُمِّلَ ، وقد آثرْتُك بطلبه ، وَحَبوْتُك[٧] بارتيادِه ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرِفةً بحسن تأتِّيك[٨] » .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سماعة التميمى ، كان فقيها ، وولى القضاء ببغداد بالجانب الغربى ، وتوفى سنة ٢٣٣ — انظر الفهرست ص ٢٨٩ .

(٢) الطعمة : وجه المكسب . (٣) الظنين : المتهم . (٤) أجزأ : أغنى وكفى .

(٥) فر : أى فتش وجرب . وأصله من فر الدابة : إذا فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وقرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه ، وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذعا (بالتحريك) وذلك إذا كان فى السنة الثانية ، ثم ثنيا (بفتح فكسر مع تشديد الياء) فى السنة الثالثة ، ثم رباعيا (بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء) إذا سقطت رباعيته ونبت مكانها سن ، وذلك إذا استتم الرابعة ، ثم قارحا إذا سقطت السن التى تلى رباعيته ونبت مكانها نابه ، وهو قارحه الذى صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ولا نبات سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل فى السادسة ، والمعنى هنا : تام التجربة .

(٦) اضطلم به . قوى على حمله ، واستقله : حمله ورفعه .

(٧) حباه : أعطاه ، والمعنى هنا : وخصصتك ، والارتياد : الطلب .

(٨) تأتى للأمر : ترفق وأتاه من وجهه .

٢٢٧ — رد ابن سماعة عليه

فكتب إليه :

« إنى عازمٌ أن أرْغَبَ إلى الله جل وعز حَوْلاً كاملا فى ارتياد مِثْلِ هذه الصفة وأفرِّق الرُّسُلَ الثِّقاتِ فى الآفاق لالتماسه ، وأرجو أن يَمُنَّ الله بالإجابة ، فأفوزَ لديك بقضاءحاجتك والسلام » . (الأمالى ١ : ٢٠٣)

٢٢٨ — كتاب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب

وكتب الحسن بن سهل إلى الحسن بن وَهْب[١] وقد اصطَبَح[٢] فى يوم دَجْنٍ لم يُمْطِر :

« أمَا تَرَى تكافُؤَ هذا الطمع واليأس فى يومنا هذا بِقُرْب المطر وبُعْده كأنه قول كُثَيِّر[٣] :

وإنى وتَهْيامى بعَزَّةَ بعدماَ ... تخَلَّيتُ مما بيننا وتخلَّتِ[٤]

لَكَالْمُرْتَجِى ظِلَّ الغَمامةِ ، كلما ... تبوَّأ منها لِلمَقيل اضمَحلَّتِ[٥]

---

(١) هو الحسن بن وهب بن سعيد . كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات (وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، وسيأتى) وقد ولى ديوان الرسائل ، وكان شاعرا بليغا مترسلا فصيحا ، وأحد ظرفاء الكتاب ، وكان هو وأخوه سليمان بن وهب (الذى وزر للمهتدى بالله ، والمعتمد على الله ، وتوفى سنة ٢٧٢) من أعيان عصرهم وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك ، وتحول ولده وهب بن سعيد إلى جعفر بن يحيى ، ثم صار بعده فى حملة ذى الرياستين الفضل بن سهل ، وآل وهب من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا ، وخدموا فى الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت ، وكانوا من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم » انظر الفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢١٦ (فى ترجمة سليمان بن وهب) و فخرى ص ٢٢٣ وص ٢٢٦ .

(٢) اصطبح : شرب الصبوح ، والصبوح بالفتح : شرب الغداة (أول النهار) — والغبوق بالفتح أيضا : شرب العشى — والدجن إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء .

(٣) هو كثير بن عبد الرحمن ، شاعر أموى مشهور ، والبيتان من تائيته المعروفة التى مطلعها :

خليلى هــذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم انظرا حيث حلت

(٤) الهيام بالضم : كالجنون ، من العشق ، والتهيام : بناء موضوع للتكثير .

(٥) قال يقيل مقيلا : نام فى القائلة (نصف النهار) .

وما أصبحَتْ أُمْنِيَّتِى إلا فى لقائك ، فليت حِجابَ النأى هُتِك بينى وبينك ، ورُقعتى هذه وقد دارت زجاجاتٌ أوقعَتْ بعقلى ولم تتحيَّفه[١] ، وَبعثَتْ نشاط حركتى للكِتاب[٢] ، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارٍّ خَبرِك ، إذ حُرِمْتُ السرُورَ بمطر هذا اليوم موفَّقا إن شاء الله » .   (زهر الآداب ٢ : ٥٨)

٢٢٩ — رد الحسن بن وهب عليه

فكتب الحسن بن وهب :

« وصل كتابُ الأمير — أيَّده الله — وَفِى طاعِمٌ ، وَيدى عامِلة ، ولذلك تأخَّر الجواب قليلا ، وقد رأيتُ تكافُؤَ إحسانِ هذا اليوم وَإساءتِه ، وما استوجَبَ ذنبا استحقَّ به ذما ، لأنه إذا أشمَسَ حَكَى حُسْنَك وضِياءك ، وإن أمطر حَكَى جُودَك وسخاءك ، وَإن غامَ أشبَه ظِلّك وفِناءك ، وسؤالُ الأمير عنى نعمةٌ من نعم الله عز وَجل علىَّ ، أُعَفِّى[٣] بها آثارَ الزمَان السيِّئ عندى ، وأنا كما يُحِبّ الأمير ، صَرَف الله الحوادِثَ عنه وعن حظِّى منه » .

(زهر الآداب ٢ : ٥٩)

٢٣٠ — كتاب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل

وكتب المطلب بن عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل فى رجل توسَّلَ به :

« طلبُ العافينَ[٤] الوسائلَ إلى الأمير — أعزَّه الله — يُنْبِئُ عن شُرُوع[٥] مواردِ إحسانه ، ويدعو إلى معْرفة فضله ، وما أنْصَفَه — أعزَّه الله تعالى — مَن

---

(١) تحيفه : تنقصه من حيفه أى نواحيه . والحيف كعنب ، جمع حيفة بالكسر ، وهى الناحية .
(٢) مصدر كتب كالكتابة .
(٣) أى أزيل وأمحو .   (٤) العافى : كل طالب فضل أو رزق .
(٥) شرعت الدواب فى الماء كمنع شرعا وشروعا : دخلت .

توسَّلَ إلى معروفه بغَيْره ، ورَأْيُ الأميرِ فى التطوُّل[1] على مَن قَصُرَتْ معرِفتُه عن ذلك مايريد الله تعالى فيه مُوفقًا »

٢٣١ — رد الحسن بن سهل عليه

فكتب إليه الحسن :

« وصَلَكَ اللهُ فيما وصلْتَنى فى صاحبك من الأجْر والشكر ، وأراكَ الإحسانَ فى قَصْدِكَ إلىَّ بامتثاله برضاً يُفيدك شُكْرُه ، ويُعقبُك أجْره ، ورأيُكَ فى إتمام ما ابتدأت به ، وإعلامى ذلك مشكورًا » . (زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

٢٣٢ — ومن فصول الحسن بن سهل

فصل له :

« فلان قد استغنى باصطناعِك إيَّاه عن تحريكى إياكَ فى أمره ، فإن الصنيعة حُرْمةٌ المصنوع إليه ، ووسيلة إلى مُصْطَنِعه ، فبَسطَ اللهُ يدَكَ بالخيرات ، وجَعَلَكَ من أهلها ، ووصَلَ بك أسبابَها » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

* * *

وفصل له :

« موصِّل كتابى إليك أنا ، فكن له أنا ، وتأمَّلْه بعين مشاهدتى وخُلَّتى[2] ، فبلسانِه أشكرُ ما أتيتَ إليه ، وأذُمُّ ما قصَّرتَ فيه » .

* * *

وكتب يصف عقل المأمون :

« وقد أصبح أمير المؤمنين محمودَ السِّيرة ، عفيفَ الطُّعْمَة[3] ، كريم الشِّيمة ،

---

(١) التطول : التفضل . (٢) الخلة : الصداقة المختصة لاخلل فيها .
(٣) الطعمة : وجه المكسب ، والمأكل .

مُبارَكَ الضَّرِيبة[١] ،محمود النَّقيبة[٢] ، مُوفيًا بما أخذ اللهُ عليه ، مطَّلِعاً[٣] بما حَمَّلَه منه ، مؤدِّيًا إلى الله حقَّه ، مُقِرًّا له بنعمته ، شاكرًا لآلائه[٤] ، لا يأمر إلا عَدْلا ، ولا ينطق إلا فَضْلا ، عِبْئًا لدينه وأمانته ، كافًّا ليده ولسانه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٣٣ - كتاب الفضل بن الربيع إلى المأمون

وروى صاحب زهر الآداب قال :

ولما أمر المأمون أن يُحجَب عنه الفضلُ بن الربيع لسببٍ تألم قلبه منه كتب إليه :

« يا أمير المؤمنين ، لم يُنْسِنِي التقريبُ حالِي أيامَ التبعيد ، ولا أغْفَلَتْني المؤانسةُ عن شكر الابتداء ، فعلَى أيِّ الحالين أُبْعَدُ من أمير المؤمنين ، ويَلْحَقني ذمُّ التقصير في واجب خدمته ؟ وأميرُ المؤمنين أعدَلُ شُهودى على الصدق فيما وصفتُ ، فإنْ رَأى أمير المؤمنين أن لا يكتُمَ شهادتى فَعَلَ إن شاء الله » . (زهر الآداب ١ : ٣٤٣)

٢٣٤ - كتاب أحمد بن يوسف إلى المأمون

وكتب أحمد بن يوسف إلى المأمون حين كثُر الطُّلاب للصِّلات ببابه :

« إنَّ داعِيَ نَدَاكَ ، ومُنادِيَ جَدَاكَ[٥] ، جَمَعَا ببابك الوُفودَ ، يرجُون نائلَكَ العَتيدَ[٦] . فمنهم مَن يمُتُّ[٧] بحُرْمة ، ومنهم من يُدْلِي بسالفِ خِدْمة ، وقد أُجْحِفَ

---

(١) الضريبة : الطبيعة .
(٢) النقيبة : النفس ؛ والظاهر أنه « ميمون النقيبة » لتقدم كلمة محمود .
(٣) يقال : هو بهذا الأمر مضطلع ومطلع ، فالاضطلاع من الضلاعة وهى القوة ، والاطلاع من العلو من قولهم : اطلعت الثنية ، أى علوتها ، أى هو عال لذلك الأمر مالك له .
(٤) الآلاء : النعم .
(٥) وفى رواية نهاية الأرب « جدواك » . والجدا والجدو : العطية .
(٦) النائل : العطاء . والعتيد : الحاضر المهيأ ، وفى رواية معجم الأدباء « المعهود » .
(٧) يمت : يتوسل ، وأدلى برحمه : مت بها وأدلى بحجته : احتج بها .

بهم المُقامُ ، وطالت عليهم الأيامُ ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشهُم بسَيْبه[١] ، ويحقّق[٢] حسن ظنهم بطَوْله ، فعَلَ ، إن شاء الله تعالى » .

فوقع المأمون فى كتابه :

الخير مُتَّبَعٌ ، وأبوابُ الملوك مَغانٍ[٣] لطالِبى الحاجات ، ومواطِنُ لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُط الطيرُ حيثُ يلتقِطُ الحَبَّـ ... ـبَ وتُغْشَى منازِلُ الكُرماء

فا كتب أسماء من ببابنا منهم ، وَاحْكِ مراتبهم ليصيرَ إلى كل امرئٍ منهم قَدْرُ استحقاقِه ، ولا تُكدِّرنْ معروفنا عندهم بطول الحِجاب ، وتأخير الثَّواب[٤] ، فقد قال الشاعر :

فإنك لَن تَرَى طَرْدًا لِحُرٍّ ... كإلْصاقٍ به طَرَفَ الهوانِ

ولم تَجْلِبْ مودةَ ذى وفاءٍ ... بمِثْلِ الودِّ أو بَذْلِ اللسان

(زهر الآداب ٢ : ٣٩ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٦٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٢٣٥ — كتابه إلى المأمون

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يومِ نَوْرُوز[٥] طَبَقَ جَزْعٍ[٦] ، عليه مِيلٌ من ذهب ، فيه اسمه منقوشا ، وكتب إليه :

---

(١) السيب : العطاء ، ونعشه كمنعه وأنعشه ونعشه : جبره بعد فقر .

(٢) وفى نهاية الأرب « ويحتوش » واحتوش القوم فلانا . جعلوه وسطهم . والمعنى : ويحرز حسن ظنهم . والطول : الفضل .

(٣) المغانى : جمع مغنى كمرمى ، وهو المنزل ، وفى نهاية الأرب « وأبواب الملوك مواطن لذوى الحاجات » وفى زهر الآداب « وأموال الملوك مظان لطلاب الحاجات » .

(٤) وفى زهر الآداب ونهاية الأرب « بالمطل والحجاب » .

(٥) النيروز والنوروز . أول يوم من السنة ، فارسى معرب ، وهو عند القبط أول توت .

(٦) الجزع بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى فيه سواد وبياض ، تشبه به الأعين . والميل بالكسر (والململ كمصفور) : المكحال الذى تكحل به العين — ويقال أيضا للحديدة التى يكتب بها فى ألواح الدفتر ململ .

« هذا يومٌ جرَتْ فيه العادةُ ، بإلطَافِ[1] العبيدِ السَّادَةَ ، وقَدْ بعثتُ إلى أمير المؤمنين طَبَقَ جَزْعٍ فيه مِيلٌ » .

فلما قرأ المأمون الرُّقعة قال : جاءت هدية أحمد بن يوسف ؟ قالوا : نعم ، قال : هِى فى دارى ، أم دارى فيها ؟ فلما رفع المِنديل استظرف الهديةَ ، واسترجَحَ مُهدِيها .

(زهر الآداب ٢ : ٤٠)

* * *

وفى رواية أخرى :

وأهدى أحمد بن يوسف إلى المأمون فى يوم نوروز سَفَطَ ذهب فيه قطعةُ عُودٍ هندى فى طُوله وعَرْضه[2] ، وكتب معهُ :

« هذا يوم جرَتْ فيه العادةُ ، بإتحاف العبيد السادةَ ، وقد قلتُ :

على العبدِ حقٌّ فهوَ لا شكَّ فاعِلُهْ ... وَإنْ عَظُم المولَى وجَلَّتْ فواضِلُهْ[3]

ألم ترَنا نُهْدِى إلى اللهِ مَالَهُ ... وإن كان عنه ذا غِنًى فهو قابِلُهْ

فلو كان يُهْدَى للجليل بقَدْرِه ... لقصَّرَ عنهُ البحرُ يوما وساحِلُهْ

ولكننا نُهْدِى إلى مَنْ نُجِلُّه ... وإن لم يكن فى وُسْعِنا ما يشا كِلُهْ

(صبح الأعشى ٢ : ٤٢٠ ، ومعجم الأدباء ٥ : ١٧٢ ، والفخرى ص ٢٠٦ ، والأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٢)

* * *

وفى رواية أخرى للصولى :

وأهدى أحمد بن يوسف هدية إلى المأمون فى عيد وكتب إليه :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديتُ لأمير المؤمنين قليلًا من كثيره عندى ، وقلتُ :

---

(١) ألطفه : أتحفه ، واللطفة بالتحريك . الهدية .

(٢) وفى الفخرى والأوراق . « هدية قيمتها ألف ألف درهم » .

(٣) وفى الفخرى « فهو لابد » والفواضل : الأيادى الجسيمة أو الجميلة .

أهدَى إلى سيِّده العبدُ ما ناله الإمكانُ وَالجَهْدُ[1]
وإنما أهدَى له مالَه يَبْدَأ هذا ، ولِذَا رَدُّ

فقال المأمون : عاقل أهدَى حَسَنا . (الأوراق لأبى بكر الصولى ١ : ٢١٦)

٢٣٦ — كتابه إلى إبراهيم بن المهدى

وأهدى أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى مِلْحا مُطيَّبا وكتب إليه :

« الثقةُ بك قد سهلَت السبيلَ إليك ، فأهديتُ هدية مَن لايحتشمُ ، إلى من لايغتَنِمُ » . (زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، والعقد الفريد ٣ : ٣٠٨)

* * *

وقال ابن طيفور :

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى فى هدية استقلَّها :

« بلغنى استقلالُك لما ألطفتُك ، والذى نحن عليه من الأُنْس سَهَّل علينا قلةَ الحْشْدِ لك فى البرّ ، فأهدينا هديةَ مَن لايحتشم إلى مَن لا يغتنِم » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٢٣٧ — كتاب له عن المأمون

وقال أحمد بن يوسف :

أمرنى المأمون أن أكتب إلى النواحِى فى الاستكثار من القناديل فى المساجد فى شهر رمضان ، فأعيا علىَّ ولم أجد مثالا أحتذِى عليه ، فبتُّ مغموما[2] ، فأتانى آتٍ فى منامى فقال : اكتب :

---

(١) الجهد بالفتح ويضم : الطاقة .

(٢) فى الأوراق « فبت لا أدرى كيف أفتتح الكلام ولا كيف أحتذيه » وفى الصناعتين « فبت لا أدرى كيف أحتذى » .

« فإن فى ذلك عمارةً للمساجد ، وإضاءةً للمتهجِّدين[١] وأُنسا للسَّابِلة[٢] ، ونفياً لِمَكامِنِ[٣] الرِّيب ، وتنزيها لبيوت الله جل وعز عن وَحْشَة الظُّلَم » :

فانتبهت وقد انفتح لى ما أريد فابتدأت بهذا وأتممت عليه[٤] .

(كتاب بغداد ٦ : ٢٣٧ ، وزهر الآداب ٢ : ٤٠ ، وكتاب الصناعتين ٢٢ ، والأوراق للصولى ١ : ٢٣١)

٢٣٨ — كتابه إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له

وكتب أحمد بن يوسف إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود له :

« بَارَكَ الله فى مولودك الذى أتاك ، وهَنَأَك نِعْمَتَه بعطيَّته ، ومَلَّاك[٥] كرامَتَه بفائدته ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مَيْموناً مباركاً زَكِيًّا ، مَمْدُوداً له فى البقاء ، مُبَلَّغاً غايةَ الأمل ، مشدودًا به عضُدُك ، مُكَثَّرا به ولدُك ، مُداماً به سُرورُك ، مدفوعا به الآفاتُ عنك ، مشفوعا بأكثر العَدَد ، من طيِّب الولد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

٢٣٩ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود أيضاً :

« أمَّا بعدُ فقد بَلغنى مِن مُتَجَدِّدِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ عليْكَ ، وإحسانِه إليك ، فيما رزقك من الهِبَة ، ما اشتد جَذَلِى[٦] به ، وسألتُ اللهَ أن يَشْفَعه بأمثاله ، ولذلك أقول :

---

(١) المتهجد : المصلى بالليل .
(٢) السابلة : الجماعة المختلفة فى الطرقات فى حوائجهم .
(٣) وفى كتاب بغداد « لمظان » .
(٤) وفى زهر الآداب « فأخبرت بذلك المأمون فاستظرفه وأمر أن تمضى الكتب عليه » .
(٥) ملاه الله حبيبه : متعه به وأعاشه معه طويلا .
(٦) الجذل : الفرح والسرور .

قد شُـــفِع الواحدُ بالوافِدِ وأُرْغِمَ الأَنفُ من الحاسِدِ
أبا حُســينٍ : قَرَّ عَيْناً بمـا أُعْطِيتَه من هِبَـة المـاجِدِ(١)
وأَكْثِرِ الشكرَ [جَزيلاً] فقد نِلْتَ حِباَ الرِّفدِ من الرافِدِ(٢)
قد قلتُ لَمَّـا بشَّرونى به بُورِكَ فى المولود للوالِد
إنّا لَنَزْجو وافِدًا مثـلَه والطائرُ الميمونُ للوافِدِ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٤٠ — كتاب آخر

وكتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

« أما بعد ، فإنه ليس من أمرٍ يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنتُ به بَهِجًا ، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجَبَ علىَّ من حقك ، وعرَّفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك .

وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سَرِيا(٣) ، أجمَلَ لك صورته ، وأتمَّ خَلْقه ، وأحسن البَلاءِ(٤) فيه عندك ، فاشتَدَّ سرورى بذلك ، وأكثرتُ حَمْدَ الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بَارًّا تقيًّا ، يشد عَضُدَك ، ويُكَثِرُ عددك ، ويقِرُّ عينك » .

(اختيار المنظور والمنثور ١٣ : ٣٠٤)

٢٤١ — كتاب آخر

« هَنأَكَ اللهُ هذه الفائدةَ التى أفادَكَها ، وبارك الله فى الهبة التى رَزَقَكَها ، وشَفَعها بإخوة متواترين ، يَسُرُّونك فى حياتك ، ويخلُفونك فى عَقبك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) قرت عينه : رأت ما كانت متشوقة إليه .

(٢) حبا : مقصور حباء ، والحباء : العطاء بلامن (أو عام) والرفد : العطاء ، وما بين القوسين مفقود فى الأصل ، وقد زدته ليستقيم وزن البيت .

(٣) أى سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .

(٤) أى النعمة .

٢٤٢ — كتابه فى تهنئة بإفراق من مرض

وكتب فى تهنئة بإفراق[١] من مرض .

« قد أذهب الله وَصَب[٢] العِلّة ونَصَبها ، ووَفّر أجْرَها وثوابَها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعُقباها ، أضعافَ ما كان عنده من السرور بفَتْح أُولاها » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٨)

٢٤٣ — كتاب له

وكتب :

« قد بذلْتَ لنَا مِنْ نَفْسِكَ أعزَّ مبذولٍ وأنفَسَه ، والمودةَ التى كل ما يُحْمَد من صاحبها فهو لها نافع ، وثِقتُنا بك واستنامَتُنا[٣] إلى ناحيتك على أحسن ما أكّد الله بيننا وبينك ، وإن كان مَدَى اللقاء بيننا لم يطُلْ ، فأثْلُ مِنْهُ[٤] مايَرْعاه أهلُ الوفاء والمخالصة ، وَيُقَصِّر فى المحافظة عليه وعلى أكثر منه مَنْ دُخلَتْ نيَّتُه، وَضَعُفَتْ خُلَّته[٥] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٠)

٢٤٤ — كتابه إلى بعض أخلائه

وكتب إلى بعض الأخِلاء وقد اعتلّ :

« ورد كتابُ صاحبى علىّ ، بذِكْر شكوَى قِبَلَك ، فكرِهْتُ إلىّ الاستبداد عليك بالصِّحة ، وقبّح عندى تركَ مشاركتِك فى العِلَّة ، ولم يكن لى حَوْلٌ بتغيير ماقدَّر الله فى جسمى، ولا بنقْل ماألمّ بجسمك إلىّ ، فاستقلّ[٦] بألمِ قلبى، وأسكنْتُه همّى وكآبتى،

---

(١) أفرق من مرضه : برىء . (٢) الوصب : الوجع .

(٣) استنام إليه : اطمأن وسكن .

(٤) أثله : أصله . (٥) الخلة : الصداقة .

(٦) فى الأصل « فاستأثل » وقد أصلحته « فاستقل » أى استبد واستأثر .

لأكون كأُسْوة المنقطعين إليك ، المنتظمين فى خيطك ، وجعلت ذلك شِعاره فى علتك ، حتى يأتينى المرجوُّ مِنْ سَلامتِك ، وأخَّرتُ الكِتَاب بالْعِيَادَة ، وَإرسَالَ مَنْ يقُومَ مَقَامِي فِيهَا لديك ، لأنى إذا استقصيت فى الكتاب وَصْفَ مايُدَاخِلنى طال فعَقَقْتُ به من قصدتُ بِرَّه ، والرسُول فلا يحملُ ما يتضمنه صدرى ، فيَنثِل[1] كُنْهَ ماعندى ، ولا يلقاك بسَحْنةِ[2] مُرْسِله ، التى تترجم عن نيته ، فإنى لكذلك أُمَيِّلُ[3] بين التقرير فى إتيانك قبل استئذانك ، أو تقدمةِ استطلاع رأيك ، إذ جاءنى البشير بإفراقك[4] وإقبالِ العافية إليك ، وظهور تباشيرها عليك ، فانحَسَرَ[5] كل هم ، وزال كل غمّ ، ورحُب[6] من الأرض ما كان متضايقا علىّ ، واستقبلتُ أملا سرَّتْنى جِدَّته ، وسُرِّى[7] عنى ما كنتُ أجده ، فالحمد لله الذى أشجَى[8] عدوّك ، ولم يصدِّق طمعَه ، وأزال غُصَّة وَليِّك ، ولم يحقِّق حَذَرَه ، وأنا أسأل الله الذى وهب لنا إقالته[9] ، وساقَ إليك عافيتَه ، أن يَهَبَ لك عمراً زائدًا على أمنيتَّك ، متجاوِزًا حدَّ إحسانك ، مُوفِيا[10] على مَبلَغ ظنك ، ويصل العز لك فى أَمَدِه ، بكريم المنقلبِ من بعده ، ويجعل حُسن بلائه عندك ، كمَدًا فى صدر حاسدك ، وجمالا فى عين مؤمِّلك ، وسرورا للمتصلين بك إن شاء الله » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٤٥ — كتاب له

وكتب :

« من قَصُر فى الشغل عمرُه ، قلَّ فى العُطْلة[11] صبرُه ، وما من وِجْهةٍ أُؤمِّل فيها

---

(١) من نثل الكنانة كضرب : إذا استخرج نبلها فنثرها . والمعنى فيبلغ ويؤدى وربما كان الأصل « فينقل » . (٢) السحنة : الهيئة .

(٣) ميل بين أمرين : تردد بينهما أيهما يأتى ، وفى الأصل « أمثل وهو تصحيف .

(٤) أفرق من مرضه : برىء . (٥) أى انكشف .

(٦) رحب : اتسع . (٧) أى ذهب وانكشف .

(٨) أى أحزن .

(٩) أقال الله عثرته : إذا رفعه من سقوطه ، والمعنى هنا : وهب لنا شفاءه من علته .

(١٠) أى زائدا . (١١) تعطل الرجل : بقى لا عمل له ، والاسم العطلة .

سَدَّ اختلالى ، إلا دَهَمتنى فيها خَيبةٌ تَكسِفُ بالى ، وأنت مَن لا يتخطاه الأملُ فى أوان عُطْلته ، ولا يجاوز رجاءه الحِرمانُ فى حين ولايته ، وليس لذمٍّ عليك طريق ، ولا إلى مدحك سبيل ، لأنى إذا قلتُ فيك مالا تُعرَفُ به ، عُورِضْتُ بالتكذيب ، وإن أتيتُ بما لَمْ تُولِنِى ، طالبَتْ حالى بالتحقيق ، فلا يَرَى الناس فيها أَثَرَ تصديق ، وقد صفِرَتْ يدى من فائدتك ، بعد أن كنتُ ملأتُها من عائدتك[1] ، فإن رأيت أن تُجيرَنى من الحَدَثان[2] ، وتُقيلَنى من قَيْد الزمان ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٥)

٢٤٦ — ومن كلامه

« لك جَدٌّ[3] تُنْجِده همّتك ، وإنعامٌ تَفُوه به نِعمتُك ، فهى تَحسِرُ[4] الناظِرَ إليها ، وتُحيِّرُ الواقفَ عليها ، حتى كأنها تناجيه بحُسْن العُقبَى ، وتوحِى إليه ببُعْدِ المَدَى ، ولله دَرُّ نابغةِ بنى ذُبْيان فى قوله :

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإلٰه ، ودينُهم ... قويمٌ ، فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ[5]

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

---

(١) العائدة : المعروف والصلة .

(٢) حدثان الدهر بالتحريك : حوادثه ونوبه .

(٣) الجد : الحظ والحظوة والعظمة . (٤) أى تقطع بصره وتكله .

(٥) هذا البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى يمدح عمرو بن الحارث الأصغر الغسانى ، ومطلعها :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وجاء فى لسان العرب : « والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، كذلك روى بيت النابغة بالجيم « مجلتهم ذات الإله . . . » يريد الصحيفة ، لأنهم كانوا نصارى ، فعنى الإنجيل ، ومن روى « محلتهم » أراد الأرض المقدسة وناحية الشأم والبيت المقدس ، وهناك كان بنو جفنة ، وقال الجوهرى : معناه أنهم يحجون فيحلون مواضع مقدسة » .

٢٤٧ – ومن كلامه

« من اتَّسَعَ فى الإفضال ، اتَّسعَتْ به الأقوالُ ، مِن شاكرٍ مُثْنٍ ، ومادحٍ مُطْرٍ ، ولسنا نَصِفك بما يَعِنُّ لنا ، ويَذِلُّ على ألسُنِنا ، مما يتقرّب به ذو الرغبة ، ويَضْرَعُ إليه ذو الرَّهبة ، لاستنزالِ مرغوب ، أو استنجاز مطلوب ، ولـكننا ننطق عن سِيرتك بإفصاح ، ونُبِين عنها بإيضاح ، فنـكُفَّ شغَبَ الـكائد ، ونُطِيل نَفَسَ الحاسد » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤٨ – ومن كلامه

« كَفَى عارًا على راغب أن يَعْدِل برغبته عن الأمير ، إذ كانت عائدته تُشير إليها ، وتقِفُ راجيةً إليها ، فالقصدُ بها حيثُ يُومِى لها ، من مَنْبِتٍ رافع ، ومَسْرَح واسعٍ ، أولَى بِراجِى نجاحِها ، وتصديقِ الأمل فيها ، من إيقافها على حَيْرَة ، وإقحامِها فى شُبهة لم يضِحْ نَهجِ السبيل إليها ، ولا نُصِبَتْ أعلامُ جُودٍ عليها ، فأقلُّ ما فى الأمير من كرم الخِلالِ ، يُرْبى[1] على كثيرٍ من فنون المقال ، فجَهْدُ المادح له أن يبلغَ أدنى فضلِه ، كما أن غاية الشاكر[2] أن يَجْزِىَ أيسرَ نعمِه ، فأطال الله مدته ، وأدام له دولته ، وتمّم عليه نعمته » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٤٩ – كتاب له فى الاعتذار

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاَّء :

« لى ذنوبٌ إن عددْتُها جلَّتْ ، وإن ضممْتُها إلى فضلك حسُنَتْ ، وقد راجعتُ إنابتى ، وسلكتُ طريق استقامتى ، وعلمتُ أن توبتى فى حُجّتى وإقرارى أبلغُ فى معذرتى ، فهذا مقامُ التائب من جُرْمه ، المتضمِّن حسنَ الفَيْئة[3] على نفسه ، فقد كان

---

(١) أى يزيد . (٢) فى الأصل « الشكر » . (٣) الفيئة : الرجوع .

عقابك بالحلم عنى ، أبلغ مِن أمرِكَ بالانتصاف منى ، فإن رأيتَ أن تهَبَ لى ما استحققته من العقوبة ، لِمَا ترجوه من المَثُوبة ، فعلتَ إن شاء الله » .

(الأوراق للصولى ١ : ٢٣٣)

٢٥٠ — ومن كلامه

« قد كان كتابى نفَذَ إليك بما كان غيرُه أولَى بى ، وألزَمَ لى فى حقِّ الحرية والكرم ، اللّذَيْنِ جُعِلا لك إرْثا ، والشرفِ والفضلِ اللذين قُسِما لك حَظّا ، ولكننى دُفِعتُ من اتصال الزَّلَل ، والإخلال بالعمل ، إلى ما اضطرَّنى إلى محادثتك ، ودعانى إلى مخالفتك ، لأُجَلِّيَ عنى هَبْوَة[1] الأُتّهام ، وأَصرفَ عنك عارِضَ المَلَام ، وقد جرَى لك المقدارُ بالسُّؤْدُد الذى خصَّك الله بمزيته ، وأفردَك بفضيلته ، فليس يحاول أحدٌ استقصاءً عليك ، إلا عرَض دونه حاجزٌ من واجبك ، يضطرُّه إلى ذِلَّة التنصُّل إليك، ويحور ذلك عن التعمُّد » . (الأوراق للصولى ١ : ٢٣٤)

٢٥١ — كتابه إلى بنى سعيد بن مسلم

وكتب إلى بنى سعيد بن مسلم :

« لولا أن الله عز وَجل خَتَمَ نبوَّته بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكُتُبَه بالقرآن ، لَبعث لكم نبيَّ نِقْمة ، وأنزل فيكم قرآن غَدْر ، وما عَسَيْتُ أن أقول فى قوم : محاسِنُهم مَساوِى السِّفْلة ، ومَسَاويهم فضائحُ الأمم ، وألسنتهم معقولةٌ بالعِيِّ ، وأيديهم معقودةٌ بالبخل ، وأعراضُهم أغراض للذمّ ، وهم كما قال الشاعر :

لا يكثُرون وإن طالت حياتُهُمُ ولا تَبيدُ مخازيهم وإن بادوا

(زهر الآداب ٢ : ٤٠ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

---

(١) الهبوة : الغبرة .

٢٥٢ — كتاب له

وروى الصُّولى قال : ومن كلامه :

« لقد أحلَّك الله من الشرف أعلَى ذِرْوته، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إلَيْكَ مصرُوفةٌ ، والأعناقُ إليك معطوفةٌ ، عندك تنتهى الهِمَمُ السامية ، وعليك تقِفُ الظنونُ الحسَنة ، وبك تُثْنَى الخناصِرُ[1] ،وَتُسْتَفْتَح أغْلاقُ[2] المَطالِب،ولا يَستَرِيث[3] النُّجْحَ مَن رجاك ، ولا تَعرُوه النوائبُ فى ذَرَاك[4] » .

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ٢٣٢)

* * *

وفى رواية أخرى للصولى أيضاً قال :

قالوا للقاسم بن يوسف ـ أخِى أحمد بن يوسف ـ أقبلتَ على الشعر وتركت البلاغة، فقال : امتحنونى ، فقيل له : فا كتب إلى محمد بن منصور فى الرضا عن هذا الرجل ، فقد كان فى ناحيته ثم عَتَب عليه ، فكتب إليه :

« قد أحلَّك الله من الشرف فى أعلى ذِرْوَته ، وبلَّغك من الفضل أبعدَ غايته ، فالآمالُ إليك عائلة[5] ،والأعناق نحوَكَ مائلة ، وإليك تنتهى الهمم السامية ، وعليك تقِفُ الظنون الراجية ، لا يستريثُ نُجْحا مَن رَجَاك ، ولا تعرُوه النوائبُ فى ذَرَاك .

وفلان ممن قدُمَتْ بك حُرْمَتُه ، وطالت لك خِدمته ، ووجَبتْ لك حقوقٌ عليه ، وهِى أوكدُ وسيلة ، وأقصَدُ ذريعة ، وقد فَرَطَ[6] جُرْمٌ ما تعمَّدَه ، وخطأٌ جرَى القضاء به ، وفى عَتْبك ما قوَّمه ، وفى عفوك ما تلافَى زَلَّتَه ، إن شاء الله » .

(كتاب الأوراق للصولى ١: ١٩٧)

---

(١) كناية عن أنه المعول عليه فى قضاء الحاجات والمآرب ، كما يقال : هو مطمح أنظار الآملين ومعقد رجائهم ومحط آمالهم .

(٢) الأغلاق : جمع غلق بالتحريك ، وهو القفل . (٣) استراثه : استبطأه .

(٤) أى فى ظلك وكنفك .

(٥) أى عائلة . يقال : عالت الفريضة فى الحساب : أى زادت وارتفعت ، والمعنى: قد اتجهت إليك الآمال وتكاثرت حتى جازت الحد . (٦) أى سبق .

٢٥٣ — كتاب لأحمد بن يوسف فى العدل والإنصاف

« لو لم يكن العدلُ من شيمتك ، والإنصافُ من خليقتك ، لكان يجب عليك فى قَدرِ نعمةِ الله عندك ، وما رَفَعَ إليه من الفضل غايتك ، أن تتَّخذهما عَتادا[1] ليومك ، وذُخراً لِغَدِك ، فكيف وقد جعلهما الله شعاراً باطِناً ، ولِباساً ظاهراً ؟ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٩)

٢٥٤ — كتابه فى إنصاف قوم تظلموا

« أما بعد ، فإن الله جَلَّ ثناؤه جَعَلَ عِزَّ السلطان فى أرضه مَعاذا يلجأ إليه مَن اضْطُهِد بقوة ، أو عُدِىَ عليه بمظلَمَة ، وحجابا بين الساعين بالفساد وبين ما يتشوَّفون إليه ، ويتنازعون نحوه ، من ركوب الكبائر ، وانتهاك المَحَارم[2] ، ومَوْئلا لمن استُرِقُّوا[3] من أهل الضعف ، بالعُدْوان والعَسْف ، والولاةُ مسئولون عما خُوِّلوا ، مُرْتَهَنون بما حُمِّلوا ، حتى يكفَّهم عدلٌ ، أو يوبِقهم[4] جورٌ ، وقليلُ ما يتقحَّم[5] العُمَّالُ من سوء السِّيرة ، أو يرغبون فيه لأتباعهم من الغَميزة[6] ، أشدُّ للقلوب [إفسادًا][7] ، ولكافَّة الرعية إجحاما[8] ، مما يتساورون[9] به بينهم ، للمحلِّ الذى نُصِبَتْ له الرُّعاةُ من إصراخ[10] الملهوفين ، والأخذِ فوق أيدى المعْتَدين ، وما يسكِّن فائرةَ مَن انتصر بهم ، فلم يدفعوا عن حَوْزته من القُنُوط والإياس .

---

(١) العتاد : العدة . (٢) فى الأصل « المهارم » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل هكذا « ويورل من اشتركوا من أهل الضعف بالعدا والعسف » وهو تحريف ، وقد أصلحته كما ترى . والموئل : الملجأ .

(٤) أوبقه : أهلكه . (٥) اقتحم الأمر العظيم وتقحمه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٦) الغميزة : المطعن أو المطمع . (٧) مابين القوسين بياض بالأصل .

(٨) أجحمه . دنا أن يهلكه .

(٩) أي يتواثبون ، ساوره : واثبه » وكذا ثاوره ، وفى الأصل « يتشاورون »وهو تحريف .

(١٠) أى إغاثة .

(١١) فى الأصل « إفادة » وأراه محرفا عن « فائرة » أى ثائرة ، يقال:فار فائرة : أى ثار ثائرة.

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا وكذا ، فأنكر ذلك إنكارًا لم يردْ عليه مِثلُه، وكان أحقُّ مَن غُلِظ عليه فى التنكيل ، وضوعِفَ له التأديبُ ، مَن كان مِنْ أعوانِ السُّلطانِ ، الذين التمسَ بهم إحياءَ العدلِ وَإماتة الجور ، فانظر نظراً تقضِى به حقَّ الله وحقَّ الناس ، غيرَ متجانِفٍ[1] بِصَغْوٍ إلى أحد ممن مال عن القَصْد ، ثم أنفِذْ بينهم ما ألزَمهم الحكمُ ، غيرَ متجاوزٍ للحقِّ ، ولا معطِّل للحكم ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وقال : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٥٩)

٢٥٥ — كتاب له فى السلامة

« أما بعدُ ، فإن بلاء الله عند أمير المؤمنين ، مع ما يَحُوط له ما استحفظَه واسترعاه وتولاه من حسن الخلافة فيما قرُبَ منه ونَأَى ، وتعقَّبه من الصُّنْع على من شاقَّه[2] وناوأه ، البلاء الذى حَقَّ علينا وعلى عامة رعيته القولُ فيه وإذاعتُه والحديثُ عن النعمة الشاملة والكرامةِ المجلِّلةِ فيه ، واللهَ نسأل كذا .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨و ٣٧٨)

٢٥٦ — وله صدر فى السلامة

« إن من أعظم النظم عند الخاصَّة والعامَّة موقِعاً ، وأوجبِها عليهم شكراً ، سلامةَ أمير المؤمنين التى جعلها الله عمادَ الدين ، وقِواما للمسلمين ، وجعل بها فواتحَ اليُمْن والبَركة ، وفوائد السرور والغِبطة لكافّة المؤمنين » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٨و ٣٧٤ و٣٧٨)

---

(١) تجانف : مال ، من الجنف بالتحريك . وهو الميل ، والجور . والصغو : الميل ، يقال : صغوه بالفتح والكسر وصغاه معك : أى ميله . والقصد : الاستقامة .

(٢) شاقه : خالفه . وناوأه : عاداه أيضا .

٢٥٧ — فصل له فى السلامة

« وقد أفادنى الله بما ورد علىَّ من كتاب أمير المؤمنين سروراً وابتهاجا أيام أظلَّ ماأظلَّ من بركات اقترابه ، وشارَفَ من اليُمْن والسعادة فى رؤيته ، وامتدت بذلك فيمن قبلى ، فكلٌّ سُرَّ واستبشر ، ودعا وتشكَّر » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

٢٥٨ — فصل له فى الشكر

« لم يخطئنى من النعم ماأصابك، ولا عدانى منها مَاحَلَّ بك، ولاخلوتُ من واجب حقها وما نفلَك(١) الله منها إذ قلَّدتها ، اعتداداً منى بما طُوِّقْتَ من المنن ، وإيجابا على نفسى لما حملتُ من الشكر »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٠)

٢٥٩ — فصل له فى الشكر

« ذَكَر أمير المؤمنين كذا ، وَليس ماتقدَّم من رأيه فى الاستنامة(٢) إلىَّ ، والسكونِ إلى قولى ، حالا يَفِى بها الشكرُ ، وَإن خُطِر عليها ، وَأُفْرِد بتأديتها ، فيكون فيه اتساع لِما اتَّصَل بها ، وتظاهَر بعدها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٢)

٢٦٠ — كتاب له فى الشكر

« وقد قدِمَ علىَّ فلانٌ بِمَا حَمَّله أميرُ المؤمنين من كتابه وكرامته، فكفَى صنيعةً من أمير المؤمنين وسعادةً إخلاصُ أمير المؤمنين الدعاءَ له فى كتبه ، وتطلُّعه إلى عِلم خَبَره، وتوجيهُه ذا الثقة والنصيحة مِن خدمه ليصدُر إليه بسلامته ، فوفَّاكَ اللهُ يا أمير المؤمنين

(١) أى أعطاك . (٢) استنام إليه : سكن واطمأن .

جَزاءَ هذه الكرامات الَّتى تُظاهِرُ بينها ، وتَرُبُّ[1] نِعَمَك فيها ، وتَتَبِّـع ماقدَّمتَ بما استأنفتَ منها ، وشكر اللهُ لك ماأصبحتَ مشكورا به من الوفاء على ألسُن البشر ، طيِّبًا عليك النَّشرُ فى جميع الأمم .

وقد كان كذا ، وحَضرنى فى يوم جلوسى لإظهار[2] كرامته مَن قِبَلِى من قواده ، فكان مِن دعائهم لأمير المؤمنين ، وَتحمُّل كل امرئ منهم بقِسْطه من شكره ، ماأسأل الله أن يتقَبَّل رَغَباتِهم إليه ، ويقضىَ عنهم الحقَّ بما عملوا له »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٣)

٢٦١ — كتاب له فى الاعتذار

« أما بعد ، فإن لكل ذنب عفوا أو عقوبة ، وذنوب الخاصَّة عندك مستورة مغفورة ، فأَما مِثلى من العامَّة فذنبهُ لا يُغفَر ، وكسْرُه لا يُجبر ، فعاقِبْنى بإعراضٍ لا يؤدّى إلى مَقْتٍ » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٥)

٢٦٢ — كتاب آخر

« أتيتُك وَافِدًا بذنوبى على عفوك ، واثقًا لعقوقى ببرّك ، لامستظهِرا عليك بشفيعٍ قدَّمْتُه ، خلا تطوُّلك بالعفو عن الإخوان ، وتفضُّلك عليهم بالإحسان ، فإن تعاقِب فقد حكمْتَ بالمعدِلة بعقوبتك على نفسى ، وإن تَجافَ عن ذلك فإن الله يعلم أن قلبى لم يُصِرَّ لك على قطيعة ، وكلُّ ذنب كان أصله الاستبطاء ، لدالَّة الحُرْمة ، والاستعطاف بماتَّةِ الخِدمة ، فهو مما يُعدُّ فى الحسنات لا السيئات » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

---

(١) رب النعمة : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٢) فى الأصل « طهار » وهو تحريف ، وصوابه « لإظهار » .

٢٦٣ – كتاب آخر

« قد ارتهنتُ لك الشكرَ من نفسى ، معرفةً بالتقصير عن حقك ، واعتقدتُ لك الميثاقَ ، على على بحمْد الوفاء فى أمرك ، فأنا وكيلُك على ما أصاحَ الله لك قلبى ، وأمينك فى المناصحة لحجّتك على نفسى ، والله على ذلك شهيد » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٤ – كتاب آخر

« قد يَسَع العُذرُ مَن ضاقت عليه الحُجَّةُ ، وحيثُ قَبُحَت الاستكانةُ فهى هاهنا حَسَنة ، ولعلّ الله أن يَهَبَ لنا نَفَسًا[1] فى المُدّة نتلافى به سالِفَ التفريطِ والإضاعة » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٠)

٢٦٥ – كتاب له فى حاجة

« قد كان لك فلان على ما بلغك فى الفضل وجميل الأخلاق ، وقد حواهم[2] الله لك وصيّرهم فى ظِلِّك وتحت جَناحك ، فإن رأيتَ أن ترْعَى ما تقدَّم لهم عندك من المعروف ، فإن عليك أن ترُبَّه[3] كما عليهم أن يشكروه ، . . . . .[4] مَن انقبضْتُ عنه فى حوائجى ، فإنى أنبسِطُ إليك وآنَسُ بك فيها ، ومن ادّخرتُه ذات نفسى فإنى أُبثُّك إياها لِخلال كثيرةٍ ، خارَ الله لك فضلَها ، وقدّمك على غيرك عندى بها : قبلَ اللقاء على حسن الأُحدوثة ، وبعدَه على محمود الخِبْرة ، والله أشكرُ على السبب الذى وصله بيننا شكرا أستثيبهُ به إتمامَ ما وصَلَ منه ، وإعاذَتَه مِن تخوُّن[5] الحوادث إياه .

(١) النفس : السعة والفسحة فى الأمر .

(٢) تنبه إلى أنه لم يتقدم لهذا الضمير مرجع .

(٣) ربّ المعروف كنصر : نماه وزاده وأتمه وأصلحه .

(٤) بياض بالأصل .

(٥) تخونه : نقصه .

وكان إتيانى إياك — أعزك الله — فى حوائجى ، بعد أن طال بغيرك تشاغُلى . وبعد أن استهلكتْ إضاعتُه الواجبَ فى أمرى ، واتكالُه على لين مطالبتى ، سُلَّما كنتُ أعتمد عليه ، وأتروَّح إليه ، فأتيتُك حين أنفدَ الصبرُ مدتَه ، وبلغ المكروهُ غايتَه ، ولم يبق من السِّتر إلا ما كاد أن يَشِفَّ عما دونه ، أُلْزِمُك عِمارةَ حالٍ أبدى سواها خَلَلَها ، وأُعْجِلُك فى تدارُكِ أمورٍ تَسَلَّف التفريطُ من غيرك مَهَلَها ، فتلقَّيتَ بالقبول وسائلى ، وبالإنجاز حاجتى ، وأعجلْتَنى عن الشكوى بالعلم بالداء ، وتضمُّن الدواء ، ثم لم تجعل جاهَك ، مع كثرته وانبساطه ، مندوحةً[1] عن مالك مع قلة مادته ، وضعفه عما تُحمِّله ، بَذْلا قبل المسألة ، وتطوُّعا بعد الفريضة ، ولا والذى جميلُ رأيِك مِنْ عظيم نعمِه عندى ، ما أصبحَتْ لى هناك عَرجةٌ إلا عليك ، طالت أم قصُرَتْ ، ولا أنتظر بها فُسْحةً إلا مِن قِبَلك ، تقدَّمَت أو تأخرتْ ، ولا أتشبَّثُ فى مقامى إلا بعُلْقة[2] متراخيةٍ عن الوثيقة ، لا فضلَ فيها للأناة والنظر ، ولا تبلُغُ أن تكون بُلغةً ، فرأيُك فى الأمر الذى رغِبْتُ إليك فيه ، وهو حَسنٌ موقِعه ، محتَلٌ إليك موضِعُه ، مستكثَرٌ قليلُه ، مقبولٌ عفوهُ »

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩١)

٢٦٦ — كتاب له فى الشوق

وكتب إلى صديق له يشكو شوقه إليه :

« شوقى إليك شديد، يستوى فى العجز عن صفته الخطيبُ البليغ وَالعَىُّ المُفْحَم[3] ، فدعانى ذلك إلى الخفض على نفسى ، وتقديم جملة من ذكره إذا عارضْتَ بها ما فى قلبك كانت له موافقةً ، بل كانت عليه مُفْضِلةً[4] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٩٦)

---

(١) المندوحة . السعة .

(٢) العلقة : كل ما يتبلغ به من العيش .

(٣) المفحم : العيي . (٤) أفضل عليه : زاد .

٢٦٧ — فصل له فى الإخاء

« وليس ينبغِي لك أن تؤاخِيَ إلا الكريمَ الأُخُوَّة ، الكاملَ المُرُوَّة ، الذى إذا غبْتَ خلَفَك ، وإذا حضرت كَنَفك ، إن لقِيَ صديقك استزاد لك فى مودّته ، وإن لقِيَ عدوك كَفَّ عنك مِن عاديته ، إن رأيته ابتهجتَ ، وإن أتيتهُ استرحتَ » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٨)

٢٦٨ — كتاب له فى العتاب

وكتب أحمد بن يوسف :

لولا حُسْنُ الظن بك ـ أعزَّك الله ـ لكان فى إغضائك عنى ما يَقْبِضُنى عن الطِّلْبة[1] إليك ، ولكن أمسَكَ برَمَقٍ من الرجاء عِلْمى برأيك فى رعاية الحق ، وبسْط يدك إلى الذى لو قبضْتَها عنه لم يكن له إلَّا كرمُك مُذَكِّرًا، وسُودَدُك شافِعاً » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

* * *

وكتب أيضاً :

« لاتجوز قطيعةٌ ، لأنها لاتخلو من أحد وجهين ، إما ضعف فى نفس الاختيار ، وإما مَلَل ، وكلاهما حُجّة فيه » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣)

٢٦٩ — كتاب له فى الذم

وكتب يذم :

« أما بعد ، فإنى لا أعرِف المعروف طريقاً أوعَرَ من طريقه إليك ، فالمعروفُ

(١) الطلبة : الطلب .

لديك ضائع ، والشكرُ عندك مهجور ، وإنما غايتُك فى المعروف أن تحقِره ، وفى وليِّه أن تَكْفُرَه » . (العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٢٧٠ - كتاب له فى الذم

وله فى الذم إلى والٍ :

« أَمَا واللهِ إن كنتَ لَمسيئاً إلى جندك ، مُخطِئاً لحظِّك ، غيرَ نبيل فى عملك ، ولا مُصيب عزَّك عن عمل فى حكمك ، تحيف فى القضاء ، وتتَّبع الهوَى وتقبَل الرِّشا ، لستَ الثابتَ الرزينَ ، ولا الحليمَ الركينَ[1] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٠)

٢٧١ - كتاب إلى أحمد بن يوسف من صديق له

وكتب إلى أحمد بن يوسف صديق له فى يوم دَجْن[2] :

« يَوْمُنا ظريفُ النواحِي ، رقيقُ الحواشى ، قد رَعَدَت سماؤه وبَرَقَت ، وحَنَّت وارجَحَنَّت[3] ، وأنت قُطْب السرور ، ونِظام[4] الأمور ، فلا تُفْرِدْنا منك ، فنقِلَّ ، ولا تنفرِدْ عنا فنَذِلَّ ، فإن المرء بأخيه كثير ، وبمساعدته جدير » .

(معجم الأدباء ٥ : ١٧٠)

٢٧٢ - كتاب القاسم بن يوسف إلى صديق له

وجازى القاسم بن يوسف صديقا له على مكروه أتاه ، فكتب إليه يعذُله فى ذلك ، وكتب القاسم :

---

(١) الركين : الرزين وفعله ككرم .

(٢) الدجن : إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء . (٣) ارجحن السحاب : مال من ثقله .

(٤) النظام . الخيط ينظم به لؤلؤ ونحوه ، وملاك الأمر .

« ظلمتَ - أعزّكَ الله - وما أنصفتَ ، وأسأتَ وما أحسنتَ ، تأبى ذلك اختيارا ، ولا تُتْبِعه اعتذارا ، حتى إذا لُذِعْتَ بلظَى المكافأة[1] ، وسُلِك بك طريقُ المجازاة ، جعلت ذلك لنا ذنبا ، وألزمْتَنا له عَتْبا ، ومن لم يعرِف قبيحَ مايُبْلِى ، لم يعرِف حَسَن مايُولِى ، ولله در القائل :

إذا ماامروٌ لم يحمل الحِقدَ لم يكن ... لديه لِذِى نُعمَى جزاءٌ ولا شكرُ »

(كتاب الأوراق للصولى ١ : ٢٠٦)

٢٧٣ ـ كتاب أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم

قال أحمد بن يوسف :

كتب غلام من ولد أنُو شِرْوانَ ممن كانَ أحدَ غِلْمان الدِّيوان إلى آخَرَ منهم ، وكان قد عَلِقَ به وكان شديد الكَلَف[2] به والمحبة له :

« ليس من قَدْرِى - أدام الله سعادتك - أن أقول لِمِثْلك : جُعِلْتُ فِداك ، لأنى أراك فوق كُلِّ قيمة نَضِيرة ، وَثَمَنٍ مُعْجِز ، ولأن نفسى لاتساوى نفسك ، فتقَبَّلْ فى فِدْيتك على كل حال ، فجعلنى اللهُ فِداءَ ساعةٍ من أيامك .

أُعلم أيها السيد العَلِىُّ المنزلةِ ، أنَّه لو كانَ لعَبْدِك من شدة الخَطْبِ أمرٌ يقف على حَدِّه النعتُ ، لاجْتَهَد أن يصِف من ذلك ماعسى أن يَعْطِفَ به زمام قلبك ، ويَحْنُو على الرِّقة والتحفِّى[3] أثناءَ جَوانحك ، ولكن الذى أمسيتُ وأصبحتُ مُمْتَحَنًا به فيك ، مُنِعَ عن كل بيان ، ونَزَحَ[4] عن كل لسان .

والحبُّ أيها الملك لم يَشُبْهُ قَذًى[5] رِيبةٍ ، ولم يختلط به قلبُ مَعابٍ ، فلا ينبغى

(١) المكافأة : المجازاة .
(٢) كلف به كفرح : أولم .
(٣) حناه يحنوه عطفه ، وتحفى به واحتفى : بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله .
(٤) غاب وبعد .
(٥) القذى : ما يقع فى العين والشراب . والمعاب : العيب .

لمن كَرُمت أخلاقه أن يعافَ(١) مقاربةَ صاحبِه المُدِلِّ بجزْم نيَّته ، والذى أعناه أيها المولى اللطيف مجلسٌ أقِف فيه أمامك ، ثم أبوحُ بما أضْنَى جسَدَى، وفتَّتَ كبدى ، فإن خَفَّ ذلك عليك ، ورأيتَ نشاطا من نفسك إليه، كنْتَ كمن فكَّ أسيراً، وأبرأ عليلاً، ومن الخيرِ سَلَكَ سبيلاً يتوعَّرُ سُلوكُها على من كانَ قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك مِنةً لا يُطيقها جَبَلٌ راسٍ ، ولا فَلَكٌ دائرٌ .

فرَأْيك أيها السيد المعتمَد فى الإسعاف قبل أن يَبْدُرَ(٢) فىّ الموتُ ، فيَحُولَ بينى وبين ما نزَعَت(٣) إليه النفسُ مواصِلا بِرًّا إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٤)

٢٧٤ — رده عليه

فأجابه :

« تولَّى الله تعالى ما جَرى به لسانُك بالمَزيد ، ولا أوْحَشَ ما بيننا بطائر فُرْقةٍ ، ولا حافِرِ(٤) تشتُّت ، وضَمَّنا وإياك فى أوثقِ حِبال الأُنسِ ، وأوْكَدِ أسباب الأُلفة وقفتُ على ما لخَّصْتَه من العجز عن بلوغ ما خامرَ قلبَك ، وانطَوَى فى ضميرك ، من الشَّغَفِ المُقَلْقِلِ ، والهوَى المُضْرِعِ(٥)، ولعمرى لو كُشف لك عن مِعْشار(٦) ما اشتمل عليه مُضْمَرُ صدرى ، لأيقَنْتَ أن الذى عندك إذا نسبتَه إلى ما عندىَ كالمتلاشِى الزَّائل ولـكنك بفضل الإنعام سبَقْتَنا إلى كشْفِ ما فى الضمير . وأما طاعتى لك وذمامى(٧) إليك ، فطاعةُ العَبْد المقتفَى الطائع لما يَحْكُمُ له وعليه مَوْلاه ومَالِكه ، وأنا سائر إليك وقت كذا ، فتأهَّبْ لذلك بأجْهَد عافيةٍ، وأتم عاقِبَةٍ ، وأسْعَد نَجْم ، حَرِىٍّ بالأُلْفةِ إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٣ : ١٥)

---

(١) يكره. (٢) يسرع ويعجل إلى . (٣) اشتاقت .

(٤) حافر الدابة معروف، والمراد به الدابة : أى ولا كان سبب الوحشة بيننا مطية تقلك إلى مكان ناء عنا . (٥) أضرعه : أذله .

(٦) المشعار والعشير والعشر : جزء من عشرة . (٧) الذمام . الحق والحرمة .

٢٧٥ — رسالة سهل بن هرون فى البخل

وهذه رسالة سهل[١] بن هرون بن راهبُون إلى بنى عمه من آل راهبون ، حين ذمُّوا مذهبه فى البخل ، وتتبَّعوا كلامه فى الكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أَصْلَحَ اللهُ أمرَكم ، وجَمع شَمْلَكم ، وعلَّمكم الخيرَ ، وجعلكم من أهلِهِ ، قال الأَحْنَفُ بن قيس : « يا معشر بنى تميم لا تُسْرِعوا إلى الفِتنة ، فإن أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حَياءً من الفرار » وقد كانوا يقولون : « إذا أردتَ أن تَرَى العيوبَ جَمَّةً فتأمَّلْ عيَّاباً ، فإنه إنما يَعيبُ الناسَ بِفضْلِ مافيه من العَيب » ، وأوَّلُ العَيب[٢] أن تَعيبَ ما ليس بِعَيْبٍ ، وقبيحٌ أن تَنْهَى مُرشداً ، وأن تُغْرَى بمُشْفِق ، وما أردْنا بما قلنا إلا هدايتَكمُ وتقويمكم ، وإلاَّ إصلاحَ فسادكم وإبقاءَ النعمةِ

---

(١) هو سهل بن هرون بن « راهبون » كما جاء فى كتاب البخلاء وسرح العيون ، وفى حياة الحيوان للدميرى « راهويه » وفى الفهرست لابن النديم « رامنوى الدستميسانى » فارسى الأصل من أهل نيسابور ثم انتقل إلى البصرة ، وكان شعوبيا — والشعوبية بضم الشين : فرقة تبغض العرب وتحتقرها وتتعصب للفرس عليها ، اقرأ البيان والتبيين ٣ : ٥ والعقد الفريد ٢ : ٧٠ — وكان أول أمره خاصا بالفضل ابن سهل ، فقدمه إلى المأمون ، فأعجب ببلاغته وعقله ، وجعله صاحب بيت الحكمة . وكان حكيما شاعرا فصيحا ، إلا أنه كان نهاية فى البخل ، وله فيه حكايات عجيبة . من ذلك ماحكاه دعبل الخزاعى ، قال : كنا عنده يوما فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا ، ثم قال : ويحك ياغلام غدّنا ، فأتاه بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم لا تحز فيه السكين ولا يؤثر فيه الضرس ، فتأمله ثم قال : أين الرأس ياغلام ؟ قال : رميت به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه ، قال : ولم ظننت ذلك ؟ إنى والله لأمقت من يرمى برجله ، فكيف من يرمى برأسه ! ولو لم يكن فيما فعلت إلا الطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ماأريد ، وفيه عرفه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكليتين ، ولم يرقط عظم أهش تحت الأسنان منه . وهب أنك ظننت أنى لا آكله ، أو ليس العيال كانوا يأكلونه؟ فإن كان قد بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح ، ومن رأس العنق ؟ انظر إلى أين هو ؟ فقال والله ما أدرى أين هو ، ولا أين رميت به ، فقال : لكنى والله أدرى ، إنك رميته فى بطنك قاتلك الله ، — انظر أخباره فى سرح العيون ص ١٦٥ والفهرست لابن النديم ص ١٧٤ وص ١٨٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٦٥ وزهر الآداب ٢ : ٢٠١ وحياة الحيوان للدميرى ١ : ٥١٣ .

(٢) وفى العقد الفريد « ومن أعيب العيب » .

عليكم ، ولئن أخطأنا سبيلَ إرشادكم فما أخطأنا سبيلَ حُسْنِ النيّة فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم[١] ، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم ، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » ، فما كان أحقّكم فى تقديم حُرْمتنا بكم[٢] ، أن ترْعوا حقَّ قصْدِنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفلْنا من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوطَ بلَغتم ، ولا بواجب الحُرْمة قمتم ، ولو كان ذكرُ العيوب بِرًّا وفضلا[٣] لرأينا أن فى أنفسنا عن ذلك شُغلا .

وإن من أعظم الشِّقوة ، وأبعدَ من السعادة ، ألاَّ يزال يتذكر زَلَلَ المعلِّمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين ، ويستعظم غِلَظَ العاذلين ، ولا يَحفِل بتعمُّد المعذُولين .

عِبْتمونى بقولى لخادمى[٤] أجيدى عَجْنه خَمِيرًا كما أجدْتِه فَطِيرًا[٥] ، ليكون أطيبَ لطَعْمه ، وأزيدَ فى رَيْعه . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورَحِمَه لأهله : « امْلِكوا العجينَ فإنه أريَعُ لِلطَّحِين[٦] » .

وعِبتم علىَّ قَوْلى : من لم يعرِف مواقعَ السَّرَف فى الموجود الرخيص ، لم يعرِف مواقعَ الاقتصاد فى المتنِع الغَالِى ، فلقد أُوتيتُ من ماء الوضوء بمِكْيلة[٧] يدل حجمها

---

(١) وفيه « إلا بما اخترناه لكم ولأنفسنا قبلكم » .

(٢) وفيه « فما كان أحقنا منكم فى حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم » .

(٣) وفيه « ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر » .

(٤) هو خادم وهى خادم وخادمة .

(٥) الفطير : ضد الخمير ، وهو العجين الذى لم يختمر ، وفى العقد « أجيدى العجين فهو أطيب لطعمه وأزيد فى ريعه . والريع : النماء والزيادة .

(٦) ملك العجين كضرب وأملكه وملكه : أنعم عجنه ، وفى العقد « املكوا العجين فإنه أحد الريعين » .

(٧) المكيلة ما كيل به ، وفى الأصل « بكيلة » وهو تحريف ، والكيلة بالكسر : اسم من الكيل .

على مَبْلَغ الكِفاية ، وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وَظيفة[1] الماء ، وجدتُ فى الأعضاء فضلا على الماء ، فعلمتُ أنْ لو كنتُ سَلكْتُ الاقتصادَ فى أوائله ، ورَغِبْتُ عن التهاوُن به فى ابتدائه ، لخرج آخِرُه على كفاية أوّله ، ولكان نصيبُ العُضْوِ الأوّل كنصيب الآخِرِ ، فعِبْتموني بذلك ، وشنَّعْتموه بجُهْدكم وقبَّحتموه ، وقد قال الحسن[2] عند ذكر السَّرف « أمَا إنّه ليكون فى الماعُونَيْن[3] : الماءِ والكَلأ » فلم يرضَ بذكر الماء حتى أَرْدَفَه بالكَلأ .

وعِبْتموني حين ختمتُ على سَدٍّ[4] عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطَبة[5] غريبة ، على عبدٍ نَهِم ، وصبيٍّ جَشِع ، وأَمَةٍ لَكْعاء ، وزوجة خَرْقاء[6] ، وليس من أصل الأدب ولا فى ترتيب الحِكَم ، ولا فى عادات[7] القادة ، ولا فى تدبير السَّادة ، أن يستويَ فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخَطير[8] المركوبِ ، والناعمِ من كل فن ، واللُّبابِ[9] من كل شكل ، التابعُ والمتبوع ، والسيّدُ والمَسُود ، كما لا تستوى مواضِعُهم فى المجالس ، ومواقِع أسمائهم فى العُنْوانات وما يستقبلون به من التحيّات ، وكيف وهم لا يَفقِدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراثَ العارف ؟ ومن شاء أطعمَ كلبَه الدجاج المسمَّن ، وعَلَف

---

(١) الوظيفة : ما يقدر لك من طعام أو رزق ونحوه ، ومعناها هنا : المقدر من الماء ، وفى العقد « وضيعة » وهو تحريف .

(٢) أى الحسن البصرى . (٣) الماعون : كل ما انتفعت به .

(٤) السد : سلة من قضبان ، والجمع سداد ككتاب وسدد كعنق .

(٥) أى تمر مرطب ، ويصح أن يكون « ومن رطبة » بفتح فسكون : أى ومن فاكهة رطبة طرية وفى العقد « من فاكهة رطبة نقية ، ومن رطبة غريبة » .

(٦) نهم : شره ، وجشع : شديد الحرص شرة أيضا ، ولكعاء : لئيمة ، وخرقاء : حمقاء ، وفى العقد « وزوجة مضيعة » .

(٧) وفى العقد « عدالة » . (٨) أى عظيم .

(٩) لب كل شيء ولبابه : خالصه وخياره .

حِمارَه الشَّمسيَّ المقشَّر ، فعبتموني بالخَتْم ، وقد ختم بعض الأئمة على مِزْود[١] سَوِيق ، وخَتَمَ على كيسٍ فارغ ، وقال : « طِينةٌ[٢] خير من طَيَّةٍ » فأمسكتم عمن خَتَم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء » .

وعبتموني حين قلت للغلام إذا زِدْتَ في المَرَق فزِدْ في الإنضاج ، ليجتمع مع التأدُّم باللحم طِيبُ المَرَق ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا طبختم لحما فزيدوا في الماء ، فإن لم يُصِبْ أحدكم لحما أصاب مرَقا » .

وعبتموني بخَصْفِ[٣] النّعال ، وبتصدير القميص ، وحين زعمتُ أنَّ المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ وأقوى وأنفَى للكِبْر ، وأشبَه بالنُّسْك ، وأن الترقيع من الحزْم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع[٤] ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نعلَه ، ويَرْقَع ثوبه ، ويلعَق أصابعه ، ويقول : « لو أُتيتُ بذراع لأكلتُ[٥] ، ولو دُعِيتُ إلى كُراعٍ[٦] لأجبتُ » ولقد لَفَقَتْ[٧] سُعْدَى بنت عوف إزارَ طلحة[٨]

---

(١) المزود : وعاء الزاد ، والسويق : طعام يعمل من الحنطة والشعير .

(٢) طانه : ختمه بالطين .

(٣) خصف النعل كرقع الثوب ، ويقال : صدر كتابه إذا جعل له صدرا ، وهو مصدر : أي قوى الصدر ، والمراد بتصدير القميص : تقوية صدره برقعة أو ببطانة ، وأوطأ : ألين .

(٤) وفي العقد « والتفريط من التضييع » .

(٥) وفيه « لو أهدى إلى ذراع لقبلت » .

(٦) الكراع من البقر والغنم : بمنزلة الوظيف من الفرس ، وهو مستدق الساق .

(٧) لفق الثوب كضرب : ضم شقة إلى أخرى فخاطهما .

(٨) هو طلحة بن عبيد الله التيمي القرشي ابن عم أبي بكر الصديق ، خرج مع الزبير وعائشة إلى البصرة للطلب بدم عثمان وقتل يوم الجمل سنة ٣٦ ، وقد قدمنا لك خبره في الجزء الأول ، وكان من أجواد العرب ، وعنه أنه قال سماني النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : طلحة الخير ، ويوم غزوة ذات العشيرة : طلحة الفياض ، ويوم حنين طلحة الجود ، وقال فيه عمرو بن العاص حين بلغه مقتل عثمان : من يلي هذا الأمر من بعده ؟ إن يله طلحة فهو فتى العرب سيبا (أي عطاء) وحكى عنه أنه فرق في يوم واحد مائة ألف درهم وقال قبيصة بن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل من غير مسألة منه .

واستتماما للفائدة نقول : هو أحد مشهوري الطلحات الذين يضرب بهم المثل في الجود ، وكانوا ستة ويسمى هذا طلحة الفياض ، وطلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي أيضا ، ويسمى طلحة الجود ، وطلحة بن عبد الله بن عوف أخي عبد الرحمن بن عوف الزهري ، ويسمى طلحة الندى ، وطلحة بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويسمى طلحة الخير ، وطلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر =

وهو جَوَادُ قريش ، وهو طلحة الفَيَّاض ، وكان فى ثوب عُمَر رِقاعُ أَدَم ، وقال[1] : « من لم يستحيِ من الحَلَال خفَّت مُؤْنتُه وقلَّ كِبْرُه. وقالت الحكماء : لا جديدَ لمن لايلبَس الخلَق » وبعث زياد رجلا يرتاد له[2] محدِّثا ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلا مُسَدَّدا ، فأتاه به موافِقا ، فقال : أَكنتَ ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيته قبل ساعته ، قال : أفناقَلْتَه[3] الكلامَ ، وفاتحتَه الأمورَ قبل أن توصله إلىَّ ؟ قال : لا ، قال : فلِمَ اخترتَه على جميع مَن رأيته ؟ قال : يومنا يومٌ قائظ[4] ، ولم أزَل أتعرَّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم فى مثل هذا اليوم ، ورأيتُ ثياب الناس جُدُدا ، وَثيابَه لُبُسا[5] ، فظننتُ به الحزمَ[6] . وقد علمنا أن الجديد فى موضعه دون الخَلَق[7] ، وقد جعل الله عز وجل لكل شىء قَدْراً ، وبوَّأ له موضعاً ، كما جعل لكل دهر رجالا ، ولكل مَقامٍ مقالا ، وقد أحيا الله بالسُّم ، وأمات بالغِذاء ، وأغَصَّ بالماء ، وقتَلَ بالدواء ، فترقيعُ الثوب يجمع مع الإصلاح التواضعَ ، وخلافُ ذلك يجمع مع الإسراف التكبُّرَ ، وقد زَعَموا أن الإصلاح أحد الكَسْبَين ، كما زعموا أن قلَّة العيال أَحَدُ اليَسَارَيْن ،

= الصديق ، ويسمى طلحة الدراهم ، وطلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعى البصرى ، ويسمى طلحة الطلحات ، سمى بذلك لأنه كان أجودهم ، وقيل : لأنه وهب فى عام واحد ألف جارية ، فكانت كل جارية منهن إذا ولدت غلاما تسميه طلحة على اسم سيدها ، وقيل سمى بذلك بسبب أمه ، وهى صفية بنت الحرث بن طلحة بن أبى طلحة ، وأخوها أيضا طلحة بن الحرث ، فقد تكنفه هؤلاء الطلحات كما ترى ، وقد شهد الجمل مع عائشة ، ومات بسجستان سنة ٦٣ ، وفيه يقول عبد الله بن قيس الرقيات :

نضر الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

انظر أسد الغابة ٣ : ٥٩ وخلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال ص ١٥٢ وتاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٤ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٢٤٥ ، وخزانة الأدب للبغدادى ٣ : ٣٩٤ ، ولسان العرب ٣ : ٣٦٣ ، ومعجم البلدان ٥ : ٣٩ ، والعقد الفريد ١ : ٨٩ .

(١) وفى العقد « وقال عليه الصلاة والسلام . « من لم يشبم من الحلال ... » .

(٢) يرتاد : يطلب . (٣) المناقلة فى المنطق أن تحدثه ويحدثك .

(٤) قاظ يومنا : اشتد حره .

(٥) جمع لبيس : وهو الثوب قد أكثر لبسه فأخلق .

(٦) وفى العقد « فقال له : أكنت به ذا معرفة ؟ قال : لا ولكنى رأيته فى يوم قائظ يلبس خلقا ويلبس الناس جديدا ، فتفرست فيه العقل والأدب » .

(٧) وفيه « وقد علمت أن الخلق فى موضعه مثل الجديد فى موضعه » .

وقد جَبَرَ الأحنفُ يدَ عَنْزٍ وأمَرَ بذلك النعمان[١] ، وقال عمر : « من أكل بيضة فقد أكل دجاجة » ، ولَبِس سالم[٢] بن عبد الله جِلد أُضْحِيَة ، وقال رجل لبعض السادة : أريد أن أهدِيَ إليك دَجاجة ، فقال : إن كان لابدَّ فاجعلها بَيُوضاً ، وعدَّ أبو الدَّرداء العُرَاق[٣] جَزَرَ البهيمة .

وعبتموني حين قلت : لايغترَّنَّ أحدكم بطول عمره ، وتقوُّسِ ظهره ، ورِقَّةِ عظمه، ووَهَن قوَّته ، وأن يرى نحوَه أكثر ذُرِيته فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه ، وتحويله إلى مِلْك غيره ، وإلى تحكيم السَّرَف فيه ، وتسليطِ الشهوات عليه ، فلعلَّه أن يكون مُعمَّرا وهو لايدرى ، وممدوداً له فى السِّنِّ وهو لايشعُر ، ولعلَّه أن يُرْزَق الولدَ على اليأس ، أو يَحْدُثَ عليه بعضُ مخبَّآت الدهور ، مما لا يَخطُر على البال ولا تُدْرِكُه العقول ، فيستردَّه ممن لا يَرُدُّه ، ويُظهِر الشكوى إلى من لايرحمه ، أضعفَ ما كان عن الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكَسْب[٤] ، فعبتموني بذلك ، وقد قال عمرو بن العاص : « اعمَلْ لدنياك عمَلَ من يعيشُ أبداً ، واعمَلْ لآخرتك عمل من يموت غداً » .

وعبتموني حين زعمتُ أن السرف والتبذير : إلى مال القِمار ، ومالِ الميراث ، وإلى مالِ الالتقاط ، وحِباءِ[٥] الملوك، أسرعُ ، وأن الحفظ إلى المال المكتسَب ، والغِنى المجتلَب ، وإلى ما لا يُعْرَض فيه لذهاب الدين ، واهتضامِ العِرْض ، ونَصَبِ البَدَن واهتمامِ القلب ، أسْرعُ ، وإن من لم يَحسُبْ ذَهابَ نفقتِه لم يحسُبْ دَخْلَه ، ومن لم

---

(١) أى أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وفى العقد « وأمر مالك بن أنس بفرك النمل» .

(٢) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

(٣) قدمنا كلمة عن أبى الدرداء فى الجزء الأول ، والعراق كغراب : العظام إذا جردت من اللحم ، والجزر بالتحريك : الشياه السمينة ، الواحدة جزرة .

(٤) وفى العقد « أصعب ما كان عليه الطلب ، وأقبح ما كان به أن يطلب » .

(٥) الحباء : العطاء .

يحسُب الدَّخْلَ فقد أضاع الأصلَ ، وإن من لم يعرف للغِنَى قدرَه ، فقد أُوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذُّل .

وعبتمونى بأن قلت : إن كَسْبَ الحلال يضمن الإنفاقَ فى الحلال . وإن الخبيث ينزِعُ إلى الخبيث ، وَإن الطيِّب يدعو إلى الطيب ، وَإن الإنفاق فى الهَوى حِجابٌ دون الحقوق ، وإن الإنفاق فى الحقوق حجابٌ دون الهوى[١] ، فعبتم علىَّ هذا القول ، وقد قال معاوية : « لم أرَ تبذيرا قطُّ إلا وَإلى جانبه حقٌّ مُضيَّع » وقد قال الحسن : « إذا أردتم أن تَعرِفوا مِن أينَ أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أى شىء يُنفِقه ؟ فإن الخبيث إنما يُنفَقُ فى السَّرَف » .

وقلت لكم : بالشفقة منى عليكم ، وَبحُسْنِ النظر منى لكم ، وَبحفظكم لآبائكم ، وَلما يجب فى جِوارِكم ، وَفى مُمَالَحتكم[٢] ، وَملابَستكم ، وأنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ[٣] غيرُ مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم آفةٌ لم يرجع إلى بقيَّة ، فأَحْرِزوا[٤] النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البليَّة لاتجرى فى الجميع إلا بموت الجميع ، وقد قال عمر رضى الله عنه فى العبد والأمَة والشاة والبعير ، وفى الشىء الحقير اليسير : « فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأسَ رأسين[٥] » وقال ابن سِيرِين[٦] لبعض البَحْريين : كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفرِّقها فى السفن ، فإنْ عَطِبَ بعضٌ سَلِمَ بعضٌ ،

---

(١) وفى العقد « وإن الإنفاق فى الهوى حجاب دون الهوى » وعليه فكلمة الهوى الثانية محرفة وصوابها « الهدى » .

(٢) الممالحة : المواكلة .

(٣) الجوائح جمع جائحة ، وهى الشدة المهلكة .   (٤) أى حصنوها .

(٥) أى فرقوا غنمكم فى أماكن مختلفة حتى إذا اخترمت المنية بعضها بسبب ما كان الباقى بمعزل ومنجاة ، أو معناه اعملوا على تنميتها حتى يتضاعف عددها .

(٦) هو محمد بن سيرين أحد فقهاء أهل البصرة ، وكان معروفا بالورع ، وهو صاحب الحسن البصرى ، وتوفى سنة ١١٠ هـ .

ولولا أن السلامة أكثرُ لمَا حَمَلنا خزائننا فى البحر ، قال ابن سيرين : تحسَبُها خَرْقاء وهى صَناع[١] .

وعبتمونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم : إن للغِنَى لسُكْرا ، وإن للمال لنَزْوَة[٢] ، فمن لم يحفظ الغِنَى من سُكر الغِنَى فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المالَ بخوف الفقر فقد أهمَلَه ، فعبتمونى بذلك ، وقد قال زيد بن جَبلَة : ليس أحد أقصرَ عقلا من غنىٍّ أمِنَ الفقرَ ، وسُكرُ الغنى أشدّ من سكر الخمر ، وَقلتم : قد لزِمَ الحثَّ على الحقوق، والتزهيدَ فى الفضُول ، حتى صار يستعمل ذلك فى أشعاره بعد رسائله ، وفى خُطبه بعد سائر كلامه ، وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن بَرْمَك :

عدوٌّ تلادِ المـال فيما يَنوبُه   مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أحْزَمَا[٣]

وقال فى محمد بن زياد :

وخَليقتانِ : تُقَى وفضلُ تحرُّمٍ   وإهانَةٌ فى حقِّـــه للمال

وعبتمونى حين زعمت أنى أقدِّم المال عَلَى العلم ، لأن المال به يُفادُ العلم[٤] ، وبه تَقُومُ النفوسُ قبل أن تعرِفَ فضْلَ العلم ، فهو أصل ، والأصلُ أحقُّ بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : إن كنا نستبينُ الأمورَ بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وَبالخَلّة نعمَى[٥] ، وقلتم كيف تقول هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومُقدَّم الأدباء : العلماء أفضلُ أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء ، قيل : فما بال العلماء يأتون بابَ الأغنياء أكثَرَ مما يأتى الأغنياء أبوابَ العلماء ؟ قال : لِمعرفة العلماء بفَضْل الغنى ، ولجهل

---

(١) خرقاء : وصف من الخرق بالتحريك ، وهو أن لا يحسن المرء العمل والتصرف فى الأمور ، وامرأة صناع حاذقة بالعمل ماهرة ويقال أيضا امرأة صناع اليدين : أى حاذقة ماهرة بعمل اليدين ، وهو مثل يضرب لمن تظن به الغفلة وهو فظن يقظ .

(٢) النزوة : الوثبة والثورة .

(٣) وفى العقد « وهوب تلاد المال ... » والتلاد : المال القديم الذى ولدعندك .

(٤) وفى البخلاء « به يغاث العالم » .   (٥) الخلة : الفقر ، ونعمى : نضل .

الأغنياء بفضل العلم ، فقلتُ : حالُهما هي القاضِيَةُ بينهما ، وكيف يستوى شيء تُرَى حَاجةُ الجميع إليه ، وشيء يُغنِى بعضهم فيه عن بعض ؟

وعبتمونى حين قلت : إن فضل الغِنَى على القُوتِ إنما هو كفضل الآلة تكون فى الدار : إن احتيجَ إليها استُعْمِلَت ، وإن اسْتُغْنِيَ عنها كانت عدَّةً ، وقد قال الُحضَين[1] بن المنذِر : وَدِدْتُ أنّ لى مِثلَ أُحُدٍ[2] ذَهباً لا أنتفع منه بشىء ، قيل : فما ينفعُك من ذلك ؟ قال : لكثرة من كان يخدُمُنى عليه ، لأن المال مخدوم ، وقد قال بعض الحكماء : « عليك بطلب الغِنَى فلو لم يكن لك فيه إلاّ أنه عِزٌّ فى قلبك ، وذلٌّ فى قلب عدوّك ، لكان الحْظُّ فيه جسيما ، والنفع فيه عظيما » ولسنا ندَعُ سيرة الأنبياء ، وتعليمَ الخلفاء ، وتأديبَ الحكماء ، لأصحاب الأهْواء[3] . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغَنَم ، والفقراء باتخاذ الدَّجاج ، وقال « دِرْهمك لِمعاشِك ، ودينُك لِمعادك » فقسَّموا الأمورَ كلها على الدين والدنيا ، ثم جعلوا أحد قِسْمَىِ الجميع الدرهمَ . وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « إنى لأبغِض أهل بيت ينفقون نفقة الأيام فى اليوم الواحد » وكانوا يُبْغِضون أهل البيت اللَّحِمِين[4] ، وكان هِشام[5] يقول : « ضَعِ الدرهم على الدِّرهم يكون مالا » ونهى أبو الأسود الدُّؤلى[6] وكان حكيما أديبا ، وداهيا أرِيبا[7] عن جود كم هذا المُولَّد ، وعن كرمكم هذا المستحدَث ، فقال لابنه : « إذا بسَط الله لك فى الرزق فابسُطْ ، وإذا قبَض فاقبِض ، ولا تُجاوِدِ[8] اللهَ فإن الله

---

(١) بالضاد المعجمة ، وهو صاحب راية الإمام على كرم الله وجهه بصفين ، وفيه يقول الإمام :

لمن راية حمراء يخفق ظلها ... إذا قلت قدمها حضين تقدما
فيوردها فى الصف حتى يزيرها ... حياض المنايا تقطر الموت والدما

انظر العمدة لابن رشيق ١ : ١٤ ، ولسان العرب ١٦ : ٢٨٠ .

(٢) أحد : جبل بالمدينة .

(٣) وفى العقد « لأصحاب اللهو » .

(٤) اللحم ككتف : الأكول اللحم القرم إليه .

(٥) هو هشام بن عبد الملك ، وكان معروفا بالبخل .

(٦) وكان معروفا بالبخل أيضا .

(٧) أى عاقلا .

(٨) أى لا تغالبه ولا تباره فى الجود .

أجود منك » وقال : « درهم من حِلٍّ يخرج فى حق ، خير من عشرة آلاف قَبْضاً »
وتلقَّط عُرُنْدًا من بَرِيم[1] فقال : تُدَيِّعون مثلَ هذا وهو قوتُ امرئ مُسْلِمٍ يَوْماً إلى
الليل ! وتلقَّط أبو الدَّرْدَاء حَبَّاتِ حِنْطة ، فنهاه بعض المُسرفين ، فقال : « لِيَهْنِ
ابنَ العَبْسِية أن مَرْفَقَة المرء رِفْقُه فى معيشته » فلستم علىَّ تَرُدُّون ، ولا رأيى تُفَنِّدُون[2]
فقدِّموا النظر قبل العزم وتذكَّروا ماعليكم قبل أن تذكروا مالكم[3] ، والسلام عليكم ».
(كتاب البخلاء ص ٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٧٤)

٢٧٦ — كتاب سهل بن هرون إلى صديق له

وكتب سهل بن هٰرون إلى صديق له أَبَلّ[4] من ضعف :

« بلغنى خبرُ الفَتْرة[5] فى إلمامها وانحِسارها ، والشَّكاةِ فى حُلولها ، وارتحالها ،
فكاد يَشْغَل القَلَقُ بأوَّله عن السكون لآخِره ، وتُذْهِلُ الحَيْرةُ فى ابتدائه ، عن المسرَّة
فى انتهائه ، وكان تغيُّرى فى الحالين بقَدْرهما ، ارتياعاً[6] للأُولى ، وارتياحاً للأُخرى ».
(مسرح العيون ص ١٦٨)

---

(١) العرند : الصلب. والبريم : الكبد والسنام ، يقدان طولا ويلفان بخيط أو غيره .
(٢) فند رأيه : خطأه .
(٣) وفى العقد « وأدركوا مالكم قبل أن تدركوا ما ليس لكم » .
(٤) أبل من مرضه : حسنت حاله بعد الهزال .
(٥) الفترة : الضعف ، يقال : أجد فى نفسى فترة ، وهى كالضعفة بالفتح ، ويقال للشيخ : قد علته كبرة وعرته فترة ، بفتح الكاف والفاء ، والفتر بالتحريك : الضعف أيضا ، فتر جسمه فتورا : لانت مفاصله وضعف .
(٦) ألم به نزل ، وانحسر : انكشف ، والشكاة : الشكوى ، والارتياع : الفزع .

٢٧٧ - كتابه إلى صديق له

وكتب لآخر :

« أما بعدُ ، فالسلامُ على عهدك ، وَداعَ ذى وُدٍّ ضنين بك ، فى غير مَقْلِيَة[١] لك ، ولا سَلْوَةٍ عنك ، بل استسلامٍ للبَلْوَى فى أمرك ، وإقرارٍ بالعجز عن استعطافك إلى أوانِ فَيْئَتِك[٢] ، أو يجعل الله لنا دولة من رَمْقِك[٣] » . (سرح العيون ص ١٦٨)

٢٧٨ - ومن رسالة له يفضل الزجاج على الذهب

وقال يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة :

« الزجاج مَجْلُوٌّ نُورِىّ ، والذهب متاع سائر ، والشَّرابُ فى الزجاج أحسنُ منه فى كل مَعْدِن ، ولا يُفقَدُ معه وجهُ النديم ، ولا يُثْقِلُ اليدَ ، ولا يرتفع فى السَّوْم[٤] ، واسمُ الذهب يُتطيَّر منه ، ومن لؤمه سرعتُه إلى اللئام ، وهو فاتِنٌ فاتك[٥] لِمَن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا : أهلكَ الرجالَ الأحمران[٦] ، والزجاج لايحمل الوَضَرَ[٧] ، ولا يُداخِله الغَمَر ، ومتى غسِل بالماء وحْدَه عاد جديداً ، وهو

---

(١) قلاه كرماه ورضيه قلى بالكسر وقلاء بالفتح ومقلية : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه.
(٢) الفيئة بالفتح والكسر : الرجوع .
(٣) رمقه كنصر : نظر إليه ولحظه .
(٤) السوم فى المبايعة : المساومة . (٥) أى غالب ، من الفتك ، وهو الغلبة .
(٦) جاء فى اللسان « أهلك النساء الأحمران : يعنون الذهب والزعفران : أى أهلكن حب الحلى والطيب ، وأهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر » . وأقول : والمناسب للمقام هنا أن يكون المراد بالأحمرين : الذهب والخمر ، أو الذهب والفضة على أن التثنية من باب التغليب .
(٧) الوضر : وسخ الدسم واللبن ، أو غسالة السقاء والقصعة ونحوها ، والمراد الوسخ مطلقا ، والغمر : زنخ اللحم وما يتعلق باليد من دسمه .

أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب . . » من رسالة طويلة[1] .

(سرح العيون ص ١٦٨)

٢٧٩ – كتاب الحسن بن سهل إلى سهل بن هرون

وقال ابن النديم فى الفهرست :

وعمل سهل بن هٰرون للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ويرغبه فيه ، ويستميحه[2] فى خلال ذلك ، فأجابه الحسن على ظهر رسالته :

« وصلَتْ رسالتك ، ووقَفْنا على نصيحتك ، وقد جعَلْنا المكافأةَ عنها القبولَ منك والتصديق لك ، والسلام » .

ولم يصله عنها بشىء .

وجاء فى زهر الآداب وسرح العيون :

وصنَّف سهل بن هٰرون كتابا يمدح فيه البخل ويذم الجود ، ليظهر قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون واستماحه ، فكتب إليه الحسْن :

(١) قال ابن نباتة : « وكان سبب قوله لها أن شداداً الحارثى كان قد وصف الذهب فأطنب ، وكان النظام قد ذم الزجاج » .

وروى أنه ألف كتاباً سماه « عَفْراء وثُعْلة » على مِثال كتاب كَليلة ودِمْنة لابن المقفّع ، ومن قوله فيه :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّما قبل الذى تجودون به من تفضّلكم ، فإن تقديم النافِلَة مع الإبطاء فى أداء الفريضة ، شاهِدٌ على وهَن العقيدة ، وتقصير الرويّة ، ومُضِرٌ بالتدبير ، ومُخِلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفعٍ تُحْمَد به ، عِوَضٌ من فساد المُرُوءة ، ولزوم النَّقيصة » .

(سرح العيون ص ١٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٢)

(٢) استماحه : سأله العطاء .

« لقد مدحْتَ ما ذمَّه اللهُ ، وحسَّنتَ ما قبَّحه الله ، وما يقومُ صلاحُ لفظك بطَلَاح معناك ، وقد جعلْنا ثوابَ مدحك قبولَ قولك فيه ، فما نُعطيك شيئاً » .

(الفهرست لابن النديم ص ١٧٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٥٠ ، وسرح العيون ص ١٦٦)

٢٨٠ — كتاب العتابى إلى بعض إخوانه

وكتب كُلثوم بن عمرو العتابى[١] إلى بعض إخوانه :

« لواعتصمَ شوقى إليك بمثل سُلُوِّك عنى ، لم أبْذُل وجْهَ الرَّغبة إليك ، ولم أتجشَّم مرارةَ تماديك ، ولكن استخفتْنا صَبابَتُنا ، فاحتملْنا قسْوَتك ، لِعَظيم قدر مودَّتِك ، وأنت أحقُّ مَن اقتصَّ لصِلَتنا من جَفائه ، ولِشَوْقنا من إبطائِه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٢٦)

٢٨١ — كتاب آخر له

وله :

« دُعيتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك ، ولسانى عَلِق بالثناء عليك ، والغالبُ على ضميرى لائمةٌ لنفسى فى الإبطاء عنك ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت — أعزَّك الله — فى عِز الغِنى عَنِّى ، وأنا تحت ذُل الفاقة إلى عَطفك ، وليس من متشابه أخلاقك أن تُولِىَ جانبَ النَّبْوة[٢] منك ، مَن هو عَانٍ فى الضَّراعَة إليك » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٢٦ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابى من أهل قنسرين ، كان شاعرا مقدما من شعراء الدولة العباسية ، وكاتبا حسن الترسل ، وكان منقطعا إلى البرامكة ، فوصلوه بالرشيد فبلغ عنده كل مبلغ ، ثم كتب المأمون فى إشخاصه إليه ووصله صلات سنية ، وبلغ به من التقديم والإكرام أعلى محل — انظر ترجمته فى الأغانى ١٢ : ٢ ، ووفيات الأعيان ١ : ٥١٩ فى ترجمة العتابى النحوى ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ، والشعر والشعراء ص ٣٦٠ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٨٨ .

(٢) النبوة : التجافى والتباعد ، والعانى : الأسير ، والضراعة : الذل .

٢٨٢ — كتاب آخر له

وكتب العتابى :

« أما بعد ، فإنَّ أحداً ليس بمستخلِصٍ شيئا من غَضَارَة[١] عيشٍ إلا من بين خِلال مكارِهَ ، فمن[٢] انتظر بعاجل الدَّرْك آجلَ الاستقضاء ، سلبَتْه الأيامُ فُرْصتَه ، لأن من صناعتها السَّلْب ، ومن شرط الزمن الإفاقة » .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٦ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٥٩)

٢٨٣ — كتابه إلى بعض أهل السلطان

وكتب العتَّابى إلى بعض أهل السلطان :

« أما بعدُ ، فإن سحاب وعدك قد أبْرَقَتْ ، فليكن وَبْلُها[٣] سالما من عِلَلِ المَطْلِ ، والسلام » . (العقد الفريد ١ : ٧٥)

٢٨٤ — كتابه إلى صديق له

وكتب إلى صديق له :

أما بعدُ ، أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك إلى رِضوانه والجنَّة ، فإنك كنتَ عندنا روْضةً من رياض الكرم ، تبتهجُ النفوسُ بها ، وتستريح القلوبُ إليها ، وكنا نُعْفِيها من النُّجْعة[٤] استمتاعا لزهرتها ، وشفقةً على خُضْرتها ، وادّخارا لثمرتها ،

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب .

(٢) فى زهر الآداب « ومن انتصر بمعاجلة الدول ومؤاجلة الاستقصاء ، فسكينة الأيام ترمقه » وهو تحريف .

(٣) الوبل : المطر الشديد .

(٤) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

حتى أصابتْنا سَنة كانت عندى قطعةً من سِنِى يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها[١] ، وغابت قِطَّتُها[٢] ، وكَذَبتْنا غيومُها ، وأخلفتْنا بُروقُها ، وفقَدْنا صالحَ الإخوان فيها ، فانتجعْتُك[٣] وأنا بانتجاعى إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمى بأنك موضع الرائد[٤]، وأنك تُغطِّى عينَ الحاسد ، واللهُ يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ، ولم يُمكِنه الكثير ، لم يُعْرَف جُودُه ، ولم تَظهر همَّته ، وأنا أقول فى ذلك[٥] :

ظلَّ اليَسار على العبَّاس ممدودُ ... وقلبُه أبدًا بالبخل معقودُ

إن الكريم ليُخْفِى عنك عُسْرَتَه ... حتى تراه غنيا وهو مجهودُ

وللبخيـــل على أمواله عِلَلٌ ... زُرْقُ العُيونِ عليها أوجُهٌ سُودُ[٦]

إذا تكرَّمْتَ عن بذل القليل ولم ... تقدِرْ على سَعةٍ لم يَظهر الجُود[٧]

بُثَّ النوالَ ولا تمنَعْك قِلَّتُه ... فكلُّ ما سدَّ فقرًا فهو محمودُ

فشاطَره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونِصْفَ قيمة خاتمه .

(الأمالى ٢ : ١٣٧)

---

(١) كلب الزمان كفرح كلبا : اشتد وألح على أهله بما يسوءهم .

(٢) أى لأنها لا تجد ما تأكله ، كناية عن الجدب والقحط . قال فى اللسان « القط : السنور » والأنثى قطة ، وقال كراع : لا يقال قطة ، قال ابن دريد : « لا أحسبها عربية » .

(٣) انتجعه : أتاه طالبا معروفه . (٤) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

(٥) الأبيات لبشار بن برد يهجو العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس، وكان بشار قد استمنحه فلم يمنحه ـ انظر الأغانى ٣ : ٤٦ .

(٦) جرى فى التعبير بزرق العيون على طبيعة العرب . فقد كانوا يكرهون الروم ـ وقد نشبت الحرب بينهم وبين العرب دهورا كثيرة ـ والروم كما تعلم زرق العيون ، فكانت الزرقة أبغض شىء من ألوان العيون إلى العرب ، ولذا قالوا فى صفة العدو : أزرق العين ، وأضاف إليها بشار أنها فى أوجه سود تعظيما لنكارتها وبشاعتها . أى أن علل البخيل ومعاذيره فى المنع قبيحة منكرة كهذه الهيئة .

(٧) وفى رواية الأغانى « إذا تكرهت أن تعطى القليل ... » .

٢٨٥ — تعزية له

« إن أشدَّ من المصيبة حِرمان الأجر فيها والحِسْبة ، وقد ذهب منك ما رُزِئت . فلا يذهبْ منك ما عُوِّضْتَ ، قال الشاعر :

وعُوِّضتَ أجراً مِن فقيد فلا يكن فقيدُكَ لا يأتى وأجْرُكَ يَذْهَبُ[1]

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٢٨٦ — كتاب له

« إن أقلَّ من بلائك عندى يستغرقُ ثنائى ، وأقلَّ من تأميلى إياك يُعَفِّى على ما كان منى ، وليس لك — مع فضلك ورجائى تجاوُزَك سبيلٌ إلى قطيعتى » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٨٩)

٢٨٧ — فصول للعتابى

فصل له :

« أنت أيها الأمير وَارِثُ سَلَفِك ، وبقيَّةُ أعلام أهل بيتك ، المسدودُ به ثُلَمُهُم ، المجدَّدُ به قديمُ شرفهم ؛ المُحْيَا به أيامُ سعيهم ، وإنه لم يَخْمُلْ مَن كنتَ وارِثَه ، ولا دَرَسَتْ آثارُ من كنت سالكَ سبيله ، ولا امَّحتْ أعلامُ مَن خلفْتَه فى رتبته » .

وفصل له :

« تأنَّينا[2] إفاقتَك من سَكْرتك ، وترقَّبْنا انتباهَك من رَقْدتك ، وصَبَرْنا عَلَى تجرُّع الغيظ فيك ، حتى بان لنا اليأسُ مِن خَيْرك ، وكشفَ لنا الصبرُ عن وجه

---

(١) انظر الجزء الثانى ص ٤٢٣ (كتاب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز) .

(٢) أى انتظرنا .

الغَلَط فيك ، فهأَنا قد عرَفتك حقَّ معرفتك ، فى تعدِّيك لطَوْرِك ، واطِّراحك حقَّ مَن غلِطَ فى اختيارك » .

وفصل له :

« أما بعد ، فإن قريبَك مَن قرُب منك خيرُه ، وابن عمك من عَمَّك نفعُه ، وعشيرك مَن أحسَنَ عِشْرتَك ، وأهْدَى الناسِ إلى مودتك مَن أهدَى برَّه إليك » .

وكتب فى وصاة :

« حامِلُ كتابى إليك أنا ، فكُنْ له أنا ، والسلام » .

(العقد الفريد ٢ : ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧)

٢٨٨ — كتاب لابن الكلبى

وكتب ابن الكلبى[١] :

« كان خبرُ ما أبلاك الله[٢] فى فلان بعد إيتائه[٣] ما عَزمت عليه من الأمان ، خَبَرًا عظُم مكانُه من أمير المؤمنين ، وحسُن موقِعُه من الدين ، ثم رَدِفَ[٤] خبرُك بإذعانه ، عند ما عضَّه من بأسك ، ومسَّه من مُؤْلِم إيقاعك ، للاستسلامِ وطلبِ عَقْدِ الأمان ، وأنك بذلتَ له ما طلب لا لرهبةٍ بقِيَتْ فى ناحيتك ، إلَّا الاحتذاءَ على مثال أمير المؤمنين وأدبه ، فكان إباؤه ما عرَضْتَ عليه فى أول أمره ذخيرةَ حظٍّ فيما كشفَتْ عنهُ البَلْوَى من محمود أثرِك ، واجتمع لك فى ذلك حظَّان : الظفرُ آخِرا ، والدَّرْكُ لما حَاولتَه أوَّلا ، فلا زلتَ على نصيبك من الحظ ، مؤيَّدًا بالنصر

(١) هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبى الراوية النسابة المشهور المتوفى سنة ٢٠٤ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ : ١٩٥ والفهرست لابن النديم ص ١٤٠ ، وترجمة أبيه محمد الكلبى المتوفى سنة ١٤٦ فى وفيات الأعيان ١ : ٤٩٣ والفهرست ص ١٣٩ .

(٢) الإبلاء : الإنعام والإحسان . (٣) فى الأصل « بعد أمانه » وأراه محرفا .

(٤) ردفه كسمعه ونصره : تبعه .

والمعُونة ، والحمدُ لله ما حقَّق من الظن ، [وآتى][1] من هذه النعمة على يديك وبسَعْيك » . (اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٦١)

٢٨٩ — كتاب آخر

« أنت مَن أطُولُ بمكانه ، وأثِقُ بجميل رأيه ، وأعتمِد على رِفده[2] ، وأرجو دَرْك كل فضيلة به ، ومما أحبُّ علمَه مَقَرُّ نِعَم الله عز وجل لديك » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤)

٢٩٠ — كتاب علي بن عبيدة إلى ابن الكلبي

وكتب علي[3] بن عبيدة إلى ابن الكلبي :

« وَصَلَ الله أيام عمرى باتّباع مُوافقَتك ، ولولا مَوعِدٌ أُخِذ علىّ لأطعْتُك فيما أمرتَ بِه مُتّبِعا مع إجابتك سرورَ نفسي برؤيتك في السلامة .

أما بعد ، فإنى أصبحتُ وقد استفرغَ الأميرُ منى كلّ مودة ونصيحة ، ومبلغ جُهْدٍ وطاقةٍ فيما عرَفتُ له فيه موافقةً » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٤).

٢٩١ — كتاب عنبسة بن إسحق إلى المأمون

وكتب عَنْبَسة بن إسحٰق إلى المأمون ، وهو عامِله على الرّقّة[4] يصف خروج الأعراب بناحية سِنْجار وَعَيْثهم[5] بها .

---

(١) بياض بالأصل . (٢) الرفد : العطاء والصلة .

(٣) قال ابن النديم فى ترجمته : « هو على بن عبيدة الريحانى ، أحد البلغاء والفصحاء ، له اختصاص بالمأمون ، و كان يسلك فى تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكمة ، و كان يرمى بالزندقة ، و كان كاتبا بارعا ، وله مع المأمون أخبار ... » — انظر الفهرست ص ١٧٣ .

(٤) الرقة : بلد على الفرات، وسنجار : مدينة بالجزيرة . (٥) العيث : الإفساد .

« يا أمير المؤمنين : قد قَطَع سُبُلَ المجتازين ، من المسلمين والمعاهَدين ، نَفَرٌ من شُذَّاذ[١] الأعراب ، الذين لا يَرْقُبون فى مؤمِن إلًّا[٢] ولا ذمةً ولا يخافون فى الله حَدًّا ولا عقوبةً ، ولولا ثِقتى بسيف أمير المؤمنين ، وحَصْدِه هذه الطائفة ، وَبلوغه فى أعداء الله ما يَدُعُّ[٣] قاصِيَهم ودَانِيَهم ، لأَذِنْتُ بالاستنجاد عليهم ، وَلَأَسْعَيْتُ الخيلَ إليهم ، وأمير المؤمنين مُعانٌ فى أموره بالتأييد والنصر » .

٢٩٢ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« أَسْمَعْتَ غيرَ كَهَامِ السَّمْعِ والبَصرِ   لا يقطعُ السيفُ إلا فى يد الحَذِرِ[٤]
سَيُصْبِحُ القومُ مِن سيفى وضارِبِهِ   مثلَ الهَشيم ذَرَتْه الرِّيحُ بالمَطرِ[٥]

فوجَّه عنبسةُ بالبيتين إلى الأعراب ، فما بَقِى منهم اثنان .

(زهر الآداب ٣ : ٣٨٧)

٢٩٣ — كتاب طاهر بن الحسين إلى يحي بن حماد

وروى ابن طيفور فى كتاب بغداد قال :

وهذا توقيع لِذِى اليمينَيْن طاهر بن الحسين[٦] إلى يحي بن حماد الكاتب النَّيْسَابورى :

---

(١) الشذاذ : الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم .
(٢) الإل : العهد .   (٣) الدع : الدفع العنيف .
(٤) يقال سيف ، ولسان ، وفرس ، ورجل كهام : أى كليل ، وعى ، وبطىء ، ومسن لا غناء عنده
(٥) الهشيم : نبت يابس متكسر ، وذرته الريح : أطارته وأذهبته .
(٦) وقد روى ابن طيفور نفسه أيضا فى « اختيار المنظوم والمنثور » الشطر الأول من هذا الكتاب « إلى آخر البيت الثالث » وذكر أنه من محمد بن عبد الملك الزيات إلى إبراهيم بن العباس الصولى ، وقال ابن خلكان فى ترجمة طاهر بن الحسين فى وفيات الأعيان : « واختلفوا فى تلقيبه بذى اليمينين ، لأى معنى كان ؟ فقيل : لأنه ضرب شخصا فى وقعته مع على بن ماهان فقدة نصفين وكانت الضربة بيساره ، فقال

« قلة نظرك لنفسك حرمتك سَنِيّ[١] المنزلة ، وغفلتك عن حظك حطتك عن أعلى الدرجة ، وجهلك بموضع النعمة أحلّ بك الغِيَر[٢] والنقمة ، وعماك عن سبيل الدعة أسلكك فى طريق المشقة ، حتى صرتَ من قوة الأمل ، مُعتاضاً شدة الوجَل ، ومن رجاء الغد ، مُعقبا يأسَ الأبد ، وحتى ركبتَ مطيةَ المخافة ، بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرتَ موضعا للرحمة ، بعد أن تكنّفتك الغِبْطة[٣] ، على أنى أرى أمثل أمريك أدعاهما المكروه إليك ، وأنفعَ حالتيك أضيقهما متنفسا عليك بقول القائل :

إذا ما بدأتَ امرأً جاهِلاً ببِرٍّ فقصَّر عن حَمْلِهِ

ولم تُلْفِهِ قابلا للجميل ولاَ عرَفَ العِزَّ مِن ذُلِّهِ

فسُمْه الهوان فإن الهَوانَ دَوَاءٌ لِذِى الجهل مِن جَهلِهِ[٤]

وقد قرأتُ كتابك ، بإغراقك وإطنابك ، فوجدتُ أرجاهُ عندك ، آنَسَه لك ، وأرقّه فى نفسك ، أقساه لقلبى عليك ، ومن صادَفَه[٥] ما أذهبتَ ، وخامَرَه ما ذكرت خَرِس عن تشقيق[٦] الكلام ، وتزويق الكذب والآثام ، ولعمرى لولا تعلقُّك منى بحُرْمة المعاينة ، واتصالُك منى بسبب المفاوضَة ، وإنحائى بهما لمن نالهما بَسْطَ المنفعة ، وقبضَ الأذى والمَعرّة ، مع استدامتى النعمةَ بالعفو عن ذى الجريمة ، واستدعائى الزيادة بالتجاوز عن ذى الهفوة ، واستقالتى العثرةَ بإقالة الزّلة ، لنالك من عقوبتى ما يؤذيك ،

═ فيه بعض الشعراء : « كلتا يديك يمين حين تضربه ، فلقبه المأمون ذا اليمينين ، وقيل غير ذلك » وذكر الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٥٥ أنه سمى بذلك فى سنة ١٩٥ ، وذلك أنه لما هزم جيش على بن عيسى ابن ماهان وقتله وكتب إلى الفضل بن سهل بذلك نهض الفضل فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ، فأمد المأمون طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين الخ.

(١) السنى : الرفيع ، وفى المنظوم والمنثور « سناء المنزلة » .

(٢) وفيه « البأس » . (٣) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٤) سامه الأمر : أولاه إياه .

(٥) أى لقيه ، وفى الأصل « صافه » وأراه محرفا ، وأذهبه : طلاه بالذهب ، والمعنى ماموهت ، أو ما أذهبت : أى ما ضيعت من النعمة التى كنت فيها .

(٦) شقق الكلام : أخرجه أحسن مخرج .

وَمسَّك من سَطوَتى ما يَنْهَكُك[١] ، وبحَسْبك ما اجْتَرَمْته لنفسك من العجز ذلا وجهلا ، وما أخلَدْتَ إليه من الخمول وَضعا ، وما حُرِمْتَهُ من الفضل عقوبةً ونقصا ، وفى كفاية الله غِنًى عنك ، وفى عادته الجميلة عِوَضٌ منك ، وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل ، أقوَى مُعِينٍ وأهدى دليلٍ » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٢٣ ، واختيار المنظوم والمنثور ١٠ : ٣٦٣)

٢٩٤ — كتاب يحي بن حماد إلى طاهر

وقال ابن طيفور :

وهذه نسخةُ كتاب يحي بن حمَّاد الذى هـذا التوقيعُ جوابٌ عنه لما حَبَسَه لِترْكه ما أراد أن يقلِّده من كتابته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تمَّم اللهُ للأمير السلامةَ ، وأدام له الكرامة ، ووَصلَ نِعَمه عليه بالزيادة ، وقوَّى إحسانه إليه بالسعادَة ، ضعُفَ صبرى — أعز الله الأمير — عما أقاسى ، من ثِقَل الحديد ، ومكابَدةِ الهمومِ ، ومُصاحَبة الوَحشة فى دار الغُربة ، من انقِطاع الأهل ، وتعقُّب الوَجَل ، واستخلافِ البلاء من وثيق الرجاء ، وتذكُّرِى ما أفاتنى القضاء الماضى مِن رأيِ الأمير — أعزه الله — فىَّ ، ومَوْجدته[٢] علىَّ .

لقد تَخوَّفتُ أن يُسْرع لزومُ الفِكرة إياى فى فسادى ، ويصيرَ بى تمكُّن الهَمِّ إلى تغيُّر حالى ، ولولا أنَّ سُخْط الأمير — أيّده الله — لا يُصْبَر عليه ، وَوَجْده لا يقام له ، لرأيتُ الإمساك عن ذكر أمرى ، وشكوَى مابى ، إلى أن يستوى غيرُ ما أنا فيه لسرور ما كنت صرتُ إليـه من إكرام الأمير — أيَّده الله — وبرِّه وتشريفه وتقريبه ، ولعمري إن شديد ما أُقاسى ، — ولو دام حينا من دهرى — لَيَصْغُر عنـد

---

(١) نهكه السلطان عقوبة كسمع : بالغ فى عقوبته .

(٢) الموجدة : الغضب ، وكذا الوجد .

لحظةَ لحظَها إلىَّ ببرِّه ، فضلا عن رأيه الذى جَلَّ عن قدرى ، وعَجَزَ عن احتماله شكرى .

وقد تبيَّنَ للأمير — أعزه الله — أمرى ، وتحقيقُ شأنى ، فإن كان ما أنا فيه للهفوة التى كانت منى ، والجناية التى جنيتُها على نفسى بالجهل بصباى ، فقد وضع الله عن الصبىِّ فرائضَه عِلما بحاله ، وكانت حالى فى الصِّبا قريبةً من حاله ، والأمير — أعزه الله — أوْلَى مَن عَطَفَ فى ذات الله عن زَلَّتى ، واحتسَبَ الأجرَ فى إقالة عثرتى وهفوتى ، فإن رأى الأمير أبقاه الله أن يأمر بالدعاء بى ، والاستماع منى ، فَعَلَ مُنْعِما ، إن شاء الله » . (كتاب بغداد ٦ : ١٢٥)

٢٩٥ — عهد طاهر بن الحسين لابنه عبد الله

وكتب طاهر بن الحسين إلى ابنهْ عبد الله[1] لما ولاّه المأمون الرَّقَّة ومصر وما بينهما (سنة ٢٠٦ هـ) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيتِه ومراقبتِه ومزايلةِ سُخْطه وحفظِ رعيتك ، والزَم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمَعادِك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمْرَهم من عباده ، وألزمك العدلَ عليهم ، والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذبَّ عنهم[2] ، والدفع عن حريمهم وبَيْضَتهم[3] والحقنَ لدمائهم ، والأمن لسبيلهم[4] ، وإدخال الراحة عليهم فى معايشهم ، ومؤاخذك بما فَرَض عليك من ذلك ، وموقِّفك عليه ، ومُسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت

(١) توفى سنة ٢٣٠ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٦ .
(٢) الدفع . (٣) البيضة : حوزة كل شىء .
(٤) وفى مقدمة ابن خلدون : لسربهم ، والسرب : النفس .

وأخرت ، ففرّغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يَذْهَلك[1] عنه ذاهل ، ولا يَشْغلك[2] عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، ومِلاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك .

وليكن أول ما تُلزِم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قِبَلك فى مَواقيتها على سننها فى إسباغ[3] الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتّل[4] فى قراءتك ، وتمكّن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدُق فيها لربك نيتُك ، واحضُض عليها جماعة من معك وتحت يدك . وادأَبْ عليها فإنها كما قال الله تأمر بالمعروف ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرةَ على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعِن عليه باستخارة[5] الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تَمِل عن العدل فيما أحببتَ أو كرِهت ، لِقرَيب من الناس أو بعيد ، وآثِر الفقه وأهله ، والدين وحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزيّنَ به المرء الفقه فى دين الله والطلب له والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهى عن المعاصى والمُوبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجل ، وإجلالاً له ، ودَرْكاً للدرجات العُلاَ فى المَعاد ، مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأَنَسَة بك ، والثقة بعدلك .

---

(١) ذهلت عن الشىء (كفتح) : غفلت ، وقد يتعدى بنفسه فيقال ذهلته ، والأكثر أن يتعدى بالهمزة فيقال أذهلنى فلان عن الشىء .

(٢) شغله من باب فتح ، وأشغله لغة جيدة أو قليلة أو رديئة .

(٣) أسبغ الوضوء : وفى كل عضو حقه .

(٤) تمهل ولا تعجل . (٥) استخار الله : طلب منه الخيرة .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شىء أبيَنَ نفعاً ، ولا أحضَر أمناً ، ولا أجمعَ فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليـل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين ، والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثِره فى دنياك كلها ولا تقصِّر فى طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطْلب به وجه الله ومَرْضاته ومرافقة أوليائه فى دار كرامته . واعلم أن القَصْد فى شأن الدنيا يُورِث العِز ، ويحصِّن من الذنوب ، وإنك لن تحُوط[1] نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأْتِه واهتدِ به تتمّ أمورك ، وتزِدْ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عز وجل تستقمْ لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدِمْ به النعمةَ عليك .

ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشِفَ أمره فإن إيقاع التهم بالبُرآء والظنون السيئة بهم مَأثم ، واجعل من شأنك حُسْنَ الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يُعنك ذلك على اصطناعهم[2] ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطانُ فى أمرك مَفْخَرًا ، فإنه إنما يكتفى بالقليل من وَهَنك[3] ، فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغصك لَذاذةَ عيشك . واعلم أنك تجد بحُسْنِ الظن قوةً وراحة ، وتُكفَى به ما أحببتَ كفايتَه من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامةِ فى الأمور كلها ، ولا يمنعْك حسنُ الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألةَ ، والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، والحِياطةَ للرعية ، والنظر فيما يُقيمها ويُصْلِحها ، بل لتكن المباشرةُ لأمور الأولياء والحِياطةُ للرعية ، والنظر فى حوائجهم وحَمْلُ مَئوناتهم ، آثرَ عندك مما سوى ذلك ،

---

(١) تصون .   (٢) اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر أستكفيك إياه .

(٣) الوهن بسكون الهاء وفتحها : الضعف .

فإنه أقومُ للدِّين ، وأحيا للسنة . وأخلِصْ نيتّك فى جميع هذا ، وتفرَّد بتقويم نفسك تفرُّدَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزِىٌّ بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حِرْزًا وعِزًّا ، ورفع من اتبعه وعزّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نَهْجَ الدين وطريقة الهدى . وأقِمْ حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه، ولا تعطِّل ذلك ولا تَهاوَنْ به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك لَمَا يُفْسِد عليك حسنَ ظنك ، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشُّبَه والبدعاتِ يَسْلَمْ لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهدا ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وَأَغْمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغِض أهله ، وأقْصِ أهلَ النميمة ، فإن أوّل فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر . وأحِبَّ أهل الصدق والصلاح ، وأعِزّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعِزةَ أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجَوْر واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، والمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب وآثِر الوقار والحِلْم ، وإياك وَالحدةَ والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول: إنى مُسلَّط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلِص لله النية فيه واليقين به . واعلم أن المُلْك لله ، يُعطيه من يشاء ، وينزِعه ممن يشاء . ولن تجد تغيُّر النعمة وحُلولَ النقمة إلى حد أسرع منه إلى حَمَلة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم فى الدولة ، إذ كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شَرَه نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك

التى تدّخر وتكنز البرّ والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدهمائهم[١] والإغاثة لملهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذُخرت فى الخزائن لا تُثمِر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم ، نمت وربَت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ووفّر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلَك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حِصَصَهم وتعهَّد مايُصلح أمورهم ومعايشهم،فإنك إذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك واستوجبت المزيدَ من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شَمِلهم من عدلك وإحسانك أسلسَ لطاعتهم ، وأطيب نفسا لكل ما أردت فاجهَد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، وَلتعظُم حِسْبتك فيه ، فإنما يبقى من المال ما أُنفق فى سبيل حقه ، واعرِف للشاكرين شكرهم ، وأثبهم عليه . وإياك أن تُنسيك الدنيا وغرورها هولَ الآخرة ، فتتهاونَ بما يَحق عليك ، فإن التهاون يوجب التفريط ، والتفريط يورث البَوار ، وليكن عملك لله وفيه تبارك وتعالى ، وارجُ الثواب ، فإن الله قد أسبغ عليك نعمته فى الدنيا ، وأظهرَ لدينك فضلَه ، فاعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد ، يَزِدْك الله خيرا وإحسانا ، فإن الله يُثيب بقدر شكر الشاكرين ، وسِيرة المحسنين ، وقضى الحقّ فيما حُمّل من النعم ، وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحقِرن ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولاتَصلنّ كفورا ، ولا تداهِنَنّ عدوا ، ولاتصدِّقَن نمّاما ، ولا تأمنن غدّارا ، وَلا توالينّ فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمَدن مُرائيا ، ولا تحقِرن إنسانا ، ولا تردّن سائلا فقيرا ، ولا تجيبنّ[٢] باطلا ، ولاتلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وَعدا ، ولا تزهُوَنّ فخرا ، ولا تُظهِرَن غضبا ، ولا تأتين بَذَخا[٣] ، ولا

---

(١) الدهماء : جماعة الناس « وفى المقدمة : والحفظ لدمائهم » .

(٢) وفى المقدمة « ولا تحسنن باطلا » . (٣) البذخ : الكبر .

تمشين مَرَحا ، ولا تركبن سَفَها[١] ، ولا تفرّطن فى طلب الآخرة ، ولا ترفع للنّمّام عينا ولا تُغْمِضنّ عن الظالم رهبة منهُ أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وَأَكثِر مشاوَرة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب ، وَذوى العقل وَالرأى والحكمة ، ولا تُدخِلَن فى مشورتك أهل الدقة[٢] والبخل ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضَررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فسادا لما استقبلت فى أمر رعيتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكفّ عن أموالهم ، وترك الجور عنهم . ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح ، واعلم أنه أوّل ما عصى به الإنسان ربه ، وأن المعاصى بمنزلة خزيٍ ، وهو قول الله عز وَجل : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » فسهّل طريق الجود بالحق ، وَاجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظا ونصيبا ، وَأيقِنْ أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدِدْه لنفسك خُلقا ، وارضَ به عملا ومذهبا .

وتفقد أمور الجند فى دوَاوينهم وَمكاتبهم ، وأَدْرِر عليهم أرزاقهم ، وَوَسّع عليهم فى معايشهم ، ليُذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوّم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا ، وحسبُ ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً فى عدله وحَيطته[٣] وإنصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته ، فزايل مكروهَ أحد البابين باستشعار تكملة الباب الآخر ولزومِ العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحا .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه الأحوال فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ،

---

(١) وفى المقدمة « ولا تركين سفيها » . (٢) وفى المقدمة « أهل الرفه » .

(٣) فى المقدمة « وعطيته » .

وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسُن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، وَيقوم الدين ، وتجرى السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجّز الحق والعدل فى القضاء ، واشتد فى أمر الله ، وتورع عن النَّطَف[1] ، وَامض لإقامة الحدود ، وأَقلل العجلة ، وآبعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقَسْم ، ولتسكُن ريحُك ، وَيقَرّ حَدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك ، واسْدِد[2] فى منطقك ، وأَنصِف الخصم ، وقف عند الشُّبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباةٌ ولا محاماة[3] ولا لوم لائم ، وتثبت وتأنَّ وراقبْ ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك ، وآرأف[4] بجميع الرعية ، وسلِّط الحق على نفسك ، ولا تُسرعنّ إلى سفك دم - فإن الدماء من الله بمكان عظيم - انتهاكاً لها بغير حقها .

وَانظر هذا الخرَاج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزّا ورفعة ، ولأهله سَعة ومَنَعة ، ولعدوّه وعدوهم كَبْتا[5] وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديهم ذلّا وصغاراً ، فوزِّعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعَن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غنىّ لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تَـكلفَن أمراً فيه شَطَط ، واحمل الناس كلهم على مرّ الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جُعِلتَ بولايتك خازنا وحافظاً وراعياً ، وَإنما سُمّى أهل عملك رعيتَك لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منهم ما أعطَوْك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه فى قِوام أمرهم وَصلاحهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخِبْرَة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، وَوَسِّع عليهم فى الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت

---

(١) النطف : العيب والشر والفساد .

(٢) سد يسد كضرب : صار سديدا . (٣) فى المقدمة « ولا مجاملة » .

(٤) من باب كرم وقطع وطرب .

(٥) كبه . صرعه وأخزاه ورد العدو بغيظه وأذله .

وأسْنِد إليك ، وَلا يَشْغَلَنَّك عنهُ شاغل ، وَلا يَصرفنك عنهُ صارف ، فإنك متى آثَرْته وَقمت فيه بالواجِب ، استدعيتَ به زيادةَ النعمة من ربك وَحسن الأُحدوثة فى عملك ، وَاحترزت النَصَحة من رعيتك ، وَأُعِنْت على الصلاح ، فدَرّت الخيراتُ ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وَظهر الخِصب فى كُوَرك ، فكثُر خَراجك ، وَتوفرت أموالك ، وَقويت بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفسك ، وَكنت محمود السياسة ، مَرْضِىّ العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدة ، فنافِس فى هذا ولا تقدّم عليه شيئا ، تُحمَدْ مغبَّة أمرك إن شاء الله.

واجعل فى كل كُورة من عملك أمينا يُخبرك أخبار عُمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، مُعاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصُّنع ، فأَمْضِه ، وإلَّا فتوقفْ عنهُ ، وراجعْ أهل البَصَر والعلم ، ثم خذ فيه عُدته ، فإنه ربما نظر الرجل فى أمر من أمره قد واتاه على مايهوى ، فقوّاه[1] ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستَعملِ الحزم فى كل ما أردت ، وباشِره بعد عون الله بالقوة ، وأكثِر استخارةَ رَبك فى جميع أمورك ، وافرُغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغدٍ أمورا وحوادثَ تُلهيك عن عمل يومك الذى أخرت. واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرتَ عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشَغَلك ذلك حتى تُعْرِض عنه . فإذا أمضيت لكل يوم عملَه أرحتَ نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك .

وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَويتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ،

---

(١) فى المقدمة « وقد أتاه على ما يهوى فأغواه ذلك » .

وتعاهَدْ أهل البيوتات ممن قد دخلتْ عليهم الحاجة ، فاحتمِل مؤنتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لايجدوا خَلَّتهم[1] مسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لايقدر على رفع مَظْلَمته إليك ، والمحتقَر الذى لاعلم له بطلب حقه فاسأل عنه أخفَى مسألة ، ووكِّل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصلح اللهُ به أمرَهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال ، اقتداءً بأمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ فى العطف عليهم والصلة لهم ، ليُصْلح الله بذلك عيشهم ، وَيرزقك به بركةً وزيادة ، وأجْرِ للأضِرّاء من بيت المال ، وقدِّم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية[2] على غيرهم ، وانصِب لمَرْضى المسلمين دُورًا تؤويهم وقُوَّاما يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسْعِفهم بشهواتهم ، مالم يؤدِّ ذلك إلى سَرَف فى بيت المال . واعلم أن الناس إذا أُعطُوا حقوقهم وأفضلَ أمانيّهم ، لم يُرْضهم ذلك ، ولم تَطِب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلاتهم ، طمعاً فى نيل الزيادة وفضلِ الرفق منهم ، وربما بَرِم[3] المتصفح لأمور الناس ، لكثرة ما يَرِد عليه ، وَيشْغَل فكره وذهنه منها ما يناله به مُؤْنةٌ ومشقة . وليس من يرغب فى العدل وَيعرف محاسن أموره فى العاجل ، وَفضلَ ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقرِّبه إلى الله ، ويلتمس رحمته به ، وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وَسكِّن لهم أحراسك ، واخفِض لهم جناحك ، وأظهِر لهم بِشْرك ، ولِنْ لهم فى المسألة والمنطق ، واعطِف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر غير مكدِّر ولا منَّان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاءَ الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومَن مضى مِن قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم فى أحوالك كلها

(١) الخلة : الحاجة . (٢) فى المقدمة « فى الجرائد » .

(٣) ضجر ومل .

بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنِب مافارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله، واعرف ماتجمع عُمّالُك من الأموال وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تُنْفق إسرافا ، وَأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتباع السنن وَإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر ، وإعلامك مافيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك لك ، وانظر عُمّالك الذين بحَضرتك وكُتّابك ، فوقِّت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه ، بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عُمّالك ، وأمر كورك وَرعيتك ، ثم فرِّغ لما يورده عليك من ذلك سمْعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرِّر النظر إليه والتدبُّر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمْضِه ، واستخرِ الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرِفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه ، ولا تمنُن على رعيتك ولا عَلَى غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعَن المعروف إلا على ذلك ، وتفهَّم كتابى إليك وأكثِر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخِره ، فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ، ما كان لله رضاً ، ولدينه نِظاماً ، ولأهله عزا وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلًا وصلاحا . وأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورُشْدك وكلاءتك ، وأن يُنْزِل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظّا ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يُهْلك عدوك ومن ناوأك وبغَى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجُز الشيطان عنك ووساوِسَه ، حتى يستعلى أمرك بالعزّ والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب » .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه

وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون، فدعا به وقرئ عليه، فقال: ما بقّى أبو الطيب يعنى (طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيْضة وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال.

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٥٨، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٦ : ١٢٤، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩ ومختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ص ٤٣، وكتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٦)

٢٩٦ — كتاب إلى طاهر بن الحسين من بعض عماله

وكتب بعض عمال طاهر بن الحسين إليه كتابا، وفيه:

«وقد وجَّهت إلى الأمير ثوبَ دِيباجٍ أحمر أحمر أحمر».

٢٩٧ — رد طاهر عليه

فكتب طاهر إليه:

«قد قرأت كتابك، فعلمتُ أنك أحمق أحمق أحمق، فاقْدَم اقدَم اقدَم، والسلام».

(غرر الخصائص الواضحة ص ١٧٥)

٢٩٨ — كتاب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر

وكتب إبراهيم بن المهدى إلى طاهر كتابا، منه:

«زادكَ اللهُ للحقِّ قضاء، وللشكر أداء، أبلغنى رسولى عنك ما لم أزَلْ أعرِفُه منك، واللهُ يمتّعنى بك، ويُحْسِن فى ذلك عنى جزاءك، ومع ذلك فإنى أظن أنى علَّمتك الشوقَ، لأنى ذكرته لك، فهيَّجته منك، والسلام».

(الأوراق للصولى ٢ : ٣٥)

٢٩٩ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر يعزيه بأبيه :

« أما بعدُ : فإنه قد حَدَث من الرُّزْء العظيم — بوفاة ذى اليَمينين — ما إلى الله جَلَّ وعزَّ فيه المَفْزَعُ والمرْجِعُ ، وفيه عليه المستعانُ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتّباعا لأمر الله ، واعتصاما بطاعته ، وتسليما لنازل قضائه ، ورجاء لِمَا وَعَد الصابرين : من صلواته ورَحْمته وهداه ، وعند الله نحتَسِب مصيبتنا به ، فقد كان سبق إلى القلوب عند بَدَاهة الخبر ، من اللَّوعة واطِّلاع[1] الفجيعة ، ما كنا نخاف إحباطَه من الأجر ، لولا ما تدارَكَنا الله به من الذِّكر لِمَا وَعَد أهلَ الصبر ، فنسأل الله أن يَرْأبَ[2] هذه الثُّلْمَة ، ويسُدَّ هذه الخَلَّة بأمير المؤمنين أوّلا ، وَبك ثانيا ، وأن يعَظِّم مَثوبتك ، ويُحْسِن عُقباك ، ويخلُف بك ذا اليمينين ويَعْمُر بك مكانَه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين .

فأما ما تحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لُبّك فى حال العِزَّة والنَّماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تَعرُو به الأيام من نوائبها ، وتَبْعَث به من حوادثها ، وفى هذا لمن وُفّق له إعدادٌ للنوازل ، وتوطينٌ للأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هَلَعٌ ولا إفراطُ جَزَع بإذن الله ، مع أن مَرَدَّ كلِّ ذى جَزَع إلى سلْوة لا ثبات عليها ، فأَوْلَى بالراغب

---

(١) أى وإشرافها على القلوب وإحراقها إياها ، أخذه من قوله تعالى : « نَارُ اللهِ المُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ » أى يبلغ ألمها الأفئدة ، توفى عليها فتحرقها ، من اطلع : إذا أشرف .

(٢) رأب الصدع كمنع : أصلحه ، والخلة : الثقبة الصغيرة أو عام .

فى ذَاتِ الله أن يهتبل[1] مَثُوبَتَه فى أوانها ، من مَضَض الأسى ، وفجأة النكبة ، وأَوْلَى بذِ اللُّبِّ إِذَا علم ما هو لابدَّ صائرٌ إليه أَلَّا يُبْعد منهُ إبعاداً يلزمهُ التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما .

وقد كنتُ أحبُّ أَلَّا أقنعَ فى تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسى ، لو أمكننى المسيرُ ، إجلالًا للمصيبة ، وتأنُّسا بقربك ، بعد الذى دخلنى من الوَحْشَة ، فقد عرَفتَ ماخصَّنى من المرْزِئة بذى اليمينين ، لِمَا كنتُ أتعرَّف من جميل رأيه ، وعظيم بِرِّه حَاضرًا ، وما كان يَذْكُرنى به غائبا ، ذكَرَه الله فى الرفيق الأعلى ، وأنت وارِثُ حقِّه علىَّ ، إلى ما كنتُ لك عليه ، من صدق المودّة وخالص النصيحة ، وإلى الله أرغب فى تأدية شكرك ، والقيام بِما أوجبه لك ، فإن رأيتَ أن تأمر بالكتاب إلىَّ بما أبلاك[2] فى نفسك ، وألهمك من العَزاء والصبر ، مع ما أحببتَ وَبدَا لك إن شاء الله » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٤ ، والمنظوم والمنثور ١٣ : ٣٢٦)

٣٠٠ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

ولَّى المأمونُ عبدَ الله بن طاهر الرَّقَّةَ كما قدمنا ، وعَهد إليه فى محاربة نصر ابن شَبَث — وكان خرج على المأمون بالجزيرة — فلما جادَّه عبد الله بن طاهر القتالَ وحَصَره وبَلَغ منهُ ، طلَب الأمانَ فأعطاه وتحوّل من مُعَسْكَره إلى الرَّقة ، وصار إلى عبد الله بن طاهر .

---

(١) أى يغتنم .
(٢) أى أنعم عليك .

وكان المأمون قد كتب إليه قبل ذلك كتابا (كَتَبه عمرو بن مَسْعَدة[1]) يدعوه إلى طاعته، ومفارقة معصيته، فلم يقبل، فكتب عبد الله إليه:

«أما بعدُ: فإنك يا نصرُ بنَ شَبث قد عرَفْتَ الطاعة وعِزَّها وَبَرْدَ ظِلّها، وطِيب مَرْتَعِها، وما فى خِلافها من النَّدَم والخسار، وَإن طالت مدَّةُ الله بك، فإنه إنما يُمْلِى[2] لمن يلتمس مُظاهَرَةَ الحجَّة عليه لِتَقَع غِيَرُهُ بأَهْلِها على قَدْر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيتُ إنكارَك وتبصيرَك لِما رجوتُ أن يكون لِما أكتُبُ به إليك مَوْقعٌ منك، فإن الصِّدق صِدْقٌ، والباطلَ باطِلٌ، وإنما القول بمَخارِجه، وَبأهله الذين يُعْنَوْن به، ولم يعامِلْك من عُمَّال أمير المؤمنين أحَدٌ أنفعُ لك فى مالِك ودينك ونفسك، ولا أحرَص على استنقاذك، والانتياشِ[3] لك من خَطَائك منى.

فبأَىِّ أوَّلٍ أو آخِرٍ أوسِطَةٍ[4] أو إمْرَةٍ إقدامُك يانصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولَّى دونه ماولَّاه الله، وتُريد أن تَبيتَ آمِناً أومطمئنا أو وَادِعاً أوساكنا أو هادئا، فوَعالِمِ السِّرِّ والجهْرِ: لئن لم تكن للطاعة مُراجِعاً، وبها خانِعا[5]، لَتَسْتَوْبِلَنَّ[6] وَخيم العاقبة، ثم لَأَبْدَأَنَّ بك قبل كل عمل، فإنَّ قُرُون الشيطان إذا لم تُقْطَع كانت فى الأرض فِتنةً وفسادا كبيرا، وَلَأَطَأَنَّ بمن معِى من أنصار الدولة

---

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول، أحد وزراء المأمون، وكان كاتبا بليغاجزل العبارة وجيزها. سديد المقاصد والمعانى، توفى سنة ٢١٧ هـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ والفهرست لابن النديم ص ١٧٨، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٢٠٣، ومعجم الأدباء ٦ : ٨٨ (طبع مطبعة هندية).

(٢) يملى: يمهل، ومظاهرة الحجة: أى مضاعفتها.

(٣) انتاشه. أخرجه. والخطأ والخطاء واحد.

(٤) يقال وسطت القوم أسطهم وسطا وسطة، كوعد: أى توسطتهم.

(٥) الخنوع: الخضوع والذل.

(٦) المرعى الوبيل: الوخيم الثقيل، واستوبله: وجده وبيلا غير موافق.

كواهِلَ رَعاعِ أصحابك ، وَمَن تأشَّبَ[1] إليك من أدانى البُلدان وأقاصِيها وَطَغَامها وأوباشها ، وَمَن انضَوَى[2] إلى حوْزتك من خُرَّاب[3] الناس ، ومَن لَفَظه بلدُه ، وَنَفَتْه عشيرتُه لسُوء موضِعه فيهم ، وقد أعذَرَ مَن أنذرَ ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٣٧ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٧)

٣٠١ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شبث

وَرَوَى صاحب زهر الآداب قال :

وكتب عبد الله بن طاهر إلى نصر بن شَبَث وَقد نزل به ليحاربه فى جنده فوجده محَصَّنا منهُ فكتب إليه :

« اعتصامُك بالقِلال[4] ، قَيَّدَ عَزمَك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس يُنْجِيك من المَنُون[5] ، ولَستَ بمُفْلِتٍ من أمير المؤمنين ، فإمَّا فارِسٌ مُطاعِنٌ ، أو راجِلٌ مستأمِنٌ » :

فلما قرأه حَصَره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستأمِنا .

(زهر الآداب ٣ : ٣٣١)

٣٠٢ — أمان عبد الله بن طاهر لنصر بن شبث

وكان مقام عبد الله بن طاهر على نصر بن شَبَث محاربا له فيما ذكر خمس سنين حتى طلب الأمان ، فكتب عبد الله إلى المأمون يُعْلمه أنه حَصَره وضَيَّق عليه وقتل رؤساء من معه ، وأنه قد عاذ بالأمان وطَلَبه ، فأمره أن يكتب له كتاب أمان ، فكتب إليه أمانا نسخته :

---

(١) تأشبوا : اجتمعوا ، والطغام : أوغاد الناس . (٢) انضوى إليه : انضم ومال .
(٣) الخراب : جمع خارب ، وهو اللص ، ولفظه : طرحه ورماه .
(٤) القلال : جمع قلة بالضم : وهى أعلى الجبل . (٥) المنون : الموت .

« أما بعدُ : فإن الإعذارَ بالحق حُجَّةُ اللهِ المقرونُ بها النصرُ ، والاحتجاجَ بالعدل دعوةُ الله الموصولُ بها العِزُّ ، ولا يزال المُعْذِرُ بالحق ، المحتجُّ بالعدل في استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاءِ أسباب التمكين ، حتى يفتحَ اللهَ وهو خير الفاتحين ، ويُمكِّن وهو خير الممكِّنين ، ولستَ تعدُو أن تكون فيما لَهِجْتَ[1] به أحدَ ثلاثةٍ : طالبَ دِين ، أو ملتمِسَ دنيا ، أو متهوِّرًا يطلب الغَلَبةَ ظُلْمًا ، فإن كنتَ للدِّين تسعَى بما تصنع ، فأَوضِحْ ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قَبوله إن كان حقا ، فلعَمْرِى ما هِمَّتُه الكبرى ، ولا غايتُه القُصْوَى ، إلا الميلُ مع الحق حيث مال ، والزوالُ مع العَدْل حيث زال ، وإن كنتَ للدنيا تقصِدُ فأَعْلِمْ أمير المؤمنين غايتَك فيها ، والأمرَ الذى تستحقها به ، فإن استحقَقْتَها وأمْكَنَه ذلك فَعَلَه بك ، فلعمرى ما يستجيز مَنْعَ خلقٍ مَا يستحقُّه وإن عَظُم ، وإن كنتَ متهوِّرًا فسيكفِى اللهُ أميرَ المؤمنين مُؤْنَتَك . ويعجِّل ذلك كما عجَّل كِفايَةَ مُؤَنَ قومٍ سَلكوا مِثْلَ طريقك ، كانوا أقوى يدًا ، وأكثَفَ جنداً ، وأكثر جَمْعاً وعَدَدا ونصرًا منك ، فيما أصارهم إليه من مَصَارِع الخاسرين ، وأنزَلَ بهم من حوائج[2] الظالمين .

وأميرُ المؤمنين يختم كتابَه بشهادة أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَه لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وضَمانه لك فى دينه وذمَّته الصَّفْحَ عن سوالِف جرائمك ، ومتقدِّمات جرائرك[3] ، وإنزالَك ما تستأهِلُ من منازل العز والرفعة ، إن أَنبْتَ وراجعتَ إن شاء الله ، والسلام » .

وخرج نصر إلى عبد الله بن طاهر بالأمان ، فوجَّه به إلى بغداد ، فأنزله المأمون مدينة أبى جعفر ، ووكَّلَ به من يحفظه (سنة ٢١٠ هـ) .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٦٨)

---

(١) لهج بالأمر كفرح : أغرى به فثابر عليه .
(٢) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الآفة المهلكة . (٣) الجرائر : جمع جريرة ، وهى الجريمة .

٣٠٣ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى عبد الله بن السرى

ولما فَرَغَ عبد الله بن طاهر من نصر بن شَبَث ، كتب إليه المأمون يأمره بالمسير إلى مصر — وكان قد خرج بها عُبَيْدُ الله بن السَّرِيّ بن الحَكَم — فسار إليه ، فلم تكن من عبد الله إلا حَمْلة واحدة ، حتى انهزم ابن السرىّ وأصحابه وطلب منه الأمان ، وخرج إليه :

وروى أن ابن السرى بعث إلى ابن طاهر لما وَرَد مصرَ وصانَعَه من دخولها ، بألف وصيف ووصيفة ، ومع كل وصيف ألفُ دينار فى كيس حرير ، وبعث بهم إليه ليلاً ، فرد ذلك عليه ابن طاهر وكتب إليه :

« لو قبلتُ هديتك ليلا لقبلتُها نهاراً[1] » ، « بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ».

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٤)

٣٠٤ — كتاب المأمون إلى عبد الله بن طاهر

وكتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتحها ، فى أسفل كتاب له :

أَخِي أنت ومولاىَ ومن أشكُرُ نُعْماهُ[2]
فما أحبَبْتَ مِن أمرٍ فإنى الدهرَ أهواهُ
وَمَا تَكْرَهُ من شىء فإنى لست أرضاهُ
لك اللهُ على ذاكَ لك اللهُ لك اللهُ

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٤٩ ؛ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٦)

---

(١) وفى الطبرى « لو قبلت هديتك نهارا لقبلتها ليلا » .
(٢) المولى هنا : النصير والصديق .

٣٠٥ — كتاب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عُبيد الله ابن السَّرِيّ إليه يهنئه بذلك الفتح :

« بَلَغني — أعزَّ اللهُ الأميرَ — مافتَح اللهُ عليك ، وخروجُ ابن السَّريّ إليك ، فالحمدُ للهِ الناصرِ لدينه ، المُعزِّ لدولة خليفته على عباده ، المُذِلِّ لمن عَنَدَ[1] عنه وعن حقِّه ، وَرَغِبَ عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهِرَ له النِّعَمَ ، ويفتح له بُلْدانَ الشِّرك ، والحمد لله على ماوَلِيك به مُذْ ظَعَنْتَ[2] لوَجْهك ، فإنَّا وَمَن قِبَلَنا نتذاكَر سِيرَتَك فى حَرْبك وسِلْمِك ، ونُكثِر التعجُّبَ لِما وُفِّقتَ له من الشدة واللِّيان فى مواضعهما ، ولا نَعلم سائِسَ جندٍ ورعيةٍ عَدَلَ بينهم عَدْلَك ، ولا عَفا بعد القدرة عمن آسَفَه[3] وأَضْغَنه عَفْوَك ، ولَقَلَّما رأَيْنا ابنَ شَرَفٍ لم يُلْقِ بيده متَّكلاً على ماقدَّمَتْ له أُبوَّتُه ، ومن أُوتِىَ حَظًّا وكفاية وسلطانا وولاية ، لم يُخْلِد إلى ماعفا[4] له حتى يخُلَّ بمُساماةِ ماأمَامَه ، ثم لانعلَم سائسًا استحقَّ النُّجحَ لحُسْنِ السيرة ، وكفِّ مَعَرَّة الأتباع ، استحقاقَك ، ومَا يستجيزُ أحدٌ ممن قِبَلَنا أن يقدِّم عليك أحدا يَهْوَى عند الحاقَّة[5] ، والنازلة المُعْضِلَة ، فلْيَهْنِيكَ[6] مِنَّةُ الله ومَزِيدُه ، ويُسَوِّغْك اللهُ هذه النعمةَ التى حواها لك ، بالمحافظة على مابه تمَّتْ لك ، من التمسُّك بحَبْلِ إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، ومَلَّاكَ[7] وإيانا العيشَ ببقائه ، وأنت تعلم أنَّك لم تزَل عندنا وعند مَن

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : مال . (٢) ظعن كمنع : سار .
(٣) آسفه : أغضبه . (٤) عفا الشىء : إذا كثر وزاد .
(٥) الحاقة : النازلة .
(٦) فى الأصل « فليهنك » وجاء فى لسان العرب والمصباح « تقول العرب فى الدعاء : ليهنئك الولد، وليهنئك الفارس ، بجزم الهمزة ، وبإبدالها ياء ساكنة ، ولا يجوز ليهنك بحذف الياء كما تقول العامة» . أقول : والوجه فى إبقاء الياء مرعاة أصلها وهو الهمزة ، وأن ذلك الإبدال عارض للتخفيف لا يعتد به وإلا فالحق حذف الياء لموجب الجزم .
(٧) ملاك الله حبيبك تملية : متعك به وأعاشك معه طويلا .

قِبلَنا مُكرَّما مُقدَّما مُعظَّما ، وقد زادك الله فى أعين الخاصَّة والعامَّة جلالةً وَبَجَالَة[1] ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويُعِدُّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفِّقك الله لِحَابِّه كما وَفَّق لك صُنعَه وتوفيقه ، فقد أحسنتَ جِوارَ النعمة فلم تُطغِك ، ولم تَزددْ إلا تذلُّلا وتواضُعا ، فالحمدُ لله على ما أنالكَ وَأبْلاكَ[2] وَأَوْدَعَ فيك ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٠٠ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٨)

٣٠٦ — كتاب الهزبر بن صبيح إلى عبد الله بن طاهر

وكتب إلى عبد الله بن طاهر الهِزَبْر بن صُبَيح يستمنحه لشاعر مدحه : « جُعِلْتُ فِداك أيها الأمير ، ومَدَّ اللهُ لك فى العمر مُمتَّعا بالنعم ، مَكفِيًّا نوائبَ الدهر ، أنت — أيها الأمير — سماء مُمطِر ، وبحر لا يَكْدُرُ ، وغيث مُمْرِع[3] بحبائه المُجْدِبُ ، ومُنتهَى أبصار[4] قوم ، ومَثْنَى أعناقهم ، أصبحت لهم كالوالد تُكرِمُ زائرهم ، وتُصْفِد[5] مادحَهم ، وتُصْدِر وَارِدَهم وقد انفرجَتْ عنه الضِّيقةُ ، وانزاحَتْ عنه الكُربةُ ، وكذلك كان آباؤك للمتعلِّقين بهم ، والموجِّهين رغبتَهم نحوهم ، وإن كنتَ تمهَّلْتَ وسبَقْتَ سبْقا بَيِّنا ، وذهبتَ بحيثُ لا يَشُقُّ أحدٌ غُبارَك ، ولا يجرِى إلى غايتك ، وفتحتَ يداً مُخْضَلَّة[6] متدفِّقة بالنَّوَالِ والإفضال ، على الحالِّين بساحتك ، والمنتجِعين خِصْبَ جَنابِك .

وَأنا أقْدَم عليك أيها الأمير فى أشياءَ تُشْبه قدْرك ، وأُحِبُّ أن يكون أكثرُ زَادِك مما أفادك الله صنيعةً تصنعُها ، ونعمةً تشكرها ، وتحوز أجْرَها ، وتصدِّقَ الظنَّ فيها .

---

(١) بجله تبجيلا : عظمه ، وقد بجل ككرم بجالة وبجولا .

(٢) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، يقال : أبلاه الله بلاء حسنا .

(٣) أمرع الوادى : أخصب ، والحباء : العطاء ، وفى الأصل « بحياته » .

(٤) فى الأصل « أنصار » .

(٥) أصفده اصفادا : أعطاه ووصله ، والاسم الصفد بالتحريك .   (٦) مخضلة : ندية .

وَفلان فى الصحبة من ذوى البيوتات التى يُرغب فى الصنائع عندها ، والتوسط من الأداة[١] التى توجب احتمال من حَمَلها ، وقد أهدى إلى الأمير شعرا يتوصَّل به إليه ، ويستهدى من فضله وكرمه ما أعلَمُ أنه يُعينه فى مِثله ، وسألنى أن أكون سبب ذلك وفاتحه ، وَأولَى الناسِ بالاعتدادِ بما ذكر والتطاوُلِ والابتهاجِ به ، رَهْطُ الأمير الأدنَوْن وأسرته الأقربون ، الذين جعله الله سهْمَهم الذى به يقارِعون ، وَعِزَّهم الذى به يعتزّون ، وسَندهم الذى به يلْجئون ، ومَعْقِلَهم الذى به يَئُولُون ، فرأىُ أمير المؤمنين فى هديته ، واستماعِها منهُ ، ووضعِه بحيثُ وضعَه أملُه ورجاؤه .

فدعا عبد الله بن طاهر بالشاعر الذى وجَّهه إليه واستمع منهُ ، وأحسن جائزته ، وصَرفهُ إليه .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ١٥١)

٣٠٧ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو

وكتب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمرو التَّغْلَبىّ :

« أما بعدُ فقد بلغنى مِنْ قَطْعِ الفَسَقَة الطريقَ ما بَلَغَ ، فلا الطريقَ تَحْمِى ، ولا اللصوصَ تَكْفِى ، ولا الرعيَّةَ تُرْضِى ، وتطمَعُ بعد هذا فى الزيادة ! إنك لَمُنفَسِحُ الأمل ! وايمُ الله لتَكْفِيَنَّ مَنْ قِبَلَك ، أوْ لأُوَجِّهَنَّ إليك رجالاً ، لا تُعْرَف مُرَّة مِن جَهْم ، ولا عَدِىّ من رُهْم[٢] ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله » .

(العقد الفريد ١ : ١٧)

---

(١) فى الأصل « الأداد » وأرى أن صوابها « الأداة » وهى الوسيلة .

(٢) كلها أسماء قبائل .

٣٠٨ – كتاب عبد الله بن طاهر إلى المأمون

وأهدى عبد الله بن طاهر إلى المأمون فرساً ، وكتب إليه :

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يَلْحَقُ الأرانب فى الصَّعْداء[1] ، ويجاوز الظِّباء فى الاُستواء ، ويسبِق فى الحُدُور[2] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبَّطَ شرًّا :

ويسبِقُ وفْدَ الرِّيح من حيث تَنْتَحى ... بمُنْخَرِقٍ من شَدِّه المتدارِكِ[3]

(زهر الآداب ١ : ٣٠٧)

٣٠٩ – كتاب المأمون إلى قثم بن جعفر

ولما كانت سنة ٢١٠ هـ أمر المأمون بدَفع « فَدَك[4] » إلى وَلد السيدة فاطمة رضى الله عنها ، وكتب بذلك إلى قُثَم بن جعفر عامله على المدينة :

« أما بعدُ ، فإن أمير المؤمنين بمكانِهِ من دين الله ، وخلافةِ رسوله صلى الله عليه وسلم والقرابةِ به ، أَوْلَى مَن استَنَّ بِسُنَّتِه . ونفَّذ أمْرَه ، وسلم — لِمَنْ مَنَحه مِنْحَة وتصدَّق عليه بصدقةٍ — مِنحتَه وصَدَقَتَه ، وبالله توفيقُ أمير المؤمنين وعِصْمَتُه ، وإليه — فى العمل بما يقرِّبه إليه — رَغْبَتُه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى فاطمة بنت رسول الله فَدَكَ، وتصدَّق بها عليها ، وكان ذلك أمراً ظاهراً معروفا لا اختلاف فيه بين آلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تزَلْ تدَّعِى منه ماهى أَوْلَى مَن صُدِّق عليه ، فرأى أمير المؤمنين أن يردَّها إلى وَرَثتها ، ويسلِّمها إليهم ، تقرُّبا

---

(١) الصعداء : المشقة . (٢) الحدور : الإسراع .

(٣) الشد: العدو ، واختراق الرياح وانخراقها: مرورها وهبوبها (ومنخرقها بفتح الراء : مهبها) قال رؤبة : * بكل وفد الريح من حيث انخرق *

(٤) فدك : قرية بخيبر بينها وبين المدينة يومان ، وقد قدمنا عنها كلمة مطولة فى الجزء الثانى ص ٢٨٥ فارجع إليها .

إلى الله تعالى ، بإقامة حقِّه وعدله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتنفيذ أمْرِه وصَدَقته ، فأمر بإثبات ذلك فى دواوينه ، والـكتابِ إلى عماله ، فلئنْ كان يُنادَى فى كل مَوْسِم بعد أن قبض اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، أن يَذْكُرَ كلٌّ من كانت له صدقةٌ أو هبَة أو عِدَةٌ ذلك ، فيُقبلَ قوله ، وتُنفَّذَ عِدَتُه ، إن فاطمة رضى الله عنها لأولى بأن يصدَّق قولها فيما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها .

وقد كتب أمير المؤمنين إلى المبارَك الطَّبَرىّ مولى أمير المؤمنين يأمره برَدِّ فَدَكَ على ورثة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بِحدُودها وجميع حقوقها المنسوبة إليها ، وما فيها من الرَّقيق والغَلاَّت وغير ذلك ، وتسليمِها إلى محمد بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومحمد بن عبد الله بن الحسين بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب، لِتولية أمير المؤمنين إياهما القيامَ بها لأهلهما .

فاعلَمْ ذلك من رأى أمير المؤمنين ، وما ألْهَمَه الله من طاعته ، ووفَّقه له من التقرُّب إليه وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلِمْه مَن قِبَلك ، وعامِلْ محمد بن يحيى ومحمد بن عبد الله بما كنت تعامِلُ به المبارك الطبرى ، وأعِنْهما على مافيه عِمارتِها ومصلحتِها ووُفُور غلاَّتِها إن شاء الله ، والسلام » .

وكُتب يوم الأربعاء لليلتين خَلَتا من ذِى القَعدة سنة ٢١٠ هـ .

(فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٠ ، ومعجم البلدان ٦ : ٣٤٥)

٣١٠ — كتاب أبى العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة

وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معْن بن زائدة :

« أما بعد : فإنى توسَّلْتُ إليك فى طلب نائِلك[1] بأسباب الأمل ، وذَرائع الحمد ، فِراراً من الفقر ، ورجاءً للغِنى، فازددتُ بهما بُعدا مما فيه تقرَّبْتُ وقُرْباً مما فيه تبعَّدْتُ، وقد قسمتُ اللائمةَ[2] بينى وبينك ، لأنى أخطأتُ فى سؤالك ، وأخطأتَ فى منعِى :

---

(١) النائل : العطاء كالنوال والنال . (٢) اللائمة : اللوم .

أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتُهم ، ونُهِيتَ عن منع أهل الرغبة فمَنَعْتَهُمْ ، وفى ذلك أقول :

فَرَرْتُ من الفقر الذى هو مُدْرِكى ... إلى بُخلِ محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ
فأعْقَبَنى الحِرْمانَ غِبَّ مطامِعِى ... كذلك مَن يلقاه غيرَ قَنُوعِ
وغيرُ بديعٍ منعُ ذِى البخل مالَه ... كما بذلُ أهلِ الفضل غيرُ بديع[1]
إذا أنت كشَّفتَ الرجالَ وجدتَهم ... لأعراضهم من حافظٍ ومُذيع

(العقد الفريد ٢ : ١٩٦)

٣١١ – كتاب عمرو بن مسعدة إلى المأمون

وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون فى رجل من بنى ضَبَّة يستشفع له بالزيادة فى منزلته ، وجَعَل كتابه تعريضاً :

« أما بعدُ ، فقد استشفعَ بِى فلانٌ يا أمير المؤمنين – لِتَطَوُّلِك[2] علىَّ – فى إلحاقِهِ بِنُظَرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمتُه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مَراتِب المستشفِعِين ، وفى ابتدائه بذلك تَعَدِّى طاعَتِه ، والسلام » .

٣١٢ – رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« قد عرَفْنا توطئتك له ، وتعريضَك لنفسك ، وأجَبْناك إليهما، ووافقناك عليهما» .

(المثل السائر ص ٣٩١)

---

(١) أى غير مبتدع .

(٢) التطول : التفضل .

٣١٣ — كتاب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل

وكتب عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل :

« أما بعدُ : فإنك ممن إذا غرَس سَقَى ، وإذا أسَّسَ بَنى ، لِيَستَتِمَّ تشييد أسّه ، ويجتنيَ ثِمار غرْسه ، وبِناؤُك[١] عندى قد شارَفَ الدُّرُوسَ[٢] ، وغرسُك مُشْفٍ[٣] على اليُبُوس ، فتدارَكْ بناء ما أسَّسْتَ ، وسَقْيَ ما غرَسْتَ ، إن شاء الله »[٤] .

(معجم الأدباء ٦ : ٩٠) (طبع هندية)

٣١٤ — كتابه إلى الحسن بن سهل

وكتب إلى الحسن بن سهل عن لسان المأمون يهنئه بمولود :

« أما بعدُ : فإن هِبَة الله لك هِبَةٌ لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك فى عَدَدك زيادةٌ له فى عدده ، لِمَحَلِّك عنده ، ومكانِك من دولته ، وقد بلغ أميرَ المؤمنين أن الله وهب لك غُلاما سَرِيًّا[٥] ، فبارَكَ الله لك فيه ، وجعله بارًّا تقيًّا ، مبارَكًا سعيداً زَكِيًّا » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) فى الأصل « وثناؤك » وهو تصحيف .

(٢) الدروس : الامحاء والزوال . (٣) أشفى عليه : أشرف .

(٤) وروى ابن خلكان فى وفيات الأعيان (٢ : ٥٥) قال : وحكى أبو عبد الله البيمارستانى أن أبا حفص الكرمانى كاتب عمرو بن مسعدة كتب إلى محمد بن عبدالملك الزيات : « أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى غرسه ، وإذا أسس بنى أسه . . . ويجتنى ثمرة غرسه ، وبناؤك فى ودى قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست » وسيرد عليك هذا الكتاب بعد بصورة أطول صادرا من الكرمانى إلى بختيشوع .

(٥) سريا : سيدا شريفا ، وصف من السرو : وهو المروءة فى شرف .

٣١٥ — كتابه إلى المأمون

« وقَدِم على المأمون رجل من أبناء الدَّهاقين[١] وعظمائهم من أهل الشام ، على عِدَة سَلَفَت له من المأمون ، من توليته بلدَه ، وأن يَضمَّ إليه مملكته ، فطال على الرجل انتظارُ خروج أمرِ أمير المؤمنين ، فقصد عمرَو بن مَسْعَدة ، وسأله إيصالَ رُقعة إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتب بما شئت فإنى مُوصِله ، قال : فتولَّ ذلك عنى حتى تكون لك نعمتان ، فكتب عمرو :

« إنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن يَفُكَّ أسْرَ عِدَته من رِبْقة[٢] المَطْلِ ، بقضاء حاجةِ عبده ، والإذن له بالانصراف إلى بلده ، فَعَلَ مُوفَّقا » .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرا وجعل يَعْجَب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد فيها ، فقال له عمرو : فمَا نتيجتُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : الكتابةُ له فى هذا الوقت بما سأل ، لئَلا يتأخر فضلُ استحساننا كلامَه ، وبجائزةٍ تنِفى دناءةَ المَطْلِ .

(زهر الآداب ٣ : ٣٥٧)

٣١٦ — كتابه فى وصاة

وأمره المأمون أن يكتب لشخص كتابا إلى بعض العمَّال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فى سطر واحد ، فكتب إليه :

« كتابى إليك كتابُ وَاثقٍ بمن كُتِبَ إليه ، مَعْنِيٍّ بمن كُتِب له ، ولن يضيع بين الثِّقة والعناية حاملُه ، والسلام » .

قال ابن خلكان : وقيل إن هذا من كلام الحسن بن وهب ، والأول أصح وأشهر

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠ ؛ ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

---

(١) الدهاقين : جمع دهقان بالكسر والضم ، وهو رئيس الإقليم ، وزعيم فلاحى العجم ، معرب .

(٢) الربق بالكسر : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم ، كل عروة ربقة .

٣١٧ — كتابه إلى بعض أصحابه

وكتب عمرو إلى بعض أصحابه فى حق شخص يعِزُّ عليه .

« أما بعدُ . فمُوصِّل كتابى إليك سَالم ، والسلام » .

أراد قول الشاعر :

يُدِيرُوننى عن سالِمٍ وأُدِيرُهم وجِلْدةُ بين العين والأنف سالِمُ

أى يَحُلُّ منى هذا المحلّ . (وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣١٨ — كتابه إلى المأمون

وقال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون وفى يده كتاب ، وهو يعاود قراءته مرَّةً بعد مرةً ، ويصعِّد فيه بصره ويصوِّبه ، فالتفت إلىّ وقد لَحَظَنى فى أثناء قراءته للكتاب ، فقال : يأحمد أراك متفكِرا فيما تراه منى! قلت: نعم ، وَقَى الله أمير المؤمنين من المكاره، وأعاذه من المخاوف ، قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأت كتابا وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقوله فى البلاغة ، فإنى سمعته يقول : « البلاغة التباعد من الإطالة ، والتقرب من البُغْية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى » وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة ، حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو ابن مسعدة إلينا ، ورمى به إلىّ فقرأته فإذا فيه :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ومَن قِبَلى من قُوَّاده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة ، على أحسنِ ما تكون عليه طاعةُ جندٍ تأخرَتْ أرزاقهم ، وانقيادُ كُفاةٍ تراخَتْ أَعْطِياتُهم ، واختلَّتْ لذلك أحوالُهم ، والْتاثت[1] معه أمورُهم » .

---

(١) الالتياث : الاختلاط .

فلما قرأته ، قال : إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرتُ للجند قِبَله بعطائهم لسبعة أشهر[١] ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه ، مَنْ حَلَّ محلّه فى صناعته .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١ ؛ وزهر الآداب ٣ : ١٥٥ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٦٠)

٣١٩ — كتابه إلى بعض الرؤساء

وكان بعض الرؤساء قد تزوجت أمه فساءه ذلك ، فكتب إليه عمرو بن مسعدة رسالة بديعة ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها وذهب عنه ما كان يجده ، وهى :

الحمدُ لله الذى كَشَفَ عنا سِتْرَ الحَيْرَة ، وهدانا لِسَتْرِ العَوْرة ، وجَدَع بما شَرَع من الحَلالِ أنْفَ الغَيرة[٢] ، ومَنَع من عَضْلِ الأُمَّهات[٣] ، كما مَنَع من وَأْدِ البنات ، استنزالاً للنفوس الأبيَّة عن الحميَّة حَميَّة الجاهليَّة ، ثم عَرَّض لجزيلِ الأجرِ مَن استسلمَ لوَاقعِ قضائه ، وعَوَّض جليلَ الذُّخْر مَن صَبَر على نازِل بلائه ، وهَنَأكَ الذى شَرَح للتقوى صَدْرَكَ ، ووسَّعَ فى البلوَى صَبْرَكَ ، وألهَمَكَ مِن التسليم لمشيئته ، والرِّضا بقضيته ، ما وفَّقَكَ له من قضاء الواجب فى أَحَدِ أَبويك ومَن عظَّمَ حَقَّه عليك ، وجعل الله — تعالى جَدُّه — ماتجرَّعْتَه مِن أَنَفٍ ، وكظَمْتَه من أسَفٍ ، معدوداً فيما يُعْظِم به أجرَكَ ، ويُجْزِل عليه ذُخْرَكَ ، وقَرَن بالحاضِر من امتعاضك بفعلها ، المنتَظَرَ من ارتماضك[٤] بدَفْنها ، فتستوْفِي بها المصيبة ، وتستكمِل عنها المَثُوبة ، فَوَصَل اللهُ لسيدى ما اسْتَشْعَرَه من الصبر على عُرْسها ، بما يستكسِبُه من الصَّبر على نفسها[٥] ، وعوَّضه من أَسِرَّة فَرْشها ، أعوادَ

---

(١) وفى زهر الآداب « ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه فى الأجناد ، وإعفائه سلطانه من الإكثار ، ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر » .

(٢) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم ليلة زفت فاطمة إلى على رضى الله عنهما « جدع الحلال أنف الغيرة » وجدع أنفه كمنع : قطعه .

(٣) عضل المرأة : منعها الزوج ظلما ، ووأد بنته : دفنها حية ، والحمية : الأنفة .

(٤) امتعض من الأمر : شق عليه ، وارتمض منه : اشتد عليه وأقلقه أيضا .

(٥) أى حين موتها .

نَعشها ، وجعلَ — تعالى جَدُّه — ما يُنْعِم به عليه بعدها من نِعْمة ، مُعَرًّى من نِقمة ، وما يُوليه بعد قبضها من مِنْحة ، مُبَرًّأ من مِحْنة ، فأحكامُ الله — تعالى جدُّه ، وتقدسَتْ أسماؤه — جارية على غير مُرَاد المخلوقين ، لـكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجِلة ، وأبقى لهم فى الآجِلة ، اخْتار الله لك فى قَبْضها إليه ، وقدومها عليه ، ما هو أنفعُ لها وأولَى بها ، وجَعل القَبْرَ كُفْؤًا لها ، والسلام » .

وقيل إن هذه الرسالة لأبى الفضل بن العميد[١] .

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩٠)

٣٢٠ — كتاب له

وكتب عمرو بن مسعدة :

وصل إلىَّ كتابُك ، على ظَمَإٍ منى إليه ، وتَطَلُّع شديد ، وبُعْدَ عهدٍ بعيد ، ولَوْمٍ منى على ما مَسَسْتَنِى به من جَفائك ، على كَثْرة ما تابعتُ من الكُتب ، وعدِمْتُ من الجواب ، فكان أولَ ما سَبق إلىَّ من كتابك السرورُ بالنظر إليه ، أنْسًا بما تجدَّد لى من رأيك ، فى المواصلة بالمكاتبة ، ثم تضاعُفَ المسَرَّة بخبر السَّلامة ، وعلمِ الحال فى الهيئة ، ورأيتك بما تظاهَرْتَ من الاحتجاجِ فى ترْك الكتاب ، سالكا سبيل التخلُّص مما أنا مخلِّصُك منه ، بالإغضاء عن إلزامِك الْحُجَّةَ فى ترك الابتداء والإجابة ، وذكرتَ شُغْلك بوجوه من الأشغال كثيرةٍ متظاهِرة مُمِلَّة[٢] لا أُجَشِّمُك متابعةَ الكتب ، ولا أُحمِلُ عليك المشاكلة بالجواب ، ويُقْنِعنى منك فى كل شهر

(١) وأنت إذا تأملت هذه الرسالة وجدتها بنسج ابن العميد أشبه ، إذ تتجلى فيها الصنعة البديعية من الطباق والجناس الناقص والسجع مما كان عماد طريقته ، ولم يكن فاشيا فى كتابة ابن مسعدة ولا كتاب عصره .

(٢) فى الأصل « ممكنة » وهو تحريف .

كتاب ، ولئن (تُلْزِم[1]) من نفسك فى البرّ قليلا إلاَّ ألزمتُ نفسى منه كثيرا ، وإن كنتُ لا أستكثِرُ شيئا منك ، أدام الله مودَّتك ، وثبَّت إخاءك ، واستماحَ[2] لى منك ، فرأيك فى متابعة الكُتُب ومحادثتى فيها بخبرك ، مُوفَّقًا إن شاء الله » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٦٢)

٣٢١ — كتابه إلى أبى الرازى

وخرج المأمون يوما من باب البستان ببغداد ، فصاح به رجل بَصْرِىٌّ : يا أمير المؤمنين ، إنى تزوجت بامرأة من آل زِياد ، وإن أبا الرازى[3] فرّق بيننا ، وقال : هى امرأة من قريش ، فأمر المأمون عمرو بن مسعدة فكتب إلى أبى الرازى :

« إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزِّيادية وخَلْعك إياها إذ كانت من قريش ، فمتى تحا كَمتْ إليك العربُ — لا أمَّ لك[4] — فى أنسابها ؟ ومتى وَكَّلتْك قريش يابن اللَّخْناء[5] بأن تُلْصِقَ بها من ليس منها ؟ فَخَلٌّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زيادٌ من قريش إنه لَابنُ سُمَيَّةَ ، بَغِىٍّ عاهِرة ، لا يُفْتَخَر بقرابتها ، ولا يُتَطاوَل بولادتها ، ولئن كان ابنَ عُبَيْد لقد باء بأمر عظيم ، إذ ادَّعَى إلى غير أبيه لِحَظٍّ تَعَجَّلَه ، وَمُلْكٍ قَهَرَه » .

---

(١) فى هذه الكلمة بياض بالأصل ، والسياق يقتضيها .

(٢) استماحه : سأله أن يشفع له .

(٣) هو محمد بن عبد الحميد المعروف بأبى الرازى ، ولاه المأمون اليمن سنة ٢١٢ هـ — تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .

(٤) انظر الجزء الثانى ص ٢٠ .

(٥) اللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم .

٣٢٢ — كتاب إبراهيم بن العباس إلى عمرو بن مسعدة

وكان بين عمرو بن مسعدة وبين إبراهيم بن العباس الصُّولى (ابن عمه) مودة، فحصل لإبراهيم ضائِقَةٌ بسبب البَطالة فى بعض الأوقات، فبعث له عمرو مالاً، فكتب إليه إبراهيم:

«سأشكر عَمْرًا ما تراخَتْ مَنيَّتى ... أيادِىَ لم تُمْـنَنْ وَإن هِى جَلَّتِ
فتًى غير محجوب الغِنَى عن صديقه ... ولا مُظْهِرِ الشـكْوَى إذا النَّعْلُ زلَّت
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخْـفَى مكانُها ... فـكانت قَذَى عينيه حتى تجلَّتِ»

(وفيات الأعيان ١ : ٣٩١)

٣٢٣ — كتاب أبى جعفر الكرمانى إلى المأمون

ورفع أبو جعفر الـكِرْمانى إلى المأمون رقعةً يقول فيها:

«ثِقَتى من أمير المؤمنين باعتنائه، تمنعنى من استبطائه، ومعرفتى بأشغاله، تدعونى إلى إذْكاره، ولا آمَنُ بين منع الثقة ودعاء المعرفة، اخترامَ[1] قُرْبِ الأَجَلِ بُعْدَ أملى، إذ كانت الآجال آفاتِ الآمالِ، نفَّسَ الله لأمير المؤمنين فى أجله، وبلَّغه منتهَى أمله». (اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) اخترمته المنية : أخذته.

٣٢٤ — كتابه إلى بختيشوع

وله إلى بَخْتَيْشُوع[(١)] :

« فإنك ممن إذا أسَّسَ بَنَى ، وإذا غرَسَ سَقَى ، لاستتمام بناء أُسِّه ، واجتناء ثمار غرْسه ، وأسُّك قد بَلِيَ[(٢)] وقارب الدُّروسَ ، وغَرْسُك فى حفظى قد عَطِش وشارَفَ اليُبُوسَ ، فتداركْ بالبناء ما أسَّسْتَ ، وبالسَّقْيِ ما غرَسْتَ .

قد جعلك الله ممن يحتمل الدَّالَّةَ الكبيرة ، لِذِى الحُرْمَة اليسيرة ، ورفعَك عن أن تتلقَّى استزادةَ المستزيد بعُنْفِ الحَمِيَّة والإعراضِ والنَّبْوَة ، لأن هذا من أخلاق مَن حَدَثَتْ نعمتهُ ، وصَغُرَتْ همتهُ ، فأمَّا من انقادت النعمُ له فى أوَّله وآخِره ، وكان له فى تشييد المكارم ورَبِّ[(٣)] الصنائع ، مِثْلُ سهمك . فإنه يُنْصِف من نفسه ، ويَقْضِى عن حقه ، ويحتمل دالَّة المتحرِّم[(٤)] ، ويجاوِز بالمستزيد غايةَ استحقاقه[(٥)] » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٦٣)

---

(١) هو بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع الطبيب المشهور ، وقد رفع المأمون منزلته ، وأكرمه غاية الإكرام ، وأخرجه معه إلى بلاد الروم حين خرج إليها سنة ٢١٣ هـ ، وكان كذلك عظيم المنزلة عند المتوكل ، وتوفى سنة ٢٥٦ ــ هـ انظر أخباره فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١ : ١٣٥ ، وأخبار الحكماء لابن القفطى ص ١٠٢ (طبع أوربة) .

(٢) فى الأصل « ثرى » وأراه محرفا ، وإن صح فهو من ثريت الأرض كفرح : إذا نديت وابتلت ومعناه : قد ندى ورطب فتأكل ، ــ وهو مع ذلك تخريج متكلف ــ أو هو محرف عن (ثرم) من ثرمت السن كفرح : إذا انكسرت من أصلها .

(٣) رب الصنيعة كنصر : نماها وزادها وأتمها وأصلحها .

(٤) تحرم منه بحرمة : تمنع وتحمى بذمة .

(٥) قدمنا لك فى ص ٤٢٩ أن الشطر الأول من هذا الكتاب رواه ياقوت فى معجم الأدباء صادرا من عمرو بن مسعدة إلى الحسن بن سهل .

٣٢٥ — كتاب العباس بن الحسن إلى جرير بن يزيد

وكتب العباس بن الحسن بن عُبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب عليه السلام ، إلى جرير بن يزيد يعزّيه فى العباس ابنه :

« أما بعد ، فإنك لا تُخْبَرَ عن الله عزّ وجل فيما وَعَد على المصائب ، ولا توعَظ فيما حدَثَ من بَغَتَات الدهور ، ومُلِمَّات الأمور ، بأشْفَى مِن علمِك به وأوْعَظِـه ، بما لم تَزَلْ له مُعايِنا من مُلِمَّات قدره وفضله ، وفى الله تبارك وتعالى لِمَن اعتصَمَ به كافٍ ، وفى ثوابه لِمَن رَغِب عن الأحبّة مُعَزٍّ ، وليس من أحداث الدهر حادثٌ يُمْنَى به امرؤ فى حَمِيم ، وإن لَطف من القلوب موقعُه ، وجَلَّ فى المُصاب رُزْؤه ، إلاَّ والمرء مرتَهَن فى نفسه بأعظمَ منه ، إمَّا بِفَناءٍ يكون به حظاًّ لِحَمِيمه فى المعَادِ إنْ قصَّر به فى نفسه أملٌ ، وإما بقاء يكون به عرَضا لمختلف الأيام والليالى ، حتى يموتَ منه مالا ينتفع بعده بالبقاء إن عُمِّر ، ثم يكون الموت من ورائه لا مَحالةَ ، فأينَ المَذْهبُ لمن عرَف هذا عن ثواب الله الذى منه الخَلَفُ والعِوض ، فى الدار التى لا تَفْنَى ولا يَفْنَى مافيها ؟

وكفى نظراً من الله لك ، وإنعاماً عليك ، أنْ جعل ابنك لك ولداً ، فشرَّفك بشرفه على الأبناء ، وزيَّنك بخصاله الفائتة للوصف فى الفضائل والكمال ، وبلغَ به الغايةَ التى بَلَغ فى السِّنِّ والثروة ، ثم جعله لك مقدِّمةً إليه ، وذخيرةً عنده ، وأىُّ الأمرين تراه يا أبا العباس أمْلأَ ليدك : أبَقاؤه لو بقِىَ حتى تكونَ له ؟ أم فناؤه إذ فَنِىَ حتى كان لك ؟ وما كنتَ تأمُلُ له أكثَر مما أعطاه الله وأعطاك فيه ؟ فخيرُ ما أخذْته تقوى الله فى حُسْن العَزاء ، واستيجابِ العِوَض والاستعدادِ فيما هو نازلٌ بك فى نفسك ، وإن كان غيرَ ذى أمثالٍ عندنا إن تأَخَّر فى أجَلك ، ونسأل الله أن يُنْسِئَ فيه .

فأما أنا فإنه لمّا بَدَهَنى ما بَدَهَنى من مُصابه، وتخوَّفتُ أن يستولىَ الأَسَى على الصبر، والجزعُ على السُّلُوِّ، ذكرتُ ما وعدَ اللهُ الصابرين، فأشفقتُ، أن يكون حظِّى من الأخ الحبيب القريب الفاجع فَقْدَ المرجوِّ ثوابُه، وإعطاء النفسِ حاجَتَها من الجزَع والهلَع، فلما رُضْتُها على الصبر، لم أجد عندها مع شدة اللوعة أكثرَ من ظاهر التعزّى، وكتبتُ إليك وأكثرُ ما عندى التجمُّلُ، واللهُ المستعانُ، وليس لك ولا لنا وإن عظُم الرُّزْء عما أمرَ اللهُ به مَذْهَبٌ، ولا على غيره مُعوَّل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسبهُ لك ولأنفسنا، ونسأله الثوابَ عليه، والعفو عنه، والعُقْبَى منه، والتجاوُزَ والمغفِرةَ لذنوبه، ولا تَدَعِ الكتابَ إلىّ، فإنه قد زادنى تعزِّيًا، علمى بك فى حُسْن ظنى بالله لك».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣١١)

٣٢٦ — كتاب العباس بن الحسن إلى المامون

وكتب العباس بن الحسن الطالبىّ إلى المأمون يهنئه بمولود له:

«قد كان أجذَلنى[١] ما أحْدَثَ اللهُ لأمير المؤمنين من المَوْهَبة التى ليس — وإن كان أولَى بها من غيره — بأعظَمَ فيها حَظًّا من رعيته، فعَمَرَ اللهُ لك يا أمير المؤمنين قلوبَهم[٢] بنور الحكمة وأبصارَهم، حتى يَشُدَّ بهم عَضُدك ويسُدَّ بهم ثُلْمَتَك، ويبلِّغَهم الغايةَ المأمول لهم بلوغُها بعدك، غيرَ مُقْعَد بك مَهَلٌ، ولا مُحَلٌّ بك أجل، ولا مُكْذِبك أَمَلٌ، ولا منقطعة أيامُك، حتى تَخْتَرِم[٣] أنفسُنا قبلك، وتأتى على تقصيرنا وزَلَلِنا بركاتُك».

(اختيار المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٠٣)

---

(١) أى سرنى. (٢) أى قلوب أبنائك. (٣) اخترمته المنية. أخذته.

٣٢٧ — كتاب لجرير بن زيد البجلى

وكتب جرير[1] بن يزيد البَجَلى :

« أما بعد : فإنه لولا (ماله)[2] الناسُ مِن تقلُّب قلوبهم ، وتصرُّف حالاتهم وتبايُنهم ، واختلافهم وائتلافهم ، لَما تشعَّبوا من أصلهم ، ولا ائتلف منهم اثنان بعد تشعُّبهم ، فلا بدَّ فيما يحدُث بين الناس من عِلَل الوَحشة ، وأسباب العداوة والفُرقة ، ويجرى بينهم من المودة وداعِي الصلة مِن سابق ومسبوق ، وداعٍ ومجيبٍ ، فسابقٌ إلى قطيعة يجتنِي بها من صاحبه الوحشةَ ، ومبتدِئٌ بصلةٍ اجتلب بها من صاحبه الثقةَ ، وزرع بها فى قلبه المِقَةَ له .

وقد بلغنى عنك فى وفائك وفضلك ما حرَّكنى لودِّك ، ورغَّبنى فى خُلَّتك[3] ، ودعانى إلى طَلَب وَصْلِك ، فأجبتُ دعاءك إلى الصلة والملاطفة بما أحسَسْتُ لك من الثقة ، وحَدَث لى فيك من الرغبة ، فاقبَلْ ما بَذَلْنا من ودِّنا وأحسِنِ الإجابةَ إلى ما دعوناك إليه من إخائنا ، واتَّبِعْنا بإحسان إذ كان الابتداء منا ، فإن المجيبَ إلى الجميل شريكُ الراغبِ فيه ، وإن المكافِئَ به شكلٌ[4] لمُبْدِيه ، ولا تكرَهَنَّ أن تكون لنا إذ دعوناك مجيبا ، وإذ سبقناك بالفضيلة تابعا ، فإنا قد أحسَنَّا إجابةَ فضلك ، وسَلِسْنا فى اتّباع ما قادنا إليك من محاسنك ، واعلم أنك لو كنت سبَقْتَنا إلى الصِّلة ، وتقدمْتَنا بالرغبة ، وطلبْتَ فضلَنا عليك بالمودَّة ، كنتَ لذلك فى الفضل أهلا ، وبه جديراً ، لأن مثلك فى فضلك عطَّف على نفسه ، ومِثْلنا رَغِبَ فى صلته ، فقد أهدَينا

---

(١) هو جرير بن يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى البجلى ، وهو أحد الخطباء المعدودين — انظر لفهرست ص ١٨١ .

(٢) كذا فى الأصل ، فاللام فى « له » بمعنى لأجل ، أى لولا ما خلق لاجله الناس .

(٣) الخلة : الصداقة . (٤) الشكل : الشبه والمثل .

إليك صفوَ وُدنا ، وَكفيناك ما كنتَ به جديرا مِن طلبنا ودعائنا ، فأحْسِنْ قَبولَ هديتنا ، وَبَذْلَ الحقِّ فى مكافأتنا،ولا يفوتَنَّك السبقُ وَحسنُ الأتباع معا، والسلام».

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٠٩)

٣٢٨ — كتاب آخر

« إن القبيح لو كان فَضْلا قلَّ حظُّك منه ، وَكنا أوْلَى به منك ، فأما إذ كان نقصا فأنت أحقُّ به منا ، وَأنت وليُّه دوننَا ، وَقد وَلَّيناك منه ما توليْتَ ، وكرِهْنا منهُ ما ارتضيتَ ، فاجْرِ ما بدا لك فيه ، غيرَ محسود عليه ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٣٢٩ — كتاب آخر

وَله أيضا :

« فإن أحقَّ مَن زَهِد فى الصنيعة عنده ، مَن بُلِيَ الكفرُ منه ، وَأولَى مَن يُهَوَّنُ مَن لم ينفع فيه الإكرامُ له ، وَقد بلَوْناك بإتيان المعروف ، فلم تؤدِّ حفيظةً فى الشكر عليه ، وَبلَوْناك بالإكرام لك فلم ينفع ذلك فيك ، فبأيِّ الأمور تستزيدنا فى الصلة ، وتستبطِئُنا فى التكرِمَة ، وتَقحَّمُ علينا « أن حرَمْناك » باللائمة ؟ فلُمْ نفسَك فى قلة شكرك واحتمالك ، فإنك بذلك أجْدَرُ ، وَمنهُ أعْذَر ، والسلام » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٤٢٣)

٣٣٠ — كتاب محمد بن سعيد فى السلامة

وكتب محمد[1] بن سعيد فى السلامة يوم عيد :

« إن الله وَهب العِلْمَ لعباده ، هدايةً إلى معرفة نعمه ، وَأداء شكرهم ، ثم أمرَهم بالحديث عن نعمه ، وتواصُفِ آلائِه ، وَإن مِن حقٍّ النعمة فيما أَكمَلَ اللهُ من هذا العيد الجليل قدرُه ، الشاملِ نفعُهُ ، أن يجتمع العوامُّ بالقصد لشكره ، والثناء به عَلَى الله تبارك وتعالى وَعلى خليقته ، فإن لم يجمعها صعيدٌ واحدتفرَّدَ أهلُ الفقه والعلم وَذوو الدين والفضل للقيام عن أنفسهم وَعمن وراءهم بشكر النعمة فيه ، فإنه أعظم عيدٍ على المسلمين بَرَكةً وعائِدةً[2] بعد العيد الذى جمعهم فيه نظرُه للإسلام ، إذ عَصَم الله به الدينَ ولأَمَ به الشَّعَث ، وَأطفأَ النائِرَةَ[3] ، حَوارِىُّ[4] الأمةوَ إمامُهم ، والقائم بحق الله فيهم على مِنبرهم ، يَعِظهم وَيُسدّدهم ، ويقوم بهم على إخلاص العبادة ، وَفضيلة الطُّهر وَالزكاة .

فالحمد لله على هذه النعمة التى جعلها تذكِرةً لما سبقَ من وَعده ، فى تمكين أوليائِه ، وَتصييره العاقبةَ للمتقين من عباده ، وَأسأَل الله أن يتقبل منه فَريضةَ العمل ، وَنافلةَ القُربة ، فيما قضى عنه من شَهْره ، وَأدَّى من الحق فيه عليه ، وَيجعله أعظمَ شهرٍ وَسَنَةٍ وَعيدٍ ، وَمَجْمعَ يُمْنٍ وَبَرَكةٍ ، مستقبَلا وعائِدةً ، إنه سميع قريب » .

(المنظوم والمنثور ١٣ : ٣٧٤)

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست فى عدادالبلغاء فقال : « محمد بن سعيد زمن المأمون » انظر ص ١٨٢ .

(٢) العائدة : الفائدة .

(٣) النائرة : العداوة والشحناء .

(٤) فى الأصل « صوارى الأمة إمامهم » وهو تحريف، وقد أصلحته كما ترى ، والحوارى: الناصر أو ناصر الأنبياء .

٣٣١ — كتاب إلى المأمون من عامل

« قَلَّ مَن يسارِعُ فى بَذْلِ الحق مِن نفسه ، إذا كان الحق مُضِرًّا به ، وقَلَّ من يَدعُ الأُستعانة بالباطل ، إذا كان فيه صلاحُ مَعاشِه ، وسببُ مُكتَسَبِه ، وإذا تفرّق الحق فى أيدى جماعةٍ فطُولِبَتْ به ، تشابَهَتْ فى الكُرْه لِبَذْله ، وتعاوَنت على دَفْعه ومَنْعه ، بالحِيَل وبالشُّبَه ، قولًا وفعلا ، واحتاجَ المبتلَى باستخراج ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال مجاهدتها ، ومصابَرَتِها على الحيلة فى مدافعتها » .

(اختيار المنظوم والمنثور ١٢: ٢٦١)

٣٣٢ — كتاب رجل إلى المأمون

وكتب رجل كان فى حبس المأمون إليه لما طال حبسه :

« أغفلتَ يا أمير المؤمنين أمرى ، وتناسيتَ ذِكْرِى، ولم تتأمَّلْ حُجَّتى وعُذْرى، وقد ملَّ من صبرى الصبر ، ومسَّنى من حبسك الضُّرّ » .

٣٣٣ — رد المأمون عليه

فأجابه المأمون :

« ركوبُك مطيّةَ الجهلِ ، صيَّرك أهلا للقتل ، وبغيُك علىّ وعلى نفسك ، نقلك عن سَعةِ الدنيا إلى قبر من قبور الأحياء ، ومَن جَهِل الشكر على المِنَنِ ، قلَّ صبرُه على المِحَن ، فاصبِر على عواقب هفواتك ، ومُوبِقات زَلّاتك ، على قدر صبرك على كثير جناياتك ، فإن حصل فى نفسك كفٌّ عن معصيتى ، وعزمٌ على طاعتى ، وندمٌ على مخالفتى ، فلن تعدَم مع ذلك جميلا من نيَّتى » .

(غرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٩) .

٣٣٤ – كتاب إحدى جوارى المأمون إليه

وأهدتْ جاريةٌ من جوارى المأمون تفاحةً له ، وكتبتْ إليه :

« إنى يا أمير المؤمنين لما رأيتُ تنافُس الرّعية فى الهدايا إليك ، وتواتُرَ أَلْطَافِهم[1] عليك ، فكَّرتُ فى هدية تَخِفُّ مُؤْنتها ، وتهون كُلْفتها ، ويعظُم خَطَرُها[2] ، ويجِلُّ موقعُها ، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النَّعتُ ، ويكمُل فيه هذا الوصفُ ، إلا التفاح ، فأهديتُ إليك منها واحدةً فى العَدَد ، كثيرةً فى التقرُّب ، وأحببتُ يا أمير المؤمنين أن أُعْرِب لك عن فضلها ، وأَكشِفَ لك عن محاسنها ، وأشرَحَ لك لطيف معانيها ، وما قالت الأطبّاء فيها ، وتفنَّنَ الشعراء فى أوصافها ، حتى تَرْمُقَها[3] بعين الجلالة ، وتَلْحَظها بمُقْلة الصِّيانة ، فقد قال أبوك الرشيد رضى الله عنه : « أحسنُ الفاكهة التفاح ، اجتمع فيه الصُّفرة الدُّرِّيّة ، والحمرةُ الخَمْرية ، والشُّقْرة الذَّهبية ، وبياضُ الفِضة ولون التِّبْر يَلَذُّ بها من الحواسِّ : العينُ ببهجتها ، والأنفُ بريحها ، والفم بطعمها » وقال أرسطاطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة ، واجتمع إليه تلاميذه : « التَمِسوا لى تفاحةً أعتصِم بريحها ، وأقضِى وَطَرِى[4] من النظر إليها » . وقال إبراهيم بن هانئ : « ما عُلِّل المريضُ المبتلَى ، ولا سُكِّنت حرارةُ الثَّكْلَى[5] ، ولا رُدَّت شهوة الحُبْلَى ، وَلا جُمِعت فِكْرة الحَيْران ، ولا سكنتْ حَنَقةُ الغضبان ، ولا تحبَّبَ[6] الفِتْيانُ فى بيوت القِيانِ ، بمثل التفاح » والتفاحة يا أمير المؤمنين إن

---

(١) التواتر : التتابع . واللطفة بالتحريك : الهدية .

(٢) أى قدرها .

(٣) أى تلحظها . (٤) الوطر : الحاجة .

(٥) التى فقدت ولدها .

(٦) فى الأصل « ولا تحنث » وأراه مصحفا ، والقيان : جمع قينة بالفتح ، وهى الجارية المغنية أو أعم .

حملتها لم تؤذك ، وإن رميت بها لم تؤلمك ، وقد اجتمع فيها ألوانُ قوس قُزَح ، من الخُضْرة والحُمْرة والصفرة ، وقال فيها الشاعر :

حُمْرَةُ التفاحِ مَعْ خُضْرَته أقربُ الأشياء من قَوْسِ قُزَحْ
فعَلَى التفاحِ فاشرَبْ قَهْوَةً واسقِنيها بنشاطٍ وفَرَحْ[1]
ثم غَنِّـــنى لـكى تُطْرِبَنِى طَرْفُكَ الفتَّانُ قلبى قد جَرَحْ[2]

فإذا وَصلَتْ إليك يا أمير المؤمنين فتناوَلْها بيمينك ، واصْرِفْ إليها بُغْيَتَك ، وتأمَّلْ حُسْنَها بطَرْفِك ، ولا تخدِشْها بظُفْرِك ، وَلا تُبعِدها عن عينك ، ولا تبذُلْها لخدَمك ، فإذا طال لُبْثُها عندك ، ومُقامُها بين يديك ، وخِفْتَ أَن يرميها الدهر بسَهْمه ، ويَقصِدَها بصرْفه[3] ، فتذهبَ بهجتها ، وتَحيلَ[4] نَضْرتُها ، فـكُلْها .

« هَنيئاً مَرِيئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ[5] » والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . (العقد الفريد ٣ : ٣١٠)

٣٣٥ — الرقعة التى علقت على رأس علىِ بن هشام بعد قتله

وكان المأمون قد ولَّى علىَّ بن هشام كُور الجبال وأذْرَبيجان ، وكُور أَرْمِينية ، ثم غضب عليه لِلذى بَلَغَه من سوء سيرته فى أهل عمله ، وقتْـلِه الرجالَ ، وأخذِه الأموالَ ، فوجَّه إليه عُجَيْفَ بن عَنْبَسة ، فأراد أن يفتِك به ، فظفِر به عُجَيْفٌ ،

---

(١) القهوة : الخمر .

(٢) البيت من بحر الرمل ، وقد دخل الـكف فى التفعيلة الأولى منه ، وفى الأصل « ثم غنينى » ويلاحظ أنه أمر معتل فيبنى على حذف الياء ، ولا يضير حذفها وزن الشعر .

(٣) صرف الدهر : نوائبه . (٤) حال يحيل حيولا : تغير .

(٥) هو صدر بيت لـكثير عزة من تائيته المشهورة ، وعجزه : لعزة من أعراضنا ما استحلت » وخامره الداء : خالطه .

فقدِمَ به على المأمون ، فأمر بضرب عنقه (سنة ٢١٧) ثم بعث رأسه فطِيفَ به فى الأقطار ، ثم أُلقِى بعد ذلك فى البحر .

ولما قتله المأمون أمر أن تكتب رُقْعة وتعلَّق على رأسه ليقرأها الناس ، وفيها .

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين كان دعا عليَّ بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيامَ المخلوع إلى معاوَنته والقيامِ بحقه ، وكان فيمن أجابَ وأسْرَعَ الإجابة ، وعاوَنَ فأحْسَنَ المُعاوَنَةَ ، فرَعَى أميرُ المؤمنين له ذلك ، واصطنَعه[1] وهو يظنُّ به تَقْوَى الله وطَاعته ، والانتهاءَ إلى أمْر أمير المؤمنين فى عمل إنْ أُسْنِدَ إليه فى حسن السِّيرة ، وعَفافِ الطُّعْمَةِ[2] ، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليهِ ، فولَّاه الأعمالَ السَّنِيَّة ، وَوَصَلَه بالصِّلات الجزيلة ، التى أمرَ أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها ، فوجَدَها أكثرَ من خمسين ألفَ ألفِ درهم ، فمدَّ يده إلى الخيانة ، والتضييع لما استرعاه من الأمانة فباعَدَه عنه وأقصاه ، ثم استقال أميرَ المؤمنين عَثْرَتَه ، فأقاله إياها ، وولَّاه الجبَلَ وأذْربيجان وكُورَ أرْمِينية ، ومحاربةَ أعداء الله الخُرَّمِيَّة[3] على أن لا يعود لما كان

(١) اصطنعه : اختاره لخاصة أمره . (٢) الطعمة : المأكلة ووجه المكسب .

(٣) الخرمية . فرقة إباحية وهم أتباع بابك الخرمى ، الذى ظهر فى جبل البذ (بفتح الباء وتشديد الدال : كورة بين أذربيجان وأران) وكثر بها أتباعه ، واستباحوا المحرمات ، وكان للبابكية فى جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم فجر فيها الرجال بالنساء ، وقد قتلوا كثيرا من المسلمين .

وكان بابك خادما لجاويذان صاحب البذ ، وكانت امرأة جاويذان تتعشقه وكان يفجر بها ، فلما مات جاويذان أذاعت امرأته على أصحابه أنه عهد إليها قبل موته فقال : « إنى أموت فى ليلتى هذه ، وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فإذا مت فأعلميهم ذلك ، وأنه لا دين لمن خالفنى فيه » فقبلوا عهده فيه ، وولوه عليهم وتزوج امرأة جاويذان .

وتحرك بابك فى الجاويذانية (سنة ٢٠١) وأخذ فى العيث والفساد ، وفى سنة ٢٠٤ واقعه يحيى ابن معاذ والى الجزيرة فلم يظفر واحد منهما بصاحبه ، وفى سنة ٢٠٥ ولى المأمون عيسى بن محمد ابن أبى خالد أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك ، ونكب به بابك سنة ٢٠٦ ثم ولى صدقة بن على سنة ٢٠٩ وانتدب للقيام بأمر بابك أحمد بن الجنيد ، ورجع ابن الجنيد إلى بغداد ثم رجع إلى الخرمية فأسره =

منه، فعاودَ أكثرَ ما كان، بتقديمه الدينارَ والدرهمَ على العمل لله ودينهِ وأساءَ السيرةَ، وعسفَ[1] الرعيةَ، وسفكَ الدماء المحرّمة، فوجّه أمير المؤمنين عُجَيْفَ ابن عَنْبَسَة مباشِراً لأمره، وداعيا إلى تلافِي ما كان منه، فوثَب بعُجيف، يُريد قَتْلَه، فقوّى الله عجيفا، بنيّتِه الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين، حتى دَفَعه عن نفسه، ولو تمَّ ما أراد بعجيف، لكان فى ذلك مالا يُسْتَدْرَكُ ولا يستقال، ولكن الله إذا أراد أمرا كان مفعولا، فلما أمضَى أميرُ المؤمنين حُكْمَ الله فى على بن هشام، رأى أن لا يؤاخِذَ مَن خَلَفَه بذنبِهِ، فأمرَ أن يُجْرَى لولده ولعياله، ولمن اتصل بهم، ومن كان يجرى عليهم، مثلُ الذى كان جاريا لهم فى حياته، ولولا أن على بن هشام أراد العُظْمى بعجيف، لكان فى عِداد مَن كان فى عسكره ممن خالفَ وخان، كعيسى بن منصور ونظرائِه والسلام ». (تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٢)

٣٣٦ — كتاب توفيل ملك الروم إلى المأمون

وفى سنة ٢١٥ هـ شَخَصَ المأمون من مدينة السلام لغزو الروم، واستخلف عليها إسحٰق بن إبراهيم بن مُصْعَب، ففتَح وقَتَلَ وسَبَى.

= بابك، ثم وجه إليه سنة ٢١٢ محمد بن حميد الطوسى لمحاربته وقد قتله بابك سنة ٢١٤ وفض عسكره، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه، ورثاه أبو تمام برائيته المشهورة، «كذا فليجل الخطب ... » إلى أن أظفر الله المسلمين بالبابكية فأسر بابك وصلب بسر من رأى سنة ٢٢٣، وسيرد عليك بقية خبره فى خلافة المعتصم فى الجزء الرابع إن شاء الله.

والخرمية نسبة إلى خرم، جاء فى معجم البلدان: « خرم: وتفسيره بالفارسية السرور، وهو رستاق (ناحية) بأردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) قال نصر: وأظن الخرمية الذين كان منهم بابك الخرمى نسبوا إليه، وقيل: الخرمية فارسى معناه الذين يتبعون الشهوات ويستبيحونها، ثم قال وخرمة: ناحية من نواحى فارس قرب إصطخر » اهـ. وجاء فى القاموس المحيط: « وخرمة كسكرة: بلدة بفارس منها بابك الخرمى » — انظر أخبار بابك والخرمية فى الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٥١، ٢٥٢ و ٢٦٨، وفى الفهرست لابن النديم ص ٤٨٠ — ٤٨٢ وتاريخ الطبرى ١٠ : ص ٢٤٤ و ٢٥٥ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٦٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٢٩٤ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣٣٢، ومعجم البلدان ٢ : ٩٣ و ٣ : ٤٢٤.

(١) أى ظلمها.

وفى سنة ٢١٧ هـ ، كتب ثوفيل[1] بن ميخائيل ملك الروم إلى المأمون يسأله الصلح :

« أما بعد : فإن اجتماع المختلفَيْنِ عَلَى حظِّهما أَوْلَى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولستَ حَرِيًّا أن تَدَعَ لَحَظًّ يَصلُ إلى غيرك ـ حَظًّا تَحُوزه إلى نفسك ، وفى عِلْمك كَافٍ عن إخبارك ، وقد كنتُ كتبتُ إليك داعيا إلى المسالَمَة ، راغبافى فَضِيلة المُهادَنَة[2] ، لتضَع أَوْزَارَ الحرب عنا، وَنكونَ : كلٌّ واحدٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ وَلِيًّا وحِزْبا، مع اتِّصال المَرَافِقِ[3] ، والفُسحِ فى المتاجر ، وفكِّ المستأسِر ، وَأَمْنِ الطُّرُق والبَيْضة ، فإنْ أَبَيْتَ فَلَا أَدِبُّ لك فى الخَمَرِ[4] ولا أُزخرِفُ لك فى القول ، فإنى لَخَائِضٌ إلَيْكَ غِمارَها ، آخِذٌ عليك أَسْدادَها[5] ، شانٌّ خيلَها ورجالَها ، وإن أفعلْ فبعد أن قدَّمتُ المعذِرَةَ ، وأقمتُ بينى وبينك عَلَمَ الحجَّة ، والسلام » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٤ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٣)

---

(١) ولى ملك الروم سنة ٨٢٩ م .

(٢) المهادنة : المصالحة ، والأوزار جمع وزر بالكسر وهو الحمل والثقل .

(٣) المرافق : جمع مرفق ، والمرفق من الأمر : ما ارتفقت به وانتفعت ، فمن قرأ : « وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا » جعله مثل مقطع بكسر الميم ، ومن قرأ : « مِرْفَقًا » جعله مثل مسجد ، والفسح جمع فسحة بالضم وهى السعة ، والبيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

(٤) الخمر ، بالتحريك . كل ماوارك من شجر أو بناء أو غيره ، وخمر كفرح : توارى ، ومن أمثال العرب « يدب له الضراء ويمشى له الخمر » ـ والضراء كسحاب : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال توارى الصيد منه فى ضراء ، وفلان يمشى الضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ـ وهو مثل يضرب للرجل يختل صاحبه .

(٥) الأسداد : جمع سد ، وهو الحاجز ، وشن الغارة عليهم : صبها من كل وجه .

٣٣٧ — رد المأمون عليه

فكتب إليه المأمون :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك فيما سألتَ من الهُدْنَة ، ودعوتَ إليه من المُوادَعَة ، وخَلَطتَ فيه من اللِّين والشدة ، مما استعطفتَ به من سَراح[١] المَتاجر ، واتّصال المرافق ، وفكِّ الأَسارى ، ورَفْع القتل والقتال ، فلولا ما رجعتُ إليه من إعمال التُّؤدَة ، والأخذ بالحظِّ فى تقليب الفِكْرة ، وألاَّ أعتقدَ الرأىَ فى مستقبَلِه إلاَّ فى استصلاح ما أُوثِرُه فى مُعْتَقَبه ، لجعلْتُ جوابَ كتابك خَيْلاً تحمِلُ رجالا من أهل البأس والنَّجْدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثُكْلكم[٢] ، ويتقرَّبون إلى الله بدمائكم ، ويستقِلُّون فى ذات الله ما نالهم من أَلَم شَوْكتكم ، ثم أُوصِل إليهم من الأمداد ، وأُبلِغ لهم كافياً من العُدَّةِ والعَتادِ[٣] ، هم أظمأ إلى موارد المنايا ، منكم إلى السلامة ، من مَخُوفِ مَعَرَّتهم عليكم ، مَوْعِدُهم إحْدى الحُسْنَيَيْن : عاجِلِ غَلَبَةٍ ، أو كريمِ مُنْقَلَب ، غير أنى رأيت أن أتقدّم إليك بالموعظة التى يُثْبت الله بها عليك الحُجَّةَ ، من الدعاء لك ، ولمن معك إلى الوَحْدانية ، والشريعة الحَنيفيَّة[٤] ، فإن أَبَيْتَ ففِدْيةٌ تُوجِب ذمَّةً ، وتُثْبِت نَظِرة[٥] ، وإن تركتَ ذلك ففى يقين المعاينة لنُعُوتنا ما يُغْنى عن الإبلاغ فى القول ، والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٢٨٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٣)

---

(١) فى الأصل «شرح» وأراه محرفا والصواب «سراح» وهو التسهيل ، اسم من التسريح .

(٢) الثكل : الموت والهلاك . (٣) العتاد : العدة .

(٤) الحنيفية : ملة الإسلام ، وفى الحديث . «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة» ويوصف به فيقال : ملة حنيفية ، والدين الحنيف : الإسلام ، والحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام ، الثابت عليه ، مشتق من الحنف بالتحريك وهو : الاستقامة ، والميل ، فمعناه على الأول : المستقيم الدين ، وعلى الثانى المائل إلى الدين المستقيم . (٥) النظرة : التأخير .

٣٣٨ — كتاب عبد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب عبد الله[١] بن طاهر إلى إسحٰق بن إبراهيم من خُراسان إلى بَغداد، يسأله أن يوجِّه إليه بأقلام قصبيَّة:

« أما بعد، فإنّا على طُول الممارَسَةِ لهذه الصناعةِ، التى غَلَبَتْ على الاسم، ولزِمَتْ لُزومَ الوَسْم[٢] فحلَّتْ مَحَلَّ الأنساب، وجَرَتْ مَجْرَى الألقاب، وَجدْنا الأقلامَ القصبية[٣] أسرعَ[٤] فى الكواغِدِ[٥]، وأمَرَّ فى الجلود، كما أن البحْرِيةَ منها أَسْلَسُ فى القراطيس، وأَلْيَنُ فى المعاطفِ، [وأكلُّ عن تمزيقها، والتعلُّقِ بما يَنْبُو من شظاياها][٦] ونحن فى بلاد قليلة القصب، ردىء ما يوجد بها منه.

وقد أحببتُ أن تتقدَّم[٧] فى اختيار أقلام قصبية، وتتأنّق[٨] فى انتقائِها قِبَلك،

---

(١) قال الطبرى (١٠ : ٢٨٠) « وفى سنة ٢١٤ خرج عبد الله بن طاهر إلى الدينور، فبعث المأمون إليه إسحق بن ابراهيم ويحيى بن أكثم يخيرانه بين خراسان والجبال وأرمينية وأذربيجان، ومحاربة بابك، فاختار خراسان وشخص إليها » وإسحق بن ابراهيم هو الذى استخلفه المأمون على بغداد كما قدمنا، وهو ابن عم عبد الله بن طاهر، فعبد الله: هو ابن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، وإسحاق. هو ابن إبرهيم بن مصعب . . . الخ، وما ذكرنا من أن هذا الكتاب من عبد الله بن طاهر إلى إسحق بن إبرهيم، وهو ماروله الصولى فى أدب الكتاب، وجاء فى زهر الآداب أنه من عبيد الله بن طاهر، وهو تحريف، فقد توفى إسحق بن إبرهيم سنة ٢٣٥ وتوفى عبد الله بن طاهر بمرو سنة ٢٣٠، أما ابنه عبيدالله فقد ولد سنة ٢٢٣ وتوفى ببغداد سنة ٣٠٠ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٢٧٣.

وفى العقد الفريد وصبح الأعشى ونهاية الأرب أنه من على بن الأزهر إلى صديق له، ولم يرد فيها رده.

(٢) الوسم: العلامة. وفى زهر الآداب « الرسم » وفى أدب الكتاب « الوشى » وهو النقش.

(٣) وفى العقد والصبح « الصخرية » وفى نهاية الأرب « الصحرية » بالضم، نسبة إلى الصحرة وهى جوبة تنجاب وسط الحرة، وتكون أرضا لينة تطيف بها حجارة.

(٤) وفى الصبح ونهاية الأرب « أجرى ».

(٥) الكواغد: جمع كاغد بفتح الغين: وهو القرطاس، فارسى معرب.

(٦) محل ما بين القوسين فى الصبح والعقد « وأشد لتصريف الخط فيها ».

(٧) تقدم إليه فى كذا: أمره وأوصاه به.

(٨) وفى الصبح ونهاية الأرب وأدب الكتاب « وتتنوق » وهما بمعنى تأنق فيه وتنوق: عمله بالإتقان والحكمة، وفى الصبح « فى اقتنائها ».

وتطلبها فى مظانّها ومَنابتها[١] ، من شُطوط الأنهار ، وأرجاء[٢] الكروم ، وأن تقيمَّ[٣] باختيارك منها : الشديدةَ المَجَسِّ ، الصُّلبةَ المَعضِّ[٤] ، النقيَّةَ الخدود[٥] ، القليلة الشحوم[٦] ، الكثيرة اللحوم ، المكتنِزة[٧] الجوانب ، الضيقة الأجواف ، الرَّزينة الوزن[٨] ، فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعدُ من الحفى[٩] ، وأن تقصِدَ بانتقائك منها : الرِّقاقَ القُضبان ، اللِّطافَ المنظَر ، المقوَّماتِ الأَوَد[١٠] ، المُلْسَ العُقَد ، فلا يكون فيها التواء عِوَج ولا أمْت[١١] ، وضُمَّ الصافيةَ القشور ، الخفيَّـــة الإبَرِ ، الحسَنَةَ الاستدارةِ ، الطويلةَ الأنابيب ، البَعيدة ما بين الكُعوب الكريمة الجواهر ، المعتدلةَ القوَام ، تكاد أسافلها تهتز من أعلاها ، لاستواء أصولها برءوسها ، المستحكِمةَ يُبْسا ، القائمةَ عَلَى سُوقها ، قد تشرَّب الماء فى لِحائها[١٢] ، وانتهت فى النُّضْج منتهاها ، لم تُعْجَل عن تمام مصلحتها ، وإبَّانِ يَنْعِها ، ولم تؤخَّر إلى الأوقات المَخُوفةِ عاهاتُها[١٣] ، مِن خَصَر[١٤] الشتاء وعَفَن الأنداء ، فإذا استجمعت عندك ، أمرتَ بقطعها ذراعا ذراعا ، قَطْعاً رَفيقا[١٥] تتحرَّز معــه من أن تتشعَّث[١٦] رءوسُها ، وتنشَقَّ أطرافُها ، ثم عبِّأت منها حُزَماً فيما يصونها من الأوعية ، وَعليها الخيوط الوثيقة ، وَوَجَّهتَها مع من يؤدى الأمانة[١٧] ، فى حِراستها وحفظها وإيصالها ،

(١) وفى أدب الكتاب « وطلبها من مظانها ومرامها » .
(٢) الأرجاء : جمع رجا كعصا ، وهو الناحية .
(٣) تقيم : تتوخى ، وفى الصبح ونهاية الأرب « تتيمن » وهو تحريف .
(٤) وفى الصبح « الشديدة الصلبة » . (٥) وفى الصبح وأدب الكتاب « النقية الجلود »
(٦) وفى زهر الآداب وأدب الكتاب « الغليظة الشحوم » وفى العقد « القليلة الشحوم ، المكتنزة اللحوم » .
(٧) اكتنز : اجتمع وامتلأ . (٨) وفى الصبح والعقد ونهاية الأرب « الرزينة المحمل »
(٩) أصل الحفى : رقة القدم والحافر ، وفعله كفرح .
(١٠) الأود : الاعوجاج ، وفى الصبح والعقد « المقومات المتون ، الملس المعاقد » .
(١١) الأمت : العوج والعيب . (١٢) اللحاء : القشر .
(١٣) وفى الصبح والعقد « المخوفة عليها » .
(١٤) الخصر : البرد .
(١٥) وفى زهر الآداب والعقد ونهاية الأرب « رقيقا » وفى أدب الكتاب « دقيقا » .
(١٦) تتشعث : تتفرق . (١٧) وفى أدب الكتاب « مع من يحتاط » .

إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلة خَطَرِها[(١)] عند من لا يعرف فضل جَوهرها ، واكتب معهُ بعِدّتِها وأصنافها ، وأجناسها وصفاتها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا توان ولا إبطاء إن شاء الله تعالى » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٨٢ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢١ ، وأدب الكتاب ٦٩)

٣٣٩ — رد إسحق بن إبراهيم عليه

فأجابه ووجّه إليه الأنابيب :

« أتانى كتاب الأمير — أعزه الله تعالى — بما أمرنى به ولَخَّصَهُ ، من البعث إليه بما شاكَلَ نعْتَه ، وضاهى صِفَته من أجناس الأقلام ، فتيمَّمْتُ بُغيتَه قاصدا لها ، وانتهجتُ معالِمَ سؤاله آخذا بها ، فأنفذتُ إليه منها حُزَما : أُنْشِئَت بلطيف السُّقيا ، وحسن التعهد والبُقْيا ، لم تُعجَلْ بإخراجها ، ولا بُودِرَت قبل إدراكها ، فهى مستويةُ الأنابيب معتدلتها ، مثقَّفة[(٢)] الكعوب مقوَّمتها ، لا يُرَى فيها أمْتُ زَوَرٍ[(٣)] ، ولا وَصْمُ صَعَرٍ ، وقد رجوت أن يجدها الأمير عند إرادته وحَسَبَ بُغْيته ، إن شاء الله » .

(زهر الآداب ٢ : ١٤٨ ، وأدب الكتاب ص ٧١)

---

(١) أى قدرها .

(٢) أى مسواة معتدلة .

(٣) الزور : الميل ، والوصم : العيب ، والصعر : الميل.

٣٤٠ – كتاب ابن الحرون إلى أحد إخوانه

وأهدى ابن الحَرُون[١] إلى رجل من إخوانه من الكتاب أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه لما كانت الكتابةُ — أبقاك الله — أعظم الأمور ، وقِوامَ الخلافة ، وعمودَ المملكة ، خصَصْتُك من آلتها بما يخِفُّ مَحْمَلُه ، وتَثْقُل قيمتُه ، ويعظُم نَفعُه ، ويجِلُّ خَطَره[٢] ، وهى أقلام من القصب النابتِ فى الصَّخْر ، الذى نشِفَ[٣] بحرِّ الهَجير فى قشره ماؤه ، وسَتَرَهُ من تلويحه[٤] غِشاؤه ، فهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف[٥] ، تِبْرِيَّةُ القُشُور ، دُرِّيَّةُ الظهور ، فِضِّيَّة الكسور ، قد كستْهَا الطبيعةُ جواهرَ كالوَشْى المحبَّر[٦] ، وفِرِنْدَ الدِّيباجِ المنَيَّر »[٧] .

(العقد الفريد ٢ : ١٨٣ ، وصبح الأعشى ٢ : ٤٥٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٢)

* * *

وفى رواية أدب الكتاب وزهر الآداب :

أهدى بعض الكتاب إلى أخ له أقلاما ، وكتب إليه :

« إنه — أطال الله بقاءك — لما كانت الكتابة قِوامَ الخلافة ، وزينَةَ الرياسة ،

---

(١) قال ابن النديم فى الفهرست (ص ٢١٢) : « هو محمد بن أحمد بن الحسن بن الأصبغ بن الحرون ، حسن التأليف والتصنيف ، مليح الأدب ، من أهل بغداد من أولاد الكتاب » وفى العقد الفريد ابن الحروري » وهو تحريف .

(٢) أى قدره .

(٣) يقال : نشف الماء فى الأرض : أى ذهب ، ونشف الثوب العرق : أى شربه ، والفعل كسمع ونصر ، والهجير : شدة الحر ، وفى العقد « الذى نشف فى حر الهجير ماؤه » .

(٤) لوحته الشمس : غيرته .

(٥) السدف محركة والسدفة بالفتح والضم : الظلمة والضوء ، ضد ، والمراد هنا الأول .

(٦) الوشى : نقش الثوب ، والتحبير : التحسين والتزيين .

(٧) فرند السيف : وشيه ، وثوب منير : منسوج على نيرين ، وفى الصبح « ورونقا كالديباج المنير » .

وعمودَ المملكة ، وأعظم الأمور الجليلة قدراً ، وأعلاها خَطَرا ، أحببتُ أن أتحفك من آلتها بما يخف عليك محْمَلُه ، وتثقُل[1] مع ذلك قيمتُه ، ويكثر نفعُه ، ويجِلّ خَطَره ، فبعثت إليك أقلاما من القصب النابت فى الأَعْذاء[2] ، المغذُوِّ بماء السماء ، كاللآلئ المكنونة فى الصَّدف ، والأحجار المحجوبة بالسَّدَف ، تنبُو عن تأثير الأسنان، ولا يَثْنيها غمزُ البَنان ، قد كستْها طبائعُها جوهرًا كالوشْىِ الخَطِير ، وفِرِنْد الديباج المنير[3] ، فهى كما قال الكُمَيت :

وبيضٍ رِقاقٍ صِفاحِ المُتُونِ   تَسَمَّعُ للبيض فيها صريرًا[4]
مهنَّدة من عَتادِ الملوكِ   يكاد سَناهُنَّ يُعْشِى البصيرا

وكقِداح النَّبْل فى ثِقَلِ أوزانها ، وقُضُب الخيْزُران فى اعتدالها ، ووَشِيج الخطِّىّ[5] فى اطّرادها ، كأنما خُرِطت فى شهر[6] لاستدارتها ، تمرّ فى القرطاس كالبَرْق اللائح ، وتجرى فى الصُّحُفِ كالماء السائح ، أحسن من العِقْيان[7] ، فى نُحُور القِيان» .

(أدب الكتاب ص ٧١ وزهر الآداب ٢ : ٢٤٨)

---

(١) فى الأصل « ونقل » وفيه أيضا « ويصغر خطره » ولعله سهو من الناسخ .

(٢) الأعذاء، جمع عذى بالكسر : وهو النخل والزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه.

(٣) وفى زهر الآداب « والفرند المبير » .

(٤) صفاح المتون . عراضها ، وفى زهر الآداب « صحاح المتون » .

(٥) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ السفن بالبحرين ، وإليه نسبت الرماح، لأنها كانت تباع به ، والوشيج : شجر الرماح .

(٦) كذا فى الأصل ، وربما كان الصواب « فى شهرستان » بفتح فسكون ، وهى بفارس .

(٧) العقيان : الذهب ، والقيان جمع قينة بالفتح : وهى الجارية .

٣٤١ – كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

وفى سنة ٢١٢ هـ أظهر المأمون القول بخلق القرآن[1] ، وبقى يقدِّم رجلا ويؤخر أخرى فى دعوة الناس إلى مذهبه ، حتى قَوِىَ عزمه فى السنة التى مات فيها (سنة ٢١٨ هـ) فحَمَلهم على القول بخلقه ، وعاقب كلَّ من لم يقل به أشدَّ عقوبة .

وكتب فى هذه السنة وهو بالرَّقَّة إلى إسحق بن إبرهيم نائبه ببغداد فى امتحان القضاة والمحدِّثين فى ذلك ، وأمر بإشخاص جماعة منهم إليه بالرَّقة ، وكان ذلك أول كتاب كَتَب فى ذلك ، ونسخةُ كتابه إليه :

« أما بعدُ ، فإنَّ حقَّ اللهِ على أئمة المسلمين وخلفائهم ، الاجتهادُ فى إقامة دين الله الذى استحفظَهم ، ومواريثِ النبوّةِ التى أورثهم ، وأثرِ العلم الذى استودعَهم ، والعملُ بالحق فى رعيّتهم ، والتشميرُ لطاعة الله فيهم ، واللهَ يسألُ أمير المؤمنين أن

---

(١) كانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى عن الله تعالى – ومنها الكلام – لأن إثباتها يؤدى إلى التشبيه وإلى تعدد القديم ، وذلك ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك أن قالوا بأن القرآن كلام الله مخلوق ، قال صاحب المواقف (ج ٨ : ص ٩٢) « قالت المعتزلة : كلامه تعالى أصوات وحروف لكنها ليست قائمة بذاته ، بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى ، وهو حادث » .

وليست المعتزلة أول من قال بخلق القرآن – كما أنهم ليسوا أول من أنكر الصفات – بل إن أول من عرف بالقول بخلقه الجعد بن درهم بدمشق ، (وهو مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية) وأخذ عنه ذلك القول جهم بن صفوان الترمذى زعيم فرقة الجهمية الجبرية فقال بخلقه ، إذ أن الجهمية تنكر الصفات . وذكروا أن بشر بن غياث المريسى – وهو زعيم المريسية من فرق المرجئة – قال أيضا بخلق القرآن فى عصر الرشيد ، ونهاه أبو يوسف عن ذلك فلم ينته ، فهجره وطرده من مجلسه ، وقال : لاتنتهى أو تفسد خشبة (يريد الصلب) ولما بلغ ذلك الرشيد قال : على إن أظفرنى الله به أن أقتله ، وظل بشر مختفيا طول خلافة الرشيد ولم يظفر به مع شدة طلبه له . وذكروا أيضا أن حفصا الفرد – وهو من أكابر المجبرة – قال بذلك القول . وأن الشافعى ناظره وكفره ، وكان الناس فى تلك المسألة فى عصر الرشيد بين أخذ وترك ، حتى ولى المأمون فقال بخلقه وكان من أشد نصراء الاعتزال – انظر سرح العيون ص ٢٠٣ ، ووفيات الأعيان ١ : ٩١ والفرق بين الفرق ص ١٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٣٩ و ٣٤٥ و ٣٤٦ وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٤ و ١١٥ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٧٩ .

يوفِّقَه لعزيمة الرُّشد وصَرِيمَتِه[١] ، والإقساطِ فيما ولَّاه اللهُ من رعيته برحمته ومِنَّته .
وقد عرَفَ أميرُ المؤمنين أن الجُمهور الأعظم ، والسَّواد[٢] الأكبر ، من حَشْو الرَّعية، وسِفْلة العامَّة ، ممن لا نظرَ له ولا رويَّةَ ، ولا استدلالَ له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبُرهانه فى جميع الأقطار والآفاق ، أهلُ جَهالة بالله ، وعَمًى عنه ، وضلالةٍ عن حقيقة دينه وتوحيدِه والإيمان به ، ونُكُوبٍ[٣] عن واضحاتِ أعلامه ، وواجب سبيله ، وقُصُورٍ أنْ يَقْدُروا اللهَ حقَّ قَدْرِه ، ويعرفوه كُنْهَ معرفته ، ويفرِّقوا بينه وبين خَلْقِه ، لضعفِ آرائهم ، ونقصِ عقولهم ، وجَفائهم عن التفكُّر والتذكُّر ، وذلك أنهم ساوَوا بين الله تباركَ وتعالى وبين ما أنْزَل من القرآن ، فأطْبَقوا[٤] مجتمعين ، واتفقوا غيرَ متعاجمين ، على أنه قديمٌ أوَّلٌ ، لم يخلُقه الله ويُحدِثه ويخترعه ، وقد قال الله عزّ وجل فى مُحْكَم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاءً ، وللمؤمنين رحمةً وهدى : « إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عرَبيًّا » فكلُّ ما جعله اللهُ فقد خلقه ، وقال : « الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » ، وقال عز وجل : « كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، فأخبرَ أنه قَصَصٌ لأمورٍ أحْدَثَه بعدها ، وتَلَا به متقدِّمها ، وقال : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » وكل مُحْكَم مُفَصَّل فَلَهُ مُحْكِمٌ مُفَصِّلٌ ، واللهُ مُحْكِم كتابه ومُفَصِّله ، فهو خالقُه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادَلوا بالباطل ، فدَعَوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السُّنَّة ، وفى كل فَصْلٍ من كتاب الله قَصَصٌ من تلاوته ، مُبْطِلٌ قولَهُمْ ، ومُكَذِّبٌ دعواهم ، يَرُدُّ عليهم قولَهم وَنِحْلَتَهم[٥] ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحقِّ والدين والجماعة ،

---

(١) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر . والإقساط : العدل .

(٢) السواد : العدد الكثير وعامة الناس .

(٣) أى عدول .   (٤) أطبق القوم على الأمر : أجمعوا .

(٥) النحلة : الدعوى .

وأن من سواهم أهلُ الباطل والكفر والفُرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغرُّوا به الجُهَّال ، حتى مال قوم من أهل السَّمْتِ[١] الكاذبِ ، والتخشُّع لغير الله ، والتقشُّف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومُواطأتهم على سيِّئ آرائهم ، تزيُّناً بذلك عندهم ، وتصنُّعاً للرِّياسة والعَدالة فيهم ، فتركوا الحقَّ إلى باطلهم ، واتخذوا دُونَ الله وَليجةً[٢] إلى ضلالتهم ، فقُبِلَتْ بتزكيتهم لهم شهادتُهم ، ونفَذَتْ أحكامُ الكتاب بهم على دَغَلِ[٣] دينهم ، ونَغَلِ أديمهم ، وفساد نيَّاتهم ويقينهم ، وكان ذلك غايتَهم التى إليها أجْرَوا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أُخِذ عليهم ميثاقُ الكتابِ - أَلَّا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَصَمَّهُمُ اللهُ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شرُّ الأمة ، ورُءوسُ الضَّلالة ، المنقوصون من التوحيد حظًّا ، والمخسُوسُون[٤] من الإيمان نصيبا ، وأوْعِيَةُ الجهالة، وأعلامُ الكذب، ولسانُ إبليس الناطق فى أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحقُّ مَن يُتَّهَم فى صدقه ، وتُطْرَحُ شهادتُه ، ولا يُوثَق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عملَ إلا بعد يقين ، ولا يقينَ إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاصِ التوحيد ، ومَن عمِيَ عن رشده وحَظّه من الإيمان بالله وبتوحيده ، كان عما سِوَى ذلك من عمله والقَصْدِ فى شهادته أعمى وأضلَّ سبيلا ، ولَعَمْرُ أمير المؤمنين إن أحْجَى[٥] الناسِ بالكذب فى قوله ، وتخرُّصِ الباطلِ فى شهادته ، مَنْ كذَبَ على الله ووَحْيه ، ولم يعرف الله

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير .

(٢) الوليجة : خاصتك ، أو من تتخذه معتمدا عليه من غير أهلك .

(٣) الدغل : الفساد ، ونغل الأديم كفرح : فسد فى الدباغ .

(٤) خس نصيبه : جعله خسيسا دنيئا حقيرا .

(٥) أى أجدرهم ، يقال : هو حجى به كغنى ، وحج كشج ، وحجى كفتى أى جدير ، وتخرص عليه : افترى .

حقيقةَ معرفته ، وَإن أولاهم بردِّ شهادته فى حكم الله ودينه ، مَن رَدَّ شهادةَ الله على كتابه ، وبهَتَ[1] حَقَّ الله بباطله .

فاجْمَعْ مَنْ بحضْرَتك من القُضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فابْدَأْ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآنَ وإحداثِه ، وأَعْلِمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثقٍ فيما قلَّده الله واستحفظَه من أمور رعيته ، بمن لا يُوثق بدينه ، وخلوصِ توحيده ويقينه ، فإذا أقرُّوا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهُدَى والنجاة ، فمُرْهم بنَصِّ[2] مَن يَحْضُرُهم من الشهود على الناس ، ومسألتِهم عن علمهم فى القرآن ؛ وتركِ إثبات شهادة من لم يُقِرَّ أنه مخلوق مُحدَث ولم يرَه ، والامتناعِ من توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أَشْرِف عليهم وتفقَّدْ آثارهم ، حتى لاتنفُذَ أحكامُ الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين ، والإخلاصِ للتوحيد ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله » .

وكُتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

* * *

وكتب المأمون إلى إسحٰق بن إبراهيم فى إشخاص سبعة نَفَر ، فأُشْخِصوا إليه ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا : أن القرآن مخلوق ، فأشخَصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحٰقُ بن إبراهيم دارَه ، فشهَّر أمرَهم وقولَهم ، بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقرّوا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلَّى سبيلهم ، وكان ما فعل من ذلك إسحٰق بن إبراهيم بأمر المأمون .

(كتاب بغداد لابن طيفور ٦ : ٣٣٨ ؛ وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٤)

---

(١) بهته كنفع : قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب .
(٢) نصه : استقصى مسألته عن الشىء .

٣٤٢ — كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحٰق بن إبراهيم :

« أما بعد : فإن مِن حَقِّ الله على خلفائه فى أرضه ، وأُمَنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وَحَمَّلَهُمْ رِعَايَةَ خَلْقِه ، وإمضاء حُكْمه وَسُنَنه ، والائتمامَ بعدله فى بريَّته ، أن يُجْهِدُوا لله أنفسَهم ، وَيَنْصَحوا له فيما استحفظَهم وَقَلَّدهم ، وَيَدُلُّوا عليه تبارك اسمُهُ وتعالى ، بفَضْلِ العِلْمِ الذى أَوْدَعَهم ، والمعرفة التى جَعَلَها فيهم ، وَيَهْدُوا إليه مَن زَاغَ عنهُ ، وَيرُدُّوا مَن أدْبَرَ عن أمره ، وَيَنْهَجوا لرعاياهم سَمْتَ[1] نجاتهم ، وَيَقِفُوهم على حدود إيمانهم ، وَسبيل فوزهم وعِصْمتهم ، ويكْشِفوا لهم عن مُغَطَّياتِ أمورهم وَمشتبِهاتها عليهم ، بما يدفعون الرَّيْبَ عنهم ، ويعود بالضياء وَالبيِّنة على كافَّتهم ، وَأن يُؤْثِروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم ، إذا كان جامعا لِفُنُون مَصَانِعهم ، ومنتظماً لحظوظ عاجِلتهم وآجِلتهم ، ويتذكَّروا ما اللهُ مُرْصِدٌ[2] مِن مُساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتِهم بِمَا أسلفوه وقدَّموا عنده ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله وحْدَه وحَسْبُهُ اللهُ وكفى به .

ومما بيَّنَه أميرُ المؤمنين برَوِيَّته ، وطالَعَه بِفِكره ، فتبيّن عظيمَ خَطَرِه وجليلَ مايرجِع فى الدين مِن وَكَفِه[3] وضَرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثرا من رسول الله وصفِيِّه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهِه على كثير منهم ، حتى حَسُن عندهم وتزَيَّنَ فى عقولهم ، ألاَّ يكون مخلوقا ، فتعرَّضوا بذلك لدفع خلق الله ، الذى بان به عن خَلْقه ، وتفرَّد بجلالته من

(١) السمت : الطريق .

(٢) أرصد له : أعد ، وكافأه بالخير أو بالشر .

(٣) الوكف : العيب والإثم .

ابتداع الأشياء كلّها بحكمته، وإنشائها بقدرته، والتقدُّم عليها بأوّليّته التى لا يُبلغ أولاها، ولا يُدْرَك مَداها، وكان كلُّ شيء دونه خَلقا من خلقه، وحَدَثا هو المُحْدِث له، وإن كان القرآنُ ناطِقا به، ودالّا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وضاهَوْا به قولَ النصارى فى ادّعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كَلِمةَ اللهِ، واللهُ عز وجل يقول: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» وتأويل ذلك «إنا خلقناه» كما قال جل جلاله «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» وقالَ: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ». فسوَّى عزَّ وَجلَّ بين القرآن وبين هذه الخلائق، التى ذَكَرها فى شِيَةِ[1] الصَّنْعة، وأخبرَ أنه جاعلُه، وَحدَه فقال: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ» فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يُحاط إلا بمخلوق، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ» وقال: «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ» وقال: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» وأخبرَ عن قوم ذَمَّهم بكذبهم أنهم قالوا: «مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ» ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى» فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذِكْراً وإيمانا ونُورا وهُدًى ومباركا وعربيًّا وقَصَصا، فقال: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ» وقال: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ» وقال: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ» وقال: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» فجعل له أوّلا وآخِرا، ودل عليه أنه محدود مخلوق.

---

(١) أى فى حسنها، من وشى الثوب كوعد وشيا وشية: أى نقشه وحسنه.

وقد عظَّم هؤلاء الجهلةَ بتولهم فى القرآن ، الثَّلْمَ(١) فى دينهم ، والجرْحَ فى أمانتهم ، وسَهَّلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرَّفوا ووصفوا خَلْقَ الله وفِعْلَه بالصفة التى هى لله وَحْدَه ، وشبَّهوه به ، والأَشْبَاهُ أَوْلَى بِخَلْقِهِ ، وليس يَرَى أميرُ المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حَظًّا فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يَرى أن يُحلَّ أحدا منهم مَحَلَّ الثقة فى أمانة ولا عَدالة ولا شهادة ، ولا صِدْق فى قول ولا حكاية ، ولا توليةٍ لشىء من أمر الرعية ، وإن ظَهرَ قَصْدُ(٢) بعضهم ، وعُرِف بِالسَّداد مُسَدَّدٌ فيهم ، فإن الفروعَ مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومَن كان جاهلا بأمر دينه الذى أَمرَه الله به مِن وحْدانيته فهو بما سواه أعظمُ جهلا ، وعن الرُّشْد فى غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرأْ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحٰق القاضى كتابَ أمير المؤمنين بِمَا كَتَبَ به إليك ، وانْصُصْهما عن علمهما فى القرآن ، وأَعْلِمْهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين إلا بمن وثِق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيدَ لمن لم يُقِرَّ بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقولِ أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقدَّمْ إليهما فى امتحان مَن يَحْضُر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونَصِّهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أَبْطَلاَ شهادته ، ولم يقطعا حُكْما بقوله ، وإن ثَبتَ عَفافُه بالقَصْدِ وَالسَّدَاد فى أمره ، وافْعَلْ ذلك بمن فى سائر عَمَلك من القُضاة ، وأَشْرِف عليهم إشرافا يَزيد اللهُ به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتابَ من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله » .

(كتاب بغداد ٦ : ٣٤٤ ، وتاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٦)

---

(١) أى النقص ، من ثلم الإناء إذا كسر حرفه .

(٢) القصد : الاستقامة .

٣٤٣ - كتاب المأمون إلى إسحق بن إبراهيم

فأحضر إسحق بن إبرهيم جماعةً من الفقهاء والحكام والمحدِّثين ، وقرأ عليهم كتاب المأمون مرتين ، ثم امتحنهم رجلا رجلا ، فتوقفوا عن الإقرار بخلق القرآن ، وكلُّهم يقول : « القرآن كلام الله » ، إلا نفراً منهم ، وكتب مقالاتِهم ووجَّه بها إلى المأمون ، فمكث القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المأمون فى أمرهم ، ونسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد ، فقد بلغَ أميرَ المؤمنين كتابُك — جوابُ كتابِه كان إليك — فيما ذهب إليه مُتَصنِّعَةُ أهلِ القبلة وملتمِسُو الرِّياسة فيما ليسوا له بأهل من أهل المِلَّة ، من القول فى القرآن ، وأمرَك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيفِ أحوالهم ، وإحلالهم مَحالَّهُم ، تذكُرُ إحضارَك جعفرَ بن عيسى وعبدَ الرحمن بن إسحق عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع مَن أحضَرْتَ ممن كان يُنْسَبُ إلى الفقه ، ويُعْرَف بالجلوس للحديث ، ويَنْصِبُ نفسَه لِلفُتْيا بمدينة السلام ، وقراءتَك عليهم جميعاً كتابَ أمير المؤمنين ، ومسألتَك إياهم عن اعتقادهم فى القرآن ، والدِّلالة لهم على حظِّهم وإطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم فى القرآن ، وأَمْرَكَ من لم يقل منهم إنه مخلوق بالإمساك عن الحديث والفَتْوى فى السِّر والعلانية ، وتقدُّمَك إلى السِّنديِّ وعباس مَوْلى أمير المؤمنين بما تقدَّمت به فيهم إلى القاضِيَيْنِ[1] بمثل ما مَثَّل لك أميرُ المؤمنين مِن امتحان مَن يَحْضُر مجالسَهما من الشهود ، وبَثِّ الكتب إلى القُضاة فى النواحِى من عملك بالقدوم عليك ، لِتحْمِلَهم وتمتحِنَهم على ما حَدَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك فى آخر الكتاب أسماءَ مَن حَضَرَ ومقالاتِهم ، وفَهِم أميرُ المؤمنين ما اقتصَصْتَ .

---

(١) يعنى جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق .

وأمير المؤمنين يحمَدُ الله كثيراً كما هو أَهْلُه ، ويسأله أن يصلِّيَ على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويَرْغَب إلى الله فى التوفيق لطاعته ، وحُسْن المَعُونة على صالح نيته برحمته ، وقد تدبَّر أمير المؤمنين ما كتبتَ به من أسماء مَن سألْتَ عن القرآن ، وما رجَعَ إليك فيه كلُّ امرئٍ منهم ، وما شرحتَ من مقالتهم .

فأما ما قال المغرورُ بِشْرُ بن الوليد فى نفى التشبيه ، وما أمسكَ عنه من أن القرآن مخلوق ، وادَّعى من تركه الكلامَ فى ذلك واستعهادِه أميرَ المؤمنين(١) ، فقد كَذَبَ بشرٌ فى ذلك وكفَر ، وقال الزُّورَ والمنكَر ، ولم يكن جرَى بين أمير المؤمنين وبينه فى ذلك ولا فى غيرِه عَهْدٌ ولا نَظَرٌ أكْثَر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقادِه كلمة الإخلاص ، والقول بأن القرآن مخلوق ، فادْعُ به إليك ، وأَعْلِمه ما أَعْلَمك به أمير المؤمنين من ذلك ، وانصُصْه عن قوله فى القرآن ، واستَتِبْهُ منه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تَسْتَتِيبَ مَن قاله بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكُفْرَ الصُّرَاحَ ، والشِّرْكَ المَحْض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب منها فأَشْهِرْ أمرَه وأَمْسِكْ عنه ، وإن أصرَّ على شِركه ، ودَفَع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده ، فاضرِبْ عُنُقه وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وكذلك إبراهيم بن المهدى فامْتَحِنْه بمثل ما تمتحن به بشراً ، فإنه كان يقول بقوله ، وقد بلغَتْ أميرَ المؤمنين عنه بَوالِغُ ، فإن قال إن القرآن مخلوق ، فأَشْهِرْ أمره واكشِفه ، وإلاَّ فاضرب عنقه ، وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

---

(١) وذلك أنه لما امتحنه إسحق بن إبراهيم قال : ما تقول فى القرآن ؟ فقال : قدعرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ، فقال : أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال: الله خالق كل شىء ، قال : ما القرآن شىء ؟ قال : هو شىء ، قال: فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق : قال . ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ما أحسن غير ماقلت لك ، وقد استعهدت أمير المؤمنين أن لا أتكلم فيه ، وليس عندى غيرماقلت لك ، فأخذ إسحق بن إبراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : « أشهد أن لا إله إلاالله أحدا فردا ، لم يكن قبله شىء ولا بعده شىء ولا يشبهه شى من خلقه فى معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه » قال : نعم وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

وأما علىّ بن أبى مُقَاتِل ، فقل له : أَلَسْتَ القائِلَ لأمير المؤمنين إنك تحلِّل وتحرِّم ؟والمكلِّمَ له بمِثل ما كلَّمته به . مما لم يذهب عنه ذِكرُه !

وأما الذَّيَّال بن الْهَيْثَم ، فأَعْلِمْه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرِقه فى الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة[1] أمير المؤمنين أبى العباس ما يَشْغَله ، وأنه لو كانَ مُقْتَفِياً آثارَ سَلَفه ، وسالِكاً مناهِجَهم ، ومحتذِياً سبيلَهم ، لَمَا خرجَ إلى الشِّرك بعد إيمانه .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوَّام وقولُه إنه لا يُحْسن الجوابَ فى القرآن ، فأَعْلِمْه أنه صبىٌّ فى عقله لا فى سِنِّه ، جاهل ، وأنه إن كان لا يُحْسِن الجوابَ فى القرآن فسيُحْسِنُه إذا أخذَه التأديبُ ، ثم إنْ لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

وأما أحمدُ بن حَنْبَل وما تكتُب عنه ، فأَعلِمْه أن أمير المؤمنين قد عرَف فَحْوى[2] تلك المقالة وسَبِيلَه فيها ، واستدلّ عَلَى جَهْله وآفته بها .

وأما الفضلُ بن غانم ، فأَعْلِمْه أنه لم يَخْفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال فى أقلّ من سَنَة ، وما شَجَرَ[3] بينه وبين المطَّلِب بن عبد الله فى ذلك ، فإنه من كان شأنُه شأنَه ، وكانت رغبتُه فى الدينار والدرهم رغبتَه ، فليس بمستنكَرٍ أن يبيع إيمانه طَمَعاً فيهما ، وإيثاراً لعاجِلِ نفعهما ، وأنه مع ذلك القائلُ لعلىّ بن هشام ما قال ، والمخالِف له فيما خالفه فيه ، فما الذى حال به عن ذلك ، ونَقَله إلى غيره ؟

---

(١) هى مدينة الهاشمية ، بناها السفاح بالكوفة .

(٢) فحوى الكلام : معناه .

(٣) شجر الأمر بينهم كنصر : اضطرب وتنازعوا فيه .

وأما الزِّيادىّ(١) فأعلمه أنه كان منتحِلا أوّلاً أوّلَ دَعِىٍّ كان فى الإسلام خُولِفَ فيه حُكْمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جديراً أن يسلك مَسْلَكه ، فأنكر أبو حسَّان أن يكون مَولًى لزياد ، أو يكون مولًى لأحد من الناس (وذكر أنه إنما نُسِب إلى زياد لأمر من الأمور) .

وأما المعروف بأبى نصر التَّمَّار ، فإن أمير المؤمنين شَبَّه خَساسَةَ عقله بخساسة مَتْجَره .

وأما الفضل بن الفَرُّخَان ، فأَعْلِمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أَخْذَ الودائع التى أودَعَها إياه عبدُ الرحمن بن إسحق وغيره تربُّصًا(٢) بمن استودَعَه وطمعاً فى الاستكثار لِمَا صار فى يده ، ولاسبيلَ عليه عن تقادُم عهده ، وتطاوُلِ الأيام به ، فَقُلْ لعبد الرحمن بن إسحق لا جَزاكَ الله خيراً عن تقويتك مِثل هذا وإيمانك ، إياه ، وهو معتقِدٌ للشِّرك ، مُنْسَلِخ من التوحيد .

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى مَعْمَر ، فأَعْلِمهم أنهم مشاغيلُ بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد ، وأن أميرالمؤمنين لو لم يستحلّ محاربتَهم فى الله ومجاهَدتَهم إلا لإربائهم وما نزل به كتابُ الله فى أمثالهم ، لاستَحَلّ ذلك ، فكيف بهم وقد جَمَعوا مع الإرباء شِركا ، وصاروا للنصارى مِثْلاً .

وأما أحمدُ بن شُجاع ، فَأَعْلِمْه أنك صاحِبُه بالأمس ، والمستخرِجُ منه ما استخرجْته من المال الذى كان استحلّه من مال علىّ بن هشام ، وأنه مِمَّن الدينارُ والدرهمُ دِينُه .

وأما سَعْدَوَيْهِ الواسِطىّ ، فقل له : قَبَّح اللهُ رجلا بلغ به التصنُّع للحديث ، والتزيُّن به ، وَالحِرص على طلب الرِّياسة فيه ، أن يتمَنَّى وقتَ المِحْنة . فيقول بالتقرب بها متى يُمْتَحَن فيجلس للحديث .

(١) هو أبو حسان الزيادى . وانتحله : ادعاه لنفسه وهو لغيره . والدعى : المتهم فى نسبه المنسوب إلى غير أبيه ، والمراد : زياد ابن أبيه .

(٢) أى انتظارا .

وأما المعروف بِسَجَّادة وإنكارُه أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القولَ بأن القرآن مخلوق، فأَعْلِمه أنه فى شُغْلِه بإعدادِ النَّوَى وحَكِّه لإصلاح سجادته، وبالودائع التى دَفَعَهَا إليه علىّ بن يحيى وغيرُه ما أذْهله عن التوحيد وألهاه، ثم سَلْهُ عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهَدَهما وجالَسَهما.

وأما القواريرىُّ، ففيما تكشَّفَ من أحواله وقَبُولِه الرُّشاَ والمُصانَعاتِ، ما أبان عن مذهبه وسُوءِ طريقته، وسَخافة عقله ودينه، وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولَّى لجعفر بن عيسى الحَسَنىِّ مسائِلَه، فتقدَّمْ إلى جعفر بن عيسى فى رَفْضِهِ وتَرْكِ الثقة به والاستنامَةِ(١) إليْهِ.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العُمَرى، فإن كان من ولد عُمَر بن الخطاب فجوابه معروف.

وأما محمد بن الحسن بن علىّ بن عاصم، فإنه لو كان مقتدياً بمن مضى مِن سَلَفه، لم ينتحِل النِّحْلَةَ التى حَكَيْتَ عنه، وإنه بعدُ صبىٌّ يحتاج إلى تعلّم.

وقد كانَ أمير المؤمنين وجّه إليك المعروفَ بأبى مُسْهِرٍ بعد أن نَصَّهُ أمير المؤمنين عن مِحْنته فى القرآن، فجَمْجَم(٢) عنها ولَجْلَجَ فيها، حتى دعا له أميرُ المؤمنين بالسيف، فأقَرَّ ذميما، فانْصُصْهُ عن إقراره، فإن كان مقيما عليه فَأَشْهِرْ ذلك وأَظْهِرْه إن شاء الله.

ومن لم يرجعْ عن شِرْكه — ممن سَمَّيْتَ لأمير المؤمنين فى كتابك، وذَكَرَه أمير المؤمنين لك، أو أمسكَ عن ذكره فى كتابه هذا — ولم يقل إن القرآن مخلوق،

---

(١) استنام إليه: سكن واطمأن.
(٢) الجمجمة. أن لا يبين كلامه، كالتجمجم.

بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدى ، فاحملهم أجمعين مُوثَقِينَ إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم فى طريقهم ، حتى يؤدِّيَهم إلى عسكر أمير المؤمنين ويسلِّمَهم إلى من يُؤْمَن بتسليمهم إليه ، لِيَنُصَّهم أميرُ المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا ، حَمَلَهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

وقد أنفذ أميرُ المؤمنين كتابه هذا فى خَرِيطة بُنْدارِيَّة[1] ، ولم يُنْظِر به اجتماعَ الكتبِ الخرائِطِيَّة ، مُعَجِّلاً به ، تقرُّباً إلى الله عزّ وجلّ بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمدَ ، وإدراكَ ما أمَّل من جزيلِ ثوابِ الله عليه ، فأَنفِذْ لما أتاك من أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بُنْدارية مُفْرَدة عن سائر الخرائط ، لتُعَرِّف أمير المؤمنين ما يَعملونه إن شاء الله[2] » .

وكتب سنة ٢١٨ هـ . (تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٨٩)

---

(١) الخريطة . وعاء من أدم وغيره يشد على مافيه ، وبندارية نسبة إلى بندار ، وقد تقدم أنه التاجر الذى يخزن البضائع للغلاء — فهو كثير المال — والظاهر أن الخريطة البندارية كانت تمتاز عن سائر الخرائط ، بمتانة صنعها وإحكامها واتساعها لمقدار من النقود كبير ، وأنظره : أخره .

(٢) فأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم إلى أن القرآن مخلوق إلا أربعة نفر ، وهم : أحمد ابن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح ، فأمر بهم إسحق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم ، فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم يرجعا ، فشدا جميعا فى الحديد ، ووجها إلى طرسوس « بفتح الطاء والراء : مدينة ببلاد الروم (الأناضول) بينها وبين أذنة (أطنة) ستة فراسخ ، وكان المأمون قد خرج إليها غازيا فأدركته منيته بها ، وفيها قبره » ومات ابن نوح فى طريقه إليها .

واتفق أن مات المأمون قبل وصول ابن حنبل إليه (سنة ٢١٨ هـ) وعهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، واستمر الإمام أحمد محبوسا إلى أن امتحنه المعتصم .

واستتماما للفائدة نسوق إليك بقية الخبر فى هذه المسألة فنقول : أحضر المعتصم الإمام أحمد ، وعقد له مجلسا للمناظرة ، وفيه عبد الرحمن بن إسحق والقاضى أحمد بن أبى دواد وغيرهما ، فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم فى جدال إلى اليوم الرابع ، فأمر المعتصم بضربه بالسياط ، ولم يحل عن رأيه إلى أن أغمى عليه ، ونخسه عجيف بن عنبسة بالسيف ، ورمى عليه بارية (وهى الحصير المنسوج) وديس عليه ثم حمل إلى منزله بعد أن ضرب ثمانية وثلاثين سوطا ، وكانت مدة مكثه فى السجن ثمانية وعشرين شهرا .

. . . .

ذكروا أنه لما نوظر فى الأيام الثلاثة كان المعتصم يخلو به ويقول له : ويحك يأحمد ! أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على ابنى هرون « يعنى الواثق » فأجبنى ، فوالله لئن أجبتنى لأطلقن غلك بيدى ، و لأطأن عتبتك ، ولأركبن إليك بجندى ، فيقول : ياأمير المؤمنين أعطونى شيئا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا طال به المجلس ضجر وقام ، ورد أحمد إلى الموضع الذى كان فيه ، وتتردد إليه رسل المعتصم يقولون : يأحمد أمير المؤمنين يقول لك : ماتقول فى القرآن ؟ فيرد عليهم كما رد أولا . فلما كان فى اليوم الثالث طلب للمناظرة فأدخل على المعتصم وعنده وزيره محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، فقال المعتصم : كلموه وناظروه ، فلم يزالوا معه فى جدال إلى أن قالوا : يا أمير المؤمنين اقتله ودمه فى أعناقنا . فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الإمام أحمد فخر مغشيا عليه ، فتمعرت وجوه قواد خراسان — وكان عم أحمد فيهم — فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه ، فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه . وقال ياعم لعل هذا الماء الذى رش على وجهى غصب عليه صاحبه ، فقال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجم به على هذا وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم! لارفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق، ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول، فرد أحمد كالأول ، فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس ، فعند ذلك قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعت فيك قبل هذا ، خذوه ، اخلعوه ، اسحبوه فأخذ وسحب ثم خلع ، ثم قال المعتصم : السياط . قال الإمام أحمد : وكان عندى شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم قد صررتها فى كم قبصى ، فجاء بعض القوم إلى قبصى ليحرقه ، فقال المعتصم: لا تحرقوه وانزعوه عنه وإنما درىء عن القميص الحرق ببركة شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، وشدوا يديه فتخلعتا — ولم يزل أحمد يتوجع منهما حتى مات — ثم قال المعتصم للجلادين : تقدموا ، ونظر إلى السياط فقال : ايتوا بغيرها ، ثم قال لأحدهم : أذمه (أى أسل دمه . من ذم أنفه وذن إذا سال) وأوجع ، قطع الله يدك ، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ، ثم قال لآخر : أذمه وشد ، قطع الله يدك ، فتقدم وضربه سوطين ثم تنحى ، ولم يزل يدعو رجلا رجلا فيضربه كل واحد سوطين ويتنحى ، ثم قام المعتصم وجاءه وهم محدقون به ، وقال : يأحمد تقتل نفسك ! أجبنى حتى أطلق غلك بيدى ، وجعل بعضهم يقول له : يأحمد ، إمامك على رأسك قائم فأجبه ، وعجيف ينخسه بالسيف ويقول : أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ وبعضهم يقول : يأمير المؤمنين اجعل دمه فى عنقى ، فرجع المعتصم إلى الكرسى ، ثم قال للجلاذ : أذمه ، قطع الله يدك ، ثم جاء المعتصم إليه ثانيا وقال : يأحمد أجبنى ، فقال كالأول . فرجع المعتصم وجلس على الكرسى ، ثم قال للجلاد : شد عليه ، قطع الله يدك ، قال أحمد : فذهب عقلى ، فما عقلت إلا وأنا فى حجرة مطلق عنى ، كل ذلك وهو صائم لم يفطر ، وكان ذلك فى العشر الأخيرة من رمضان سنة ٢٢٠ هـ ، ثم وجه المعتصم رجلا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه ، فنظر إليه وقال : والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط ، فما رأيت أشد ضربا من هذا ثم عالجه ، وبقى أثر الضرب بينا فى ظهره إلى أن مات (سنة ٢٤١ هـ) — انظر تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٢ وتبيين كذب المفترى ص ٣٤٩ ، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٥ — ١١٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٤٨ .

ولم يزل ابن حنبل بعد ضربه يحضر الجمعة والجماعات ويفتى ويحدث إلى أن مات المعتصم (سنة ٢٢٧ هـ) ، وولى الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة ، وقال للإمام أحمد : لاتجمعن إليك أحدا ، ولا تساكنى فى بلد أنا فيه ، فأقام الإمام أحمد مختفيا لايخرج إلى صلاة ولاغيرها =

. . . .

حتى مات الواثق (سنة ٢٣٢ هـ) وولى المتوكل ، فكتب إلى الآفاق برفع المحنة ، ومنع الناس من المناظرات فى الآراء والمذاهب ، وقرب منه أهل السنة ، وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه ، وأطلق له مالا كثيرا فلم يقبله ، وفرقه على الفقراء والمساكين ، وأجرى على أهله وولده فى كل شهر أربعة آلاف درهم فلم يرض بذلك ، ولم يحفل المتوكل بالمعتزلة فخمدت نارهم ، وتضاءل أمرهم — انظر حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٥ ، ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٩ .

وممن عضته هذه المحنة بأنيابها فى عهد الواثق أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى المصرى صاحب الإمام الشافعى ، دعى إلى القول بخلق القرآن ، فامتنع منه ، فحمل من مصر إلى العراق مقيدا حتى مات فى أقياده محبوسا صابرا على ما أصابه من الأذى ، وكان مقيدا إلى أنصاف ساقيه ؛ مغلولة يداه إلى عنقه، قال الربيع بن سليمان : رأيت البويطى على بغل فى عنقه غل وفى رجليه قيد ، وبين الغل والقيد سلسلة من حديد فيها طوبة وزنها أربعون رطلا ، وهو يقول : إنما خلق الله سبحانه وتعالى الخلق « بكن » فإذا كانت « كن » مخلوقة فكأن مخلوقا خلق مخلوقا ، فوالله لأموتن فى حديدى حتى يأتى من بعدى قوم يعلمون أنه مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم ، ولئن أدخلت عليه لأصدقنه — يعنى الواثق — وقال الربيع أيضا : كتب إلى أبو يعقوب من السجن : إنه ليأتى على أوقات لا أحس بالحديد إنه على بدنى حتى تمسه يدى، وتوفى سنة ٢٣١ هـ فى القيد والسجن ببغداد — انظر تبيين كذب المفترى ص ٣٤٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٣٤٧ .

ومنهم نعيم بن حماد ، وقد مات فى سجن الواثق مقيدا أيضا — انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٥ : ص ١٧٧ .

ومنهم أحمد بن نصر الخزاعى قتله الواثق وصلبه سنة ٢٣١ هـ ذكروا أن ثمامة بن أشرس سعى به إلى الواثق ، وذكر له أنه يكفر من يقول بخلق القرآن ، ومن ينكر رؤية الله تعالى يوم القيامة فأحضره الواثق وقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أفمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال: أفترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرواية ، فقال : ويحك ؟ يرى كما يرى المحدود المتجسم، يحويه مكان ، ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته ، ماتقولون فيه ؟ فقال عبد الرحمن ابن إسحق — وكان قاضيا على الجانب الغربى ببغداد فعزل — هو حلال الدم ، وقال جماعة من الفقهاء كما قال ، فأظهر ابن أبى دؤاد أنه كاره لقتله . فقال للواثق : يا أمير المؤمنين ، شيخ مختل ، لعل به عاهة أو تغير عقل ، يؤخر أمره ، فقال الواثق : ما أراه إلا مؤديا لكفره ، ودعا الواثق بالصمصامة ، وقال : إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى ، فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا لا نعبده ، ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ، ثم أمر بالنطع فأجلس عليه وهو مقيد ، وأمر بشد رأسه بحبل ، وأمرهم أن يمدوه ، ومشى إليه حتى ضرب عنقه ، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد ، فنصب فى الجانب الشرقى أياما ، وفى الجانب الغربى أياما ، وتتبع رؤساء أصحابه فوضعوا فى الحبوس ، ولم يزل رأسه منصوبا ببغداد ، وجسده بسر من رأى ست سنين إلى أن حط وجمع بين رأسه وبدنه — انظر الفرق بين الفرق ص ١٥٩ ، وتاريخ بغداد ج٥ ص ١٧٣ — ١٨٠ ، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ١ : ١١٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٦٣ .

٣٤٤ — كتاب منصور بن محمد إلى المريسى

وكتب المَريسىُّ[1] إلى أبى يحيى منصور بن محمد ، اكتُبْ : القرآنُ خالق أو مخلوق ؟ فكتب إليه :

« عافانا اللهُ وإياك من كل فِتْنَةٍ ، وجَعَلَنا وإياكَ من أهل السُّنَّة ، وممن لا يَرْغَبُ بنفسه عن الجماعة ، فإنه إن يفعل فأعظِمْ بِها مِنَّةً ، وإن لايفعل فهى الهَلَكَةُ ، ونحن نقول :

إن الكلام فى القرآن بدْعَة ، يتكاف المُجِيبُ ما ليس عليه ، ويتعاطَى السائلُ ما ليس له ، وما نعلَمَ خالقاً إلا الله ، وما سوى الله فمخلوقٌ ، والقرآن كلامُ الله ، فانتَهِ بنفسك إلى أسمائه التى سَمَّاهُ الله بها ، فتكونَ من المهتدين ، ولا تَسِمِ القرآن باسْمٍ من عندك ، فتكونَ من الضالِّين ، جعلَنا الله وإياكَ من الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغَيْبِ ، وهم من السَّاعَةِ مُشْفِقُون » . (العقد الفريد ١ : ٢٦٧)

٣٤٥ — كتاب راشد الكاتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات

وحَجّ محمد بن عبد الملك الزيات[2] فى آخر أيام المأمون ، فلما قَدِم كتب إليه راشد الكاتب :

« لا تَنْسَ عهدى ولا مودَّتِيَهْ وأشْتَقْ إلى طَلْعَتى ورُؤْيَتيهْ

فإن تجاوزْتَ ما أقولُ إلى الـ ـعَصْبِ فذاكَ المأمولُ منك لِيَهْ[3] »

(الأغانى ٢٠ : ٥١)

---

(١) هو بشر بن غياث المريسى ، وقد تقدم لك ذكره ، وتوفى سنة ٢١٨ هـ — انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٩١ .

(٢) وزر للمعتصم والواثق والمتوكل ، وتوفى سنة ٢٣٣ هـ — انظر ترجمته فى الأغانى ٢٠ : ٤٦ ووفيات الأعيان ٢ : ٥٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢ : ٣٤٢ ، والفخرى ص ٢١٣ ، والفهرست لابن النديم ص ١٧٧ ، وتاريخ الطبرى ١١ : ٢٧ ، وغرر الخصائص الواضحة ١٤٣ و ص ٤١١ .

(٣) العصب : ضرب من برود اليمن .

٣٤٦ — رد ابن الزيات عليه

فأجابه محمد بن عبد الملك :

إنك مِنّى بحيثُ يطَّرِدُ النـــاظِرُ من تحت ماءِ دَمْعَتِيَهْ
ولا ، وَمَنْ زادنى توَدُّدُهُ على صِحابى بفَضْــل غَيْبَتِيَه[1]
ما أحْسَنَ التَّرْكَ والخلافَ لِمَا تُرِيدُ منى وما تقولُ لِيَهْ
يا بِأَبِى أنت ، ما نَسِيتُكَ فى يومِ دُعائى ولا هدِيَّتِيَهْ
ناجيتُ بالذِّكرِ والدعاءِ ، لكَ الـــه لكَ آللهُ رافعاً يديَهْ
حتى إذا ما ظننتُ بالمَلِكِ الـــقادر أنْ قد أجاب دعوَتيه
قمتُ إلى موضِـع النِّعال ، وقد أقمتُ عشرين صاحباً مَعِيَهْ
وقلت : لى صاحِبٌ أُريدُ له نَعْلا ، ولو من جُلود راحَتِيهْ
فانقطع القولُ عنــد واحدةٍ قال الذى اختارها : بِشارَتِيَهْ
فقلت : عندى لك البشارةُ والشـــكرُ وقُلاًّ فى جَنْب حاجتِيهْ[2]
ثم تخيَّرتُ بعــد ذاكَ من الـــعَصْب اليمانِى بفَضْلِ خِبْرَتِيَهْ
مَوْشِــيَّةً ، لم أزَل ببائعها أُرْغِبُ حتى زها علىَّ بِيَهْ[3]
يرفَعُ فى سَـــوْمه وأُرْغِبُهُ حتى التَقَى زَهْوُه ورغبتِيـه[4]
وقد أتاكَ الذى أمَرْتَ به فاعذِرْ بكُثْرِ الإنعام قُنْيَتِيَهْ[5]
(الأغانى ٢٠ : ٥١)

---

(١) الواو فى « ومن » للقسم .
(٢) القل : القليل .
(٣) وشى الثوب كوعى : نمنمه ونقشه وحسنه ، والزهو . الـكبر والتيه .
(٤) فى الأصل « زهده » وهو تحريف .
(٥) القنية بالـكسر والضم : ماا كتسب .

٣٤٧ — كتاب المأمون إلى عماله

وفى سنة ٢١٨ هـ نَفَذَت كتب المأمون إلى عُمّاله فى البلدان :

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، وأخيه الخليفة من بعده أبى إسحٰق[1] ابن أمير المؤمنين الرشيد » .

فورد كتاب إلى إسحٰق بن يحيى بن مُعاذ عامله على جُند دمشق عنوانه :

« من عبد الله عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين ، والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبى إسحٰق ابن أمير المؤمنين الرشيد .

أما بعدُ فإن أمير المؤمنين أمَر بالكتاب إليك فى التقدُّم إلى عُمَّالك : فى حُسْن السِّيرة ، وتخفيف المُؤنة ، وكفِّ الأذى عن أهل عَملك ، فتقدَّمْ إلى عمالك فى ذلك أشَدَّ التقدِمَة ، واكتب إلى عُمَّال الخَراج بمثل ذلك » .

وكتب إلى جميع عماله فى أجناد الشأم، جند حِمْص والأُرْدُنّ وفِلَسْطين بمثل ذلك .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٢٩٣)

---

(١) هو الملقب بالمعتصم .

تم الجزء الثالث بحمد الله وتوفيقه

ويليــه

الجزء الرابع

وأوله الشطر الثانى

من رسائل العصر العباسى الأول

فهـــرس

الجزء الثالث

من جمهرة رسائل العرب

الباب الرابع

الرسائل فى العصر العباسى الأول

فهرس أعلام الكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التي وردت فيها رسائله

فهـــرس

بعض ماورد فى الهامش من الفوائد التى قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها